الحرب والسلم

ليو تولستوي

المجلد الثاني

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذة العصور الحديثة

المجلد الثاني

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الحرب والسلم ـ المجلد الثاني
المؤلف: ليُو تولستوي
المترجم: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-238-3

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

الجزء السادس

الفصل الأول

في العام ١٨٠٨ انتقل الأمبراطور ألكسندر إلى إيرفورت[١] حيث جرت مقابلة جليلة رائعة مع الأمبراطور ناپليون، استمرت حديث المنتديات الراقية زمناً طويلاً في پيترسبورغ.

تفاهم سيدَي العالم في عام ١٨٠٩ كما كانوا يسمونهما، ذروة المنتهى. كان ناپليون في تلك السنة قد أعلن الحرب على النمسا، فتوجه جيش روسي عبر الحدود للتعاون مع العدو القديم بوناپرت ضد الحليف القديم: أمبراطور النمسا. هناك إشاعة راجت في الأوساط الخاصة العليا حول توقع زواج ناپليون بإحدى أخوات الأمبراطور ألكسندر. إلى جانب كل هذه الأحداث في السياسة الخارجية، فإن التبديلات التي أحدثت في كل أجزاء الجهاز الحكومي شغلت المجتمعات الروسية كلها.

وبقيت الحياة اليومية بكل خصائصها الجوهرية من صحة ومرض وعمل وبطالة، ومقومات أخرى من أفكار وعلم وشعر وموسيقى وحب وصدامة وحقد ورغبات، ظلت تسير على نهجها السابق باستقلال تام، بعيدة عن متناول التبديلات الجارية وتعاقب علاقات الروس بناپليون.

بقي الأمير أندريه في الريف طوال عامين كاملين.

استطاع إدخال كل الإصلاحات التي جدّدها پيار في ممتلكاته، التي

(١) مدينة في مقاطعة الساكس تقابل فيها ناپليون مع أمبراطور روسيا وانتهت بمعاهدة في مصلحة فرنسا، بحضور عدد من ملوك أوروبا.

لم تصل إحداها إلى نهايتها المرضية لأنه كان يتنقل دون توقف من واحدة إلى أخرى، دون أن يبدو عليه شيء من العناء. ذلك أنه كان يمتلك ثباتاً عملياً وجزماً، يستطيعان أن يبلغاه ما يشتهي دون عناء، على عكس صاحبه پيار.

وهو من أوائل الروس الذين سجلوا أسماء فلاحيهم العبيد في عداد «الزراع الأحرار»، عندما منح هذه الصفة لثلاثمائة عبد من فلاحيه في إحدى مقاطعاته. أما في أراضيه الأخرى، فقد استبدل أعمال السخرة بالأعمال المأجورة. وأقام على نفقته في بوجو تشارڤو، راهباً يتقاضى منه الأجر، مهمته تعليم أولاد الفلاحين والخدم.

كان يقضي نصف وقته في ليسيياغوري مع أبيه وابنه الذي لا يزال بين أيدي المربيات والخادمات، والنصف الآخر في صومعته في بوغوتشاروڤ كما كان يدعوها الأمير العجوز. وعلى الرغم مما أظهره من لا مبالاة حيال أحداث العالم أمام پيار، فقد كان يتتبع كل الوقائع بانتباه ويستحصل على كتب عديدة. حتى إنه كان يلاحظ بمزيد من الدهشة إثر عودته من زيارته لپيتروسبورغ، وهي محور حياة البلاد، أن أولئك السكان الأدعياء يعرفون عن سياق السياسة الداخلية والخارجية أقل مما يعرفه هو، رغم أنه لم يكن يغادر منزله في الريف. وكانت إدارة أملاكه ومطالعاته الكتب المختلفة متباينة الأهداف، لا تستنفد كل وقته. وبذلك كان يستغرق في معاينة حملتي الجيش الروسي، معاينة الناقد المتجرد، بكل ما فيها من بؤس وتعاسة، ويضع أسساً تنظيمية جديدة لقوانين روسيا العسكرية.

ذهب أندريه لزيارة أملاكه في رازان في ربيع عام ١٨٠٩ وهي أملاك تخص ابنه الذي نصب نفسه بحق وصياً عليه. كان مستلقياً في عربته معرضاً جسده لأشعة شمس الربيع، يتأمل العشب الطري وأوراق السندر الأولى،

والغيوم البيضاء التي كانت ترسم في زرقة السماء الصافية أشكالاً تشبه قطعان الغنم. لم يكن يفكر في شيء معين بل كانت نظراته تشمل كل شيء.

اجتاز الطوف الذي وقف عليه في العام الماضي يتحدث مع پيار. وتخطت عربته قرية صغيرة وعدداً من البيادر ثم أكواماً من قمح الشتاء في حشائشه، وانحدر على رابية حيث ظل على جوانبها طيف من ركام الثلج قرب جسر هناك لم يتبدد بعد، ثم تسلقت العربة مرتفعاً طينياً وسارت على طول أكواخ متناثرة هنا وهناك تتخللها شجيرات مخضرة الأغصان وأخيراً دخلت في حرج من أشجار السندر.

كان الجو في الغابة حاراً، لا ترتفع فيها نسمة هواء. فكان السندر، تزينه أوراق خضراء ندية، جامداً لا يتحرك. ومن خلال بساط أوراق السنة السابقة، أطلت الأعشاب الجديدة الأولى مخضرة تحمل في رؤوسها زهوراً بنفسجية صغيرة. وهنا وهناك ترى بعض أشجار هزيلة من الصنوبر خلال أشجار السندر، تذكر بفصل الشتاء القاسي، بزرقتها الدائمة. وثارت الخيول عند دخولها الغابة وازداد تعرقها غزارة.

قال پيار، الوصيف العجوز، شيئاً للسائق الذي رد عليه إيجاباً. فلم يكتب بذلك الجواب بل استدار في مقعده وقال لسيده وعلى شفتيه ابتسامة احترام: كم الطقس جميل يا صاحب السعادة!

ـ ماذا تقول؟

ـ الطقس جميل يا صاحب السعادة.

فكر الأمير في سره: «ماذا يقول هذا؟ آه! نعم. الربيع!.... صحيح، كل شيء أصبح مخضراً... السندر والقراصياء... وها هي أشجار الحور قد بسقت... ولكن ليس من شجر سنديان... آه! بل ها هي ذي واحدة».

انتصبت سنديانة عتيقة، على جانب الطريق. لا شك أنها تفوق في قدمها

أشجار السندر بعشر مرات، فكانت لذلك أضخم منها بعشرة أضعاف وأعلى منها ارتفاعاً بمثل هذه النسبة. كانت سنديانة ضخمة لا تحيط بها أربع أذرع، ذات أغصان محطمة من عهد قديم ممتلئة بالنتوءات والتصدعات. كانت أذرعها الرحبة المعقدة الممدودة في غير تناسق، تغطيها وهي في مكانها بين أشجار السندر الشابة، مظهر عجوز غاصب مكروه. كانت وحدها ترفض الاستسلام لفتنة العام الجديد وتأبى رؤية الربيع والشمس.

تلك السنديانة كانت تقول: «الربيع، الحب، السعادة! ألا تأنفون من هذا السخف الأبدي؟ ألا ترون أن كل هذا ليس إلا حماقة وسخفاً؟ لا يوجد لا ربيع ولا شمس ولا سعادة انظروا إلى هذه الصنوبرات، إنها ميتة، مختنقة، متشابهة دائماً. وانظروا إليّ أنا، لقد حاولت طاقتي أن أمد أذرعي الملتوية المحطمة، فخرجت من ظهري وخاصرتي ومن كل مكان شاءت أن تخرج منه. بينما أنا هنا، لا أستطيع حراكاً. فلست أؤمن بآمالكم وأكاذيبكم».

بقي الأمير أندريه يلتفت من حين إلى آخر ليتأمل السنديانة بينما كانت عربته تتوغل في طريق الغابة. كان يلتفت إليها وكأنه ينتظروقوع شيء ما. كان في ظلها حقل امتزج فيه العشب بالأزاهير بينما ظلت هي، هي الوحش الجبار، تنصب بعناد قامتها الهائلة الشرسة.

فكر أندريه: «أجل، إن لهذه السنديانة الحق كل الحق. كم من الآخرين، الشباب، يستسلمون لهذه المخاتلة. أما نحن، فنعرف كيف نتصرف: لقد انتهت حياتنا، انتهت تماماً»!

أحدثت رؤية تلك الشجرة انبثاق أفكار جديدة، أفكار يائسة ولكن ملؤها الفتنة. أخضع أسلوبه في الحياة خلال هذه المرحلة، لدراسة عميقة مثمرة، انتهت به مجدداً إلى هذه النتيجة المؤلمة ولكن المسكنة: لا ينبغي له البدء بشيء جديد بل إنها حياته بكل وداعة دون أن يسيء إلى أحد أو يتطلع إلى شيء ودون أن ينكد عيشه.

الفصل الثاني

اضطر أندريه لأعمال تتعلق بوصاية على أملاك ريازان، لرؤية الكونت روستوف، فذهب لرؤيته حوالى نصف الشهر من أيار وهو بدء فصل القيظ. اكتست الغابات حينذاك بالأوراق وانبعث الغبار، واشتد الهجير حتى أن المرء يود الاستحمام في أول بركة ماء يمر بها مهما بلغت ضآلة مياهها.

اجتاز أندريه الممشى الرئيسي في حديقة «أوترادنواي» لبيت روستوف الصيفي، وهو عابس مشغول الفكر بسبب ألوف الأشياء التي كان عليه بحثها مع رئيس النبلاء، حينما سمع وقع أصوات جذلة آتية من جهة اليمين. وخرجت مجموعة من الفتيات من الدغل وقطعت الطريق على العربة، تقودها سمراء ذات عينين سوداوين، رشيقة، ترتدي ثوباً من القماش الهندي الأصفر وتعصب رأسها بمنديل أبيض أفلتت منه خصلات مشعثة من شعرها. صاحت الصبية تقول للأمير، لكنها هربت وهي تنفجر ضاحكة عندما تبينت أنها إزاء غريب لا تعرفه.

فجأة، شعر الأمير أندريه ببعض الامتعاض. كان الطقس شديد البهاء والشمس عنيفة الحرارة والعالم كله مبتهج وهذه النبتة اللطيفة لا تعترف ولا تريد الاعتراف بوجوده هو، أندريه! كانت راضية عن وجودها هي، خرقاء ولا شك غير مبالية، أخذ يتساءل بإلحاح: «ما الذي يجعلها على مثل هذه الحالة من صفو المزاج؟ في أي شيء تفكر إذن؟ لا شك أن تفكيرها لا ينصرف إلى

التماثيل الحربية ولا إلى تأجير الأراضي لفلاحي ريازان. بماذا تفكر؟ وما الذي يجعلها سعيدة إلى هذا الحدّ»؟

في عام ١٨٠٩، كان الكونت إيليا أندرييـڤيتش يعيش في أوترادنواي مثل الحياة التي عاشها من قبل، أي إنه كان يشبع المقاطعة كلها تقريباً بطرائد صيده وبالحفلات والولائم والموسيقى، فكانت كل زيارة جديدة يقوم بها بعضهم لبيته تفتنه. فقد استقبل الأمير أندريه استقبالاً ملؤه الحفاوة واستبقاه لقضاء الليل عنده.

ذلك المساء، لم يستطع أندريه النوم وعندما أوى إلى تلك الغرفة، التي جعلت مصاريع نوافذها الداخلية الحرارة فيها لا تطاق. بقي وحيداً يطالع كتاباً ثم انطفأت الشمعة. عاد فأضاءها مرغماً وهو يشتم ذلك الأحمق العجوز، بذلك كان يسمى روستوف، الذي استبقاه بحجة أن الأوراق الضرورية لم تصل بعد من المدينة. فشعر بالنقمة على نفسه لأنه قبل الدعوة.

نهض ليفتح النافذة. ولم يكد يوارب مغاليقها حتى تسلل القمر إلى الغرفة وكأنه كان ينتظر هذه الإشارة منذ فترة طويلة. فتحها على مصراعيها. كان الليل رطيباً مشعاً. امتد قبالته تماماً، صفّ الأشجار من النبت الكثيف الندي، برزت على سطحه هنا وهناك أوراق فضية. ومن وراء الأشجار المعتمة، يشاهد سقف يلتمع بالندى وأبعد منه إلى اليمين ـ شجرة كثيفة الأغصان ذات جذع وأغصان بيضاء ناصعة ومن فوقها القمر يتجلى في سماء ربيعية نادرة النجوم. اتكأ أندريه على النافذة وشخص بعينيه إلى السماء.

كانت غرفته في الطبقة الأولى وسكان الشقة التي في الطبقة العليا لم يذهبوا بعد إلى مضاجعهم بدلالة الأصوات النسائية التي كانت منبعثة من فوقه.

سمع أندريه صوتاً عرفه فوراً يقول:

ـ مرة أخرى، لا غير مرة.

فأجاب صوت آخر: لقد حان وقت النوم هيا.

ـ كلا لن أنام. لا أستطيع. إنها ليست خطيئتي... هيا، مرة أخيرة.

ورتل الصوتان جملة موسيقية كانت نهاية مقطوعة.

ـ آه! كم هي جميلة!... حسناً، والآن انتهينا! فإلى النوم.

ـ نامي إذا شئت. أما أنا فلا أستطيع.

لقد اقتربت صاحبة الجملة الأخيرة بدون شك، من النافذة ولعلها كذلك أطلت منها وانحنت إلى الخارج لأن حفيف ثوبها طرق أذن أندريه حتى صوت تنفسها أيضاً. بدا القمر وضياؤه والظلال وكل شيء غارقاً في الصمت. حتى أندريه نفسه، أصبح يخاف أن يفضح وجوده حركة تصدر عنه.

صاح الصوت الأول:

ـ سونيا، سونيا. يا للعجب، كيف يحلو النوم! انظري ما أبهى الجو آه! كم هو جميل!... لكن استيقظي، هيا.

وأصبح الصوت متوسلاً وكأنه مشفوع بالدموع: لم يسبق قط أن شوهدت ليلة بمثل هذا البهاء!

غمغمت سونيا ببضع كلمات مبهمة: أنظري قليلاً، يا للبدر!... آه! كم هو رائع!... تعالي هنا، تعالي انظري... حسناً، ماذا ترتئين؟... إن هذا يهيب بالمرء أن ينطوي على نفسه هكذا وأن يمسك بأسفل ركبتيه ويشد ويضغط بعنف شديد، كأعنف ما يستطيع، وأن يحلق ويطير... انظري، هكذا...

ـ كفاك، هيا... سوف تسقطين...

وسُمعت جلبة تشبه العراك ثم صوت سونيا المتذمر يقول:

ـ إن الساعة قد تجاوزت الواحدة.

ـ إنك تفسدين غبطتي... حسناً، اذهبي، اذهبي!

واستغرق كل شيء في سبات من الصمت. لكن أندريه حدس أنها لا تزال هناك. لقد ظل يسمع الحفيف والزفرات. وفجأة صاحت:

ـ آه! رباه، رباه ما معنى هذا؟ إلى النوم طالما يجب أن ننام!

وأغلقت النافذة بجلبة.

انتظر أندريه عبثاً خشية أن تكون الفتاة تتحدث عنه: «إنها لا تعبأ بوجودي بكل تأكيد! ثم لماذا قدر لي أن أراها من جديد تقتحم سبيلي؟ يمكن القول إنها بادرة مقصودة».

ومن أعماق قلبه تصاعد إعصار مفاجئ من الأفكار والآمال الصبيانية التي تتنافى كلياً مع واقعة حياته. ولما لم يجد في نفسه القدرة على إيضاح الأمور، نام فوراً.

الفصل الثالث

وفي اليوم التالي ودون أن ينتظر نزول السيدات إلى قاعة الاستقبال، استأذن الأمير أندريه الكونت وعاد أدراجه.

عندما اخترق في طريق عودته إلى ليسيياغوري تلك الغابة من شجر السندر حيث انتصبت تلك السنديانة العجوز الملتوية التي أوحت إليه ذلك الإحساس المفجع، كان شهر حزيران قد بدأ. رددت جلجلة عربته في تلك الغابة صدى مكتوماً أكثر مما ند عنها قبل ستة أسابيع. أصبحت الظلال والأدغال المتشابكة في كل مكان حتى أن أشجار الصنوبر الفتية لم تتخلف عن البهجة العامة: لقد سننتها في ذلك الحين فروع نضيرة خضراء تشبه الزغب، تتوافق مع بهاء المجموعة كلها.

أنبأ ذلك النهار القائظ بعاصفة صيف في مكان ما وإن لم تكن في السماء إلا سحابة واحدة ذرفت دموعها على غبار الطريق وعلى الأوراق المثقلة بالعصارات، فأوغل جانب الغابة الأيسر في الظل بينما التمع الجانب الأيمن بقطرات المطر التي عكست إشعاعات الشمس في ذلك الجو الساكن. وكان كل شيء مزدهراً والعنادل تشدو تارة قريبة وأخرى بعيدة.

فكر أندريه: «هنا في هذه الغابة تقوم السنديانة التي كنت معها على وفاق متين، فأين هي الآن؟ وبينما راحت عيناه تجوسان فيما حوله بافتتان، توقفتا عند شجرة لم يتعرف إليها بادئ الأمر. بدت السنديانة العجوز أشبه بهرم من الخضرة التي فقدت شعورها تحت جمال المغيب وملاطفته وكأنها أبدلت

خلقاً جديداً. اختفت الأطراف الملتوية والتضاريس ونسي التهجم واليأس الهرم. انبعثت من قلافتها القاسية المعمرة أوراق فتية منتفخة بماء الحياة تدعو إلى التساؤل كيف استطاعت تلك العجوز الفانية التمخض عن مثل هذه الأجنة وبعثها إلى النور. قال أندريه في نفسه: «نعم، إنه السنديانة إياها». وشعر بنشاط فجائي. أخذت أفضل دقائق حياته تمر متلاحقة في خاطره: أوسترليتز بسمائها العميقة ووجه زوجته المتوفاة المتسم بأمارات اللوم، پيار على المعبر، والصبية التي أثارتها محاسن الليل، وتلك الليلة بالذات وسنا القمر؛ انبعث كل ذلك دفعة واحدة في خياله.

قرر بحزم: «كلا، لم تنته الحياة في الواحدة والثلاثين. لا يكفي أن أعرف ما أنا قادر على صنعه، بل يجب أن يعرفه كل الناس كذلك: من پيار إلى هذه الصبية التي أرادت أن تطير. يجب أن يعرفني كل الناس، وأن لا تسير أيامي من أجلي فحسب وأن لا تكون حياة الآخرين مستقلة عن حياتي وأن تنعكس حياتي في حياتهم وأن تختلط حياتهم بحياتي».

حال وصوله قرر أندريه أن يسافر في الخريف إلى پيترسبورغ وأن يضطلع فيها بأعباء عمل ما. وراحت ألوف الأسباب والمبررات، بعضها أقوى حجة من بعض، تؤيد في نظره ذلك الفرار. كانت فكرة مغادرة الريف تبدو سخيفة في نظره قبل شهر أما الآن، فإنه لم يكن يفهم كيف استطاع تجاهل الحاجة إلى عيش حياة عملية. بدأ يرى أن كل التجارب التي حصل عليها في حياته ستذهب سدىً إذا لم يخرج نتائجها العملية إلى حيز الفعل. بل إنه لم يفهم كيف ارتكز من قبل على حجج بمثل هذا الافتقار إلى المنطق لإقناع نفسه بأنه إنما يسف إذا ظل مؤمناً بإمكانية انتفاع الآخرين به وبالغرف على السعادة والحب بعد الدروس القاسية التي مر بها في حياته أما الآن فإن المنطق يلقنه عكس ذلك تماماً.

بات الريف يثقل عليه وباتت انشغالاته الأولى لا تعنيه في شيء. وكثيراً ما نهض خلال اعتزاله في مكتبه، ليقترب من المرآة يتأمل فيها وجهه فترة طويلة، ثم ينتقل بنظرته إلى صورة ليز التي كانت تبتسم له بوداعة في إطارها المذهب وقد ازدهى وجهها بخصلات الشعر المصففة على الطريقة اليونانية. لم تحدث فيه بمثل ذلك اللوم الرهيب الذي كان يقرأه في عينيها من قبل، بل اكتفى بالابتسام له وعلى وجهها أمارات التطلع. وإذا ما انتهى من النظر إليها، عقد يديه وراء ظهره وراح يذرع الغرفة مقطباً حاجبيه تارة ومبتسماً تارة أخرى، مستعيداً في ذهنه تلك الأفكار المستعصية على التعبير، الخفية كالجريمة، والتي يمتزج فيها بغموض پيار والمجد والصبية قرب النافذة والسنديانة والجمال والحب، والتي غيرت وجوده تغييراً كلياً. فلو دخل عليه بعضهم خلال تلك الفترات، كان يتظاهر بالقسوة والحزم ويبدو منطقياً منفراً. وإذا جاءت أخته ماري مثلاً تقول له بسلامة طوية:

ـ يا عزيزي، لا يمكن الخروج بنيكولا إلى النزهة اليوم لأن الجو بارد جداً.

يجيبها بخشونة: لو كان الطقس حاراً لا يستطيع الخروج بالقميص. أما وأن الدنيا باردة، فدثريه بثياب دافئة. إنها صنعت خصوصاً من أجل ذلك. هكذا يجب أن تتصرفي عندما يكون الطقس بارداً ولكن لا يجوز ترك طفل في البيت عندما يكون في حاجة إلى الهواء.

كان يبدو بهذا المنطق وكأنه يريد الانتقام من بعضهم لكل هذا التفاعل الغريب الذي يعتلج في قلبه.

وفي مثل تلك الحالات، حدّثت أخته ماري نفسها قائلة إن الرجال لفرط التفكير، يصبحون قساة بشكل مفزع.

الفصل الرابع

في شهر آب من سنة ١٨٠٩، وصل الأمير أندريه إلى بيترسبورغ عندما كان سبيرانسكي الشاب في أوج مجده يقوم بتعديلاته بحيوية ونشاط. جنحت عربة الأمبراطور في ذلك الشهر وأصيب ألكسندر بالتواء في قدمه اضطره إلى الحلول في بيتيروف طوال ثلاثة أسابيع. كان العاهل يستقبل يومياً سبيرانسكي وحده. وفي هذه الفترة، أنضجت إلى جانب المرسومين الأمبراطوريين الشهيرين اللذين أثارا الرأي العام بشدة، المتعلقين بإلغاء رتب البلاط، الامتحانات الواجب اجتيازها للحصول على رتب الارتقاء في الكلية وفي مجلس الدولة الاستشاري، مجموعة قوانين كاملة تهدف إلى قلب النظام القضائي والإداري والمالي المعمول به حتى ذلك اليوم اعتباراً من مجلس الأمبراطورية وحتى أصغر السلطات الإقليمية.

وفي تلك الفترة بالذات اتخذت أحلام الأمبراطور ألكسندر التحريرية التي كان يهدهدها في سره عندما اعتلى العرش والتي حاول حينذاك تحقيقها بمساعدة معاونيه آل كزارتوريسكي ونوفوسيلتسوف وكوتشوبيي وستروغونوف الذين كان يسميهم مازحاً: مجلس الصيانة العامة، لقد تنحى هؤلاء الآن عن مراكزهم لسبيرانسكي، في القضايا المدنية ولـ: أراكتشييف في القضايا العسكرية.

أعلن الأمير أندريه نفسه فور وصوله بوصفه من مرافقي الأمبراطور في البلاط وعند مخارج الجناح الأمبراطوري ومداخله. ولقد لمحه الأمبراطور

مرتين على طريقه فلم يتنازل بتشريفه بكلمة واحدة. ولم يكن أندريه قط يشعر أنه موضوع نفور الأمبراطور وأن وجهه وكل شخصه مكروهان من الأمبراطور. وقد أيد هذا الزعم النظرة الجافة التي رماه بها ألكسندر. وفسر له أتباع الأمبراطور سبب ذلك البرود بأن اعتزاله الخدمة منذ عام ١٨٠٥ كان موضوع استياء الأمبراطور.

حدث الأمير نفسه قائلاً: «أعرف تماماً أننا لسنا سادة ميولنا ونفورنا فلا يجب إذن أن أفكر في تقديم مذكرتي حول النظام العسكري الجديد إلى جلالته يداً بيد. لكن الفكرة ستشق طريقها وحدها».

أبلغ مشروعه إلى ماريشال عجوز كان صديقاً لأبيه فحدد له هذا الرجل المسنّ موعداً واستقبله ببشاشة واعداً بالتحدث عن مشروعه إلى الأمبراطور. ولم تمض أيام قليلة حتى أخطر أندريه بوجوب المثول بين يدي الكونت أراكتشييـف وزير الحربية.

وصل الأمير أندريه إلى قاعة استقبال الكونت أراكتشييف في الساعة التاسعة من صباح اليوم المحدد. لم يكن يعرفه من قبل ولم يكن قد رآه قط. بيد أن معلوماته عندها لم تكن وافية لتقديره حق قدره.

فكر أندريه وهو ينضم إلى عدد من الأشخاص المتفاوتين في الأهمية في قاعة الانتظار: «إن وزير الحربية، وهو حائز ثقة الأمبراطور، فليس لأحد إذن التشاغل في صفاته الشخصية فقد أنيط به أمر فحص مذكرتي فهو بالتالي الوحيد الذي يستطيع إحلال مشروعي موضع الاعتبار».

ساعدت مراكز الأمير أندريه المختلفة وبصورة خاصة وظيفته كمساعد عسكري، على التعرف إلى العديد من الأبهاء في قصور الشخصيات الكبيرة وتمييز الصفات الخاصة لكل منها. لكنه وجد قاعة انتظار الكونت أراكتشييف ذات طابع خاص. رأى أن الأشخاص ذوي المراكز المتواضعة ينتظرون حلول

دورهم في المقابلة بوجوه يعلوها الارتباك وأن من هم أرفع شأناً يخفون ارتباكهم وراء ضروب من الانطلاق متخذين السخرية وسيلة وإن كانت تشمل أشخاصهم بقدر ما تتصل بالشخصية التي سيمثلون أمامها. كان بعضهم يذرع القاعة ذهاباً وإياباً بقلق، وبعضهم الآخر يبتسم ويتهامس أفراده فيما بينهم، حتى أن أندريه سمع خلال أحاديثهم الخافتة، لقب سيلا أندرييـڤيتش وعبارة «سوف يغسل الرجل الطيب لك رأسك». ورأى جنرالاً رفيع المركز، يجلس عاقداً ساقيه وعلى شفتيه ابتسامة احتقار يخفي بها استياءه من انتظاره الطويل.

وما إن فتح باب المكتب حتى عبرت الوجوه كلها عن إحساس واحد: الخوف. طلب الأمير أندريه إلى الموظف المختص أن يعلن وجوده مرة ثانية. لكنهم نظروا إليه في سخرية معلنين أن دوره سيحين. وبعد أن أُدخل عدد من الأشخاص إلى مكتب الوزير وخرجوا منه يشيعهم المساعد الملحق، أدخل من الباب الرهيب ضابط جذب أنظار پولكونسكي بأمارات الفزع المرتسمة على أساريره. طالت المقابلة بعض الوقت وفجأة، ارتفعت من وراء الباب أصداء صوت منفر وخرج الضابط ممتقع الوجه مرتجف الشفتين، فاخترق قاعة الانتظار وهو ممسك برأسه بين يديه.

جاء دور الأمير أندريه فهمس الموظف: إلى اليمين قرب النافذة.

دخل أندريه مكتباً بسيطاً منسقاً فشاهد رجلاً في الأربعين من عمره فارع الجذع طويل الرأس، ذا شعر قصير وأخاديد عميقة وأنف أحمر محدودب وحاجبين موازيين فوق عينين ملونتين تبدو نظراتهما مطفأة، جالساً وراء المكتب.

التفت أراكتشييـڤ نحوه دون أن ينظر إليه وقال: ماذا تسأل؟

فأجاب أندريه بهدوء عميق: لست أسأل شيئاً يا صاحب السعادة.

استدارت عينا أراكتشييـڤ نحوه:

ـ خذ مقعداً. الأمير پولكونسكي أليس كذلك؟

ـ لست أسأل شيئاً لكن جلالته تفضل وأحال المذكرة التي رفعتها إليه على سعادتكم.

قاطعه أراكتشييـف بلهجة بدأت متوددة ثم أصبحت زاجرة ثم أصبحت مشمئزة: كما ترى يا عزيزي، لقد قرأت مذكرتك. إنك تعرض فيها نظماً عسكرية جديدة؟ إن لدينا عدداً وفيراً من النظم القديمة، تبلغ من الوفرة أنه من المستحيل تطبيقها. واليوم يضع كل الناس مشاريع قوانين على الورق. إن الكتابة أسهل من التنفيذ.

استأنف الأمير أندريه بلهجة مهذبة: لقد جئت بناء على أمر جلالته لأطلع من سعادتكم على النتيجة التي أعطيت لمذكرتي.

قال أراكتشييـف: لقد قلت رأيي في المذكرة نفسها وأحلتها على اللجنة.

ثم وقف من وراء مكتبه وتناول ورقة كانت أمامه وأضاف: ها هي ذي!

مدّ يده بالورقة إلى أندريه فإذا بها تحمل السطور التالية المكتوبة دون مراعاة لاستقامة السطر وقواعد الإملاء والتنقيط وأحرف البدء: «غير منظم جدياً، وعلى الرغم من أنه منقول عن النظام «العسكري» الفرنسي إلا أنه يختلف دون ما سبب عن المعمول به».

سأل الأمير: وعلى أية لجنة أحيلت مذكرتي؟

ـ على لجنة النظام العسكري وقد رشحت نبالتكم لتكونوا عضواً فيها ولكن دون راتب.

فقال أندريه مبتسماً: لا أطلب راتباً.

كرر أراكتشييـف: دون راتب. لقد حصل لي الشرف...

ثم صاح بعد أن صرف الأمير أندريه: التالي! من بقي هنا!

الفصل الخامس

راح الأمير أندريه يوثق عرى الصداقة مع معارفه القدامى، بانتظار تسميته عضواً في اللجنة، وخصوصاً ذوي السلطة منهم القادرين على تقديم العون. سيطر عليه تطلع غامض يشبه التطلع الذي شعر بمثله في أمسيات المعارك من قبل، أخذ يجذبه الآن نحو الأجواء العليا حيث يبحث مستقبل ملايين الناس. استدل من غضب المسنين من الرجال وفضول المستهترين وتحفظ العارفين الملمين بالأمور وانشغالهم وكثرة اللجان والمجالس التي أخذ عددها يتزايد كل يوم، على أن معركة داخلية كبرى يرأسها ويقودها ذلك الشخص، سپيرانسكي، أن استهوته لدرجة باتت معها أهمية النظام العسكري تشغل المرتبة التالية في مدرج تفكيره وانشغاله.

احتلّ أندريه مركزاً مرموقاً يساعده على تلقي جفاوات قلبية في زياراته لمختلف المجتمعات الراقية في پيترسبورغ. فحزب الإصلاحات كان يسلفه الاحترام: أولاً، لما عرف عنه من ذكاء وثقافة عالية، لما اكتسبه إثر تحريره عبيده من شهرة في ميدان الكرم. وحزب الشيوخ المتذمرين الذي يفترض أن أفكار أندريه تتفق مع أفكار أبيه، كان يجد فيه حليفاً له. أما النساء، وبعبارة أصح «المجتمع»، فقد كن يحتفين به على اعتباره زوجاً منشوداً غنياً ونبيلاً ويعتبرنه وجهاً جديداً تحدق به هالة مغامرة موته المزعوم الخيالية ونهاية زوجته المفجعة. أضف إلى ذلك، أن كل ما عرفنه من قبل بادرن إلى الاعتراف بصوت واحد بأنه تبدل كثيراً في صالحه خلال الأعوام الخمسة السابقة: لانت

عريكته وتوكدت آراؤه وحل الهدوء والتعديل اللذان يكتسبان مع الزمن محل التصنع والهجاء. بات حديثه يشغل الأوساط يهتمّ الناس به ويبحثون عنه.

وغداة زيارته لأراكتشييـڤ قصد منزله الكونت كوتشوبيي لقضاء السهرة وحدثه بمقابلته مع: «سيلا أندرييـڤيتش». وكان كوتشوبيي هو الآخر يطلق هذا اللقب على الوزير كلي النفوذ مشفوعاً بذلك التنويه الغامض الذي أظهره الملتمسون في غرفة الانتظار.

ـ يا عزيزي، لا غنى لك عن ميخائيل ميخائيلوڤيتش حتى في قضيتك. هو «الصانع الأكبر». سوف أحدثه بالأمر. يجب أن يحضر هذا المساء.

سأل أندريه: ولكن ما علاقة القوانين العسكرية بسپيرانسكي؟

بدا كأن سذاجة پولكونسكي قد أذهلت كوتشوبيي فابتسم وهز برأسه ثم تابع: لقد تحدثنا عنك في الأيام الأخيرة وعن مزارعيك الأحرار.

وسأل عجوز من عصر كاترين وهو يلتفت نحو پولكونسكي في شيء من السخرية: أهذا أنت إذن أيها ا لأمير الذي حررت فلاحيك؟

فقال پولكونسكي وهو يهدف إلى تخفيف حدة هذا الكهل وتهوين فعلته في نظره بدلاً من استثارته دون جدوى: كانت قطعة أرض لا تغل شيئاً مذكوراً.

استطرد ذلك العجوز وهو يلقي نظرة إلى كوتشوبيي:

ـ خفتَ أن تصل متأخراً... ثمة مسألة لا أستطيع فهمها، من الذي سيحرث الأرض إذا نحن أعطينا الفلاحين حريتهم؟ إن وضع القوانين ليس عملاً شاقاً ولكن الإدارة شيء آخر... خذ، سؤالاً آخر: من أين يأتون برؤساء للألوية إذا كان كل واحد مرغماً على اجتياز امتحان؟

فأجاب كوتشوبيي. وهو يعقد ساقيه ويسرح الطرف حوله: من عداد الذين يتقدمون لاجتياز الامتحانات على ما أعتقد!

ـ على هذا، فإن في مكتبي رجلاً ممتازاً اسمه بريانيتشنيكوف. وهو إنسان ثمين ولكنه بلغ الستين من العمر. فهل يجب عليه كذلك اجتياز امتحانات؟

ـ لا شك إنها صعوبة وخصوصاً أن الثقافة غير منتشرة بكثرة، ولكن..

لم يكمل كوتشوبيي جملته، بل وقف وأمسك أندريه من ذراعه ومضى يستقبل ضيفاً جديداً، طويل القامة أشقر، أصلع، في الأربعين من العمر، عريض الجبهة، مستطيل الوجه، ناصع البياض، بشكل غريب. كان الزائر مرتدياً ثوباً رسمياً «فراك» أزرق تزينه شارة على الجانب الأيسر ويتدلى من عنقه وسام آخر. ذاك كان سپيرانسكي حدس الأمير أندريه ذلك من فوره وشعر بذلك الاضطراب الداخلي الذي يجتاح المرء في اللحظات الرهيبة من حياته. هل كان مبعث ذلك الشعور الاحترام أو الفضول؟ ذلك ما لم يكن يستطيع تبيانه. كانت شخصية سپيرانسكي كلها تبرز طابعاً بديعاً ينم عنه فوراً ويدل عليه. لم يجد أندريه لدى كل من اختلط بهم من الشخصيات أكثر من هدوء سپيرانسكي وثقته بنفسه المتوافرين إلى جانب اختيار الحركات، كما لم يجد في أحد مثل تلك النظرة الحية تنبعث من عينين نصف مغمضتين وكأنهما غارقتان، ومثل ذلك الحزم في ابتسامة جوفاء أو ذلك الصوت المتناسق، ولا مثل ذلك البياض الناصع في الوجه وتينك اليدين العريضتين بعض الشيء، ولكن الناعمتين. إن مثل تلك النعومة في الجلد وذلك البياض الناصع في الوجه، لم يجدهما أندريه إلا عند الجنود الخارجين من المشافي بعد إقامة طويلة فيها. كذلك سپيرانسكي، سكرتير الدولة ومشير الأمبراطور ورفيقه في إيرفورت حيث تحدث غير مرة هناك مع ناپليون.

لم تنطلق نظرة سپيرانسكي من رجل إلى آخر كما هي عادة المرء إثر دخوله مكاناً مزدحماً بالناس، ولم يكن كذلك يتعجل الحديث. وكان صوته الهادئ يدل على ثقته العظيمة بأن محدثه يصغي إليه، وما كان ينظرإلى الشخص الذي يخاطبه.

بدأ الأمير أندريه يسجل في ذاكرته بدقة كل كلمة وحركة تصدر عن سبيرانسكي. وككثير من الناس، وبصورة خاصة أولئك الذين اعتادوا الحكم بصرامة على الآخرين، كان الأمير أندريه عند التقائه شخصية جديدة، وخصوصاً إذا كان لا يعرف صاحبها إلا عن طريق شهرته يتوقع دائماً أن يكتشف فيه موجزاً لكل الفضائل الإنسانية.

قال سبيرانسكي لكوتوبيي إنه يأسف لتأخره بسبب استبقائه في القصر. سجل أندريه كذلك ذلك التواضع المصطنع. وعندما قدم كوتشوبيي الأمير إليه، وجه سبيرانسكي أنظاره إليه ببطء مشفوعة بتلك الابتسامة بالذات ونظر إليه لحظة في صمت. أخيراً قال: يسرّني أن أتعرف إليك. لقد سمعتهم يتحدثون عنك كما سمع كل الناس طبعاً.

ولما ألمح كوتشوبيي إلى الاستقبال الذي تلقى به أراكتشييف الأمير أندريه اتسعت ابتسامة سبيرانسكي وقال وهو يبرز كل مقطع في كلماته: إن السيد مانيتسكي، رئيس لجنة القوانين العسكرية، من أصدقائي الطيبين. أستطيع إذا رغبت أن أقبلك به.

ثم توقف برهة وتابع: سوف تصادف لديه، على ما أرجو، انجذاباً ورغبة في إخراج كل فكرة معقولة إلى حيز الوجود.

تشكلت دائرة حول سبيرانسكي وطرح البيروقراطي العجوز الذي أطرى رجله بريانيتشينكوف، سؤالاً هو الآخر.

أخذ أندريه يراقب كل حركات ذلك الرجل الذي كان بالأمس تلميذاً مغموراً من طلبة اللاهوت وأصبح اليوم يمسك بين يديه السمينتين كل مستقبل روسيا، دون أن يشترك في الحديث. أعجب بالطلاقة المحتقرة التي أجاب بها سبيرانسكي عن سؤال العجوز: بدت كلمته المراعية وكأنها سقطت

من علو لا تدرك رفعته. أعلن البيروقراطي وهو يرفع صوته قليلاً ويبتسم، أنه ليس الحاكم على المحاسن والمحاذير التي تترتب على قرارات جلالته.

سكت سپيرانسكي فترة ثم اخترق الحلقة وفضها ومضى إلى الأمير أندريه واصطحبه إلى الجانب الآخر من القاعة. قدر بدون شك أن الاهتمام بالأمير أندريه ضروري. قال له: لم تسمح لي المحادثة الحامية التي ساقني إليها ذلك الكهل بالتحدث إليك أيها الأمير!

شفع قوله بابتسامة تدل على احتقار ضمني، أراد بها إفهام الأمير أنهما معاً يعرفان كيف يقدران مثل تلك المحادثة التافهة فأثر هذا الإطراء بالأمير أندريه بينما استرسل سپيرانسكي: أنا أعرفك منذ أمد: أعرف أولاً تصرفك حيال فلاحيك، وهو مثال أول نود لو يحتذي به كثير من الآخرين. وبعد فإنك من المرافقين القليلين الذين لم يعتبروا القانون الجديد بمثابة إهانة لهم رغم الاستقبال السيئ الذي قوبل به هذا القانون من المتصلين بالبلاط كافة على اختلاف مناصبهم.

قال الأمير أندريه: نعم، لم يرض أبي أن أستغل هذا الحق وأفيد منه. لذلك فقد تتبعت السبل الرسمية.

ـ لا شك أن السيد أباك، رغم انتمائه إلى القرن الماضي، أرفع بكثير من معاصريه الذين ينتقدون تدبيراً عادلاً جداً وخصوصاً أنه يرفع ظلامة صارخة.

أجاب پولكونسكي وهو يقاوم التأثير الذي أخذ سپيرانسكي يحدثه فيه:

ـ الحق يقال إنني لا أعتقد أن كل الانتقادات لا ترتكز على أسس معينة..

أزعجه أن يؤيد في شيء فأراد أن يناقض. لكنه أخذ يعبر عن آرائه بارتباك وهو الذي اعتاد استعمال عبارات واضحة والافصاح عن آرائه بطلاقة. كان شديد الانهماك آنئذ في مراقبة شخصية ذلك الرجل الشهير ودراستها.

اعترض سپيرانسكي بهدوء: إن الأساس الوحيد لانتقادهم ليس إلا الكرامة فحسب.

فأضاف الأمير أندريه: ومصلحة الدولة أيضاً.

خفض سپيرانسكي عينيه وسأل: وكيف تفسر ذلك؟

أجاب أندريه: إنني من المعجبين بمونتيسكيو[1]. إن نظريته القائلة إن مبدأ الملكية هو الشرف، تبدو لي أرفع من كل نقاش. ويخيل إليّ أن بعض الحقوق والامتيازات المعطاة للنبلاء ليست إلا وسائل لدعم هذا التفكير.

اختفت الابتسامة من الوجه الشاحب فازدادت هيئة سپيرانسكي ملاحة. ولا شك أن الفكرة التي عرضها الأمير منذ حين بدت له جديرة بالاهتمام. بدأ يقول بهدوء رغم ما اعترى أسلوبه في التعبير عن أفكاره باللغة الفرنسية من ارتباك جعله أكثر تمهلاً في حديثه مما كان عليه عندما كان يتحدث بالروسية: إذا كنت تنظر إلى الأمر من الزاوية...

وراح يشرح بحجج بسيطة وواضحة أن «الشرف» لا يمكن أن يدعم بامتيازات تضر بسير الأمور المفيدة. إن «الشرف» ليس إلا الدراية السلبية للامتناع عن الأفعال الموجبة للزجر، أو بعبارة أخرى، حافز معين يحثنا على الحصول على الاستحسان أو على المكافآت التي هي دليل عليه. وخير ترتيب وضع في هذا الصدد. كان ما وضعه الأمبراطور الأكبر نابليون: وأعني وسام جوقة الشرف. إن هذا الوسام أبعد ما يكون عن الإضرار بمصلحة الخدمة، لكنه يعاون فيها دون أن يشكل في ذاته امتيازاً كبيراً لحامله في طائفته أو في البلاط.

أجاب أندريه على البديهة: أنا لا أعترض على ذلك. لكن امتيازات

---

(١) مشرّع فرنسي شهير، أول من وضع مبدأ فصل السلطات في الدولة. من المبشرين بالثورة الفرنسية من مؤلفاته: روح القوانين. (المترجم)

البلاط تتوخى كذلك مثل هذا الهدف، الذي لا شك فيه. إذ إن كل فرد من البطانة يعتبر نفسه شبه ملزم باحتلال مركزه بجدارة.

فأجاب سپيرانسكي وهو يبتسم ابتسامة من يريد إنهاء ذلك الجدال الذي بدأ يربك مخاطبه بعبارة لطيفة: مع ذلك لم تنشأ الإفادة من هذا الامتياز يا أمير!

وأضاف: شرفني بزيارة يوم الأربعاء. وسأكون قد التقيت مانييتسكي خلال هذا الوقت، فأنقل إليك عند لقائنا أموراً. ثم إنني سأتمتع بالتحدث معك فترة طويلة.

وأغمض عينيه وحيا واختفى على الطريقة الفرنسية دون أن يستأذن مضيفه.

الفصل السادس

لاحظ الأمير أندريه خلال الأيام الأولى من إقامته في بيترسبورغ أن ألف شاغل صغير يعزل في الظل مجموعة أفكاره التي نضجت في ذهنه خلال حياة العزلة التي عاشها.

كلما رجع إلى مسكنه مساء، سجل في مذكرته أربعاً أو خمس زيارات أو مواعيد ضرورية محددة بالساعة كذا وكذا. وكان ترتيب حياته على نحو يجعله موجوداً في كل مكان في الوقت المحدد، لم يكن وقته يكفي إلا للخطابة وإذاعة الآراء التي كونها لنفسه خلال عزلته في الريف، بنجاح ملحوظ. كان يلاحظ أن أوقاته كانت مشغولة كلها حتى أنه لم يكن يجد فسحة من الوقت ليقول إنه لم يعد يفكر في شيء.

وكما حدث له عند كوتشوبيي، ترك سپيرانسكي في پولكونسكي تأثيراً قوياً عندما استقبله يوم الأربعاء واختلى به فترة طويلة أمضياها في حديث مطمئن.

ويعتبر أندريه الكثير من الناس عاجزين أو محتقرين، وكانت به رغبة عنيفة في العثور عند الآخرين على المثال الحي للكمال العقلي والأخلاقي، حتى أنه وجد نفسه على استعداد للتعرف إلى ذلك الكمال في شخص سپيرانسكي. فلو أن رجل الدولة ذاك كان من الوسط الذي نشأ أندريه فيه أو على مثل ثقافته وتكوينه الخلقي لتمكن أندريه بسرعة من اكتشاف نقائصه الإنسانية. لكن ذلك الفكر المنطقي كان يوحي إليه مزيداً من الاحترام. أضف إلى ذلك،

أن سبيرانسكي، وإن كان يقدر كفاءات أندريه ويجد ضرورة في اجتذابه إلى جهته، كان في حضرته يكشف عن كل ما للتفكير الهادئ من مصادر منزهة عن الانحياز إلى وجهة دون أخرى ويتملقه بذلك الإطراء الدقيق الممزوج بالزهو الذي يقوم على أساس الاعتراف ضمنياً بأنه ومحدثه وحدهما قادران على تفهم كل سخافات الآخرين والحكمة العميقة التي تكمن في أفكارهما وحدهما.

وقد استعمل سبيرانسكي غير مرة خلال حديثهما المسهب مساء الأربعاء عبارات من هذا النوع: إننا «نحن» نعتبر أن كل ما يتجاوز مستوى العادات المتأصلة... «أو وهو يبتسم: «ولكننا «نحن أولاء» نريد أن تشبع الذئاب دون إضرار كبير بالغنم...». أو أيضاً «إنهم لا يستطيعون فهم ذلك...» وتنبئ لهجته أثناء ذلك أننا: «نحن»، أنت وأنا، نعرف تماماً ما هي قيمتهم «هم» وما هي قيمتنا «نحن».

مكنت هذه المقابلة الطويلة في نفس أندريه إحساسه الأول. كان يرى في سبيرانسكي رجلاً منطقياً عميقاً ومفكراً كبيراً اكتسب السلطة بقوة حيويته ونشاطه ولم يتصرف فيها إلا لمصلحة روسيا. كان سبيرانسكي على وجه الدقة، الرجل الذي رغب لو كأنه، ذلك الرجل الذي يلقى في غربال الفكر بكل بيانات الحياة ولا يعترف على أهمية واضحة منها إلا إذا اجتازت ذلك الاختيار بدا له كل ما في آراء سبيرانسكي وعروضه من البساطة وشدة الوضوح حتى أنه وجد نفسه يوافقه في كل شيء بديهياً، أما إذا كان قد أثار بعض الاعتراضات فما ذلك إلا ليبرهن على استقلال الفكر وعدم الاستسلام. مع ذلك فقد ظل أمر واحد يقلق أندريه: تلك النظرة الباردة كالمرآة التي لا تسمح بالتغلغل إلى الروح، تانك اليدان البضتان، السمينتان اللتان كان ينظر إليهما رغماً عنه كما يفعل المرء عادة عندما يكون في حضرة رجل متسلم السلطة، فالنظرة الشبيهة

بانعكاسات المرآة، واليدان الناعمتان، كانت تزعج پولكونسكي، كذلك كان يغيظه فيه احتقار للرجل الذي كان سپيرانسكي يفضحه والتنوع الكبير في الحجج التي يلجأ إليها لدعم آرائه وتأييدها.

لقد كان يستعمل كل أنواع البرهنة باستثناء المقارنة ويتنقل بمزيد من الجرأة من واحد إلى الآخر برضى پولكونسكي، فتارة يطرق الحقل العملي فيذم الحالمين وأخرى يعمد إلى السخرية ويمطر خصومه بوابل من التجريح أو يرتقي من أضيق مناحي المنطق إلى علم النظريات «الميتافيزيقا» المرتبط بالفكر المجرد. وكان هذا الأسلوب الأخير في البرهنة سلاحه المفضل إذ ينقل المسألة إلى الأجواء الميتافيزيقية العليا مقدماً تفسيرات للقضاء والفكر ليخلص منها تفنيداً ثم يعود مجدداً إلى بساط المناقشة.

كان إيمانه، على العموم، في سلطة الفكر وحقوقه هو البادرة الرئيسية في ذكاء سپيرانسكي التي كان لها تأثير شديد في نفس أندريه. وبالطبع، فإن الشكوك المألوفة عند پولكونسكي لم تمس إطلاقاً سپيرانسكي: إنه لم يقل مرة واحدة إن الإفصاح عن كل ما يفكر فيه المرء غير مجد ولم يشك قط في أسس أفكاره ومعتقداته أو يبحث فيها. ومن هنا كان سر افتتان پولكونسكي به.

شعر أندريه بإعجاب يشبه ما أحس به من قبل حيال پونابرت، إزاء هذا الرجل منذ اللحظات الأولى. أما انتماء سپيرانسكي إلى أسرة كنسية، الأمر الذي سهل على الحمقى إيجاد نعوت مختلفة له كـ: «نسل خوري فاسد» أو «جريذ»، فإنه، رغم ما أتاحه لأندريه من أسباب لتخفيف حدة حماسته، كان يزيد تلك الحماسة عفوياً.

خلال خلوتهما الأولى طرقا موضوع اللجنة التشريعية، فشرح سپيرانسكي للأمير، أن تلك اللجنة موجودة بالفعل منذ مائة وخمسين عاماً،

وأنها كلفت الدولة الملايين دون أن تعمل شيئاً، لأن روزانكانف اقتصر في عمله على كل مواد التشريع المقارنة. قال:

ـ ومن أجل هذه النتيجة الحسنة أنفقت الدولة الملايين! إننا نزعم إعطاء مجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة بينما لا قوانين لدينا! إنك ترى أيها الأمير أن الانزواء بالنسبة إلى أشخاص مثلك يعتبر خطيئة.

اعترض الأمير أندريه بأن هذا النوع من النشاط يقتضي استعداداً فقهياً لا يملكه.

ـ لكن لا أحد يملك مثل هذا الاستعداد، فماذا يجب أن نصنع إذن؟ إننا في دائرة فاسدة لا يمكن الخروج منها إلا بتحطيمها.

وبعد ثمانية أيام، سمي أندريه عضواً في لجنة النظام العسكري ولدهشته البالغة، رئيساً للجنة فرعية في المجلس التشريعي. فوافق نزولاً عند إلحاح سپيرانسكي، على إعداد الجزء الأول من القانون المدني، وعمل في موضوع: حقوق الإنسان، بالرجوع إلى قوانين ناپليون وجوستينيان.

الفصل السابع

عندما رجع پيار من جولته الطويلة في أملاكه، قبل عامين، أي في سنة ١٨٠٨، وجد نفسه دون أن يتوقع، على رأس الماسونية في پيترسبورغ. أخذ ينظم مختلف المحافل ويقبل الأعضاء الجدد ويهتم بتوحيد مختلف المحافل المتعلقة بها، ويبني بماله الخاص الهياكل الجديدة ويتمم، في حدود إمكانياته، حصيلة التبرعات التي كان معظم الإخوان يظهرون تجاهها بخلاً. وأصبح يشرف وحده تقريباً على بيت الفقراء الذي أسسته الهيئة الماسونية في پيترسبورغ.

وكانت حياته، ما عدا ذلك، تسير على نهجها السابق من الفوضى، إذ لا زال يحب الطعام الجيد والشراب الطيب، لا يستطيع الامتناع عن المساهمة في فجور الأعزاب الذين كان يضمهم في بيئته رغم اعتباره تلك الأمور منافية للأخلاق.

وبعد عام، انتهى الأمير پيار، رغم دوامة مسراته، إلى الشعور بأن بساط الماسونية الذي استقام فوقه، بات ينسل من تحت قدميه بقدر ما كان يتمسك به بكل قواه. ولكن، كلما ازدادت تلك الأرض انزلاقاً تحت قدميه، ازداد خلاصه منها استحالة، وعندما دخل في عداد الماسونيين أحسّ أنه وضع قدماً مطمئنة فوق سطح مستنقع سوي، لكنه ما كاد يضع قدمه حتى شعر بأنها تغوص. ولكي يختبر صلابة الأرض وضع قدمه الأخرى فازداد غوصاً وبات يخوض في وحل المستنقع حتى ركبتيه.

منذ فترة من الزمن، فترت همّة جوزيف ألكسييڤيتش فما عاد يهتم بمحافل بيترسبورغ ولم يعد يغادر موسكو. كان كل أعضاء المحافل أشخاصاً من المجتمع الراقي يعرفهم پيار معرفة عميقة لا تسمح له باعتبارهم إخوان محفل فحسب بصرف النظر عن كونهم الأمير ب.... وإيـڤان ڤاسيلييـڤيتش د... أو غيرهما من الشخصيات المعروفة بضعفها أو بفسادها. كان يرى تحت المآزر والشارات الماسونية الأخرى، الأوسمة والألبسة الرسمية التي تشكل وحدها سر حياة أصحابها.

وعندما كان يسطر في قوائم التبرعات، كلما بدأ بجمعها، مبلغ عشرين أو ثلاثين روبلاً في حقل «الداخل» وغالباً في حقل «مدين» أسماء عشرة من الأعضاء في مثل ثرائه، يذكر القسم الماسوني الذي يتعهد الإخوان المنتسبون بموجبه تقديم كل ثرواتهم للغير، فترتفع في نفسه الشكوك التي يبذل كل جهد في سبيل محوها.

ينتظم الإخوان الذين يعرفهم پيار في أربع فئات يضع في عداد الفئة الأولى أولئك الذين لا يساهمون إطلاقاً في النشاط العملي أو في أعمال المحافل والقضايا الإنسانية، بل يقصرون اهتمامهم على التعمق في أسرار «النظام» وتسمية الله الثلاثية والأسس الثلاثية لكل الأشياء: الكبريت والزئبق والملح ـ وعلى تفسير معنى المربع والرسوم التي على معبد سليمان. وكان پيار يكن لهذه الفئة من الإخوان التي تضم في عدادها أقدم الأعضاء وجوزيف ألكسييڤيتش نفسه، كما كان يظن، احتراماً عميقاً. لكنه لم يكن يشاطرهم مشاغلهم لأن الناحية التصوفية في الماسونية لم تكن تجتذبه.

كان يضع نفسه في الفئة الثانية وأولئك الذين يبحثون، مثله، ويترددون والذين ما كانوا ييأسون من إيجاد الطريق المستقيم ذات يوم رغم أنهم لم يجدوا طريق الماسونية المستقيم بعد.

أما في الفئة الثالثة، وهي الأكثر عدداً، فكان يضع الذين لا يرون في المذهب إلا أشكاله الخارجية وحفلاته، ويتمسكون بإنجاز طقوسه الشاقة دون الاهتمام بمضامينها ومعانيها الخفية. وينطبق هذا الوصف على كل الأعضاء تقريباً اعتباراً من ڤيلارسكي وحتى معلم المحفل الأكبر.

وتضم الفئة الرابعة كذلك عدداً كبيراً من الإخوان معظمهم من الجدد. كانوا، كما لاحظ پيار، أناساً لا يؤمنون بشيء ولا يرغبون في شيء، أناساً لم يدخلوا المحفل إلا ليتعرفوا إلى إخوان شبان وأغنياء من ذوي النفوذ والعلاقات وشرف المنشأ الذين كانوا وافري العدد في المحفل.

لم يكن نشاط يرضيه حقيقة. بدت له الماسونية، أو أقله تلك التي عرفها، مجرد شكليات، فراح يشك في النظم الماسونية الروسية دون أن يرقى به الشك إلى المبدأ نفسه، ويعتقد أن المحافل الروسية أخطأت النهج فانحرفت عن الأصول. قرر إذن أن يسافر في نهاية العام إلى الخارج ليطلع هناك على أهم أسرار النظام.

في أول صيف عام ١٨٠٩، رجع پيار إلى پيترسبورغ. عرف الإخوان الماسونيون في روسيا، استناداً إلى مراسيلهم في الخارج، أن پيزوخوف قد اكتسب ثقة عدد من كبار ذوي المناصب المطلعين على الكثير من الأسرار الذين رشحوه لرتبة عليا، وأنه عائد ومعه الكثير من المشاريع المفيدة للماسونية الروسية. فجاء الإخوان في پيترسبورغ لزيارته ساعين إلى مرضاته ولاحظوا أنه يخفي شيئاً ما.

قرروا إقامة محفل من الدرجة الثانية، وعد پيار أن يطلع الإخوان فيه على الرسالة التي حمله إياها ذوو المناصب العليا في «النظام» إلى إخوانه. فكانت جلسة حافلة، نهض پيار بعد المراسيم المألوفة وفي يده خطاب جاهز.

قال وهو يلحن وقد احمر وجهه حياء: أيها الإخوان الأعزاء، لا يكفي أن ننجز أسرارنا في خفاء المحفل بل يجب كذلك أن نعمل... نعم، نعمل. إننا نغطّ في النوم بينما يجب علينا أن نعمل. أخذ دفتره وبدأ يقرأ.

«لكي ننشر الحقيقة الواضحة ونحصل على انتصار الفضيلة، يجب أن نستأصل من حولنا المعتقدات الفاسدة وأن نُعنى بتثقيف الناشئة ونرتبط بصلات لا تحل عراها بالعقول المستنيرة ونخذل الخرافة والإلحاد والحماقة بحكمة وجرأة، وأن نشكل من المخلصين لنا كتبة تربط بين أفرادها وحدة الهدف ونضع رهن إشارتهم النفوذ والقوة.

«ولكي نبلغ هذه الغاية ينبغي أن نعطي الفضيلة الغلبة على الرذيلة وأن نعمل جاهدين على أن ينال الرجل الطيب مكافأته الأبدية على فضائله ابتداء من هذا العام الفاني. لكن عدداً كبيراً من المؤسسات السياسية الخارجية تقف جاهزاً دون تحقيق أهدافنا العظمى، ماذا نعمل إذن في مثل هذه الحال؟ هل نشجع الثورات لنقلب كل شيء ونستعمل القوة ضد القوة؟... إننا بعيدون جداً عن ذلك. إن كل إصلاح يفرض بالقوة يستوجب اللوم لأنه لا يصلح السوء إذا ظل الأشخاص كما هم ولأن الحكمة ليست في حاجة إلى العنف.

«يجب أن يهدف نظامنا إلى تكوين أشخاص أقوياء ثابتي العقيدة صاحين تربطهم وحدة العقيدة التي تقوم على الرغبة في مطاردة الرذيلة بكل قوة وفي كل مكان وعلى حماية المناقب والفضيلة وتخليص المستحقين من حمأة الرذيلة وربطهم بنا وإشراكهم معنا. وبذلك يتمكن نظامنا من القدرة على شل أيدي المساعدين على الفوضى دون أن يشعروا بذلك وتوجيههم الوجهة الصالحة دون أن يشعروا بذلك أيضاً.

«وباختصار، يجب إقامة إدارة عالمية يمتد محور نشاطها إلى العالم

كله دون أن تصطدم مصالحها بمصالح الحكومات الأخرى. وستظل هذه الحكومات تعمل وستبقى حرة في تصرفاتها ما عدا ما يتعلق بمقاومتها لبرامج نظامنا التي تقوم على أساس نصرة الفضيلة على الرذيلة. كان هذا البرنامج هو هدف النصرانية التي علمت الناس أن يكونوا عقلاء وطيبين وأن يتبعوا في مصلحتهم الشخصية نهج وتعاليم الأفضل منهم والأكثر حكمة وتعقلاً.

كانت العظة وحدها كافية، عندما كان كل شيء غارقاً في الظلمات. وكان إعلان «الحقيقة» يجد في جدته نفسها قوة خاصة. أما في أيامنا هذه، فإننا في حاجة إلى وسائل أكثر قوة ونفوذاً: يجب أن يجد الرجل الذي يخضع لسيطرة حواسه افتتاناً عميقاً بالفضيلة. ولما كان لا يمكن استئصال النزوات والميول، ينبغي توجيهها نحو هدف نبيل. وعلى ذلك يجب على كل منا أن يقدر على إرضائها في حدود الفضيلة وعلى نظامنا أن يهيئ له الأسباب.

«وعندما نحصل على عدد معين من المتشيعين الجديرين بنا في كل دولة، يعمل كل منهم على إيجاد اثنين آخرين يتحدان مع البقية، وهكذا حتى يصبح ميسوراً لنظامنا الذي عمل حتى الآن في السر كثيراً من الأعمال النافعة للإنسانية، والسعي إلى غايتنا المنشودة».

أحدث الخطاب في المحفل تأثيراً قوياً حتى واضطراباً. استقبلته الأكثرية ببرودة أوحشت پيار لأنها ظنت أنه ينطوي على المبادئ الهرطقية الخطيرة. أثار المعلم الأكبر اعتراضات، وشرح پيار أفكاره بحماسة متزايدة. لم يشاهد أحد من الإخوان من قبل جلسة صاخبة كهذه. وتألفت كتل وأحزاب: بعضهم يتهم پيار بالهرطقة والبعض الآخر يدافع عنه. أدرك پيار لأول مرة أن تباين العقليات اللامحدودة يحول دون كل حقيقة، مهما كان نوعها، والظهور بمظهر واحد في نظر شخصين مختلفين. حتى أولئك الذين اتخذوا موقف

الدفاع عنه، لم يفهموا أقواله إلا على طريقتهم، فأدخلوا عليها قيوداً وتعديلات لم يكن يستطيع الموافقة عليها وهو الذي ما أورد أفكاره كما أدركها وفهمها.

لفت المعلم الأكبر انتباهه في نهاية الجلسة بسخرية مقصودة إلى أنه تحمس أكثر مما ينبغي: ولا شك أن حب الكفاح قد سيّره أكثر من حب الفضيلة. لم يجب پيار بشيء بل سأل بإيجاز عما إذا كان عرضه مقبولاً. ولما تلقى جواباً سلبياً، خرج دون أن ينتظر الشكليات المألوفة ومضى إلى منزله.

الفصل الثامن

بقي پيار طوال الأيام الثلاثة التي تلت خطابه متمدداً على الكنبة لا يبارحها ولا يستقبل أحداً إذ عادت الكآبة العميقة تتسلّط عليه.

تلقى رسالة من زوجته، في هذه الفترة بالذات، تلتمس منه موعداً لمقابلته: كانت تعرب له فيها عن رغبتها في رؤيته لتكرس له وجودها مختارة، وتعلمه في ختامها بقرب عودتها إلى پيترسبورغ بعد إقامة طويلة في الخارج.

اقتحم بابه، بعد فترة من الزمن، أحد إخوانه الماسونيين الذي كان يتمتع بأحقر نصيب من تقديره، ووجه الحديث نحو حياة پيار الزوجية فصوّر له على شكل نصيحة أخوية أن الحزم الذي كان يبديه حيال زوجته غير عادل لأن رفض الصفح عن التائب يتنافى مع إحدى القواعد الأساسية لنظامهم المقدس.

وفي الوقت نفسه، بعثت حماته، زوجة الأمير بازيل، تطلب إليه مقابلتها. توسلت إليه أن يمنحها بعض وقته لأن لديها مسألة هامة تريد بحثها معه. عرف پيار أنهم يتآمرون في الخفاء لمصالحته مع زوجته لكن حالته المعنوية كانت في انحطاط كبير حتى أنه لم يحفل بالأمر إطلاقاً. بات كل شيء في نظره عديم القيمة، واقتنع بأن لا شيء في الحياة يستوجب البحث في مضاعفات. كان فيها فريسة الجمود وخمود الهمة فما عاد استقلاله يشغل باله وأحسّ بأن قراره الحازم الذي يقضي بمعاقبة زوجته قد تخاذل.

فكر: «ليس هناك من هو على حق وبالتالي من هو مذنب. فلا يمكنني إذن أن أتهمها بشيء».

وإذا لم يبادر من فوره لإقامة الصلح مع هيلين فما ذلك إلا لأن حالة التعب التي كان عليها، منعته من المباشرة بأي شيء. ولو جاءت زوجته تزوره لما صدها حتماً. ماذا يهمه، وهو على تلك الحال من المشاغل، أن يعيش معها أو يبقى وحيداً؟

ودون أن يجيب زوجته وحماته على رسالتيهما. قصد ذات يوم جميل إلى موسكو لاستشارة جوزيف ألكسييڤيتش. وفيما يلي ما دونه في مذكرته.

موسكو، ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر

أنا أخرج الآن من منزل «المحسن» وأبادر إلى إيراد مشاعري هنا. إن جوزيف ألكسييڤيتش يعيش عيش كفاف ويشكو منذ ثلاث سنوات من مرض أليم في المثانة. لم يسمع من أحد قط، صوته يجأر بالشكوى أو الأنين. إنه ينكب على الدراسة منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل، باستثناء الساعات التي يتناول خلالها طعاماً بسيطاً. استقبلني بمحبة وأجلسني على السرير حيث كان مستلقياً. حييته بإشارة فرسان الشرق والمقدس، فأجابني بإشارة مثلها وسألني عما تعلمته في محافل إيكوسيا وبروسيا. فسّرت له على قدر طاقتي وعرضت عليه الأفكار التي أدليت بها في المحفل في پيترسبورغ وبينت الاستقبال الرديء الذي لقيته تلك الآراء، ذلك الاستقبال الذي سبب انقطاعي عن الإخوان.

وبعد أن فكر جوزيف ألكسييڤيتش طويلاً، شرح لي وجهة نظره التي أنارت لي فوراً كل الماضي والسبيل الذي ينفتح أمامي في الحاضر. ولقد دهشت حينما سمعته يسألني عما إذا كنت لا أزال أذكر الهدف الثلاثي للنظام: ١ ـ المحافظة على الأسرار والتعمق فيها. ٢ ـ تطهير الذات ومعاقبة النفس وردعها لإعدادها للاشتراك في تلك الأسرار، ٣ ـ إصلاح الجنس البشري عن طريق المجهودات المبذولة في سبيل ذلك الإصلاح. أي هدف من هذه

الأهداف الثلاثة يعتبر أكثر أهمية؟ إنه دون أدنى شك إصلاح الذات، إنه الهدف الوحيد الذي نستطيع أبداً السعي إلى بلوغه رغم كل الاحتمالات. لكنه في الوقت نفسه، يتطلب منا أكبر الجهد. لذلك فإننا نزوغ عنه، تخدعنا الكبرياء، لنتعلق إما بالتعمق في الأسرار الذي يمنعنا تدنسنا من الغوص فيها والتوغل في خفاياها، وإما بإصلاح الجنس البشري في حين أننا نقدم أنفسنا مثالاً لفساد الخلق. إن الهرطقة على اختلاف أنواعها، الملوثة بالكبرياء الطامعة في لعب دور اجتماعي، ليست إلا عقيدة رديئة. واستناداً إلى ذلك لامني جوزيف ألكسييڤيتش على ما تقدم مني وعلى خطابي، فوافقته من أعماق روحي.

«وعندما تقدم مني، بدأنا نتحدث عن مشاكلي العائلية، قال لي: «إن واجب الماسوني الحقيقي الرئيس يقوم، وأكرر لك، على إصلاح ذاته. لكننا غالباً نتوهم أن بمقدورنا بلوغ هذه الغاية بأقصى سرعة بابتعادنا عن كل متاعب الحياة وأعبائها. بينما الأمر على العكس يا عزيزي. إننا لا نبلغ هذا الهدف إلا وسط مصائب الدهر وذلك للأسباب التالية: ١ ـ معرفة ذاتنا. لأن الإنسان لا يمكنه التعرف إلى نفسه إلا بالمقارنة. ٢ ـ الإصلاح، وهذا لا يتم إلا بالجهاد والكفاح، ٣ ـ الفضيلة أي حب الموت. إن ظروف الحياة وحدها تستطيع إظهارنا على كل الزهو الباطل وإلهامنا حب الموت أي الرغبة في بعث في عالم آخر جديد». إن هذه الكلمات على جانب كبير من الأهمية لا تضاهيها إلا أهمية صاحبها جوزيف ألكسييڤيتش الذي رغم آلامه الجسدية، لا يشكو أبداً من عبء الحياة. وعلى الرغم من حبه للموت فإنه يشعر بعدم إعداد نفسه إعداداً كافياً رغم كل النقاء والنبل اللذين تتصف بهما حياته الخاصة.

«ثم شرح المحسن المعنى العميق لمربع الخليقة الأكبر وبيّن لي أن الأرقام ثلاثة وسبعة، هي أساس كل شيء. نصحني كذلك ألّا أنقطع نهائياً عن الإخوان في پيترسبورغ ولكن أن أحذرهم من تبعات الكبرياء ونتائجها

وأعيدهم إلى طريق المعرفة الحقيقية وإصلاح الذات. في الوقت نفسه الذي أتشاغل خلاله بالقيام بأعمال من الدرجة الثانية في المحفل. أما فيما يتعلق بي شخصياً، فقد قادني إلى مراقبة نفسي وأعطاني لهذه الغاية دفتراً هو هذا الذي أخط على صفحاته هذه المذكرات والذي سأسجل فيه كل حركاتي في المستقبل».

«پيترسبورغ، ٢٣ تشرين الثاني»

«تصالحت مع زوجتي. جاءت حماتي تذرف الدمع وتقول لي إن هيلين هنا واستحلفتني أن أصغي إليها. إنها بريئة أيأسها هجراني وأشياء أخرى أيضاً. أنا أعرف تماماً أنني إذا سمحت لنفسي بالذهاب لرؤيتها، لن أستطيع رفض ملتمسها طويلاً. وفي هذا التردد الذي وقعت فيه، كنت أتساءل عمن ألجأ إليه. لو أن المحسن كان هناك، لكانت نصائحه جد ثمينة ومفيدة. تماسكت فترة طويلة وأعدت قراءة رسائل جوزيف ألكسييڤيتش. ثم تذكرت أحاديثنا وخرجت بنتيجة نهائية: يجب أن أتقبل من يبتهل إليّ وأن أمد إلى كل الناس يد العون وخصوصاً إلى ذلك الشخص الذي تربطه بي وشائج متينة. يجب علي إذن أن أحتمل عذابي. لكنني إذا كنت أصفح عنها حباً بالفضيلة، فإنني أتوقع أن لا يكون لرابطتي معها إلا هدف روحي فحسب. أما زوجتي، فقد رجوتها أن تنسى الماضي وتصفح عن أخطائي التي قد أكون ارتكبتها تجاهها. أما أنا، فليس عندي شخصياً ما يستحق أن أصفح عنه. سرني أن استطعت التحدث إليها على هذا النحو وأن تظل جاهلة مقدار النصب الذي احتملته بموافقتي على رؤيتها. لقد أقمت في الطبقة العليا من منزلنا وأتذوق الآن البهجة التي وفرها لي شعوري بالتجدد».

الفصل التاسع

كان أبناء المجتمع الراقي الذين يلتقون في البلاط أو في الحفلات الراقصة، في تلك الأثناء كما هي العادة، ينقسمون إلى حلقات لكل واحدة منها طابعها الخاص. وكانت الحلقة الأكثر عدداً هي حلقة الفرنسيين، التي يميل أفرادها إلى التعاون مع ناپليون ويرأسها الكونت رومیانتسیـڤ والكونت دوكولنكور[١] وما كادت هيلين تعود إلى الحياة مع زوجها حتى ارتقت إلى أرفع مقام في المجتمع. أخذ هؤلاء السادة الذين يتعلقون بالسفارة الفرنسية، وعدد كبير من الشخصيات ذوي الأذواق المتجانسة، يرتادون أبهاءها.

كانت هيلين في إيرفورت، صدفة، عندما تمت المقابلة بين الأمبراطورين، فصادفت هناك نجاحاً مرموقاً وارتبطت بعلاقات مع كل شخصيات أوروبا الناپليونية المهمين. ولقد لاحظها الأمبراطور نفسه ذات مرة في المسارح فقال عنها: «إنها حيوان رائع». ولما كانت محاسنها قد ازدادت، فقد بدا فوز هذه المرأة الأنيقة واجتذابها الأنظار، أمراً طبيعياً في نظر پيار. لكنه كان يتساءل دائماً كيف استطاعت خلال هذين العامين أن تكتسب شهرة: «المرأة الفاتنة الجميلة بقدر ما هي ذكية». كان الأمير الشهير دولين[٢] يكتب لها رسائل من ثماني صفحات. بينما كان بيليبين يدخر كلماته ليترك لهيلين الأولوية في

(١) جنرال فرنسي ولد ١٧٧٢، كان سفير روسيا، مثّل ناپليون في مؤتمر شانيون، قتل في معركة موسكو ١٨١٢. (المترجم).

(٢) كاتب شهير، جنرال بلجيكي في خدمة النمسا. (المترجم).

الكلام. وعلى هذا فإن الدخول إلى غرفة استقبال الكونتيسة بيزوخوف كان بمثابة وسام فكري للداخل إليه. يتعمّد الشباب قراءة الكتب قبل الذهاب إلى ندوتها ليعدوا لأنفسهم مواضيع يعالجونها، بينما يأتمنها أمناء السر في السفارات والسفراء أنفسهم، على أسرارهم الدبلوماسية. وبالاختصار، كانت سلطة مستقلة في نوعها. وكان پيار، وهو الذي يعرف أنها حمقاء، يحضر أحياناً مجالسها وهو فريسة لمزيج غريب من القلق من تلك الحفلات والسهرات والولائم التي كانوا يتحدثون خلالها عن السياسة والشعر والفلسفة. كان يحسّ بشعور الحاوي الذي يخاف أن يرى خدعته تنكشف في كل لحظة. لكن شهرة الكونتيسة بيزوخوف بوصفها امرأة متقدة الذكاء كانت وطيدة جداً، سواء أكانت الحماقة عاملاً ضرورياً لإدارة ندوة من هذا النوع أم كان الأغرار يجدون متعة في أن يُغرّر بهم، حتى أن هيلين كانت تستطيع الإدلاء بكل الحماقات التي تخطر ببالها ليهلل الحاضرون كلهم إعجاباً بكل كلمة نطقت بها، يحاولون البحث عن معنى عميق فيها، معنى لم تكن تحمل نفسها مشقة الإفصاح عنه.

كان پيار الزوج المنشود لهذه الاجتماعية اللامعة، زوجاً «سيد عظيم»، شاذ الطباع، لا يزعج أحداً ولا يتضايق من جلبة القاعة بل يصلح في الوقت نفسه ليكون دافعاً مبرزاً لأناقة زوجته وظرفها. ساعدته اجتهاداته الأخرى المنافية لكل هذه المظاهر، طوال عامين كاملين واحتقاره الكلي لكل ما عداها، على أن يتخذ في مثل هذه الندوات التي لا تثير اهتمامه، موقف لا مبالاة منطلقة من كل المجتمعين، لا يمكن اكتسابها بالصنعة، الأمر الذي يوحي ببعض الاحترام. كان يدخل قاعة زوجته وكأنه داخل إلى قاعة عرض يعرف فيها كل الموجودين، فيستقبل كلاً منهم بمثل ما يستقبل الآخر ثم يظل

بعيداً عنهم جميعاً بعداً متساوياً. فإذا بدت له إحدى المناقشات مجدية هامة، اشترك فيها وحينئذ يعرب عن آرائه مدندناً بوجهات نظر كانت أحياناً تتنافى كلياً مع الجو الذي تذاع فيه، دون أن يأبه لمعرفة ما إذا كان «السادة أعضاء السفارة» موجودين أو لا. لكن زبائن الندوة كانوا يعرفون تماماً كيف يعاملون ذلك الزوج البسيط، زوج «أبرز امرأة في پيترسبورغ»، فلا يأبهون لحماقاته.

لم يكن بين العدد الكبير من الأشخاص الذين يحاصرون ندوات الكونتيسة بيزوخوف يومياً بعد عودتها من إيرفورت، من يلقى مثل العناية التي يلقاها بوريس درويپتسكوي الذي حصل خلال تلك الفترة على مركز مرموق. كانت هيلين تسميه «تابعي» وتعامله معاملة الطفل. صحيح أن البسمات لم تكن تختلف عن بسماتها للآخرين، لكن پيار كان يغتم أحياناً اغتماماً شديداً بسببها. وكان بوريس يظهر لـ پيار احتراماً خاصاً موسوماً بوقار كئيب، لكن هذا الاحترام كان يقلقه بالمثل. لقد تألم بقسوة قبل ثلاثة أعوام للإهانة التي أصابته بها زوجته. لذلك فقد كان الآن يحاول تجنب إهانة مماثلة فهو ليس زوجاً لزوجته وهو كذلك لا يسمح لنفسه بالشك في سلوكها. كان يقول في سره:

ـ لقد أصبحت الآن «مشتبهاً فيها» لذلك فقد عزفت عن كل تصرفاتها الشائنة السابقة.

ويكرر لنفسه قائلاً: لم يسبق أن أصيبت «مشتبه فيها» بضعف عاطفي. والله وحده يعلم من أين أتى بهذا الزعم وأعطاه براءة المبدأ الثابت. مع ذلك، فإن وجود بوريس المستمر في قاعة زوجته كان يحدث في مزاجه تأثيراً غريباً: يشل كل أعضائه ويذهب بحرية حركاته وطبيعتها الغريزية.

كان يقول لنفسه: « يا للنفور العجيب! مع أنه كان من قبل يعجبني جداً».

وإذن، كان پيار في نظر الأوساط الراقية سيداً كبيراً وزوجاً كفيف البصر شاذاً لزوجة شهيرة، مبدعاً ولكن غير غبي، عاطلاً من العمل ولكن غير مسيء إلى أحد، وبالاختصار، رجلاً طيباً. لكن في نفس پيار، ظلت تقوم خلال هذه الفترة زوبعة مركبة عسيرة تصطخب في أعماقه، فتفتح له آفاقاً كثيرة وتسلمه إلى الشكوك، لكنها كانت تتيح له أيضاً متعاً روحية جمة.

الفصل العاشر

«٢٧ تشرين الثاني»

استمر پيار يدوّن في مذكراته. وفيما يلي ما سجله خلال تلك الفترة.

«٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر»

«نهضت في الساعة الثامنة وقرأت الكتاب المقدس ثم ذهبت إلى جمعيتي ـ ذاك أن پيار وافق نزولاً عند نصح «المحسن» على المساهمة في جمعية ـ عدت لتناول الطعام، فتناولته وحدي لأن لدى الكونتيسة عدداً كبيراً من المدعوين الذين لا أميل إليهم. أكلت وشربت بمقدار ثم نسخت بعد الطعام مستندات للإخوان. وفي المساء، عندما نزلت إلى جناح الكونتيسة، رويت قصة مثيرة عن (ب.). لكنني تبينت بعد فوات الأوان، ومن جلبة ضحكات الموجودين أنني أخطأت في سرد تلك القصة.

«إنني أنام سعيداً مشرق النفس. اللهم يا قدير ساعدني على السير في سبلك، وأعني: ١ ـ هزيمة نزعتي إلى الغضب بالصبر، ٢ ـ التفوق على المنكر والاشمئزاز، ٣ ـ إبعادي عن الزهو الدنيوي ولكن دون أن تقصيني في معزل عن: أ ـ شؤون الدولة، ب ـ مصالح الأسرة، ج ـ العلاقات الودية، د ـ المشاغل ذات الطابع الاقتصادي».

نهضت متأخراً، و بقيت فترة طويلة في سريري فريسة الكسل، اللهم

مد لي يد المساعدة وأعطني القوة على السير في سبلك! قرأت في الكتاب المقدس لكن من دون تركيز كافٍ. جاء الأخ أوروسوف، فتحدثنا عن البطلان الذي يسيطر على الناس، أطلعني على مشاريع الأمبراطور الجديدة. كدت أبادر إلى نقدها عندما تذكرت فجأة قواعدي وكلمات محسننا القائلة: إن الماسوني الحقيقي يجب أن يكون أداة ذات حمية في يد الدولة عندما يُطلب إليه المساهمة في شيء، ومتفرجاً سلبياً عندما لا تدعو الحاجة إليه. إن لساني هو عدوي. جاء الأخوان «ج. ف.» و«أو.» لزيارتي. اتخذنا الإجراءات لاستقبال جديد في المحفل. أنا طالب دور الملقن للعضو الجديد. إنني أحسّ أنني غير جدير بذلك وغير معد إعداداً طيباً.

تناقشنا بعدئذ في المعنى الواجب إعطاؤه للأعمدة ودرجات الهيكل السبع، والعلوم السبعة والفضائل السبع والرذائل السبع ومنح الروح القدس. السبعة كان الأخ «أو.» لبقاً. أقيمت الحفلة مساء، ساهم ترتيب المحفل الجديد في إضفاء جو من البهاء على المشهد. إن من قبلناه هو بوريس دروبيتسكوي. لقد زكيته. كنت طوال الوقت الذي قضيته بصحبته في الغرفة المظلمة، نهباً لشعور غريب. إنني أشعر نحوه بحقد أعمل عبثاً على التغلب عليه. أود بكل إخلاص أن أنقذه وأقوده في طريق الحقيقة. لكن الأفكار السيئة لا تغادرني. كنت أحدث نفسي بأنه لم ينضم إلى صفوفنا إلا للتقرب من بعض الشخصيات الهامة ذات النفوذ الواسع المتوافرة في محفلنا، ليفوز بعطفها. ألم يسألني مراراً عمّا إذا كان «ن.» و«س.» عضوين في محفلنا، الأمر الذي لا حق لي في البوح به؟ أضف إلى ذلك ما يبدو لي أنه غير قابل للشعور نحو نظامنا المقدس بالاحترام اللازم، لأنني أراه كثير التشاغل راضياً عن نفسه رضى لا ينتظر معه أن يرغب في تهذيب روحه.

مع ذلك، لم تكن لدي أسباب خاصة للشك فيه، لكنني أشعر أنه غير

مخلص حتى خيل إلي طوال الفترة التي قضيتها معه في الهيكل المعتم، أنه كان يبتسم باحتقار لسماع نصائحي، فتملكتني الرغبة في أن أخرق صدره العاري بالسيف الذي في يدي. لم أستطع إظهار بلاغتي، لكنني لم أكن أجد لشكوكي أسساً بينة لأطلع الإخوان والمعلم الأكبر عليها. آه يا مهندس الكون الأعظم، ساعدني على إيجاد الطريق الذي يقودني خارج متاهة الكذب».

وبعد ثلاث صفحات بيضاء، تعود كتابة المذكرات كما يلي:

«جرت لي مقابلة مطولة ومفيدة مع الأخ «ف.» الذي أوصاني بالتعلق بالأخ «آ.» اطلعت على أشياء كثيرة رغم أنني لا أستحق الاطلاع عليها. إن آدانوي هو اسم خالق الكون، وايلويم اسم الذي يريده! أما الاسم الثالث، وهو يفوق حد الوصف، فيعني «الكل». دعمت فؤادي محادثاتي مع الأخ «ف.» وثبتت خطواتي في طريق الفضيلة «هو» موجود، وكل شك يزول. إنني أرى بوضوح الفرق بين العلوم الفارغة التي يعلمونها في العالم، ومبادئنا المقدسة التي تحيط بكل شيء. إن العلوم البشرية تحطم كل شيء لتفهم وتقتل كل شيء لتفحص. أما في مبادئ نظامنا، فعلى العكس، الكل وحدة، كل شيء يصبح مفهوماً في تعقيده وفي حياته. إن الثلاثيات، عوامل الأشياء الثلاثة هي الكبريت والزئبق والملح. أما الكبريت فيضم خصائص الزيت والنار ممتزجة. وباتحاده مع الملح، يثير في نفسه بفعل النار التي يطويها بين جوانحه، الرغبة التي يجتذب الزئبق بواسطتها، فيمسك به ويحتفظ به ويحدث ـ بالاتحاد معه ـ الأجساد الملموسة أما الزئبق، فهو الجوهر الروحي في حالته السائلة وفي حالة التصعيد ـ المسيح، الروح القدس، الكون».

٣ كانون الأول/ ديمسبر

«استيقظت متأخراً وقرأت في الكتاب المقدس ولكنني لم أتحسس بما

قرأت. أخذت أذرع القاعة. أردت التفكير، لكن خيالي راح بدلاً من ذلك، يدفع في ذاكرتي بمشهد حدث منذ أربعة أعوام. قال لي السيد دولوخوف عقب مبارزتنا وقد التقاني في موسكو، إنه يأمل أن أنعم الآن، رغم غياب زوجتي، باستقرار فكري كامل، لم أجبه يومذاك. لكن ها إنني هذا الصباح، وأنا أستعيد كل تفاصيل ذلك اللقاء أوجه له الخطب الأكثر حنقاً وهجاء لاذعاً. بلغ غضبي مبلغ الهيجان عندما ثبت إلى نفسي: طردت هذه الأفكار لكنني لم أجد في ذلك عزاء كافياً وبعدئذ جاء بورس دروبيتسكوي.

وبدأ يقص أحدوثات، لم تعجبني زيارته منذ الوهلة الأولى لذلك فقد بسطت أمامه موضوعات شحيحة الأنس. جاوبني على أقوالي. ثرت وكلت له عدداً من الأشياء الخارجة على حدود اللباقة. فسكت وأسفت متأخراً على أقوالي. رباه إنني لا أعرف مطلقاً كيف أتصرف معه بسبب كبريائي إنني أضع نفسي في مستوى أعلى من مستواه ثم أهوي إلى درك أحط: والواقع أنه بينما يظهر تساهلاً حيال سماجاتي، لا أشعر تجاهه إلا بالكراهية. رباه، امنحني القدرة على أن أرى في حضرته عيبي أكثر مما أراه عادة، وأن أعدل سلوكي بشكل يصبح معه ملائماً حتى بالنسبة إليه. استرحت قليلاً بعد الغداء. وبينما أنا أفقد حواسي تدريجاً، سمعت صوتاً يهمس في أذني بوضوح: «لقد جاء يومك».

«حلمت أنني أسير في الظلام حتى وجدتني فجأة وسط كلاب تحيط بي. لكنني بقيت أسير دون أن أفرق وفجأة أطبق كلب صغير بأسنانه على ربلة ساقي اليسرى ولما لم يشأ التخلي عنها، أخذت أخنقه وما كدت أتخلص منه، حتى ألقى كلب آخر، أكبر من الأول، بنفسه علي وعضني. رفعته بين يدي وكلما رفعته ازداد كبراً وثقلاً. وفجأة جاء الأخ «آ.» وأمسك بيدي ثم جرني إلى بناء لا يمكن الدخول إليه إلا بالعبور فوق لوح ضيق من الخشب فلم

أكد أطأ بقدمي ذلك المعبر حتى ترنح وانهار. وعندئذ تسلقت حاجزاً دائرياً كانت يداي لا تبلغانه إلا بصعوبة. وبعد جهود مضنية، استطعت أن أرفع نفسي قليلاً، وأصبح جذعي متدلياً في جهة وساقاي في الجهة الأخرى. وفجأة لمحت الأخ «أ.» واقفاً فوق الحاجز يشير إلى ممرّ في حديقة. وفي تلك الحديقة بناء فسيح جميل. رباه، يا مهندس الكون الأعظم ساعدني على التخلص من كلابي وأعني للخلاص من رغباتي وشهواتي، وخصوصاً من الأخيرة التي تتركز فيها سلطة كل الرغبات الأخرى وقوتها. ساعدني اللهمّ على الدخول إلى هيكل الفضيلة الذي شاهدته في الحلم.

«٧ كانون الأول/ ديسمبر».

«حلمت أن جوزيف ألكسييڤيتش موجود عندي فكنت سعيداً جداً بزيارته راغباً في معاملته أفضل معاملة. مع ذلك كنت أثرثر مع آخرين حديثاً لا نهاية له، أدركت فجأة أن هذا التصرف لا يمكن أن يرضيه واعتجلت في نفسي رغبة ضمه بين ذراعي. وبينما كنت أقترب منه، رأيت وجهه يتبدل فيعود إلى الشباب وسمعته يحدثني ببعض كلمات عن مبادئ النظام ولكن بصوت هامس حتى إنني لم أستطع فهم أقواله. ثم خرجنا بعدئذ جميعاً من الغرفة فوقع أمر على جانب من الغرابة. كنا جالسين أو مستلقيين على الأرض وهو يحدثني. أما أنا، فكنت أريد أن أكشف له عن حنوي، وبدون أن أصغي إلى أقواله، تصورت حالة نفسي الداخلية التي أمدها الله بعون من لدنه تلألأت دموع في عيني فكنت أغتبط أن يكون رآها. لكنه حدجني بنظرة متذمرة وابتعد عني بعنف واضعاً حداً للحديث. روعت وسألته عما إذا كان قد رغب في التحدث عني. لم يجبني بشيء لكنه مع ذلك رمقني بنظرة مؤنسة وفجأة انتقلنا، دون أن أدري كيف، إلى غرفتي حيث كان فيها سرير مزدوج، نام على

حافة السرير وأنا ـ ألتهب برغبة إظهار حبي له ومودتي ـ نمت إلى جانبه. خيل إليّ أنه سألني:

«ما هي رغبتك المسيطرة؟ قلها لي دون مراوغة. هل توصلت إلى عزلها وحلها؟ نعم، لا شك أنك تعرفها الآن». اضطربت لهذا السؤال فأجبته بأنها: الكسل. هز رأسه بلهجة مكذبة. فقلت له إنني رغم سكناي مع زوجتي كما أوصاني، لا أعاملها معاملة الزوج. فاعترض على ذلك. وأفهمني أنه لا ينبغي لي حرمانها من ملاطفاتي وأسمعني تنويهاً أنني مرغم على ذلك. أجبته بأن ذلك يخجلني وفجأة اختفى كل شيء. استيقظت وفي رأسي هذا المقطع من الكتاب المقدس يدوي: «والحياة كانت نور البشر والنور يشع في الظلمات والظلمات لم تتلق ذلك النور». كان وجه جوزيف ألكسييڤيتش فتياً ومضيئاً. وفي اليوم نفسه، تلقيت رسالة من «المحسن» تبحث في الواجب الزوجي.

«٩ كانون الأول/ ديمسبر».

«حلم جديد دعاني عندما استيقظت خافق القلب، كنت في موسكو، في منزلي، في القاعة الكبرى ذات الكنبات، وجوزيف ألكسييڤيتش قادماً نحوي من جهة القاعة، لمحت على الفور نشوراً تم فيه فهرعت إلى استقباله. قبلت يديه فقال لي: «هل لاحظت أن وجهي لم يعد كسابق عهده»؟ رحت أنظر إليه بانتباه وأنا محتفظ به مضموماً إلى صدري: كان وجهه أصفر وقسماته مختلفة جداً ورأسه خالياً من الشعر. قلت له حينئذ: «لو إنني لقيتك صدفة لما فاتني أن أعرفك». لكنني كنت أقول في سري متسائلاً: «هل تفوهت بالحقيقة حقاً»؟ وفجأة رأيته أمامي ممدداً كالجثة. ثم عاد إلى رشده تدريجاً ودخل معي إلى غرفة كبيرة. كان يمسك بيده كتاباً كبيراً من أوراق البردي المدهون. قلت له: «إنني أنا الذي زوقت هذا الكتاب» فأشار لي إشارة الاستحسان. فتحت

الكتاب. كانت رسوم جميلة جداً تزين صفحاته. كنت أعرف أن تلك الرسوم تمثل مغامرات الروح مع حبيبها. على صفحة منه، ظهرت عذراء في ثياب شفافة وجسد مرمري، تحلق بين الغيوم. وكنت أعرف أن تلك العذراء هي صورة رمزية لنشيد الأناشيد. شعرت بأنني مخطئ في تأمل هذه الرسوم. لكنني لم أكن أستطيع نزع أنظاري عنها. اللهم هب إلى مساعدتي! أوّاه يا ربي، إذا كان الهجران الذي أنا فيه من صنعك، فلتكن مشيئتك! لكنني إذا صنعته بيدي وبخطأ مني، علمني ما يجب أن أصنعه. سوف يقتلني الفساد إذا تخليت عني نهائياً».

الفصل الحادي عشر

إن الوضع المالي لآل روستوف لم يتحسن حسبما كانوا يتوقعون بالرغم من أنهم أمضوا في الريف سنتين كاملتين.

ظل نيكولا مخلصاً لكلمته، باراً بالعهد الذي قطعه على نفسه، يعيش في فيلقه بتواضع. لكن نمط الحياة في مركز الأسرة الريفي في أوترادنوي وإدارة ميتانكا، جعلا الديون تزداد تضخماً من عام إلى آخر. فلم يجد الكونت العجوز وسيلة لدرء هذا الخطر إلا بالعودة إلى الخدمة. لذلك ذهب إلى پيترسبورغ باحثاً عن عمل. وفي الوقت نفسه، وبحسب تعبيره الخاص، إعطاء أوقات جميلة للفتيات الشابات للمرة الأخيرة للترفيه عنهن.

وبعد وصولهم إلى پيترسبورغ بمدة قصيرة، طلب بيرج يد ڤيرا، فقبل طلبه. كان آل روستوف في موسكو يعتبرون في عداد أرفع طبقة في المجتمع، دون أن يأبهوا في الحقيقة لمعرفة إلى أية طبقة ينتمون. لكنهم في پيترسبورغ أصبحوا على العكس لا يحظون إلا بعلاقات غير واضحة. ذلك أن عدداً كبيراً من الذين كانوا في موسكو يعتبرون أنهم وإياهم يقومون على صنف واحد، باتوا في پيترسبورغ لا يوافقون على الظهور مع هؤلاء القرويين الآتين من الأقاليم.

لكنهم استمروا يعيشون على طريقتهم في موسكو، تجمع ولائمهم أشخاصاً من مختلف الطبقات: وصيفة شرف، الآنسة پيترونسكي، تجاور بعض القرويين الموسرين وفتياتهم، پيار بيزوخوف إلى جانب ابن رئيس

البريد في منطقتهم الموظف في العاصمة. وكان أكثر الرجال ألفة في بيت آل روستوف، بوريس پيار الذي قابله الكونت العجوز في الشارع واصطحبه في شبه قسر إلى منزله، ثم «بيرج» الذي كان يقضي عندهم أياماً كاملة ويعرب لابنتهم البكر، الكونتيسة ڤيرا، عن لهفته التي تفضح نياته في الزواج بها.

لم يظهر بيرج ذراعه اليمنى التي أصيبت في معركة أوسترليتز لكل وافدٍ عبثاً ولا أمسك بعناد بيده اليسرى سيفاً لم يكن يفيده في شيء. لقد أقنعت لهجته الخطيرة التي كان يحدث بها كل وافد، أي وافد، عن شجاعته وجرحه، كل من حوله حتى أن وسامين جاءا أخيراً يشهدان ببسالته في أوسترليتز.

وكذلك منحته حرب فنلندا فرصة للظهور. التقط شظية قنبلة أصابت مساعداً عسكرياً فقتلته قرب القائد الأعلى وسلمها إلى رئيسه. وكما فعل عقب معركة أوسترليتز، راح يروي القصة بإلحاح حتى أعجب كل من حوله ببسالته مجدداً ومنح من أجل ذلك مكافأتين. وفي عام ١٨٠٩ أصبح برتبة رئيس في الحرس وبات يحتل مركزاً خاصاً مرموقاً.

كان بعض المتشككين يبتسمون كلما دار البحث حول مواهب بيرج وشجاعته. لكنهم لا يستطيعون الإنكار بأنه ضابط شجاع مرموق جداً من قبل رؤسائه، وشاب يعيش عيشة طيبة، ينتظره مستقبل باهر وأنه بلغ حتى الآن مركزاً مرموقاً في المجتمع.

قبل أربعة أعوام، عندما قابل بيرج أحد رفاقه الألمان في موسكو في حديقة مسرح هناك، أشار إلى ڤيرا روستوف وقال له بلغته: «ستكون هذه زوجتي». ومنذ ذلك الحين، اتخذ قراره. بدا له مركزه الآن معادلاً لمركز آل روستوف، إذن فقد حانت اللحظة المناسبة فتقدم بطلبه.

بادئ الأمر، قوبل عرضه بتحفظ لا يبشر بالخير، اعتبروا أن من الغرابة أن يتقدم ابن سدليفوني مغمور بطلب الزواج من كونتيسة روستوف، لكن أخلاق

بيرج كانت تمتاز بطابع خاص من الأنانية البريئة حتى أن آل روستوف انتهى بهم الأمر إلى القول إن الأمر يجب أن يكون كذلك، لأنه هو نفسه كان مقتنعاً به. أضف إلى ذلك أن الخطيب لا يمكن أن يجهل تشوش أوضاعهم المالية، ثم إن ڤيرا قد بلغت الرابعة والعشرين واختلطت كثيراً بالأوساط فلم يتقدم أحد لطلب يدها رغم وفرة جمالها واحتشامها وعلى ذلك وافق آل روستوف على الطلب.

قال بيرج لزميله الذي يسميه صديقه لأن العادة تقضي بأن يكون للمرء صديق: اصغ: لقد وزنت كل شيء وحسبت كل شيء وما كنت لأتزوج أبداً لو أن القضية تعرضت لأي مانع. ولكن كما ترى لا يحتاج والداي شيئاً بعد أن أقطعتهما أراضي أقاليم البلطيق. أما أنا فإنني أحسن الحساب لدرجة لا تجعل العيش في بيترسبورغ متعذراً إذا اجتمع راتبي بثروتها هي. سوف يمكننا أن نعيش على أفضل ما يرام. إنني لم أتزوجها بالطبع من أجل مالها لأن ذلك لا يعتبر نبلاً، ولكن يجب على الزوج والزوجة أن يتشاركا كل في حدود طاقته في إنشاء حياتهما. إن لي مركزي ولها علاقاتها وندوتها الصغيرة. وأعتقد أن مثل هذه الأمور في أيامنا هذه ليست مكروهة على ما أظن؟ وأخيراً وقبل كل شيء إنها فتاة رائعة وتحبني...

وابتسم بيرج لدى تفوهه بهذه الكلمات واحمرّ وجهه.

ـ ثم إنني أحبها أنا الآخر لأن لها عقلية ممتازة... إن أختها الثانية تختلف عنها كلياً... إنها على خلق رديء ينقصها الإرهاف ولست أدري كذلك ما ينفرني منها... أما خطيبتي فسوف تأتي غالباً...

ـ وهمّ أن يقول «لتناول الطعام» لكنه استدرك وقال ـ... لتشرب الشاي عندنا.

وبحركة خاصة من لسانه أطلق دائرة من الدخان، مثالاً كاملاً لأحلامه في السعادة.

أجواء من الفرح تفرضها الظروف في مثل هذه المناسبات تلت لحظة الدهشة الأولى التي سببّها طلب بيرج. لكن هذا الفرح كان مصطنعاً. كان الأبوان مرتبكين وعلى شيء من الخجل وكأنهما يوبخان نفسيهما على قلة محبتهما لابنتهما ورؤيتهما لها تذهب دون أسف. كان الكونت العجوز أكثر استياءً من زوجه لأن المسألة المادية كانت تؤرقه وإن لم يكن قد أعلن عن شعوره بصراحة. كان يجهل حالته المالية ومجموع ديونه والبائنة التي يستطيع بحكم مركزه المالي أن يمنحها لـڤيرا، لقد خصص لكل من بناته عند ميلادها بائنة قدرها ثلاثمائة عبد. لكن واحدة من قراه المخصصة لهذه الغاية بيعت والثانية رهنت بكل ما فيها. وعلى ذلك لم تعد أملاكه تدخل في حساب التغطية. للتغطية، فكان عليه والحالة هذه اللجوء إلى النقد. ولكن من أين يأتي بالمبالغ النقدية؟

منذ أكثر من شهر، أعلنت خطوبة بيرج وانتظر أن يُحتفل بالزواج في خلال أسبوع. مع ذلك فإن الكونت لم يكن بعد قد قرر شيئاً بصدد البائنة ولا أطلع زوجته على هذه المسألة. كان يزمع أحياناً إقطاع ابنته ڤيرا أملاكه في ريازان وحيناً آخر يفكر في بيع غابة أو استقراض نقود لقاء صكوك نقدية. وقبل الحفلة بأيام معدودة دخل بيرج في الصباح الباكر على الكونت في مكتبه وسأل حماه المقبل باحترام والابتسامة على شفتيه أن يتفضل بإعطائه إحصاء دقيقاً عن بائنة الكونتيسة ڤيرا. وعلى الرغم من توقع الكونت مثل هذا السؤال منذ أمد بعيد إلا أنه ارتبك لدى سماعه ارتباكاً شديداً حتى أنه أجاب غير عامد بأول ما جادت به قريحته.

ـ إنني سعيد إذ أراك تشغل نفسك بهذا الموضوع. هذا حسن، حسن جداً. لن يكون في الأمر ما يستدعي التذمر.

ونهض بعد أن ربت كتف بيرج وكأنه يضع حداً للمحادثة، لكن بيرج الذي بقي محتفظاً بابتسامته الوديعة، أعلن أنه إذا لم يعرف قيمة البائنة على الضبط ولم يقبض منها جزءاً أقله سلفاً فإنه سيضطر إلى سحب طلبه.

ـ إنك تعرف يا كونت أنني إذا تزوجت دون أن أطمئن إلى قدرتي على إعالة زوجتي وتوفير طلباتها فلن يكون تصرفي شريفاً.

ولكي يبرهن الكونت على كرمه ويقطع الطرق في وجهه طلبات جديدة وعد بتقديم صك معتمد بقيمة ثمانين ألف روبل. فطافت بشفتي بيرج ابتسامة حانية وقبّل كتف الكونت معلناً له عظيم شكره مؤكداً أنه لا يستطيع البدء بإنشاء كيان أسرته دون أن يقبض ثلاثين ألف روبل بالعملة الدارجة ثم صحح طلبه قائلاً: أو أقله عشرين ألف روبل يا كونت. وفي هذه الحال لن تكون قيمة الصك المعتمد أكثر من ستين ألف روبل.

فوافق الكونت على الفور قائلاً: نعم، نعم. ولكن اعذرني يا صديقي. سوف تقبض عشرين ألف روبل نقداً ويبقى الصك المعتمد بقيمة ثمانين ألف روبل، هيا قبلني.

الفصل الثاني عشر

في العام ١٨٠٩، بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها، وهو العام الذي حددته لبوريس وهي تعد على أصابعها قبل أربعة أعوام عندما قبلها. ومنذذاك لم تره مرة واحدة. فإذا جاء ذكره أمام سونيا وأمه، كانت تقول بكل طلاقة إن كل هذه القصص القديمة لم تكن إلا صبيانيات نسيت منذ زمن بعيد. لكنها تتساءل في أعماق نفسها في شيء من القلق عما إذا كان عهدها لبوريس مجرد دعابة أو وعداً جدياً.

لم يطأ بوريس منزل آل روستوف منذ التحاقه بالجيش عام ١٨٠٥ مع ذلك فقد حل مراراً في موسكو ومر على مقربة من أوترادنوي دون أن يعرج عليها. وكانت ناتاشا تتصور أحياناً أنه لا يرغب في رؤيتها وتدعم هذا الاعتقاد في نفسها اللهجة الحزينة التي يتحدث بها المسنون في الأسرة كلما تطرقوا إلى ذكر الشاب.

كانت الكونتيسة تقول إذا نُوّه أمامها بذكر بوريس. أصبح الناس في عصرنا هذا ينسون أصدقاءهم القدامى.

وكانت أنا ميخاييلوفنا التي أصبحت قليلة التردد إلى العائلة تحتفظ بعلاقات محدودة معها، تطري بحماسة ملحوظة مواهب بوريس ونجاحه اللامع كلما ورد ذكره في حضرتها.

وعندما استقر آل روستوف في بيترسبورغ، ذهب بوريس لزيارتهم وهو

يشعر بالاضطراب. كانت ناتاشا ذكراه الأكثر شاعرية وعذوبة وكان مزمعاً إفهامها وذويها أن علاقة طفولتهما يجب ألّا تجر وراءها أية ارتباطات بالنسبة إليه. فصداقته الوثيقة مع الكونتيسة بيزوخوف أتاحت له مركزاً مرموقاً في المجتمع وحماية الشخصية المتنفذة التي كان يتمتع بثقتها المطلقة تؤمن له مستقبلاً لامعاً. فكان بإمكانه الآن أن يغذي في نفسه في غير زهو مشاريع زواج من أغنى فتيات أسر پيترسبورغ.

كانت ناتاشا في غرفتها عندما دخل بوريس قاعة استقبال آل روستوف. وما إن علمت بقدومه حتى احمرّ وجهها وأسرعت مشرقة الوجه بابتسامة فيها أكثر من معنى الود. وكان بوريس يحتفظ بذكرى بنية في أثواب قصيرة ذات عينين سوداوين لامعتين تحت خصلات من الشعر المتمرد وضحكة مجنونة، فلمّا رأى ناتاشا الأخرى تدخل القاعة اضطرب وفضحت وجهه دهشة أسعدت الفتاة.

قالت له الكونتيسة: كيف، ألم تعد تعرف صديقتك الصغيرة الشيطانية؟

قبّل بوريس يد ناتاشا وأعلن دهشته للتغيير الذي طرأ عليها.

ـ كم ازددت جمالاً!

فأجابت عينا ناتاشا: «إنني أعتقد ذلك»! بينما قال لسانها: وأبي هل شاخ؟

جلست وراحت تراقب بصمت خطيب طفولتها في أدق حركاته دون أن تشترك في الحديث الدائر بينه وبين الكونتيسة. أما بوريس فكان يشعر بثقل تلك النظرة الودية فيكاد من حين إلى آخر يتورط في إجابتها بمثلها. لاحظت ناتاشا أن ثوب بوريس ومهمازيه وربطة عنقه وطريقة ترجيل شعره مطبوعة كلها بطابع الذوق المرهف والـ«كما يجب». كان جالساً على ثلاثة أرباع مقعد

إلى جانب الكونتيسة يسوي بيده اليمنى القفاز الأنيق الذي يضم يده اليسرى. فكان حيناً يسرد وهو يمرر شفتيه بحركة مفضلة، مسرات الطبقة الراقية في بيترسبورغ ويستعيد حيناً آخر في سخرية خفيفة ذكريات موسكو وعندما كان يدخل في كل خبر من أخبار الطبقة الراقية عن حضور سفير ما إلى حفلة راقصة أو عن الدعوات التي تلقاها من «ن.ن.» أو من «س.س.» كانت ناتاشا تشعر أن قوله هذا بعيد عن الخفة.

كانت تراقبه خلسة وهي صامتة. ولما أقلقت تلك النظرة بوريس، توقف فجأة عن متابعة الحديث والتفت إليها في مزيد من الإلحاح. ولم تمض عشر دقائق حتى نهض واستأذن منصرفاً تشيعه تانك العينان المتطلعتان نصف المتحديتين ونصف الساخرتين تحصيان عليه حركاته.

بعد هذه الزيارة الأولى، اعترف بوريس، بأنه لا يزال يجد ناتاشا جذابة كما في السابق. لكنه اعترف في الوقت نفسه بأنه يجب ألّا يستسلم لذلك الميل: إذ إن الزواج من فتاة شبه مفلسة يهدم كل مشاريعه المقبلة. بينما العودة إلى توثيق الصلات السابقة دون مقصد جدي تعتبر عملاً غير شريف. لذلك قرر البقاء في معزل. لكنه رغم هذا القرار الرائع، عاد لزيارة آل روستوف بعد أيام قليلة ثم كرر زياراته حتى انتهى به الأمر إلى قضاء أيام كاملة عندهم.

كان يؤمن أن من واجبه التفاهم بصراحة مع ناتاشا وإبلاغها بوجوب نسيان الماضي لأنها لا يمكن، برغم كل شيء، أن تصبح زوجته وهو الذي لا مال لديه، أضف إلى ذلك أنهم لن يوافقوا مطلقاً على تزويجها به. لكنه لم يكن يعرف كيف يتصرف بل كان يزداد كل يوم تدلهاً. وبدت ناتاشا من جانبها ـ كما لاحظت أمها وسونيا تعود إلى غرامها السابق ببوريس! كانت تغني له الأغنيات التي يفضلها وتطلب إليه أن يكتب شيئاً في مجموعتها وتمنعه من

التفكير في الماضي ملمحة إلى أن الحاضر أفضل منه وأحسن. وفي كل يوم كان بوريس يخرج من عندها كالمسحور دون أن يطرق التفاهم العتيد ودون أن يدري لماذا جاء وكيف سينتهي كل ذلك. ولقد ظلت هيلين التي لم يعد بوريس يظهر في حفلاتها تسأل عنه يومياً وتمطره وابلاً من بطاقاتها المليئة باللوم دون أن يمنعه ذلك من قضاء أيامه عند آل روستوف».

الفصل الثالث عشر

عندما ارتفع صرير الباب وبدت ناتاشا في ثياب النوم ثم اندفعت إلى غرفتها، كانت الكونتيسة العجوز تعتمر قلنسوة الليل وترتدي جلباب النوم القصير تصلّي. وكانت الكونتيسة قد نزعت شعرها المستعار وعصبت شعرها الطبيعي بقطعة قماش قطني لم تظهر منه إلا خصلة صغيرة. أما ناتاشا فكانت تلف شعرها بغطاء خاص وتلبس في قدميها خفاً منزلياً. التفتت الكونتيسة وقطبت حاجبيها بينما أكملت صلاتها: «هل سيصبح فراشي هذا تابوتي حقاً»، عندما رأت ناتاشا أمها مستغرقة في الصلاة توقفت في مكانها محمرة الوجه منتعشة الأسارير وجلست القرفصاء وهي تظهر طرف لسانها وكأنها ضُبطت مرتكبة خطيئة. وبينما استرسلت أمها في صلاتها أسرعت نحو السرير ونزعت خفيها ثم قفزت فوق ذلك الفراش الذي كانت الأم تشك في أن يصبح تابوتها. وكان المرقد عبارة عن سرير من الريش وضعت عليه خمس وسائد بين صغيرة وكبيرة.

دفنت ناتاشا نفسها بين تلك الوسائد وتدحرجت حتى استقرت في الفراغ وربضت تحت الغطاء تضحك ضحكة مكتومة وترتج وتتحرك وتلاعب ساقيها تارة وترفع ركبتيها إلى أسفل ذقنها تارة أخرى، تخفي رأسها تارة وتختلس النظر إلى وجه أمها تارة أخرى. وعندما انتهت هذه من أدعيتها اقتربت من السرير بصرامة. ولكنها ما إن رأت ناتاشا تخفي رأسها تحت الأغطية حتى شعت الابتسامة على وجهها وقالت: هيا، هيا!

سألت البنت: أماه، هل نستطيع التحدث معاً؟ نعم، أليس كذلك؟... هيا قبليني في عنقي، قبلة أخرى، هل تريدين؟ حسناً إن هذا جيد.

طوقت الكونتيسة وقبلتها أسفل ذقنها. لقد كان لها مع أمها أساليب عنيفة ولكن على جانب كبير من المهارة. فإذا أخذتها بين ذراعيها، كانت تتدبر الأمر دائماً بحيث تكون مداعباتها لا قاسية ولا مزعجة.

قالت الكونتيسة وهي متكئة على وسائدها ويداها فوق الشراشف ووجهها رزين، تطلب من ابنتها، بعد أن تدحرجت مرتين حول نفسها، الاستقرار بجانبها تحت لحاف واحد: حسناً، ماذا لديك اليوم؟

قبل عودة الكونت من النادي، كانت زيارات ناتاشا الليلية لأمها إحدى المتع الكبيرة لدى الأم والفتاة على السواء. كررت الكونتيسة: ماذا لديك اليوم؟ لقد كنت مصرّة على التحدث إليك بدوري...

وضعت ناتاشا يدها على فمها وقالت بلهجة جدية:

ـ عن بوريس... نعم، إنني أعرف. ولقد جئت من أجل ذلك. لا تقولي شيئاً، أعرف...

ثم رفعت يدها وتابعت: بل تكلمي، إنه لطيف أليس كذلك؟

ـ ناتاشا، عمرك الآن ستة عشر عاماً. وأنا كنت متزوجة عندما كنت في مثل سنك. تقولين إن بوريس لطيف... نعم، إنه لكذلك، وإنني أحبه كما أحب ولدي. ولكن ما هي مراميك؟ لقد سلبت عقله تماماً، إنني أرى ذلك بوضوح...

استدارت الكونتيسة نحو ابنتها. كانت ناتاشا شاخصة بأنظارها إلى واحد من أهرامات خشب الكابلي المحفورة في زوايا السرير وهي جامدة بأنظارها حتى أن أمها لم تستطع رؤية وجهها إلا رؤية جانبية. ومع ذلك فإن أمارات الوجه الجدية المركزة لم تدهش الكونتيسة.

قالت ناتاشا بعد فترة وجوم: حسناً، وبعد؟

ـ لقد سلبت لبه تماماً ولكن إلى أين يبلغ بك الأمر؟ ما هي غاياتك؟ أنت تعرفين تماماً تعذر زواجك به.

سألت ناتاشا وهي جامدة: ولمَ يالله؟

ـ لأنه لا يزال يافعاً ولأنه فقير ولأنه قريبك... وأخيراً لأنك لا تحبينه.

ـ وماذا يدريك؟

ـ إنني أعرف ذلك. وهو ليس بالأمر الحسن يا عزيزتي.

ـ لكنني إذا كنت أريد...

ـ لا تتفوهي بالسخافات.

ـ لكنني إذا كنت أريد...

ـ ناتاشا، إنني أكلمك جدياً...

ولم تدعها تكمل حديثها، جذبت ناتاشا يد الكونتيسة الضخمة إليها فقبلتها في ظهرها ثم في باطنها ثم أدارتها من جديد وطبعت قبلة فوق مفصل إصبعها ثم فوق الفراغ الذي يليه ثم فوق مفصل الإصبع الأخرى وهي تعد:

ـ كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، أيار... هيا تحدثي يا أماه، لم لا تتكلمين؟ تحدثي...

ونظرت إلى أمها بعين مستوضحة فرأتها تسرّح فيها نظرة حانية وكأنها نسيت في تأملها ذاك كل ما كانت تريد أن تقوله:

ـ هذا غير مناسب يا عزيزتي. ليس كل الناس على علم بزمالتكما أيام الطفولة، والألفة التي تظهرينها له اليوم يمكن أن تكون ذات ضرر بالنسبة إليك بين الشبان الآخرين الذين يرتادون بيتنا. ثم إنها عذاب بالنسبة إليه. لعله يجد أسرة غنية تناسبه. وها إنك الآن تسلبينه عقله.

أجابت ناتاشا: حقاً؟

ـ أستطيع أن أخاطبك عن علم. لقد كان لي ابن عم...

ـ آه! نعم، سيريل ماتـڤييتش. لكنه كهل...

ـ لم يكن كهلاً منذ ولادته. على ذلك يا ناتاشا، سوف أتحدث إلى بوريس. يجب ألّا يزورنا بمثل هذه المثابرة...

ولمَ تحدثينه إذا كان هذا يروقه؟

لأنني أعرف أن هذا لن يصل به إلى النتيجة...

قالت ناتاشا بلهجة من يُسلب ملكه.

ـ وماذا يدريك؟ كلا يا أماه، لا تقولي له شيئاً... يا لها من حماقات لن أتزوجه، ليكن! ولكن لمَ لا يثابر على المجيء إلى هنا ما دام ذلك يروّح عنا كلينا؟ إنني لن أتزوجه، لكننا سنحب بعضنا «وهكذا».

وانسابت نحو أمها مبتسمة: كيف، «هكذا»!

ـ نعم، «هكذا». إن الزواج لا يهمني... وإذن «هكذا».

كررت الكونتيسة بينما راح جسدها الضخم يهتز بشدة جراء ضحكة عميقة: هكذا، هكذا.

صاحت ناتاشا: لا تضحكي بهذه القوة، إنك تزلزلين السرير... إنك تشبهينني شبهاً مدهشاً، إنك ضحاكة مثلي...

وأمسكت بيدها وأخذت تعدّ وهي تطبع قبلة على مفصل الإصبع الصغيرة:

ـ حزيران.

ثم انتقلت إلى اليد الأخرى واسترسلت: «تموز، آب...» أماه هل يحبني كثيراً؟ ما رأيك فيه؟ هل أحبوك بمثل هذا القدر؟ نعم، إنه لطيف، لطيف جداً جداً.. لكنه لا يروقني تماماً إنني أراه على شيء من الهزال.. أشبه بصندوق ساعة الجدار... إنه أشهب، ناصع.

ـ ما هذا اللغو!

ـ كيف، ألا تفهمينني؟... يفهمني نيكولا، هو... بيزوخوف مثلاً أزرق مشبع مموّه بالأحمر ثم إنه مربع كذلك.

قالت الكونتيسة ضاحكة: يخيل إلي أنك تتطرفين مع هذا أيضاً.

مطلقاً... لقد علمت أنه من الإخوان الماسونيين... إنه فتى طيب، أزرق مشبع مموه بالحمرة... كيف أفسر لك هذا؟...

وارتفع صوت الكونت من وراء الباب: ألست نائمة بعد أيتها الكونتيسة الصغيرة؟

قفزت ناتاشا إلى أسفل السرير وأمسكت بخفيها ثم فرت حافية القدمين. بقيت تتقلب على فراشها فترة طويلة. كان تفكر في أن ما من أحد يفهم كل ما يخيل إليها أنه شديد الوضوح وما يعتلج في أعماق نفسها.

حدثت نفسها وهي تنظر إلى القطة الصغيرة النائمة على شكل دائرة لا يظهر منها إلا الضفيرة الضخمة: «سونيا؟ أوه، كلا! إنها شديدة التعلق بالفضيلة. إنها تحب نيكولا «ها» ولا تريد التطلع إلى شيء آخر. إن أمي هي الأخرى لا تفهمني. رباه، كم أنا ذكية إذن!...

وتابعت تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب المفرد وكأن الحديث صادر عن فم إنسان من الجنس الآخر يظهر لها كل مزايا جنسها الكاملة: «إن ناتاشا هذه لفتنة رائعة حقاً! إن لديها كل شيء، كل شيء لها وحدها. إنها ذكية ولطيفة وجميلة... إنها تسبح وتركب الخيل بمهارة وتغني غناء ساحراً... نعم يمكن القول بأنه غناء ساحر»!

ودندنت أحد أنغامها المفضلة، جملة مستعارة من أوبرا شيروبيني[1]

---

(١) موسيقي إيطالي من فلورنسا، مدير كونسرڤتوار باريس. (المترجم).

وارتمت على سريرها وهي تضحك للفكرة التي جاءتها من أنها ستنام فوراً، فنادت دونياشا لتطفئ الشمعة. ولم تكد هذه تخرج من الغرفة حتى كانت ناتاشا تحلق في دنيا الأحلام، دنيا أكثر سعادة من هذه، حيث كل شيء فيها جميل وسهل وهو أفضل منها لأنه يختلف عنها.

استدعت الكونتيسة في اليوم التالي، بوريس وتحدثت معه. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد بوريس يرى عند آل روستوف.

الفصل الرابع عشر

أقيمت ليلة إحياء عند أحد كبار الشخصيات المتبقين من عهد كاترين، في الواحد والثلاثين من كانون الأول، ليلة بداية سنة ١٨١٠، وكان الأمبراطور والسلك الدبلوماسي كله سيحضرها.

كان قصر ذلك السيد العظيم، درة «رصيف الإنكليز»، يشع بألوف المصابيح، وقد فرشت أمام المدخل المنار بوفرة، سجادة حمراء ثمينة، وأقام رجال الدرك من أجسادهم حاجزاً تحت إشراف مدير الشرطة وعشرات الضباط لمنع ازدحام المتفرجين. وبدأت العربات التي يواكبها وُصفاء وتابعون بأثوابهم الحمراء وقبعاتهم المريّشة، تجيء وتروح دون انقطاع، حاملة سادة بثيابهم الرسمية تزين صدورهم الأوسمة وسيدات متدثرات بفراء السمور الأبيض، غارقات في الحرير، يهزلن في حذر على المواطئ المنزلة بصخب وينزلقن رشيقات فوق سجادة المدخل.

وكلما وصلت عربة، سرت تمتمة بين الحشود وارتفعت القبعات وتبودلت العبارات: أهو الأمبراطور؟... كلا، بل وزير... أمير... سفير... ألا ترى الريش؟...

كان أحد البلهاء، وهو أفضل من غيره لباساً، يبدو وكأنه يعرف كل الناس، ويميز كلاً من كبار ذوي المناصب في ذلك العهد باسمه.

وبعد أن وصل ثلث المدعوين إلى مكان الاحتفال، لم يكن آل روستوف، وقد وجهت إليهم الدعوة لحضور تلك الحفلة الراقصة أيضاً، قد انتهوا من

زينة الشعر بعد. لقد أثارت تلك الحفلة عندهم كثيراً من الثرثرة والاستعداد بل من المخاوف أيضاً: ترى هل توجه إليهم الدعوة؟ هل تكون أزياؤهم جاهزة؟ هل ينتهي كل شيء كما يتمنون؟

كانت ماري إينياتييغنا پيرونسكي، وهي سيدة هزيلة صفراء وصيفة شرف سابقة في البلاط وصديقة وقريبة للكونتيسة، قد وعدت بمرافقة هؤلاء الإقليميين، آل روستوف، لتكون لهم بمثابة الدليل في الأوساط الراقية في پيترسبورغ، وكان على هؤلاء أن يمروا بمنزلها لاصطحابها، في الساعة العاشرة. ويقع منزلها في «غاردان توريد» وهو مقر الأمبراطورة الأم. وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة إلا خمس دقائق والفتيات لم يرتدين ثيابهن بعد.

بالنسبة إلى ناتاشا، كانت هذه أول حفلة راقصة كبرى في حياتها. استيقظت في الثامنة صباحاً وأمضت نهاراً في اضطراب شديد بذلت كل قواها طوال النهار، لتكون أمها وسونيا وهي على أحسن هندام ممكن. ولقد استسلمت لها الكونتيسة وسونيا بشكل مطلق، تقرر أن ترتدي الكونتيسة ثوباً من المخمل بينما ترتدي الفتاتان أثواباً بيضاء هفهافة فوق «أجفن» من الحرير الوردي وأن تزين الورود خصريهما، بينما يصفف شعر ثلاثتهن على الطريقة اليونانية.

أجريت الترتيبات واتخذت الاستعدادات الجوهرية. فالأذرع والأرجل والأعناق والوجوه والآذان، غسلت كلها بعناية وضمّخت بالعطور ونثرت فوقه الذرور بما يتفق وحفلة راقصة ولبست الجوارب الحريرية الجديدة والأحذية المصنوعة من الساتان، وانتهت إعدادات زينة الرأس تقريباً.

كانت سونيا على وشك الفراغ من زينتها العامة والكونتيسة كذلك. لكن ناتاشا، لكثرة ما تشاغلت في زينة الأخريات، تأخرت في إعداد زينتها، كانت

حينذاك لا تزال جالسة أمام مرآتها تذثر كتفيها النحيلتين بمئزر، وفي وسط الغرفة، وقفت سونيا تغرز دبوساً في شريط لتثبته في مكانه فامتنع وبلغ بها الضغط مبلغ إيلام إصبعها.

قالت ناتاشا وهي تستدير ممسكة بشعرها بين يديها قبل أن تجد الوصيفة وقتاً للتخلي عنه: ليس على هذا النحو يا سونيا. العقدة ليست هكذا. تعالي.

وجلست سونيا قريباً منها فغيرت ناتاشا وضع الشريط. وقالت الوصيفة وهي لا تزال ممسكة بشعرها: أعذريني يا آنسة، لا سبيل أبداً...

ـ آه! يا رب. تستطيعين الانتظار قليلاً... هكذا يا سونيا، لقد استقام الأمر الآن.

وتدخّلت الكونتيسة هل انتهيتما؟ تكاد الساعة تدقّ عشراً.

فوراً، فوراً. وأنت يا أماه، هل أنت جاهزة؟

ـ لم يبق علي إلا وضع قلنسوتي.

صاحت ناتاشا: لا تضعيها بدوني. لن تحسني وضعها!

ـ ولكن الساعة قد بلغت العاشرة.

كان مقرراً أن يصل ركبهم إلى مكان الحفلة في العاشرة والنصف، مع ذلك لم تكن ناتاشا قد ارتدت ثيابها بعد، ثم كان عليهم المرور بقصر «التوريد» لاصطحاب قريبتهم.

انتهت ناتاشا أخيراً من شعرها فأسرعت مزملة بثوب داخلي لأمها فوق «تنورة» قصيرة تظهر تحتها أحذية الرقص، تفحص سونيا ثم انتقلت منها إلى الكونتيسة. أدارت لها رأسها وأثبتت قلنسوتها بدبوس وطبعت قبلة فوق شعرها الأشيب وعادت تجري نحو الوصيفات اللاتي كن يسوين ثوبها.

كان عليهن تقصير ذلك الثوب الذي كان أطول من اللازم، ووصيفتان

تعملان فيه بنشاط وتقطعان الخيوط بأسنانهما بينما راحت ثالثة وبين شفتيها كمية من الدبابيس، تتنقّل من الكونتيسة إلى سونيا، ورابعة تحمل فوق ذراعها الثوب الهفهاف الخارجي.

ـ ماڤروشا، عجلي يا عزيزتي.

ـ ناوليني القمع يا آنسة، هل تريدين؟

ظهر الكونت على عتبة الباب وقال:

ـ هل ستنتهين قريباً؟ هاكم العطور. لا شك أن الآنسة پيرونسكي تترقب وصولنا.

قالت الوصيفة وهي ترفع على إصبعين الثوب الهفهاف ثم تنفتح عليه وتنفضه لتبين خفته الفائقة: لقد انتهيت يا آنسة.

بدأت ناتاشا ترتديه. وصاحت بأبيها الذي وارب الباب:

ـ لحظة واحدة، لحظة واحدة. لا تدخل يا أبي.

كان صوتها ينبعث خلال السحابة الحريرية التي تخفي وجهها. دفعت سونيا الباب بعنف، وبعد دقيقة، سمح للكونت بالدخول فدخل معطراً في ثوب أزرق وجوربين حريريين وخفين رشيقين.

هتفت ناتاشا وهي منتصبة وسط الغرفة تسوي ثنيات ثوبها: آه! أبتاه، إنك جميل جداً!

قالت إحدى الوصيفات، وهي راكعة تجذب ذيول الثوب بينما تنتقل الدبابيس من زاوية فمها اليمنى إلى الزاوية اليسرى:

ـ اسمحي لي يا آنسة، اسمحي لي.

وأجابت سونيا على قولها في يأس: قولي ما تريدين ولكنني أؤكد لك أنه ما زال طويلاً!

ذهبت ناتاشا تعاين نفسها في المرآة الكبيرة. رأت أن الثوب طويل فعلاً!

اعترضت ماڤروشا وهي تتبع سيدتها على أربع: أبداً. إنه مناسب تماماً هكذا يا آنسة.

وقالت دونياشا بلهجة حازمة: إذا كان لا يزال طويلاً، فإن تقصيره لن يستغرق أكثرمن دقيقة.

وتناولت إبرة كانت مغروسة في منديلها وراحت تعمل بلهفة. وفي تلك اللحظة، دخلت الكونتيسة بقلنسوتها وثوبها المخملي واقتربت بخطوات صغيرة.

صاح الكونت: أوه! أوه! كم هي جميلة.

وهمّ يقبلها، لكنها أبعدته عنها محمرة الوجه خشية أن يفسد زينتها، قالت ناتاشا: أميلي القلنسوة أكثر من ذلك يا أماه. انتظري سوف أسويها بنفسي.

واندفعت فجأة وبعنف حتى إن الوصيفات اللاتي كن يخطن ذيل الثوب لم يجدن متسعاً من الوقت ليتبعنها، فاقتطعت أيديهن جانباً صغيراً من قماش الثوب.

ـ آه! رباه! ماذا بعد؟ إنني لست مسؤولة أبداً...

أكدت دونياشا: سوف أخيطه ولن يراه أحد.

قالت المربية وهي تدخل الغرفة: آه يا جميلتي، يا ملكتي الصغيرة! وسونيا! آه يا جميلاتي:

وأخيراً، احتوتهم العربة في العاشرة والربع وسار الركب. ولكن كان عليهم الذهاب إلى «غاردان توريد».

كانت الآنسة بيرونسكي جاهزة. وعلى الرغم من بشاعتها وتقدمها في السن فإنِ مثل الهرج الذي جرى عند آل روستوف تكرر وقوعه عندها ولكن باندفاع أقل، بفضل ممارستها الطويلة لهذا النوع من الحياة. كانت شخصيتها المنفرة، معطرة كلها ومدهنة ووجهها الهرم مجملاً حتى وراء الأذنين بل إن

وصيفتها العجوز هللت لدى رؤية سيدتها تدخل إلى القاعة في ثوبها الأصفر الموشّى بشعار الأمبراطورة. تفضلت بالموافقة على زينة آل روستوف فراح هؤلاء في المقابل، يطرون ذوقها الرفيع في اختيار زينتها وانتقاء حليها. وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة، تحرك ركب السيدات وصعدت السيدات إلى العربات وهن يولين أثوابهن وشعورهن عناية بالغة.

الفصل الخامس عشر

تمثّلت ناتاشا نفسها، لأول مرة، عندما لفح وجهها هواء الليل الرطب واحتوتها العربة الضيقة في عتمتها المطبقة، وقد كانت طوال ذلك النهار منصرفة إلى مشاغلها الكثيرة حتى إنها لم تجد وقتاً للتفكير في ما ينتظرها.

وتمثلت نفسها في القاعات المشعة وفي غمرة الموسيقى وغمار الزهور والرقصات والأمبراطور زهرة شباب بيترسبورغ المعروفين. كان ما ينتظرها رائعاً متناقضاً كلياً مع شعورها بالبرد والارتباك حتى إنها ما كانت تستطيع تصديق الواقع المنتظر. لم تؤمن إلا في اللحظة التي مرت بها فوق سجادة المدخل الحمراء ودخلت القاعة حيث نزعت فروتها وتقدمت مع سونيا تسبقان أمهما تتسلقان السلم العريض المشع بالأضواء والمزين بالزهور وحينئذ فقط تذكرت الطابع الذي قررت اتخاذه خلال الحفلة الراقصة، وهو طابع وقور يتلاءم، حسب أفكارها، مع كل فتاة شابة في مثل هذه المناسبة. عنيت من فورها باتخاذ تلك الأمارات. لكنها شعرت أن عينيها تترجرجان: لم تعد ترى شيئاً بوضوح وأخذ نبضها يضرب بعنف وقلبها يخفق. فلم تستطع اتخاذ السمة المقررة التي لو اتخذتها لجعلت منها أضحوكة. تقدمت إذن يغشيها الاضطراب لا تكاد تستر بلبالها والحقيقة أنها لم يكن ممكناً لها أن تجد اتزاناً. أما آل روستوف فقد غمرهم فيض المدعوين وكلهم مثلهم في ثياب الحفلة يتحدثون بصوت خفيض. وكانت مرايا السلم تعكس صور

السيدات في أثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية وسنا اللآلئ والماسات فوق أكتافهن وأذرعهن العالية.

راحت ناتاشا تختلس النظر إلى المرايا دون أن تستطيع تمييز نفسها من الأخريات: كن جميعاً مختلطات في عرض مشرق بهي. وعندما دخلت القاعة الأولى أصمها ضجيج الأصوات والخطوات والتهاني المتبادلة، وأعماها إشعاع الأضواء وروعة الأثاث. استقبل أصحاب القصر الذين لم يفتأوا منذ نصف ساعة يرددون وهم وقوف عند المدخل عبارتهم الدائمة لكل زائر جديد: «يسعدنا أن نراكم»، آل روستوف والآنسة پيرونسكي بهذه العبارة بالذات.

دخلت الفتاتان في ثيابهما البيضاء متشابهتين حتى بالورود التي تزين شعرهما الأسود، وانحنتا باحترام انحناءة واحدة. لكن نظرة ربة البيت توقفت عند ناتاشا الهيفاء أكثر مما هي عادتها وخصتها بابتسامة مختلفة عن ابتسامة الترحيب التي كانت تزجيها للضيوف، لا شك أنها استعادت بعيني خيالها حفلتها الراقصة الأولى وأيام شبابها الذهبية التي اختفت وأحياها اليوم ظهور ناتاشا الجميلة. كذلك تبع رب البيت ناتاشا بعينيه وسأل الكونت عن أي الصبيتين ابنته ثم قال وهو يلثم أطراف أصابعه: رائعةَ!

وفي قاعة الرقص، كان المدعوون متجمعين حول باب المدخل بانتظار الأمبراطور. استطاعت الكونتيسة أن تجد لها مكاناً في الصفوف الأولى. وسمعت ناتاشا بعض الأشخاص يتحدثون عنها وأحست أنهم ينظرون إليها. فحدست أنها أعجبتهم فهدأ قلقها واضطرابها.

قالت تحدث نفسها: «هناك من هم مثلنا وهناك من هم أسوأ منا».

وفي هذه الأثناء، بدأت الآنسة پيترونسكي تعدد للكونتيسة أسماء

الشخصيات البارزة. قالت وهي تشير إلى عجوز فضي الشعر مندمج بين فئة من السيدات يضحكن:

ـ هذا هو وزير هولندا، هنا ذو الشعر الأبيض.

وأضافت وهي تشير إلى هيلين التي كانت خجلة: وهذه ملكة پيترسبورغ، الكونتيسة بيزوخوف.

ـ كم هي جميلة! إنها لا تنقص عن ماري أنتونوڤنا ناريشكين (عشيقة الأمبراطور ألكسندر) جمالاً... انظري كيف يتهافت الشباب والشيوخ حولها كالفراشات. إنها جميلة وذكية... يقال إن الأمير «س» مجنون بها... لكن هاتين الأخريين رغم بشاعتهما محاطتان بلفيف أكبر من الرجال.

وأشارت إلى سيدتين كانتا تخترقان القاعة، أم وبنت ذات جمال مخيف حقاً. استرسلت الآنسة بيرونسكي:

ـ إنها صفقة ملايين وهؤلاء هم المعجبون... انظري هذا هو أخو الكونتيسة بيزوخوف، آناتول كوراغين.

وأشارت إلى فارس جميل من سلاح الحرس كان يخطر أمامهما شامخ الرأس شاخص البصر إلى الأمام. وتابعت: يا له من شاب جميل أليس كذلك؟ يقال إنهم سيزوجونه بكيس الملايين هذا. ثم ها هو ابن عمك دروپيتسكوي هو الآخر يغازلها.

وأجابت عن سؤال طرحته الكونتيسة:

ـ كيف! لكن هذا كولنكور سفير فرنسا بذاته. ألا يشبه الملوك!... إن هؤلاء الفرنسيين لطفاء رغم كل شيء. ما من أحد أكثر ظرفاً منهم في المجتمع.. آه! ها هي ذي أخيراً ماري أنتونوڤنا! كلا بلا شك، لا مثيل لها! ثم يا لبساطة مظهرها! معبودة حقاً... وهذا الفتى الضخم ذو النظارتين، إنه ماسوني دولي، إنه يشبه الدمية القبيحة بجانب زوجته.

وأشارت إلى بيزوخوف الذي كانت تقصده بهذا القول.

تقدم پيار يؤرجح جسمه الضخم يشق طريقه وسط الجماعة يومئ برأسه ذات اليمين وذات الشمال بمثل ما يفعل الطفل الغرير عندما يجتاز ساحة أحد المعارض كان يشق طريقه وكأنه يبحث عن بعضهم.

وبسرور بالغ، تأملت ناتاشا وجه تلك «الدمية القبيحة» كما سمته الآنسة پيرونسكي التي تعرفه جيداً. كانت تعرف أن پيار يبحث عنهم وبصورة خاصة عنها: ألم يعدها من قبل بحضور هذه الحفلة الراقصة ليقدم لها راقصين؟

مع ذلك توقف بيزوخوف، قبل أن يصل إليهم، قرب رجل أسمر جميل معتدل القامة في بزة بيضاء كان يتحدث أمام إحدى النوافذ مع رجل مديد القامة تزين صدره الأوسمة التي يتدلى فوقها شريط الوسام الأكبر. ذلك الرجل پولكونسكي الذي بدا لها أنضر شباباً وأوفر جمالاً، قالت ناتاشا:

ـ إليك كذلك يا أماه أحد معارفنا. پولكونسكي. انظري إليه. ألا تذكرين؟ لقد قضى ليلة عندنا في أوترادنواي.

قالت الآنسة بيرونسكي: آه! أتعرفونه؟ إنني لا أطيق رؤيته. إنه اليوم يبعث المطر والصحو كما يقولون. ثم إنه متكبرجداً مثل أبيه. لقد اتحد مع سپيرانسكي وهما الآن يضعان مشاريع لا يعلم بها إلا الله. انظروا إليه كيف يعامل السيدات: وها هي ذي واحدة تحادثه. لو كنت أنا التي أحدثه لعاملته كما يستحق!

الفصل السادس عشر

تقدّم الأمبراطور يوزع التحيات يميناً ويساراً، فعمّ الاضطراب في القاعة الكبيرة وعلا الهمس وتقدم المدعوون، وتبعه أصحاب البيت وسط سياج من الشخصيات، وصدحت الموسيقى، وراح يتعجل الخلاص من هذه المجاملة المملة، ثم عزفت الموسيقى لحن «پولونيز» الذي كان شائعاً في ذلك العصر بسبب الكلمات التي ترافقه.

ألكسندر وأليزابيت

إنكما مبعث نعيمنا...

سار الأمبراطور إلى القاعدة الكبيرة فتزاحم الجمهور على الأبواب، وتسلل بعض ذوي الوجوه المتلونة حسب متطلبات الظرف، إلى القاعة ثم خرجوا منها بعد قليل. وانثنى الجمهور متراجعاً فشوهد الأمبراطور يتحدث مع مضيفته. وأسرع رجل في مقتبل العمر، ذو قسمات مضطربة يتوسل إلى السيدات أن يتنحين. كان بين السيدات من دلت قسمات وجوههن على أنهن لا يأبهن مطلقاً لمتطلبات اللياقة الاجتماعية مع ذلك فقد كن يتهافتن على احتلال الصفوف الأولى. واقترب «الفرسان» من الراقصات وتشكلت الأزواج لمواكبة لحن «الـپولونيز».

وتنحّى أخيراً كل الناس فظهر الأمبراطور مبتسماً ترافقه المضيفة دون أن يعنى بمشية إيقاعية معها، وتبعهما المضيف ترافقه ماري أنتونوڤنا ناريشيكين فالسفراء فالوزراء «فالجنرالات» الذين كانت الآنسة پيرونسكي

لا يعيبها تسميتهم. استدعى أكثر من نصف عدد السيدات للدخول في تلك الرقصة وأخذت كل راقصة مكانها مع فارسها. حينئذ تبينت ناتاشا أنها وأمها وسونيا كن في عداد القلة التي كتب لها أن تقف موقف المتفرج. بقيت واقفة في مكانها تتدلى ذراعاها الناحلتان إلى جانبيها وتضطرب حنجرتها التي لم يكتمل نموها بعد، كاتمة أنفاسها حزينة ملتمعة العينين، تنظر أمامها بوجوم، بينما كانت سحنتها القلقة تتلاءم مع انتظار فرحة غير متوقعة بقدر ما تتماشى مع توقع حزن كبير.

لم يكن الأمبراطور ولا الشخصيات الكبيرة التي أشارت إليها الآنسة پيرونسكي يشغلون تفكيرها. لم تكن تفكر إلا في شيء واحد: «حقيقة لن يتقدم أحد لمراقصتي ألن أرقص في عداد الأزواج الأولى؟ ألن أكون مرموقة من هؤلاء السادة الذين يبدون الآن وكأنهم لا يرونني والذين إذا نظروا إليّ بدا عليهم أنهم يحدثون أنفسهم بقولهم: «آه! ليست هي، فلنحول أنظارنا؟ كلا، إن هذا لا يمكن أن يدوم. يجب أن يعلموا بأنني أريد أن أرقص وأنني أرقص رقصاً ساحراً، وأنهم سيجدون متعة في مراقصتي».

بدأت تصل إلى أذني ناتاشا أنغام الـپولونيز التي طال ترديدها، شبيهة بأصوات صاخبة تبعث في نفسها الرغبة في البكاء. وكانت الآنسة پيرونسكي قد ابتعدت عن آل روستوف، والكونت أصبح في الجانب الآخر من القاعة. وبقيت الكونتيسة وسونيا وهي نفسها في أمكنتهن أشبه بالتائهات، وسط ذلك الحشد من الغرباء الذين لا يأبهون لوجودهن. مرّ الأمير أندريه بصحبة سيدة بالقرب منهن دون أن يعرفهن. ومرّ أناتول الجميل بدوره باسماً يتحدث مع مرافقته وألقى على ناتاشا نظرة عابرة كتلك التي ينظر بها المرء إلى ستارة على جدار. وظهر بوريس مرتين لكنه في كل مرة، كان يعنى بأن لا تلتقي أنظاره نظراتهن. جاء بيرج وزوجته، ولم يكونا يرقصان، فانضما إلى العائلة. لكن هذا

الاجتماع العائلي جرح ناتاشا ألم يكن هناك مكان أفضل من هذا للأحاديث العائلية؟

قاد الأمبراطور مراقصته، أخيراً، بعد أن رقص مرتين أو ثلاث مرات فتوقفت الموسيقى. أسرع مساعد مشدوه إلى السيدات من آل روستوف وسألهن أن يتنحين أكثر من ذلك رغم أنهن كن لصق الجدار. ومن فوق السدة، شرعت الموسيقى تعزف ألحان الـڤالس البطيئة المتناسقة. أجال الأمبراطور في القاعة نظرة باسمة قبل أن يتقدم زوج من الراقصين إلى الحلبة. جاء المساعد المرافق واقترب من الكونتيسة بيزوخوف يطلب مراقصتها. وضعت يدها فوق كتفه دون أن تنظر إليه فطوقها المساعد المرافق وهو ممتلئ بالثقة بنفسه، في عنف غير متعجل وقادته مراقصته منزلقة معه حتى نهاية الحلبة ثم أمسكت بيسراه، أدارته حول نفسه على إيقاع الموسيقى الآخذ بالإسراع، فلم يعد يسمع إلا صوت المهاميز في قدمي الراقص البارع تطن مع الإيقاع بينما أخذ ثوب مراقصته في الخطوات الثلاث يشع وكأنه يلتهب. شعرت ناتاشا وعيناها شاخصتان إلى هذا الثنائي السعيد، أنها على وشك البكاء: لمَ لم تكن هي ترقص هذه الجولة الأولى من هذا الـڤالس؟

كان الأمير أندريه، بثوبه الأبيض الذي يشير إلى رتبة زعيم الفرسان وجوربيه الحريريين وخفيه، واقفاً في الصف الأول وديع النفس لم يكن بعيداً عن آل روستوف. كان البارون فيرهوف يتجاذب وإياه أطراف الحديث حول جلسة مجلس الدولة الأولى التي حدد موعدها غداً. ولما كان أندريه صديقاً حميماً لسپيرانسكي وعضواً في اللجنة التشريعية، فقد كان في وسعه إعطاء البارون معلومات دقيقة حول تلك الجلسة التي فرض إعلانها على أشكال مختلفة متناقضة. لكنه لم يكن يعير البارون وأقواله كبير اهتمام، بل كان ينظر إلى الأمبراطور تارة وإلى الراقصين تارة أخرى، أولئك الراقصين الذين لا

يجرؤون رغم ما في نفوسهم من شهوة للرقص، على الدخول إلى الحلبة. وبينما كان يراقب أولئك الراقصين الذين روعهم وجود الأمبراطور، وأولئك الراقصات اللاتي كن يذوين حنيناً إلى تقبل الدعوات، تقدم پيار منه وأمسك بذراعه وقال له: أنت الذي تحب الرقص، هناك الفتاة التي أحميها، روستوف الشابة، ادعها وراقصها إذن.

سأل پولكونسكي: أين هي؟

وقال للبارون معتذراً:

ـ عفوك يا بارون. سوف نتابع حديثنا في مكان آخر، أما في هذه الحفلة فيجب أن نرقص.

تقدم في الاتجاه الذي حدّده پيار وفجأة قفز أمام عينيه وجه ناتاشا اليائس. عرفها فوراً وحدس الشعور الذي يعتلج في نفسها وأدرك أنها مبتدئة، فاقترب من الكونتيسة روستوف باسماً. قالت هذه ووجهها يحمرّ خجلاً:

ـ اسمح لي أن أقدم لك ابنتي.

قال أندريه وهو ينحني بتحية عميقة نقضت كل ما قالته الآنسة پيرونسكي عن خشونته: إننا معارف قدامى ولعل الكونتيسة تذكر ذلك.

وقبل أن ينطق بعبارات دعوته المألوفة، قدم ذراعه ليطوق قوام ناتاشا عارضاً عليها جولة ڤالس. أضاء وجه ناتاشا القلق الذي كان على استعداد للإعراب عن اليأس بقدر الاستعداد للتدليل على الفرح، وأشرقت عليه فجأة تلك الابتسامة الطفولية المليئة بالعرفان.

عبّرت بسمتها التي شعت خلال الدموع الوشيكة عن قول صاحبتها «لقد كنت أنتظرك منذ أمد طويل». بينما أسندت الفتاة يدها إلى كتف الأمير وهي وضاءة الوجه. ودخل زوج الراقصين الثاني إلى حلبة الرقص. كان الأمير من خيرة الراقصين في عصره وبرهنت ناتاشا على أنها ترقص هي الأخرى

ببراعة. كانت قدماها الصغيرتان في حذاءيهما الحريريين، يدرجان بسرعة وكأنهما يندفعان بحركة كامنة فيهما. وكان وجهها طافحاً بالسعادة. كان عنقها وذراعاها العاريتان إذا قيسا بعنق هيلين وذراعيها، نحيلين وأقل جمالاً. صحيح أن كتفيها لم تنموا بعد، وحنجرتها لم تتكون، لكن هيلين كانت تنوء تحت نيران ألوف النظرات المنصبة على مجموع جسمها، بينما كانت ناتاشا مجرد طفلة عرّي جيدها لأول مرة، تشعر بالخجل لظهورها على هذا النحو لولا ما قيل من وجوب ارتداء هذا الزي توطئة لمجاراة المجتمع.

كان الأمير أندريه يحب الرقص ويريد الخلاص من أحاديث السياسة والمداولات الجدية التي كان يُبهظ بها. ثم إنه تعمد تبديد جو التحفظ الذي أوجده الأمبراطور بحضوره، فقرر الانشغال في الرقص. واختار ناتاشا ليدخل السرور على نفس بيار لأنها كانت أول فتاة جميلة استوقفت ناظريه. لكنه ما إن طوق خصرها النحيل وشعر بها تتحرك قريباً منه، وما إن رآها تبتسم إليه عن مقربة، حتى طغت فتنة الفتاة على روحه وصعدت النشوة إلى رأسه. أحسّ بالشباب والحياة يكتسحان كيانه عندما قاد الفتاة إلى مكانها الأول ووقف معها يراقبان الراقصين وهو مبهور الأنفاس.

الفصل السابع عشر

بعد أندريه، جاء بوريس يراقص ناتاشا ثم المساعد المرافق الذي افتتح الرقص وشبان آخرون توافدوا حتى أن ناتاشا لكثرة طالبيها، أعطت سونيا عدداً كبيراً منهم. لم تتوقف عن الرقص طوال تلك الليلة وهي مشرقة الوجه، غير عابئة بما يستوقف الاهتمام ولا مصغية إلى الأحاديث المتداولة. لذلك لم تلاحظ دخول الأمبراطور في حديث طويل مع سفير فرنسا ومخاطبته هذه السيدة بإيناس خاص، ولم تنتبه إلى أن هذا الأمير أو ذاك عمل أو قال كذا وكذا وأن هيلين أحرزت نجاحاً كبيراً وأن شخصية مرموقة تفضلت بتوليتها عناية خاصة. بل إنها لم ترَ الأمبراطور ولم تشعر بمغادرته الحفلة إلا إثر مغادرته القاعة. رقص الأمير أندريه معها إحدى تلك الرقصات المرحة التي سبقت العشاء. ذكرها بلقائهما الأول في ممشى حديقة أوترادنواي، بتلك الليلة المقمرة التي لم يطرق النوم جفنيها خلالها وبالحديث الذي بلغ مسامعه عفواً ساعة كان قرب النافذة. احمرت وجنتاها لتلك الذكرى وحاولت إيجاد العذر لنفسها وكأنها خجلت للإحساسات التي اطلع عليها الأمير عفواً.

ومثل كل الذين نشأوا في المجتمعات الراقية كان الأمير يحب لقاء أشخاص ليس لهم الطابع الاجتماعي المبتذل. كذلك ناتاشا في دهشتها واستغرابها وفي وداعتها وقلة درايتها كما في أخطائها في اللغة الفرنسية. وعليه، أخذ يعاملها برفق ورقة نادرين. جلس بجانبها يحدثها عن أمور عادية جداً ويعجب ببريق نظرتها المرحة وابتسامتها التي تعبر عن سرورها الداخلي

أكثر مما تعبر عن أقوالها. كان يتأمل ظرفها البريء كلما راقصها أو خاصرها راقص آخر. وبينما عادت ناتاشا بعد حركة تصويرية رائعة تخللت الرقصة الخفيفة، مبهورة الأنفاس إلى مكانها، تقدم راقص جديد يطلب مخاصرتها. كادت ترفض لشعورها بالإعياء، لكنها فجأة اتكأت على كتف مراقصها وابتسمت للأمير أندريه.

«كنت أشعر بسرور بالغ لو استرحت وجلست بقربك لأنني متعبة، لكنك ترى كيف يبحثون عني وإنني لشديدة الاغتباط. نعم، إنني سعيدة وأحب كل الناس هذا المساء، ثم إننا متفاهمان تماماً». تلك كانت بعض ما تعبر عنه ابتسامتها إلى جانب أشياء أخرى. وعندما أعادها فارسها إلى مكانها، مشت تجتاز القاعة لتدعو سيدتين للقيام بالصورة الراقصة التالية.

قال أندريه في سره وهو يتابعها بعينيه: «إذا مضت إلى ابنة عمها أولاً ثم إلى السيدة الأخرى، فستكون زوجتي» وجرت ناتاشا إلى ابنة عمها مباشرة. فكر أندريه: «يا للترهات التي تجول أحياناً في خاطرك! على كل حال، إن هذه الصبية لطيفة حتى إنه لن يمضي شهر واحد إلا وتكون قد أُخذت. لا مثيل لها هنا حقاً». تلك كانت اتجاهات الأمير الفكرية عندما عادت ناتاشا تجلس إلى جانبه بعد أن أصلحت وضع الوردة في ثوبها.

انتهت الرقصة المرحة فاقترب الكونت العجوز بثوبه الأزرق من الراقصين، دعا الأمير أندريه إلى زيارتهم وسأل ابنته عما إذا كانت سُرت ذلك المساء. فلم تجب ناتاشا على الفور وتركت ابتسامتها تقول: «كيف يمكن طرح مثل هذا السؤال؟» ثم اعترفت أخيراً: كما لم أُسرّ في حياتي!

ولاحظ الأمير أندريه أن ذراعيها النحيلتين قد تحركتا لتطويق أبيها ثم عادتا تسقطان إلى جانبيها بسرعة. والحقيقة إن ناتاشا لم تشعر قط بمثل هذه

البهجة. كانت تتذوق تلك اللحظة من السعادة حيث يشعر المرء أنه مفعم بالطيبة والكمال ولا يؤمن بالسوء ولا بالفقر ولا بالألم.

للمرة الأولى، في هذه الحفلة الراقصة، شعر پيار بألم للمركز الرائع الذي تحتله زوجته في الوسط الراقي. بقي واقفاً قرب إحدى النوافذ كئيباً يقطع جبينه غضن طويل، ينظر خلال نظارتيه دون أن يرى شيئاً.

وبينما كانت ناتاشا تمر بالقرب منه في طريقها إلى غرفة الطعام لتناول العشاء استوقف حزنه انتباهها. وقفت وكلها رغبة في مساعدته وملء قلبه بفيض السعادة التي تغمرها فقالت: كم يرفه المرء عن نفسه هنا يا كونت، أليس كذلك؟

فابتسم پيار، الذي لم يفهم شيئاً من قولها، ابتسامة ساهمة وقال: نعم، إنني سعيد جداً.

فكرت ناتاشا: «كيف يمكن أن يكون المرء حزيناً؟ وخصوصاً پيزوخوف هذا، إنه لطيف جداً وطيّب، كل واحد منهم يحب الآخر، لا يهين أحدهم الآخر، ومن أجل ذلك كانت السعادة عامة».

الفصل الثامن عشر

صباح اليوم التالي، لم يقلق الأمير أندريه بشأن حفلة البارحة إلا بذكرى عابرة: «أجل كانت حفلة رائعة... ماذا بعد؟... آه نعم. روستوف الصغيرة... فاتنة جداً، فيها شيء أجهل كنهه، وفيها شيء فريد يزيد في تمييزها من نسائنا الـﭘيترسبورغيات».

وما إن تناول الشاي حتى عاد إلى العمل، تلك كانت حدود أفكاره. غير أنه لم يشعر أنه على غير ما يرام سواء أكان ذلك بسبب التعب أم الأرق. وهو إحساس كثيراً ما شعر به من قبل وجعله يتذمر من عمله. لذلك فقد سره أن أعلن وصول زائر.

كان الزائر، يدعى ﭘيتسكي، عضواً في لجان متعددة، مواظباً على كل الحلقات، مناصراً متحمساً لسـﭘيرانسكي والإصلاحات، ناقلاً إشاعات مجد في كل العاصمة، ومن أولئك الذين يسيرون في ركاب المجتمع الراقي بآرائه وأفكاره، الأمر الذي يجعله ومن على شاكلته في عداد أشد المتحمسين للأفكار الحديثة. لم يكد الزائر يخلع قبعته حتى راح مسرعاً نحو أندريه يتبسط معه في موضوعات مطولة متصنعاً الاهتمام. صرح بأنه اطلع على تفاصيل عديدة تتعلق بجلسة مجلس الدولة التي افتتحها الأمبراطور، هذا الصباح وتلا فيها خطاباً رائعاً. لقد تحدث الأمبراطور كما لا يحسن التحدث مثله إلا كل عاهل دستوري. لقد قال بكل صراحة: «إن مجلسي الدولة والشيوخ هما «أجزاء» الدولة وإن الحكومة يجب أن ترتكز «على أسس متينة» وليس على

الارتجال». وقال: إن النظم المالية يجب أن يعاد تنظيمها وكذلك «الموارد العامة». كان بيتسكي يسرد هذه التفاصيل وهو يظهر كلمات معينة ويجيل حوله عينين كبيرتين. وأخيراً خلص إلى القول: نعم، إنه حدث يفتح أفقاً جديداً، أعظم أفق في تاريخنا.

ولدى سماع الأمير هذه القصة عن حفلة الافتتاح التي طالما ترقبها بصبر نافذ أدهشه أن لم يشعر بأية استجابة لهذا الحديث بعد وقوعه وأن يجد في ذلك أمراً أكثر من تافه. أظهر سخرية معادلة لحماسة بيتسكي وطافت في رأسه فكرة: «ماذا يهم بيتسكي ويهمني، بل ماذا يهمنا جميعاً إن راق الأمبراطور التحدث على هذا المنوال في المجلس؟ هل يجعلنا هذا أفضل مما نحن وأكثر سعادة»؟

نزعت تلك الفكرة من رأسه فجأة كل اهتمامه بالإصلاحات التي كانت في طريق التنفيذ. كان عليه أن يتناول العشاء ذلك اليوم بالذات عند سپيرانسكي في «لجنة صغيرة» كما قال له مضيفه عندما دعاه. وكانت فكرة تناول الطعام في حدود عائلية وبين أصدقاء رجل كان شديد الإعجاب به، قد فتنته أكثر مما افتتن من قبل بعلاقاته الودية كلها. لكنه ها هو الآن لا يجد دافعاً للذهاب إلى تلك الحفلة.

دخل باب المسكن الذي يملكه سپيرانسكي في «غاردان دو توريد» في الساعة المحددة. كان ذلك المسكن يمتاز بنظافة الأديرة. وجد أندريه، الذي وصل متأخراً قليلاً، في قاعة الطعام المفروشة بألواح خشبية، كل المدعوين الذين يؤلفون «اللجنة الصغيرة» مجتمعين فيها منذ الساعة الخامسة. ولم يكن هناك من السيدات إلا ابنة الوزير، التي كانت ذات وجه طويل كأبيها، ومربيتها. وكان المدعوون ثلاثة: غرفيس، ومانييتسكي وستوليـپين، سمع أندريه منذ أن دخل الردهة الخارجية صخب أصوات وضحكة مدوية تشبه ضحكة

الممثلين. وسمع من كان صوته شبيهاً بصوت سپيرانسكي يطيل آهاته ويباعد بينها: ها!... ها!... ها!... بشكل لم ير عليه سپيرانسكي من قبل. أحدثت تلك الضحكة المدوية الصادرة عن رجل الدولة وذلك الفرح الغريب تأثيراً شاذاً في نفس أندريه.

دخل إلى قاعة الطعام فرأى المجتمعين منتظمين حول طاولة شراب ومقبلات موضوعة بين النافذتين. ورأى سپيرانسكي، وعليه شارة الوسام الرفيع فوق سترته الرسمية، والصدارة البيضاء نفسها وربطة العنق البيضاء العالية التي كان يضعهما عند افتتاح جلسة مجلس الدولة العتيد، جالساً قرب الطاولة بوجه مشرق فرحاً. وكان مانييتسكي ملتفتاً إلى رب المنزل الذي كان يصغي إليه ضاحكاً سلفاً مما سيقوله، يروي له أحدوثة، فلما دخل الأمير أندريه، عادت ضحكات عالية جديدة تعلو على صوت المحدث وتخنق كلماته؛ فستوليـپين انطلق يقهقه بصوت أجش وهو يمضغ قطعة من الجبن، أما غرفيس فظل يضحك ضحكته المصفرّة وسپيرانسكي ضحكته الحادة المتقطعة. مد يده السمينة إلى أندريه دون أن يكف عن ضحكته وقال:

ـ يسعدني أن أراك يا أمير.

ثم قطع على مانييتسكي قصته بقوله: ـ لحظة، أضاف يخاطب الأمير أندريه: إن عشاءنا مخصص للسرور لذلك اتفقنا على ألّا نتحدث في الأعمال.

ثم التفت إلى المتحدث اللبق وضحك.

لدى سماعه ضحك سپيرانسكي، ازدادت دهشة أندريه فراح ينظر إليه بخيبة أمل حزينة. هل كان هذا سپيرانسكي فعلاً؟ لقد تبدد كل ما كان يظنه فيه من غموض فتان وسحر، فلم يعد يحس بشيء يربطه إليه.

وخلال فترة العشاء كلها، استمرت الدعابات النارية تطوف بالمدعوين. كان مانييتسكي إذا فرغ من فكاهته أو كاد، انبرى آخر يروي فكاهة أخرى أشد

منها إضحاكاً. وكانت هذه الدعابات، وإن كانت لا تدور على الإدارة بمعناها الصحيح، تمس الأشخاص الإداريين عن قرب، حتى ليقال إن تفاهة ملاك الإدارة لدى هؤلاء المجتمعين لم يكن يستوجب منهم إلا لوناً من الرحمة والتسامح الساخرين. قص على ضيوفه أنه بينما كان يُؤخذ رأي أحد كبار الموظفين المصاب بطرَش في أذنيه الذي كان حاضراً في افتتاح مجلس الدولة ذلك الصباح، أجاب هذا أنه موافق على الرأي دون أن يعرف كنهه، فبدأ غيرفيس يقص بصورة مطولة حادثة تفتيش بالغة في السخف الذي يطبعها بطابع مضحك يشمل أبطالها. أما ستوليـپين، فراح يهاجم بشدة، وهو يتأتىء، مفاسد العهد الفائت، الأمر الذي أعطى البحث صيغة جدية. سخر مانييتسكي من حماسة المتكلم الأخير وبرز غرفيس بدعابة تليق بالمقام، فعاد الحديث إلى صبغته المجونية الأولى.

وطبيعي أن يحب سپيرانسكي الترفيه عن نفسه من وطأة أعماله في حلقة من الأصدقاء. وأدرك أصدقاؤه، وهم مدعووه، رغبته فأخذوا يسعون إلى الترفيه عنه بتسليته وتسلية أنفسهم في الوقت نفسه. لكن ذلك الجذل بدا للأمير أندريه مغتصباً. أزعجته نبرة صوت سپيرانسكي الحادة. فقد بدت له ضحكة هذا الرجل الطويلة متكلفة أحدثت جرحاً في أدق مشاعره. ولما كان وحده بينهم محتفظاً برزانته، فقد خشي أن يعتبر متطفلاً. لكن ما من أحد لاحظ أنه لم يكن متهللاً مثلهم. بدا كل الموجودين في قمة الغبطة.

حاول أندريه أن يتدخل عدة مرات في الحديث الدائر. لكنه في كل مرة كان يلاحظ أن أقواله تنبذ كما تنبذ الماء قطعة «الفلين» وأخفق في مجاراتهم بأسلوب حديثهم. لم يكن في تلك الدعابات شيء يتنافى مع مقام الأشخاص وقواعد الأدب، فقد كانت كلها منتقاة تدل على بديهة ودقة فكرية مثيرة

للضحك. لكنها مع ذلك كانت تفتقر إلى ذلك الشيء الخفي الذي يجعلها بهيجة، لذلك ظلت وكأنها لم تكن.

انتهى العشاء فنهضت ابنة سپيرانسكي ومربيتها. قبل هذا ابنته وربت خدها بيده حتى أن تلك الحركة الحانية نفسها بدت لأندريه غير طبيعية.

بقي الرجال حول الطاولة تبعاً للأصول الإنكليزية، يحتسون شراب «البورتو» وانتهى بهم الحديث إلى طرق موضوع حرب إسبانيا فأيدوا جميعاً موقف ناپليون. وهنا سمح الأمير أندريه لنفسه بمعارضتهم. ابتسم سپيرانسكي، ولكي يدير دفة ذلك الحديث الشائك إلى وجهة أخرى، قص أحدوثة خارجة عن الموضوع فعم السكون وسكت السامعون.

وبعد لحظة، سد سپيرانسكي زجاجة الشراب وهو يقول: «إن الخمرة الجيدة اليوم لا تطوف بالشوارع». أعطى الزجاجة لأحد الخدم ونهض فاقتدى به الآخرون واتجهوا نحو القاعة وهم يصخبون. حمل البريد إلى سپيرانسكي غلافين أخذهما وانسحب إلى مكتبه. وما إن خرج حتى تبدل الصخب بالجد وأخذ المدعوون يتداولون الحديث بصوت خافت حول موضوعات جدية تماماً. بيد أن سپيرانسكي عاد بعد حين وقال: والآن لننتقل إلى الأحاديث المفخمة!

وأشار إلى مانييتسكي وقال يخاطب الأمير: إن له باعاً طويلاً في هذا المضمار.

وفوراً، اتخذ مانييتسكي وضعية مناسبة وراح ينشد مقطوعة شعرية هزلية باللغة الفرنسية نظمها حول عدد من الشخصيات المرموقة في پيترسبورغ. قوطع مراراً بالتصفيق. فلما انتهى، تقدم الأمير من سپيرانسكي مستأذناً. سأله هذا:

ـ إلى أين تذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟

ـ لقد ارتبطت بموعد لقضاء السهرة.

لم يتبادلا كلمة أخرى. نظر أندريه عن قرب إلى تينك العينين الملساوين الشبيهتين بالمرآة اللتين لا تسمحان بالتعمق إلى ما وراءهما، فخيل إليه أنه من الغرابة أن يكون قد استملح الإصغاء إلى أي موضوع صادر عن هذا الرجل كما شعر بغباوة المجهود الذي يبذله بدافع منه كيف يمكن النظر بعين الجد إلى ما كان يفعله سپيرانسكي؟ بقيت تلك الضحكة المتقطعة الخالية من الانشراح تلاحقه ردحاً طويلاً بعد أن انسحب من مجلس الوزير.

فور عودته إلى منزله، أعاد النظر بكل الحياة الجديدة التي بدأها في پيترسبورغ وكأنه سيشرع فيها لأول مرة. تذكرتصرفاته خلال الأشهر الأربعة الأخيرة وملتمساته وكل قصة مشروع النظام العسكري الذي وضعه والذي قُبل للتدقيق وانتهى به الأمر إلى إحاطته بسياج كثيف من الصمت لمجرد أن مشروعاً آخر لا يمكن أن يجاري مشروعه في حال، قُدم إلى الأمبراطور. تذكر جلسات اللجنة التي عين پيار عضواً فيها، تلك الجلسات التي كان المجتمعون فيها يتجنبون بكل عناية البحث في جوهر الموضوع بينما يتناقشون في الشكل. تذكر أعماله التشريعية وترجماته الأمينة عن القانون الروماني وقانون ناپليون، فاستبد به الخجل لدى تفكيره في كل هذه الأمور. ثم عاد يتصور نفسه في بوغوتشاروڤون ويتذكر أعماله في الريف وسفره إلى ريازان وفلاحيه وما يتعلق بهم وكيف راح يعمل على تطبيق مبادئ قانون الإنسان عليهم، ذلك القانون الذي وضعه بنفسه بكل عناية. فأدهشه أن رأى نفسه مكرساً وقتاً طويلاً من حياته لعمل عقيم من هذا النوع.

الفصل التاسع عشر

غداة اليوم التالي، قام الأمير بزيارة لآل روستوف بين عديد من الذين يدين لهم برد زياراتهم. جدد آل روستوف معرفتهم به منذ ليلة الحفلة الراقصة، فكان من دواعي اللياقة أن يرد لهم زيارتهم. لكن تصرفه ذاك لم يكن مستوحى من روح القواعد المرعية فحسب، بل من رغبته في رؤية تلك الصبية المندفعة التي خلقت في نفسه شعوراً مرهفاً.

كانت ناتاشا أولى المستقبلات. بدت له في ثوبها المنزلي الأزرق أكثر جمالاً مما كانت عليه وهي في زينتها الرسمية. استقبلت ناتاشا وكل آل روستوف بولكونسكي استقبال الصديق القديم ببساطة ودية. شعرأن تلك العائلة التي قسا عليها بحكمه من قبل، مؤلفة من أشخاص ممتازين بسطاء وطيبين. لم يستطع الصمود إزاء معاملة الكونت العجوز المضياف التي تختلف كلياً عن النهج الاحتفالي المعمول به في بيترسبورغ، فقبل دعوته لتناول العشاء على مائدته. قال يحدث نفسه: «نعم، إنهم أناس بواسل جداً لا يلقون بالاً مطلقاً إلى الكنز الذين يمتلكونه مجسداً في شخص ناتاشا. ثم إنهم يقومون بدور الدافع، غير عامدين، لإظهار تلك الفتاة الرائعة المليئة بالشاعرية المفعمة بالحياة.

كان يشعر أمام هذه المخلوقة الشابة أنه أمام عالم مجهول خاص، مليء بالمسرات غير المتوقعة، ذلك العالم الذي أزعجه كثيراً من قبل في ممشى حديقة أوترادنواي وقرب نافذة الجناح الأعلى عندما كان القمر يغمر الحديقة

بالضوء. لم يعد ذلك العالم غريباً عنه الآن. لقد وجد، وهو يدخله، مسرات جديدة.

مضت ناتاشا، بعد العشاء، بناء على طلبها، إلى المعزف وبدأت تغني، وكان پولكونسكي يستمع إليها رغم انشغاله في الحديث مع السيدات في فراغ إحدى النوافذ. سكت فجأة في منتصف جملة وهو يشعر بالغصة في حلقه، غصة مليئة بالدموع، الأمر الذي كان يعتقد استحالة وقوعه من قبل. شخص بعينيه إلى المغنية وهو يحسّ باضطراب غريب وسعادة ممتزجة بالحزن. كان على استعداد لذرف دموع سخية دون أن يكون هناك أي داع للبكاء. على أي شيء يبكي؟ على غرامه الأول؟ على الأميرة الصغيرة؟ على إخفاقه وتبدد أوهامه؟ على آماله وأحلامه؟ نعم ولا. نشأت تلك الرغبة في البكاء من إيحاء جديد تجلى له في الغالب: ظهر له التناقض المروع بين ما كان يحس به من إغراق في العظمة والرحب المطلق في أعماق نفسه، وبين الإنسان المحدود الضيق الجسدي الذي كان يملأ إهابه والذي هي عليه كذلك. هذا ما كان يبعث عذابه وسروره معاً خلال الفترة التي غنت فيها ناتاشا.

وبعد أن انتهت، جاءت، تسأله عما إذا كان صوتها قد أعجبه. لكنها ما كادت تطرح السؤال، حتى أدركت أنها أساءت التصرف فارتجفت. ابتسم لها وقال إن غناءها قد أعجبه كما يعجبه كل ما تقوم به.

رجع الأمير إلى مسكنه متأخراً جداً فاستلقى على فراشه بحركة آلية. لكنه تبين بعد حين عبث محاولته النوم تلك الليلة. أضاء شمعة وراح ينهض ثم يعود إلى الاستلقاء دون أن يلعن ذلك الأرق الذي استبد به لشدة ما كان يحسّ بفيض الإحساسات الجديدة الذي كان يحمله معه. خيّل إليه أنه كمن كان في غرفة مغلقة ثم خرج منها فجأة يستنشق الهواء الطلق ملء رئتيه. لم تراوده فكرة إمكان وقوعه في غرام ناتاشا ولم تخطر له على بال. لم يكن يفكر

فيها، لكنها كانت أبداً أمام عينيه، وبنتيجة ذلك كان يحس أن كل وجودها يطل عليه ويلهمه نهاراً جديداً.

«لماذا أزعج نفسي بهذا المقدار، قال في سرّه، في إطار ضيق مغلق بينما الحياة، بمباهجها وأفراحها تتفتح أمامي»؟ ولأول مرة منذ زمن طويل، راح يبني آمالاً جميلة لمستقبله. قرر أن يعهد تثقيف ابنه نيكولا إلى أحد المربين بينما يقدم، هو، استقالته ويسافر إلى إنكلترا أو سويسرا وإيطاليا. فكر في نفسه: «يجب أن أفيد من حريتي خلال الفترة التي أشعر فيها أنني على حظ وافر من القوة والشباب. إن پيار محقّ في قوله: لكي نكون سعداء يجب أن نؤمن بإمكانية السعادة. والآن أراني مؤمناً. فلندع الأموات إذن يدفنون الأموات، إذ يجب أن نحيا وأن نكون سعداء طالما نحن على قيد الحياة».

الفصل العشرون

دخل الزعيم أدولف بيرج، ذات صباح، على پيار في ثوب جديد مضمخ الشعر مسدله على صدغيه على غرار الأمبراطور ألكسندر، الذي كان پيار يعرفه كما يعرف كل أهالي موسكو وپيترسبورغ وقال له وهو يبتسم:

ـ إنني خارج من لدن الكونتيسة زوجتك وسأكون متأسفاً جداً إذا لم أجب إلى طلبي. فآمل أن أكون أوفر حظاً معك يا كونت.

ـ ماذا ترغب يا «كولونيل»؟ إنني رهن أوامرك.

قال بيرج وهو واثق سلفاً بأن طلبه لن يقابل بارتياح بالغ:

ـ لقد انتهيت من إقامة بيت جديد لي يا كونت. لذلك قررت أن أحيي حفلة صغيرة لأصدقائي وأصدقاء زوجتي، وابتسم ابتسامة أكثر ملاحة، وكنت أرغب في التقدم إلى الكونتيسة برجاء لتتفضل بتشريفنا بحضورها لتناول قدح من الشاي يليه عشاء متواضع.

كانت الكونتيسة هيلين ڤاسيلييـڤنا وحدها، وهي التي تقدر أن احتكاكها بآل بيرج أولاء يحط من قيمتها، قادرة على إظهار مثل هذه القسوة لرفض طلب من هذا النوع. أوضح بيرج بلباقة، سبب إقامة هذه الوليمة وجمع هذا العدد من كرام الناس في بيته، وسبب شعوره بالسعادة عند استقباله هذا الحفل الكريم، وأخيراً سبب قيامه ببعض التضحيات، التي قد يأسف عليها، لتوفير الترفيه بالورق وغير ذلك من التسليات الأخرى لضيوفه. وبالخلاصة، ظل يلح على پيار ويقنعه حتى لم يجد هذا مانعاً من قبول دعوته فوعده بالحضور.

قال بيرج:

ـ أرجوك أن لا تتأخر يا كونت، أتوسل إليك. ليكن حضورك في الثامنة إلا عشر دقائق إذا تفضلت. سوف نلعب الورق وسيكون قائدنا «الجنرال» هناك. إنه يظهر حيالي عطفاً سامياً يا كونت. ولسوف نتعشى بعدئذ. موافق، أليس كذلك؟

خلافاً لمألوف عادته بالوصول متأخراً أبداً، وصل پيار في الثامنة إلا ربعاً إلى منزل آل بيرج ذلك المساء بدلاً من الثامنة إلا عشر دقائق.

كان آل بيرج قد أنهوا استعداداتهم ووقفوا «تحت السلاح» استعداداً لاستقبال مدعويهم. انتظروا قدومهم في المكتب الجديد الأنيق المزين بالتماثيل الصغيرة واللوحات. وكان بيرج في ثوب عسكري أنيق جديد مزرر بعناية، يشرح لزوجته أن بالمستطاع إيجاد معارف من الطبقة الراقية، التي تفوقهم في سمو المركز ووفرة النقود، بل يجب توفير مثل هؤلاء المعارف لأنه ينتظر من مثلهم دائماً الخير: «هناك دائماً شيء مفيد يكسبه المرء من مثل هؤلاء. خذي على سبيل المثال، مركزي اعتباراً من رتبي الأولى ـ وبيرج لم يكن يحصي سني حياته العسكرية بل ترقياتها ـ لا يزال زملائي في مراكز تافهة، بينما أنا، ارتقيت في الرتب حتى أصبحت على وشك بلوغ قيادة فيلق، وحصلت على سعادة التزوج بك، ووقف ليقبل يد ڤيرا لكنه في طريقه إليها سوّى جانب السجادة المرفوع، ولمن يرجع الفضل في كل هذا إنه يعود في الغالب إلى فن انتقاء الأصدقاء، الأمر الذي لا ينفي الفضيلة والدقة اللتين أتحلى بهما».

ابتسم بيرج لاقتناعه بتغلبه على امرأة ضعيفة، وسكت وهو يحدث نفسه بأنه إذا كانت هذه الامرأة الفاتنة التي هي زوجته ضعيفة ككل الأخريات، فإنها لن تتمكن من إدراك كل ما يشكل عظمة كونه رجلاً مرموقاً. لكن ڤيرا ابتسمت

هي الأخرى خلال الفترة لوثوقها بتفوقها على زوجها الفاضل، الرجل الممتاز، بدون شك، ولكن الذي يفهم الحياة فهماً خاطئاً، مثل كل الرجال. وكان بيرج، وهو الذي يحكم على النساء بحسب حكمه على زوجته، يعتبر النساء كلهن مخلوقات ضعيفة وسخيفة. أما ڤيرا، فكانت تحكم على الرجال استناداً إلى شخصية زوجها وحده، فتقدر، لدى تعميم ملاحظاتها، أن كل الرجال يميلون إلى الاعتبار أنهم وحدهم يتمتعون برجاحة العقل، بينما هم في الواقع لا يفهمون شيئاً لأنهم متكبرون وأنانيون.

وقف بيرج وطوّق زوجته بحذر شديد ليتفادى إفساد معطف «الدانتيلا» الذي ترتديه والذي دفع ثمنه غالياً، وقبّل شفتيها، وقال تدفعه جملة من الأفكار العفوية: المهم أن لا نرزق أطفالاً بسرعة.

فأجابت ڤيرا: نعم، إنني لا أميل إلى ذلك أبداً. يجب أن نعيش للمجتمع.

وفي تلك اللحظة، أعلن قدوم الكونت بيزوخوف. تبادل الزوجان ابتسامة رضى وكل منهما يعزو إلى نفسه شرف هذه الزيارة.

قال بيرج في سرّه: «هذا هو نتاج معرفة إيجاد علاقات، هذا هو حصاد حسن التصرف»! قالت ڤيرا: كل ما أطلبه منك هو أن لا تقاطعني عندما أكون من المدعوين. إنني أعرف تماماً ما يجب أن أقوله لكل واحد منهم.

فأجابها بيرج مبتسماً: ليس دائماً. يجب أن تثار أحاديث رجال بين الرجال.

استُقبل بيرج في القاعة الجديدة حيث كان الجلوس على مقاعدها متعذراً دون إفساد المسافات المتساوية بينها. فكان من الطبيعي جداً أن يعرض بخيلاء وتناول أن تُبدل أوضاع المقاعد والكنبة إكراماً لهذا الضيف العزيز. لكن قلقه من جراء ذلك كان بالغ الشدة حتى أنه ترك تفويض ترتيب تلك المقاعد لرغبة ضيفه نفسه. بيد أن هذا حطم تلقائياً نظام تقابل المقاعد

بأن تناول كرسياً وجلس عليه، فشرع الزوجان من فورهما في تدشين سهرتهما يقاطع أحدهما الآخر وهما يحدثان ضيفهما.

قدرت ڤيرا بحكمتها أن سفارة فرنسا موضوع هام مناسب جداً لاجتذاب اهتمام پيار. لذلك بدأت تبني حديثها حول هذا الموضوع. أما بيرج فقدر، على العكس، أن حديثاً خاصاً بموضوعات الرجال يتطلب الإثارة، فقاطع زوجته ليضع على بساط البحث موضوع الحرب مع النمسا. وبعد أن أعلن أفكاراً عامة حول الموضوع، اندفع دون وعي منه، يتحدث عن الاعتبارات الشخصية حول العرض الذي قدم إليه بالمساهمة في تلك الحرب والأسباب التي بنى عليها رفضه. فلما بلغ الحديث هذا الحد، أصبح حديثاً متقطعاً غير منسجم، حتى أن ڤيرا جدفت بشدة ضد هذا التدخل من جانب العنصر «الرجالي». ومع ذلك لمس الزوجان بغبطة وارتياح أن سهرتهما، رغم أنها تقتصر في الوقت الحاضر على ضيف واحد تسير على أحسن ما يرام، لا تختلف في شيء عن السهرات الأخرى التي يتبادل الحديث خلالها ويحتسي المدعوون الشاي وهم إلى طاولة تنيرها الشموع، وكأنها قطرة ماء إلى جانب قطرة أخرى.

بعد قليل، وصل بوريس، وهو رفيق بيرج القديم. فكان واضحاً من تصرفه تجاه الزوجين أنه يتخذ إزاءهما موقف من يبسط حمايته في نوع من الترفع. جاء بعده «الكولونيل» بصحبة سيده، ثم «الجنرال» نفسه وأخيراً آل روستوف. وحينئذ فقط، بلغت السهرة المستوى الذي تمتاز به كل السهرات الأخرى. لم يتمالك بيرج وڤرا من الإفراج عن ابتسامة رضى لدى رؤيتهما القاعة تعج بالحياة وسمعهما الأحاديث المتقطعة وحفيف أثواب السيدات وسط التحيات المتبادلة. سار كل شيء في الطريق الذي تسير فيه الأمور في الحفلات الأخرى، حتى أن «الجنرال» لم يختلف في تصرفه عن «الجنرالات» الآخرين: يربت بصداقة كتف بيرج ويهنئه بسلامة ذوقه وشكل

فرقة لعب الورق بأسلوب خاص ينطق برفع الكلفة. جلس قرب الكونت إيليا أندرييڤيتش معتبراً أنه الضيف الأرفع مكانة بعده هو، بالطبع، وانسجم الشيوخ مع الشيوخ والشبان مع الشبان، وربة البيت قرب الطاولة التي قامت عليها سلة فضية تحمل المعجنات، المشابهة تماماً للمعجنات التي قدمت لدى آل بانن، فلم يعد هناك أي فرق بين هذه الحفلات والحفلات الأخرى.

الفصل الحادي والعشرون

وبصفته ضيفاً مرموقاً، كان پيار مضطراً إلى الجلوس إلى طاولة اللعب بجانب إيليا أندرييڤيتش والجنرال والكولونيل. وبما أنه كان جالساً قبالة ناتاشا، فقد لاحظ بدهشة أن تغييراً عجيباً طرأ على الفتاة منذ ليلة الحفلة الساهرة الراقصة. كانت صامتة أقل جمالاً مما بدت حينذاك بل يمكن القول إنها بدت بشعة، لولا أمارات الشرود التي كانت تكسو وجهها.

حدث پيار نفسه وهو يراقبها: «ماذا دهاها»؟ كانت جالسة إلى طاولة الشاي قرب شقيقتها تجيب عن حديث جارها بوريس بأطراف شفتيها دون أن تنظر إليه. وكان پيار، لمزيد اغتباط شريكه، قد ربح وحده خمسة أشواط وراح يجمع أوراقه حينما تناهى إلى سمعه صوت خطوات وتبادل التهاني، فاختلس نظره إلى وجه ناتاشا. تساءل: «ترى ماذا حدث لها»؟

كان الأمير أندريه واقفاً أمام ناتاشا يحدثها بحنو وعيناها شاخصتان إليه ووجهها محمرّ، لا تكاد تضبط أنفاسها، وقد انبعثت من شخصها كله نار مستعرة كانت أضواؤها منذ حين خامدة. لقد تبدلت كلياً فلم تعد تبدو بشعة بل أصبحت في مثل الإشراق الذي كانت عليه إبان الحفلة.

جاء أندريه يحيي پيار، فلاحظ هذا أن وجه صديقه اتخذ ـ هو الآخر ـ طابعاً جديداً وكأنه عاد إلى الشباب.

غيّر پيار خلال الشوط، حسب أصول اللعبة، مكانه غير مرة، فكان تارة

مديراً إلى ناتاشا وتارة مقبلاً إليها. فلم يكف خلال جولاته الست عن مراقبة صديقه والفتاة الشابة.

قال في سرّه: «ثمة شيء خطير يقوم بينهما». وانتابه شعور امتزج فيه الأسف بالسرور، شعور حرك عواطفه لدرجة كاد معها ينسى اللعب.

وقف الجنرال بعد الشوط السادس معلناً استحالة اللعب في مثل هذه الشروط، فاستعاد پيار حريته. كانت ناتاشا تتحدث مع سونيا وبوريس، وڤيرا تجاذب الأمير أندريه الكلام وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة. التحق پيار بصديقه وجلس بقربه وهو يتساءل عما إذا لم يكن متطفلاً عليهما. كانت ڤيرا، وهي التي لاحظت عناية الأمير بأختها ناتاشا، تعتقد أن سهرتها تلك، باعتبارها سهرة مستوفية الشروط، صالحة للتنويه بالشؤون العاطفية تنويهاً ملزماً. فانتهزت فرصة انفراد الأمير بنفسه وراحت تثير معه حديثاً حول الحب بصورة عامة وأختها بصورة خاصة. قدرت أنه يجب عليها اللجوء إلى مرونتها كلها للتحدث مع ضيف يمتاز بالذكاء المتوقد كما كان حال الأمير أندريه.

لاحظ پيار حين اقترب أن ڤيرا شديدة الانفعال مسترسلة في قولها وأن الأمير ظاهر الخجل والارتباك، الأمر الذي يندر وقوعه له. كانت تقول من وراء ابتسامتها اللطيفة:

ـ ما هو رأيك؟ إنك دقيق الملاحظة، عظيم الإدراك من النظرة الأولى لأخلاق الناس. ما رأيك في ناتالي؟ هل تستطيع أن تكون ثابتة في تعلقها؟ هل تستطيع كالنساء الأخريات، وهمت أن تقول مثلي، أن تحب رجلاً وأن تظل مخلصة لحبه؟ إن هذا هو الحب الحقيقي في نظري. ما رأيك أنت أيها الأمير؟

فأجاب الأمير وهو يخفي اضطرابه وراء ابتسامة ساخرة: أنا لا أعرف أختك تمام المعرفة لكي أستطيع الإجابة عن سؤال دقيق كهذا.

وأضاف وهو يلتفت نحو پيار الذي كان قادماً إليها:

ـ ثم إنني لاحظت أن المرأة يزداد إخلاصها كلما نقص الإعجاب بها.

فاستأنفت ڤيرا تقول: نعم، هذا صحيح يا أمير. أما في أيامنا...، كانت ڤيرا تتحدث عن أيامها كما لا يحب التحدث عنها إلا ذوو العقول المحدودة الذين يعتقدون أنهم اكتشفوا وحدهم وقدروا مزايا وقتهم ويفترضون أن البيئة الإنسانية تتغير بحسب الأزمنة، أما في أيامنا، فقد كانت الفتيات يتمتعن بحرية كبيرة متناهية حتى أن اللذة التي كن يشعرن بها إذا أحطن بالمتغزلين كانت تخنق غالباً في نفوسهن الإحساس الحقيقي. وناتالي، والحق يقال، شديدة الحساسية.

ازداد تقطيب الأمير لهذا التلميح وإقحام اسم ناتالي. أراد الانصراف لكن ڤيرا استرسلت وابتسامتها تزداد رقة: إنني لا أظن أن فتاة «غوزلت» مثلها. لكن ما من أحد راق في عينيها جدياً حتى الآن.

وتابعت وهي تخاطب پيار:

ـ إنك تعرف تماماً يا كونت أن ابن عمنا الفتان بوريس نفسه الذي كان، والحديث بيننا، مفتوناً بها، تائهاً في آفاق الإحساس الحاني...

لم ينطق الأمير أندريه بكلمة وظل على تقطيبه وعبوسه. قالت ڤيرا:

ـ إنك صديق بوريس أليس كذلك؟

ـ نعم، إنني أعرفه.

ـ لا شك أنه حدثك عن غرام طفولته بناتاشا؟

فسأل الأمير وقد احمرّ وجهه فجأة:

ـ آه! هل كان هناك غرام منذ الطفولة؟

ـ نعم. إنك تعرف أن المودة بين ابن العم وابنة العم تؤدي أحياناً إلى الحب: إن قرابة العمومة جوار خطر كما يقولون، أليس كذلك؟

فقال الأمير: بدون شك.

وراح يداعب پيار مداعبة مغتصبة موصياً إياه بأن ينتبه ويأخذ حذره من ابنتي عمه الخمسينيتين اللتين تسكنان في موسكو. ثم نهض وهو مسترسل في مزاحه وأخذ بذراع پيار وانتحيا زاوية. قال پيار الذي أدهشته دلائل الانفعال البادية على وجه صديقه الذي لاحظ النظرة التي أرسلها هذا إلى ناتاشا:

ـ حسناً! ماذا في الجو؟

فأجاب أندريه وهو يلمح إلى القفازات التي يعطيها الإخوان الماسونيون لزملائهم الجدد ليقدموها إلى النساء اللاتي يحبونهن:

ـ يجب أن أحدثك. إنك تعرف قفازاتنا النسائية... حسناً... كلا، سأحدثك بالأمر على حدة.

ومضى يجلس قرب ناتاشا وفي عينيه لهيب غريب وفي حركاته انفعال. رآه پيار يطلب إلى الفتاة شيئاً أجابته عنه محمرّة الوجه. لكن بيرج جاء في تلك اللحظة يرجو پيار أن يشترك في النقاش الذي يشترك فيه الجنرال والكولونيل حول مشاكل اسبانيا.

كان بيرج مرتاحاً منشرح النفس تضيء وجهه ابتسامة راضية. لقد نجحت سهرته وشابهت السهرات التي شهدها من قبل: أحاديث نسائية رقيقة، شوط من الورق مع جنرال مرتفع الصوت، سماور، حلويات، كل شيء جيد باستثناء ملاحظة واحدة كان بيرج يحلها محل الاعتبار في تقديره للسهرات المثالية: حديث صاخب بين الرجال ونقاش حاد حول موضوع خطير عظيم الأهمية ولكن الجنرال تفضل بإثارة مثل هذا النقاش الذي أسرع بيرج يجتذب پيار ليشترك فيه.

الفصل الثاني والعشرون

غداة اليوم التالي ذهب الأمير أندريه استجابة لدعوة الكونت إيليا أندرييڤيتش لتناول الغداء على مائدته فأمضى عنده طوال النهار.

حدس كل من آل روستوف ما جرى بين الأمير وناتاشا. ذلك أنه لم يكف عن مغازلة ناتاشا بشكل مكشوف، بينما كانت ناتاشا سعيدة وخائفة معاً، شأن أفراد الأسرة كلهم لما اعتراهم من قلق يسبق اللحظات الحاسمة. كانت الكونتيسة، عندما تتحدث مع ابنتها، تصوب نحو الأمير نظرات جدية حزينة لكنها لا تكاد تعود بعينيها إليها حتى يختفي القلق بين طيات مواضيع تافهة. ولم تكن سونيا تجرؤ على الابتعاد عن ناتاشا، فكان وجهها يشحب من الرهبة كلما وجدت نفسها منفردة فترة قصيرة مع الأمير أندريه الذي أخذ يبلبل أفكارها بخجله. كانت تحس بأنه يريد الإفضاء إليها بشيء لكنه لا يحزم أمره.

وعند المساء، وعندما غادر منزل آل روستوف، جاءت الكونتيسة إلى ناتاشا وقالت لها بصوت خفيض: حسناً، ماذا؟

أجابتها:

ـ أماه، أتوسل إليك أن لا تسأليني شيئاً في هذه اللحظة. إن هذه الأمور لا تقال.

مع ذلك، بقيت ناتاشا طوال تلك الليلة فريسة للانفعال مستلقية على سرير أمها شاخصة النظر. روت لها أنه امتدحها وأنه أطلعها على رغبته في

السفر إلى الخارج وسألها عن المكان الذي يقضي ذووها فيه فصل الصيف وأخيراً، حدثها مرة أخرى عن بوريس. ثم اعترفت قائلة: لكنني لم أشعر من قبل قط بمثل هذا الإحساس. أشعر وأنا في حضرته بالخوف، دائماً الخوف. ما معنى هذا؟ إن معنى هذا أنه جدّي أليس كذلك؟ أماه، هل أنت نائمة؟

ـ كلا يا عزيزتي. أنا الأخرى خائفة. إذهبي ونامي.

قالت وقد استنفرها اكتشافها شعوراً جديداً في نفسها:

ـ على كل حال، لن أنام. أنام؟ كم هو سخيف النوم! أماه، يا أمي الحبيبة، إنني لم أشعر من قبل بمثل هذا الإحساس. لم نكن نفكر في مثل ذلك!...

اعتقدت ناتاشا أنها افتتنت بأندريه منذ لقائهما الأول في أوترادناي. وعلى ذلك فإن الرجل الذي فكرت فيه منذ تلك اللحظة، وكانت مقتنعة بهذا الإيمان، عاد الآن يقتحم طريقها دون أن يكون مستخفاً بشأنها! كانت تروعها تلك السعادة الغريبة غير المتوقعة.

ـ وكان عليه بدون شك، أن يكون في بيترسبورغ في الوقت الذي حللنا فيها وأن نتقابل في الحفلة الراقصة. كل هذا من عمل القدر. نعم إنه واضح أن الأمر كان يجب أن يكون على هذا النحو. ثم إنني ما كدت ألمحه حتى شعرت بشيء خاص يعتلج في نفسي.

سألتها أمها وهي ساهمة، عن الأشعار التي كتبتها في مذكرتها.

ـ ماذا قال لك كذلك؟ ما هي هذه الأبيات؟ إقرئيها لأرى...

ـ أماه، هل الزواج بأرمل أمر سيئ؟

ـ اسكتي يا ناتاشا. صلي لربك الكريم. إن الزواج يعقد في السماوات.

قالت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاضطراب: أماه العزيزة، كم أحبك. كم أنا سعيدة!

وارتمت على عنق أمها.

كان أندريه، في الوقت نفسه، يشرح لـپيار في منزله غرامه بناتاشا وعزمه الأكيد على الزواج بها.

كانت الكونتيسة هيلين ڤاسيلييـڤنا تقيم في ذلك النهار وليمة عندها لكبار الشخصيات وعلى رأسهم سفير فرنسا الذي أصبح من المواظبين على دخول المنزل. واجتمع نفر من أرفع نساء المجتمع والشخصيات المرموقة. قام پيار بجولة في الأبهاء فلاحظ المدعوون جميعاً أنه منكمش ومكتئب.

منذ ليلة الحفلة الراقصة أحس بنوبة من السويداء تقترب منه، فراح يعمل جاهداً بيأس لردها، عيّن منذ أن ارتبطت زوجته بعلاقات من سعادته، مرافقاً في البلاط على غير انتظار. ومنذ تلك الفترة، وهو يشعر في المجتمعات بالارتباك والخجل. وعادت آراؤه القديمة حول نزوات البشر وتفاهة الأشياء الدنيوية تحاصره مجدداً. أضف إلى ذلك أن العلاقة الودية التي رآها تقوى بين محميته ناتاشا وبين الأمير أندريه، والمقارنة بين موقف صديقه وموقفه هو نفسه، كل هذه الأشياء ساعدت على تعكير مزاجه. راح يطرد كل فكرة تتعلق بزوجته بمثل العنف الذي يطرد به كل ما يتعلق بناتاشا والأمير من آراء. ومجدداً، خيل إليه أن كل شيء تافه لا شأن له إذا قيس بأزلية الله، ومن جديد عاد يتساءل: «ما الفائدة؟» وبسبب ذلك، أخذ يغرق نفسه ليلاً نهاراً في العمل في الشؤون الماسونية آملاً بذلك التغلب على الأفكار السيئة.

وحوالى منتصف الليل، غادر أجنحة الكونتيسة وانسحب إلى الدور الأول، إلى غرفة منخفضة، فجلس إلى منضدة العم مرتدياً ثوباً منزلياً قديماً وراح ينسخ المواد الشرعية للمحافل الإيكوسة عندما دخل عليه بعضهم. كان الأمير أندريه هو الداخل. قال:

ـ آه! هذا أنت.

ثم تابع بلهجة أولئك التعساء الذين يبحثون في العمل عن السلوان ونسيان آلامهم.

ـ إنني أشتغل كما ترى. وها هو دفتري.

ابتسم له الأمير أندريه بأنانية السعداء دون أن يلتفت إلى حزن صديقه وقال ووجهه مشرق كأنه انقلب خلقاً جديداً: نعم يا عزيزي، ها أنذا. كنت أريد التحدث إليك بأمر الأمس. ومن أجل ذلك جئت، إنني لم أشعر قط بمثل هذا الشعور. أنا عاشق يا صديقي.

أطلق پيار فجأة زفرة عميقة وانهار متثاقلاً على الكنبة بجانب أندريه وقال: ناتاشا روستوف، أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم. ومن سواها إذا لم تكن هي؟ لم أكن لأصدق ذلك قط. لكن هذا الحب أقوى مني. بالأمس تألمت كما يتألم المتعذبون الشهداء. مع ذلك فقد بدا لي ذلك العذاب أثمن من كل ما في الوجود. إنني لم أكن على قيد الحياة من قبل. إنني ولدت الآن وبدأت أعيش الآن، ولن أستطيع الحياة بدونها. ولكن هل تستطيع أن تحبني؟ إنني عجوز بالنسبة إليها... تكلم. إنك صامت!

فقال پيار الذي وقف فجأة وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً: أنا، أنا؟ وماذا تريد مني أن أقول؟ لقد فكرت دائماً في هذا... إن هذه الفتاة كنز حقيقي... نعم كنز، كنز، عصفور نادر... يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أن لا تتردد ولا تناقش. تزوج وتزوج وتزوج... ستكون أسعد الرجال وأنا واثق بذلك.

ـ ولكن هي؟

ـ إنها تحبك!

تابع أندريه وهو يبتسم ويغرق نظره في عيني بيار:

ـ لا تنطق بالغباوة...

صاح بيار نافد الصبر: إنها تحبك، أنا أعرف ذلك.

عندئذ قال أندريه وهو يمسك بذراعه: إذن، أصغ إليّ. هل تعرف في أية حالة معنوية أجد نفسي؟ يجب أن أفضي بمكنونات صدري إلى أحد.

أجاب بيار الذي أشرق وجهه:

ـ حسناً، تكلم. إن ذلك يسعدني جداً.

زال الخط العرضي الذي يشوه جبهته وراح يصغي إلى أندريه وهو يبتسم. كان هذا قد أصبح بالفعل ذلك الرجل الجديد الذي بدت على وجهه علامات الابتهاج والشباب. أين ذهبت مرارته وإغفاله شؤون الحياة واحتقاره لها؟ كان بيار المخلوق الوحيد الذي وجد أندريه أن بالمستطاع التنفيس عما في خاطره أمامه. فراح يضع حيناً مخططات بسيطة وجريئة لمستقبله الطويل قائلاً إنه لا يستطيع تكريس حياته لنزوة أبيه وأن هذا إذا رفض مشروع الزواج فإنه سيستغني عن موافقته. وحيناً آخر يظهر دهشته لهذه العاطفة التي استبدت به كما يستغرب المرء أمراً شاذاً لا أهمية له عليه. وأخيراً قال مختتماً مناجاته:

ـ لو قال لي أحدهم إنني سأحب يوماً بهذا الشكل لما صدقته. ليس هذا الإحساس هو ما شعرت به من قبل. إن العالم الآن ينقسم أمامي إلى شطرين: الأول، حيث يكون كل شيء مفعماً بالسعادة والأمل والضياء. والثاني، حيث لا يكون شيء إلا الظلمات واليأس.

كرر بيار: ظلمات ويأس. نعم، نعم، إنني أفهم هذا.

ـ لا أستطيع إلا أن أحب النور. إن هذا أقوى مني. وأنا سعيد جداً. هل تفهمني؟ إنني أعرف أنك تبتهج من أجلي.

فقال پيار مؤيداً وهو يحيط صديقه بنظرة ودودة: نعم، نعم.

كان كلما لاح له مصير الأمير مشعاً، اتخذ مصيره في عينيه طابعاً أكثر ظلمة.

الفصل الثالث والعشرون

لأنّ الأمير أندريه لا يستطيع الزواج دون موافقة والده، فقد اتجه منذ صباح الغد، في طريقه إليه. واستقبل الأمير العجوز بيان ولده بهدوء ظاهري وغضب في داخله لم يكن يستطيع تقبل فكرة تبديل بعضهم لنمط حياته بإدخال عامل جديد عليها بينما انتهت أيامه. قال في سرّه: «ليتركوني أقله لأنهي أيامي أيامي على مزاجي، وليفعلوا من بعدي ما يروقهم». مع ذلك عمد إلى المرونة مع ابنه، مرونة أيامه الخوالي. درس الموضوع بهدوء من كل جوانبه.

أولاً، إن كل شيء في هذا الموضوع، المولد، الثروة، النسب، كله سيئ. ثم كان أندريه متقدماً في السن ضعيف الصحة، وقد ألح العجوز على هذه الناحية بصورة خاصة، بينما الفتاة صبيّة في شرخ الشباب. ثالثاً، إن لأندريه ابناً وكان أمر العهدة به إلى أيدي بنية يستدر الشفقة حقاً. رابعاً ـ ونظر الأمير العجوز إلى ابنه وهو مستغرق في تفكيره، نظرة هازئة ـ إليك رغبتي: «أجّل زواجك عاماً واحداً وسافر إلى الخارج. اعتن بصحتك هنا وابحث عن مربٍ فاضل للأمير نيكولا. فإذا لم يتبدل غرامك أو شهوتك أو ولعك، سمه ما شئت، خلال هذه الفترة بل ظل على عنفه، عندئذٍ، تزوج. هذه هي كلمتي الأخيرة، اعلم ذلك، كلمتي الأخيرة...».

لقد دلّت لهجة الأب وهو ينطق بقراره هذا على أن أي حافز في الوجود لن يغير رأيه إطلاقاً.

بدون شك، كان العجوز يأمل أن تضعف عواطف أندريه خلال هذه

المدة أو أن تتبدد رغبة مخطوبته خلال هذه السنة وهي التي قد لا تقاوم هذا الاختبار. أما إذا لم يحدث أيّ تبديل عليها، فإنه هو قد يموت خلال هذه الفترة. فهم أندريه مقصد أبيه وقرر أن يمتثل لرغبته. فاعتزم طلب يد ناتاشا شريطة تأجيل الزواج عاماً كاملاً.

ومرت ثلاثة أسابيع منذ زيارة أندريه الأخيرة لآل روستوف قبل أن يرجع إلى بيترسبورغ.

انتظرت ناتاشا وصول أندريه غداة اليوم التالي لاعترافاتها لأمها. ولكن ذهب انتظارها سدىً. كذلك كان شأنها في الغد وبعده. ولما بقي محتجباً كذلك، فظلّت ناتاشا جاهلة بأمر سفر أندريه. لذلك لم تكن تجد تفسيراً لغيابه.

مرت ثلاثة أسابيع، على هذا النحو، وناتاشا ترفض الخروج من البيت، تتيه كالطيف من غرفة إلى غرفة خائرة القوى. فإذا ما حل المساء، وانقطعت عن زياراتها الليلية لأمها، أصبحت تنفعل وتثور لأتفه الأشياء وتتصور أن كل الناس على علم بإخفاقها يسخرون منها أو يرثون لحالها. وكانت تلك الطعنة في كبريائها تزيد مقدار يأسها.

ذهبت ذات يوم إلى أمها بغية التحدث معها. لكنها انخرطت فجأة في بكاء مرير. كانت تلك أحزان طفلة عوقبت فما عادت تدري ماذا يؤخذ عليها، وراحت الكونتيسة تواسيها. فأصغت ناتاشا بادئ الأمر إلى أقوال أمها ثم قاطعتها فجأة لتقول: كفي عن الحديث حول هذا الموضوع يا أماه. إنني لا أفكر فيه ولا أريد العودة إلى التفكير! ثم إن كل شيء بسيط للغاية: كان يزورنا ثم كف عن زيارتنا، نعم كف...

وارتجف صوتها وعادت العبرات تخنقه. لكنها تماسكت وتابعت هادئة:

ـ على كل حال، لا أريد أن أتزوج. ثم إنه يخيفني. أنا الآن هادئة تماماً.

وفي اليوم التالي، ارتدت ناتاشا ثوباً قديماً كان من خصائصه أن يبسط

مزاجها، وبدأت منذ الصباح في حياتها المألوفة التي أهملتها منذ ليلة الحفلة الراقصة. احتست الشاي وذهبت إلى القاعة الكبيرة التي كانت تعجبها بصورة خاصة بسبب الشروط الصوتية المتوافرة فيها وتمرنت على العزف فترة. فلمّا انتهت من الدرس الأول وقفت في منتصف القاعة لتكرر مقطعاً حائزاً إعجابها أكثر من غيره. راحت تشعر بلذة جديدة في الإصغاء إلى تلك الألحان المنتقاة التي تملأ فراغ القاعة لتتبدد لا شعورياً. وفجأة شعرت بمرح غامر. قالت: «ما فائدة التفكير في كل هذه الأمور؟ أليست الحياة هنيئة على هذا المنوال»؟ وأخذت تتنزه في طول القاعة وعرضها ليس بخطاها الطبيعية بل متكئة بادئ الأمر على كعبها ثم رأس قدمها. وكانت تلبس في قدميها الحذاءين الجديدين اللذين كانت تفضلهما على الأحذية الأخرى. أحدث في نفسها وقع الكعب المنتظم المتبوع بصرير مقدمة القدم تماثلاً في النشوة التي غمرتها عندما أصغت منذ حين إلى صوتها. مرت بمرآة كبيرة فألقت عليها نظرة رأت وجهها وكأنه يقول: «أي نعم، ها أنذا! إن هذا ممتاز كما هو ولست في حاجة إلى أحد».

ودخل أحد الخدم يعيد إلى القاعة بعض الترتيب فصرفته واستمرت في نزهتها، رجعت ذلك الصباح إلى حب نفسها والإعجاب بشخصها وهما العاملان اللذان يشكلان حالتها النفسية المعتادة. قالت وهي تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب وكأن المتحدث جمعٌ من الذكور «يا للفتنة التي في ناتاشا! إنها صبية وجميلة ولها صوت عذب، لا تزعج أحداً فدعوها بسلام»! لكنها وإن تركت بسلام لم تكن تستطيع استعادة هدوئها. وها هي ذي قد مرت بالتجربة.

فُتح باب المدخل عند أقصى الدهليز وارتفع صوت يسأل عما إذا كانت الكونتيسة تسمح بمقابلتها ثم ارتفعت أصوات الخطى المقتربة. ألقت ناتاشا

مجدداً نظرة إلى المرآة لكنها لم تر فيها شيئاً بادئ الأمر. احتكرت الخطوات الآتية من الممرّ كل اهتمامها. وعندما استطاعت رؤية صورتها في المرآة، أذهلها شحوبها. كان «هو» القادم. إنها واثقة تماماً رغم أن صوته لم يصل إلى سمعها واضحاً من وراء الباب المغلق.

امتقع وجهها فأسرعت دون وعي نحو القاعة وصاحت:

ـ أماه، بولكونسكي هنا! إنه أمر مريع يا أماه يتجاوز حد طاقتي لا أريد هذا العذاب! ما العمل؟...

لم تجد الكونتيسة متسعاً من الوقت للإجابة عندما دخل الأمير أندريه وعلى وجهه أمارات القلق وما إن لمح ناتاشا حتى أشرق وجهه. قبّل يديّ السيدتين وجلس.

بدأت الكونتيسة بالقول:

ـ لقد مضى زمن طويل لم نحظ فيه...

لكن الأمير لم يدع لها الفرصة لإتمام قولها بل قال متعجلاً الوصول إلى غاياته: لم أحضر لزيارتكم خلال الفترة الأخيرة لأنني كنت أبحث مع أبي موضوعاً على جانب كبير من الأهمية، فلم أصل إلا أمس مساء.

وألقى نظرة على ناتاشا واسترسل بعد فترة صمت: أريد التحدث إليك يا كونتيسة.

تنهدت الكونتيسة وغضت طرفها وقالت: إنني مصغية إليك.

فهمت ناتاشا أن عليها أن تنسحب. لكنها لم تحزم أمرها: شعرت أن شيئاً يضغط على حنجرتها فراحت تتطلع إلى وجه الأمير بعينيها المتسعتين دون أن تحسب حساباً لتقاليد اللياقة المرعية. أخذت تحدث نفسها: «كيف، سيقرر كل شيء!... وفي لحظة؟... كلا، هذا غير معقول!...».

نظر إليها مجدداً فأقنعتها تلك النظرة بأنها لم تكن مخطئة قط. نعم،

سوف يتقرر مصيرها في لحظة واحدة. قالت الكونتيسة بصوت خفيض: إذهبي يا ناتاشا. سوف أستدعيك.

فألقت عليهما معاً نظرة مروعة متوسلة وخرجت.

قال الأمير أندريه: لقد جئت يا كونتيسة أطلب يد ابنتك.

احمرّ وجه الكونتيسة وظلت فترة لا تستطيع الجواب. وأخيراً بدأت تقول بلهجة خطيرة بينما كان ينظر إلى عينيها:

ـ إن عرضك...

واضطرب صوتها فكرت:

ـ إن عرضك مقبول... و... وإنني أتقبله بسرور... وزوجي كذلك.. على ما أعتقد... لكنه أمر منوط بها...

قال أندريه: سوف أتحدث إليها بالأمر عندما أحصل على موافقتك. هل تمنحينني موافقتك؟ قالت وهي تمد له يدها: نعم.

ثم ضغطت شفتيها على جبين الأمير الذي انحنى على يدها بقبلة جمعت شعوراً من الحنان والنفور. كانت تريد من صميم نفسها أن تحبه كابنها. لكنها كانت تشعر بأنه غريب وأنه يخيفها. فاسترسلت تقول:

ـ أنا لا أشك في موافقة زوجي ولكن ماذا بشأن أبيك...

ـ لقد أطلعت أبي على نياتي فوافق شريطة ألا يتم الزواج إلا بعد عام. ولقد أردت إطلاعك على هذا الأمر أيضاً.

ـ صحيح أن ناتاشا لاتزال صغيرة. لكن مثل هذه الفترة الطويلة...

قال أندريه وهو يتنهد: لم أستطع إقناعه بالعدول عن قراره.

قالت الكونتيسة وهي تخرج من القاعة:

ـ سوف أرسلها إليك.

وبينما هي تبحث عن ابنتها ظلت تكرر: رباه أشفق علينا!

كانت ناتاشا في غرفة نومها، قالت لها سونيا فذهبت إليها الكونتيسة لتجدها جالسة فوق سريرها شاحبة الوجه شاخصة بعينين جافتين إلى الصور المقدسة ترسم إشارة الصليب على صدرها بحركة محمومة وتدمدم بكلمات خفيضة. فلما وقع نظرها على أمها قفزت من فوق السرير وأسرعت للقائها:

ـ حسناً يا أماه؟... ماذا؟

قالت الكونتيسة بلهجة لمست في ابنتها طابع البرودة: إذهبي، إذهبي، إنه ينتظرك. لقد طلب يدك.

ولما رأت ابنتها تركض مسرعة كررت تشيعها بنبرة حزينة: إذهبي، إذهبي.

وأطلقت زفرة عميقة.

بعدئذ، لم تستطع ناتاشا أن تتذكر كيف دخلت القاعة الكبيرة. توقفت عند العتبة عندما وقع نظرها عليه وتساءلت: «هل يعقل أن يكون هذا الغريب قد أصبح لي بكليته»؟ لتجيب نفسها بنفسها: «نعم، بكليته. إنه في الواقع أعز عندي من كل شيء في الوجود».

اقترب منها أندريه مطأطئ العينين، وقال: لقد أحببتك مذ رأيتك أول مرة. فهل لي أن آمل؟

ورفع عينيه إليها فأذهله ما انطبع به وجهها من خطورة. كان ذلك الوجه ينطق قائلاً: «لمَ هذا السؤال؟ لمَ الشك في ما يستحيل تعذر فهمه؟ لمَ الكلام بما لا تستطيع الكلمات الإعراب عما يشعر به المرء»؟

تقدمت بضع خطوات ووقفت بالقرب منه. فأخذ يدها وقبلها.

قالت ناتاشا وكأنها تجبر نفسها على القول: نعم، نعم.

واضطرب تنفسها وانفجرت باكية.

ـ لماذا؟ ماذا جرى لك؟

أجابت وهي تضحك خلال دموعها: آه! إنني سعيدة جداً.

ومالت نحوه مترددة لحظة تتساءل ولا شك عما إذا كان يجوز لها أن تمنحه قبلة.

كان أندريه ممسكاً بيديها ينظر إلى وجهها دون أن يجد في قرارة نفسه ذلك الحب الذي أحس به نحوها من قبل. واصطخبت في نفسه ثورة. لقد تبخرت الشاعرية والجاذبية الغامضة التي كانت تخلق في نفسه الرغبة، وحل محلها إشفاق على هذا الضعف النسوي وعلى ذلك الذهول الذي نجم عن الاستسلام المطلق المشفوع بالثقة. أخذ يشعر شعوراً يمتزج فيه السرور مع الكآبة بالواجب الذي يربطه إليها رباطاً أبدياً. بدا له ذلك الشعور أقل لمعاناً وشاعرية من قبل ولكن أشد قوة. تابع أندريه وهو لا يزال ينظر إلى عينيها: هل قالت لك أمك إن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل عام؟

كانت ناتاشا تفكر في سرها: «هل حقيقة أصبحت أنا، أنا التي يعتبرني كل الناس بنية طائشة، أصبحت زوجة هذا الرجل المفرط في الذكاء الذي يحترمه حتى أبي والذي لايزال غريباً عني؟ هل من المعقول؟ هل صحيح أن الحياة لم تعد الآن دعابة وأنني أصبحت شخصية كبيرة مسؤولة عن كل حركة من حركاتي وكل كلمة؟ ولكن رباه، ماذا يسألني»؟

أجابت دون أن تفهم شيئاً من السؤال: كلا.

قال أندريه: اسمحي لي أن أقول إنك ما زلت شابة في مقتبل العمر بينما عركتني تجارب الحياة. إنني أخاف عليك لأنك ربما تكونين جاهلة نفسك.

كانت ناتاشا تصغي إليه بانتباه محاولة تفهم معنى كلماته. بينما تابع الأمير:

ـ مهما كان لهذه السنة التي تباعد بيني وبين سعادتي من إيلام لنفسي فإنها فترة كافية تساعدك على التحقق من مشاعرك. أنا أطلب إليك أن تسعديني بعد

عام. أما أنت، فاحتفظي بحريتك. سوف تبقى خطبتنا سراً حتى إذا اقتنعت خلال هذا الوقت أنك لا تحبينني أو أنك، على العكس، مصممة على حبي...

ابتسم ابتسامة مغتصبة عندما قاطعته ناتاشا قائلة:

ـ لماذا تتحدث على هذا النحو؟ أنت تعرف أنني أحببتك منذ زيارتك الأولى في أوترادنواي.

وكانت لهجتها مفعمة بالثقة والصدق.

ـ سوف تستطيعين التعرف إلى نفسك خلال عام.

وهنا فقط توصلت ناتاشا إلى الفهم أن الزواج لن يتم قبل عام فصاحت مندهشة:

ـ عام كامل! ولكن لماذا عام؟ لمَ إذن عام؟

أخذ الأمير يشرح لها أسباب هذا التأجيل لكنها لم تكن تصغي إليه فسألته.

ـ ألا تستطيع إبدال شيء؟

لم يجب أندريه لكنها قرأت على صفحة وجهه أن القرار لا يقبل النقض. وفجأة قالت ناتاشا وهي تنخرط في البكاء مجدداً: إنه مريع، مريع! سأموت إذا وجب أن أنتظر عاماً. يستحيل، إنه مريع!

وعندما رفعت عينيها إلى وجه خطيبها رأت أنه فريسة إشفاق مؤلم. فجففت دموعها فوراً وقالت: لا، لا، إنني أوافق على كل شيء... إنني سعيدة جداً!

في تلك اللحظة، دخل الأب والأم ومنحا بركتهما للشابين. ومنذ ذلك اليوم أخذ أندريه يزور بيت آل روستوف بوصفه من العائلة.

الفصل الرابع والعشرون

وبما أن الأمير أندريه ألحّ لإبقاء الأمر طيّ الكتمان لم تقم احتفالات رسمية بالخطبة. كان يقول إنه لما كان الموضوع خاضعاً للإمهال فإن عليه أن يحتمل النتائج. إن كلمته التي أعطاها تربطه إلى الأبد. لكنه لا يريد أن يربط ناتاشا بل إنه يترك لها الحرية المطلقة: فإذا تبينت خلال ستة أشهر أنها لا تحبه، فإن لها كل الحق في رفض طلبه. ومن البديهي أن لا ناتاشا ولا ذووها كانوا يوافقون على مثل هذا التصرف، لكنه لم يتراجع عن رأيه. كان يذهب كل يوم إلى منزل آل روستوف لكنه لم يكن يعامل ناتاشا معاملة المخطوبة: استمرّ يخاطبها بصيغة الجمع ويكتفي بتقبيل يدها. لكن علاقاتهما اتخذت خلال هذه الفترة طابعاً جديداً عامراً بالألفة، حتى ليقال إنهما لم يعرفا بعضهما حتى ذلك الحين. كان كل منهما يحب أن يتذكر الطريقة التي كان ينظر بها إلى الآخر يوم أن كان كلاهما «لا شيء» بالنسبة إلى الآخر. شعرا أنهما أصبحا مخلوقين مختلفين تماماً: كانا من قبل يتواريان أما الآن فقد أصبحا مخلصين. والعائلة نفسها كانت في بداية الأمر تحس بنوع من الارتباك في حضرة الأمير أندريه الذي كانت تعتبره شخصية من عالم آخر. لذلك فقد أمضت ناتاشا زمناً طويلاً حتى تمكنت من إيجاد الألفة بين ذويها وأندريه: ظلت تؤكد لهم بفخار أن بديهته ليست إلا مظهراً وأنه في أعماق نفسه يشبه كل الناس وأنه لا يخيفها أبداً وكذلك لا يجب أن يخشى منه أحد. ومضت أيام انطبع بعدها أفراد العائلة وألفوا ذلك العنصر الجديد فتبدد الارتباك وعادت الحياة سيرتها الأولى، بل

أكثر من ذلك إذ راح أندريه يساهم في نمط حياتهم، كان يحسن الحديث في الزراعة مع الكونت وفي الأزياء مع الكونتيسة وناتاشا وفي المجموعات والتحف واللوحات مع سونيا. وأحياناً، كان أفراد عائلة روستوف يبحثون، سواء بينهم أو أمام أندريه، في تطورات القدر وتدخله في كل هذه القضية: فسفر الأمير إلى أوترادنواي ومجيئهم إلى بيترسبورغ، والشبه بين ناتاشا وخطيبها الذي لاحظته الوصيفة العجوز منذ الزيارة الأولى والخصومة التي وقعت بين أندريه ونيكولا عام ١٨٠٥ وأشياء أخرى من هذا القبيل كانت كلها بمثابة إشارات مسبقة لا شك فيها.

عم المنزل شعور بالسأم الشاعري الصامت الذي يحيط عادة بالمخطوبين. التزم أفراد الأسرة الصمت غالباً إذا ما وجدوا مجتمعين في غرفة واحدة. وأحياناً كانوا ينسحبون تاركين المخطوبين وحدهما مطبقين في الصمت. نادراً ما تحدثا عن مستقبلهما لأن أندريه كان يخشى تداول هذا الموضوع ويجد مسلكه شائكاً. أما ناتاشا فكانت تشاطر الأمير هذا الإحساس وكل مشاعره الأخرى التي كانت تخمنها فوراً. حزمت ذات مرة، أمرها على التحدث معه عن ابنه. احمرّ وجه أندريه، وهو الأمر الذي بات كثير الوقوع له يغمر نفس ناتاشا بالسرور، وقال لها إن الطفل لن يساكنهما. سألته ناتاشا مروعة: ولماذا؟

ـ لأنني لا أستطيع انتزاعه من جده ثم...

فعرفت ناتاشا فكرته فوراً وقالت: كم سأحبه! لكنني أفهم ما تقصد. إنك تريد أن تجنبنا، أنت وأنا، مغبة النقد.

كان الكونت العجوز يقترب من الأمير أحياناً ويعانقه سائلاً إياه النصح في موضوع تثقيف بيتيا ومركز نيكولا، والكونتيسة تتنهّد وهي تنظر إلى المخطوبين. أما سونيا، فتخشى دائماً أن تكون متطفلة وتختلق الأعذار

لتتركهما منفردين حتى ولو لم تكن تلك رغبتهما. وعندما يبدأ أندريه الكلام، وكان محدثاً لبقاً، كانت ناتاشا تصغي إليه بزهو. أما إذا تحدثت هي فكانت تلاحظ أنه يراقبها بعين فاحصة امتزج فيها الخوف بالفرح. كانت تتساءل في شيء من القلق: «عمّ يبحث فيّ؟ ماذا يقصد بهذه النظرة؟ ماذا يحدث لو أنه لم يجد فيّ ما يبحث عنه»؟ كانت تستسلم للجذل المجنون الذي عرفت به وتشعر بغبطة بالغة كلما رأت الأمير أندريه يضحك مسروراً بدوره. وكان نادراً ما يضحك لكنه إذا ما ضحك استسلم بكليته، الأمر الذي كان يجعل ناتاشا تشعر أنها أدنى إليه وأقرب. وكان يمكن لفرحها أن يتجاوز كل حد لولا رهبتها من الفراق القريب الذي كان يجر الشحوب إلى وجهه وتتجمد أطرافه كلما فكرّ في ذلك الفراق.

في الأمسية التي سبقت رحيل الأمير، استدعى الكونت بيار الذي لم يكن قد زار آل روستوف منذ تلك الحفلة الراقصة. كان بيار شارد النظرات مشوش الفكر. وبينما كان يتحدث مع الكونتيسة جلست ناتاشا وسونيا إلى رقعة الشطرنج داعيتين بذلك بولكونسكي إلى موافاتهما.

سألها: إنك تعرفين بيزوخوف منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ هل تشعرين بالصداقة نحوه: نعم. إنه فتى باسل لكنه شاذ قليلاً.

وكعادتها كلما تحدثت عن بيار، راحت تقص النوادر حول شروده، نوادر كان كثير منها مختلقاً أو مركّباً. قال الأمير: اعلمي أنني ائتمنته على سرنا. أنا أعرفه منذ الطفولة. إنه ذو قلب ذهبي. ثم أضاف فجأة بنبرة جدية: أرجوك يا ناتالي، سوف أرتحل غداً والله يعرف ما قد يحدث. لك أن تكفي عن حبـ.... نعم إنني أعرف أنه لا يجوز لي التحدث عن هذا الأمر لكنني، مهما وقع لك خلال غيابي...

ـ ماذا يمكن أن يقع لي؟...

ـ أي مكروه يحدث، أرجو يا آنسة صوفي أن تسأليه وحده العون والنصح. صحيح إنه أكثر الناس شذوذاً لكنه أطيبهم قلباً.

لم يكن لا الأب ولا الأم ولا سونيا ولا أندريه نفسه يتوقع رد الفعل الذي وقع لناتاشا عند افتراقها عن خطيبها. كانت منفعلة ملتهبة الخدين جافية العينين تروح وتجيء في غرف المنزل تتشاغل بأتفه الأشياء وكأنها لا تعرف شيئاً عما ينتظرها غداة ذلك اليوم. بل إنها لم تبكِ حينما قبّل يدها لآخر مرة وهو يودعها. كل ما قالته كان عبارة: لا تذهب! وبصوت تساءل هو نفسه عما إذا كان سيعزف عن الذهاب. وقد بقي فترة طويلة يذكر ذلك الصوت. وعندما ذهب لم تبك كذلك، لكنها بقيت أياماً عديدة مختلية في غرفتها لا تأبه لشيء، تصرخ بين حين وآخر:

ـ آخ! لماذا ذهب!

مع ذلك، ولدهشة المحيطين بها العميقة، استيقظت من ذهولها بعد خمسة عشر يوماً من رحيل الأمير، وعادت إلى سابق عهدها ولكن باستعداد خلقي جديد كما يحدث للأطفال عندما يبلون من مرض طويل وتتغير طباعهم.

الفصل الخامس والعشرون

ساءت صحة الأمير بولكونسكي وتفاقم غضبه خلال السنة التي أعقبت رحيل ولده. أضحت نوبات غضبه كثيرة لا مبرر لها وكانت الأميرة ماري وحدها تقريباً تحتمل تلك النوبات ونتائجها حتى ليخيل إلى المرء أنه يختار المواضع الحساسة في قلبها لينزل بها أقوى الأذى المعنوي. كانت لماري هوايتان وبالتالي فرحتان: ابن أخيها والدّين. فوجد الأمير العجوز في هاتين الهوايتين موضوعه المفضل للاستهزاء، فكان يوجه الحديث دائماً، مهما كان نوعه، نحو خرافات العانسات العجائز ونوبات التسامح نحو الأطفال والرأفة بهم. كان يقول لابنته: «تريدين أن تجعلي من نيكولا الصغيرة فتاة عجوزاً بينما الأمير أندريه في حاجة إلى ولد وليس إلى بنت». أو كان يوجه الحديث إلى الآنسة بوريين ويروح في سخرياته يسألها بحضور ماري عن رأيها في القساوسة ومسائل التقوى.

كانت الأميرة، مهما قسا في تجريحها، تصفح عنه بطيبة خاطر. إذ هل يمكن أن يكون غير عادل أو أن يخطئ نحوها وهو ا لأب الذي تعرف جيداً أنه يحبها رغم كل شيء؟ ثم ما هي العدالة؟ لم تطرح ماري على نفسها هذا السؤال لأنها تجهل معنى هذه الكلمة المتكبرة: العدالة. لم تكن قوانين البشرية المعقدة كلها إلا لتتلخص في نظرها بقانون واحد بسيط وواضح، هو قانون الحب والتضحية الذي علمه ذلك الذي تألم من أجل البشر حباً بالبشر

في حين كان هو الله نفسه. فماذا كان إذن يهم ماري من أمر عدالة الآخرين وظلمهم؟ كانت مهمتها في الحياة أن تتألم وتحب وهي منصرفة إلى مهمتها.

خلال الشتاء، زار أندريه ليسيياغوري فوجدته ماري أنيساً وديعاً كما لم تره قط من قبل. أحست أن تبدلاً طرأ على أخيها. لكنه لم يحدثها بكلمة واحدة عن حبه. وقبل رحيله اختلى بأبيه فترة طويلة فلاحظت ماري أن تلك الخلوة تركتهما غير مرتاحين كليهما.

بعد رحيل أخيها بفترة وجيزة أتيح لماري أن تكتب إلى صديقتها جولي كاراغين في بيترسبورغ، تلك الصديقة التي كانت تحلم، كما تحلم كل الفتيات، أن يتزوجها أخوها. وقد تناهى إليها أن تلك الصديقة فقدت أخاها لأنه قتل في تركيا.

«أرى جيداً أن الحزن نصيبنا كلتينا يا عزيزتي وصديقتي الحنون جولي.

«خسارتك قاسية جداً، لا أستطيع تفسيرها إلا باعتبارها نعمة خاصة من الله الذي يريد أن يبلوك أنت ويبلو أمك الطيبة لأنه يحبكما. آه يا صديقتي! لا يوجد إلا الدّين ملجأ ولا أقول لعزائنا، بل لإنقاذنا من اليأس. الدين وحده يستطيع أن يفسر لنا ما لا يستطيع الإنسان بدونه أن يدرك السبب الذي من أجله يدعو الله إليه المخلوقات النبيلة التي تعرف كيف تجد السعادة في الحياة والتي تسرع لإنقاذ الآخرين وتتجنب إلحاق الأذى بالناس بينما يترك المخلوقات الخبيثة الضارة التي تشبه الحمل الثقيل على أكتاف الآخرين تعيش في الحياة طويلاً.

هذا هو الشعور الذي خلفته في نفسي الوفاة الأولى التي شهدتها، والتي لن أنساها إطلاقاً وأقصد بذلك وفاة زوجة أخي العزيزة. وكما سألت القدرة عن السبب الذي سلبتك من أجله أخاك الرائع، كذلك سألت أنا عن السبب الذي دعا ليز، ذلك الملاك، إلى الموت وهي التي إلى جانب عدم

إيذائها الآخرين لم تكن روحها تضم إلا أطيب الفكر. مع ذلك، فقد مضت خمسة أعوام يا صديقتي العزيزة حتى بدأت أفهم بذكائي الضعيف السبب الذي توجب من أجله الموت عليها. إن تلك الميتة كانت بلا شك علامة الرحمة المتناهية التي أسبغها الخالق عليها الذي لا يمكن لتصرفاته، رغم إننا لا نتوصل إلى فهمها معظم الوقت، أن تكون إلا دلائل الرحمة والحب غير المحدود الذي يشمل به المخلوق. لا شك إنها، كذلك كنت أحدث نفسي، كانت على براءة إنجيلية يتعذر معها القيام بواجباتها كأم. فهي وإن كان لا يرتقي إليها النقد كزوجة شابة إلا أنها كان يمكن أن تعجز عن القيام بواجبات الأم. أما الآن فهي على العكس تركت لنا جميعاً وبصورةخاصة للأمير أندريه الأسف العميق والذكريات الأليمة. وفوق ذلك فهي بدون شك بلغت هناك في السماء مركزاً لا أجرؤ على التفكير فيه من أجل نفسي ومن جهة أخرى فإن تلك الميتة المبكرة الرهيبة تركت في نفس أخي وفي نفسي أجل الأثر إلى جانب الحزن العظيم الذي سببته لنا.

ولو أن مثل هذه الأفكار طافت بخاطري في فترة فقدانها لطردتها مروعة. أما الآن، فعلى العكس، يبدو كل شيء لي واضحاً لا يقبل النقض! أكتب لك ذلك يا صديقتي لأقنعك فقط بالحقيقة الإنجيلية التي أصبحت قاعدة لحياتي: لا تسقط شعرة من رأسنا بدون مشيئة الله. ومشيئته مستوحاة من حبه اللامتناهي لنا. ولهذا السبب، فإن كل ما يقع لنا لا يقع إلا لخيرنا.

«تسألينني عما إذا كنا سنقضي الشتاء في موسكو! إنني رغم كل رغبتي في رؤيتك لا أعتقد ذلك ولا أتمناه. ولعلك تدهشين إذا علمت أن الخطأ في ذلك يعود إلى «بيوناپارته». وإليك السبب. إن صحة أبي تعتل بشكل ظاهر مما يجعله لا يحتمل أية معارضة لأنه أصبح... وسرعة الغضب هذه مبعثها كما تعلمين، السياسة بصورة خاصة. لا يستطيع احتمال مجرد الفكرة

أن «بيوناپارته» هذا يعامل ملوك أوروبا وسادتها معاملة الند للند وخصوصاً مليكنا حفيد كاترين الثانية العظيمة! إنني كما تعلمين لا أبالي مطلقاً بالسياسة. لكنني أعرف من موضوعات أبي وأحاديثه مع ميخائيل إيڤانوڤيتش كل ما يدور في العالم وخصوصاً الولاء والخضوع اللذين يلاقيهما «بيوناپارته». إن ليسيياغوري هي المكان الأوحد في العالم الذي يرفض فيه إعطاؤه لقب الرجل الكبير وأمبراطور الفرنسيين. وهذا هو الأمر الذي يخرج أبي عن طوره. فهو إذا كان لا ينظر إلى السفر إلى موسكو بعين الرضا فإن سبب ذلك يعود بصورة خاصة كما يبدو لي إلى آرائه السياسية: فهو يتصور مسبقاً كثرة المتاعب التي ستسببها له عادته في الإعراب عن رأيه بصراحة دون أن يأبه لأحد. وكل ما يكتسبه صحته من العلاج والرعاية الطبية لن يقاوم بلا شك النتائج المترتبة على المناقشات التي لا بد منها حول موضوع بيوناپارته. على كل حال سوف يتخذ قرار قريب بشأن ذلك.

«إن حياتنا في العائلة تتبع نهجها المألوف إذا استثنينا أخي الذي ارتحل عنا. لقد طرأ عليه تبديل ملحوظ في الآونة الأخيرة كما سبق وكتبت لك. لم يعد إلى الحياة منذ تلك المصيبة التي أصابته إلا في هذا العام. وقد رأيته أخيراً كما عرفته في طفولته: طيباً، رؤوفاً، ذا قلب ذهبي، لا مثيل له في علمي. لقد أدرك على ما أظن أن الحياة لم تنته بالنسبة إليه لكن ما كسبه فكرياً أضاع مقابله جسدياً. لقد أصبح أكثر نحولاً من السابق. إنه يقلقني وأنا سعيدة جداً إذ أراه يسافر إلى الخارج نزولاً عند رغبة الأطباء الذين كثيراً ما أشاروا عليه بذلك، وآمل أن يكون سفره ذا فائدة له. تقولين لي إنهم في پيترسبورغ يتحدثون عنه حديثهم عن واحد من أكثر الشباب نشاطاً وأوفرهم ذكاء وأغزرهم علماً، واصفحي عن كبريائي هذا كأخت حين أقول لك إنني لم أشك قط في مزاياه. ثم إن الخير الذي وفره لنا هنا اعتباراً من الفلاحين وحتى جماعة النبلاء في

المقاطعة أكثر من أن يحصى. إنهم في بيترسبورغ لا يدفعون له إلا ما يستحق. إن السرعة التي تنتشر فيها الإشاعات من بيترسبورغ إلى موسكو تغيظني خصوصاً إذا كانت تلك الإشاعات على غرار النوع الذي حدثتني عنه. كيف يتزوج أخي أنّا روستوف الصغيرة! لا أعتقد أن أندريه يفكر في الزواج من أية كانت وبصورة خاصة من هذه. وإليك السبب أولاً، على الرغم من أنه لا يتحدث عن المرحومة العزيزة إلا نادراً، فإن الحزن الذي خلفه فقدها في نفسه، بذر في قلبه ألماً راسخاً يستحيل معه أن يفكر في إحلال امرأة محلها، ورُزق ملاكنا العزيز زوجة أب في المرتبة الثانية، ليست الفتاة المذكورة على ما أعلم من النوع الذي يروقه. ولا أظن أن الأمير أندريه يرضى أن يتخذها زوجة وبصراحة لا أتمنى ذلك.

«لقد ثرثرت كثيراً حتى ملأت ورقتي الثانية. فوداعاً يا صديقتي العزيزة وليتعهدك الله بحمايته المقدسة. إن رفيقتي العزيزة الآنسة بوريين تقبلك.

ماري».

الفصل السادس والعشرون

تسلمت ماري رسالة من أخيها في سويسرا، حوالى منتصف الصيف، يطلعها فيها على خبر غريب غير منتظر. لقد أعلن لها فيها خطبته الآنسة روستوف. كانت تلك الرسالة تفصح عن حب بالغ لمخطوبته إلى جانب الحنان المطمئن تجاه أخته. أعلن أنه لم يحبّ قط من قبل كما يحب الآن وأنه فهم أخيراً معنى الحياة ويعتذر عن كتمانه الأمر عنها وعدم إطلاعها عليه عندما كان في ليسيياغوري رغم أنه تحدّث لابنه عن مكنونات صدره. ولقد اعتذر عن كتمانه بأنها كانت سترهق الأمير العجوز بالتماسها الموافقة منه وعندئذ يصب جام غضبه عليها.

استتلى يكتب: «لم يكن الأمر في مرحلة متقدمة كما هو عليه اليوم. لقد حدد أبي مهلة عام انقضت منها ستة أشهر وأنا أشد إصراراً على موقفي. ولو أن الأطباء لم يؤخروني هنا حيث أستشفي بالمياه المعدنية لعدت إلى روسيا فوراً. لكنني مضطر إلى إرجاء عودتي ثلاثة أشهر أخرى، إنك تعرفينني وتعرفين علاقتي بأبي. ليس لي ما أطلبه منه وأنا الآن مستقل وسأكون مستقلاً أبداً. لكن هنائي وسعادتي لن يكونا كاملين إذا تصرفت عكس رغبته وأثرت حفيظته في الوقت الذي لم يبق له وقت طويل يمضيه بيننا. لقد كتبت له في الموضوع نفسه فأطلب إليك انتقاء الوقت المناسب لتسليمه رسالتي. كما أطلب إليك أن تتلطفي بإعلامي بالطريقة التي سيتصرف بها تجاه هذا الأمر: تُرى هل من أمل في أن يوافق على اختصار المهلة بإنقاص أربعة أشهر منها»؟

سلّمت ماري الرسالة إلى أبيها، بعد تردد طويل وصلوات حارة. وفي اليوم التالي استدعاها الأمير العجوز وقال لها: اكتبي لأخيك أن ينتظر موتي... ولن يطول الأمر لأنني سأخلصه قريباً.

حاولت ماري الاعتراض بشيء على قوله، لكنه لم يسمح لا بل راح صوته يرتفع غاضباً: تزوج، تزوج يا فتاي الباسل... يا للمصاهرة الرائعة! أشخاص ذوو قيمة ومكانة أليس كذلك؟ ذو ثراء أليس كذلك؟ ستكون زوجة أب جميلة يُتحف بها الصغير نيكولا!... اكتبي له أن يتزوج منذ الغد إذا كان هذا يروقه. إنه يريد إعطاء نيكولا خالة، حسناً! سأعطيه أنا الآخر واحدة: سأتزوج الآنسة بوريين! آه! آه! آه!... إلا أنه لا مكان عندي لنساء أخريات. ليتزوج! ولكن ليذهب بعيداً وليعش مستقلاً... ربما تفضلين مشاطرته الحياة؟ إذن، سفراً سعيداً وليباركك الله!

بعد تلك الثورة الجامحة، لم يعد الأمير يبحث في هذا الموضوع. لكن الغضب الذي سببه له ضعف ابنه كان يظهر بشكل مكتوم في كل علاقاته مع ماري. لقد أضاف موضوعاً ثالثاً إلى السخرية منها إلى جانب الموضوعين الآخرين. موضوع الزوجة الجديدة والغزل الذي يفكر في توجيهه إلى الآنسة بوريين. كان يقول لابنته: ولم لا أتزوجها؟ ستكون أميرة رائعة.

لاحظت ماري، بدهشة وذهول، أن أباها بات أكثر اندماجاً مع الفرنسية. فكتبت إلى أندريه تنبئه بالأسلوب الذي تلقى الأمير به رسالته. لكنها تركت له المجال للأمل في أنها ستغير من رأي أبيها.

اقتصر عزاء الأميرة على تثقيف ابن أخيها والتفكير في أندريه والدين. ولما كان كل إنسان في حاجة إلى إيحاءات شخصية، فإنها كانت تخفي في أعماق قلبها حلماً وأملاً كانا يشكلان نواة عزائها. وهي مدينة بهذا البلسم لـ«رجال الله» المجاذيب والحجاج الذين كانوا يأتون لزيارتها في غياب أبيها،

وكلما لاحظت الحياة واكتسبت منها خبرة، ازدادت دهشتها لبني البشر الذين يتبعون أهواءهم على الأرض، والذين ينصبون ويختصمون ويسيء بعضهم إلى بعض في سبيل بلوغ هذا السراب الخادع. لقد أحب الأمير أندريه امرأة فماتت. ولم يكفه هذا لأنه يريد أن يرتبط ابنه بأسرة ذائعة الصيت واسعة الغنى. وعلى ذلك، فإن كل واحد يناضل ويتألم ويعذب روحه ويفقدها، روحه الخالدة، ليبلغ يمناً لا يدوم إلا لمحة.

ولم يكفنا أننا عرفنا ذلك من تلقاء أنفسنا معرفة كافية، بل إن المسيح، ابن الله، نزل على الأرض ليقول لنا إن هذه الحياة ليست إلا اختباراً عابراً. مع ذلك فإننا نتشبث بها ونأمل أن نجد فيها السعادة. كانت تقول في نفسها: «لماذا لم يفهم هذا أحد؟ ما من أحد، باستثناء رجال الله هؤلاء، الذين لا يلقون إلا كل احتقار، والذين يصلون إلى غرفتي عن طريق سلم الخدم حاملين خراجهم على أكتافهم خائفين التعرض لنظر الأمير. وليس مبعث الخوف تعرضهم للأذى إذا رآهم، بل رغبتهم في تجنيب الأمير احتمال وزر أخطاء جديدة. هؤلاء الذين يهجرون عائلاتهم ومسقط رأسهم ويحتقرون كل نعم الأرض فلا يتمسكون بشيء، يهيمون من مكان إلى آخر مرتدين أسمالاً من الكتان الخشن بصفة استعارة، لا يفكرون في إيذاء أحد، يصلون من أجل الذين يسيئون إليهم كما يصلون من أجل من يحمونهم. أية حياة وأية حقيقة تتفوق على هذا»!

كانت إحدى تلك التائهات، ڤيدوسيوشكا، ولها من العمر قرابة خمسين عاماً، قصيرة القامة هزيلة وادعة، أمضت ثلاثين عاماً وهي تمشي حافية القدمين مثقلة بالسلاسل، تحتل مكانة مرموقة في نفسها. وذات يوم، بينما كانت في غرفتها المعتمة تستضيء بسراج شحيح، قصت عليها ڤيدوسيوشكا قصة حياتها. وفجأة قفزت الفكرة إلى رأس ماري بأن هذه الإمرأة وحدها

وجدت الطريق السوي. كانت هذه الفكرة من القوة بحيث قررت هي الأخرى أن تبدأ بالمسير. ولما مضت السائحة لنيل قسط من الراحة، قررت ماري بعد تفكير عميق، أن تبدأ هي الأخرى حياة السياحة. لم تُعلم أحداً بفكرتها باستثناء الأب هيراسانت الذي اعتادت الاعتراف على يديه، فأيد ما اعتزمت عليه. تذرعت بحجة تقديم هدية إلى متعبداتها، فاستحضرت زياً كاملاً: قميصاً وخفين وجلباباً ومنديلاً أسود. وكانت غالباً، كلما اقتربت من الدولاب الذي أودعته سرها، تتوقف حائرة مترددة وتتساءل عما إذا كانت ساعة تنفيذ خطتها قد حانت.

وكانت تتحمّس أحياناً، عندما تصغي إلى روايات المتعبدات، لتلك الأحاديث الساذجة التي ترويها أولئك النسوة بصورة آلية والتي كان لها في نفسها أثر عميق. وتبلغ بها الحماسة مبلغاً يجعلها تقرر غير مرة أن تترك كل شيء لتهرب من البيت. بل إنها كثيراً ما رأت نفسها بعين الخيال، ڤيدوسيوشكا جديدة، مرتدية أطماراً خشنة، تمشي حاملة خرجها وعصاها فوق الطرقات الغبراء، تتابع حجها دون حقد ولا حب بشري ولا رغبات، من معبد إلى آخر، لتصل أخيراً إلى المكان الذي لا تعرف فيه آلاماً ولا حسرات والذي تسوده البهجة والغبطة الأبديتان.

«سأذهب إلى مكان ما فأصلّي. وإذا لم تألفه نفسي، أو لم أحس بالغبطة، فسأنتقل إلى مكان أقصى. وسأمشي حتى تخذلني قدماي وعندئذ سأستلقي وأموت في مكان ما، ثم أبلغ أخيراً ذلك الميناء الهادئ الذي ليس فيه لا حزن ولا حسرات».

هكذا كانت تحلم ماري. لكنها كلما رأت أباها وعلى الخصوص كوكو الصغير، يضعف قرارها فتشعر أنها تحب أباها وابن أخيها أكثر مما تحب الله. وعندئذ تذرف الدمع السخي في السر وتعتقد أنها خاطئة.

الجزء السابع

الفصل الأول

في انعدام العمل، أي في البطالة، يمنّ الرجل الأول قبل سقطته، هكذا يزعم التقليد الديني. فقد احتفظ الرجل الساقط من مكانته بعادة البطالة. لكن لعنة الله تظلله باستمرار ليس لأنه مرغم على كسب قوته بعرق جبينه فحسب، بل لأن طبيعته الفكرية أيضاً تحرمه التلذذ بالسكون. ثمة صوت سري في أعماقنا يقول لنا إننا نرتكب خطيئة إذا استسلمنا للكسل. فلو أن الرجل استطاع إيجاد حالة يشعر معها رغم بطالته بأنه مفيد وأنه ببطالته تلك يؤدي خدمة، وواجباً، فإنه أوجد، بدون شك، في تلك الحالة كل السعادة الأولية. وعلى ذلك فإن طبقة اجتماعية كاملة، هي طبقة العسكريين، تنعم بالتأكيد بحالة البطالة تلك المفروضة عليها فرضاً، البعيدة عن مضمار النقد، وذلك الجمود الملزم والمشروع، كان دائماً، وسيظل، النقطة الرئيسة التي تجتذب الناس إلى حمل السلاح.

كان نيكولا روستوف يتذوق مباهج هذه البطالة المشروعة منذ عام ١٨٠٧ في فيلق پاڤلوغراد الذي كان قائد الكوكبة التي كان دينيسوف من قبل على رأسها أصبح الآن شاباً قوي العود يقدره زملاؤه ورؤساؤه ومرؤوسوه ويحبونه رغم ما تتفق عليه معارفه في موسكو من اعتباره «من نوع رديء» بعض الشيء. وكان روستوف مسروراً بنفسه راضياً عن مصيره. لكنه في الفترة الأخيرة، أي في عام ١٨٠٩، راح يتسلم من أمه رسائل تحتوي على روح من الشكوى والتذمر آخذة بالازدياد: كانت مساوئ ظروفهم المالية تتفاقم يوماً

بعد يوم، وقد حان الوقت الذي يجب عليه أن يعود ليعزي أبويه ويسعدهما في الشيخوخة.

كان يخشى أن تكون الغاية من تلك الرسائل، انتزاعه من الوسط الذي يشعر فيه أن أيامه هادئة بعيدة عن المتاعب. كان يتوقع أن يعود آجلاً أو عاجلاً ليلقي بنفسه في غمار الحياة الصاخبة، يعيد النظام إلى مشكلات عائلته المعقدة ويراجع الحسابات مع المسجلين ويناقش ويصل ما انقطع من علاقاته الاجتماعية ويحسم قضية سونيا والوعود التي قطعها على نفسه لها. لقد كانت كل هذه الأمور معقدة بشكل مرعب. فكان يجيب عن رسائل أمه بجمل مألوفة تحمل في رأسها عبارة: أمي العزيزة وتنتهي بعبارة: ابنك المطيع، دون أن يشير بحرف واحد إلى عودته. وفي عام ١٨١٠، أطلعته رسالة جديدة على نبأ خطبة ناتاشا وبولكونسكي والزواج الذي لن يتم إلا في غضون عام بسبب معارضة الأمير العجوز. أحزنه هذا النبأ وجرح كبرياءه. كان سبب آلامه، ابتعاد ناتاشا عن المنزل، تلك الأخت المفضلة، ثم أسفه على بعده عن المنزل لأنه يفضل معالجة هذه القضية على طريقة الفرسان، فيفهم بولكونسكي هذا أن اتحاد أخته به لا يشكل مثل هذا الشرف العظيم وأنه إذا كان يحب ناتاشا بالفعل، فإنه يستطيع الاستغناء عن موافقة أبيه الخرف.

تردد فترة قبل أن يفكر في الحصول على عطلة للتحدث إلى ناتاشا قبل الزواج. لكن المناورات كانت وشيكة، ففكر في سونيا وفي المتاعب التي تنتظره، فآثر التريث وأجّل تنفيذ فكرته إلى ما بعد. لكنه في ربيع تلك السنة بالذات، حملته رسالة وردت إليه من والدته كُتبت في منجاة من رقابة الكونت، على تعجيل عودته. كانت تخطره في الرسالة بأنه إذا لم يعد ليمسك مقدرات عائلته بيديه، فإن أملاكهم الموروثة وإرثه المنتظر ستباع كلها في المزاد العلني، وستؤول حالهم إلى فاقة شديدة. فالكونت ضعيف جداً،

وطيب وعميق الثقة بميتانكا حتى أن كل الناس كانوا يخدعونه بكل وقاحة، والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. «إنني أستحلفك الله وأتوسل إليك يا ولدي أن تعود فوراً إذا لم تكن تريد تعاستي وشقاء كل أفراد العائلة».

أثرت تلك الرسالة في نيكولا تأثيراً شديداً. لقد كان يملك ذلك الإحساس الطيب الذي يرسم للناس الأغبياء خط مسيرهم.

والآن، لم يعد عليه إلا أن يقدم استقالته، أو أقله، أن يطلب إجازة طويلة. ولكن لماذا يجب عليه أن يعود؟ هذا ما لم يكن واضحاً في نظره. أمر بعد استراحة الغداء أن يسرج جواده «مارس»، وهو مهر أشهب لم يبارح الاسطبل منذ مدة طويلة. ولما عاد من نزهته وجواده مغطى بالزبد، أعلن لـ: لاڤروشكا، تابع دينيسوف سابقاً الذي أصبح تابعه، ولأصدقائه المجتمعين لقضاء السهرة، أنه سيطلب إحالته إلى الراحة ليعود إلى عائلته. كان بلا شك يأسف على رحيله قبل أن يتأكد من الأركان العامة، الأمر الذي كان على جانب من الأهمية بالنسبة إليه، عما إذا كان سيرشح لرتبة رئيس أو أقله سيحصل على وسام القديسة آنّا إثر المناورات الأخيرة. ويجد غريباً أن يسافر دون أن يبيع للكونت غولوشووسكي زحافته الكبيرة التي تقطرها خيوله الملونة التي دفع بها ذلك البولوني ألفي روبل عندما كان يفاوضه في بيعها ـ وبدا له أن تخلفه عن حفلة الفرسان الراقصة التي يحيونها في بانّا بورزوزووسكا، نكاية بالرمّاحة الذين يقيمون حفلة مماثلة في بانّا بورزوزووسكا ضرب من المستحيل. مع ذلك فقد كان واثقاً بأنه مرغم على انتزاع نفسه من ذلك الجو الرائع ليمضي إلى حيث يعلم الله وحده، ليجد حماقات وشظايا. وبعد ثمانية أيام حصل على عطلته فقام زملاؤه الفرسان، ليس فرسان فيلقه فحسب، بل فرسان الحملة كلها، حفلة عشاء كبيرة على شرفه بنسبة خمسة عشر روبلاً عن الفارس الواحد، واستحضروا جوقتين موسيقيتين وفرقتين للغناء. رقص

روستوف رقصة «الترياك» مع الماجور باسوف وأخذ الضباط، وكل واحد منهم أشد ثملاً من الآخر، يعانقونه ويؤرجحونه ثم يلقون به على الأرض ويلقي من جنود الكوكبة الثالثة مثل هذه المعاملة المجاملة وهتفوا له: هورّا! وأخيراً أركبوه في زحافته وواكبوه خلال المرحلة الأولى كلها.

بقي روستوف، من كريمنتشوغ وحتى كييـف خلال النصف الأول من الطريق، كما هي العادة، يفكر في كوكبته. لكنه ما إن اجتاز نصف المسافة حتى بدأ ينسى خيوله المرقشة ونائبه الرقيب دجوييـڤييكو وراح يتجه بتفكيره بقلق إلى ما ينتظره في أوترادنواي. وكلما ازداد قرباً من نهاية الرحلة ازداد حنينه إلى المنزل الأبوي وكأن الشعور عنده خاضع لنظام سرعة سقوط الأجساد بالنسبة إلى مربع المسافات. وفي المرحلة الأخيرة قبل أوترادنواي منح السائق ثلاثة روبلات واندفع مبهور الأنفاس يقفز كالغلام الشقي فوق مرقاة حدود أرضهم. وبعد الهرج والمرج اللذين يصاحبان وصول الغائب، أحس نيكولا بخيبة الأمل تلك التي تجعل المرء يقول في سره: «لكنهم ما زالوا كعهدي بهم، فأية حاجة إلى كل هذه العجلة»! ثم انطبع تدريجاً بحياة الأسرة.

كان أبواه قد شاخا بعض الشيء وهو الأمر الوحيد الجديد عليه الذي أثار قلقه وجعله ينظر إلى ما أصابهم نتيجة لسوء أحوالهم. كانت سونيا مشرفة على العشرين، لا تستطيع الاستزادة من الجمال، لكنها محتفظة بما كان يُنتظر لها منه وكان نصيبها وافياً. ومنذ وصول نيكولا بات كل شيء فيها ينطق بالسعادة والحب فكان تعلق هذه الفتاة المخلص الذي لا يتزعزع يملأ نيكولا بهجة. أما پيتيا وناتاشا فقد أدهشاه أكثر من الآخرين. أصبح پيتيا فتى جميلاً مديد القامة في الثالثة عشر من عمره رائق المزاج عظيم الحيوية وقد أخذ صوته يخشوش. أما ناتاشا، فقد نظر إليها طويلاً في دهشة ضاحكة وقال:

ـ لم تعودي كما أنت؟

ـ ماذا، هل أصبحت بشعة؟

فقال لها بصوت خفيض: على العكس ولكنك تبدين جدية الآن... يا أميرة!

فقالت وهي ممتلئة غبطة: نعم، نعم.

قصت عليه روايتها مع الأمير أندريه ووصوله إلى أوترادنواي وأطلعته على رسالته الأخيرة ثم سألته: هل أنت مسرور؟ أما أنا، فإنني عميقة السعادة هادئة جداً.

ـ سعيد جداً، إنه رجل مرموق. هل تحبينه كثيراً؟

أجابت: ماذا أقول لك؟ لقد أحببت من قبل بوريس ومعلمي ودينيسوف. ولكن هذه المرة تختلف تماماً عن سابقاتها. إنني مطمئنة لأنني أطأ أرضاً صلبة، إنني أعرف أنه لا يمكن وجود رجل أفضل منه لذلك أشعر أنني سعيدة جداً جداً! كلا، إن الأمر ليس كالسابق إطلاقاً...

امتعض نيكولا للمهلة الطويلة التي حدد الزواج بعدها. فاستاءت ناتاشا وراحت تبرهن له في شيء من الامتعاض على أنه لم يكن بوسعه الإتيان بأفضل مما وقع: لأن الدخول إلى عائلة ضد رغبة الأب يعد إساءة لا تقبل هي نفسها السكوت عنها. ثم أردفت: إنك لا تفقه من الأمر شيئاً، شيئاً مطلقاً.

لم يجرؤ نيكولا على معارضتها فاعترف لها بصوابها.

ومنذ تلك الفترة أخذ يراقبها خلسة فلاحظ بدهشة أنها لم تكن بادية الأسى شأن الشابات اللاتي ابتعدن عن رجالهن الموعودين. كانت تظهر متزنة المزاج هادئة مرحة كسابق عهدها الأمر الذي جعل الشك يتسرب إلى نفسه حول نتائج الأمر مع بولكونسكي. لم يكن مؤمناً بأن مصير أخته قد تقرر نهائياً وخصوصاً أنه لم يرهما معاً ليحكم بنفسه. بدا له مشروع الزواج ذاك شيء يدعو إلى التمهل والتفكير.

قال في سرّه: «ما معنى هذه المهلة؟ لمَ لم تعلن الخطبة رسمياً؟» وذات يوم، بينما كان يتحدث عن ناتاشا إلى أمه تبين وهو مندهش أن أمه كانت في أعماق نفسها تشاركه في تحفظه حيال تلك الرابطة المنتظرة، الأمر الذي بعث في نفسه السرور. قالت وهي تريه رسالة من الأمير أندريه، بتلك اللهجة العدائية التي تظهر في نبرات صوت الأمهات عندما يتصورن سعادة بناتهن الزوجية المقبلة.

ـ إليك ما يكتب. يقول إنه لن يستطيع العودة قبل كانون الأول فأية أعمال تؤخره هناك؟ المرض بلا شك. إن صحته ليست على ما يرام. ولكن لا تتحدث بشيء من هذا إلى ناتاشا. لا تنخدع بسرور أختك: إن هذا هو آخر وقت سعيد عند الفتيات وأنا على ثقة بأنها تتألم كلما كتب لها. ثم من يدري؟ عسى الله ينهي الأمر على أفضل وجه. إنه رجل جذاب.

الفصل الثاني

كانت الحاجة الملحة إلى تسوية المشاكل المادية التي استدعته أمه من أجلها تعكّر مزاجه فبقي نيكولا صامتاً فريسة الضجر خلال أيامه الأولى. ولكي يتخلص من ذلك العبء الثقيل بأسرع وقت ممكن اتجه منذ صبيحة اليوم التالي لوصوله مكفهر الوجه إلى جناح ميتانكا دون أن يعلم أحداً بمقصده ليسأل الرجل «حساباً عن كل شيء». أما ما هو «حساب كل شي» هذا، فإن نيكولا لم يكن يعرفه أفضل من ميتانكا الذي أذهلته تلك الزيارة. لم تكن الشروح والحسابات التي قدمها الرجل طويلة. سمع الوكلاء ومساعدوهم الذين كانوا ينتظرون في الردهة الكونت الشاب يصرخ بصوت ازداد إرعاداً وأصغوا برعب يلطفه الارتياح إلى فيض الشتائم التي أمطره إياها.

ـ يا لص! يا عاق!... سأمزقك بسيفي كالكلب...

إنك لا تتعامل الآن مع أبي أيها المجرم!...

ورأى أولئك الوكلاء أنفسهم برعب وارتياح مماثلين الكونت الشاب محمرّ الوجه بدماء الغضب، أحمر العينين يجر ميتانكا من ياقته وينهال عليه خلال الكلام بضربات حاذقة من قدميه وركبته في ظهره وبين ساقيه ويصرخ: «أخرج! ولا تطأ بقدميك أرض هذا البيت بعد اليوم أيها المجرم!».

تدحرج ميتانكا فوق الدرجات الست بسرعة فائقة وذهب يختفي في أحد الأدغال. كان ذلك الدغل يستعمل مأوى لكل أفراد أوترادنواي الذين يؤخذون بهفوة. بل إن ميتانكا نفسه كان يختبئ فيه كلما عاد ثملاً من المدينة.

أما أولئك الذين كانوا يختفون فيه للتواري عن أنظار ميتانكا نفسه، فكانوا يشهدون بملاءمته ووفائه للغرض.

أطلت زوجة ميتانكا وكنائنها برؤوسهن فظهرت وجوههن الوجلة خلال الباب الموارب الذي يسمح للناظرين برؤية «السماور» اللامع الذي يغلي الماء فيه والسرير العالي الذي ينام عليه المسجل، والذي فُرِش فوقه غطاء ثمين. مر الكونت من أمامهن لاهث الأنفاس دون أن يعبأ بهن، وابتعد بخطوات ثابتة قاصداً غرفتهن.

وما إن علمت الكونتيسة من الوصيفات بنبأ ما جرى للمسجل على يد ابنها، حتى سرى الاطمئنان إلى نفسها وتأكدت أن أحوالهم ستصلح بسرعة استناداً إلى هذه البداية الجيدة، لكنها من جهة أخرى قلقت بشأن حالة ابنها التي كان عليها بعد فراغه من تأديب ميتانكا، وقد ذهبت مراراً عديدة بخطوات متلصصة إلى باب غرفته، فسمعته ينفث دخان غليونه بلا انقطاع.

انتحى الكونت العجوز في اليوم التالي، بابنه جانباً وقال له بابتسامة مرتبكة: أتدري يا صديقي الطيب أنك انفعلت بالأمس خطأ؟ لقد قصّ علي ميتانكا كل شيء.

ففكّر نيكولا في سره: «كنت أتوقع ذلك، وأعرف أنني لن أتوصل إلى فهم شيء في هذه الدنيا المقلوبة» استمر الأب يقول: لقد غضبت لأنه لم يسجل في دفاتره مبلغ سبعمائة روبل. لكن هذا المبلغ مسجل في الصفحة التالية نقلاً عن الصفحة الأولى.

ـ أبتاه، إنه مختلس ولص. إن ما فعلته جيد ومفيد. ولكن إذا كان ذلك لا يروقك، فلن أعترض له بعد اليوم بكلمة.

لم يكن الكونت على ما يرام. كان يشعر بذنبه إزاء أولاده لأنه لم يحسن استغلال ثروة أمهم. لكنه لم يكن يعرف كيف يعالج هذا العجز. قال: لا يا

صديقي الطيب، لا... بل إنك لتسرني إذا اهتممت بأعمالنا بنفسك... لقد شخت و...

ـ آه! اصفح عني يا أبتاه إذا كان اندفاعي لم يرقك. إنني لا أفهم في هذه الأمور ما أنت عليم بها.

وحدث نفسه: «ليأخذهم الشيطان هم وخدمهم وكل الفلاحين والحسابات والمبالغ المنقولة إلى الصفحة التالية! لقد مرت بي فترة كنت أعرف خلالها الربح الذي يعود علي من مضاعفة الرهان ست مرات متتالية. أما «النقليكون» هذا، فيا للأسف الشديد!».

ومنذ تلك الفترة، لم يعد يتدخل في شيء. مع ذلك فقد استقدمته الكونتيسة ذات يوم. وقالت له إن في حوزتها سنداً معتمداً بتوقيع أنّا ميخائيلوڤنا بمبلغ ألفي روبل، فماذا يجدر بها أن تفعل به: أجابها:

ـ حسناً، إليك رأيي. إنك تقولين إن الأمر متوقف علي. أنا لا أحب لا أنّا ميخائيلوڤنا ولا برويس. لكنهما كانا على اتصال وثيق بنا وهما من الفقراء. وإذن، يجب أن تتصرفي هكذا!

ومزق السند، الأمر الذي جعل الأم العجوز تجهش بالبكاء من الفرح.

ومنذ ذلك الحين شغف روستوف الشاب بالصيد بالكلاب متناسياً كل الأمور الأخرى. كان يجهل ذلك النوع من الصيد، ولكن أباه العجوز كان من أقوى أنصاره ينظم الحفلات الخاصة به بحماسة واندفاع.

الفصل الثالث

بدأت أمواج الصقيع الأولى تحاصر الأراضي التي أشبعت بأمطار الخريف، وبدأت زروع القمح تنشط على سيقانها الخضراء وتعلو على بقايا حصاد الموسم السابقة. رقاع تميل إلى السمرة من القمح الخريفي وطئته قوائم الماشية، أما حزم الأشجار والحشائش الصغيرة التي تشكل حتى نهاية شهر آب جزراً صغيرة من الخضرة وسط بقايا القش والأراضي القمحية السوداء، فقد أصبحت الآن جزراً ذهبية وأرجوانية بين الزروع زمرديّة اللون. أخذ الأرنب البري ينسل و«يوسخ نفسه» حسب قول الصيادين، وجموع الثعالب تتشتت ونمت جراء الذئاب التي فاقت حجومها حجوم الكلاب. فكان ذلك أفضل الأوقات للصيد. مع ذلك فإن مجموعة كلاب روستوف الشاب المتقد كانت على غير استعداد حتى إنه تقرر في مجلس الصيادين العام إعطاؤها راحة ثلاثة أيام لتستطيع العودة إلى الصيد في السادس عشر من أيلول، وحينئذ يبدأ بالتغيب في غابة السنديان حيث عرفوا وجود فصيلة من الذئاب لم تمس بعد.

تلك كانت الحالة في الرابع عشر من أيلول. لم يستطع الصيادون الخروج طوال النهار بسبب شدة البرد. لكن الطقس اعتدل بعض الشيء عند المساء. وفي الخامس عشر صباحاً، عندما أطل روستوف الشاب في ثوبه المنزلي من النافذة، أتيح لناظريه طقس لا يمكن أن يحلم المرء بأفضل منه للصيد: بدت السماء وكأنها تذوب لتغرق الأرض دون أن تتصدى لها نسمة هواء. أما سقوط الضباب غير الملموس فكان الحركة الوحيدة التي تظهر

في الفضاء. أخذت أغصان الحديقة العارية تتسقاط لآلئ شفافة فوق أوراق حديثة السقوط والأرض التي ظهرت عند بستان الخضر، مزينة بسواد حبات الخشخاش البراقة، أخذت تغيب تدريجاً على البعد تحت الضباب الكامد. خرج نيكولا فوق المرقاة الرطبة المتسخة بآثار موحلة.

كانت رائحة الأوراق الذابلة تمتزج برائحة الكلاب. نهضت «غراسيوز» لطيفة، كلبته المرقطة بالأسود والأبيض والمؤخرة العريضة والعينين السوداوين البارزتين، لدى رؤية سيدها وتمطت ثم قبعت كما يفعل الأرنب وقفزت فجأة حتى بلغت أنفه وشاربيه فلعقتهما. وأسرع كلب صيد آخر من أحد المماشي واندفع إلى المرقاة منحني الظهر منتصب الذيل وجاء يدلك نفسه بساقيه.

دوى نداء الصيادين الذي لا يقلد في تلك اللحظة: « هو... هو... هو...»! يجمع بين أرفع الأصوات طبقة وأعمقها صدى وانبعث قائد فصيلة الكلاب دانيلو من وراء زاوية البيت. كان أشهب الوجه والشعر مغضن القسمات على الطريقة الأوكرانية، يحمل في يده سوطاً مطوياً وتحمل قسمات وجهه أمارات الاستقلال الأنوف والاحتقار الذي يبدو من خصائص قادة كلاب الصيد. رفع أمام السيد قلنسوته الصوفية التي لا تحمل في معناها شيئاً مهيناً. وكان نيكولا يعرف أن دانيلو ذاك، الذي يحتقر كل الناس ويضع نفسه فوق مصافهم جميعاً ليس أكثر من رجله هو وقائد كلابه.

لدى رؤيته ذلك الطقس البديع المثالي، والكلاب وقائد فصيلة كلابه، لان أمام جنون الصيد الذي يشبه جنون العشاق فأنساهم كل مشاريعهم السابقة.

صاح نيكولا: دانيلو!

سأل الرجل بصوت خفيض جدير برئيس شمامسة، ولكن كثرة تحريضه

الكلاب وإثارتها جعلته أجشّ، بينما أخذت عيناه السوداوان اللامعتان تختلسان النظر إلى سيده الصامت وكأنهما تقولان: «آه! آه! إنك لا تستطيع المقاومة».

ـ ما هي أوامركم يا صاحب السعادة؟

قال نيكولا وهو يحك وراء أذني «لطيفة»: يوم رائع أليس كذلك؟ جميل للجري والكمين.

غمز دانيلو بعينيه دون أن يجيب. وبعد لحظة عاد الصوت الخفيض يقول: لقد أرسلت «أوڤاركا» للترصد منذ أن بزغ الفجر. إنه يقول «إنها» انتقلت من مكانها إلى حرز أوترادنواي. لقد سمعها تعوي هناك.

كان معنى ذلك أن الذئبة التي يعرف الجميع بوجودها، قد انتقلت مع جرائها إلى غابة أوترادنواي المنعزلة بين الحقول على بعد نصف ميل من هنا.

قال نيكولا: إذن هل نذهب إلى هناك: تعال لترافقني أنت وأوڤاركا.

ـ حسب أوامرك.

ـ وانتظر أن يعطى الغذاء للكلاب.

كان دانيلو وأوڤاركا في مكتب نيكولا الكبير بعد خمس دقائق، صحيح أن قامة دانيلو كانت قصيرة، لكن وجوده في حجرة مؤثثة كان له من الأثر مثل ما تخلفه رؤية حصان أو دب تائه فوق أرضية خشبية وسط قطع من الأثاث، يعيشان في الشروط اللازمة لحياة الإنسان. ولم يكن دانيلو نفسه يجهل ذلك فكان يقف على العتبة ـ كعادته ـ جاهداً أن يتحدث بصوت خافت وأن لا يتحرك من مكانه خشية أن يحطم شيئاً. وكان يسرع في الحديث فيفضي بما لديه ليخرج بسرعة إلى الهواء الطلق.

تأكد الكونت الشاب، بعد أن طرح نيكولا عدة أسئلة وتلقى الأجوبة اللازمة من دانيلو الذي لم يكن همه إلا الانصراف، أن الكلاب لا تتعرض

لأي خطر، فنهض وأمر أن تسرج الجياد. وبينما كان دانيلو يتأهب للخروج، أسرعت ناتاشا في ثياب المنزل متدثرة بشال وصيفتها العجوز الكبير فوق شعرها الأشعث يرافقها پيتيا، وقالت: إنك ذاهب إلى الصيد؟ كنت واثقة بذلك! بينما كانت سونيا تؤكد العكس يستحيل أن يقاوم الإنسان الرغبة في الذهاب إلى الصيد في مثل هذا الجو!

أجاب نيكولا ممتعضاً، لأنه كان يزمع الانهماك في صيد جدي يمنعه من اصطحاب ناتاشا وپيتيا: نعم، نعم. لكننا سنطارد الذئب هذه المرة ولن يكون الأمر مسلياً بالنسبة إليك.

ـ على العكس، إنها أقوى رغباتي. يا لعين! يذهب إلى الصيد دون أن يخطرنا!

صاح پيتيا:

ـ إلى الأمام! «لا شيء يشكل عائقاً في طريق الروسي...».

ـ ولكن يا ناتاشا، لا يمكنك أن تأتي معنا، إن أمنا تمانع...

بذلك اعترض نيكولا، لكن ناتاشا أصرت بلهجة حازمة:

ـ بل سأذهب، سأذهب رغم كل شيء. دانيلو مر أن تسرج لنا جياد وقل لميخاييلوف أن يأتي بمقود كلاب الصيد العائد لي.

وإذا كان دانيلو يجد عناء في المكوث في غرفة ما، فقد كان كذلك لا يطيق مجرد التفكير في أن تكون له علاقة بالشباب. لذلك أطرق برأسه وبادر إلى الانصراف وكأن كلمات الآنسة لم تكن موجهة إليه. لكنه عنى في خروجه أن يتجنب الاحتكاك بها أو إصابتها بحركة غير مقصودة من حركاته.

الفصل الرابع

قرّر الكونت العجوز أن ينضمّ إلى البعثة وهو الذي يملك معدات هامة للصيد أسلمها أخيراً إلى ابنه، وقد كان في حالة نفسية ممتازة في ذلك اليوم.

بعد أقل من ساعة كان كل شيء جاهزاً أمام المرقاة. مشى نيكولا أمام ناتاشا وپيتيا دون أن يلقي بالاً إلى ما يحدثانه عنه، مبيناً بتصرفه ذاك أن الوقت لا يتسع للترهات. وبعد أن تفقد كل شيء حتى أتفه التفاصيل، وأرسل فصيلة من الكلاب تتقدمها الكشّافة، واعتلى صهوة جواده الأشقر: دونيتز وصفر ينادي كلاب موكبه الشخصي واندفع عبر الحقول متجهاً نحو غابة أوترادنواي. وكان مرافق الكونت العجوز يقود حصانه «ڤيولان»، العنيف، وهو حصان أشهب ذو ذؤابة بيضاء. أما الكونت نفسه، فكان عليه بلوغ المركز المعين له للمراقبة.

وقد أسلم زمام خمسين كلباً عداء، إلى ستة من الخدم المختصين بالكلاب، وأطلق ثمانية آخرون من الخدم، أكثر من أربعين كلباً سلوقياً. ولو جمعت فصائل كلاب السادة، لبلغ عددها مائة وثلاثين كلباً يواكبها عشرون صياداً على خيولهم.

كل كلب يعرف اسمه واسم قائده، وكل صياد مركزه ودوره. وما إن خرج الجمع إلى الأرض الجرداء، حتى تفرقوا بصمت وبخطى هادئة متزنة في الدروب الموصلة إلى الغابة.

وها هي الخيول تتقدم في البرية وكأنها تطأ بساطاً مرناً. لكنها عند تلاقي

الطرق، كانت تخوض في برك من المياه. وكان الضباب مستمراً في الذوبان البطيء غير الملموس مع الأرض، وكان الهواء ساخناً خفيفاً. ومن حين إلى آخر، كانت صفارة أحد الصيادين تدوي أو يرتفع شخير حصان أو فرقعة سوط أو نباح أليم لكلب طُلب إليه العودة إلى الصفوف والانتظام.

بعد اجتياز ربع ميل تقريباً، عندما انفصل عن الضباب خمسة فرسان آخرين على رأسهم عجوز بهيّ الطلعة لا يزال وافر النشاط، ذو شاربين ضخمين.

قال نيكولا عندما اقترب العجوز منه: مرحباً يا عماه.

أجاب العم، وهو قريب بعيد لآل روستوف غير واسع الغنى، يسكن في جوارهم: إنه واضح تماماً، إلى الأمام سر!... لقد كنت واثقاً بخروجكم. كنت أعرف أنك لن تقاوم وأنك لعلى حق. إنه واضح، إلى الأمام سر! وهذه عبارة العم المفضلة، هاجم الغابة فوراً لأن رجليّ جيرتشيك، أعلمني أن آل إيلاجين متمركزون بموكبهم في كورنيكي. سوف ينتزعون منك أسرة جراء الذئاب، إنه واضح، إلى الأمام سر!

ـ إننا منطلقون إلى الغابة. هل نجمع فصائل الكلاب؟

جمعت الفصائل ومضى العم ونيكولا ساقاً إلى ساق. أما ناتاشا المتدثرة بشالات عديدة يبرز خلالها وجهها ذو العينين البراقتين المنفعلتين، فقد تبعتهما بصحبة بيتيا الذي كان مبتهجاً جداً، يسوط جواده ويثيره ليندفع به. أوقفت ناتاشا وهي كالطود الراسخ فوق سرجها، بحركة مدربة من يدها جوادها الأدهم «نيغريون».

ألقى العم نظرة استياء على حيث وقف الشابان: ما كان يجب أن يجتمع عبث الصبيان بالأمور الجدية. بيتيا: صباح الخير يا عماه، إننا هنا نحن أيضاً.

ـ صباح الخير، صباح الخير. ولكن حاذر أن تسحقا الكلاب...

قالت ناتاشا وهي تتحدث عن كلبها العداء المفضل: نيكولا، يا له من كلب لطيف «تاكان» مشاكس هذا، لقد عرفني!

فكّر نيكولا في سره: «إن «مشاكس» ليس كلباً بل كلب عدو» وبنظرة صارمة أوضح لأخته المسافة التي يجب أن تحتفظ بها بينهما، فامتثلت ناتاشا وعملت بما يطلب.

وتابعت تقول:

ـ لا تقلق يا عماه، لن نزعجكم في شيء. لن نتحرك من مكاننا.

أجاب العم: هذا أفضل، هذا أفضل أيتها الكونتيسة الصغيرة. فقط لا تسقطي عن جوادك، ففي هذه الحالة إذن، كل شيء واضح، إلى الأمام سر! لن تبقى لديك وسيلة للحاقك بنا.

لاحت الجزيرة التي تشكلها غابة أوترادنواي، على بضع مئات الأمتار وقد وصلها رؤساء فصائل الكلاب. درس نيكولا مطولاً مع العم أفضل الأمكنة التي يبدأ فيها بإطلاق الكلاب. وبعد أن حلا هذه المعضلة الخطيرة، دلّ ناتاشا على المكان الذي يجب أن تقف فيه، مراعياً في ذلك النقطة التي لا يمكن لحيوان بلوغها، ثم دخل الغابة من أعلى الوادي.

قال العم: انتبه يا ابن أخي، إنك إزاء ذئب ضخم فلا تدعه يفلت.

صاح نيكولا دلالة على أخذه العلم بملاحظات العم:

ـ سوف نرى... «راڤاجور» مدمّر، تعال هنا!

كان راڤاجور هذا أمغر اللون قبيح الشكل منتفخ الحنكين، عليه أن يهاجم الذئب الضخم وحده. مضى كل إلى مرقبه.

خاف الكونت العجوز، وهو الذي يعرف مدى حماسة ابنه، أن يصل إلى مركزه متأخراً. لكن الصيادين لم يكونوا قد احتلوا مراكزهم بعد عندما وصل إيليا أندرييتش، مرحاً مورّد الخدين يرتج خداه من الانفعال، ماراً

بين سوق القمح الخضراء، تسابق خيول زحافته السوداء الريح، إلى المركز المعين له في الغابة. وبعد أن أحكم كل أدوات الصيد فوق فروته النصفية، امتطى صهوة «ڤيڤليانكا» وهو حصان هادئ جيد التغذية لماع الجلد وخطه المشيب كصاحبه. وعلى الرغم من أن الكونت لم يكن صياداً، فقد كان يعرف قوانين الصيد كلها. لذلك اتجه إلى مكانه عند حدود الغابة وجمع الأعنة في يده واستقام فوق سرج الحصان. وعندما شعر بأنه على استعداد، سرح حوله نظرة باسمة.

كان وصيفه سيمون تشيكمار برفقته، وهو فارس هرم بدأ ينثني تحت ثقل السنين. يمسك بيده مقاود ثلاثة كلاب قوية ولكن كثيرة الشحم كالحصان وصاحبهما، بينما رقد قريباً منها كلبان آخران طليقان وعلى بعد مائة خطوة، عند طرف الغابة، تربض ميتكا، وهو مرافق آخر للكونت، فارس ماهر وصياد. شرب الكونت، وفاء منه لتقليد قديم، جرعة كبيرة من الـڤودكا في كأس فضية ثم التهم قطعة من التوابل بسرعة بعد أن أغرقها في نصف زجاجة من نبيذ بوردو المفضل لديه، فزادت تلك الوجبة من احمرار وجهه وراحت عيناه اللتان يغرقهما الماء تلتمعان كالوميض. استوى فوق صهوة الجواد متدثراً بفرائه القصير، فبدا أشبه بطفل أخرج إلى النزهة.

راح تشيكمار النحيل ذو الخدين المتدليين، بعد أن أكمل استعداداته، يسأل سيده الكبير الذي كان يعيش معه على أتم وفاق منذ ثلاثين عاماً، والذي تبين له من انبساط أساريره ومزاجه الممتاز أنه على استعداد للدخول في حديث لطيف. خرج شخص ثالث من الغابة باحتراس، والقط الذي حرقته المياه الحارة يخشى من الماء البارد، وجاء يحتمي وراء الكونت. كان هذا القادم هو «المهرج» العجوز ذو اللحية البيضاء يرتدي معطفاً نسائياً وقلنسوة عالية جداً وكان يجيب عن الاسم النسائي المستعار: ناستاسيا إيڤانوڤنا. قال له

الكونت بصوت خفيض وهو يغمزه بعينه: إن يا ناستاسيا إيڤانوڤنا! حاول ألّا ترهب الوحش وإلّا، حذار من دانيلو!

أجاب ناستاسيا إيڤانوڤنا: إن لساني ليس في جيبي أنا الآخر!

أهاب به الكونت.

ـ صه، ثم استدار إلى سيميون وسأل: هل رأيت ناتالي إيلينيتشنا؟ أين هي؟

أجاب سيميون مبتسماً: إنها قائمة مع پيوتر إيليتش عند مخرج أدغال غاروڤ. ورغم كونها امرأة مولعة جداً بالصيد.

ـ يا لها من فارسة ماهرة يا سيميون! إنها تتفوق على الرجل في الركوب!

ـ نعم، إنها تركب الخيل بمهارة: إنها ذكية وجذابة...

سأل الكونت بصوت خفيض: وابني نيكولا أين هو؟ في وادي ليادوڤ بدون شك؟

فأعلن سيميون الذي يعرف نقطة الضعف في سيده: بالتأكيد. أوه، إنه يعرف المركز الجيد! ثم إنه فارس لا يشق له غبار! إننا، دانيلو وأنا لا نصدق أعيننا كلّما رأيناه على صهوة جواده.

ـ هه، إنه يتقن الركوب! وبأية براعة!

ـ إنه يصلح للتصوير! ذاك اليوم عندما اكتشف ثعلباً في آجام زاڤارزينو، قفز قفزة، ما أروعها!! إن حصانه يساوي حتماً ألف روبل، أما الفارس، فلا يقدر بثمن. إن فتى مثل هذا كما ترى، ليس من السهولة إيجاد شبه له!

ردد الكونت وكأنه يأسف لأن سيميون لم يجد عبارة أقوى من هذه لوصف ابنه:

ـ شبيه له... شبيه له.

وعاد يكرر هذه العبارة بصورة آلية وهو يرفع أطراف فروته القصيرة ليأخذ علبة السعوط.

ـ وذلك اليوم بينما كان خارجاً من الصلاة بأبهى منظر، ميخائيل سيدرويتش لم يتمم سيميون جملته لأنه أحس في ذلك الهدوء بالمطاردة والعواء المكتوم الصادر عن كلبين عداءين أو ثلاثة كلاب فحنى رأسه وأصاخ السمع ثم أشار بيده إلى سيده أن يلزم الصمت ودمدم.

ـ لقد عثروا عليها إنهم يطاردونها هابطين في الوادي.

بقي الكونت محتفظاً بابتسامته ينظر أمامه إلى حيث توقع هجوم الكلاب وعلبة السعوط في يده دون أن يستعملها. ولم يلبثا بعد سماعهما العواء أن تبينا نداء: إلى الذئب، ينطلق من حنجرة دانيلو ذي الصوت الغليظ الرنان. اتحدت فصائل الكلاب كلها واتحدت بالثلاثة الأوائل وارتفعت زمجرة الكلاب السلوقية التي تظهر فيها اهتزازات خاصة تدل على أنها في أثر الذئب. ولم يعد الخدم يصرخون: تايّوت! بل: هارلو! وكان صوت دانيلو المنخفض الخطير حيناً والثاقب حيناً آخر يطغى على الأصوات الأخرى وكأنه يملأ الغابة كلها فيبلغ حدودها ثم ينتشر بعد ذلك في أقاصي البرية.

تأكد الكونت، بعد أن أصغيا فترة صامتين، أن الصيد انقسم إلى قسمين: الأول ويضم العدد الأوفر والصخب الأعلى والأشد يبتعد عن جهتهما تدريجاً والثاني، وهو الذي تنبعث فيه صيحات دانيلو «هارلو» يمر عبر الغابة على مقربة من مكان الكونت. أخذت أصوات الفرقتين تختلط وتتجاوب ولكن تمعن ابتعاداً.

تنهّد سيميون وانحنى ليخلص كلبه الصغير من المقود الذي التف حوله. وكذلك تنهّد الكونت بدوره وعندما تبين أنه يحمل علبة سعوطه فتحها وأدخل فيها إبهامه وسبابته. وفجأة صاح سيميون بكلب خرج في تلك اللحظة من

جانب الغابة: «إلى الوراء»! وانتفض الكونت وسقطت علبته من يده. فترجل ناستاسيا إيڤانوڤنا ليلتقطها تحت أنظار الكونت وسيميون اللذين لم يحركا ساكناً.

كما يحدث غالباً، فجأة اقترب صخب الصيد منهم حتى خيل إليهم أن رؤوس الكلاب النابحة التي يشجعها دانيلو بصرخاته تبرز أمام أعينهم.

أدار الكونت رأسه فرأى عن يمينه ميتكا الذي كان ينظر إليه جاحظ العينين وقلنسوته مرفوعة بيده يشير إليه بها إلى شيء ما في الناحية الأخرى إلى الأمام. صاح ميتكا بصوت يشبه الانفجار:

حذار!

وأطلق كلابه واندفع جواده باتجاه سيده. ابتعد الكونت وسيميون عن حدود الغابة فرأيا إلى يسارهما الذئب الذي كان يتجه نحو البقعة التي تركاها بقفزات صغيرة من جسمه المرن فثارت الكلاب وانتزعت مقاودها من يد قائدها واندفعت نحو الذئب معرضة نفسها لخطر الدهس تحت حوافر الخيل.

فجأة، توقف الذئب بغباوة شأن المصاب بالخناق وأدار رأسه باتجاه الكلاب المهاجمة ثم قفز قفزتين أو ثلاثاً بمثل حركته المتأرجحة وتسلل عبر الآجام وهو يحرك ذؤابة ذيله. وفي اللحظة نفسها اندفع من الجانب المضاد وسط زمجرات شاكية، كلب ثم اثنان ثم ثلاثة من الكلاب العداءة تتبعها فصائل الكلاب كلها مندفعة ككتلة واحدة في غير انتظام نحو المكان الذي اختفى فيه الذئب، وأخيراً انشقت أدغال البندق عن دانيلو فوق جواده الأصهب وقد سوده العرق. كان دانيلو متكوراً فوق ظهر الحصان العريض منحنياً إلى الأمام حاسر الرأس وشعره الأبيض مشعث مبعثر فوق وجهه القرمزي السابح في العرق. كان يصيح ملء حنجرته: ـ هارلو، هارلو... لكنه ما إن رأى الكونت حتى التمعت الصاعقة في نظره وزمجر وهو يهدد بسوطه:

يا الله...! لقد أفلت الذئب من الصيادين!...

ودون أن يتحدث أكثر من ذلك، ترك الكونت في مكانه مشدوهاً وانهال بالضربات التي أعدها لسيده على كشح حصانه الغارق في العرق وانطلق يتبع كلابه. أذهلت هذه البادرة الكونت، فالتفت نحو سيمون يستجدي عطفه بابتسامة. لكن هذا لم يكن في مكانه: كان يلتف حول الأدغال ليرغم الذئب على الخروج من الغابة. كذلك كانت الكلاب السلوقية تطارد الحيوان من اليمين والشمال. لكنها لم تستطع التغلغل عبر الأدغال وهكذا لم يتمكّن أحد من قطع الطريق على الذئب.

الفصل الخامس

خلال تلك الفترة، بقي نيكولا روستوف في موقعه بانتظار ظهور الذئب يستهدي باقتراب الصيد أو بابتعاده. واختلاف العواء وتردده ومسافات النداء ويعتبر تلك البوادر نقاطاً مضبوطة للاستهداء. وهو يعرف أن في تلك الغابة جراء ذئاب وذئاباً ضخمة ويعرف أن فصائل الكلاب قد انقسمت إلى قسمين وأن أحدهما قد تبع الحيوان المفترس حتى مكان ما ثم وقع حادث ما، لذلك كان ينتظر في كل لحظة أن تنزاح الأغصان عن الذئب، حاسباً ألف حساب للجهة التي قد يتجه الذئب نحوها وعن الطريقة التي سيستخدمها لمهاجمته. وقد تناوب الأمل واليأس في نفسه. طلب إلى ربه عدة مرات أن يخرج الذئب من ناحيته، وراح يصلي بحرارة مخجلة بعض الشيء، كما يصلي المرء في مناسبات تجعل بعض الأسباب التافهة الاضطراب يصعد من أعماق النفس إلى الألسنة. كان يقول: رباه، ماذا يكلفك أن تفعل ذلك من أجلي؟ إنك بدون شك أرفع من هذه الصغائر، وإنها لخطيئة أن أتوجه إليك بمثل هذا الابتهال لكنني أتوسل إليك، اعمل على أن يتجه ذئب ضخم نحوي وأن يسرع كلبي مدمّر إليه تحت أنظار عمي الذي أراه هناك يرقبني، فينشب به أنيابه في عضة قاتلة في حلقه! أدار روستوف نظره حوله خلال نصف الساعة تلك، أكثر من ألف مرة بترقب وقلق وحدق إلى حدود الغابة إلى تينك السنديانتين الهزيلتين اللتين تبرزان خلال غيضة الحور، وذلك المنحدر ذي الجوانب المضرسة وقلنسوة العم التي لا تكاد تظهر بوضوح عبر دغل صغير إلى اليمين.

كان يحدث نفسه: «لا، لن يكون لي هذا الحظ السعيد! وماذا يكلف ذلك! لا، لن يكون لي هذا الحظ. إنني دائماً هكذا، في الحرب، في لعب الورق، لا أحصد إلا الخسارة» مرت في مخيلته ذكرى أوسترليتز ودولوخوي بسرعة ولكن بوضوح شديد وراح يفكر: «ليتني أستطيع مرة واحدة في حياتي أن أطارد ذئباً ضخماً وأصرعه، أنا لا أطلب أكثر من ذلك!» استمر يبحث حوله مستطلعاً مصيخاً بسمعه إلى أضعف وأتفه أصوات الصيد.

وبينما هو ينظر إلى يمينه، شاهد شيئاً يركض نحوه عبر السهل الأجرد. حدث نفسه وهو يطلق زفرة ارتياح كالتي تنطلق من الصدور عندما يتحقق حلم جميل ظل زمناً طويلاً يتهدهد في حناياها: «آه! هل يعقل ذلك؟» وتحققت سعادته القصوى بكل بساطة، دون ضجيج ولا إشارات أو دلائل مسبقة، لم يصدق ما تراه عيناه فبقي فترة وجيزة فريسة الشك. لقد كان الذئب متجهاً نحوه في خط مستقيم، بعد أن عبر بتثاقل حفرة كانت تقطع عليه الطريق. كان ذئباً هرماً، أشهب البطن غير خال من السوء، يجري دون تعجل لاقتناعه ولا شك بأن أحداً لا يراه. أمسك روستوف أنفاسه وألقى نظرة على كلابه التي كانت بين مستلقية وواقفة ولا تشك في شيء، «مدمر» العجوز مطاطئ الرأس مكشر عن أنيابه الصفراء يقرعها على قفاه باحثاً بحماسة عن برغوت يضايقه. قال روستوف بصوت خفيض وهو يزم شفتيه: هارلو! هارلو!

هزت الكلاب مقاودها وقفزت منتصبة الآذان. كف «مدمّر» عن حك جلده ونهض ناصباً أذنيه يبصبص بذيله الذي تتدلى منه كتل من الوبر. تساءل نيكولا بينما كان الذئب مستمراً في تقدمه نحوه مبتعداً عن الغابة: «هل يجب أن أطلقها؟» وفجأة تبدل تصرف الحيوان: انتفض لأنه ولا شك رأى عيوناً؟ آدمية ترقبه، وأدار رأسه ببطء نحو الصياد ثم توقف. بدا كأنه يتساءل: «ماذا

أعمل الآن؟ هل أقدم أو أرجع؟ آه! ليكن هيا!» ودون أن يتردد أكثر من ذلك استعاد جريه بقفزات مرنة واسعة غير متساوية ولكن ثابتة.

صرخ نيكولا بصوت مختلف: هارلو!...

وانطلق بأقصى سرعة على المنحدر يحمله جواده الجبار قافزاً به فوق الأغوار ليقطع الطريق على الذئب. أما الكلاب فقد سبقته بسرعة أكبر وراء الطريدة. لم يعد نيكولا يشعر بنفسه وهو يصرخ أو يرى القفزات الخطيرة التي كان يقوم بها، ولا الكلاب التي تركض مندفعة أمامه ولا الأرض التي يطير فوقها. لم يكن يرى إلا الذئب الذي ازدادت سرعته على طول المنحدر دون أن يبدل وجهته. ظهرت كلبته المرقشة «لطيفة» ذات المؤخرة العريضة إلى جوار الوحش. بل إنها لحقت به عندما اختلس الذئب نظرة إليها، وحينئذ بدلاً من أن تتقدمه «لطيفة» كما كانت تفعل عادة، اعتمدت على قائمتيها الأماميتين منتصبة الذنب وتسمرت في مكانها. صرخ نيكولا: هارلو!

اندفع الكلب الأشقر «مختار» الذي انبعث فجأة وراء «لطيفة» وأطبق على فخذي الذئب الخلفيتين. لكنه ألقى بنفسه جانباً وهو فريسة للهلع. سقط الذئب وصرّ على أسنانه ثم نهض وعاد إلى الركض تتبعه الكلاب على بعد نصف متر دون أن تجرؤ على اللحاق به.

قال نيكولا في نفسه وهو يتابع صرخاته بصوته الأجش: «سوف يفلت مني! ولكن لا مستحيل!» زمجر وهو يبحث بعينيه عن كلبه العجوز أمله الوحيد: مدمر! هارلو!...

رأى الكلب العجوز يركض بتثاقل مستعيناً بكل قواه الهرمة متوفز الجسد شاخص العينين إلى الحيوان يحاول أن يقطع عليه طريق الفرار. لكن مرونة الذئب وبطء الكلب النسبي يظهران بوضوح أن خطط هذا الأخير لن تكون ناجحة. أخذ نيكولا يرى بأم عينه الغابة تقترب من الذئب الذي يسرع إليها

ليختفي بين أدغالها وكاد اليأس يتسرب إلى نفسه عندما شاهد فجأة صياداً آخر وكلابه تندفع نحوه مستنجدة. وحينئذ تجدد أمله. اندفع كلب صغير أسمر أصهب متطاول الجسد يجهله نيكولا وألقى بنفسه باستماتة على الذئب فكاد يصرعه. لكن الذئب نهض بأسرع مما كان متوقعاً وانقضّ على الكلب وهو يصك بأنيابه فارتفع عواء الحيوان المسكين، عواء مخيف مؤلم وسقط الكلب ممزق الكشح دامي الجسد على الأرض ورأسه تحته.

زمجر نيكولا بغضب: مدمّر! يا صديقي!...

تمكّن الكلب العجوز بفضل تلك الحادثة أن يسبق الذئب بخمس خطوات راكضاً وكتل الوبر تتدلى على فخذيه. كان الآن يقطع الطريق على الذئب تماماً، شعر الحيوان بالخطر: نظر إلى «مدمر» وضم ذيله بين ساقيه وأسرع في عدوه. لكن «مدمّر» أطبق على خصمه بمثل لمح البصر وتدحرج معه رأساً على عقب في حفرة كانت أمامهما.

بادئ الأمر، لم يفهم نيكولا ماذا حدث لكلبه «مدمّر» لكنه أحس بإحدى فرحات العمر الكبيرة عندما رأى الكلاب تتجاذب فروة الذئب السمراء في أعماق الحفرة ورأى إحدى قوائمه الخلفية متصلبة ورأسه ذا الأذنين المائلتين تبدو عليه آيات الذهول، وأخيراً، الكلب العجوز مدمّر مطبقاً على حنجرته. أمسك قربوس سرجه محاولاً الترجل للإجهاز على الحيوان عندما برز رأس الحيوان خلال جمع الكلاب وراحت قائمتاه الأماميتان تحاولان تسلق الحفرة. وقفز الذئب الذي تخلص من فكي «مدمّر» إلى خارج الحفرة وضم ذيله بين ساقيه وعدا متجاوزاً مطارديه من جديد. خرج «مدمر» من الحفرة بصعوبة منثور الوبر ولعله كان جريحاً أو مرضوض الجسد. صاح نيكولا بيأس:

ـ رباه! ماذا فعلت لك لتعاقبني على هذا النحو؟

في تلك اللحظة. وصل قائد كلاب العم مع كلابه مرخياً عنان جواده، وقطع الطريق على الذئب. ومجدداً أحيط بالحيوان.

أحاط نيكولا وقائد كلابه والعم وقائد كلابه كذلك، بالدائرة التي يتوسطها الذئب ومن حوله الكلاب وراحوا يصرخون معاً «هارلو». وكلما قعس الذئب على مؤخرتهن حاول نيكولا النزول. لكن الحيوان كان يشق طريقه بيأس نحو الغابة حيث الخلاص.

خرج دانيلو منذ بدء المطاردة من مكان على حدود الغابة مستهدياً بصيحات الصيادين. وعندما رأى الكلب «مدمّر» مطبقاً بأنيابه على عنق الذئب أوقف حصانه معتقداً أن كل شيء قد انتهى. غير أنه رأى الصيادين في أمكنتهم على صهوات الجياد والذئب يتخلص من أعدائه ويفر من مطاردتها، أرخى لأدهمه العنان ليس باتجاه الحيوان بل باتجاه الغابة على طريقة الكلب «مدمّر»، ليقطع الطريق على الفار. وبفضل هذه المناورة البارعة وصل هدباً باتجاه الذئب في الوقت الذي حاصرته كلاب العم للمرة الثانية.

كان دانيلو يهدب بهدوء وفي يسراه خنجر مجرد بينما أخذت يمناه تسوط الأدهم الذي كان يركض بأقصى سرعة متوقعة. غابت حركاته عن عيني نيكولا فلم يشعر إلا بلهاث العقيم الثقيل. وحينئذ رأى دانيلو مستلقياً بين الكلاب مطبقاً على مؤخرة الذئب يحاول الإمساك بأذنيه. فأدرك الصيادون والكلاب والذئب نفسه أن كل شيء قد انتهى هذه المرة. حاول الحيوان لآخر مرة في غمرة رعبه أن يتخلص لينجو بنفسه، لكن الكلاب غمرته «نهض دانيلو وتقدم خطوة بتعثر، وكما يلقي المرء بنفسه على سريره، انهار بكل ثقله على الحيوان وأمسك بأذنيه. همّ نيكولا أن يطعنه بخنجره، غير أن دانيلو همس له قائلاً: «لا فائدة سوف نشده» وأبدل من وقفته ووطئ عنق الذئب بقدمه. غرزوا

له عصاً في حلقه ثم أوثقوه بمقود على طريقة الأنشوطة بعد أن ربطوا قوائمه. وعندئذ أدار دانيلو مرتين أو ثلاثاً من جانب إلى آخر.

حمل الصيادون الذئب على الجواد الذي كان يتراجع بذعر إلى الوراء ويشخر بخوف، ووجوههم الضاحكة تنطق بالتعب، ثم اتجهوا إلى مكان الاجتماع ترافقهم فصائل الكلاب التي كانت تنبح خلف الذئب المتدلي. اقترب كل الصيادين، الفرسان منهم والمشاة، لرؤية الذئب الذي كان رأسه الضخم متدلياً، يدفع بأنيابه العصا المغروسة في حلقه ويحدق إلى الجموع والكلاب التي تحيط به بعينين جاحظتين زجاجيتين. فإذا ما لمسه بعضهم، ارتعد جسده وحرك قوائمه الموثقة وألقى على المعتدين نظرات ساذجة ومتوحشة معاً. جاء الكونت إيليا أندرييتش بنفسه ولمس الحيوان كذلك ثم سأل دانيلو الذي كان واقفاً بالقرب منه: آه! آه! إنه ذئب ضخم بديع! إنه كبير أليس كذلك؟

فأجاب هذا وهو يبادر إلى نزع قبعته:

ـ تماماً يا صاحب السعادة.

تذكر الكونت الخطيئة التي ارتكبها حين ترك الذئب يفلت منه والموقف الذي وقفه دانيلو منه، فقال له: أتعرف يا عزيزي إنك لست لبقاً؟

فاكتفى دانيلو بالابتسام، ابتسامة مرتبكة تحمل طيبة الأطفال. وكانت تلك الابتسامة وحدها هي الجواب.

الفصل السادس

بعد أن وعد پيتيا وناتاشا بموافاته بعد قليل، رجع الكونت العجوز إلى منزله، واستمرّ الصيد لأن الوقت ما زال مبكراً. وحوالى الظهر، أطلق الصيادون الكلاب العداءة في الوادي الذي تغطيه أدغال وأعشاب نامية كثيفة، وجلس نيكولا بين سوق الحنطة المحصودة يراقب رجاله كلهم.

وفي حفرة تقع وسط بقعة من القمح الجديد اختفى قائد كلابه، وراء باقة كثيفة من شجر البندق. لم يمض زمن طويل على انطلاق الكلاب حتى وصل إلى سمع نيكولا نباح أحدها المتقطع، فعرف فيه كلبه «فانفاران» وانضمت كلاب أخرى إليه، بعضها ساكت والبعض الآخر يزمجر أو يعوي. وبعد لحظة، ارتفع صوت من الغابة ينبه إلى اكتشاف ثعلب فتوقفت الفصائل كلها ثم اندفعت معاً في الأرض العراء مبتعدة عن نيكولا،باتجاه القمح الأخضر.

شاهد نيكولا قادة الكلاب بقلنسواتهم الحمراء، يطاردون على صهوات جيادهم فوق حافة الوادي، وتبين الكلاب كذلك فانتظر أن يظهر الثعلب في أية لحظة من الجانب الآخر من حقل القمح.

بدأ قائد الكلاب بالمسير وفرق كلابه. وحينئذ شاهد نيكولا ثعلباً عجيب المظهر ذا لون ناري، محجل القوائم، مشرع الذنب يركض بسرعة بين سنابل القمح الخضراء. كادت الكلاب تصل إليه، وعندئذ رأى دوائر آخذة في الضيق وهو يكنس الأرض بذنبه. وفجأة انفضّ عليه كلبان: أبيض مجهول الهوية وآخر أسود. ثم اختلط كل شيء، ورسم الكلاب نجمة حول الحيوان الذي

بقي جامداً تقريباً في مواجهة خصومه. ووصل قائدان أحدهما ذو قلنسوة حمراء والآخر مجهول ذو جلباب أخضر، يحثان فرسيهما.

ما معنى هذا؟ تساءل نيكولا من أين جاء هذا المجهول؟ إنه ليس قائد كلاب العم.

قضيا على الثعلب وبقيا فترة طويلة في مكانهما دون أن يوثقاه أو أن يعتليا جواديهما اللذين كان سرجاهما العاليان ظاهرين خلال الدغل. كانت الكلاب نائمة حولهما. أما الرجلان فكانا يلوحان بأيديهما وكأنهما يتنافسان على الطريدة. دون قرع طبل، وهذه إشارة مصطلح عليها، تدل على نشوب عراك. قال قائد كلاب نيكولا: إنه قائد كلاب آل إيلاجين يتشاجر مع إيـڤاننا.

أرسل نيكولا مكلّبه يستقدم ناتاشا وپيتيا واتجه متمهلاً نحو المكان الذي يجمع فيه الخدم الكلاب. بلغ بعضهم مكان الشجار.

ترجل ليتعرف إلى حقيقة الخلاف وتوقف قرب الكلاب مع ناتاشا وپيتيا اللذين وصلا بدورهما. وجاء المكلّب الذي كان طرفاً في النزاع ممتطياً صهوة جواده معلقاً الثعلب إلى السرج، قاصداً سيد الشاب. رفع عن بعد قلنسوته وجهد في اتخاذ لهجة محترمة. لكنه كان يغص بالغضب، ووجهه شاحب ثائر وإحدى عينيه متورمة لكنه لم يكن مكترثاً لها. سأله نيكولا: ماذا وقع بينكما؟

ـ وكيف! هل سيسرقون الآن الطرائد؟ لم يكن ينقصنا إلا هذا! ثم إنها الكلبة الرمادية بلون الفأر التي أمسكت به. ولكن لا مجال لإفهامه ذلك. أراد أن يأخذ الثعلب، لكنني، أنا، انتزعت الحيوان ولكمته على خياشيمه. ها هو ذا معلق إلى سرج جوادي.

ثم تابع وهو يلوح بسكين الصيد الذي في يده، ولعله كان يعتقد أن خصمه لا يزال أمامه: إذا كان ما فعلته بك لا يكفيه يا فتاي، فسيكون سكيني هذا في خدمتك...

لم يجبه نيكولا بل طلب إلى أخويه أن ينتظراه وذهب إلى المكان الذي توقفت فيه جماعة صيد الخصم إيلاجين.

اندمج قائد كلابه المنتصر في غمار زملائه وراح يقص عليهم ما فعل مدفوعاً بفضولهم المشجع.

إليكم ما وقع: كان آل إيلاجين متخاصمين مع آل روستوف خصومة قضائية وكان هذا يصطاد في أراض يعتبرها أولئك من أملاكهم بحكم تصرفهم فيها زمناً طويلاً. وفي ذلك اليوم بالذات، وكان الأمر مقصوداً، اقترب إيلاجين من غابة آل روستوف وسمح لقائد كلابه أن يتتبع صيداً اكتشفه كلاب خصمه.

كان نيكولا، وهو المتطرف في آرائه تطرفه في عواطفه، يكره إيلاجين كرهاً شديداً دون أن يعرفه ويعتبره عدواً يستحق الموت. كان يحكم على ذلك السيد وفقاً للشائعات التي تتناقلها الألسن حول أخلاقه، تلك الشائعات التي لا تستند إلى أساس صحيح. مشى إليه وهو فريسة غضب جامح ويده قابضة بعنف على سوطه، وفي نفسه عزم أكيد على اتخاذ أخطر الخطوات تجاه ذلك الخصم.

لم يبلغ حدود الغابة حتى رأى سيداً ضخماً مقبلاً نحوه على صهوة جواد أسود يرافقه تابعان.

رأى نيكولا، بدلاً من العدو الذي كان ينتظر، في شخص إيلاجين رجلاً ذا وقار ومهابة وتصرفات لبقة، يود من صميم قلبه أن يتعرف إلى الكونت الشاب. وما إن تقابلا حتى رفع القادم قبعته وحيدة الحافة وأعلن أسفه الشديد على ما حدث. قال: إن الخادم المذنب قد لقي عقابه وإنه ينتظر أن يرتبط بعلاقات طيبة مع الكونت الشاب ويسمح له منذ الحين أن يصطاد في أراضيه.

تبعت ناتاشا أخاها عن قرب، خوفاً من أن يتصرف تصرفاً سيئاً، وهي شديدة الاضطراب. فلما اطمأنت عند سماع عبارات التودد التي تبادلها

العدوان، اقتربت منهما. رفع إيلاجين قبعته لدى اقترابها وقال مؤكداً بأن الكونتيسة ليست إلا صورة حية لديانا بحبها للصيد كما بجمالها الذي بلغ نبأه إلى مسامعه.

ولكي يذهب إيلاجين بخطيئة قائد كلابه، رجا الكونت الشاب بإلحاح أن يرافقه إلى التلال الواقعة على بعد ربع ميل، حيث يحتفظ لنفسه بصيد سمين وحيث الأرانب البرية متوافرة بكثرة، حسب قوله، وافق نيكولا على عرضه وعاد الصيد مجدداً مزدوجاً وحماسياً.

كان يتوجّب على الصيادين أن يجتازوا الحقول للوصول إلى التلال فتفرق القادمون وراحوا يسيرون معاً. بدأ العمل وروستوف وإيلاجين يفحصان خفية كلاهما كلاب الآخر ويرتعدان لفكرة اكتشاف منافسين أكفّاء لكلابهم.

من بين كلاب إيلاجين، لاحظ روستوف كلبة حمراء مرقشة أصيلة صغيرة الحجم، رقيقة الجسم، ولكن ذات عضلات فولاذية بدون شك، تبرز عيناها فوق خطمها الأملس الرقيق. ولما كان قد سمع الإطراءات الكثيرة التي يكيلها الناس لكلاب جاره الخصم، فقد وجد في تلك الكلبة المتينة خصماً محترماً لكلبته «لطيفة».

قال نيكولا لجاره أثناء حديث هام جدي حول المحاصيل أثاره هذا وهو يشير إلى الكلبة الحمراء المرقشة.

ـ إن لديك هنا كلبة رائعة. هل هي عنيفة؟

أجاب إيلاجين بمثل لهجته: هذه؟ نعم، إنها حيوان جيد وهي تصطاد صيداً ممتازاً.

وفي العام الماضي، كان إيلاجين هذا قد تنازل لأحد جيرانه عن ثلاث

عائلات من الوعول الأليفة لقاء هذه الكلبة، استرسل مستأنفاً حديثه الأول: إذن يا كونت، إن محصول الحبوب عندكم لا يستوجب الإعجاب؟

ورغبة منه في مجاراة جاره الشاب، أشار إلى كلبته «لطيفة» التي استوقفت ناظريه بجمال شكلها وقال: إن لديك هنا حيواناً رائعاً. تبدو لي على أفضل ما يرام.

أجاب نيكولا: نعم لا بأس بها.

بينما فكّر في سرّه مبتهلاً: «آه! لو أن السيد أرنب تنازل في هذه اللحظة بعبور هذا الحقل، لأريتك أية كلبة هي هذه»! ثم التفت إلى قائد كلابه وقال له إنه يمنح مكافأة قدرها روبل لكل من يكتشف أرنباً خارج جحره. استأنف إلى حين قائلاً:

ـ لست أفهم كيف يمكن للصياد أن ينازع صياداً آخر طريدته أو كلابه ويحسده عليها، أما أنا يا كونت فإنني أؤكد لك أن ما أحبه في الصيد إنما هو النزهة. نزهة مع مثل هذا الصحب الكريم، وعاد يرفع قبعته احتراماً لناتاشا، ماذا يمكن للمرء أن يحلم به أفضل من هذا الصحب؟ أما تعداد الجلود التي يحصل عليها آخر النهار، فلا أهمية لها!

ـ طبعاً، طبعاً!

ـ هل اعتبر إهانة أن يمسك كلب الجار بالطريدة بدلاً من كلبي؟... كلا، المهم، هو أن أتمتع بمشهد الصيد، أما ما تبقى فلا يهمني في كثير أو قليل... ألست على صواب يا كونت؟ في نظري...

وفي تلك اللحظة بالذات، ارتفع صوت أحد الخدم المكلفين بالكلاب السلوقية، وكان واقفاً فوق تل صغير في وسط سوق القمح المحصود والسوط مرفوع في يده: فيلو! في... ي... لو!

تكرر هذا النداء المتقطع فكان إيذاناً باكتشاف أرنب. أما الصوت فكان يدل على مكان وجوده.

قال إيلاجين متصنعاً اللامبالاة: يعتقد أنه عثر على واحد، هيا يا كونت، هل نطارده؟

فأجاب نيكولا وهو يلقي نظرة على كلبته المسماة «تريبيدانت» وعلى كلب العم الأصهب «تاباجور» اللذين كانا خصمين مرعبين لم يوازنهما قط مع كلابه من قبل: نعم، نعم... ولكن ماذا؟ معاً!

فكر في نفسه وهو يتجه نحو الأرنب بصحبة عمه وإيلاجين «ماذا لو تفوقا على «لطيفة»»؟ سأل إيلاجين الخادم عندما حاذاه: أهو أرنب كبير؟

ثم التفت مضطرباً، وصفر ينادي «تريبيدانت» وأردف يخاطب العم.

ـ حسناً يا ميخائيل نيكانوريتش، هل ترافقنا؟

قال العم وهو يواكبه مكفهر الوجه: وما الفائدة؟ إن كلابك... إنه واضح، إلى الأمام سر! تساوي جبلاً من النقود، إنها حيوانات يساوي كل منها ألف روبل. صفها وأنا سأكتفي بالنظر...

ثم نادى كلبه بصوت جعل مبلغ محبته له واضحاً في نبراته معبراً عن أمله الذي يضعه فيه.

ـ يا «تاباجور»! أيها الجميل، أيها المدلل!

أدركت ناتاشا الشعور السائد بين الصيادين الثلاثة، فشاركت أخاها والعجوزين في اضطرابهما.

أما المكلّب، فقد بقي واقفاً في مكانه على الأكمة والسوط في يده، بينما اقترب السادة على صهوات جيادهم متمهلين. وكانت الكلاب المنتشرة حتى الأفق مبتعدة كثيرة عن مكان الأرنب، قادتها متفرقون، لكنهم ما لبثوا أن انتظموا واجتمعوا في نظام رائع.

سأل نيكولا عندما بلغ مسافة مئة متر من مكان الكشاف: أين اتجاه رأسه؟

لم يجد هذا متسعاً من الوقت للإجابة، ذلك أن الأرنب الذي كان يتحمس قفز فجأة خارج جحره. نزل الكلبان العداءان فوق المنحدر مندفعين كالسهم وتبعتهما من كل الجهات الكلاب السلوقية التي لم تكن مربوطة إلى مقاودها. وما لبثت الجماعة التي كانت متمهلة حتى تلك اللحظة أن انطلقت إلى المعركة وأخذ قادة الكلاب العداءة يكبحون جماحها بأوامرهم الداعية إلى الوقوف، بينما أطلق الخدم المعنيون بالكلاب السلوقية كلابهم وهم يهيبون بها صائحين: تايوت! بدلاً من هالت «أي قف». وراح إيلاجين الهادئ ونيكولا والعم يهدبون خيولهم غير عابئين إلا بالكلاب والأرنب، خائفين أن يفوتهم ذلك المشهد الطريف.

كان الأرنب كبير الحجم ثميناً. لم يلجأ إلى الفرار حال خروجه من جحره، بل جمع أذنيه وأصغى إلى الصيحات ووقع الأقدام والحوافر التي كانت ترتفع من كل مكان. قفز بضع قفزات غير سريعة تاركاً الكلاب تقترب منه ثم انتقى الوجهة التي سيقصدها وتأكد من الخطر الداهم، فأسبل أذنيه واندفع بكل قواه، وكان عند حافة الأرض المغطاة بسوق الحنطة المحصودة، حيث كان ينام، رقعة كبيرة من الأرض يغطيها القمح الأخضر. تبع كلبا الصياد الذي عثر على الطريدة، الأرنب قبل غيرهما. لكنهما كانا على مسافة بعيدة منه عندما تخطتهما «تريبيدانت»، الكلبة الحمراء المرقشة التي يملكها إيلاجين، وأصبحت لا يفصلها عن الأرنب إلا مسافة كلب واحد. وعندئذ قفزت قفزة هائلة مستهدفة ذيل الحيوان لكنها أخطأته فتدحرجت على الأرض. رفع الأرنب فقاره وضاعف سرعته. وكانت «لطيفة» القوية قد وصلت، في تلك اللحظة، وتساوت سرعتها مع سرعة الحيوان النافر. فصاح نيكولا بصوت منتصر: لطيفة، يا جميلتي!

كادت لطيفة تبلغ الأرنب وتمسك به. لكنها تجاوزته بسرعة اندفاعها فلم تستطع التوقف في الوقت المناسب وهكذا أفلت الأرنب منها. عادت «تربيدانت» مجدداً تتعلق بالطريدة. بل إنها تعلقت فعلاً بذيلها وكأنها تتوقع أن تطبق على فترتين متعاقبتين عليه وتصرعه، صرخ إيلاجين بصوت تخنقه العبرات ولهجة متوسلة: تربيدانت يا جميلتي! لكن «تربيدانت» لم تبال بتوسلات سيدها ذلك أنه في اللحظة التي ترقب الصيادون فيها رؤيتها ممسكة بالحيوان، زاغ هذا منها بانعطافة مفاجئة وراح يجري على طول الأخدود الذي يفرق بين القمح الأخضر والسوق المحصودة. راحت «تربيدانت» و«لطيفة»، أشبه بحصانين مشدودين إلى عريش واحد، تعدوان جنباً إلى جنب وراء الأرنب. لكن هذا كان في مكان يناسبه فعجزت الكلبتان عن اللحاق به.

وهنا علا صوت جديد صائحاً:

«تاباجور»، أيها المدلل! إنه واضح، إلى الأمام سر!

وبرز كلب العم الأشقر مندفعاً وكأنه يهم بالخروج من جلده حتى لحق بالكلبتين ثم تجاوزهما وأطبق بسرعة عجيبة على الأرنب مرغماً إياه على الخروج عن اتجاهه الأول وتبعه بعد ذلك بحمية وضراوة وهو يغوص في الأرض الموحلة حتى بطنه. شوهد بعد ذلك يتعثر ويتدحرج مع الأرنب في الطين اللزج. حينئذ انتظمت الكلاب حولهما على شكل نجمة ولم يلبث الصيادون أن بلغوا مكان الطريدة. ترجل العم يستخفه الفرح فحرم الأرنب. وبينما هو يهزه ليسيل منه الدم، ثلم عينيه ثم راح ينظر حوله في قلق وهو في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل بأطراف الحيوان ووفرة الكلاب. أخذ يدمدم بكلمات متلاحقة غير واضحة: «آه!... إنه واضح ... سر! ... يا له من كلب؟ لقد تفوق عليها جميعاً، على الأصيل وعلى الكديش معاً!... إنه واضح، إلى الأمام سر»! كان يعض بانفعال ويدير حوله عينين وحشيتين، ويطلق

الكلمات أشبه بالسباب حتى ليقال إن الآخرين كانوا جميعاً أعداء له وإنهم أهانوه مجتمعين، فأتيحت له الفرصة ليثأر منهم. «إن كلابك جميلة، تلك التي يساوي كل منها ألف روبل!... إنه واضح، إلى الأمام سر»!

نادى كلبه وهو يلقي إليه بإحدى أرجل الأرنب الملطخة بالطين: إلى الطعام يا تاباجور! إنك تستحقه عن جدارة... إنه واضح إلى الأمام سر!

وقال نيكولا الذي كان هو أيضاً لا يصغي إلى أحد ولا يهمه هل أنصت إليه أحد أو لم ينصت: إنها على آخر رمق، لقد قامت بثلاث مطاردات.

ومن جانبه قال تابع إيلاجين:

ـ لقد أمسكت به خلافاً لما يجب. يا للمسألة الجميلة!

بينما كان إيلاجين نفسه، الذي بهرت أنفاسه المطاردة وجعل الاضطراب وجهه قرمزياً، يقول في الوقت نفسه: طالما أخطأته، فإن أي كلب يجيء بعدها يمكنه أن يجعل منه كسباً سهلاً. خلال تلك الفترة كانت ناتاشا تطلق صرخات ثاقبة أشبه بالنباح، تكاد تصم الآذان. تلك كانت طريقتها للإفصاح عما كان يلهج به الآخرون معاً. وكانت تلك الصرخات من الغرابة بمكان حتى إنها لو استمعت إليها أو أطلقت مثلها في غير تلك المناسبة، لما صدق السامعون آذانهم ولذابت هي من الخجل.

علق العم بنفسه الأرنب إلى سرج جواده بحركات حاذقة وألقاه بشكل مثير للتحدي على ردف الحصان ثم امتطى جواده وابتعد وكأنه يأنف من التحدث مع الآخرين. أما هؤلاء، فقد تفرقوا مكتئبين وفي كرامة كل منهم وخزة وبقوا فترة طويلة قبل أن يستعيدوا مرحهم أو أقله قبل أن يستطيعوا التظاهر باللامبالاة. لبثوا وقتاً طويلاً يتابعون بأنظارهم تاباجور الأصهب الذي كان ملطخ الظهر بالطين متظاهراً بهدوء المنتصر يواكب حصان سيده.

خيل إلى نيكولا أن في مظهر الكلب ما معناه: «هه، صحيح إن مظهري لا يدل على شيء... ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بالصيد. أما في غير ذلك، فحذار»!

وعندما اقترب العم من نيكولا، بعد فترة طويلة، ووجه إليه الحديث، أحسّ نيكولا بفخار لأن العم تنازل وتقرب منه بعد كل الذي حدث.

الفصل السابع

وجد نيكولا نفسه بعيداً جداً عن منزله، عندما استأذنه إيلاجين مساء، حتى أنه تقبل عرض العم وهو ترك الخدم يرجعون وحدهم والكلاب إلى المنزل بينما يقضي هو وأخته وأخوه الليل في ميخائيلوڤكا، وهو اسم المزرعة الصغيرة التي يملكها العم.

ـ حتى ولو جئتم عندي جميعاً، إنه واضح، إلى الأمام! فإن ذلك سيكون أفضل. انظر، إن الطقس رطب، وسوف تستريحون، ونعيد بعد ذلك الآنسة بالزحافة.

قبِلَ العرض وأُرسل خادم إلى أوترادنواي للإتيان بزحافة، بينما رافق نيكولا وناتاشا وپيتيا العم إلى منزله.

أسرع خمسة أو ستة من الخدم الذكور بين كبار وصغار، إلى باب المدخل الكبير لاستقبال السيد. واجتمعت عشرات من النساء هرمات وشابات، وأطفال عند باب الخدم للتفرج على الضيوف وقد أثار وجود ناتاشا، بصفتها امرأة وسيدة مرموقة ممتطية جواداً، فضولهن لدرجة حتى إنهن اقتربن منها دون وجل ورحن يدققن في وجهها ويتبادلن الملاحظات وكأن الأمر متعلق بمنظر نادر في معرض، لا يستطيع أن يفهم أو يسمع ما يقلن عنه.

أربنكا، انظري، إنها تجلس فوق برميل!... «وتنورتها» التي تنسدل!... وبوقها كذلك!...

ـ آه، يا إلهي! إن معها سكيناً!

وسألت إحداهن ناتاشا وقد استجمعت شجاعتها فكانت أشجع كل زميلاتها: وكيف لم تسقطي عن ظهر الجواد؟

أمام مرقاة بيته الصغير الخشبي الغارق وسط الخضرة ترجّل العم ثم سرح طرفه في خدمه وصاح فيهم آمراً من كان منهم لا يقتضي الموقف وجوده بالانصراف وأن يستعدوا لاستقبال الضيوف في البيت وصيدهم ورجالهم.

أسرعوا جميعاً راكضين في كل اتجاه، بينما ساعد العم ناتاشا على النزول وقد مدّ لها ذراعه لتصعد درجات المرقاة الخشبية المتهزهزة. كان البيت ذو الجدران الخشبية السميكة غير المدهونة، لا يعطي فكرة عن العناية. ولعل سكانه لم يراعوا إخفاء اللطخات المنتشرة فوق الأخشاب جرياً مع الإهمال السائد في أرجائه. انبعثت من الدهليز رائحة تفاح ناضج وشوهدت جلود الذئاب والثعالب معلقة على جدرانه.

اصطحب العم ضيوفه من الردهة إلى غرفة صغيرة مؤثثة قابلة للثني وكراس من خشب الكابلي ومنها إلى قاعة تجثم في وسطها طاولة مستديرة من خشب السرو وبقربها كنبة وأخيراً إلى غرفة مكتبه حيث شاهد الضيوف فيها كنبة بالية وسجادة عتيقة. أما على الجدار فكانت صورة سوڤوروف معلقة إلى جانب صورة أبويّ صاحب المنزل ثم صورته وهو في ثوب عسكري. كانت رائحة عنيفة، رائحة التبغ والكلاب تملأ الغرفة التي ترك فيها العم ضيوفه راجياً منهم أن يتصرفوا كما لو كانوا في مسكنهم الخاص. ظهر «تاباجور» بدوره وظهره لايزال ملطخاً بالوحل وراح إلى الكنبة فأقعى عليها وبدأ يعمل لسانه وأسنانه في زينة جدية لنفسه.

كانت غرفة المكتب تطل على ممشى يشاهد فيه حاجز من قماش ممزق. ومن وراء ذلك الحاجز، ارتفعت ضحكات وهمسات نسائية. اتخذ نيكولا وناتاشا وپيتيا التدابير الممكنة لراحتهم فجلسوا على الكنبة. نام پيتيا على الفور

بعد أن اتخذ ذراعه وسادة اتكأ عليها برأسه بينما ظل نيكولا وأخوه صامتين. كان وجه كل منهما ملهباً ومعدته خاوية كما كانا مسرورين يتبادلان النظرات. لم يعد همّ نيكولا بعد أن انتهى الصيد، أن يحافظ أمام أخته على تفوقه كرجل. وهكذا لم تكد تغمزه بعينيها حتى انفجرا ضاحكين ضحكة مجلجلة.

عاد العم مرتدياً عباءة وسراويل زرقاء قصيرة. فلاحظت ناتاشا أن ذلك الثوب ليس فيه ما يضحك أكثر مما في «الرودنغوت» أو غيره. كان العم كذلك مسروراً. ولما كان لا يرتاب في أن يكون طراز حياته باعثاً على الضحك فإن انشراح الأخوين لم يسئ إليه بل على العكس دعاه إلى الاشتراك معهما فيه.

قال وهو يقدم لروستوف غليوناً طويلاً بينما راحت أصابعه تداعب بحركة أليفة غليوناً قصيراً استبقاه لنفسه: انظر إذن إلى الكونتيسة الشابة، إنه واضح إلى الأمام سر، لن يجد المرء مثيلاً لها. إن قضاء يوم كامل على صهوة الجواد لا يكاد يحتمله الرجل. أما هي فلا يظهر عليها شيء من التعب.

لم تمض فترة طويلة على عودة العم إلى الغرفة حتى شوهدت خادم، إذا حكم المرء على خطاها غير المسموعة قدر أنها حافية القدمين، تحمل طبقاً ملآن. كانت جميلة، متعافية في الأربعين من عمرها، نضرة الوجنتين، ذات ذقن مزدوجة وشفتين ممتلئتين. شملت المدعوين بنظرة وانحنت تحييهم باحترام بابتسامة أنيسة فكانت أمارات وجهها وكل حركة من حركاتها مطبوعة باللطف واللياقة. وعلى الرغم من أن ضخامة جسمها كانت ترغمها على إبراز صدرها ورفع رأسها إلى الوراء، فإن تلك المرأة التي كانت مدبرة شؤون العم، كانت رشيقة الحركات. وضعت الطبق على الطاولة وراحت بيديها البضتين السمينتين ترفع عنه الزجاجات والصحاف التي كان محملاً بها. فلما انتهت من عملها، تنحت ووقفت عند عتبة الباب وعلى شفتيها ابتسامة خيّل إلى روستوف أنها تقول: «ها أنذا! هل تفهم عملك الآن؟» والواقع إنه بدأ يفهم

العم. بل إن ناتاشا نفسها حزرت معنى الحاجبين المقطبين والابتسامة السعيدة التي ثنت شفتي العم عندما دخلت أنيسيا فيدوروفنا. كان الطعام الخفيف الذي أتت به يحتوي على كحول وبصل مشطور وكعك من القمح الأسود بالحليب وعسل بشهده ثم عسل ممزوج بالزبدة وتفاح وثمار الجوز الطازجة مشوية مربى الجوز. أضافت المدبرة إلى ذلك أنواعاً من المربى المعقود بالعسل أو السكر ولحم خنزير ودجاجة مطهوة سحبت تواً من الفرن.

كان كل هذا ثمار عناية أنيسيا فيدوروفنا. كل هذا يحمل رائحة أنيسيا فيدوروفنا ويتسم بطابعها كان كل هذا يتصف بدقتها ونظافتها وابتسامتها المستحبة.

قالت وهي تقدم لناتاشا صحفة إثر أخرى:

ـ كلي بشهية يا آنستي الكونتيسة الصغيرة.

تذوقت ناتاشا كل الأطعمة، وخيل إليها أنها لم تر من قبل قط ولم تأكل قط أفضل من لحم هذا الدجاج وأطيب من هذا الكعك وألذ من تلك الأنواع المعطرة من المربى والجوز المعقود.

خرجت أنيسيا فيدوروفنا فراح العم ونيكولا يشربان كحول الكرز مع الطعام ويتجاذبان أطراف الحديث عن صيد ذلك النهار وعمّا يتوقع لكلبه «تاباجور» ولكلاب إيلاجين. كانت ناتاشا تصغي إليهما وهي منتصبة في جلستها على الكنبة وفي عينيها لهيب ثائر. حاولت مراراً أن توقظ پيتيا لتطعمه شيئاً. لكن هذا كان يغمغم في نومه بكلمات غير مفهومة ويستغرق في سباته. شعرت ناتاشا بسعادة في ذلك البيت الجديد عليها حتى إنها باتت تخشى سرعة وصول العربة التي ستنقلها إلى البيت. وبعد فترة سكوت غير منتظرة كتلك التي تحدث دائماً للأشخاص الذين يستقبلون الأصدقاء للمرة الأولى، قال العم وكأنه يجيب عن أفكار ضيوفه الشخصية:

ـ نعم، ها إنني أنهي وجودي... وعندما يموت المرء، إنه واضح، إلى الأمام سر! لا يبقى شيء... وإذن، ما فائدة الحرمان؟...

وهو يتحدث على هذا النحو كان وجه العم معبراً بل مبتسماً ببعض الجمال. تذكر روستوف الإطراء الذي يكيله والآخرون لهذا العم الذي يعتبر استناداً إليه، أفضل السادة وأنبلهم وأكثرهم كرماً. كانوا يستدعونه لتحكيمه في المشكلات العائلية وينتخبونه منفذاً لوصايا الموتى ويأتمنونه على أسرارهم. ولقد عُين مرة قاضياً ثم عُين في وظائف أخرى. لكنه كان يرفض بعناد الوظائف العامة ويمضي الربيع والخريف متنقلاً في الريف على صهوة جواده الأدهم ويقضي الشتاء قرب الموقد والصيف في ظلال أشجاره الباسقة.

ـ لمَ لا تقبل وظيفة يا عماه؟

ـ لقد شغلت وظيفة، ذات يوم، لكنني سرعان ما تخليت عنها. إن هذا النوع من المهن لا يلائمني، إنه واضح، إلى الأمام سر! إنها وظائف تستهوي الآخرين. أما أنا فلا... آه! الصيد مسألة أخرى مختلفة كلياً. أشعر في الصيد بأنني أعيش مع نفسي، إنه واضح إلى الأمام سر!...

صاح: افتحوا الباب، لماذا أغلقتموه؟

كان الباب الموجود في آخر الممشى والذي يسميه العم «منش» يؤدي إلى مسكن قادة الكلاب. أسرعت أقدام حافية إلى ذلك الباب وفتحته يد غير منظورة. وحينئذ سمعت ألحان «البالالايكا» تؤديها يد خبيرة. خرجت ناتاشا إلى الممشى ليتسنى لها الإصغاء إلى تلك الموسيقى التي كانت مستمعة إليها من قبل. فقال العم إنه ميتكا. لقد اشتريت له آلة ممتازة... إنني أحب ذلك.

كان العم يحب عندما يرجع من الصيد أن يستمع إلى ميتكا وهو يعزف شيئاً من الموسيقى. فدخلت هذه التسلية في عداد طباعه.

قال نيكولا بصوت منطلق وكأنه يخشى الإعراب عن فرحه: إنه جيد، في الحقيقة إنه جيد جداً.

فقالت ناتاشا وقد نكدتها لهجة أخيها المصطنعة: كيف، أهو جيد فحسب؟ بل إنه رائع، نعم!

وكما أن البصل والعسل والكحول التي قدمها العم بدت لها أفضل ما في الوجود كذلك وجدت في الأغنية اللطيفة أرقى فن موسيقي. فلما انتهى المغني من أغنيته صاح: أعد، أرجوك أعد!

ضبط ميتكا آلته وعاد يعزف مقطوعة «بارينيا» أي السيدة، وهي أغنية شعبية شائعة في ذلك الوقت متصرفاً فيها تصرفاً بديعاً. وكان العم يصغي وهو مائل الرأس وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. أعيد عزف البالالايكا مراراً دون تعب ودون أن يظهر على المستمعين شبح السأم. دخلت أنيسيا فيدوروڤنا وأسندت جسمها الثقيل إلى حافة الباب وقالت لناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة شبيهة بتلك التي تشرق على وجه سيدها: استمعي جيداً يا آنسة، إنه يعزف عزفاً رائعاً أليس كذلك؟ صرخ العم فجأة وهو يلوح بيده دلالة على نفاد الصبر: آه! هذه قطعة سيئة العزف. كان يجب إظهارها أكثر من ذلك... نعم إنه واضح، إلى الأمام سر! كان يجب إبرازها أكثر من ذلك...

سألت ناتاشا: هل تجيد العزف؟

فابتسم العم دون أن يجيب ثم قال لأنيسيا: إذهبي يا أنيسيا وتحققي من أوتار غيتاري، لقد مضى وقت طويل لم أستعمله. إنه واضح، إلى الأمام سر:

مضت أنيسيا فيدوروڤنا بخطواتها الخفيفة لتنفذ أمر سيدها.

لم يعبأ العم بأحد وهو ينفخ على آلته ليزيل عنها الغبار. وبعدئذ طرق بأصابعه الضخمة على صندوقها وشد بعض أوتارها ثم جلس جلسة مريحة. أمسك الغيتار بحركة مسرحية تقريباً وباعد مرفقه الأيسر عن جسمه وغمز

أنيسيا بعينه وبعد اختبار رائق، بدأ يعزف على إيقاع بطيء وبيد ثابتة أغنية: «على طول الشارع، الشارع المعبد...» وهي أغنية شهيرة شائعة جداً.

سرعان ما استجاب كل من نيكولا وناتاشا لذلك اللحن الذي وجد صداه في نفسيهما وخف فيهما ذلك الفرح الوديع الذي نشرته شخصية أنيسيا فيدوروفْنا. احمرّ وجه هذه الأخيرة فأخفت وجها في شالها وخرجت من القاعة ضاحكة. أما العم فقد استمر يعزف اللحن ببراعة. كان عزفه جميلاً واضحاً. وكان يحدق إلى المكان الذي بارحته أنيسيا فيدوروفْنا منذ حين بنظرة متبدلة. وتاهت ابتسامة غامضة على شاربيه الأشهبين وراحت تزداد اتساعاً كلما أخذ اللحن في الإسراع فظهرت عند المقاطع المختلفة أشبه بالابتسامة النادمة.

وعندما انتهى من الأغنية، قفزت ناتاشا من مكانها وركضت إليه تقبله وقالت: رائع بديع يا عماه. أعد، أعد!

والتفتت إلى نيكولا وكأنها تقول: ولكن ماذا دهانا؟ وصاحت: نيكولا، يا نيكولاي الصغير! كان نيكولا مفتوناً كذلك. كرر العم الأغنية. فظهر وجه أنيسيا فيدوروفْنا البسام ومن ورائه وجوه جديدة ظهرت عند المقطع:

انتظري، انتظري يا جميلتي
ولنهرع معاً إلى الجب
لنأتي بالماء المنعش.

وهنا أجرى العم تبديلاً بارعاً وحطم قراراً وعاد يضبط الإيقاع بحركة دائرية من كتفيه. قالت ناتاشا بصوت ضارع وكأن الأمر بالنسبة إليها أمر حياة أو موت: عجل، يا عماه، يا عزيزي، عجل!

وقف العم فبدا وكأن فيه إنسانين: الأول يبتسم بخطورة مستخفياً بجنون

الثاني الذي شرع يتأهب للرقص بنغم بارع. صاح بها وهو يشير بيده محطماً قراراً:

ـ هل أنت مستعدة؟... إلى الأمام يا ابنة أخي.

ألقت ناتاشا بمنديلها واندفعت قبالة العم ثم اتخذ وضعيتها بعد أن قامت بحركة دائرية من كتفيها ووضعت قبضتيها فوق وركيها.

ولكن أين وكيف استطاعت هذه الكونتيسة الصغيرة التي ربتها مهاجرة فرنسية، أن تتشبع بمجرد استنشاقها الهواء البارد، بالروح القومية إلى هذا الحد، فتقوم بإجراء الحركات البارعة التي تتفق مع «رقصة الشال» رغم أنها لم تعد تظهر في هذه منذ زمن؟ ذلك أنها في مظهرها وحركاتها التي لا تجارى كانت مجبولة غريزياً بالطبع الروسي الصميم الذي كان العم يتوقعه فيها. وما إن اتخذت الوضع المناسب وابتسمت ابتسامتها الماكرة المتغطرسة معاً حتى اطمأن نيكولا والمتفرجون الذين كانوا يتوقعون أن تظهر في حركات الفتاة أخطاء مخجلة وبدأوا يحيطونها بإعجابهم سلفاً.

أدت رقصتها ببراعة حتى أن أنيسيا فيدوروفنا التي ناولتها على الفور المنديل الملائم للرقصة، بدأت تذرف دموع الفرح لرؤيتها تلك الكونتيسة الشابة الرشيقة التي نشأت بين الحرير والمخمل، البعيدة كل البعد عن نفسها، تحتل مكانة في روحها هي أنيسيا، وتنفذ إلى أعماقها وأعماق أبيها وأمها وعمتها وكل من يراها صدفة في تلك اللحظة.

وعند نهاية الرقصة، قال العم ضاحكاً: حسناً أيتها الكونتيسة الصغيرة، إنه واضح، إلى الأمام سر! مرحى يا ابنة أخي! لم يبق عليك الآن إلا انتقاء الفتى الجميل الذي سيكون زوجك. إنه واضح، إلى الأمام سر!

قال نيكولا مبتسماً: لقد اختارت فتاها بالفعل.

أصيب العم بالدهشة وراح يسأل الفتاة بنظرة مستطلعة فأومأت ناتاشا برأسها أن نعم، وهي سعيدة جداً. وقالت: ويا له من زوج أيضاً!

ما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى دهمتها موجة من الأفكار: «ما معنى ابتسامة نيكولا عندما قال: «لقد انتقت فتاها بالفعل»؟ هل كان يوافق على هذا الزواج أم لا؟ يخيل إلي أن أميري پولكونسكي لا يمكنه تفهم الفرح الذي يتلظى في نفوسنا في هذه اللحظة. ولكن بلى، يستطيع فهمه... ولكن أين هو الآن؟... هيا لنكف الآن عن التفكير في هذه الأمور...» وعاد وجهها الذي اكتأب فترة إلى إشراقه. جلست قرب العم وطلبت منه أن يعزف لها قطعة موسيقية جديدة.

عزف العم أغنية ثم رقصة ڤالس ثم سكت وسعل وانطلق بصوته المدوي يغني أغنية الصيد المفضلة عنده:

عندما بدأ الثلج أمس

يتساقط فوق الضباب...

كان العم يغني على طريقة أبناء الشعب مقتنعاً ببساطة أن الكلمات وحدها هي المهمة في اللحن وأن النغم يبرز من تلقاء نفسه إذا أحسن الإيقاع. وعلى ذلك، فقد كانت أغنيته البسيطة كشدو الطير، على حظ وافر من الجمال. وانجذبت ناتاشا يهدهدها اللحن وقررت ترك العود لترافق العم على الغيتار.

أزفت الساعة التاسعة عندما وصلت زحافة كبيرة وأخرى صغيرة يواكبهما ثلاثة فرسان لنقل ناتاشا وپيتيا. قال القادمون إن الكونت والكونتيسة شديدا القلق لجهلهما مكان ابنيهما.

حملوا پيتيا دون أن يوقظوه ووضعوه برفق في الزحافة الصغيرة بينما ركب نيكولا وناتاشا في الثانية. دثر العم ناتاشا وودعها بحنان غير متوقع

ورافقهم حتى الجسر الذي يجب عليهم أن يدوروا حوله ليتسنى لهم المرور عبر المفازة، وهناك أمر خدمه أن يتقدموا الموكب حاملين المصابيح.

صاح في الظلام بصوت لم يكن مألوفاً لديه، يشبه ذلك الذي غنى به: «عندما راح الثلج أمس...»:

ـ وداعاً يا ابنة أخي العزيزة.

بدأت أضواء حمراء تشع في القرية التي مرّ الموكب بها وامتزج الهواء برائحة دخان متصاعد. ولمّا بلغوا الطريق العمومية قالت ناتاشا: يا له من رجل رائع هذا العم!

قال نيكولا: نعم. هل تشعرين بالبرد؟

فأجابت وهي مندهشة للانشراح الذي تشعر به.

ـ كلا إنني على ما يرام، على خير ما يرام... آه كم أشعر بالغبطة!

ولزما الصمت فترة طويلة. كان الليل معتماً رطباً لا يرى الراكب الخيل لكنه يشعر بها وهي تخوض بالوحل غير المنظور.

ماذا كان يحدث في تلك الروح الصغيرة سهلة الانطباع بالعواطف على اختلاف أنواعها؟ كيف كانت كل هذه تنتظم في نفس ناتاشا؟ لقد كانت سعيدة على كل حال. ولما كادا يصلان إلى البيت جلجل صوتها مردداً أغنية: «عندما راح الثلج أمس...» التي أمضت وقتاً طويلاً تبحث عن نغمها حتى ذكرته فجأة وطاف بخيالها. قال لها نيكولا: لقد وجدته أخيراً!

سألت ناتاشا: فيم كنت تفكر منذ حين يا نيكولا؟

كان هذا السؤال هو الذي درج الأخوان على توجيهه كل إلى الآخر في كل حين. أجاب نيكولا: أنا؟ حسناً! إليك ما كنت أفكر فيه: كنت أفكر في أن «تاباجور» الكلب الأشقر يشبه العم. وكنت أقول لنفسي إنه لو كان هو الإنسان وكان العم هو الكلب لاحتفظ به عنده لا لأجل الصيد، بل لمجرد التفاهم

القائم بينهما، يا له من رجل تسهل الحياة معه هذا العم، أليس كذلك؟ وأنت، فيم كنت تفكرين؟

ـ أنا؟ انتظر قليلاً. «فكرت أولاً في أننا نتصور خطأ أننا في طريقنا إلى المنزل، بينما نحن في الحقيقة نسير في اتجاه لا يعرفه إلا الله فقط، في هذه الظلمات الكالحة، وأننا لا نصل أخيراً إلى أوترادنواي، بل إلى بلاد الجان... ثم... ثم...» كلا، لم أفكر في شيء مطلقاً.

قال نيكولا: بل فكرت فيه، أنا واثق.

أجابت ناتاشا رغم أنها فكرت جدياً في الأمير، وتساءلت عما إذا كان العم سيروق في عينيه: كلا، آه نعم! إليك ما كنت أحدث نفسي به خلال الطريق: «كم إن موقف أنيسيا رائع!».

تبين نيكولا من صوت أخته أنها تبتسم. ثم تبين في ذلك الظلام ضحكتها الرنانة القوية. وفجأة استأنفت تقول: أتدري، إنني أحس أن السعادة والهدوء اللذين تذوقتهما اليوم، لا يمكن أن أحظى بمثلهما طوال حياتي.

اعترض نيكولا على قولها: «لا تتفوهي بمثل هذه...»

بينما راح يفكر في سرّه «يا لفتنة الحماقات...»

بينما راح يفكر في سرّه «يا للفتنة في ناتاشا هذه! ليس لدي ولن يكون لديّ في المستقبل صديق أفضل منها. يحدو بها إلى الزواج؟ لولاه لبقينا نتسلى كما تسلينا اليوم».

وكانت ناتاشا تفكر هي أيضاً: «ما ألطف نيكولا هذا!!» ثم قالت وهي تشير إلى النوافذ التي كانت تشع وسط ظلام الليل الندي.

ـ آه! لا يزال النور مضاء في القاعة الكبيرة.

الفصل الثامن

أعفى الكونت إيليا أندرييتش نفسه كنقيب للنبلاء، من مهام مركزه، وبفضل هذا التدبير لم تتحسّن أحواله المادية. وغالباً ما دهم نيكولا وناتاشا أبويهما في مناجاة سرية مقلقة. كانا يتحدثان عن بيع قصرهم في موسكو ومزرعتهم الكبيرة في الضاحية. لم يعد الكونت في حاجة إلى إقامة حفلات باذخة بعد اعتزاله مهام منصبه، فكانت الحياة في أوترادنواي أكثر هدوءاً من الأعوام السابقة. مع ذلك، فإن المنزل الكبير وجناحيه ما كانا أقل ازدحاماً من سابق عهدهما. كانت مائدة الطعام تضم أكثر من عشرين نوعاً من الطعام دائماً. إنهم أعضاء أسر حطت مرساتها في هذا المنزل منذ أمد طويل وآخرون وجدوا على ما يبدو، أن الحياة في غير ذلك المنزل مستحيلة. وهؤلاء هم الموسيقي ديملر وزوجته ومعلم الرقص ڤوغل والمنزل والعانس العجوز پيیلوڤا وكثيرون غيرهم: كمدرسي پيتيا ومديرة سابقة لفتيات المنزل أو غيرهم ممن وجدوا أن الحياة عند الكونت أفضل مما هي عليه في بيوتهم. وعلى الرغم من تقلص عدد زوار البيت فإن نمط الحياة بقي كعهده السابق لأن الكونت والكونتيسة لم يكونا يحسنان نمطاً آخر يتبعانه في منزلهما. ظلت استعدادات الصيد قائمة وقد زاد فيها فريق نيكولا، وبقيت الخيول الخمسون في الإصطبل يرعاها الخمسة عشر حوذياً المعهودين، واستمرت الهدايا الثمينة تقدم في المناسبات والحفلات الكبيرة تقام في الأعياد وكذلك حفلات لعب الورق على اختلاف أنواعه، التي كان الكونت خلالها يكشف

أوراقه لخصومه سامحاً لهم بذلك أن يخففوا بضع مئات من الروبلات عن كيس نقوده. لذلك فقد كان دائماً موضع تنازع اللاعبين للحصول على ربح محترم من لعبة واحدة معه.

يسير الكونت إذن على غير هدى في شبكة متاعبه المالية المتشعبة، يريد أن يجدع الأنف أن يخدع نفسه بإقناعها بأنه على الطريق المستقيم، بينما يزداد ابتعاداً، أصبح لا يجد في نفسه القدرة لا على تحطيم تلك الشبكة الضخمة ولا على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحطيمها. وباتت الكونتيسة تحس في أعماق نفسها أنها وأسرتها يسيران إلى الدمار. كانت تحدث نفسها بأن الكونت غير مذنب لأنه لا يستطيع أن يكون غير ما هو، وأنه يتألم، رغم إخفائه ذلك الألم، من ذلك المركز المالي المزعزع الذي يهدده وذويه. بدأت تبحث عن علاج لهذا الداء. ولأنها امرأة، لم تجد علاجاً أفضل من تزويج ابنها نيكولا بوارثة غنية، وقدرت أن ذاك هو الأمل الأخير. فإذا رفض نيكولا الزواج الذي تدبره له، فإن الحالة المالية في العائلة لن تنجو من الانهيار المؤكد. أما الوارثة الغنية التي شخصت إليها الكونتيسة في أفكارها، فكانت الآنسة جولي كاراغين وهي الفتاة التي تنحدر من أبوين ورعين ويعرفها آل روستوف منذ طفولتها وقد جعلها موت أخيها الأخير الوارثة الوحيدة لثروة كبيرة.

كتبت الكونتيسة مباشرة إلى السيدة كاراغين تعرض عليها فكرتها، فتلقت منها جواباً مناسباً: لقد وافقت الأم على زواج ابنتها من نيكولا، ولكنها تركت الكلمة النهائية لابنتها. مع ذلك دعت نيكولا إلى زيارتها في موسكو.

ومراراً، قالت الكونتيسة لابنها والدموع تترقرق في عينيها إنه بعد أن أصبحت ابنتاها في حرز مع زوجيهما، فإن رغبتهما الوحيدة أضحت محصورة في أن تراه متزوجاً وبذلك تموت سعيدة. وبعد أن سبرت غوره على هذا النحو. ألمحت إلى أنها تشخص بأنظارها إلى فتاة جميلة. وفي مناسبات

أخرى امتدحت جولي ونصحت لابنها أن يسافر إلى موسكو بمناسبة أعياد الميلاد ليرفه عن نفسه هناك، فوراً، حدس نيكولا الغاية التي تغذيها أمه والوجهة التي تتجهها، فاستدرجها ذات يوم إلى الإفضاء بمكنونات نفسها إليه. فاعترفت بصراحة أن زواج ابنها من جولي كاراغين كفيل وحده أن ينقذ مركز العائلة المالي.

سأل الفتى أمه دون أن يلحظ الخشونة التي في سؤاله لأن همه كان منصرفاً إلى إظهار نبل روحه فحسب: ماذا! هل إذا كنت أحب فتاة غير ذات بائنة، وألحت علي بالسؤال أن أضحي بحبي وشرفي في سبيل المال يا أماه؟

أجابت الأم وهي لا تدري كيف تبرر موقفها: لم تفهمني يا صغيري نيكولا. أنا أبحث عن سعادتك.

كانت تعرف أنها لم تنطق بالصدق في قولها. لذلك اشتد اضطرابها فأجهشت باكية: أماه لا تبكي. قولي فقط إنك ترغبين في ذلك وسترين أنني أقدم حياتي وكل شيء لكي تكوني راضية. أجل، سأضحي بكل شيء من أجلك حتى مشاعري.

لم تتوقع الكونتيسة من ابنها ذلك: كانت أبعد الناس عن مطالبة ابنها بالتضحية نفسه من أجلها. بل كانت على العكس، مستعدة هي نفسها للتضحية بنفسها من أجله. قالت وهي تمسح دموعها: كلا، إنك لم تفهمني. لنقف عند هذا الحد في الحديث.

قال نيكولا في سرّه: «ولكن ألست أحب فتاة فقيرة في واقع الحال؟ إذن يجب أن أضحي بعواطفي! إنني مندهش لرؤية أمي وهي تقول لي مثل هذا الأمر. ألأن سونيا فقيرة لا يحق لي أن أحبها وأن أجيب عن غرامها المخلص؟ مع أنني سأكون معها أسعد مني مع جولي التي تشبه الدمية. أستطيع التضحية

بعواطفي من أجل أبويَّ، أما أن آمرهما، فذلك مستحيل. وإذا كنت أحب سونيا، فإن هذا الحب سيبقى عندي أقوى من كل شيء».

لم يذهب نيكولا إلى موسكو، ولم تعد الكونتيسة تتحدث معه في الزواج لكنها لاحظت بحزن بل بغضب أحياناً أن ألفة قوية كانت تقوم بين ابنها وتلك الفتاة المحرومة من البائنة سونيا. وعلى الرغم من اللوم الذي كانت تصبه على نفسها، فإنها لم تكن تستطيع الإمساك عن الزمجرة ومحاولة مشاكسة سونيا كلما خاطبتها بصيغة الجمع أو قالت لها: يا عزيزتي. وكان ما يزيد في نقمة الكونتيسة الطيبة ضد سونيا سلوك ابنة الأخت تلك ذات العينين السوداوين التي كانت تظهر مزيداً من الدماثة والعرفان نحو المحسنين إليها ومن الإخلاص العميق المجرد في حبها لنيكولا حتى يتعذر إيجاد مأخذ على تصرفاتها.

كان نيكولا ينهي عطلته عند أهله الذين تلقوا رسالة رابعة من الأمير أندريه مرسلة من روما يقول فيها إنه لولا أن نكأ جرحه فجأة بسبب الطقس، الأمر الذي أجّل عودته حتى مطلع العام القادم، لكان الآن في طريق عودته. كانت ناتاشا لا تزال مفتونة بخطيبها بذلك الهدوء الذي عرف عنها، وظلت متفتحة القلب لكل مسرّات الحياة. مع ذلك، فإنها حوالى نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على غياب أندريه، بدأت تشعر بسحابات من الحزن كان يستحيل عليها مقاومتها. راحت تنظر إلى نفسها بإشفاق على هذا الوقت الذي يذهب سدى بينما تشعر في قرارة نفسها بأنها ما زالت قادرة على أن تحب وتُحب.

وعلى ذلك فإن الحياة كما يُرى لم تعد سعيدة تماماً عند آل روستوف.

الفصل التاسع

لم يكن ما يميز أعياد الميلاد إلا الصلوات وتهاني الجوار المضجرة والملابس الجديدة التي يرتديها الناس. مع ذلك فإن العشرين درجة من البرد غير المشفوع بالريح والنهارات المشمسة وتلك الليالي ذوات النجوم كانت تحفز المرء على إحياء تلك الفترة من السنة والاحتفاء بها على لون آخر.

بعد الغداء في اليوم الثالث، انسحب كل إلى غرفته وكبر الضجر كثيراً. نام نيكولا في المسكن بعد أن قام في صبيحة ذلك اليوم بعدد من الزيارات إلى الجيران واستلقى الكونت العجوز في مكتبه. أما في قاعة الاستقبال، فقد راحت سونيا تنقل رسماً فوق طاولة مستديرة بينما كانت الكونتيسة تتلهى بلعب الورق وحدها مهملة المهرج نستاسيا إيڤانوڤا الذي كان قرب النافذة في رفقة عجوزين طيبتين. دخلت ناتاشا وتفحّصت شغل سونيا ثم اقتربت من أمها وانتصبت واقفة أمامها.

سألتها أمها: لماذا تتيهين هكذا كروح معذبة؟ ماذا ينبغي لك؟

قالت ناتاشا بعينين متوهجتين ووجه خطير: إنه «هو» ما أبغيه... فوراً... في هذه اللحظة بالذات.

رفعت الكونتيسة رأسها ونظرت إلى عيني ابنتها نظرة عميقة. فقالت هذه:

ـ لا تنظري إليّ هكذا يا أماه. لا تنظري إليّ أو أبكي فوراً.

ـ اجلسي واقتربي مني، هنا.

ـ أماه هذا ما أريد... يا إلهي لمَ تفرض عليّ مثل هذا العذاب!

تحطم صوتها واغرورقت الدموع في مآقيها، فاستدارت لتخفيها ولم تجد غير الفرار سبيلاً.

توقفت في المسكن وبعد أن ترددت برهة، ذهبت إلى غرفة الخادمات. وهناك وجدت امرأة عجوزاً مهمتها العناية بالثياب والأواني الفضية، توبخ وصيفة شابة كانت ترتجف من البرد وهي قادمة ركضاً من جهة المياه:

ـ كفى تسلية. لكل شيء حينه.

فتدخلت ناتاشا: دعيها. اذهبي يا ماڤروشا، اذهبي.

وبعد أن أنعمت عليها بتلك العطلة، اخترقت ناتاشا قاعة الرقص لتدخل إلى الردهة. وهناك وجدت ثلاثة خدم، عجوزاً وشابين يلعبون الورق. توقفوا عن اللعب عندما دخلت ووقفوا عند وصولها. قالت في سرّها: «في أي شيء أستطيع إشغالهم؟ آه! لقد وجدت».

ـ ميتكا، اذهب وائتني بديك. وأنت يا ميشا ائتني بقليل من الخرطال.

قال ميشا بلهجة متواضعة: من الخرطال؟ قليلاً جداً أليس كذلك؟

ـ وأنت يا فيدور، ابحث لي عن بعض الحكك.

ومرت بالقرب من المقلاد فقالت لـڤوكا خادم الطاولة أن يهيئ السماور رغم أن الوقت لم يكن قد حان لمثل ذلك.

كان فوكا أكثر الرجال صمتاً في المنزل فكانت ناتاشا تجد متعة في ممارسة سلطتها عليه. لم يصدق أذنيه ويعتبر الأمر جدياً إلا عندما كررته وأيدته وحينئذ قال يعرب عن امتعاضه لناتاشا: أوه! يا لهذه الآنسة!

لم يكن في المنزل أحد يزعج الأشخاص ويقلق راحتهم بتشغيلهم مثل ناتاشا. فإذا وجدت أحداً وجب أن ترسله إلى مكان ما. ومهما كان من قول

فهي تحاول التأكد من عدم استياء الخدم من تردّدهم في تنفيذ أوامرها، فهم جميعاً يتهافتون بحماسة لإرضائها.

تساءلت وهي تذرع الممشى حائرة: «ماذا أستطيع أن أفعل؟ أين يمكنني أن أذهب»؟ جاء المهرج العجوز للقائها وهو في ثياب داخلية نسائية:

ـ يا نستاسيا إيڤانوڤنا، ماذا سألد؟

ـ براغيث وصراصير وذباب المستنفعات...

ـ رباه، رباه، إنه الشيء نفسه دائماً!... أين أحشر نفسي؟ في أي شيء أتشاغل؟...

صعدت السلم الذي يؤدي إلى جناح ڤوغل وزوجته بضجة كبيرة. وجدت المدبّرتين هناك أمام طاولة محملة بأطباق الزبيب واللوز والخروب وهما تقارنان غلاء المعيشة في موسكو بمثله في أوديسا. جلست ناتاشا وكأنها تعلق اهتماماً على الحديث، ثم وقفت فجأة وقالت: جزيرة مدغسكر، ما... دا.. غاس... كر..

راحت تكرر هذه الكلمة وهي تقطعها وانسحبت دون أن تعنى بالرد على السيدة شوص التي أتت تستوضحها ما تقول.

شاهدت پيتيا يهيئ بمساعدة مدربه العجوز سهاماً نارية ليطلقها عندما يحل المساء. صاحت به: پيتيا، احملني إلى الأسفل.

فأسرع پيتيا ومكنها من ظهره فقفزت عليه وطوقت عنقه بذراعيها بينما راح يقوم ببعض القفزات على طريقة الحصان. قالت وهي تقفز إلى الأرض وتنحدر على السلالم: يكفي هكذا... جزيرة مدغسكر...

وبعد أن تفقدت مرافق دولتها، حسب تعبيرها، واختبرت نفوذها وعرفت أن كل من في المنزل متضجر رغم الخضوع العام، انسحبت ناتاشا إلى قاعة الموسيقى وجلست في زاوية معتمة وراء خزانة صغيرة ثم راحت

تداعب أوتار قيثارتها محاولة تذكر مقطع من إحدى «الأوبيرات» التي سمعتها في بيترسبورغ عندما كانت في رفقة الأمير أندريه. ما كان للمستمع العادي أن يجد أي معنى في عزفها، أما هي، فكانت تلك الأصوات توقظ في نفسها عالماً من المشاعر. قبعت وراء خزانتها وشخصت بناظريها إلى إشعاع ضوئي كان يخترق باب المقلاد وراحت تصغي إلى نفسها وتستسلم لنشوة الذكرى.

اجتازت سونيا القاعة حاملة فنجاناً في يدها متجهة نحو المقلاد. فألقت ناتاشا نظرة عليها ثم حولتها إلى الباب الموارب وتصورت أن هذا المشهد كذلك يشكل جزءاً من ذكرياتها. قالت تقنع نفسها: «نعم، لقد رأيت هذا من قبل خطأً فخطأً». صاحت تخاطب سونيا وهي تضرب على حبل قيثارتها الخفيض: سونيا، ماذا أعزف هنا؟

اقتربت هذه منها لتصغي بانتباه أكثر وقالت: آه! أنت هنا... لست أدري.

ثم تابعت بخجل وكأنها تخشى أن تكون مخطئة: أليست هذه موسيقى «الإعصار»؟

لكن ناتاشا كانت تقول في سرّها: «أي نعم، إنها دائماً هكذا، دائماً هذه الانتفاضة والابتسامة الخجولة. لقد قلت دائماً ما أقوله الآن: لا شك إنه ينقصها شيء ما». ثم تنبهت وقالت: كلا إنها لازمة «حامل الماء» ـ وهي أوبرا لشيروبيني ـ اصغي إليّ جيداً...

ولكي تقنع سونيا، أخذت تغني اللحن حتى نهايته وقالت: إلى أين تذهبين؟

ـ لإبدال ماء الفنجان. إنني من فوري لتوي من الرسم.

ـ إنك تعرفين دائماً كيف تشغلين وقتك وليس مثلي... ونيكولا أين هو؟

أظن أنه نائم.

ـ اذهبي وأيقظيه... قولي له أن يأتي ليغني معي.

عادت تقبع في زاويتها وهي تتساءل كيف أمكن لكل هذا أن يحدث دون أن تستطيع إيجاد جواب عن هذا السؤال الذي لم تكن على أية حال تأسف على عدم إيجابه. حلقت من جديد في سماء الخيال وعادت إلى السويعات التي قضياها معاً والتي كان خلالها يتأملها بنظرة والهة.

«آه! ليعد بأسرع وقت. إنني شديدة الخوف من أن لا يتم زواجنا!... ثم لا مجال للقول، إنني أهرم! لن أكون بعد قليل كما أنا الآن... ولكن من يدري، لعله سيصل اليوم، سوف ينتظرني في القاعة الكبيرة... لعله وصل يوم أمس ونسيت أنا ذلك...».

نهضت من مكانها ونبذت القيثارة ثم مضت إلى القاعة الكبيرة. كان كل الناس هناك بين معلمين ومديرات وأقرباء وزوار يحتسون الشاي والخدم في ذهاب وإياب حول المائدة. كان كل شيء يجري كعادته، لكن الأمير أندريه لم يكن هناك. ولما رأى الكونت ابنته داخلة قال: ها هي ذي. تعالي واجلسي بقربي.

لكن ناتاشا جاءت وانتصبت أمام أمها ونظرت حولها وكأنها تبحث عن شيء ما. قالت مستعطفة:

ومن جديد، وجدت صعوبة في إيقاف دموعها. جلست إلى الطاولة وأصغت إلى أحاديث المسنين وأقوال نيكولا الذي ظهر في تلك اللحظة وانضم إليهم، «آه يا ربي، يا ربي! الوجوه نفسها دائماً والأحاديث نفسها دائماً، بل دائماً أسلوب أبي إياه في الإمساك بفنجان الشاي والنفخ عليه»! أحست برعب عنيف وبكره شديد عميق لكل ساكني المنزل يعتلج فجأة في نفسها، لأنهم كانوا هم لا يتبدلون.

وبعد الشاي، احتمى نيكولا وسونيا وناتاشا بالمخدع العتيد، مكانهم المفضل للإفصاح عن مكنونات نفوسهم فيما بينهم.

الفصل العاشر

ألم تتصوّر أنه لم يعد ينتظرك شيء وأنك قد حصلت على كل السعادة الممكنة؟ وعندئذ ألا تشعر بالحزن؟ قالت ناتاشا لأخيها عندما استقر بهما المقام.

أجاب: بكل تأكيد! أحياناً، عندما يكون كل ما حولي جيداً والعالم من حولي بهيج، يعتريني فجأة اشمئزاز من كل شيء فأفكر في أننا يجب أن نموت كلنا... ذات مرة في الفيلق، لم أذهب إلى النزهة رغم أن الموسيقى كانت تصدح حيث كنت سأذهب، لكثرة ما كنت أحس بالضجر...

ـ إنني أعرف هذا، أعرف هذا... كنت لا أزال صغيرة جداً عندما وقع لي هذا. هل تذكر يوم عوقبت من أجل مسألة خوخ بينما كنتم ترقصون، لقد تركوني في قاعة الصف وحيدة وكنت أذرف دموعاً حرى... لن أنسى ذلك أبداً! كنت أرثي لحالي ولكم جميعاً... وكان أكثر ما يؤلمني أنني لم أفعل شيئاً سيئاً، هل تذكر؟

ـ نعم. وأذكر كذلك أنني ذهبت إليك أعزيك وأنني لم أكن أعرف كيف أتصرف معك... لقد كنا كلانا على جانب مخيف من الشذوذ... كنت أملك مهرجاً صغيراً من الورق المقوى فأردت أن أهديه إليك. هل تذكرين؟

تابعت ناتاشا بابتسامة حالمة: وقبل الحادث وكنا لا نزال صغاراً، هل تذكر عندما دعانا عمنا ذات مرة إلى مكتبه، وكنا حينذاك في المنزل القديم وكان الظلام حالكاً، فلم نكد ندخل حتى رأيناه فجأة...

فأكمل نيقولا قولها بانشراح: عبداً أسود. كيف أنساه؟ لا أزال حتى الآن لا أعرف هل كان عبداً حقيقياً أم كنا رأيناه في حلم أم حدثنا بعضهم بأمره.

ـ كان بلون الرماد ذا أسنان بيضاء... كان واقفاً يحدق إلينا...

سأل نيكولا: هل تذكرين يا سونيا؟

ـ فأجابت سونيا بخجل: نعم، نعم، بإبهام.

قالت ناتاشا:

ـ لقد تحدثت عن هذا العبد إلى أمي وأبي فأكد أبي أنه لم يكن في بيتنا عبد. مع ذلك فإنك تذكره!

ـ طبعاً كما لو وقع ذلك بالأمس.

ـ إنه يشبه الحلم، وهذا ما يروقني في هذه القصة!

ـ وذات يوم آخر، بينما كنا ندحرج بيضاً في صالة الرقص، ظهرت عجوزان فجأة وراحتا تبرمان دائرياً. هل حدث هذا بالفعل؟ هل تذكرين كم كان ذلك رائعاً؟

ـ نعم، وأنت، هل تذكر عندما كان «بابا» يطلق النار من بندقية وهو فوق المرقاة مرتدياً فروته الزرقاء؟

وراحت تلك الذكريات الزاهية تمر أمامهم الواحدة تلو الأخرى تتناقض بشدة مع عودة الشيخوخة الحزينة إلى الوراء، تلك الإحساسات عن الماضي التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال، وراحوا يضحكون برقة وهم يشعرون بالسعادة.

وكعادتها، كانت سونيا متنحية جانباً مع أن تلك الذكريات كانت تجمعهما معاً، لكنها كانت أكثر تشويشاً في ذاكرتها. أما تلك التي لا تزال حية منها، فهي لم تكن توقظ في نفسها مثل تلك الأحاسيس الشاعرية. لم تتدخل في نداء الماضي إلا عندما استعادا ذكر وصولها إلى المنزل. وكان ذلك ليقصوا أنها

خافت من نيكولا خوفاً شديداً وهو في سترته التي تزينها بالخرج. لقد روعتها خادمتها عندما أوهمتها بأنهم سوف يوثقونها إلى ذلك الخرج.

قالت ناتاشا: وقد رووا لي أنك ولدت في ملفوفة. كنت أعرف أن ذلك غير صحيح، لكنني ما كنت أجرؤ على عدم التصديق وكنت مرتبكة جداً.

وفي تلك الأثناء، دخل ديملر إلى المخدع ومضى قدماً إلى المعزف القائم في إحدى زواياه، فرفع غطاءه وانبعث منه صوت نافر. وارتفع صوت الكونتيسة من القاعة الكبيرة:

ـ يا إدوار كارلتيس، اعزف أرجوك لحن «نوكتورن» ـ اللبليات ـ لجون[١] فيلد، الذي يروقي كثيراً.

أمسك ديملر اللحن والتفت نحو ناتاشا ونيكولا وسونيا وقال لهم:

ـ ما أنعم بال الشبيبة!

أجابت ناتاشا وهي ترمقه بنظرة قاسية:

ـ نعم إننا نتفلسف.

وعادت إلى الحديث الذي أصبح يدور حول الأحلام.

بدأ ديملر العزف فاقتربت ناتاشا على أطراف قدميها من الطاولة وأخذت الشمعة وعادت دون ضجيج إلى مكانها. بدأ الظلام يخيم الآن على الغرفة وخصوصاً في الزاوية التي جلسوا فيها. لكن البدر كان يلقي على الأرضية إشعاعاً فضياً خلال النوافذ المرتفعة. قالت ناتاشا وهي تقترب من نيكولا وسونيا، بينما كان ديملر الذي انتهى من عزف المقطوعة، متردداً في البدء بغيرها، يداعب أوتار معزفه بحركة خفيفة:

ـ هل تعرفان فيمَ أفكر؟ يخيل إلي أنه لكثرة ما يُحرك رماد الماضي،

---

(١) مؤلف موسيقي انكليزي توفي في موسكو، صاحب لون جديد من الموسيقى الفردية.

يستطيع المرء أن يعيد إلى ذاكرته أشياء حدثت قبل ولادته في هذا العالم...

قالت سونيا التي كانت مجتهدة دائماً وتتمتع بذاكرة طيبة: إنه علم التناسخ. كان المصريون يعتقدون أن أرواحنا عاشت بادئ الأمر في الحيوانات وأنها ستعود إليها بعد موتنا.

ردت ناتاشا بصوت خفيض دائماً رغم توقف الموسيقى: حسناً! أنا، لو تعلمين، لا أعتقد أننا كنا من قبل في الحيوانات. أما ما أنا واثقة به، فهو أننا كنا ملائكة في كل مكان، ولهذا السبب نتذكر كل هذا القدر من الأشياء...

سأل ديملر الذي اقترب منهم بخطوات متلصصة واتخذ لنفسه مكاناً قريباً: هل أستطيع الانضمام إليكم.

قال نيكولا: لو أننا كنا ملائكة، فلماذا إذن سقطنا إلى هذا الدرك؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.

قالت ناتاشا بحماسة: ولمَ إلى هذا الدرك؟ من قال لك إننا أدنى من مقامنا؟ إن الروح خالدة، أليس كذلك؟ وإذن، إذا كان لا بد أن أعيش سرمدياً، فلا شك أنني عشت من قبل دهراً كاملاً.

تدخل ديملر الذي عندما انضم إلى الشبيبة لم يستطع إخفاء ابتسامة ساخرة والذي راح الآن يتبنى لهجتهم الخطيرة:

ـ بدون شك، لكنه من الصعوبة أن يتصور المرء تلك الأبدية.

قالت ناتاشا: صعوبة؟ لماذا؟ بعد اليوم سيكون الغد. ودائماً هكذا. والأمس، وأمس الأول، كان الشيء نفسه.

تناهى صوت الكونتيسة إلى الأسماع: ناتاشا، لقد حان دورك. غني لي شيئاً... ماذا تعملون هناك؟ لكأنكم متآمرون.

قالت ناتاشا: آه يا أماه! إنني لست منسجمة.

ما من أحد، حتى ولا ديملر الذي لم يعد شاباً، كان يميل إلى ترك زاوية التسار فقد نهضت ناتاشا، ومضى نيكولا إلى المعزف، وبعد أن تمركزت وسط قاعة الرقص كعادتها، وهو المكان الذي كانت تقدر أنه أفضل للشروط السمعية، غنت ناتاشا المقطوعة المفضلة عند أمها. قالت قبل ذلك إنها لا تحس بالانسجام. لكنها لم تغني مثل ذلك المساء منذ زمن طويل ولم تكن من قبل لتغني أفضل من ذلك. سمعها الكونت من مكتبه حيث كان في مقابلة مع ميتانكا. وكالطفل الذي لا يفكر عند انتهاء الدرس إلا بالفرصة المنتظرة، ارتبك الكونت في الأوامر التي أصدرها وانتهى به الأمر إلى السكوت. أما ميتانكا الذي كان يصغي بدوره، فبقي منتصباً أمام سيده والابتسامة على شفتيه. لم يغفل نيكولا عن النظر إلى أخته ونظم تنفسه الشخصي على غرار تنفسها، بينما كانت سونيا تقيس البون الشاسع الذي يفصلها عن ابنة عمها وتحدث نفسها بأنها لن تستطيع أبداً أن تكتسب ولا جزءاً واحداً من فتنة ناتاشا. وكانت الدموع تترقرق في عيني الكونتيسة، تبتسم في غبطة وحزن معاً وتهز رأسها من حين إلى آخر. تصورت شبابها. وفكرت في ابنتها التي بدا ارتباطها بالأمير أندريه غير طبيعي وملؤه الخطر.

كان ديملر جالساً بالقرب من الكونتيسة يستمع مغمض العينين، وأخيراً خلص إلى القول: حقيقة يا كونتيسة، إن لها منقبة أوروبية، لم يبق أمامها ما تتعلمه، هذه النعومة، هذه القوة، هذه العذوبة...

قالت الكونتيسة دون أن تلقي بالاً إلى من تحدثه: كم أخاف من أجلها، كم أخاف!

كانت غريزة الأمومة لديها تنبئها أن في ناتاشا شيئاً مفرطاً يمنعها من أن تكون سعيدة.

وقبل أن تنتهي ناتاشا من الغناء، دخل بيتيا إلى الغرفة وأعلن بحماسة ابن

أربعة عشر عاماً، وصول المقنعين. فتوقفت ناتاشا فجأة وصرخت في أخيها: سخيف!

واندفعت نحو كرسي حيث انهارت عليه وانفجرت باكية وبقيت فترة طويلة قبل أن تسيطر على أعصابها. قالت وهي تجهد في الابتسام:

ـ لا بأس عليّ يا أماه لا بأس. أؤكد لك أن پيتيا أخافني.

لكن دموعها ظلت تنهمر وتخنقها العبرات.

وصل الخدم على أشكال الدببة والأتــراك والخمارين وسيدات المجتمع، بين مضحك ومخيف، يحملون معهم برد الخارج. اجتمعوا بخجل في الردهة ثم اختبأ كل منهم وراء الآخر ودخلوا إلى قاعة الرقص مغامرين، وهناك، انتقلوا من حالة الخوف التي اعترتهم إلى الحيوية والانسجام، فراحوا يغنون ويرقصون ويدورون ويقومون بكل تسليات عيد الميلاد. وبعد أن كشفت الكونتيسة حقيقة كل المقنعين وضحكت من تنكرهم، انسحبت إلى القاعة الكبيرة، بينما بقي الكونت في القاعة مشرق الوجه يشجعهم. واختفت الشبيبة.

وصل متنكرون آخرون بعد نصف ساعة واختلطوا بالأولين. ووصلت عجوز تحمل سلالاً ـ نيكولا ـ ووراءها تركي ـ پيتيا ـ ثم مهرج ـ ديملر ـ. أما ناتاشا وسونيا فقد تنكرت الأولى على شكل فارس والثانية على غرار الشراكسة وقد رسمتا على وجهيهما الشوارب والحواجب اللازمة بالفحم.

وبدهشة مصطنعة استقبلهم غير المتنكرين وشعر الشبان الذين وجدوا أن أزياءهم كانت موفقة جداً، بالرغبة في عرضها على آخرين. ولما كانت الطرق سالكة جيدة، ونيكولا لا يتحرق شوقاً على نقل الجميع في زحافة كبيرة، فقد عرض أن يحملهم إلى مسكن العم وبصحبتهم حوالى عشرة من الخدم المتنكرين.

قالت الكونتيسة:

ـ ولكن لا، لا فائدة من إزعاج العجوز المسكين. اذهبوا على الأرجح إلى آل ميليوكوف.

وكانت السيدة ميليوكوف، وهي أرملة، تسكن على مقربة من آل روستوف مع أولادها الكثيرين المختلفي الأعمار ومعلميهم ومربياتهم.

قال الكونت العجوز بصمت منشرح:

تلك يا عزيزتي فكرة بديعة. سأتنكر أنا الآخر وسأرافقكم سأعرف جيداً كيف أنفس عن باشيت الباسلة. (تصغير باشا على الطريقة الفرنسية).

لكن الكونتيسة لم تكن تصغي إلى الموضوع بتلك الأذن: لقد كان إيليا أندرييتش يشكو ألماً في ساقه في الأيام الأخيرة فما كان يستطيع السماح لنفسه بمثل تلك الفعلة. وفي المقابل، إذا كانت لويز إيڤانوڤنا أي السيدة شوص، تريد مرافقتهم فإن الفتيات سيسافرن. ابتُهل إلى السيدة شوص أن توافق وكان إلحاح سونيا التي عُرفت بالتحفظ أكثرهم إلحاحاً في هذه المرة. والواقع أن زيها كان أكثر الأزياء التنكرية نجاحاً وشاربيها وحاجبيها تلائم وجهها ملاءمة رائعة. راح كل يهنئها بفرح فكانت تشعر، على خلاف عادتها أنها ممتلئة بالثقة والاستعداد يهيب بها صوت داخلي أن مصيرها إذا لم يتقرر اليوم فلن يتقرر أبداً. وقد كانت في ثياب الرجال تختلف كلياً عن حقيقتها.

وافقت السيدة شوص، فلم تنقض نصف ساعة حتى كانت أربع زحافات كبيرة وعليها الأجراس والجلاجل تشق مزالقها الثلج المتجلد، تنتظم أمام المرقاة.

أطلقت ناتاشا الدلالة الأولى التي تتفق وسهرة عيد الميلاد الجنونية تلك وانتقل مرحها إلى الآخرين فرداً فرداً وكبر فبلغ أقصاه عندما ظهر المقنعون جميعهم في الهواء الطلق يضحكون ويتنادون. ثم انتظموا في فرق مختلفة.

كانت اثنتان من الزحافات الأربع معدتين للجري السريع، والثالثة ذات الجواد المفرد والنقالة كانت خاصة بالكونت العجوز. أما الرابعة، وهي زحافة نيكولا، فكان يجرها حصان صغير أدهم طويل الشعر. أخذ نيكولا في تنكره على شكل أرملة مرحة يجمع أعنة الحصان وهو واقف وسط زحافته متدثراً بمعطف الفرسان فوق ثوبه التنكري. وكان القمر يرسل ضياء قوياً حتى إنه كان يرى صفائح عدة الفرس النحاسية تلتمع وعيون الخيل التي كانت تدير رأسها بوجل نحو الطنف المعتم الذي كان الجمع الهائج يتحرك تحته.

اتخذت ناتاشا وسونيا والسيدة شوص وخادمتان مكاناً لهن في زحافة نيكولا، وديملر وزوجته وپيتيا في زحافة الكونت، بينما توزع الخدم المتنكرون في العربتين الأخيرتين.

صاح نيكولا بسائق عربة أبيه لتتاح له فرصة اجتيازه أثناء الطريق: سر في المقدمة يا زاخار!

ارتجّت زحافة الكونت ورافقها صرير مزالقها فترة، دندنة الحرس الرصينة وراح حصانا الطرفين يتراصان على الحاملين ويغوصان في ثلج جامد براق كالسكر حتى لكأن الصقيع قد ألصقها بالثلج وسار نيكولا وراءها ثم تبعه الآخرون في هرج ومرج عظيم.

أولاً، انزلقت الزحافات الهوينا على الدرب الضيق، وبقيت ظلال الأشجار العارية تتطاول على عرض الطريق طوال الوقت الذي قضاه الراحلون في محاذاة البستان، حاجبة ضوء القمر القويّ. ولكن ما إن اجتازوا الحاجز حتى عرضت للأنظار فسحة لا يحدها النظر من الثلج المتجمد المتلألئ كالماس ذي الإشعاعات الزرقاء. قفزت زحافة المقدمة مرة أو مرتين فوق حجر، فحذت الأخريات حذوها معكرة سلام ذلك السهل العميق المسحور في غير ندم، ثم استوت كلها على خط واحد مباعدة بينها.

وفجأة دوى صوت ناتاشا في الفضاء: موطئ أرانب، مواطئ كثيرة!

وقالت سونيا بدورها: كم يرى المرء بوضوح يا نيكولا!

التفت نيكولا نحو سونيا واضطر إلى الانحناء ليميز وجهها. ظهر أمام عينيه وجه وسيم لطيف ذو شاربين وحاجبين مرسومين بالفحم، قريب وبعيد معاً من اللياقة المصنوعة من السمور.

تساءل نيكولا وهو يتفحصها بإلحاح مبتسماً: «أين إذن سونيا الزمن الأول»؟

ـ ماذا تريد يا نيكولا؟

أجاب وهو يستدير نحو الخيول: لا شيء.

وعندما وصلوا إلى الطريق العريضة التي سوتها مزالق الزحافات ووسمتها المشابك الحديدية التي كانت آثارها واضحة في ضوء القمر، اندفعت الخيول من تلقاء نفسها على الأثر وضاعفت سرعتها. كان الحصان الأيسر، يجذب سيور أعنته بحركات مهتزة ورأسه مائل إلى الخارج. أما حصان المقدمة، فكان يتأرجح وهو ناصب أذنيه وكأنه يتساءل: «هل حان الوقت أم لايزال في الوقت متسع»؟ وكانت زحافة زاخار السوداء المتقدمة مسافة لا بأس بها، تنساب فوق الثلج الأبيض بظلها القاتم، تختلط الصيحات والضحكات وهتافات المقنعين فيها بصدى جرسها المكتوم الممعن في الابتعاد.

صاح نيكولا وهو يجذب الأعنة بإحدى يديه ويلوح بالسوط في الثانية: هيا يا فتاي!

كان يمكن تقدير سرعة الزحافة الهائلة اعتماداً على الريح التي راحت تضرب الوجوه بسوطها بعنف شديد أو توتر الجهد الواضح على خيول الجانبين التي كانت تضاعف أبداً انطلاقها. نظر نيكولا وراءه، فإذا بالفرق

الأخرى تسرع في زحافاتها وسط التهليل وقرعة الأسواط. وكان حصان الوسط، يندفع ببسالة تحت قوس العريش دون أن يفكر أبداً في إبدال سرعته ويبشر بانطلاقه إذا طلب إليه ذلك.

لحق نيكولا بالزحافة الأولى. كانوا يهبطون فوق منحدر ليبلغوا طريقاً عريضاً شُقّ وسط الحقول على طول أحد الأنهار.

تساءل نيكولا: «ولكن أين نحن؟ في «الحقول الطويلة» ولا شك... ولكن لا، إنني لا أتعرف إلى الأرض... إنها ليست «الحقول الطويلة» ولا «شاطئ داميان»... كل شيء جديد هنا، لكأنه مكان مسحور. ولكن ماذا يهم»! وراح يلكز خيوله عازماً على تخطي الزحافة الأولى.

أوقف زاخار خيوله فترة ليدير وجهه الذي بيضه الصقيع حتى حاجبيه نحو سيده الشاب، فأرخى نيكولا العنان لخيوله وعندئذ مد زاخار ذراعيه وصفق ودفع خيوله كذلك وهو يقول: انتبه يا سيدنا!

جنباً إلى جنب، طارت الزحافتان وتضاعف جري الخيول. تقدم نيكولا نحو زاخار الذي ما فتئ ماداً ذراعيه على المقودين. فرفع هذا أحدهما باتجاه سيده وصاح: كلا يا سيدنا، لن تنالني!

دفع نيكولا خيوله بأقصى سرعتها فتجاوز زحافة زاخار. وكانت الخيول تعفر وجوه المسافرين بثلج رقيق جاف بينما راحت ظلال الزحافة المنافسة تمر وسط أنغام التحدي. وكان صرير المزالق يختلط مع صيحات النساء الحادة.

للمرة الثانية، عدّل نيكولا سرعة خيوله وأدار حوله نظرة فاحصة. كان المشهد يمثل أبداً ذلك السهل السحري الذي يغطيه ضوء القمر وتلتمع فيه هنا وهناك نجوم فضية.

قال في سرّه: «إن زاخار يهيب بي أن آخذ اليسار فلماذا يا ترى؟ هل

سنذهب حتماً عند آل ميليوكوف؟ هل هنا ميليوكوف؟ الله يدري إلى أين نذهب. الله يعلم ماذا سيقع لنا. على كل حال فإن المغامرة على جانب من الفتنة والغرابة»، استدار نحو شاغلي الزحافة. قال واحد من هذه المخلوقات الغريبة المجهولة التي تعطيهم شواربهم وحواجبهم المرسومة بدقة فتنة خاصة.

انظروا إل أهدابه وشاربيه، كلّها بيضاء.

فكر نيكولا: «أعتقد أن هذا هو ناتاشا. وها هي السيدة شوص... كلا، يجوز أن لا تكون هي. وهذا الشركسي ذو الشاربين. لست أدري من يكون ولكني أحبه».

سألهن: ألا تشعرن بالبرد؟

فلم يجبنه، لكن بدأن يضحكن. ومن الزحافة التالية، صاح ديملر بشيء، شيء مضحك جداً ولا شك ولكن لم يتوصلوا إلى تبيانه. أجابت أصوات مضحكة: نعم، نعم.

صعدوا في تلك اللحظة غابة مسحورة ذات ظلال سوداء متداخلة وبريق ماسي ثم سياق درجات رخامية وسقوف فضية تؤوي منزلاً سحرياً. وسمع نباح حيوانات. فقال نيكولا لنفسه: «إذا كانت هذه هي ميليوكوف، فإن من الغرابة المتناهية حقاً أن تقودنا رحلتنا هذه التي قمنا بها إلى المجهول، إلى ميناء جيدة رغم ذلك.

وبالفعل، كانت تلك ميليوكوف. أسرع الخدم والوصيفات إلى المرقاة بوجوه مستبشرة يحملون المصابيح. وسأل صوت من أعلى المرقاة: من القادمون هنا؟

فأجابت أصوات أخرى: مقنعو الكونت، أنا أعرف الخيول.

الفصل الحادي عشر

كانت في القاعة الكبيرة مع بناتها تحاول تسليتهن بتذويب الشمع وهن يتأملن الأشكال التي تتكون منه إنها بيلاجي داينلوڤنا ميليوكوف، سيدة قوية تضع نظارتين وترتدي معطفاً رمادياً.

دخل الفرسان والأرامل المرحات والساحرات والمهرجون والدببة يسعلون ويمسحون وجوههم المغطاة بالصقيع إلى القاعة الكبيرة حيث كان المستقبلون يضيئون الشموع مسرعين. افتتح المهرج، ديملر الحفلة الراقصة مع الأرملة الطروب نيكولا. راح المقنعون بين صيحات الأولاد الفرحة يخفون وجوههم ويسلمون على سيدة البيت مبدلين أصواتهم، ثم انتظموا في القاعة.

ـ آه! من المستحيل معرفتهم... آه، هذه «الناتاشا»! من تشبه بالله؟ حقاً إنها تذكرني ببعضهم... إدوار كارليتش، كم هو جيد، ما كنت لأعرفه! إنه يرقص ببراعة!... آه يا للآلهة، شركسي! آه لكن هذه سونيا! كم ينسجم معها هذا الزي!... وهذا من هو؟... نيكيتا، فانيا، ارفعوا الطاولات... يا للترفيه الجميل الذي جئتمونا به... نحن الذين كنا على غاية من الضجر...

وقالت بعض الأصوات: آه! يه! آه!... الفارس، انظر إلى الفارس... فتى حقيقي... وقدماه!... لا أستطيع أن أرى...

اختفت ناتاشا، صفية الشابات من آل ميليوكوف، مع الفتيات في الغرف الداخلية المختلفة التي كانت تتلقفها أذرع عارية خلال الباب الموارب من

أيدي الخدم. وبعد عشر دقائق، لحق كل شباب المسكن بالمقنعين الآخرين واختلطوا بهم.

كانت بيلاجي دانيلوڤنا، التي هيأت أمكنة للضيوف وطعاماً خفيفاً للسادة وللخدم على السواء، تروح وتجيء ونظارتاها فوق أنفها، والابتسامة الرصينة على شفتيها، بين المقنعين متصفحة وجوههم دون أن تميز منهم أحداً. لم تعد تعرف لا آل روستوف ولا ديملر حتى ولا بناتها أنفسهن وسط هذا الجمع من الملابس المنزلية المختلفة. بدأت تستعلم المربية وهي تنظر من تحت نظارتيها إلى واحدة من بناتها متنكرة في زي تترّية من قازان: وهذه من تكون؟ يجب أن تكون واحداً من آل روستوف. وأنت يا سيدي الفارس، إلى أي فيلق تنتمي؟

وبعد أن طرحت السؤال الأخير على ناتاشا قالت لرئيس الخدم الذي كان يطوف على الضيوف حاملاً طبقاً من المربيات:

ـ قدم للتركية كعكة بالفاكهة. إن دينها لا يحرمها عليها.

ولما شاهدت الخطوات المضحكة الغريبة التي أخذ الراقصون يخطونها يساعدهم تنكرهم على سلب منهم كل ارتباك، أخفت بيلاجي دانيلوڤنا وجهها في منديلها وراحت شخصيتها الضخمة تهتز كلها بفعل ضحكة طيبة لا تخفّ حدتها. هتفت:

ـ شينيت، انظروا إلى ابنتي شينيت: تصغير ساشا على الطريقة الفرنسية.

شكلت بيلاجي دانيلوڤنا بعد الرقصات والدبكات الروسية، حلقة كبيرة قوامها الخدم وسادتهم وجاءت بخاتم وخيط وقطعة نقدية من الروبل نفسه، فبدأت الألعاب المشتركة.

خلال ساعة من الزمن، تهدلت الأزياء كلها وذابت الشوارب والحواجب المصنوعة من الفحم على الوجوه المرحة المبللة بالعرق. فاستطاعت بيلاجي

دانيلوفنا أن تتعرف أخيراً إلى الأشخاص وراحت تهلل معجبة بنجاح الأزياء التنكرية وبصورة خاصة أزياء الفتيات، وتشكر الجميع على المتعة الطيبة التي قدموها لها. دُعي السادة إلى تناول العشاء في قاعة الاستقبال بينما قُدم العشاء للخدم في القاعة الكبيرة.

وعلى مائدة العشاء، وبينما هم يتحدثون عن استطلاع البخت في الحمام قالت عانس عجوز من نديمات آل ميليوكوف:

ـ كلا، إنه مريع جداً!

استفسرت البنت البكر: ولمَ ذلك؟

آه! لن تذهبن. إن ذلك يستلزم شجاعة فائقة!...

أعلنت سونيا: أنا، سأذهب.

قالت صغرى الأخوات ميليكوف:

ـ قصي علينا ما وقع لإحدى الآنسات.

قالت العانس العجوز:

ـ حسناً إليكن ما وقع. ذات مرة، ذهبت آنسة إلى الحمام. أخذت معها ديكاً وصحفتين وكل ما يلزم. أخذت مكانها بقيت فترة طويلة مصغية تنتظر. وفجأة سمعت جلبة جلاجل وأجراس: كانت الزحافة تقترب. أرهفت أذنها: كان بعضهم قادماً. دخل بعضهم ذاك، وجهه يشبه وجوه الرجال حتماً حتى ليقال إنه ضابط، وجاء يجلس بجانبها، أمام الصفحة الثانية.

صاحت ناتاشا وهي تدير عينين مذعورتين: أوه! أوه...

ـ وبعدئذ بدأ يتحدث؟

ـ بالطبع، كالإنسان العادي تماماً... وعندئذ بدأ يتوسل إليها... كان عليها أن تستمر في الحديث معه حتى صياح الديك. لكن الخوف سيطر

عليها، فأخفت وجهها بين يديها. وعندئذ أمسك بها الآخر... ولحسن الحظ، أسرعت بعض الوصيفات إليها في تلك اللحظة.

تدخلت بيلاجي دانيلوڤنا: يا لها من فكرة لإخافتهن.

قالت إحدى بناتها: ولكن يا أماه، ألم تستطلعي المستقبل بنفسك مرة؟

سألت سونيا: هل يستطلعون الحظ؟

ـ بدون شك. ليس عليك إلا أن تذهبي إلى هناك فوراً إذا كانت شجاعتك تساعدك. يصغي المرء: فإذا سُمع طرق مطرقة أو قرع ما فإنه فأل سيئ أما إذ نُثر القمح فهو فأل حسن. وكل شيء يقع وكأنه نبوءة.

ـ أماه قصي علينا ما وقع لك يوماً في المكدس.

قالت: أوه! تعرفن أنني نسيت كل شيء. ثم إن ما من واحدة منكن تفكر في الذهاب إلى هناك.

استأنفت سونيا: ولكن بلى يا بيلاجي دانيلوڤنا، سأذهب، إلا إذا اعترضت على ذلك.

ـ حسناً! اذهبي إن لم تكوني خائفة.

سألت سونيا: يا لويز، يا لويز إيـڤانوڤنا، هل تسمحين لي؟

وسواء لعبوا بالتخفية أو تحدثوا شأنهم في تلك الفترة، فإن نيكولا لم يبتعد عن سونيا قط، وراح ينظر إليها بعينين جديدتين. ظهرت له الفتاة أخيراً بفضل تنكرها وشاربيها الاصطناعيين، على حقيقتها. بل إن هذا ما كان يظنه على الأقل، ثم إن ناتاشا نفسها لم تكن تتذكر يوماً أنها رأت ابنة عمها على مثل هذا الجمال والوداعة، يملأها الفرح.

فكر وهو يراقب عيني سونيا البراقتين وابتسامتها المتحمسة التي كانت تحفر غمازتين تحت شاربها المستعار، وهو الأمر الذي لم يره من قبل: «هذه هي إذن حقيقتها! كم كنت غبياً إذ لم ألاحظ هذا من قبل»!

قالت وهي تقف: لا أخاف شيئاً. سأذهب فوراً إذا أردت.

شرحوا لها أين يوجد المكدس: كان عليها أن تبقى صامتة وأن تصيخ السمع. قدموا لها فروة وضعتها على رأسها وهي تصوب نظرة نحو نيكولا.

فكر هذا: «يا لها من طفلة رائعة! بأي شيء كنت أفكر حتى الآن»؟

لم تكد سونيا تدخل الممشى حتى اختفى نيكولا عن طريق الباب الكبير بحجة أن الطقس شديد الحرارة. والحقيقة أن الجماعة المحتشدة في الغرف، جعلت جوّها خانقاً.

وفي الخارج، بقيت تلك الإشراقة المتجمدة على حالها وذلك القمر المنير بدا أكثر ضياء؟ كان الضياء قوياً وتلألؤ الثلج من الشدة بحيث لا يشعر المرء برغبة في النظر إلى السماء، وتفقد النجوم لمعانها. كانت السماء قاتمة بينما الأرض، على العكس، كلها بهجة.

استمر نيكولا يفكر: «يا للأحمق الذي كنته إذ انتظرت حتى الآن». ونزل درجة المرقاة ودار حول البيت من الممشى الذي يؤدي إلى مدخل الخدم كان يعرف أن سونيا ستمر من هناك. وفي منتصف الطريق، كانت أنضاد من الخشب المكسو بالثلج تشكل ظلالاً تنضم إليها ظلال أشجار الزيزفون العارية، وحواجز المكدس المصنوعة من هياكل الخشب وسقفه الأبيض من الثلج الذي يجعل الناظر إليه يظن أنه منحوت في حجر كريم، يلتمع في ضوء القمر. فوقع غصن في الحديقة ثم ساد السكون، حتى كأن المرء لا يستنشق الهواء الطلق نفسه، بل قوة فتية ما أبدية، والحبور نفسه.

ارتفع وقع أقدام على مرقاة الخدم، فكان لها وقع أشد على الدرجات الأخيرة المغطاة بقشرة خفيفة من الثلج. وقال صوت العانس العجوز: إلى الأمام باستقامة عن طريق هذا الممشى يا آنسة. ولكن لا تلتفتي.

أجاب صوت سونيا التي بدأت خطواتها تصر فوق الطريق الذي وقف عليه نيكولا بانتظارها، وقدماها في حذاءين دقيقين: لست خائفة.

بدأت تتقدم متدثرة بالفروة. لم تكن على أكثر من خطوتين منه، عندما رأته. رأته هي الأخرى بعينين تختلفان عن ذي قبل. لم يعد وهو في ثوبه النسوي وشعره الأشعث وابتسامة شفتيه، ذلك الرجل الذي كانت سونيا تخشاه دائماً. أسرعت نحوه.

فكر نيكولا في سرّه وهو يتفحص وجه الفتاة التي كان ضياء القمر يغمره: «إنها مختلفة تماماً مع ذلك لم تتبدل». أدخل يديه تحت الفروة التي تتدثر بها فطوقها وجذبها إليه ثم قبل شفتيها حيث كان الشارب الاصطناعي مرسوماً تنبعث منه رائحة الفحم المحروق. قبلته سونيا هي الأخرى ملء شفتيه ثم مررت يديها وأمسكت بوجهه من الصدغين.

ـ سونيا!... نيكولا... ولم يزيدا. ركضا إلى المكدس ثم عادا بعد ذلك إلى المنزل كلّ من مرقاة مختلفة.

الفصل الثاني عشر

سوّت ناتاشا أمرها عندما غادروا منزل ميلاجي دانيلوڤنا، ناتاشا التي ترى كل شيء، حيث ركبت لويز إيڤانوڤنا برفقتها في زحافة ديملر بينما بقيت سونيا وحدها مع الخادمات في زحافة نيكولا.

على طريق العودة قاد نيكولا زحافته بسرعة عادية دون أن يتجاوز أحداً. كان ينظر إلى ابنة عمه تحت ضوء القمر الغريب محاولاً أن يكتشف في ذلك الضوء، سونيا الأمس وسونيا اليوم التي اعتزم نهائياً أن لا يفترق عنها أبداً. كان ينظر إليها، فإذا ما عرفها، كما هي دائماً ومختلفة مع ذلك، وتذكر طعم الفحم المحترق على شفتيها المختلط بإحساس القبلة، ثم ألقى نظرة إلى المنظر المحيط به، أحسّ مجدداً أنه في مملكة مسحورة. راح يسألها من حين إلى آخر ويخاطبها بصيغة المفرد:

ـ سونيا، هل «أنت» على ما يرام؟

فتجيبه بالمثل: نعم، و«أنت»؟

وفي منتصف الطريق، أعطى نيكولا المقود إلى الحوذي ونزل من زحافته وذهب نحو زحافة ناتاشا واعتلى طرف المزلقين. قال لها بالفرنسية وبصوت خفيض:

ـ ناتاشا، أتعرفين، لقد اتخذت قراراً بصدد سونيا.

سألت ناتاشا وقد أشرق وجهها سروراً: هل كلمتها؟

ـ كم أنت مضحكة بهذين الشاربين وهذين الحاجبين!... هل أنت مسرورة؟

ـ نعم، مسرورة جداً. أتدري أنني كنت خائفة عليك؟ لم أكن أحدثك بالأمر ولكنك كنت تتصرف حيالها تصرفاً سيئاً. إن لها قلباً طيباً يا نيكولا. كم أنا مسرورة! إنني خبيثة أحياناً. لكنني كنت أخجل من أن أكون سعيدة وحدي. أما الآن، ها أنا سعيدة. هيا، عد بسرعة إلى جانبها.

كرر نيكولا وهو ينظر إليها دائماً ويكتشف في ملامحها أيضاً شيئاً خارقاً للعادة فاتناً لم يلحظ مثله من قبل: لحظة...! كم أنت مضحكة! ناتاشا، إنه لون من السحر أليس كذلك؟

أجابت: نعم، ولقد أحسنت التصرف جيداً.

قال نيكولا في سرّه: «لو أنني رأيتها من قبل كما هي اليوم لسألتها النصح منذ زمن طويل وعملت كل ما تشير به عليّ ولسار كل شيء على أفضل ما يمكن».

ـ إذن، أنت مسرورة وقد أحسنت صُنعاً؟

ـ آه! نعم، كم أحسنت الصنع! لقد تحدثت أخيراً مع «ماما» حول هذا الموضوع. كانت «ماما» تزعم أن سونيا تغريك وتلاحقك. كيف يمكن أن يقال مثل هذا القول؟ كدت أتنازع مع ماما. ولن أسمح لكائن من كان أن يسيء بالقول إلى سونيا أو أن يفكر فيها بسوء لأن كل شيء كامل فيها.

سأل نيكولا مرة أخرى وهو يتفحص قسمات وجه أخته ليتأكد أنها تنطق بالصدق: إذن، لقد أحسنت صنعاً؟

ثم صفق بحذاءيه العاليين وقفز من زحافة ناتاشا ليلتحق بزحافته. وجد فيها ذلك الشركسي الباسم نفسه، ذا الشاربين، والعينين البراقتين، الذي ينظر

إليه من تحت قلنسوة السمور. وكان ذلك الشركسي هو سونيا، وسونيا تلك، ستكون ذات يوم زوجته السعيدة حتماً.

لما وصلوا إلى المنزل، قصت الفتاتان على الكونتيسة كيف أمضتا الوقت عند آل ميليوكوف، ثم انسحبتا إلى جناحهما. وبعد أن خلعتا أزياءهما وتركتا الشوارب، لبثتا فترة طويلة تتحدثان عن السعادة الزوجية المقبلة: سوف يتفاهم زوجاهما معاً تفاهماً كلياً وستكونان سعيدتين تماماً. وعلى الطاولة، كانت بعض المرايا التي هيأتها دونياشا خلال السهرة. قالت ناتاشا وهي تقترب منها:

ـ متى سيحدث كل هذا؟... لعله لن يقع أبداً، أنا شديدة الخوف من ذلك... سوف يكون منتهى الروعة!

قالت لها سونيا: اجلسي يا ناتاشا، لعلك ترينه فعلاً.

أضاءت ناتاشا الشموع وجلست. قالت وهي ترى وجهها:

ـ إنني أرى بعضهم بشاربين.

قالت دونياشا منبهة:

ـ يجب ألّا تضحكي يا آنسة.

وجدت ناتاشا بمساعدة سونيا والوصيفة، الوضعية المناسبة للمرآة الأولى، فاتخذت سحنة جدية واستغرقت في صمت حازم، بقيت فترة على تلك الحال تحدق إلى صف الشموع التي كانت تنأى متباعدة في المرايا، وتتصور، استناداً إلى الأقاصيص التي رويت لها، أنها سترى تابوتاً حيناً و«هو» الأمير أندريه حيناً آخر في المربع الأخير حيث يختلط كل شيء فيه بشكل غريب. لكنها مهما بلغ استعدادها لاعتبار أصغر بقعة فوق المرآة تابوتاً أو وجهاً بشرياً، لم تر شيئاً مطلقاً. بدأ جفناها يضطربان وقالت:

ـ كيف يحدث أن الآخرين يرون بينما أنا لا أرى شيئاً مطلقاً؟ هيا يا

سونيا، اجلسي مكاني. اليوم يومك. وإلا فلا... لكن انظري من أجلي... إنني شديدة الخوف.

جلست سونيا إلى المرآة وأخذت تحدق إليها بعد أن أعطتها الزاوية المناسبة قالت دونياشا بصوت خفيض: سترى صوفي ألكسندروڤنا حتماً شيئاً ما. وإذا كنت لا ترين شيئاً فما ذلك إلا أنك ضاحكة أبداً.

سمعت سونيا تلك الكلمات وجواب ناتاشا المدمدم.

ـ نعم، أنا أعرف تماماً أنها سترى شيئاً. لقد رأت شيئاً ما في العام الماضي أيضاً.

تابعت ناتاشا بصوت خفيض بعد دقائق من الصمت: بلا شك!

لكنها لم تجد الوقت الكافي للاسترسال لأن سونيا دفعت المرآة التي كانت تحملها فجأة وغطت عينيها بيدها. صاحت: آن! ناتاشا!

صاحت ناتاشا وهي تسند المرآة: هل رأيت؟ هل رأيت؟ ماذا رأيت؟

لم تر سونيا شيئاً، فكانت تريد أن تريح نظرها فقط. بل إنها همت بالنهوض حينما تمتمت ناتاشا بكلمتها «بلا شك»... لم تكن تريد أن تخدع لا ناتاشا ولا دونياشا وكانت تحس بالتعب لطول جلوسها. بل إنها كانت تجهل سبب صيحتها تلك وحجبها عينيها بيدها.

سألتها ناتاشا وهي تمسك بيديها.

ـ أهو «هو» الذي رأيته؟

أجابت سونيا مغامرة وهي لا تدري تماماً من كانت تعنيه ناتاشا بكلمة «هو»، أكان أندريه أم نيكولا:

ـ نعم... انتظري... إنه هو الذي رأيته.

فكرت في نفسها: «ثم، لماذا لا أقول إنني رأيت شيئاً؟ إن ذلك يحدث لكثير من الآخرين. ثم من الذي يستطيع إقناعي بغشي»؟

قالت: نعم، لقد رأيته.

ـ وكيف رأيته؟ واقفاً أم مستلقياً؟

ـ انتظري... بادئ الأمر لم يكن هناك شيء، ثم رأيته مستلقياً.

سألت ناتاشا وهي تحدق إلى ابنة عمها بعينين مذعورتين: أندريه مستلقياً؟ أهو مريض؟

أجابت سونيا التي أصبحت الآن تعتقد أنها رأت بالفعل ما تتحدث عنه:

ـ كلا، على العكس. لقد كان مسروراً جداً. وقد نظر إليّ.

ـ آه! وبعد؟

ـ وبعد، لم أميز كل شيء... كان هناك شيء أحمر وأزرق.

ـ سونيا، متى يعود؟ متى أراه مجدداً؟ يا إلهي، كم أخشى من أجل نفسي... إن كل شيء، كل شيء يخيفني...

استلقت ناتاشا على سريرها دون أن تجيب عن كلمات صديقتها المطمئنة، وظلت فترة طويلة بعد إطفاء الشموع، جامدة في مكانها، مفتوحة العينين، تتأمل ضوء القمر البارد خلال النوافذ المغطاة بالصقيع.

الفصل الثالث عشر

أعلن نيكولا لأمه حبّه لسونيا وعزمه على الزواج بها، بعد انقضاء أعياد الميلاد. استمعت إليه الكونتيسة، التي كانت تلاحظ حركاتهما منذ فترة طويلة وتتوقع تلك المسارّة، بصمت حتى أكمل حديثه ثم صرحت له بأنه يستطيع الزواج بمن يشاء، لكنها لا هي ولا زوجها، لن يؤيدا مثل هذا الزواج. ولأول مرة في حياته، رأى نيكولا أن أمه غير راضية عنه وأنه رغم كل الحب التي تكنه له، ما كانت توافق أو تلين. أرسلت تستدعي الكونت بلهجة باردة ودون أن تمنح ابنها نظرة واحدة. فلما وصل هذا الأخير، حاولت أن تفسر له الأمر باختصار متصنعة الهدوء. لكنها لم تستطع تمالك نفسها، فذرفت الدمع من الغضب وانسحبت. راح الكونت يؤنب نيكولا بلهجة مترددة ويتوسّل إليه أن يعزف عن مشروعه. فلما رفض هذا التنكر لوعده الذي قطعه، أمسك الأب عن الإلحاح، ولحق بالكونتيسة وهو يتنهّد خجلاً. بات الكونت عند أتفه نزاع يقع بينهما، يشعر بأنه جنى على ولده بتبديده ثروته. فما كان يستطيع إذن أن يحقد عليه لأنه فضل فتاة دون بائنة على وارثة غنية. كان يرى في تلك المناسبة بوضوح أكثر، أن ثروته لو لم تبذر، كان يجدر لابنه زوجة أفضل من سونيا، وأن المذنب الحقيقي بالتالي، هو نفسه وميتانكا وكيل خرجه وعاداته التي لا يرجى لها تبديل.

لا الأب ولا الأم لم يعودا، منذ ذلك اليوم، يلمحان بكلمة إلى موضوع الزواج أمام ابنهما. لكن الكونتيسة استدعت سونيا بعد بضعة أيام وراحت

تأخذ عليها بقسوة ما كانت هذه أو تلك تنتظرها، إنها أغرت ابنها وعقت بذلك محسنيها. كانت سونيا تصغي صامتة مطرقة الرأس إلى توبيخ الكونتيسة القاسي دون أن تفهم قصدها منه. كانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل المحسنين إليها، لأن فكرة التضحية كانت حاضرة أبداً في رأسها، لكنها في الوقت الحاضر، لم تكن تدري من أجل من تضحي بنفسها. كانت تحب نيكولا كذلك ولا يجهل أن سعادته تتوقف على هذا الحب. لذلك فقد حبست نفسها في صمت يائس ولقد قدر نيكولا أن الموقف لا يحتمل لذلك فقرر التفاهم مع أمه حول هذا الموضوع. توسل إليها بادئ الأمر أن تصفح عنهما، عنه وسونيا، وأن تمنحهما رضاها، ثم هددها بأنه سيتزوج سونيا فوراً وبالسر إذا حاولوا تعذيبها.

ببرودة لم يعهد مثلها من قبل أجابته الكونتيسة، بأنه بلغ رشده وأنه يستطيع كالأمير أندريه أن يتزوج دون موافقة أبيه، لكنها لن تعتبر أبداً «هذه العاقة» ابنة لها.

أغضبته كلمة «عاقة» فرفع نيكولا صوته وقال لأمه إنه ما كان ليظن إطلاقاً بأنها تحرضها على بيع نفسها، ولما كان الأمر كذلك، فإنه يخطرها لآخر مرة أنه...

غير أنه لم يجد الوقت الكافي للنطق بالكلمة الحاسمة التي كانت الأم إذا حُكم على تعبيرات وجهه، تنتظرها بهول، والتي كان يمكن أن تترك ذكرى مريعة في النفوس. ذلك أن ناتاشا ظهرت على عتبة الباب شاحبة الوجه صارمة الأسارير، وقد سمعت من مكانها كل شيء. صاحت: نيكولا، إنك تنطق بالحماقات، صه، صه! أكرر القول: صه!... ثم استرسلت بصوت أقرب إلى الصراخ لتخنق صوت أخيها:

أماه، يا أمي الحبيبة، أمي الحبيبة، إن الأمر لا يتعلق أبداً بـ...

كانت الأم تنظر برعب إلى ابنها وتشعر بقرب وقوع انفصال نهائي بينهما. لكن عنادها لم يكن يسمح لها بالاستسلام. قالت ناتاشا لأخيها: انسحب يا نيكولا، سأشرح لك كل شيء، وأنت يا أمي العزيزة أصغي إلي...

وعلى الرغم من أن كلماتها لم تكن تحمل أي معنى، فإنها مع ذلك أصابت الهدف: أخفت الكونتيسة رأسها في صدر ابنها وهي تجهش بالبكاء بينما نهض نيكولا منسحباً وهو ممسك برأسه بين يديه.

وجهت ناتاشا مشروع الصلح توجيهاً حسناً: وعدت الكونتيسة ابنها ألّا تضطهد سونيا فوعد في المقابل ألّا يفعل شيئاً في السر دون أن يطلع أبويه عليه.

التحق نيكولا، في أوائل كانون الثاني، وهو شديد الندم على النزاع الذي بينه وبين عائلته، بفيلقه وهو عازم أكيداً على أن يصفي كل مشاكله ثم يستقيل ويتزوج سونيا التي كان مدنفاً بحبها فور عودته.

إن رحيل نيكولا أغرق بيت روستوف في حزن شديد ومرضت الكونتيسة على أثر انفعالها. كانت سونيا تتألم لفراقها نيكولا وكذلك للهجة الكونتيسة الدائبة التي لم تكن هذه تستطيع كتمانها. أما الكونت فأصبح أشد قلقاً لسوء أحواله المادية التي كانت تتطلب مزيداً من التدابير الحازمة. فبيع قصر في موسكو أو الأراضي الزراعية المجاورة لهذه المدينة يقتضي السفر إلى مكان العقار نفسه. لكن صحة زوجه الرديئة كانت تلجئه إلى تأجيل السفر يوماً بعد يوم.

بدأت ناتاشا التي احتملت الأشهر الأولى لغياب خطيبها بسهولة بل بمرح، تزداد انفعالاً ساعة بعد ساعة. كانت فكرة انقضاء أجمل أيامها التي يمكنها قضاؤها في حبه بنجاح، هباء ودون جدوى. وكانت رسائل أندريه يزيد معظمها في ثورتها. كانت تحدث نفسها بمرارة بأنها في حين لا تعيش إلا في

التفكير فيه، يعيش هو، حياة كل الناس، فيرى بلداناً جديدة ويرتبط بمعارف جدد، ويتسلى بصحبتهم ومخالطتهم وكلما ازدادت رسائله في بيان اهتمامه، سببت لها غضباً زائداً. لم تكن تحب كذلك أن تكتب إلى خطيبها، لأنها لا ترى في ذلك إلا عملاً مبتذلاً: إذ كيف يمكن التعبير كتابة عما يمكن لفهمها أن يقوله بكل يسر وإجادة وأن تنبئ به ابتسامتها ونظرتها؟ لذلك فقد كانت تكتب له رسائل مملة، رسائل «كلاسيكية» لم تكن تعلق عليها شخصياً أية أهمية، تصحح أمها أخطاء الإملاء الواردة فيها على المسودة.

ورغم مضي بعض الوقت، لم تسترد الكونتيسة صحتها، بينما بات يستحيل إرجاء السفر إلى موسكو أكثر من ذلك. كان يجب تهيئة لوازم العرس، وبيع البيت. وكان يُتوقع أن يذهب الأمير أندريه إلى موسكو مباشرة، حيث يقضي أبوه العجوز الشتاء. بل إن ناتاشا كانت تعتقد جازمة بأنه وصل إلى موسكو بالفعل.

وهكذا، بقيت الكونتيسة في الريف، بينما سافر زوجها برفقة سونيا وناتاشا إلى موسكو في أواخر كانون الثاني.

الجزء الثامن

الفصل الأول

شعر بيار فجأة وبدون سبب، بعد خطبة الأمير أندريه ناتاشا، باستحالة متابعة حياته كالسابق. على الرغم من تعلقه الشديد بالحقائق التي أطلعه عليها المحسن إليه ورغم المسرات العميقة التي سببها له بحثه المحموم عن الكمال الداخلي، فإن إعلان تلك الخطبة وعلى الخصوص موت جوزيف ألكسييڤيتش الذي بلغه في الوقت نفسه تقريباً سلبا كل رونق الحياة التي كان يعيشها. لم يعد يرى فيها إلا القشور: قصره وزوجته دائمة الشهرة، المالكة لالتفاتات شخصية مرموقة، وعلاقاته في كل پيترسبورغ ثم منصبه في البلاط بكل إجراءاته المضجرة. استبد به اشمئزاز مفاجئ فتوقف عن التدوين في مذكراته وتجنب صحبة الإخوان وعاد يرتاد النادي ويفرط في الشراب ويعاشر العزاب وبالاختصار، بدأ يتصرف بشكل جعل الكونتيسة ليكلين تعتقد بضرورة توجيه لوم عنيف إليه. اعترف پيار أنها على صواب وانسحب إلى موسكو تفادياً لتعرضها للوم.

عندما وجد نفسه مجدداً في قصره الفسيح الآهل بعدد وفير من الخدم الذي تقطنه الأميرات اللواتي ازددن شبهاً بالمومياء بمرور الزمن، وعندما رأى مجدداً وهو يخترق المدينة كنيسة «عذراء إيبيريا» ذات الأضواء التي لا تحصى والشموع التي تشع أمام التماثيل المقدسة المكسوة بالألبسة المذهبة، وساحة الكرملين بثلجها الناصع، وشارع «راڤان سيڤتسوف» بعرباته وأطلاله، وعندما جدد اتصالاته بأولئك العُجّز الذين كانوا ينهون حيواتهم

الطويلة بتمهل واطمئنان، وبسيدات موسكو الطيبات، وبالحفلات الراقصة وبالنادي الإنكليزي، شعر أنه عاد أخيراً إلى قاعدته. كانت موسكو بالنسبة إليه المعطف المنزلي القديم المريح الناعم القذر بعض الشيء الذي أصبح ارتداؤه عادة مألوفة لصاحبه غالية عليه.

وابتداء بالعجائز وحتى الأطفال استقبل مجتمع موسكو پيار استقبال الضيف المنتظر منذ وقت طويل الذي لا يزال مكانه محفوظاً. كان پيار في نظرهم أحن وأكرم شخصية أصيلة وأكثرها فتنة ومرحاً، ومثالاً لشخصية الشريف الروسي عريق النسب الطيب. كان كيس نقوده خاوياً دائماً لأنه مفتوح لكل الناس.

وعندما كان الأمر يتعلق بتمثيليات ذات ريع أو بلوحات أو بتماثيل مكروهة أو بمدارس أو حفلات لجمع التبرعات أو بتبرعات للمحافل الماسونية والكنائس أو نشر مؤلفات، فإنه ما كان أبداً يجفو أحداً. ولولا ثلاثة أصدقاء كانوا يقترضون منه مبالغ كبيرة فارضين وصايتهم عليه، لوزع پيار كل شيء. ففي النادي لم تكن تقام حفلات ولا ولائم بدونه. فما إن يبتلع زجاجتين من خمرة «شاتو ماجو» حتى ينهار على كنبته المفضلة، فتعقد حوله حلقة ويشرع في القصص والمناقشات والأحاديث المسلية. وإذا ما قامت منازعة هدأها بابتسامته الطيبة أو بدعابة مستملحة. أما المحافل الماسونية فكانت تفقد كل حيوية إذا لم يكن حاضراً فيها.

وعندما كان ينصاع لإلحاح الجماعة المرحة في أعقاب عشاء خاص بالشباب فينهض بابتسامته لمرافقتهم، كانت صيحات الفرح تدوي بين الشباب. وفي الحفلات الراقصة لم يكن يرفض الرقص إذا كان هناك راقصة دون مراقص: كان يروق الفتيات والسيدات الشابات لأنه كان يظهر حيالهن

جميعاً ودوداً بشوشاً دون أن يغازل إحداهن وخصوصاً بعد العشاء. فكن يقلن عنه: «إنه فتان لا يميل إلى الجنس».

وبالاختصار كان پيار صورة حية لحجاب البلاط العاطلين الذين ينهون أيامهم بالمئات هانئين في موسكو.

عندما رجع من الخارج، كان يرتعد غضباً لو أن أحدهم قال له قبل سبع سنين، أنه لا يرى شيئاً يبحث فيه أو يتخيله وأن طريقه قد سطر منذ الأزل أنه مهما فعل سيبقى حتماً ما يمكن لغيره أن يكون عليه لو كان في مثل موقعه! لو قالوا له مثل ذلك لما صدق أذنيه! أوليس هو الذي رغب تارة من صميم قلبه أن يقيم الجمهورية في روسيا ورغب تارة أخرى أن يكون ناپليوناً أو فيلسوفاً أو المفكر المدبر الذي سيهزم الأمبراطور؟ ألم يكن هو الذي اعتقد بإمكانية تجديد الجنس البشري الفاسد وتمنى ذلك بكل شغف وعمل على اكتساب الكمال التام لنفسه؟ أليس هو الذي أنشأ المدارس والمستشفيات وأعطى الحرية لفلاحيه؟

إلى أي شيء انتهى به كل هذا؟ لقد أفضى به الأمر بكل بساطة إلى أن يكون زوجاً مؤثراً لامرأة غير مخلصة وحاجب شرف وهاو للأطعمة الفاخرة يسخر عن طيب خاطر بعد الشراب، بالدولة، وعضواً متنفذاً في النادي الإنكليزي وعضواً في المجتمع الموسكوڤي وبالاختصار، واحداً من أولئك الرجال الذين لم يكن يجد في نفسه مزيداً من الاحتقار لهم منذ سبع سنين. بقي مدة طويلة لا يستطيع استساغة هذه الفكرة. كان أحياناً يعزي نفسه بقوله إن هذا النوع من الحياة ليس إلا موقتاً. لكنه بعدئذ يفكر بارتياع في عدد الناس الذين سلكوا موقتاً هذا المسلك مثله وسقطوا في هذا النادي بكل شعورهم وأسنانهم ليخرجوا منه فيما بعد وقد فقدوا شعرهم وأسنانهم معاً.

كان يعتقد، في ساعات الكبرياء، مختلفاً كل الاختلاف عن أولئك

الحجاب الذين كان يحتقرهم في الماضي، أولئك المخلوقات الحمقى المبتذلة الراضية عن نفسها بغباوة. فيفكر: «أنا، على العكس، ما زلت غير راضٍ عن شيء، أرغب دائماً في صنع شيء ما لخير الإنسانية». لكنه في ساعات التواضع كان يقول لنفسه: «لكن من يدري؟ إنهم هم أيضاً، زملائي، قد جاهدوا مثلي بدون شك وحاولوا أن يشقوا في الحياة طريقاً خاصة بهم ثم وصلوا إلى النقطة التي وصلت إليها أنا تحت ضغط الظروف والبيئة والمنشأ، وهي تلك القوة البدائية التي لا يستطيع الإنسان لها دفعاً». وبعد زمن ما من إقامته في موسكو، أصبح يحب رفاقه في المحنة ويقدرهم ويرثي لهم دون أن يفكر إطلاقاً في احتقارهم.

صحيح أن پيار تخلص من نوبات اليأس العنيفة والسويداء واحتقار الحياة. لكن اضطرابه وبلباله المكبوتين في داخله كانا يعذبانه بشدة. كان يتساءل مرات عديدة في اليوم وهو يضطر بالرغم منه إلى تمحيص أحداث الحياة: «ما هي غاية كل هذا؟ أية إساءة تمثل على مسرح الحياة؟» ولما كان يعرف بالتجربة أن أسئلة كهذه تبقى دون جواب، فقد كان يحول فكرته فوراً سواء بأخذ كتاب أو بالنفور إلى النادي أو باللجوء إلى جو من الثرثرة عند أپولون نيكولاييـڤتش.

كان يقول في سرّه: «إن هيلين ڤاسيليڤنا التي لم تحب إلا جسدها والتي هي حمقاء تماماً، تظهر في نظر الناس على صورة معجزة الفكر وإن ناپليون بوناپرت رأى نفسه محتقراً من كل الناس، طوال الوقت الذي كان فيه رجلاً عظيماً. لكنه ما إن أصبح مشعبذاً يثير الرثاء، حتى سعى الأمبراطور فرانسوا وراء شرف منحه أخته على شكل سرية. والإسبانيون، بواسطة رجال الكهنوت الكاثوليك، يشكرون الله الذي منحهم النصر على الفرنسيين في الرابع عشر من حزيران، بينما الفرنسيون من جانبهم، يمارسون مثل هذا

العمل وبواسطة رجال الكهنوت أنفسهم، لأنهم هزموا على الدم ولأنهم على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل أخيهم الإنسان، بينما لا يدفعون روبلاً واحداً عند التبرعات. وفي المقابل يشاركون في دسائس «أستره» ضد «الباحثين عن المن» ويبذلون أقصى طاقتهم للحصول على البساط الإيكوسي الحقيقي الذي لا يعرف أحد عن معناه شيئاً حتى ولا واضعه. إننا جميعاً بنشر القانون المسيحي بالصفح عن الإساءات وحب الغير، وتنفيذاً لهذا القانون، أقمنا في موسكو وحدها أربعين كنيسة. مع ذلك، فنحن بالأمس فقط، حكمنا على جندي فار بالجلد بالسياط حتى الموت. فجاء الكاهن، وزير هذا القانون القاضي بالحب والصفح، وقدم الصليب لهذا الرجل ليقبله قبل الموت».

وكلما فكر بيار، على هذا النحو، أدهشته تلك المداهنة المقبولة من كل الناس رغم اعتيادها وكأنه يكتشفها للمرة الأولى. كان يحدث نفسه: «إنني أحس بهذا الرياء، هذه المضلة الخلقية التي نضيع فيها. ولكن كيف أفسر للآخرين كل ما أحس به؟ لقد حاولت ولاحظت دائماً أنهم في أعماق نفوسهم يشاركونني في الرأي. لكنهم يرفضون رؤية هذه الأكذوبة. لا شك أنه يجب أن يكون الأمر كذلك؟ ولكن أين أجد أنا لنفسي ملجأ؟».

وكما هي العادة عند كثير من الناس، وبصورة خاصة الروس، كان يمتاز بالإيمان بالحق والخير. لكنه في الوقت نفسه، يمتاز كذلك بنفاذ البصيرة لرؤية الشر والكذب منتشرين حوله. وهذه المزية كانت تحول دونه والاندفاع جدياً في معترك الحياة. كان كل لون من ألوان النشاط ملطخاً في نظره بالشر والكذب. وأي عمل بدأ به، لا يلبث الشر والكذب أن يرداه عن إتمامه، وهكذا كانت كل الطرق مغلقة أمامه على هذا النحو. مع ذلك، كان يجب أن يعيش عيشاً طيباً وأن يشغل نفسه في شيء. لقد كانت تلك الأسئلة متعذرة الحل شديدة التضييق على نفسه حتى أنه عاد إلى مزاولة أعماله السابقة لا لشيء

إلا لنسيانها. أخذ يرتاد المحافل العائدية والأندية ويشرب بكثرة ويجمع اللوحات وينصرف إلى القراءة غالباً.

كان يقرأ كل ما يقع تحت يده. فإذا عاد إلى منزله، لا يكاد خادمه يفرغ من نزع ثيابه حتى تكون يده قد تناولت كتاباً. ومن القراءة ينتقل إلى النوم ومن النوم إلى هذر الصالونات والأندية ومن الثرثرات إلى الإفراط في الأكل ومن هذا إلى الثرثرات فالقراءة فالخمر. أصبحت الخمرة ضرورة جسدية وفكرية تزداد قيمتها يوماً بعد يوم. استمر يفرط في الشراب رغم أن الأطباء نصحوا له مراراً باجتنابه لأنه خطر عليه بسبب متانة بنيانه. وما كان يشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد أن يغيب في فمه الرحيب عدة أقداح من الخمر بصورة أقرب إلى اللاشعور. وحينئذ يشعر بدفء لذيذ يعم كل جسمه وبشعور من الحنان تجاه أمثاله من بني الإنسان واستعداد للمس كل المسائل دون أن يتعمق في واحدة منها. وعندما يشرب زجاجة أو زجاجتين، يرى بإبهام أن تلك العقدة شديدة التعقيد التي هي الحياة، التي تملأه رعباً عادة ليست من الهول بالقدر الذي يتصوره. لأن تلك العقدة الرهيبة كانت تراود أفكاره أثناء الثرثرة كما تراودها خلال القراءة بعد الأكل، وتدوي في رأسه باستمرار. فما كان غير تأثير الخمرة يجعله يقول لنفسه: «إنه تافه، سأتدبره. بل إن عندي تفسيراً قائماً، لكن اللحظة غير مناسبة، سأفكر في الأمر فيما بعد». لكن «فيما بعد» هذه، ما كانت تصل إطلاقاً.

بعد أن تتبدد أبخرة الخمرة، في اليوم التالي، تعود الأسئلة إلى ذاكرته مجدداً أشد ما تكون تعقيداً واستحالة على الحل، مرعبة كعادتها. فيبادر فوراً إلى أخذ كتاب ويظهر غبطة كبيرة إذا تلقى زيارة بعضهم.

في بعض الأحيان، يخطر بباله أنه سمع بعضهم يقول إن الجنود في الخطوط الأمامية تحت النار يدأبون في إيجاد مشاغل لهم ليتسنى لهم نسيان

الخطر بسهولة. ويخيل إليه حينئذ أن كل الناس يتصرفون مثل أولئك الجنود: إنهم ينجون من الحياة بانصرافهم إلى حب الرفعة أو المقامرة أو النساء أو التسلية أو الخيول أو الصيد أو الخمرة، هؤلاء بوضع القوانين وهؤلاء بالاهتمام بالشؤون العامة. فيفكر: «وفي النتيجة، لا شيء يهمل ولا شيء يستحق الاهتمام كذلك وكل شيء تافه، لو أنني استطعت فقط أن أنأى عن كذب الحياة وأتجنب هذه الرؤية القبيحة!».

الفصل الثاني

جاء الأمير نيكولا أندرييڤيتش پولكونسكي في بداية الشتاء يصطحب ابنته ليقيم في موسكو. ولم يلبث بالنظر إلى محتده وماضيه وبصورة خاصة بفضل هبوط الحماسة التي سبّبها وصول ألكسندر والشعور العدائي للفرنسيين الذي كان سائداً في المدينة حينذاك، أن أصبح موضع احترام خاص من قبل الموسكوڤيين ومركز المعارضة ضد الدولة.

شاخ الأمير في تلك السنة. فالغفوات المفاجئة ونسيان حوادث حديثة العهد مع تذكر وقائع عريقة في القدم والزهو الصبياني حقاً الذي تقبله دور رئيس المعارضة الموسكوڤية، كانت كلها دلائل واضحة على الشيخوخة. مع ذلك فقد كان العجوز إذا ما ظهر مساء، وبصورة خاصة في موعد الشاي، واضعاً فروته وشعره المستعار المذرور، وأثير من قبل أحدهم فإنه كان يتحدث بصوته المرتفع عن وقائع العصر الفائت ويخلص منها إلى الحكم على العهد أحكاماً أشد حزماً، الأمر الذي كان يوحي إلى كل المدعوين بشعور مماثل من الاحترام. وهذا النزل القديم بمراياه الهائلة وأثاثه الذي يعود إلى ما قبل «الثورة» وخدمة ذوي الشعر المستعار، وهذا الشيخ من القرن الماضي الخشن ولكن محتدم الفكر الذي تمالقه ابنته الوادعة و«فرنسيته» الجميلة، كل هذا كان يتيح للزائرين مشهداً جذاباً. لكن الزائرين لم يفكروا قط في أن هناك اثنتين وعشرين ساعة من الحياة الخاصة فضلاً عن الساعتين اللتين يقضونهما في المنزل.

أصبحت تلك الحياة الخاصة في الآونة الأخيرة شديدة النصب على الأميرة ماري. ففي موسكو، لم تكن في الحقيقة تنعم بالامتيازات الكثيرة والمسرات التي تتيحها المدينة الكبيرة بعد أن حُرمت من أفضل مباهجها التي تقوم على علاقاتها مع «رجال الله» وجمع حواسها في الوحدة وهي المتع التي كانت تزكي شجاعتها في ليسيياغوري. لم تكن تختلط قط بالمجتمع: كانوا يعرفون أن أباها لا يسمح لها بالخروج وحيدة وأنه بسبب سوء حالته الصحية لا يستطيع أن يرافقها، لذلك كفوا عن دعوتها. وقد اضطرت إلى العزوف عن كل أمل في الزواج، بعد أن لاحظت البرودة والعبوس اللذين كان أبوها يستقبل ويصرف بهما الشبان الذين يتوقع أن يطلبوا يدها والذين كانوا أحياناً يغامرون بدخول المنزل. كذلك لم يعد لها صديقات لأن موسكو نزعت منها ما كانت تتوهمه بصدد شخصين كانت تعتبرهما حتى ذلك الحين مثالاً للصداقة.

فالآنسة بوريين التي لم تكن ماري تثق بها كثيراً على أية حال، أصبحت الآن تثير نفورها، فراحت لأسباب خاصة تبعدها أكثر فأكثر. وجولي التي كانت تسكن في موسكو والتي ظلت تتراسل معها طوال خمسة أعوام، أصبحت الآن غريبة عنها تماماً إن تقابلتا كلتاهما مقابلة مباشرة. لأن جولي التي جعلها موت إخوتها تصبح من أغنى وارثات موسكو، استسلمت بكليتها لإعصار المناهج العصرية. كانت محاطة دائماً بزمرة من الشبان الذين فتحوا عيونهم فجأة على مختلف مواهبها كما كانت تعتقد. لقد كانت في تلك السن التي تشعر الأوانس الناضجات فيها أن الوقت قد حان ليجربن آخر سهم في جعبتهن، وأن مصيرهن يجب أن يُقرر الآن أو تفوت الفرصة إلى الأبد. وفي كل يوم خميس من الأسبوع، كانت الأميرة ماري تتذكر بابتسامة كئيبة أنه لم يعد إليها الآن من تكتب إليه لأن جولي، هذه التي أصبح وجودها لا يسبب

لها أي فرح، كانت هنا، وأنهما تلتقيان كل أسبوع. كذلك المهاجر العجوز الذي رفض الزواج بالسيدة التي أمضى كل أمسياته عندها طوال سنوات كاملة، لذلك أصبحت ماري الآن تأسف أن تكون جولي قريبة منها، الأمر الذي يحرمها كل تسارّ.

مع من تستطيع الآن أن تتناجى، ومن تشاطره أحزانها التي طلب إليها أن تنتهي منها لتقبل زواجه كانت أبعد من أن تنجز: لقد كان اسم الكونتيسة روستوف وحده كفيلاً بأن يخرج الأمير العجوز عن طوره وهو الذي كان على أية حال على مزاج قاتل بصورة مستمرة تقريباً.

أضف إلى ذلك أن الدروس التي كانت تعطيها لابن أخيها الذي بلغ السادسة من عمره، أصبحت هي الأخرى تسبب لها هماً جديداً. بدأت تلاحظ أنها أصبحت سريعة الغضب على غرار أبيها. وكلما كانت تمسك بالحكك والألفبائية الفرنسية لتلقين ابن أخيها الدرس، كانت تقسم في سرها على ألّا تنفعل، وخصوصاً أن الطفل كان يخاف سلفاً أن يغضب عمته. لكنها في تعجلها في تعليم نيكولا وتلقينه كل ما تعرفه هي نفسها، كانت تثور لأتفه خطأ من الطفل فتفقد الصبر وترفع صوتها، وأحياناً تجذبه من ذراعه وتضعه في الزاوية لكنها ما إن تنفذ تلك العقوبة حتى تغرق في دموعها حزينة على خبثها. وحينئذ ينشج نيكولا بدوره لمجرد المحاكاة ويترك الزاوية دون إذن ويأتي إلى جوار عمته فيزيح عن وجهها يديها المبللتين بالدموع ويعزيها.

أخيراً، وهنا أشد أحزانها، كان الأمير العجوز يصب عليها جام غضبه دائماً. أصبحت قسوته المألوفة نوعاً من الوحشية. فلو أنه أجبرها على الركوع كل الليل أمام الصور المقدسة وأن تنقل الخشب والماء، فإنها لم تكن تجد ذلك عسيراً عليها. لكن ذلك الجلاد المحب، أشد الجلادين قسوة لأنه يحبها ويؤلم نفسه بالمثل في تعذيبها، لم يكن يكتفي بإغاظتها وإذلالها، بل راح

يقنعها بأنها مخطئة دائماً وفي كل شيء. ومنذ وقت ما، أخذ حادث جديد، وهو اهتمام أبيها المتزايد بالآنسة بوريين، يزيد في عذاب ماري وإيلامها. أعلن الأمير مازحاً بعد أن اطلع على نيات ولده، أنه سيتزوج بالآنسة بوريين، فأصبح الآن يتلذذ بذلك الاحتداد لمجرد إزعاج ماري وتجريحها، أو أن هذا أقله ما كانت تظنه وهي تراه يظهر نحوها مزيداً من الانفعال لقاء المزيد من التودد الظريف إلى الفرنسية.

وذات يوم في موسكو، وبحضور ماري التي فهمت أن أباها إنما يتعمد ما فعل، قبَّل الأمير العجوز يد الآنسة بوريين وجذبها إليه ثم طوقها وراح يمطرها بقبله. احمرّ وجه ماري وهربت إلى غرفتها. وبعد برهة وجيزة، جاءت الآنسة بوريين إليها باسمة الوجه واعتقدت أنها ستثيرها بثرثرتها. لكن ماري سارعت تمسح دموعها ومشت إليها بخطى حازمة ودون أن تدرك ما تصنع، صاحت في وجهها وهي ترتجف من الغضب: «إنها بشاعة، صاحت في وجهها إنها دناءة، إنها مخزية أن ينتهز ضعف...» لكنها لم تكمل جملتها بل صاحت آمرة خلال دموعها: «أخرجي من هنا، أخرجي!...».

وغداة اليوم التالي، لم يحدثها الأمير بكلمة. لكنها لاحظت أنه أعطى الأمر على المائدة بأن تقدم الأطعمة إلى الآنسة بوريين قبل غيرها. وعند انتهاء الطعام، سكب خادم المائدة القهوة بادئاً بسيدته الشابة تماشياً مع مألوف عادته. وعندئذ دخل الأمير غاضباً وألقى بعكازه على رأس فيليب وأعطى فوراً أمراً بإدخاله في الجندية. صاح وهو في موجة من الغضب:

ـ ألم تسمع؟... لقد قلت ذلك مرتين!... آه! إنك لم تسمع؟... الآنسة هنا تأتي في المقام الأول. إنها أفضل صديقة لي.

وأضاف يخاطب ابنته التي وجه إليها الحديث لأول مرة منذ الأمس: أما أنت، إذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تفقدي اتزانك أمامها، سأريك من

هو السيد هنا. أخرجي من هنا، واعملي على أن لا أراك بعد الآن. واسأليها الصفح!

اعتذرت ماري من الآنسة بوريين ولأبيها ثم حصلت منه على صفحه عن الخادم فيليب الذي توسل إليها أن تتوسط من أجله.

ففي حالات كهذه، كانت ماري تشعر بإحساس يعتلج في نفسها يمكن تسميته بكبرياء التضحية... ذلك الأب الذي سمحت لنفسها بذمه، كان يفتش الآن عن نظارتيه مستعيناً باللمس دون أن يراهما إلى جانبه وينسى ما وقع منذ فترة قصيرة، ويخطو خطوة متعثرة ثم يستفسر بنظرة قلقة عما إذا كانوا قد لاحظوا بوادر ضعفه. بل أكثر من ذلك، وهو الأشد سوءاً، لقد كان يغفو فجأة على الطاولة عندما لا يكون هناك مدعوون يثيرون، أو يسقط منشفته ويحني فوق الطاولة رأسه المرتجة... وعندئذ تقول ماري: «إنه عجوز وضعيف، مع ذلك أجد القحة لذمّه» فتروعها هذه الفكرة وتخيفها.

الفصل الثالث

كان الطبيب العصري في موسكو فرنسياً يدعى الدكتور ميتيـڤيه، في سنة ١٨١٠ . كان ذا قامة ضخمة ودوداً مثل كل مواطنيه وبارعاً إذا آمن المرء بأقوال الناس، يستقبل من قبل العظماء وفي المجتمع الراقي استقبال الند أكثر مما يحتفون به كطبيب.

وافق الأمير نيكولا ييـڤيتش الذي كان يسخر من الطب بناء على توصيات الآنسة بوريين، على أن ينهل من معلومات هذا الإنسان فألفه لدرجة أنه بات يستقبله مرتين كل أسبوع.

جاءت موسكو بأسرها، في عيد القديس نيكولا، إلى باب الأمير لزيارته لكنه لم يكن يريد استقبال أحد باستثناء بعض المخلصين الذين أعطى ابنته قائمة بأسمائهم مع أمر يقضي بأن تستبقيهم لتناول الطعام.

أعتقد ميتيـڤيه الذي جاء في الصباح يقدم تهانيه، أن من المناسب أن «يخرق الأمر» بوصفه طبيباً كما قال للأميرة ماري. وكأنه كان أمراً متعمداً، كان الأمير في أسوأ أيامه، همّه أن يذهب ويجيء في النزل، موبخاً كل الأشخاص، متصنعاً عدم فهم ما يقال له وعدم فهم الآخرين ما يقول. وكانت ماري أعلم الناس بذلك المزاج المشاكس الذي ينتهي عادة بانفجار غاضب. لذلك شعرت طوال ذلك الصباح وكأنها أمام بندقية محشوة جاهزة الزناد، تنتظر الضربة التي لا بدّ منها. مع ذلك فإن أي انفجار لم يحدث قبل وصول

الطبيب. وبعد أن أدخلته، ذهبت تجلس في القاعة الكبيرة قرب الباب حاملة كتاباً، تستطيع من مكانها أن تسمع كل ما يحدث في المكتب.

بادئ الأمر، لم تسمع إلا صوت ميتيـڤيه ثم صوت أبيها ثم الصوتين يتكلمان معاً. وعندئذ فتح الباب على مصراعيه وظهر جسم الطبيب الضخم بناصيته السوداء مروع الأسارير ثم الأمير وعلى رأسه قلنسوة من القطن مرتدياً ثوباً منزلياً وقد بدّل الغضب وجهه وجحظت عيناه. كان يزمجر: ألا تفهم؟ لكنني أنا أفهم جيداً. جاسوس فرنسي، خادم بوناپرت!... أخرج من هنا يا جاسوس، أخرج من هنا أقول لك!...

ثم صفق الباب وراءه.

هزّ ميتيـڤيه كتفيه واقترب من الآنسة بوريين التي استنفرتها الصيحات وأتت بها إلى هناك من الغرفة المجاورة. قال لها وهو يشير إليها أن تصمت:

ـ إن الأمير في حالة غير جيدة. «إنها الصفراء والانتقال إلى المخ. هدئي روعك».

ثم خرج مسرعاً.

وفي تلك الأثناء، كانت تسمع من وراء الباب وقع خطوات في خفين مصحوبة بصيحات: «جواسيس! خونة! خونة! خونة في كل مكان! لا وسيلة لهدوء المرء في منزله!».

استدعى الأمير ابنته بعد ذهاب ميتيـڤيه وصب جام غضبه عليها. أخذ عليها سماحها لجاسوس بالدخول عليه. مع ذلك فقد أوعز إليها، إليها شخصياً، بأن تغلق الباب في وجه كل من لم يسجل اسمه في القائمة. لمَ إذن أدخلت ذلك الحقير؟ لقد كانت هي سبب كل شيء. لم يكن يستطيع إيجاد لحظة راحة معها، لم يكن يستطيع أن يموت بهدوء.

ـ نعم يا عزيزتي، يجب أن نفترق، اعلمي ذلك، نعم، اعلمي ذلك. إنني في أقصى درجات التعب.

وبدون شك خشي ألّا تعتبر الأمر جدياً، فعاد أدراجه وأضاف وهو يجهد في تمالك هدوئه: لا تظني أنني أقول لك هذا في لحظة غضب، إنني هادئ تماماً. لقد فكرت طويلاً واتخذت قراري: لنفترق. ابحثي لك عن مأوى!

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فرفع قبضتيه باتجاه ابنته بحركة غاضبة قد لا تتوافر إلا لدى الرجل الذي يحب في أعماق نفسه وصاح وهو نفسه فريسة ألم عميق: لو أن بعض الحمقى يتزوجها فيريحني منها!

ثم صفق الباب واختلى بالآنسة بوريين في مكتبه حيث عاد تدريجاً إلى هدوئه.

وفي الساعة الثانية، وصل الأشخاص الذين دعاهم إلى مائدته وهم ستة.

كانوا الكونت روستوبتشين الشهير والأمير لوبوخين وابن أخيه الجنرال تشاتروف وهو صديق سلاح قديم للأمير، وبيار بيزوخوف وبوريس درويبتسكوي ممثلين عن الشباب. وكانوا جميعاً ينتظرونه في قاعة الاستقبال.

خلال عطلته في موسكو كان بوريس قد نجح في تقديم نفسه للأمير نيكولا أندرييـڤيتش وحصل على رضاه بحذاقة حتى إن هذا استثناه فدعاه خلافاً لعادته بإبعاد الشباب غير المتزوجين.

لم يكن بيت الأمير يدخل في عداد ما يسمونه «بالمجتمع العصري» تماماً، إذ لم يكن أحد يتحدث عن هذه الدائرة الصغيرة. مع ذلك فإن ما من شيء كان أكثر فتنة من أن يقبل المرء فيه. وقد أدرك بوريس هذه الحقيقة عندما سمع الكونت روستوبتشين منذ ثمانية أيام مضت يرفض دعوة الجنرال، الحاكم، بمناسبة عيد القديس نيكولا بالعبارة التالية:

ـ إنني في مثل هذا اليوم، أذهب دائماً لتكريم بقايا الأمير أندرييـڤيتش.
فأجابه الجنرال: آه! نعم، هذا صحيح وكيف حاله؟...

قبل الغداء، كان المدعوون المجتمعون في القاعة العليا على الطريقة القديمة، ذي الأثاث الأثري، تذكر الناظر بمقام محكمة جليلة. كان الجميع صامتين، وإذا خرق بعضهم حجاب الصمت، فكان يتحدث بصوت خافت. ظهر الأمير نيكولا أندرييـڤيتش رصيناً وبدت الأميرة ماري أكثر خجلاً وأكثر شروداً من عادتها. لم يكن المدعوون ليوجهوا إليها الحديث لأنهم كانوا يعرفون أنها ليست على مستوى ما يتحدثون به. كان الكونت روستوبتشين يمسك وحده بدفة الحديث شابكاً الثرثرات المحلية بالأخبار السياسية الأخيرة. أما لوبوخين والجنرال العجوز فكانا يدليان ببعض العبارات بين حين وآخر.

كان الأمير نيكولا أندرييـڤيتش يصغي كما يصغي الحاكم الأعلى لتقرير ما، دون أن يظهر استيعابه لما يعرض عليه إلا بصمته أو بتفوهه ببضع كلمات مختصرة. كانت لهجة المحادثة توحي بسخط وتبرم. كانوا يستشهدون ببعض الوقائع الخاصة ولا شك بتأييد النظرية القائلة إن كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ، ولكن، وهذا ما يدهش، كان المتحدث يتوقف أو يجد نفسه متوقفاً عند الحد الذي إذا تجاوزه، دخلت شخصية الأمبراطور في سياق البحث.

خلال الطعام، دار الحديث حول الحادثة التي كانت خبراليوم، وهي احتلال ناپليون دوقية أولندنبورغ[1] الكبيرة والمذكرة العدائية للأمبراطور، التي طوفتها الحكومة الروسية في تلك المناسبة عن كل بلاطات أوروبا.

قال الكونت روستوبتشين الذي كان منذ بعض الوقت ينقل جملته تلك في كل مكان:

---

(١) مقاطعة في ألمانيا. (المترجم).

ـ إن بوناپرت يعامل أوروبا كما يعامل القرصان سفينة كسبها. إن ما يذهل هو التعامي من جانب رؤساء الدول. ها إن الباب مهدد: يزعم بوناپرت الذي لم يعد يرتبك بشيء أنه خلع رئيس الكثلكة عن كرسيه. مع ذلك، فإن كل الناس صامتون! إن الأمبراطور وحده احتج على اغتصاب دوقية أولندنبورغ الكبرى، وهذا أيضاً...

ما كان روستوبتشين ليتعمّق في الحديث أكثر من ذلك: لقد بلغ الحد الأقصى الذي لا يجوز تخطيه.

قال الأمير العجوز: لقد عرضوا على الغراندوق أملاكاً أخرى لقاء أولندنبورغ. إنه يتصرف مع الدوقيات كما أتصرف مع فلاحيّ حينما أنقلهم من ليسيياغوري إلى بورتشارڤو أو إلى أملاكي في ريازان.

سمح بوريس لنفسه أن يقول بالفرنسية بلهجة لائقة: إن الدوق أولندنبورغ يحتمل مصابه بقوة شخصية تستحق الإعجاب.

وفي الواقع فقد تشرف بتقديمه إلى الدوق خلال سفره من پيترسبورغ إلى موسكو. نظر إليه نيكولا أندرييـڤيتش وكأنه يريد الإجابة عنه. لكنه أمسك وقد قدر أنه لا يزال يافعاً.

قال روستوبتشين بلهجة منطلقة شأن الرجل الذي يلمّ تماماً بالمسألة التي يتحدث عنها:

ـ لقد قرأت اعتراضنا بصدد هذه القضية. وإنني أرثي للترجمة الهزيلة التي سطرت بها المذكرة.

دقق پيار النظر فيه بدهشة: بأي شيء يمكن أن تقلق الترجمة الهزيلة الكونت نفسه؟ قال: ما أهمية الأسلوب يا كونت إذا كان الإحساس حازماً؟

فقال روستوبتشين بالفرنسية:

ـ يا عزيزي، من السهل أن يكون لنا أسلوب جميل بالخمسمائة ألف رجل الذين يشكلون جيشنا.

وحينئذ فقط عرف پيار لماذا كانت تلك الترجمة تثقل على الكونت. قال الأمير العجوز: يخيل إليّ مع ذلك أنّ الكتبة متوافرون. إنهم لا يعلمون شيئاً في پيترسبورغ أكثر من الكتابة. ليس كتابة المذكرات فحسب، بل المجلدات وكذلك والقوانين الجديدة. إن «أندريوشاي»، المقصود ابنه أندريه، جعل منها مجلداً كاملاً.

وكرر وهو يضحك:

ـ نعم، لا هم لهم الآن إلا الكتابة.

أعقب ذلك فترات سكوت ثم اجتذب الجنرال العجوز الأنظار إليه بسعال خفيف:

هل اطلعتم على الحادث الأخير الذي وقع في پيترسبورغ خلال الاستعراض الأخير؟ لقد أظهر سفير فرنسا الجديد نفسه على شكل رائع!...

ـ موضوع المسألة على الضبط؟ لقد حدثوني عنها بإبهام... يقال إنه ارتكب هفوة في حضرة جلالته...

ـ بينما كان جلالته يلفت انتباهه إلى فيلق قاذفي القنابل الذي كان يمر في العرض بخطوات الاحتفالات، بقي السفير على ما يبدو جامداً تجاه هذا المشهد. بل سمح لنفسه بأن يقول إنهم في فرنسا، لا يهتمون بهذه التفاهات. فلم يعلّق الأمبراطور بشيء. لكنه في الاستعراض التالي، أمسك عن توجيه الحديث إليه.

وساد السكون: بما أن الأمر يتعلق بالأمبراطور، فإنه لم يكن ممكناً أن يعلق أحد بحكم عليه. وأخيراً ثار الأمير العجوز:

ـ إنهم وقحون! هل تعرفون ميتيـڤيه؟ لقد طردته من منزلي هذا الصباح...

ثم أضاف وهو يلقي نظرة غاضبة إلى ابنته:

ـ لقد سمحوا له بالدخول رغم أنني أعطيت الأمر بألّا يستقبل أحد.

روى كل ما دار بينه وبين ميتيـڤيه وبيّن الأسباب التي من أجلها يرى فيه أنه جاسوس. وعلى الرغم من أن حججه لم تكن مقنعة، فما من أحد أبدى اعتراضاً.

بعد الشواء قدمت الشامبانيا وقام المدعوون لتهنئة الأمير، فاقتربت ماري كذلك. ألقى عليها الأمير نظرة باردة ومدّ لها خده المغضن الحليق. كانت أساريره تنطق بأنه لم ينسَ محاورتهما الصباحية وأن قراره ما زال لا يقبل الإلغاء، لكنه إذا كان لم يتحدث في الموضوع، فما ذلك إلا مجاملة في حضرة ضيوفه.

وعندما انتقل المدعوون إلى القاعة الكبيرة لتناول القهوة، عقد العُجّز حلقة. احتد الأمير فيها قليلاً واندفع في ملاحظاته عن الحرب المتوقعة.

كانت حملاتنا ضد بوناپرت لا يمكن إلا أن تكون فاشلة طالما كنا نبحث عن الاتحاد مع الخارج ونشرك أنفسنا في مشاكل أوروبا، وهي السياسة التي جرت علينا معاهدة الصلح في تيلسيت. لم يكن علينا أن نحارب لا مع النمسا ولا ضدها. لقد كانت مصالحنا كلها مركزة في الشرق. وإن موقفنا الوحيد المحتمل حيال بوناپرت، كان في تسليح حدودنا ودعمها وإظهار حزمنا: بهذه الطريقة، ما كان ليجرؤ أبداً على الدخول إلى أراضينا كما سمح لنفسه بذلك عام ١٨٠٧

حينئذ قال الكونت روستوبتشين: وكيف يا أميري نحارب الفرنسيين؟ هل نستطيع أن نثور على أسيادنا وآلهتنا؟ انظر إلى شبيبتنا. أنظر إلى نسائنا. إن آلهتنا هم الفرنسيون وجنتنا هي باريس.

رفع صوته قاصداً ولا شك أن يبلغ قوله كل المسامع:

الأزياء فرنسية والأفكار فرنسية والعواطف فرنسية، كل شيء فرنسي! لقد طردت منذ حين ميتيـڤيه لأنه فرنسي ولأنه حقير. لكن سيداتنا يفكرون على غير هذا النحو؟ إنهن يتهافتن على ركبتيه. كنت البارحة في سهرة، وكانت ثلاث سيدات من السيدات الخمس الموجودات في السهرة كاثوليكيات يطرزن في يوم الأحد بإذن خاص من البابا. أضف إلى ذلك أنهن عاريات تماماً تقريباً ويصلحن ـ حاشا احترامكم ـ إعلاناً لحماقات عامة. يا أميري، إنني عندما أرى شبيبتنا، تستبد بي رغبة في انتزاع هراوة بطرس الأكبر من المتحف وتحطيم أضلاعهم جميعاً بها على الطريقة الروسية القديمة. فذلك سيشفيهم من جنونهم.

لم يجبه أحد. نظر الأمير إلى روستوبتشين مبتسماً يؤيده بهز رأسه.

تابع روستوبتشين وهو يقف ويمد يده إلى العجوز بخشونة طبائعه المعروفة التي كان يمتاز بها:

ـ هيا، وداعاً يا أميري. انتبه على صحتك.

فقال الأمير وهو يستبقي يد روستوبتشين بين يديه:

ـ الوداع يا عزيزي الأعز. إنني لا أتعب من سماع أغنياتك.

ثم مد له خده ليقبله.

وحذا كل المدعوين حذو روستوبتشين فانصرفوا جميعاً.

الفصل الرابع

ثمة شيء واحد يشغل بال ماري فأصاخت السمع إلى أحاديث الكهول دون أن تفهم كلمة واحدة، ذاك أن المدعوين لم يلاحظوا الموجدة التي يظهرها أبوها تجاهها. بل إنها لم تنتبه قط إلى العناية التي أحاطها درويتسكوي بها خلال فترة الطعام وهو الذي يزورهم للمرة الثالثة.

نظرت إلى پيار نظرة استفهام، وكان يحمل قبعته في يده والابتسامة على شفتيه. اقترب منها بعد أن انسحب الأمير وبقيا وحيدين في القاعة وقال وهو يُلقي بكل ثقله على كنبة هناك:

ـ هل يستطاع البقاء فترة أخرى؟

أجابت: بلى. بينما كانت نظرتها تقول: «ألم تلاحظ شيئاً؟».

وكعادته بعد كل طعام جيد، أحس پيار أن مزاجه جيد جداً. فراح يبتسم وهو شارد النظر ثم سأل: هل مضى على معرفتك لهذا الشاب وقت طويل يا أميرة؟

ـ أي شاب؟

ـ درويتسكوي.

ـ لا، إنني أعرفه منذ حين.

ـ وهل يروقك؟

أجابت وبالها مشغول دائماً بالحوار الذي دار بينها وبين أبيها صباح ذلك اليوم: نعم، إنه فتى جذاب... ولكن لمَ هذا السؤال؟

ـ لأنني لاحظت شيئاً: لقد جرت العادة على أن الفتى إذا جاء في عطلة من بيترسبورغ إلى موسكو، فما ذلك إلا من أجل الزواج بوارثة غنية.

ـ حقاً؟

استرسل بيار مبتسماً:

ـ نعم. وهذا الفتى لا يذهب إلا إلى الأمكنة التي يتوقع أن يجد فيها فتيات من هذا النوع. إنني أقرأ أفكاره كما أقرأ في كتاب. إنه الآن لا يعرف بمن يبدأ هجومه. متردد بينك وبين الآنسة جولي كاراغين. إنه ملحّ على زيارتها.

ـ هل يرتاد هذا البيت؟

فقال أندريه بوداعة مستسلماً لطبعه الساخر الذي يأخذه على نفسه في أكثر الأحيان في مذكراته: لكن بلى. وهل تعرفين الطريقة الجديدة المتبعة في مغازلة الفتيات؟

قالت ماري: كلا.

ـ لكي يروق المرء في عيون فتيات موسكو، يجب أن يكون الآن سوداوياً وهو سوداوي مع الآنسة كاراغين.

قالت ماري:

ـ حقاً؟

تأملت وجه بيار الطيب وهي مستغرقة في حزنها. فكرت: «إنني بالتأكيد أميل إلى أن أصارح بيار بكل شيء. سيعرف هذا القلب النبيل كيف يمدني بالنصح، نعم، إن ذلك يحسن إلي».

سأل بيار: هل تقبلين الزواج به؟

أجابت ماري بالرغم عنها، وبصوت تنديه الدموع:

ـ رباه يا كونت، هناك أوقات أراني فيها على استعداد للاقتران بأي كان.

يا له من عذاب أن تحب أحداً يمت إليك بصلة قريبة وأن تشعر... أنه لا يمكن أن تسبب له إلا الحزن.

استرسلت تقول بصوت مرتجف: كم هي تعاسة مستعصية العلاج... في مثل هذه الحالات، ليس على المرء إلا أن يذهب. ولكن أنا، إلى أين أذهب؟

ـ ماذا تقولين هنا يا أميرة؟

انخرطت ماري في البكاء دون أن تتابع حديثها. ثم استأنفت:

ـ لست أدري ما بي اليوم. لا تلق بالاً إلى قولي. إنسَ ما قلته لك.

تبخر فرح پيار. راح يلح على الأميرة بمحبة أن تبوح له بأحزانها. لكنها توسلت إليه مجدداً أن ينسى ما قالته: إنها لم تعد تذكر هي نفسها ما كانت تريد قوله، وليس في نفسها من المتاعب إلا ما يعرفه من قبل: ألا يهدد زواج أندريه بتعكير الصفو بين الأب والابن؟

سألت لتدير دفة الحديث: هل لديك أخبار من آل روستوف؟ لقد بلغني أنهم سيذهبون إلى موسكو قريباً. ثم إنني أنتظر عودة أندريه بين يوم وآخر. كم أود من صميم قلبي أن أرى بعضهم هنا.

سأل أندريه مشيراً إلى الأمير العجوز بصيغة الغائب: وكيف ينظر إلى الأمر الآن؟

هزت ماري رأسها.

ـ ماذا يمكننا أن نفعل؟ لم تبق إلا أشهر قليلة على انتهاء المهلة المحدودة مع ذلك لا أتفاءل بوقوع شيء جيد. كل ما أرغب فيه هو أن أخفف عن أخي اللحظات الأولى لعودته. وددت لو رأيتهم يصلون قبل ذلك، آمل أن أنسجم معها، أنت الذي تعرفهم منذ زمن بعيد، قل لي بكل إخلاص الحقيقة الصحيحة: أية فتاة هي وكيف تجدها؟ ولكن قل لي كل الحقيقة، لأنك تعرف

أن أندريه يتعرض للشيء الكثير بزواجه بها ضد إرادة أبيه، ولذلك أريد أن أعرف...

نبهت حاسة غامضة پيار أن وراء تلك الـدورات في الكلام وتلك التنويهات المتكررة بأن يقول لها «كل الحقيقة»، تخبئ تدبيراً سيئ القصد تعدّه الأميرة ماري ضد زوجة أخيها المقبلة وإنها تتمنى أن يسفه پيار خيار أندريه. لكن پيار عبّر عما يحس به أكثر مما يفكر فيه. قال وقد احمرّ وجهه دون أن يعرف السبب:

ـ لست أدري بم أجيبك عن سؤالك. أنا لا أعرف أبداً أية فتاة هي، لا أقدر على تحليل عقليتها. إنها بلا شك فاتنة جداً ولكن لماذا؟ لست أدري، هذا كل ما أستطيع أن أقوله عنها.

أطلقت ماري زفرة. كانت أمارات وجهها تنطبق بوضوح: «هذا ما كنت أتوقعه تماماً، ما كنت أخشاه» سألت: أهي ذكية؟

فكر پيار هنيهة:

ـ لا أظن... مع ذلك نعم. على كل حال إنها لا تفكر في أن تكون ذكية إلا قليلاً. أن تكون فاتنة ساحرة.

هزت ماري رأسها مجدداً.

ـ آه! كم أود أن أحبها حباً جماً! قل ذلك لها إذا رأيتها قبلي.

ـ قيل لي إنهم سيصلون خلال الأيام القريبة القادمة.

شرحت ماري نياتها لـپيار: إنها تتوقع أن تتحد مع زوجة أخيها المقبلة لتتصرفا معاً بشكل يجعل الأمير العجوز يألف هذا الوجه الجديد.

الفصل الخامس

جاء بوريس يجرب حظه في موسكو لأنه لم يستطع أن يعقد صفقة زواج رابحة في بيترسبورغ. كان متردداً بين أغنى جانبين في هذه المدينة: جولي كاراغين والأميرة ماري. وعلى الرغم من قلة جمالها فإن ماري كانت تجتذبه أكثر من الأخرى. لكنه كان يحسّ بنوع من الارتباك في مغازلتها. خلال مقابلتها الأخيرة يوم عيد الأمير العجوز، أضفى عبثاً على أحاديثه صبغة عاطفية. لكن محاولاته كلها أخفقت أمام أجوبة ماري التي كان فكرها متجهاً دون شك وجهة أخرى. أما جولي فعلى العكس، لقد تقبلت أن تكرّمه بأسلوب شاذ ولكن مألوف لديها وحدها.

فقدت جولي جمالها وهي في السابعة والعشرين وأصبحت واسعة الغنى بموت أخويها. لكنها لم تكن ترى ذلك بل تظن أنها أوفر فتنة من ذي قبل. كانت ثروتها تقيمها في ذلك الخطأ وكذلك كونها كلما تقدمت بها السن ضعف خطرها على الرجال الذين كانوا استناداً إلى ذلك ينعمون بحريات أوسع معها وينتفعون بولائمها وسهراتها ويختلطون بالبيئة المخملية التي تشكلت حولها دون أن يرتبط أحد منهم بوعد معها. فذلك الذي منذ عشر سنوات مضت، كان يخشى التردد بانتظام إلى منزل تسكنه فتاة في السابعة عشرة من عمرها خشية تعريض سمعتها للسقوط وبالتالي في الشرك، أصبح اليوم يقوم بزيارات يومية لها ويتصرف معها تصرفه تجاه صديقة لطيفة لا أثر للجنس في علاقتهما بعيداً عن المعاملة التي تفرضها ظروف فتاة في سن الزواج.

كان منزل آل كاراغين ذلك الشتاء أبهج وأكثر ترحيباً من كل منزل في موسكو. فإلى جانب السهرات والولائم الخاصة، كانت صحبة عديدة يغلب فيها الرجال، تجتمع فيه يومياً فيتناول المجتمعون العشاء حوالى منتصف الليل ليتفرقوا بعد ذلك في الثالثة صباحاً. لم تكن جولي تقيم حفلة راقصة أو نزهة إلا وتحضره وكانت تظهر أبداً في ملابس على أحدث طراز. مع ذلك، فقد كانت تتظاهر باللامبالاة وتقول لكل قادم إنها لم تعد تؤمن بالصداقة أو بالحب ولا بأي بهجة من مباهج الحياة: إنها لا تتوقع أن تكون هادئة إلا «هناك». تبنت لهجة الفتاة التي أصيبت بصدمة عنيفة أو أضاعت أعز مخلوق لديها أو خدعت بقسوة.

وعلى الرغم من أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث بعد في حياتها، فإنهم كانوا يتظاهرون بتصديقها حتى انتهى بها الأمر شخصياً إلى الاعتقاد بأنها اجتازت محناً كبيرة بالفعل. لكن ذلك الطبع الضجر لم يكن يمنعها قط من البحث عن التسلية، كما لم يكن يمنع الشبان الذين يترددون إليها لقضاء وقت جميل عندها. فبعد أن يقدم كل مدعو نصيبه لسويداء مضيفته، ينصرف بكليته إلى الأحاديث الاجتماعية والرقص والألعاب الفكرية والمساجلات والقوافي التي كانت شائعة جداً في ذلك المنزل. لكن فئة قليلة من أولئك الشبان، ومن بينهم بوريس، كانوا يشاطرون جولي حظاً وافياً من طبيعتها المتشائمة. كانت تدخل معهم في محاولات طويلة منعزلة حول بطلان مباهج هذا العالم، فتريهم مجموعاتها المليئة بالصور والأفكار والقصائد التي تنعكس منها الأحزان.

كانت جولي تتظاهر بمودة خاصة تجاه بوريس: كانت ترثي ليأسه وتقدم له العزاء الذي لا يستطيع تقديمه إلا من تألم بشدة في الحياة. ولما قدمت له مجموعتها، رسم فيها شجرتين كتب تحتهما: أيتها الأشجار الجافية، إن

أغصانك القاتمة تساقط علي الظلمات والسويداء. وعلى صفحة أخرى رسم قبراً وكتب: الموت نصير والموت هادئ.

ليس من ملجأ آخر ضد الآلام.

وجدت جولي كل هذا لذيذاً. قالت له: ثمة شيء عميق السحر في ابتسامة السويداء. إنه إشعاع نور في الظل، نقطة وسط بين الألم واليأس تظهر العزاء الممكن.

وكانت قد اقتطفت تلك الكلمة المأثورة من أحد الكتب. فأجابها بوريس بالأبيات التالية:

أيتها العذراء المسمومة بروح شديدة الحساسية،
أنت التي بدونك لا تصبح السعادة ممكنة،
أيتها السويداء الحانية، آه! تعالي لتعزيني،
تعالي هدئي آلام اعتكافي المظلم،
وامزجي حلاوة سرية،
إلى هذه الدموع التي أشعر بانهمارها.

اعتادت جولي أن تعزف لبوريس على العود أكثر «الليليات» توجعاً. وكان هو يقرأ لجولي «ليز المسكينة» ـ وهي قصة عاطفية لكارا مزين ظهرت عام ١٧٩٢ ـ فيغص بالانفعال والتأثر ويضطر إلى التوقف عن القراءة. وإذا وُجدا بين جمع كبير العدد، كانت نظراتهما تتحدث بعضها إلى بعض بأنهما الوحيدان اللذان يفهم أحدهما الآخر وأن روحيهما توأمان.

كانت آنّا ميخائيلوفنا تزور آل كاراغين باستمرار وتحاول وهي تتظاهر بولائها للأم، أن تحصل على معلومات وثيقة عن بائنة جولي: كانت تلك البائنة تتألف من إقطاعيتين في مقاطعة بانزا وغابات في مقاطعة نيجي ـ نوفوغورود. كانت آنّا ميخاييلوفنا تراقب بحنو وهي مفعمة النفس بالاستسلام

لمشيئة القدر، الحزن الكاذب الذي يقوم مقام همزة الوصل بين ابنها وجولي الثرية.

كانت تقول للفتاة: دائماً رائعة وسوداوية جولي العزيزة هذه! ويؤكد لي بوريس بأنه لا يجد راحة القلب إلا عندك.

ثم تضيف مخاطبة أم جولي: لقد عانى كثيراً من الصدمات وهو ذو روح شديدة التأثر.

ـ يا صديقي! كم أصبحت متعلقة بجولي هذه الأيام الأخيرة! لا أستطيع التعبير عن شغفي! ثم من ذا الذي لا يحبها؟ إنها مخلوقة سماوية حقاً. آه! بوريس، بوريس!

ثم تتابع بعد لحظة صمت قصيرة: وكم أرثي لأمها. لقد أطلعتني أخيراً على رسائل وحسابات أرسلت من بانزا. إن لهم هناك إقطاعية كبيرة. والمرأة المسكينة مضطرة إلى إنجاز كل هذه الأمور بنفسها، وهم يخدعونها خداعاً كبيراً!

لأنّ حيَل أمه البسيطة تثير في نفسه نوعاً من الفرح كان بوريس يبتسم ابتسامات غير ملحوظة. لكنه يصغي إليها بل يسألها أحياناً بعض التفاصيل عن إقطاعيات بانزا ونيجني ـ نوڤغورود.

ومنذ أمد طويل وجولي تنتظر أن يعلن سوداويها العاشق عن نفسه مقررة ألّا ترفض طلبه. لكن دافعاً غامضاً سببه التصنع عند الفتاة ورغبتها الشديدة في إيجاد زوج؛ إلى جانب الخوف من أن يضطر بعد الآن إلى التخلي عن كل حب حقيقي، كان يجعل بوريس يمسك عن القيام بالخطوة الأخيرة. كانت نهاية عطلته تقترب وهو لا يني يمضي أيامه كلها عند آل كاراغين. لكنه كان دائماً يرجئ عزمه إلى الغد بعد تفكير عميق. كان بوريس، كلما رأى وجه جولي وذقنها المدهونة أبداً بطبقة من الدروز وعينيها المبللتين وأساريرها

القادرة على إبدال قناع السوداوية بالحماسة، التي لن يعدم مشهد السعادة الزوجية أن يبعثه فيها، يشعر بعجزه عن النطق بالكلمات الحاسمة رغم أنه كان يرى نفسه بعين الخيال مالكاً منذ زمن طويل لإقطاعيات بانزا ونيجني ـ نوفغورود، التي كان يصرف، في خياله كذلك، الموارد التي تأتيه منها.

وكانت جولي تلاحظ تردد بوريس وتخشى أحياناً أن تكون أبعد من أن تروقه، لكن زهوها النسوي الذي يسارع إلى إنقاذها في مثل تلك الحالات، كان يوهمها بأن الحب هو الذي يجعله خجولاً متردداً. رغم كل ذلك، كانت سوداويتها تبلغ بها مبلغ السخط. ولما كان رحيل بوريس قد أصبح وشيكاً، فإنها اعتزمت أن تتصرف بحزم. ولكن في تلك الأثناء بالذات، وصل أناتول كوراغين إلى موسكو، وراح يتردد بالطبع إلى منزل آل كاراغين. فلم تلبث جولي أن أبدلت سوداويتها ومزاجها القاتم ببشاشة مجنونة وأعربت للقادم الجديد عن أقصى درجات حسن الالتفات.

قالت أنّا ميخاييلوفنا لابنها:

ـ يا عزيزي، أنا أعرف من مصدر موثوق به أن الأمير بازيل لم يرسل ابنه إلى موسكو إلا ليزوجه جولي. وإنني أحب جولي حباً شديداً وزواجها بأناتول يؤلمني كثيراً فما رأيك يا صديقي؟

ارتعد بوريس خشية أن يصبح اعتماده على موارده وحدها وأن يكون الشهر الذي قضاه بالقرب من جولي يمثل دور السوداوي الجميل الشاق الذي قد ضاع هباء، وأن يرى موارد الإقطاعيات العتيدة التي كم أحسن توزيعها في خياله والتصرف فيها، تنتقل إلى أيد أخرى، وخصوصاً يدي ذلك السخيف أناتول. أسرع إلى منزل آل كاراغين وفي نيته إعلان رغبته دون تردد.

استقبلته جولي مبتسمة وروت له بلهجة جذلة مبلغ التسلية التي حصلت

عليها في حفلة الأمس ثم سألته عن موعد رحيله. ولما كان بوريس عازماً عزماً أكيداً على إعلان حبه لها، فقد قرر أن يكون رقيقاً. لكنه استسلم لانفعال معين فراح يعيب على النساء تلونهن والسهولة التي يتنقلن بها من الحزن إلى الفرح: إن طباعهن، حسب قوله، تتوقف على طبيعة ذلك الذي يغازلهن. ردت عليه جولي وقد انكشف أمرها أن كل ما يقوله صحيح وأن النساء يحببن التقلب وأن ما من شيء أشد ألماً من السوداوية.

وبدأ بوريس يقول وهو ينوي وخز كرامتها:

ـ في هذه الحالة لا أستطيع إلا أن أوصيك...

لكنه في تلك اللحظة تمثل المشهد المهين الذي قد يصبح عليه إذا ما اضطر إلى مغادرة موسكو دون أن يحقق هدفه وهو الذي لم يضيع قط من قبل لا جهوده ولا وقته.

لهذا السبب، توقف في منتصف جملته وأطرق بعينيه ليتفادى الشعور القبيح الذي كان يثيره في نفسه وجه جولي النكد المتردد. استأنف قائلاً:

ـ ما جئت لأتشاجر معك. بل على العكس...

واختلس نظرة نحو جولي ليرى ما إذا كان يجب عليه أن يسترسل. اختفى انفعال الفتاة فوراً وأخذت تشخص إليه «سوف أتدبر الأمر دائماً بحيث أراها أقل وقت ممكن. لقد بدأت الأمر ويجب إنهاؤه». احمرّ وجهه، حدّق إلى عينيها هذه المرة وقال لها: إنك تعرفين عواطفي نحوك.

لم تكن ثمة حاجة ليقول أكثر من ذلك. كان سرور الانتصار مشرقاً على وجه جولي. لكنها، مع ذلك، أرغمت بوريس على أن يقول كل ما يقال في مثل تلك المناسبات، بما في ذلك أنه يحبها وأنه لم يشعر قط نحو امرأة من قبل بمثل الشغف الذي يحسه نحوها. لقد كانت إقطاعيات بانزا ونيجني تسمح

لجولي أن تتطلّب هذا القول على أقل تقدير. كانت تعرف ذلك وها هي ذي قد بلغت ما كانت تريد.

ودون أن تعاود المخطوبة التفكير في «الأشجار التي تسقط عليهما الظلمات والسوداوية»، بدآ يضعان المخططات لبناء منزل فخم في بيترسبورغ، وراحا يبادلان معارفهما الزيارات وانصرفا إلى الاستعدادات اللازمة لعرسهما الرائع.

الفصل السادس

وبصحبة ناتاشا وسونيا في أواخر كانون الثاني وصل الكونت إيليا أندرييـڤيتش إلى موسكو بعد أن حال رجوع الأمير أندريه المتوقع دون انتظار الكونتيسة، إذ كان يجب شراء الجهاز وبيع الحقل الذي في الضواحي وانتهاز فرصة وجود الأمير العجوز لتقديم كنته المقبلة إليه. ولما كان منزل آل روستوف غير مدفأ وكانت إقامتهما قصيرة في موسكو لأن الكونتيسة لم تكن معهم، فقد قرر إيليا أندرييـڤيتش قبول ضيافة ماري دميترييڤنا أخروسيموف التي كانت منذ زمن طويل تعرب عن استعدادها لاستضافته.

في ساعة متأخرة من الليل دخلت العربات الأربع باحة المنزل الذي تشغله ماري دميترييڤنا في شارع ڤيّي إيكوري «الاسطبلات القديمة». وكانت هذه السيدة التي زوجت ابنتها وشغل أبناؤها الأربعة وظائف حكومية مختلفة، تعيش بمفردها فيه.

منتصبة القامة دائماً تقول لكل الناس رأيها بلهجة حاسمة، وتبدو أشبه باحتجاج حي على الضعف والأهواء ومباذل الناس الآخرين، الأمر الذي لم تكن تقره من جانبها. كانت تنهض باكراً فترتدي عباءتها وتقوم بأعباء بيتها ثم تنجز مهامها الخارجية. وفي كل يوم أحد، تذهب إلى الكنيسة، بادئ الأمر، ثم تزور مختلف السجون حيث كانت لها أعمال لم تطلع إنساناً عليها قط. أما بقية أيام الأسبوع، فكانت بعد أن تصلح زينتها تستقبل مراجعين عديدين ذوي عروض مختلفة كانوا يحاصرون ردهتها دائماً. ويلي ذلك الغداء، وهو

دائماً طعام فاخر دسم، فتتناوله عادة مع ثلاثة أو أربعة من المدعوين، فإذا ما انتهوا، انتظموا حول طاولة لعب الورق. وفي السهرة كانت تكلف بعضهم قراءة الصحف والكتب الحديثة على مسامعها بينما تنشغل هي في أشغال الإبرة. لم تكن تخرج من بيتها قط وإذا خرقت هذه القاعدة فعلى شرف أكثر الشخصيات سمواً ورفعة.

لم تكن قد ذهبت إلى فراشها بعد عندما أعلن لها صوت باب المدخل الذي كان ثقله المعدل يصر تحت دفع آل روستوف وخدمهم، قدوم الضيوف. ذهبت تنتصب على عتبة القاعة الكبيرة ورأسها مائل إلى الوراء، ونظارتاها فوق أنفها، فكانت النظرة الغاضبة التي راحت تتأمل القادمين بها تنبئ بأنها ساخطة لوجودهم هناك، وتكاد تطردهم. لكنها على العكس، أخذت تعطي الأوامر لإنزال المسافرين وأمتعتهم في الأمكنة المناسبة. قالت وهي تشير إلى الحقائب دون أن تلقي السلام على أحد:

ـ هل هذه للكونت؟ من هنا. وهذه للآنسات؟ هنا، إلى اليسار... ثم صرخت بالخادمات؟

ـ وأنتن، ماذا تصنعن هنا عاقدات أذرعكن؟ هيا، لتهيئن السماور!...

وقالت وهي تمسك ناتاشا المرتجفة من معطفها:

ـ كم تغير جسمك وكم ازددت جمالاً! بر.... ر...، يا للصقيع!...

ثم قالت للكونت وهو يهم بتقبيل يدها: ولكن انزع فروتك، لا شك إنك متجمد الأطراف!

وأخيراً قالت بالفرنسية معربة عن ودها المطاوع قليلاً الذي تكنه للفتاة:

ـ آه! مرحباً يا سونيتي الصغيرة.

ولما نزع المسافرون فرواتهم الثقيلة واستراحوا قليلاً من وعثاء السفر،

جاؤوا يحتسون الشاي، فقامت ماري دميترييڤنا تقبلهم كلّا بدوره. قالت لهم: إنني أبتهج من صميم قلبي لرؤيتكم في موسكو وفي منزلي.

وأضافت بعد أن ألقت نظرة معبرة على ناتاشا:

ـ لقد حان وقت مجيئكم فعلاً. إن العجوز هنا، وهم ينتظرون وصول ابنه بين لحظة وأخرى يجب أن تتعرفوا إليه حتماً.

ثم أضافت وهي تنظر إلى سونيا نظرة تدل على أنها لا تريد الدخول في هذا الموضوع في حضورها:

ـ پيار ستتحدث بذلك فيما بعد.

تابعت وهي تلتفت نحو الكونت:

ـ والآن، اصغ إلي قليلاً، من تريد لقاءه غداً؟ من ستستدعي؟ شينشين؟ واحد. تلك المتباكية أنا ميخاييلوڤنا؟ إثنان. إنها هنا مع ابنها. إنه يتزوج، الغلام! من أيضاً؟ بيزوخوف؟ إنه هو الآخر هنا مع زوجته. لقد هرب منها، لكنها جاءت تطارده. لقد تغدى عندي يوم الأربعاء الفائت.

واختتمت قولها مشيرة إلى الفتاتين:

ـ أما هاتان، فسأقودهما غداً لتقدما نسكهما في «نوتردام ديپيري» ثم نمر بعد ذلك عند السيدة أوبير[1] ـ شالميه إنكما تريدان آخر الابتكارات بدون شك؟ على كل حال لا تقيسا عليّ، إنهم الآن يلبسون أكماماً فضفاضة هكذا... جاءت أمس الأخيرة إيرين ڤاسيليڤنا الشابة لتراني وفي كل ذراع برميلان، إنه شيء مرعب! على أيّ حال، إن الأزياء كل يوم في هذا الوقت...

ثم سألت الكونت بلهجة قاسية بعض الشيء:

ـ وأنت شخصياً، أية أعمال أتت بك؟

(١) صاحبة متجر ألبسة وعطور وقبعات من القش وأقمشة التافتا... (المترجم).

أجاب الكونت: حلّ كل شيء دفعة واحدة. يجب شراء الخرق ثم هناك مشتر لحقلي وللمنزل في موسكو. إذا تفضلت بالموافقة، سأنتهز الفرصة للذهاب إلى مارينسكواي لقضاء يوم فيها وسأعهد إليك ببنتيّ.

قالت ماري دميترييڤنا وهي تداعب بيدها الضخمة وجنة ناتاشا، «فليونتها» وصفيتها:

ـ حسناً، حسناً جداً. ستكونان هنا في أمان أفضل من وجودهما في مجلس الوصاية. سآخذهما إلى كل الأمكنة التي يجب أن ترتاداها، وسأزجرهما وأدللهما كذلك.

اصطحبت ماري دميترييڤنا الفتاتين إلى نوتردام ديپيري، وفي صبيحة اليوم التالي، ثم إلى مخزن السيدة أوبير ـ شالميه، التي كانت تخافها كثيراً وتقدم لها لوازمها دائماً بخسارة في الأثمان للتخلص منها بأسرع ما يمكن. وهناك أوصت ماري دميترييڤنا على قسم كبير من الجهاز. وعندما عاد الجميع إلى المنزل، استبقت ناتاشا وحدها وأجلستها على كنبة بجانبها بعد أن صرفت الآخرين.

ـ هيا، ولنتحدث الآن قليلاً معاً. كل تهاني: هل أنت ذي مخطوبة، ولقد حصلت على شاب طيب. أنا مبتهجة من أجلك. أنا أعرفه منذ أن كان على هذا القدر، ومدت يدها على ارتفاع نصف متر من الأرض بينما كانت ناتاشا يستخفها الفرح، وإنني أحبه كثيراً وكذلك كل عائلته. أصغي إلي جيداً. إنك تعرفين أن الأمير نيكولا لا يرغب كثيراً أن يتزوج ابنه. إنه من القدماء، عجوز عنيد. بالطبع إن الأمير أندريه ليس طفلاً ولسوف يستغني عن موافقته! ولكن لا يليق الدخول إلى عائلة ضد رغبة الأب. من الأفضل معالجة هذا الأمر برفق وهدوء. أنت لست حمقاء وستعرفين كيف تتصرفين لضمان شرفك. قليل من الحذق والنعومة وسينتهي كل شيء على ما يرام.

كانت ناتاشا صامتة لا خجلاً كما كانت ماري دميترييڤنا تعتقد، بل من الغضب لرؤيتها بعضهم يتدخل في شؤون حبّها للأمير أندريه: لقد كان ذلك الحب أمراً خاصاً جداً عن كل ما يشغل الآخرين حتى إن ما من أحد، على زعمها، يستطيع فهمه. إنها لا تحب ولم تعد تعرف إلا الأمير أندريه. وهو يحبها بالمثل، وسوف يقترن بها حال عودته التي أصبحت قريبة، وهي لا ترغب في أكثر من ذلك.

ـ كما ترين، إنني أعرفه، منذ مدة طويلة، وكذلك أخته ماري التي أحبها كثيراً. يزعم المثل أن «الكنّة والسلف» خشونة وحقد لكن ماري لا تسيء إلى ذبابة. إنها ترغب أن تتحد معك، لقد قالت لي ذلك. غداً ستذهبان إلى هنك، أبوك وأنت، فكوني بشوشة معها وابدئيها الإكرام فأنت الأصغر سناً. وعندما يصل، تكونين أنت قد تعرفت إلى الأب والأخت، وستتبادلون المدة حتى ذلك الحين. ألن يكون هذا أفضل؟

فأجابت ناتاشا مكرهة: بدون شك.

الفصل السابع

ذهب الكونت روستوف بصحبة ناتاشا إلى منزل الأمير نيكولا أندرييـﭬيتش، في ذلك الصباح عملاً بنصيحة ماري دميترييڤنا. لم تكن تلك الخطوة تروقه لأنه كان في أعماق نفسه يخشى تلك المقابلة. كانت ذكرى مقابلتهما الأخيرة أثناء تشكيل فرق المتطوعين الماثلة في ذاكرته، عندما احتمل من الأمير جواباً عن دعوته إياه لتناول الغداء، تعنيفاً قاسياً لأنه لم يقدم العدد المطلوب. وفي المقابل، كانت ناتاشا على أفضل مزاج وهي في أجمل ثوب عندها. كانت تخاطب نفسها: «لا يمكن أن لا يحباني على الفور، كل الناس يحبونني. على أتم استعداد لصنع كل ما يريدان وعلى أتم استعداد لمحبتهما، هو لأنه أبوه وهي لأنها أخته، حتى إنني لا أرى سبباً يحدوهما إلى عدم محبتي!».

في شارع «إيزالتاسيون» توقفت العربة أمام منزل قديم ذي منظر محزن ودخلا في ممرّ. قال الأمير بين المزح والجد:

لاحظت ناتاشا أن أباها شديد الارتباك وأن صوته مضطرب عندما سأل عما إذا كان الأمير وابنته يقبلان الزيارة.

حينما أُعلن قدومهما اعترى الحجّاب والخدم نوع من التشوش. أوقف الذي كلف المهمة في القاعة الكبيرة من قبل أحد زملائه وراحا يتهامسان معاً. وأسرعت إحدى الوصيفات إليهما وأسرت لهما ببضع كلمات متعجلة ورد فيها ذكر سيدتها. وأخيراً جاء خادم عجوز صارم القسمات يعلن لآل روستوف أن

الأمير لا يستطيع استقبالهما، ولكن الأميرة الآنسة ترجوهما التفضل بزيارتها. ظهرت الآنسة بوريين فاستقبلت القادمين بأدب لائق ورافقتهما إلى الأميرة التي أسرعت بدورها للقائهما بخطوات ثقيلة ووجهها قلق تعلوه بقع حمراء. كانت تجهد عبثاً في إعطاء قسماتها مسحة الإشراق. لم تقع ناتاشا في نفسها موقع الاستحسان منذ الوهلة الأولى. لقد وجدتها مفرطة في التأنق مزهوة طائشة. ولم تكن ماري تعرف أنها قبل أن ترى زوجة أخيها العتيدة، كانت معبأة بغيرة لا شعورية من جمالها وشباب تلك الطفلة وسعادتها والحب الذي يكنه لها أخوها، الأمر الذي جعلها تميل إلى كرهها. لقد انضم إلى ذلك النفور الذي لا مثيل له اضطراب عميق: ذلك أن الأمير حين إعلان حضور آل روستوف، راح يصرخ قائلاً إنه لا يأبه للقائهم وإن ماري تستطيع مقابلتهم إذا أرادت ذلك ولكن ليحاذروا جميعاً الإتيان بهم إليه. فاعتزمت ماري استقبالهم لكنها كانت تخاف في كل لحظة غضب أبيها الذي أخرجته تلك الزيارة على ما يبدو عن طوره.

قال الكونت وهو ينحني احتراماً ويلقي نظرة قلقة حوله وكأنه يخشى ظهور الأمير فجأة: كما ترين يا عزيزتي الأميرة، لقد جئتك بمغنيتي الصغيرة. كم أنا مغتبط إذ تتعارفان... من المؤسف جداً أن يكون الأمير في صحة سيئة...

وبعد بضع عبارات من هذا النوع وقف وقال:

ـ إذا سمحت لي يا أميرة، تركت لك ناتاشا ربع ساعة قصيرة ريثما أقوم بزيارة قريبة من هنا، إلى أنا سيميونوڤنا. وسأعود لاصطحابها.

ولكي يسمح للكنّة العتيدة وابنة حميها أن تتعارفا وتتناجيا بإخلاص، ابتكر إيليا أندرييـڤيتش تلك الخدعة اللبقة. وقد اعترف بذلك لابنته فيما بعد، لكنه لم يصرح لها بأنه وفر على نفسه كذلك عناء مقابلة، ربما صاخبة، مع الأمير. لكن ناتاشا ضمنت قلق أبيها فاغتمت للأمر. احمرّ وجهها من أجله

وازداد سخطها على خجلها: نظرت إلى الأميرة نظرة جريئة ومثيرة كانت تعني أنها لا تخشى أحداً. وأجابت ماري الكونت بأنها سعيدة بذلك وأنها ترجوه أن يتأخر إلى أقصى وقت ممكن. وانسحب إيليا أندرييـڤيتش.

على الرغم من النظرات الجزعة التي كانت ماري توجهها إلى الآنسة بوريين رغبة منها في البقاء منفردة مع ناتاشا، فإن هذه لم تتحرك قط بل استمرت تدير دفة الحديث بإصرار حول الأفراح وحفلات موسكو. وكان حادث الممر والخوف الذي أظهره أبوها، ولهجة الأميرة القسرية، التي تعتقد أنها إنما تنم عنها باستقبالها كل ذلك جعل ناتاشا في حالة نفسيّة سيئة. انطوت على نفسها إذن واتخذت رغماً عنها لهجة لا مبالية جعلتها تزداد كراهة في نظر الأميرة. وبعد خمس دقائق من حديث قسري، سمعت خطوات سريعة لرجل يحتذي خفين. ارتسم الرعب على أسارير ماري، بينما فتح الباب عن الأمير في معطفه المنزلي وقلنسوته القطنية. قال:

ـ آه يا آنسة، يا آنسة... الكونتيسة روستوف إذا لم أكن مخطئاً. تفضلي بمعذرتي... كنت أجهل يا آنسة. الله يشهد على قولي، إنني أجهل أنك شرفتنا بزيارتك... لم أكن أتوقع رؤية أحد غير ابنتي... تفضلي بمعذرتي على ثوبي... الله يشهد على قولي، كنت أجهل...

وقد كرر قوله وهو يشدّد على كلمة «الله» بلهجة غير طبيعية وشديدة الكراهية حتى إن ماري بقيت جامدة لا تجرؤ على رفع عينيها إلى أبيها أو تحويلهما إلى ناتاشا.

بعد أن وقفت ثم جلست، وكانت هذه لا تعرف أي سلوك تتبع بينما الآنسة بوريين وحدها تبتسم ببشاشة.

غمغم العجوز مرة أخرى: تفضلي بمعذرتي، الله يشهد عليّ أنني كنت أجهل.

وبعد أن صعق ناتاشا بنظره من رأسها إلى قدميها، انصرف.

أول من ثاب إلى رشده بعد هذا المشهد كانت الآنسة بوريين. وبيما اندفعت في حديث حول صحة الأمير السيئة، بقيت ناتاشا وماري تتبادلان النظر. وكلما طال ذلك التفحص المتبادل دون أن تعتزم إحداهما التفوه بما يناسب المقام ازداد نفورهما الواحدة من الأخرى.

وعندما رجع الكونت، لم تخف ناتاشا سرورها بعودته وبادرت إلى الاستئذان، بلغ بها الحد مبلغ الحقد على تلك المخلوقة الهرمة. كانت تحقد عليها بقوة لأنها وضعتها في مثل ذلك الموقف وقضت معها نصف ساعة دون أن تنطق بكلمة عن الأمير أندريه، راحت تحدث نفسها: «هل كان بمقدوري حقاً أن أبدأ الحديث عنه وأمام هذه الفرنسية أيضاً!» وفي الوقت نفسه كانت أفكار مشابهة لهذه تعذر ماري. كانت تعرف تماماً ماذا يجب عليها قوله لناتاشا، مع ذلك فقد سكتت أولاً لأن وجود الآنسة بوريين كان يخيفها ومن ثم، لأنها كانت تشعر بارتباك غريزي في التحدث عن هذا الزواج. وفي اللحظة التي غادر فيها الكونت الغرفة، لحقت ماري بناتاشا بخطوات واسعة وأمسكت بيديها ثم قالت لها وهي تتنهّد بعمق:

ـ انتظري، كنت أريد...

نظرت إليها ناتاشا بسخرية غير متعمدة. وتابعت ماري: يا عزيزتي ناتالي، دعينني أقول لك كم أنا سعيدة إذ يجد أخي السعادة...

توقفت لأنها شعرت بأنها لا تقول الحقيقة. ولاحظت ناتاشا ذلك التردد وخمنت السبب. قالت بوقار وبرود ظاهرين بينما كانت الزفرات تخنقها: يخيل إلي يا أميرة أن الوقت غير مناسب للتحدث في هذا.

وما كادت تخرج حتى فكرت: «ماذا فعلت، ماذا قلت؟» تأخر ظهور ناتاشا على مائدة الطعام ظهر ذلك اليوم. حبست نفسها في غرفتها يخنقها

الحزن وراحت تنشج بصوت مرتفع كالطفلة الصغيرة، بينما كانت سونيا منحنية فوقها تقبل شعرها وتقول لها:

ـ ناتاشا، لمَ البكاء؟ ماذا يهمك هؤلاء؟ سوف ينتظم كل شيء، هيا...

ـ آه! لو كنت تعلمين كم هو موجع هذا الأمر... لقد استقبلوني كما تستقبل...

ـ كفي عن التفكير في ذلك يا ناتاشا... إنها ليست خطيئتك أليس كذلك؟ إذن، لمَ تشغلين نفسك بذلك؟... قبليني، خذي...

رفعت ناتاشا رأسها وقبلت صديقتها في شفتيها ثم أسندت وجهها المبلل بالدموع إلى كتفها.

ـ لا أستطيع القول، لست أدري. إنها ليست خطيئة أحد... بلى، إنها على الأرجح خطيئتي... ولكن كم هو مخيف كل هذا!... آه! لم لا يأتي؟

كانت عيناها حمراوين عندما نزلت لتناول الغداء. تظاهرت ماري دميترييڤنا، التي كانت تعرف كيف استقبل الأمير الكونت، بأنها لا ترى وجه الفتاة وبقيت طوال فترة الغداء، تمزح بصوتها القوي مع الكونت والمدعوين الآخرين.

الفصل الثامن

ولما حصلت ماري دميترييڤنا على مقصورة، في ذلك المساء، ذهب آل روستوف إلى الأوپرا، كانت ناتاشا تود الذهاب، لكنها لم تستطع رفض دعوة خاصة موجهة إليها. وعندما دخلت القاعة الكبيرة وهي في أبهى زينة لانتظار أبيها، وألقت نظرة على المرآة الكبيرة أقنعتها بأنها جميلة وجميلة جداً، شعرت بحزن متزايد، لكنه كان حزناً ضعيفاً.

قالت في سرّها: «يا إلهي، لو كان هنا، فإنني لن أكون خجولة بغباوة كالسابق سأضمه بين ذراعي بكل بساطة وأشد نفسي إلى صدره، فينظر إليّ بتينك العينين المستفسرتين اللتين طالما صوبهما إلي. ثم سأضحك حينذاك وعيناه. آه، عيناه! كم أراهما الآن!... وماذا يهمني بعد ذلك أبوه وأخته! هو الذي أحبه، هو وحده. وجهه وعيناه وابتسامته التي تجمع بين الرجولة والصبا في آن واحد... لكن الأفضل على أية حال ألّا أفكر في هذا أبداً، ألّا أفكر في شيء، أن أنسى أقله، أن هذا الغياب سيقتلني، ها أنا ذا من جديد، على استعداد للانتخاب». أدبرت للمرآة وهي تصد دموعها بصعوبة شديدة. حدثت نفسها وهي تنظر إلى سونيا التي دخلت في تلك اللحظة مرتدية ثياب الخروج هي الأخرى وفي يدها مروحة: «كيف تفعل سونيا لتحب نيكولا بمثل هذا الهدوء ولتنتظره كل هذا الوقت وبمثل هذه الأناة، لا شك أنها تختلف عني كل الاختلاف. إنني لن أستطيع أنا صبراً!».

بدأت حاجة ملحة إلى الحنان تعذب في تلك اللحظة ناتاشا التي لم

تكن تكتفي أن تحب وترى نفسها محبوبة: كانت تشعر بالرغبة المهيمنة في طريق المحبوب بذراعيها على الفور، وفي أن تقول له وتسمعه يهمس في أذنها كلمات الحب التي يمتلئ قلبها بها. أحست خلال الطريق، وهي جالسة جنباً إلى جنب مع أبيها تنظر بعين متطيرة إلى انعكاسات أضواء المصابيح السريعة على زجاج باب العربة المغطى بالصقيع، بأن عشقها ينمو باطراد. لم تعد تعرف مع من هي الآن وإلى أي مكان تؤخذ. تبعت العربة أخيراً العربات الأخرى وعجلاتها تئن فوق الثلج، حتى بلغت مدخل المسرح. فقفزت ناتاشا وسونيا برشاقة منها ثم ترجل الكونت يساعده الخدم واختلطوا جميعاً بالمتفرجين وبائعي البرامج حتى بلغ ثلاثتهم مدخل المقاصير في الوقت الذي كانت أصوات الآلات الموسيقية وهي تضبط، تتناهى إلى أسماعهم خلال الأبواب نصف المغلقة. همست سونيا:

ناتالي، شعرك...

أسرع فاتح المقاصير باحترام وتقدم السيدتين ثم فتح المقصورة، فأصبحت الألحان الموسيقية أكثر وضوحاً وظهرت للناظرين خلال إطار الباب، مجموعة المقاصير المضاءة بوفرة، تحتلها سيدات في أثوابهن الحاسرة عن أعناقهن، ثم القاعة الكبرى الصاخبة المزخرفة بمختلف أزياء الألبسة. نظرت إحدى السيدات التي كانت تدخل مقصورة مجاورة، إلى ناتاشا نظرة غير نسوية. لم يكن الستار قد رفع بعد؛ والموسيقى تعزف لحن الافتتاح. سوّت ناتاشا ثوبها وتقدمت مع سونيا إلى مقدمة المقصورة وسرحت ناظريها في المقاصير المقابلة. استبد بها شعور فجائي لم تشعر بمثله منذ زمن طويل، شعور تركز مئات من العيون على جيدها وكتفيها العاريتين، فأيقظ في نفسها عدداً من الذكريات والانفعالات، وأحدث تأثيراً لذيذاً وأليماً معاً.

اجتذبت هاتان الفتاتان الجميلتان الانتباه العام وكذلك الكونت إيليا

أندرييـڤيتش الذي احتجب زمناً طويلاً عن الظهور في موسكو. ثم إن كل الناس كانوا يعرفون خبر خطبة أندريه وناتاشا على شكل ما، يعرفون أن آل روستوف يسكنون في الريف منذ ذلك الوقت، فراحوا يتفحصون تلك التي ستتزوج واحداً من أفضل المرموقين في روسيا:

ازدادت ناتاشا جمالاً خلال إقامتها في الريف، وكان كل الناس يعلنون ذلك. لكن الانفعال الذي كان يضيق عليها ذلك المساء زادها فتنة. كان ما يلفت النظر إليها ذلك الجمال والحيوية الكاملان المجتمعان إلى لامبالاة واضحة بكل ما يحيط بها. فعيناها السوداوان تنظران إلى الجموع دون أن تبحثا عن شخص محدد. أسندت ذراعها العارية حتى ما فوق المفرق إلى حاجز المقصورة المخملي وراحت يدها النحيلة تتقلص وتنشر بصورة لاشعورية وبإيقاع أثناء الافتتاحية وهي تدعك البرنامج. قالت سونيا: انظري، هذه الآنسة ألينين مع أمها على ما أظن.

وقال الكونت من جانبه: يا إلهي، لقد ازداد ميخائيل كيريليتش سمنة.

انظري إلى أنا ميخاييلوڤنا إياها، يا للقلنسوة التي على رأسها!

إن آل كاراغين وجولي وبوريس معهن، إنهما مخطوبان وهذا يُرى على الفور. لقد قدم دروبتسكوي طلبه إذن؟ وقال شينشين الذي دخل مقصورة آل روستوف:

نعم، لقد بلغني ذلك منذ حين.

تبعت ناتاشا اتجاه نظرة أبيها فرأت جولي جالسة إلى جانب أمها مشرقة الوجه يثقل عنقها الضخم الأحمر الذي كانت ناتاشا تعرف أنه مغطى بطبقة من الذرور، وعقد ثقيل من اللآلئ. ومن ورائهما برز رأس بوريس الجميل ذو الشعر المصفف بعناية وهو يبتسم وينحني لسماع ما تقوله جولي. اختلس نظرة إلى آل روستوف وهمس في أذن مخطوبته ببضع كلمات.

«إنهما يتحدثان عنا وعن العلاقات التي كانت لي معه. إنه يطمئن غيرة مخطوبته حتماً مني. إنهما مخطئان ولا شك بقلقهما! ليتهما يعرفان إلى أي حد لا يشغلان تفكيري!».

وإلى ورائهما تربعت أنا ميخاييلوڤنا بقلنسوتها الخضراء وأساريرها المنتصرة ولكن الخاضعة لمشيئة الله كعادتها. كان ذلك الجو الخاص بالمخطوبين الذي تعرفه ناتاشا جيداً وتجله، يخفق في مقصورتهم. أشاحت ناتاشا النظر وفجأة عادت إلى ذاكرتها مذلة زيارة بعد الظهر كلها.

حدثت نفسها: «بأي حق لا يريدني في أسرته؟... آه! من الأفضل ألّا أفكر في الموضوع حتى عودته!» وراحت تتصفح الوجوه المعروفة والمجهولة التي تقع عيناها عليها في القاعة. كان دولوخوف جالساً في منتصف الصف الأول مسنداً ظهره إلى الحاجز، وهو في ثياب فارسية وشعره الأجعد مرفوع إلى الأعلى. كان يعرف أنه محط أنظار القاعة كلها فيظهر من الارتياح كما لو كان في منزله. والتفت حوله شبيبة موسكو فأصبحت تشكل حرس شرف له.

لكز إيليا أندرييڤيتش سونيا بمرفقه وأشار إلى المتيّم السابق بهواها وهويضحك وقال لها: هل عرفته؟

ثم سأل شينشين: من أين ظهر الآن؟ لقد افتُقد تماماً منذ زمن طويل.

فأجاب شينشين: صحيح لقد كان في القوقاز ومن هناك هرب إلى إيران. يقال إنه أصبح هناك وزيراً لست أدري لأي أمير مالك. بل يزعمون أيضاً أنه قتل أخ الشاه. وها إن نساء موسكو كلهن مجنونات به! دولوخوف الفارسي! إنهن لا يتحدثن إلا عنه ولا يقسمن إلا به ويتنادين لرؤيته وكأنهن بصدد تذوق أفخر أنواع السمك!...

وأضاف: نعم، إن دولوخوف وأناتول كوراغين قد فتنا كل سيداتنا.

وفي تلك اللحظة، دخلت سيدة طويلة القامة جميلة ذات ضفيرة ضخمة

وكتفين عاريتين رائعتين، تحيط عنقها بصفين من اللآلئ الكبيرة، وجلست في المقصورة المجاورة ببطء يدل على أنها من النبلاء وسط حفيف ثوبها الحريري.

وبالرغم منها، ألقت ناتاشا نظرة إعجاب على ذلك الجيد وتينك الكتفين وتلك اللآلئ. وبينما هي تتأملها للمرة الثانية، التفتت السيدة فتلاقت نظرتها ونظرة الكونت؟ وحينئذ أومأت له إيماءة خفيفة برأسها وهي تبتسم. تلك كانت الكونتيسة بيزوخوف. مال الكونت نحوها، وهو الذي يعرف كل الناس، وباشر معها الحديث.

ـ لقد مضى زمن طويل لم أرك خلاله يا كونتيسة؟ نعم، نعم، سأحضر لأقبل يدك. إنني في موسكو لأعمال وقد اصطحبت معي بناتي، يقال إن السيمينوڤا تمثل بشكل يدعو إلى الإعجاب. لقد كان الكونت پيار كيريلوڤيتش دائماً من خلصائنا. هل هو هنا؟

قالت هيلين وهي تنظر إلى ناتاشا بعناية ملحوظة: نعم وكان يزمع المجيء.

عاد الكونت إلى مكانه وقال لابنته بصوت خفيض: إنها جميلة أليس كذلك؟

ـ رائعة!... إنني أفهم عشق الناس لها!

وفي تلك الأثناء انتهى عزف الافتتاحية، فقرع رئيس الجوقة آلته بعصاه الدقيقة. فأسرع المتفرجون المتأخرون إلى احتلال أماكنهم في القاعة ورفع الستار.

ساد سكون عميق في القاعة كلها وأدار المتفرجون الشيوخ والشبان على السواء في ثيابهم الرسمية أو العادية والسيدات، كاشفات النحور والصدور، المتزينات بالحلي، يتطلعن نحو المسرح. فحذت ناتاشا حذوهم.

الفصل التاسع

زينت جنبات المسرح بمشاهد أشجار وأقيمت في وسطه «أرضية»، أما الأفق فتشكله قطعة قماش مدهونة وقد اجتمعت في الوسط شابات بأحزمة حمراء وتنورات بيضاء. جلست إحداهن منتحية جانباً على موطئ تعلوه قطعة من الورق المقوى الأخضر ملصقة من الوراء وهي في ثوب حريري أبيض. بدأت الفتيات ينشدن معاً. فلما انتهين، تقدمت ذات الثوب الأبيض نحو الفتحة التي يختفي فيها الملقّن. عندئذ اقترب منها رجل كانت سراويله الحريرية الملتصقة بجسده تبرز ضخامة ساقيه وراح يغني وهو يحرك يديه وقد وضع ريشة في قبعته وتمنطق بخنجر.

في بادئ الأمر غنى ذو السراويل الملتصقة ثم حان دور زميلته. وبعدئذ سكتا كلاهما وتابعت الجوقة العزف بينما راح الرجل يربت يد زميلته ضابطاً الإيقاع منتظراً اللحظة الفنية للبدء بغناء ثنائي. وبعد أن غنيا صفق كل من في القاعة لهما، بينما راح الممثلان اللذان كانا في دور زوج من العشاق ينحنيان مبتسمين ذات اليمين وذات اليسار.

كانت ناتاشا القادمة من الريف في حالة فكرية جدية، فبدا لها ذلك المشهد غريباً بل مضحكاً. كان يستحيل عليها أن تتبع سير الحوادث وأن تصغي إلى الموسيقى. لم تكن ترى غير قماش مصبوغ ورجال ونساء مرقشين يتحركون ويتكلمون ويغنون تحت ضوء شديد شديد. طبعاً لم تكن تجهل التمثيلية، لكن المجموع كان يبدو لها شديد التصنع والارتجال حتى

إنها راحت تشعر بخجل للممثلين حيناً وبرغبة قوية في الضحك حيناً آخر. أجالت عينيها حولها محاولة أن تكتشف على أسارير المتفرجين آثار حالة نفسية مماثلة. لكن الوجوه المنتبهة كلها إلى ما يدور على المسرح كانت تعبّر عن حماسة مشكوك في إخلاصها على ما بدا لها. قالت في سرها: «يجب أن يكون الأمر كذلك بدون شك». راحت تفحص دورياً الرؤوس المضمخة في القاعة والنساء الحاسرات في المقاصير وبصورة خاصة جارتها هيلين التي كانت شبه عارية تنظر إلى المسرح بابتسامة هادئة دون أن تخفض عينيها متمتعة بالنور الشديد وجو القاعة الدافئ. استسلمت ناتاشا رويداً رويداً للون من الثمل لم تحسه منذ أمد طويل، لم تعد تعرف ما تفعل وتعرف أين هي ولا ما يدور تحت ناظريها. كانت تنظر دون أن ترى بينما كانت الأفكار الأكثر رعونة تمر في رأسها. استبدت بها رغبة في تسلق الحاجز وغناء المقطوعة التي غنتها الممثلة تارة وبمضايقة كهل قصير القامة، جالس على مقربة منها، بمروحتها أو الانحناء نحو هيلين ودغدغتها حيناً آخر.

خلال فترة استراحة بين قطعتين غنائيتين، صرَّ باب القاعة المجاور لمقصورة آل روستوف، وارتفعت خطوات متفرج متأخر. همس شينشين: «آه! هو ذا كوراغين!» التفتت الكونتيسة بيزوخوف وابتسمت للقادم الجديد. تبعت ناتاشا نظرتها فشاهدت مساعداً عسكرياً ذا جمال خارق يتجه نحو مقصورتهم وعلى وجهه علامات الترفع والبشاشة. ذاك كان أناتول كوراغين الذي رأته من قبل في الحفلة الراقصة في بيترسبورغ. وهو يرتدي الآن ثوب المساعد العسكري تتدلى الشارات على «كتافته» الوحيدة. أخذ يقترب بمهابة واتزان كان يمكن أن يكونا مضحكين لو لم يكن على جانب كبير من الجمال ولم يعرب وجهه المتناسق عن قناعة كاملة. وعلى الرغم من أن الفصل كان في سياقه، فأخذ يمشي فوق سجادة الممشى وهو يدق بمهمازيه وحسامه دقاً

خفيفاً ويسير متمهلاً شامخاً برأسه المعطر. ولما وقع نظره على ناتاشا اقترب من أخته وأسند يده المغيبة في قفاز إلى حافة المقصورة ثم أومأ لها برأسه ومال على أذنها وأخذ يهمس فيها وهو يشير إلى جارتها، قال:

ـ ولكن فتانة!

ومن حركة شفتيه، خمنت ناتاشا تلك الكلمات أكثر مما سمعتها وعرفت بما لا يقبل الشك أنها قيلت عنها. ذهب بعدئذ إلى الصف الأول من المقاعد وجلس بجانب دولوخوف بعد أن وكز ذلك الشخص الذي يحاول كل الناس الحصول على رضاه وكزة تدل على الألفة، خصه بغمزة مرحة من عينه ثم أسند ساقه إلى الحاجز.

قال الكونت: كم يتشابه الأخ والأخت! وكم هما جميلان!

وبصوت خفيض، قص عليه شينشين فضيحة جديدة لكوراغين في موسكو، فأصغت ناتاشا إلى تلك القصة لمجرد أنه قال عنها إنها فاتنة.

انتهى في الفصل الأول فنهض كل من في القاعة واختلط الحابل بالنابل بين خارج وداخل.

جاء بوريس يحيّي آل روستوف في مقصورتهم فتلقى منهم تهانيهم ببساطة متناهية، ودعا ناتاشا وسونيا نيابة بدلاً عن مخطوبته لحضور زواجهما وهو رافع حاجبيه قليلاً تطوف على شفتيه ابتسامة ساهمة ثم انسحب. استقبلت ناتاشا بوريس ذلك الذي كانت مفتونة به في الماضي، وهنأته بزواجه بجذل مبتسمة. كان كل شيء في نظرها بسيطاً وطبيعياً بفضل حالة السكر التي كانت عليها.

كانت هيلين نصف العارية الجالسة بالقرب منها تبتسم لكل الناس فمنحت ناتاشا بوريس ابتسامة من ذلك النوع.

وسرعان ما امتلأت مقصورة هيلين وحوصرت بلفيف من الرجال

المرموقين الذين بدا من تصرفهم أنهم يفاخرون باطلاع كل الناس على معرفتهم بها.

بقي كوراغين مع دولوخوف طوال الوقت الذي استغرقته الاستراحة وظهره إلى الحاجز وعيناه شاخصتان إلى مقصورة آل روستوف، فهمت ناتاشا بسرور أنه يتحدث عنها، فجلست بشكل يسمح له برؤيتها من الجانب، وهي وضعية كانت، على ما تعتقد، تزيد في إبراز مفاتنها، وقبل بدء الفصل الثاني بقليل، ظهر في القاعة پيار بيزوخوف الذي لم يره آل روستوف منذ أن وصلوا إلى موسكو. بدا حزيناً أكثر سمنة مما رأته عليه ناتاشا في المرة الأخيرة، ذهب إلى الصفوف الأولى دون أن يلاحظ أحداً، استوقفه أناتول وقال له شيئاً ما وهو يسير إلى مقصورة آل روستوف. ولما وقع نظره على ناتاشا، انبسطت أساريره وسارع الخطو خلال صفوف المقاعد متجهاً نحوها. اتكأ بمرفقيه على المقصورة ودخل في حديث طويل مع ناتاشا.

في تلك الأثناء، بلغ مسامع الفتاة صوت رجل في مقصورة الكونتيسة وعرفت بغريزتها أنه صوت كوراغين. أدارت رأسها وقابلت نظرته. تفحصها وهو يبتسم بعينين غاية في الإعجاب حتى إنها شعرت بمزيد من الخجل لوجودها على هذا القرب منه ولاحتمالها نظرته وثقتها بأنها أعجبته دون أن تكون قد تعرفت به حتى تلك اللحظة.

مثلت مناظر الفصل الثاني أبنية مقبضة مأتمية وصُور القمر بواسطة ثغرة في الشاشة ورفعت عاكسات الضوء عن الحاجز وبدأت الطبول والكمانات الضخمة (كونترباس) تردد أصواتاً خافتة مكتومة، بينما تقدمت من يمين المسرح ويساره جوقة من الأشخاص في ملابس سوداء. راح هؤلاء يكثرون من الحركات ويهزون في أيديهم أشياء تشبه الخناجر، ثم أسرعت فرقة أخرى تنوي أخذ الفتاة التي شوهدت في الفصل الأول في ثياب بيضاء، والتي

كانت الآن ترتدي ثوباً أزرق لكنهم لم يأخذوها فوراً على أية حال بل غنوا طويلاً معها. وعندما اصطحبوها أخيراً، ارتفع صوت معدني ثلاث مرات في الكواليس، وحينئذ سقط الممثلون جميعاً على ركبهم ودوت أصواتهم بصلاة. ولقد قوطعت هذه المشاهد المختلفة مراراً بصيحات الإعجاب من جانب المتفرجين.

كلما سرحت ناتاشا في القاعة نظرها، كانت تجد أناتول كوراغين مستنداً إلى مسند مقعده، يلتهمها بنظره. كانت تشعر بلذة عند رؤيته صريع فتنتها دون أن ترتاب في أن ينطوي ذلك على أي سوء.

عندما انتهى الفصل الثاني، نهضت الكونتيسة بيزوخوف واستدارت نحو آل روستوف، وجيدها عار، فاستدعت الكونت العجوز بإشارة من اصبعها الصغيرة المستترة في القفاز. ودون أن تعير الأشخاص الذين كانوا يدخلون مقصورتها التفاتاً، دخلت معه في حديث جملته بأعذب ابتساماتها قالت له:

ـ قدم إليّ فتاتيك الفاتنتين. كل المدينة تتحدث عنهما وأنا وحدي لا أعرفهما.

وقفت ناتاشا وانحنت احتراماً للكونتيسة الجليلة. كانت إطراءات ذلك الجمال الشهير يلذ له لدرجة أن احمرّ وجهها من الاغتباط. استأنفت هيلين: إنني أعتزم أن أصبح موسكوفية حقيقية. ألا تخجل من دفن مثل هذه اللآلئ في الريف؟

كانت في الحقيقة تستحق لقب ساحرة. كانت تنعم بمزية قول ما لا تفكر فيه وإطراء الناس دون أن تتظاهر بذلك.

ـ يجب أن تسمح لي يا عزيزي الكونت بالاهتمام بابنتيك. رغم أنني لست هنا لمدة طويلة، كما هو شأنك كذلك، فإنني سأعمل جاهدة على الترفيه عنهما.

وأضافت تخاطب ناتاشا وابتسامتها ثابتة على شفتيها: لقد سمعتهم يتحدثون عنك كثيراً في پيترسبورغ وكنت في شوق كبير إلى التعرف إليك. نعم، لقد سمعت بك أولاً عن طريق وصيفي، دروپتسكوي ـ هل تعرفين أنه سيتزوج؟ ـ ثم عن طريق صديق لزوجي، پولكونسكي، الأمير أندريه پولكونسكي.

أبرزت هذا الاسم بشكل يفهم معه أنها لا تجهل الرباط الذي يجمع بينهما. ثم طلبت إلى الكونت أن يسمح لواحدة من الفتاتين بقضاء الوقت حتى نهاية العرض في مقصورتها لتزداد تعمقاً في معرفتها، فانتقلت ناتاشا إلى مقصورتها.

كان المشهد الثالث صور قصر سابح في النور تزينه لوحات تمثل فرساناً ملتحين في الوسط، وقف شخصان، ملك وملكة بلا شك، قام الملك بحركة بيده اليمنى غنى لحناً أميل إلى الرداءة والرعب ظاهر عليه، ثم اعتلى عرشاً من القطيفة، أما الفتاة التي شوهدت أول مرة في ثوب أبيض ثم في ثوب أزرق، لم تكن الآن مرتدية إلا قميصاً، وهي واقفة قرب العرش مشعثة الشعر. أخذت تغني قصيدة كئيبة وهي مستديرة نحو الملكة. لكن الملك استوقفها بإشارة حازمة. واندفعت زمرة من الرجال والنساء عراة السيقان من الكواليس وبدأوا يرقصون معاً. ثم عزفت «الكمانات» لحناً هادئاً فانفصلت إحدى النساء التي كانت ذراعاها النحيلتان تتنافيان مع ساقيها الضخمتين عن الآخرين، وبعد أن اختفت فترة وراء الكواليس لتسوي حزامها اقتربت إلى منتصف المسرح وبدأت تقفز في الهواء وهي تضرب قدميها الواحدة بالأخرى. وعندئذ انفجر كل من في القاعة مصفقين هاتفين! ثم استقر رجل في ثوب سباحة في إحدى زوايا المسرح وراح يقوم بقفزات ودورات كثيرة على دوي الطبول والصنوج. كان ذلك الرجل هو دوبور، الذي كانت تلك الحركات تعود عليه بستين

ألف روبل في العام، صفق المتفرجون جميعاً، أولئك الذين في القاعة وفي المقاصير وفي الغرف العليا وهتفوا له وحيوه بكل قواهم.

توقف الرجل لتحيتهم وتوزيع الابتسامات كل صوب. أعقبه راقصون وراقصات آخرون ثم صاح أحد العاملين بكلمات على إيقاع الموسيقى، فدوت أصوات الممثلين جميعاً في غناء جماعي. وفجأة هبت عاصفة وراح الموسيقيون يقرعون أعلى الطبقات على مختلف آلاتهم، واندفع الممثلون يجرون ومن جديد سحب أحد الممثلين إلى الكواليس، ثم أسدل الستار. عاد الصخب إلى أشده في القاعة وفاضت الحماسة وراح كل متفرج يهتف: «دوبور! دوبور! دوبور!» ولم تعد ناتاشا ترى شيئاً غريباً في كل هذا، بل إنها أحست بلذة في التفرج وهي مبتسمة على ما حولها. سألتها هيلين:

ـ إنه مدهش دوبور هذا أليس كذلك؟

فأجابت: أوه! نعم.

الفصل العاشر

قالت هيلين وهي تنظر بقلق من واحد إلى آخر: اسمحي لي أن أعرّفك إلى أخي. وسرى إلى المقصورة هواء بارد أثناء الاستراحة، وكان أناتول منحنياً يحاذر أن يصطدم بأحد.

أدارت ناتاشا رأسها نحو ذلك الشاب الجميل وابتسمت له من فوق منكبها العاري. وجلس أناتول، الذي كان عن قرب على مثل جماله عن بعد، بجانب الفتاة وقال إنه ظل يرغب في أن يقدم إليها منذ ذلك اليوم الذي لن ينساه يوم أن أسعده الحظ برؤيتها في حفلة ناريشكين الراقصة. تظاهر أناتول أمام النساء أنه أكثر بساطة وأحدّ ذكاء مما يظهر به أمام الرجال. تحدث بحماسة فأحست ناتاشا بدهشة لطيفة حين لم تجد في هذا الرجل شيئاً مرعباً رغم ما يُروى عنه من أشياء، وأن ترى له على العكس، ابتسامة هادئة وقلبية.

سألها ما هو رأيها بصدد الرواية وقصّ عليها أن «السيمينوڤا» سقطت خلال العرض السابق على الأرض أثناء قيامها بحركاتها وفجأة قال بصوت منطلق وكأنه يعرفها منذ أمد طويل:

ـ أتعرفين ماذا يا كونتيسة؟ إننا ننظم حفلة تنكرية، يجب أن تشتركي فيها، ستكون مسلية جداً. سيكون الاجتماع العام لدى آل كاراغين. ستحضرين أليس كذلك؟

لم يشح بناظريه عن وجهها طوال الحديث ولم يفتأ يتأمل جيد ناتاشا وذراعيها العاريتين. كانت واثقة بأنه يتأملها بإعجاب، لكن ارتباكاً متزايداًبدأ

يمتزج بالبهجة التي كانت تحس بها. وعندما تحول ناظريها، كانت تشعر بثقل نظرة أناتول على كتفيها وحينئذ تعود دون شعور إلى البحث عن نظرته لتحول تأمله إلى وجهها. لكنها وهي تنظر إليه على ذلك النحو، كانت تشعر بهلع أن الحواجز التي أقامتها العفة بينها وبين الرجال الآخرين، تنهار. لم تكن تستطيع أن تفسر لنفسها كيف أصبحت خلال خمس دقائق على مثل هذا التقارب من هذا الرجل فإذا أدارت رأسها، ارتعدت خوفاً من أن يمسك بيدها أو يطبع قبلة على قذالها. ومهما بلغ حديثهما من الابتذال، فإنها كانت تفهم أنهما أصبحا أليفين ألفة لم تسمح لنفسها بمثلها مع أي رجل آخر. راحت تستفسر هيلين والكونت بعينيها، تسألهما عن معنى كل هذا. لكن هيلين التي كانت تتحدث مع أحد الجنرالات، لم تلحظ ذلك النداء، أما نظرة أبيها فكانت تقول لها: «إنك تتسلين، وأنا راض مسرور جداً».

في إحدى تلك اللحظات من الصمت المرتبك التي لم يكن أناتول خلالها يكف عن النظر إلى ناتاشا بعناد بعينيه الجاحظتين، سألته هذه، لتحطم الصمت، عما إذا كانت موسكو تروقه. لكن هذا السؤال ما كاد يفلت من بين شفتيها حتى احمرّ وجهها. كان يخيل إليها أنها بالتحدث إلى هذا الرجل إنما ترتكب مخالفة. ابتسم أناتول وكأنه يشجعها: لم تكن موسكو تعجبني حتى اليوم، لأن النساء الجميلات هن اللواتي يجعلن المدينة جميلة أليس كذلك؟ أما الآن، فعلى العكس. إنني مسرور جداً.

ونظر إليها نظرة معبرة: ستأتين لحضور الحفلة أليس كذلك يا كونتيسة؟ تعالي.

ومدّ يده نحو باقة ناتاشا وتابع وهو يخفض صوته: ستكونين أجمل الموجودات. تعالي يا عزيزتي الكونتيسة، وأعطني هذه الزهرة عربوناً على مجيئك.

أحست ناتاشا بخجل دون أن تفهم تماماً الغاية المستترة وراء كلماته. لما لم تدر بمَ تجيب، أشاحت عنه متصنعة عدم سماع قوله. ولكن ما لبثت فكرة وجوده هنا، شديد القرب منها، أن أضجرتها مجدداً.

وراحت تتساءل: «ماذا يفعل؟ هل هو غاضب علي؟ يجب تسوية هذا الأمر». لم تستطع الإمساك عن إدارة رأسها ونظرت مباشرة إلى عينيه. تسلط عليها وجود أناتول القريب واطمئنانه وجودة نفسه الحكيمة. ابتسمت ابتسامة تشبه ابتسامته وفكرت أنه لم يعد من حاجز بينهما.

مجدداً، ارتفع الستار، فخرج أناتول من المقصورة مبتهجاً. عادت ناتاشا إلى مقصورة أبيها وهي خاضعة تماماً لهذا العالم الجديد الذي دخلته. أصبح كل ما يدور حولها منذ ذلك الحين طبيعياً. لم تعد في مقابل ذلك تفكر قط في قلقها من أجل خطيبها والأميرة ماري والحياة الريفية التي أمضتها. بدا أن كل هذا أصبح من الماضي، ماضٍ عريق في القدم.

انبعث امرؤ، في الفصل الرابع، يشبه الشيطان وراح يفرط في الحركات ويغني حتى فتحت فتحة اختفى فيها. بل لعل هذا كل ما استطاعت ناتاشا أن تراه لشدة ما كانت مضطربة، أما سبب هذا الانفعال فكان أناتول كوراغين الذي ما انفكت رغماً عنها تلاحقه بعينيها. وعندما خرجوا من المسرح، جاء واستقدم عربتهم وساعدهم على الركوب. وبينما هو يساعد ناتاشا على الصعود، ضغط على ذراعها فوق المرفق. خجلت واحمرّ وجهها، وغامرت بالنظر إليه:

كان أناتول يتأملها بعينيه البراقتين وهو يبتسم ابتسامة حانية.

ولما وصلت ناتاشا إلى المنزل، شعرت بما حدث في أعماقها. وفجأة روعت عندما تذكرت الأمير أندريه. وبينما هم يتناولون الشاي بعد العرض، أطلقت صرخة وأسرعت إلى غرفتها ووجهها قان.

قالت في سرّها: «رباه، لقد ضعت! كيف أمكنني أن أسمح له بذلك»؟ بقيت فترة طويلة جالسة في مكانها، تخفي وجهها القرمزي بين يديها، محاولة عبثاً تنظيم مشاعرها الثائرة. بدا لها كل شيء مريعاً. هناك، في تلك القاعة الكبيرة المضاءة، حيث كان دوبور يقفز فوق ألواح ندية من الخشب على ألحان الجوقة، وهو في ثياب السباحة وفوقها سترة خفيفة، تلاحقه «المرحات» المتحمسة من أفواه الفتيات والشيوخ ومن هيلين ذات الابتسامة الهادئة؛ هناك في ظل هيلين تلك، كان كل شيء واضحاً وبسيطاً. أما الآن، فعلى العكس، عندما أصبحت وحيدة منفردة مع نفسها، لم تعد تفهم شيئاً. تساءلت: «ما معنى كل هذا؟ ما معنى ذلك الخوف الذي ألهمنيه؟ ما معنى هذا التقريع الذي أنا فريسة له؟»؟.

لم تكن تستطيع الإفضاء بمكنونات قلبها إلا الكونتيسة العجوز خلال إحدى زياراتها الليلية إلى غرفتها وفي سريرها. لم تكن تستطيع الإفصاح عن شعورها إلى سونيا التي لا يمكنها أن تفهم شيئاً من هذا الاعتراف، وهي التي لها أسلوبها الشامل في النظر إلى الأمور. بل إن مثل هذا الاعتراف كفيل بإخافتها. وعلى هذا، لم يكن على ناتاشا إلا أن تعتمد على نفسها لتتعرف إلى حقائق الأمور في أعماقها.

«هل فقدت الإحساس بغرام أندريه أم لا؟» تساءلت قلقة. لكنها سرعان ما تطمئن نفسها بابتسامة وتفكر: «كم أنا حمقاء بطرح مثل هذا السؤال على نفسي! ماذا حدث بالفعل؟ لا شيء إطلاقاً. لم أرتكب إثماً ولست مسؤولة أبداً عما حدث. لن يعرف أحد شيئاً، لن أراه بعد اليوم أبداً... نعم، إنه واضح، لم يحدث شيء. إنني لا أحس بوجوب الندم على خطأ ارتكبه يمكن للأمير أندريه أن يحبني كما أنا، ولكن ماذا أصبحت أنا؟ آه يارب! لمَ لا يكون هنا؟» استعادت ناتاشا السكينة برهة، ولكن لم يلبث شعور غامض أن قال لها أن

طهر حبّها السابق لأندريه ونقاءه قد تكدر ما دام الأمر وقع على هذا النحو. وعندئذ رجعت إلى ذاكرتها قسراً كل تفاصيل مداولتها مع كوراغين. عادت ترى وجهه، ذلك الفتى الجميل وحركاته وابتسامته الحانية عندما ضغط على ذراعها.

الفصل الحادي عشر

نزولاً عند رغبة أبيه، استقام أناتول كوراغين في موسكو، إذ تعب أبوه من رؤيته ينفق في بيترسبورغ ما يربو على العشرين ألف روبل سنوياً ويستدين مثلها، فيأتي الدائنون يطالبون الأمير العجوز بسداد الديون.

للمرة الأخيرة وافق على تسديد نصف ديون ولده بشرط واحد: أن يذهب أناتول فوراً إلى موسكو، حيث جعل الجنرال الأعلى يقبله برتبة مساعد، وأن يسعى جهده للزواج بوارثة غنية، الأميرة ماري مثلاً أوأقله جولي كاراغين.

وافق أناتول إلى موسكو. أقام عند بيار الذي استقبله، بادئ الأمر، في غير ترحاب ثم لم يلبث أن ألفه وساهم معه في بعض مباذله بل أعطاه بعض المال بصفة قرض.

لقد نطق شينشين بالحقيقة: منذ وصول أناتول إلى موسكو، شده النساء فيها وبصورة خاصة، لأنه كان يهملهن ويلتفت إلى البوهيميات والممثلات الفرنسيات اللواتي كانت مقدمتهن، الآنسة جورج، عشيقة له. لم يكن يتغيب عن حفلة من حفلات دانيلو وغيره من المرحين في موسكو، ويبارز خلال ليال طويلة أصلب السكيرين، يحضر الحفلات الراقصة وكل السهرات التي تحييها الطبقة الراقية. وكان يغازل النساء أثناءها، وهم يسردون عدداً من مغامراته الناجحة، لكنه لم يكن يقرب الفتيات وخصوصاً الوارثات الغنيات اللاتي يمتاز معظمهن بالبشاعة. وكان الدافع إلى هذا التحفظ، سبب حازم لا يعرفه إلا خلصاؤه: كان متزوجاً منذ عامين.

وفي الواقع، عندما كان في الفيلق المعسكر في بولونيا، أقنعه أحد أثرياء الريف أن يتزوج ابنته. ولم تمض فترة وجيزة، حتى هجر أناتول زوجته لقاء دخل تعهد بتقديمه لحميه، فحصل بذلك على امتياز بالتظاهر بمظهر العازب.

كان أناتول دائم الرضى عن مصيره وعن نفسه وعن الآخرين، مقتنعاً بغريزته بأنه إنما يعيش الحياة الوحيدة التي تلائم طبيعته وأنه لم يسئ قط إلى أحد. كان عاجزاً عن إدراك ما ينجم من إساءات عن كذا أو كذا من تصرفاته، وما قد يسبب بعضها من انطباعات في نفوس الآخرين، كان يؤمن بقوة بأنه خلق في هذه الدنيا لينفق ثلاثين ألف روبل سنوياً ويشغل مركزاً مرموقاً في المجتمع كما خُلق البط ليعيش في الماء. وكان شديد الاقتناع بذلك، حتى أن الآخرين إذا ما رأوه، أقنعوا أنفسهم بصحة رأيه، فلا يرفضون منحه الرتبة أو المنزلة التي يطلب ولا يبخلون عليه بالقروض التي كان يجريها مع كل من تسنح له الفرصة بالاقتراض منه دون أن يفكر طبعاً في إعادة ما يقترض.

وأقله، لم يكن مقامراً، ولم يكن يبحث عن الربح. ولم يكن مزهواً ولا يأبه أبداً لما يقال عنه. كذلك كان نصيب اتهامه بالطمع أقل نجاحاً لقد أغضب أباه غير مرة معرضاً مركزه للخطر، مستهتراً بكل القيم. ولم يكن بخيلاً، بل كان يفتح كيس نقوده لكل مقترض. كان همه منصرفاً إلى النساء والملذات. ولما كان لا يجد شيئاً دنيئاً في أذواقه تلك، ولا يتصور أن يسبب تصرفه إرضاء لرغباته تلك أضراراً لسواه، فإنه كان يقدر نفسه بكل إخلاص وإيمان ويحتقر الصعاليك والأنذال. والخلاصة أنه كان يشمخ برأسه وهو قانع الوجدان.

يعتقد أنصار المسرات في الحياة دائماً بأنهم غير مذنبين. وهذه القناعة الساذجة عند مثل هؤلاء، تركز على الصفح شأنها عند النساء العابثات. «لسوف يصفح عنه كثيراً لأنه كان أحب كثيراً، سوف يصفح عنه كثيراً لأنه كان تسلى كثيراً».

رجع دولوخوف، الذي ظهر في موسكو بعد نفيه ومغامراته في بلاد العجم وراح يعيش عن سعة، يجدد علاقاته بكوراغين صديقه القديم في پيترسبورغ ويستخدمه في أغراضه. وكان أناتول يعجب بعقلية صديقه واستهتاره. وكان دولوخوف، وهو في أمسّ الحاجة إلى اسم كوراغين وعلاقاته ليجذب الشبان إلى شباكه كمقامر، يفيد من أناتول فائدة كبيرة ويسخر منه في أعماق نفسه. ثم إنه لم يكن يخضع لغاية واحدة. كان مجرد تسخير إرادة آخر وإرادته وفق هواه، متعة قائمة بذاتها وعادة بل حاجة.

أثّرت ناتاشا في أناتول تأثيراً قوياً. وبينما هو يتناول العشاء بعد العرض راح يصف لدولوخوف وصف الخبير، مفاتن ناتاشا ويطري ذراعيها وكتفيها وقدميها وشعرها وأعلن له عزمه على ملاحقتها ملاحقة عنيدة. أما إلى أي غاية تقوده تلك الملاحظة؟ فهذا ما لم يكن أناتول يفكر فيه. لم تكن نتائج تصرفاته المرتقبة تقلق باله قط.

قال له دولوخوف: إنها جميلة يا عزيزي، لكنه جمال ليس لنا.

ـ سأقول لأختي أن تدعوها لتناول الغداء. ماذا تقول؟

ـ بل انتظر ريثما تصبح متزوجة.

ـ أنت تعلم أنني أعبد الفتيات الصغيرات. إنهن يفقدن إحساسهن فوراً.

أجاب دولوخوف الذي كان يعرف زواج أناتول القسري:

ـ لقد سقطت من قبل في حفرة حفرتها فتاة صغيرة، فحذار.

استأنف كوراغين بضحكة مرحة: لا يدع المرء نفسه يهزم مرتين.

الفصل الثاني عشر

لم يخرج آل روستوف، في اليوم التالي للعرض ولم يأت أحد لزيارتهم. تحدثت ماري دميترييڤنا سراً مع إيليا أندرييـڤيتش، فخمنت ناتاشا أنهما تحدثا عن الأمير العجوز ودبرا معاً مشروعاً معيناً، الأمر الذي أقلقها وأغضبها معاً. كانت في كل لحظة تنتظر الأمير أندريه، وقد أرسلت البواب استجابة لنفاد صبرها، إلى شارع ايكزالتاسيون مرتين للاستطلاع. وفي كل مرة، كان ذلك الرجل يعود ليقول لها إن الأميرأندريه لم يصل بعد. أصيبت ناتاشا بشدة متزايدة. جاءت ذكرى مقابلتها مع ماري والأمير العجوز تنضم إلى نفاد صبرها واكتئابها بسبب غيابه «هو» إلى جانب قلق آخر لم تكن توفق في معرفة سببه. كانت تتصور دائماً أنه إما أن لا يعود وإما أن يحدث شيء ما قبل عودته. لم تعد تستطيع كسابق عهدها أن تفكر فيه بهدوء خلال فترات تأملاتها الطويلة في وحدتها. فلا تكاد صورة أندريه تظهر في خيالها إلا وترافقها صورة الأمير العجوز وماري، وكوراغين والعرض. ومن جديد تتساءل عما إذا لم تكن مذنبة، وهل لم تخن العهود التي قطعتها للأمير أندريه، ومجدداً تعود إلى تصور أدق التفاصيل وأتفه الكلمات والحركات وتبدل قسمات ذلك الرجل الذي عرف كيف يوقظ في نفسها شعوراً غامضاً مخيفاً. كانت تبدو لعيون المقربين إليها أكثر حيوية من عادتها، لكنها كانت أبعد ما تكون عن الهدوء والسعادة السابقين.

صباح الأحد، عرضت ماري دميترييڤنا على ضيوفها، حضور القداس في كنيسة «دورميسيون أو تومبو» قالت لهم وهي مزهوّة لاستقلالها:

ـ لا أحب الكنائس العصرية. إن الله هو هو في كل مكان. لدينا كاهن ممتاز يقوم بالطقوس بشكل لائق. وكذلك الشماس، إنه قدوة. أما تلك الحفلات الموسيقية التي تقام في الأماكن المقدسة، فإنني أمقتها لأنها تدنيس...

كانت ماري دميترييڤنا تحب يوم الرب وتتهيأ للاحتفاء به، كان خدمها يغسلون الدار وينظفونها منذ يوم السبت. فإذا جاء الأحد، ذهبت هي وخدمها إلى الصلاة راضين فلا يفعلون شيئاً في ذلك النهار. وكانت تضيف ألواناً جديدة من الأطعمة للسادة وتسمح للخدم بشرب الخمور إلى جانب الطعام المؤلف من أوزة مشوية وخنزير صغير. لكن ما من شيء في المنزل ينبئ بالعيد أكثر من وجه ماري دميترييڤنا العريض الصارم الذي تعلوه في مثل ذلك اليوم أمارات الجلال.

بعد أن تناولوا القهوة بعد القداس في قاعة الاستقبال، جاء خادم يعلن لماري دميترييڤنا أن عربتها قد قُربت. فنهضت السيدة الطيبة التي كانت مرتدية شالها الفاخر وأعلنت بلهجة صارمة أنها ذاهبة عند الأميرنيكولا أندرييـڤيتش بولكونسكي لكي تتفاهم معه حول موضوع ناتاشا.

بعد ذهابها، جاءت حائكة ثياب من قبل مدام شالميه فذهبت ناتاشا معها إلى الغرفة المجاورة وهي سعيدة بهذه التسلية. أغلقت الباب وراحت تستعد لتجربة أثوابها الجديدة. بدأت بحزام داخلي مشرّج دون أكمام. وبينما كانت ناتاشا مائلة الرأس إلى الوراء تنظر إلى المرآة الكبيرة معاينة ظهر الحزام، تناهى إلى سمعها صوت محاورة محتدمة في القاعة الكبيرة بين أبيها وشخص آخر ما لبث صوته أن صعّد الدماء إلى خديها. كان ذلك الصوت هو صوت

هيلين، لم تكن ناتاشا قد خلعت حزامها بعد، عندما فتح الباب وظهرت الكونتيسة بيزوخوف مشرقة الوجه بابتسامتها البريئة الأنيسة، في ثوب من المخمل البنفسجي مرتفع الياقة. قالت لناتاشا التي أصبحت أرجوانية اللون: آه! يا لذيذتي! فتانة!

ثم أضافت وهي تلتفت إلى الكونت إيليا أندرييـڤيتش الذي كان داخلاً في أعقابها:

ـ حقاً يا عزيزتي الكونتيسة، إن هذا لا اسم له. أن تكونوا في موسكو ثم لا تذهبوا إلى أي مكان! كلا. لا أريد أعذاراً. إنني أستقبل هذا المساء بعض الأصدقاء. وستلقي الآنسة جورج بعض الأشعار. ـ فإذا لم تأتني بهما وهما ولا شك أجمل من الآنسة جورج، فإنني لا أرغب بعد اليوم في معرفتك. إن زوجي غائب. لقد ذهب إلى تفير[1] ولولا ذلك لأرسلته ليصحبكم. تعالوا حتماً، هل تسمعون: حتماً، اعتباراً من الساعة الثامنة.

حيث كانت الحائكة التي تعرفها بإشارة من رأسها، والتي أنجبت أمامها باحترام كبير ثم جلست في مقعد قرب المرآة الكبيرة وهي تنشر ثنيات ثوبها المخملي بحركة لطيفة، استمرت تثرثر بطيبة نفس وتكثر من تمجيد جمال ناتاشا وفتنتها. فحصت أثواب الفتاة فوجدتها مناسبة ذوقها وراحت تطري بهذه المناسبة ثوبها الذي تلقته من باريس إنه على أحدث طراز ومن أفخر الأقمشة، ونصحت ناتاشا بأن تستقدم لنفسها واحداً مثله. واختتمت قولها:

ـ على أية حال، إن كل شيء ينسجم معك يا فاتنتي.

أشرق وجه ناتاشا فرحاً، وانبسطت أساريرها بتأثير إطراء تلك الكونتيسة بيزوخوف الفاتنة التي بدت لها لأول وهلة عظيمة الجلال منيعة الجانب،

(١) مدينة روسية على نهر الـڤولغا، تدعى اليوم كالينين. (المترجم).

والتي راحت الآن تعرب لها عن كل هذه الطيبة. كانت على استعداد للافتتان بهذه المرأة المحبة بقدر ما هي جميلة. أما هيلين، فكانت من جانبها كلفة بناتاشا، ومن أجل ذلك، جاءت ذلك اليوم إلى حيث ينزل آل روستوف. بدت لها فكرة التقريب بين هذين الشابين مستحبة.

وعلى الرغم من السخط الذي أحست به مرة من قبل حينما انتزعت ناتاشا في بيترسبورغ بوريس منها، فهي لم تعد تفكر في ذلك قط، بل راحت من صميم قلبها تتمنى لها الخير على طريقتها. وقبل أن تنصرف، نأت «بمحميتها» جانباً: لقد تغدى أخي البارحة، في المنزل فأهلكنا من الضحك. إنه لا يأكل شيئاً في الآونة الأخيرة ويتنهد دون انقطاع حسرة عليك، يا فاتنتي. إنه مجنون بك يا عزيزتي.

اصطبغ وجه ناتاشا بلون قرمزي.

ـ آه! كيف يحمرّ وجهها، يا لذيذتي! إذن، لقد اتفقنا، ستأتين أليس كذلك؟ إذا كنت تحبين أحداً يا لذيذتي فليس ذلك مبرراً لتحبسي نفسك. حتى ولو كنت مخطوبة، فإنني واثقة بأن خطيبك سيسره أن تندفعي في المجتمع في غيابه بدلاً من أن تذوي هكذا من الضجر.

قالت ناتاشا في نفسها: «وهكذا، إنها تعرف أنني مخطوبة. لا شك أنهم تحدثوا في الأمر، هي وزوجها بيار هذا الذي هو الاستقامة نفسها، وضحكوا للمغامرة. وإذن، لا يوجد في الأمر أي سوء». ومجدداً، أصبح كل ما كان يبدو لها رهيباً، شديد البساطة طبيعياً تماماً بتأثير هيلين. فكرت وهي تحدق إلى هيلين بعينيها البريئتين المتسعتين: «كم هي مستحبة هذه السيدة الراقية! إنها تحبني من كل قلبها، بالتأكيد!... ثم، لماذا لا أرفه عن نفسي؟».

عادت ماري دميتريڤنا في وقت الغداء. كانت أماراتها العابسة تدل على

أنها منيت بهزيمة على يدي الأمير العجوز. لم يسمح لها انفعالها بأن تقصّ بهدوء تفاصيل الواقعة. أجابت عن سؤال من أسئلة الكونت أن كل شيء على ما يرام وأنها ستروي له كل شيء غداً. ولما اطلعت على دعوة هيلين أعلنت: إنني لا أحب هذه الـ: بيزوخوف ولا أنصحكم بمخالطتها.

وأضافت تخاطب ناتاشا: الآن وقد وعدت، إذهبي؟ سوف يرفه عنك ذلك.

الفصل الثالث عشر

كان المدعوون وهم كثرة لا تعرفهم ناتاشا جميعهم، وقام الكونت إيليا أندرييـڤيتش يرافق الفتاتين إلى منزل الكونتيسة بيزوخوف. لاحظ أبوها باستياء أن القسم الأكبر منهم، كان ممن اشتهروا باستهتارهم. كان الشبان يشكلون حلقة في إحدى الزوايا حول الآنسة جورج، وهناك بعض الفرنسيين، ومن بينهم ميتيـڤيه، الذي منذ مجيء هيلين إلى موسكو أصبح من المترددين إلى منزلها. قرر الكونت البقاء مع فتاتيه مستغنياً عن اللعب وأن ينصرف منذ أن ينتهي التمثيل.

وقف أناتول قرب الباب يترقب وصولهم. وبعد أن حيا الكونت، اقترب من ناتاشا وتبعها. فما كادت تراه حتى شعرت بذلك الإحساس الغريب، كما حدث لها في المسرح، الذي يناضل فيه الزهو القانع ضد الرعب الذي يحدثه في نفسها انهيار كل الحواجز الأخلاقية بين هذا الرجل وبينها.

وبمبادرة جزلة، استقبلت هيلين ناتاشا وأكبرت جمالها وزينتها بصوت مرتفع وبعد حين، خرجت الآنسة جورج لارتداء ثيابها، فرصفت المقاعد لجلوس المدعوين وشغل كل امرئ مكانه. قدم أناتول كرسياً إلى ناتاشا وأراد أن يجلس بقربها لكن الكونت الذي لم يكن يبتعد عن ابنته، احتل المقعد المجاور. فجلس أناتول وراءها.

وقفت الآنسة جورج بذراعيها الضخمتين العاريتين ذواتي «الغمازات» وشال أحمر على إحدى كتفيها في الفراغ المخصص لها وسط المقاعد وقفة

متأهبة. فاستقبلتها همهمة إعجاب. وبعد أن تصفحت الوجوه بنظرة محزنة، راحت تستظهر أشعاراً، موضوعها حبها المجرم لابنها. كانت ترفع صوتها في بعض المقاطع وتخفضه في مقاطع أخرى وهي تشمخ برأسها باعتداد. وأحياناً تتوقف وترسل حشرجات وهي تدير في الموجودين عينين كبيرتين. صاح المدعوون من كل جانب:

ـ معبودة، سماوية، رائعة!

لم تسمع ناتاشا شيئاً أو ترى شيئاً وهي شاخصة بعينيها إلى جورج الضخمة. شعرت مجدداً أنها محولة نهائياً في ذلك العالم السحري المختلف كلياً عن الذي عاشت فيه من قبل، عالم لا يمكن تمييز الخير من الشر فيه ولا العقل من الجنون. كان أناتول جالساً وراءها ولما كانت تشعر به، فقد ظلت متشنجة في ترقب مغموم.

وبعد إلقاء الشعر، أحاط كل المتفرجين بالآنسة جورج مطلقين الأعنة لحماستهم. قالت ناتاشا لأبيها الذي وقف كالآخرين ومشى نحو الممثلة مع الجماعة: كم هي جميلة!

وقال أناتول الذي تبع ناتاشا: عندما أراك، أكون على رأي آخر.

ثم انتهز فرصة وجد أنها ستسمعه وحدها وقال:

ـ إنك لذيذة... منذ اللحظة التي ظهرت فيها لي، لم أكف...

قال الكونت وهو يعود نحو ابنته: تعالي يا ناتاشا، كم هي جميلة!

لحقت ناتاشا بأبيها ساكتة وهي تتفحصه بنظرة ذاهلة.

وبعد أن مثلت مشاهد أخرى، انسحبت الآنسة جورج فدعت الكونتيسة بيزوخوف ضيوفها إلى قاعة الرقص.

همّ الكونت بالانصراف. لكن هيلين توسلت إليه ألّا يفسد روعة الحفلة غير المنتظرة. وبقي آل روستوف. راقص أناتول ناتاشا على أنغام الـڤالس

وأعلن لها وهو يضغط على يديها، أنه يحبها وأنها رائعة الجمال. وخلال رقصة «الإيكوسيز» التي رقصاها معاً كذلك اكتفى أناتول خلال اللحظات التي كانا فيها وحيدين، بالنظر إلى وجهها دون أن يتفوه بكلمة. تساءلت ناتاشا حينئذ عما إذا لم تكن حلمت أنها سمعت ما قاله خلال رقصة الـڤالس. وعند انتهاء الحركة التصويرية الأولى، عاد يضغط على يدها مجدداً. رفعت ناتاشا إليه عينين مروعتين. لكن نظرة أناتول وابتسامته كانتا مطبوعتين بحنان شديد الثقة حتى أنها لم تستطع أن تقول له كل ما أرادت قوله. أطرقت بعينيها وتمتمت:

ـ لا تقل لي مثل هذه الأشياء إنني مخطوبة وأحب شخصاً آخر.

وبينما هي تغامر بنظرة أخرى إليه، رأت أن اعترافها لم يحزن أناتول ولم يزعجه. قال لها همساً: لا تحدثيني عن هذا. ماذا يهمني؟ أقول لك إنني مجنون، عاشق مدنف بحبك. هل هي خطيئتي إذا كنت على مثل هذا السحر؟... حان دورنا.

نظرت ناتاشا إليه دون أن ترى بعينيها الوحشيتين، مرتبكة ساخطة فبدت أكثر مرحاً من المألوف فما كانت تحس بما يدور حولها إلا لماماً بعد رقصة الإيكوسيز، بدأ رقصة «الجَدّ»، وهي رقصة تصويرية ألمانية، كانوا ينهون بها حفلات العرس الراقصة وكانت شائعة في روسيا. أراد أبوها أن يعود بها لكنها طلبت إليه البقاء. تنقلت كثيراً وغيّرت مكانها وتحدثت إلى هذا وذاك، لكنها بقيت تشعر بنظرة أناتول تلاحقها. تذكرت فيما بعد أنها طلبت إلى أبيها أن يسمح لها بالذهاب إلى غرفة الزينة لتسوية ثوبها وتبعتها هيلين إلى هناك وحدثتها وهي ضاحكة عن حب أخيها. وفجأة رأت نفسها في مخدع صغير مع أناتول. لقد تركتهما هيلين منفردين: أناتول وهي: فأمسك هذا بيديها وقال لها بصوت ضعيف: لا أستطيع المجيء إليك، ولكن هل يمكن ألّا أراك بعد اليوم؟ إنني أحبك كالمجنون... هل أبدأ...؟

وقطع عليها السبيل وأمال وجهه عليها: كانت عيناه البراقتان شديدتي القرب من عينيها حتى أنها لم تعد ترى سواهما، همس صوت ملح: ناتالي؟

وأمسك بيديها حتى كاد يسحقهما. ناتالي؟

وبدت نظرتها التائهة وكأنها تقول: «لست أفهم؛ ليس عندي ما أقوله لك».

أطبقت شفتان ملتهبتان على شفتيها. لكنها في الوقت نفسه شعرت أنها أنقذت: ارتفع صوت خطوات واقترب حفيف ثوب عرفت ناتاشا هيلين. ألقت على الشاب نظرة مروعة واتجهت نحو الباب مرتجفة قرمزية الوجه.

قال لها أناتول: كلمة، كلمة واحدة بحق الله.

توقفت. كانت في لهفة إلى سماعه ينطق بتلك الكلمة التي تفسر لها كل ما حدث، تلك الكلمة التي تستطيع أخيراً أن تجيب عنها.

غمغم وهو لايدري ماذا يقول ولا شك:

ـ ناتالي، كلمة، كلمة واحدة.

وراح يكرر هذه العبارة حتى اللحظة التي بلغت هيلين مكانهما.

عادت هيلين وناتاشا إلى القاعة وذهب آل روستوف عائدين قبل تناول العشاء.

في تلك الليلة، لم تنم ناتاشا. كانت مسألة مستعصية الحل تعذبها بإلحاح: أيهما تحب، أناتول أو الأمير أندريه؟ كانت تحب الأمير أندريه. تذكرت شدة حبها له. لكنها تحب أناتول أيضاً. قالت في سرّها: «وإلا، هل كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ إذا كنت استطعت بعد كل ما حدث أن أجيب بابتسامة عن ابتسامته، إذا كنت بلغت هذه المرحلة، فإن معنى ذلك أنني أحببته منذ اللحظة الأولى، معنى ذلك أنه طيب ونبيل، يتعذر علي أن لا أحبه. فماذا أفعل إذا كنت أحب هذا وذاك؟» تلك كانت المسألة المقلقة التي لم تجد لها جواباً.

الفصل الرابع عشر

نهضوا جميعاً وثرثروا وعادت الحائكات عندما أقبل الغد بهرجه وأشغاله العادية، ثم وصلت ماري دميترييڤنا واجتمع الشمل حول مائدة الشاي. كانت ناتاشا تطالع من حولها بهيئة كئيبة محاولة الظهور كعادتها وعيناها متسعتان وكأنها تريد الإحاطة بأتفه نظرة توجه إليها.

وبعد الإفطار، وهو الوقت المفضل لديها، جلست ماري دميترييڤنا على مقعدها واستدعت ناتاشا وأباها الكونت العجوز إلى جانبها وأخذت تقول: حسناً يا أصدقائي. لقد فكرت في المسألة تفكيراً جدياً وهذه نصيحتي. كنت البارحة، كما تعلمان، في منزل الأمير نيكولا وتحدثت إليه... صحيح أنه رفع صوته متوهماً! ولكن لا يمكن أن يغلق فمي أنا. لقد حدثته بكل صراحة عن وجهة نظري.

سأل الكونت: وماذا قرر؟

ـ هـو؟... لا يريد الإصغاء إلى حرف واحد. ثم ما فائدة كل هذه المفاوضات. لقد تعذبت تلك الصبية الصغيرة حتى الآن بما فيه الكفاية. نصيحتي أن تنهيا أعمالكما هنا وأن تعودا إلى منزلكما في أوترادنواي وأن تنتظرا جميعاً بصبر...

صاحت ناتاشا: آه، كلا!

ـ بلى، بلى. يجب العودة والانتظار بصبر. إن الخطيب إذا جاء إلى هنا،

فإن الأمر لن ينتهي دون خصام. أما إذا كان وحيداً مع العجوز، فإنه قادر على الانتصار عليه بإقناعه ثم يلحق بكم بعد ذلك.

اقتنع إيليا أندرييـڤيتش بحكمة تلك النظرية فوراً فأيدها. ذلك أن العجوز إذا غيّر رأيه فمن السهولة الذهاب لرؤيته سواء في موسكو أو في ليسيياغوري. وفي الحالة العكسية، فإن زواجاً خارجاً عن رغبته لا يمكن أن يحتفل به إلا في أوترادنواي. قال:

ـ أنت على حق تماماً. أنا آسف لذهابي إلى منزله واصطحابي ناتاشا إلى هناك.

ـ ليس هناك ما يستوجب الأسف. ما كان يمكنكم وأنتم في موسكو إلا أن تقوموا نحوه بتلك المجاملة مرغمين.

وأضافت ماري دميترييڤنا وهي تبحث في حقيبة يدها: إذا أمعن في رفضه، فذلك شأنه. وبما أن الجهاز حاضر، فمن العبث الانتظار أكثر من ذلك. أما ما ينقص بعد، فإنني على استعداد لتوفيره لكم. إنني آسف لرؤيتكم تغادرونني، لكن ذلك أفضل. فاذهبوا يا أصدقائي أتمنى لكم سفراً سعيداً.

ولما عثرت أخيراً على ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها، قدمته إلى ناتاشا. كانت رسالة من الأميرة ماري.

ـ إنها كتبت إليك. المسكينة! إنها تزعج نفسها كثيراً. إنها تخاف من أن تتوهمي أنها لا تحبك.

أجابت ناتاشا بجرأة وهي تأخذ الرسالة: مهما قيل، فأنا أعرف أنها لا تحبني.

كان وجهها يعبر عن عناد قاس للغاية حتى أن ماري دميترييڤنا لم تتمالك أن قطبت حاجبيها وشخصت إليها بعينيها تتفحصها. قالت لها ناصحة:

ـ لا تخاطبيني بمثل هذه اللهجة يا صغيرتي. إن ما أقوله هو الحق. إذهبي وأجيبي عن رسالتها.

ذهبت ناتاشا إلى غرفتها دون أن تجيب لتقرأ الرسالة.

كانت الأميرة ماري تنبئها بأنها في حالة يائسة لسوء التفاهم الذي حدث بينهما. ومهما كانت عواطف أبيها، فإنها كانت تتوسل إلى ناتاشا أن تصدق أنها لا تستطيع إلا أن تخص مودتها تلك التي اختارها أخوها. إنها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل سعادة أندريه.

استرسلت: «على كل حال، لا تظني أن أبي يبيت لك العداء. إنه عجوز مريض يجب معذرته. إنه طيب وكريم وسينتهي به الأمر إلى محبة تلك التي ستبني سعادة ابنه.

كانت ماري تسألها أن تتفضل بتحديد الوقت الذي يمكنها أن تراها فيه مرة أخرى.

انصرفت ناتاشا إلى كتابة الجواب بعد أن قرأت هذه الرسالة، سطرت بصورة آلية «عزيزتي الأميرة» ثم توقفت. حدثت نفسها أمام الرسالة التي بدأت بكتابتها: «ماذا يمكنها أن تكتب بعدما حدث بالأمس؟ كلا، كلا، إن الأمر لم يعد يتعلق بها الآن. لقد اتخذت الأمور شكلاً آخر. يجب علي حتماً أن أحرره «هو» من وعده. بلا شك؟ هل هذا أكيد؟ إنه مخيف!...» ولكي تفلت من تلك الأفكار المخيفة، دخلت إلى غرفة سونيا حيث راحتا معاً تفحصان رسوماً للوشبي.

بعد الغداء، انسحبت ناتاشا إلى غرفتها وعادت تمسك برسالة ماري. تساءلت: «هل حقيقة انتهى كل شيء؟ كيف وقع كل هذا بمثل هذه السرعة ودمر كل الماضي؟» أخذ حبها للأمير أندريه ينبعث في مخيلتها بكل قوته الماضية. لكنها لم تكن تستطيع إلا أن تعترف في الوقت نفسه بأنها تحب

كذلك كوراغين. راحت ترى نفسها زوجة للأمير أندريه وشرع خيالها يرسم لها السعادة التي تنتظرها معه. لكنها في الوقت نفسه، كان كل كيانها يلتهب لذكرى خلوتها مع أناتول.

قالت في نفسها في بعض اللحظات التي يهجرها خلالها تفكيرها المتزن: «لمَ لا أستطيع محبتهما كليهما معاً؟ حينئذ فقط أكون سعيدة جداً. أما الآن، فعلى العكس، ينبغي أن أختار ولن أجد السعادة إذا حرمت أحدهما. على كل حال، يستحيل علي الاعتراف للأمير أندريه بكل ما جرى ولا أن أخفيه عليه. بينما «الآخر» لا يوجد شيء. لكن هل يمكن أن أتخلى إلى الأبد عن حب الأمير أندريه وعن السعادة التي عشت فيها كل هذا الوقت؟».

قالت لها إحدى الوصيفات بصوت خفيض ولهجة غامضة وهي تدخل عليها: يا آنسة، هذا ما أوصاني رجل بأن أحمله إليك.

ومدت إليها يدها برسالة. أرادت الوصيفة أن تقول: ولكن بحق السماء...

فتحت ناتاشا الخاتم بحركة آلية وبدأت قراءة تلك الورقة التي لم تكن تفهم منها كلمة واحدة، إلا أنها مرسلة من قبله، من قبل الرجل الذي تحبه. «نعم إنها تحبه. وإلا، كيف كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ كيف كان يمكن لهذه الرسالة الغرامية أن تكون في حوزتها؟».

كانت ناتاشا تمسك بين يديها المرتجفتين بتلك الرسالة التي تتحرك بالشوق والتي دبجها دولوخوف لأناتول، فجاءت عباراتها صدى للعواطف التي ظنت أنها تحس بها.

«منذ البارحة مساء تقرر مصيري: إما أن أكون محبوباً منك وإما أن أموت وليس لدي مخرج آخر». وبعد هذه المقدمة، قال أناتول إنه يعرف أن ذوي ناتالي لن يوافقوا على تزويجه بها، ولديه أسباب سرية تؤيد هذا المذهب لا يستطيع الكشف عنها إلا لها وحدها. فإذا كانت تحبه، يكفي أن تقول له كلمة

نعم. وحينئذ لن تستطيع قوة بشرية أن تعترض سبيل سعادتهما. إن الحب ينتصر على كل شيء. سوف يختطفها ويهرب بها إلى أقصى العالم.

قالت ناتاشا في سرّها وهي تعيد قراءة تلك الرسالة للمرة العشرين: «نعم، نعم، إنني أحبه!» باتت تظن أنها تكتشف وراء كل كلمة منها معنى عميقاً.

كانت ماري ميترييڤنا معتزمة زيارة آل أرخاروف ذلك المساء. فعرضت على الفتاتين مرافقتها. لكن ناتاشا بقيت في المنزل بحجة صداع في رأسها.

الفصل الخامس عشر

في ساعة متأخرة من الليل رجعت سونيا وذهبت إلى غرفة ناتاشا فوجدتها نائمة في ملابسها على كنبة، وعلى نضد بجانبها توجد رسالة ملقاة هناك. تلك رسالة أناتول، فتناولتها وبدأت تقرأها.

وفي تلك الأثناء، كانت تنظر إلى ناتاشا النائمة محاولة إيجاد تفسير لما تقرأ على قسماتها: لم تكتشف إلا الهدوء والسرور. سقطت سونيا فوق مقعد شاحبة ترتعش من الانفعال وهي ممسكة بصدرها المثقل بيديها وانخرطت في البكاء.

تساءلت: «كيف لم أر شيئاً؟ كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ ألم تعد تحب الأمير أندريه إذن؟ ثم كيف استطاعت أن تسمح لكوراغين هذا بمثل هذا الشيء؟ إنه بلا شك ماكر خائن. وماذا سيقول نيكولا نيكولا الرائع، نيكولا النبيل عندما يعلم بكل هذا؟ هذا إذن معنى ذلك الوجه الغريب المنقلب المعتزم كل شيء الذي ظهرت به خلال الأيام الأخيرة!... ولكن لا، إنها لا تحبه، مستحيل! لا شك أنها فضت هذه الرسالة دون أن تعرف مصدرها. لا شك أنها شعرت بإهانة بسببها. لا تستطيع التصرف على هذا النحو!».

مسحت سونيا دموعها وعادت إلى ناتاشا وأخذت تتفحص وجهها مجدداً. ثم نادت بنعومة زائدة:

ناتاشا!

استيقظت ناتاشا فرأت سونيا. ها قد عدت؟

وفي إحدى اللحظات تلك التي يشعر بها المرء عند الاستيقاظ، اندفعت ناتاشا تعانق صديقتها. لكنها ما إن رأت اضطراب سونيا حتى أحست بدورها بالقلق والتحفظ ينتابها. سألتها؟ سونيا، هل قرأت الرسالة؟

تمتمت سونيا: نعم.

طافت على شفتي ناتاشا ابتسامة شاردة.

ـ يه! سونيا، لا أستطيع، كلا، لا أستطيع أن أستمر في إخفاء الأمر عنك. إننا نحب بعضنا!... سونيا يا عزيزتي، إنه يكتب إلي... سونيا...

لم تصدق سونيا أذنيها فراحت تنظر إليها جاحظة العينين، قالت: وبولكونسكي؟

آه! سونيا، ليتك تعرفين مبلغ سعادتي!... لكنك تجهلين معنى الحب...

ـ والثاني يا ناتاشا؟ لقد انتهى كل شيء إذن بينكما؟

نظرت إليها ناتاشا بعينين متسعتين وكأنها لا تفهمها.

استرسلت سونيا: إذن، إنك تقطعين علاقتك بالأمير أندريه؟

ردت ناتاشا بنفاد صبر:

ـ آه! إنك لا تفهمين شيئاً. لا تنطقي بحماقات. إصغي إلي جيداً.

استأنفت سونيا:

ـ ذلك أنني لا أستطيع تصديق ما أرى. أعترف بأنني لا أعلم شيئاً. كيف! أحببت رجلاً طوال عام كامل ثم فجأة... وهذا، إنك لم تريه إلا مرتين أو ثلاث مرات. ناتاشا لا أصدق، هل تمزحين. في ثلاثة أيام تنسين كل شيء و...

قالت ناتاشا:

ـ ثلاثة أيام فقط؟ وأنا التي أعتقد أنني أحبه منذ مائة عام! يخيل إلي أنني لم أحبّ قط أحداً قبله. إنك لا تستطيعين فهم هذا. هيا يا سونيا، تعالي إليّ هنا، اجلسي بالقرب مني، وعانقتها وجذبتها نحوها، قيل لي إن ذلك يحدث

ولا شك أنهم قالوا لك مثل ذلك أيضاً. ولكن هذه هي المرة الأولى التي أشعر بها بمثل هذا الشيء. إنها ليست كالسابق. ما كدت أراه حتى عرفت سيدي، لقد شعرت أنني عبدة. فهمت أنه يستحيل علي أن لا أحبه. نعم، إنني عبدة إنني على استعداد لإطاعة أمره أياً كان نوعه. إنك لا تفهمين هذا ولكن ماذا أستطيع يا سونيا ماذا أقدر؟

اختتمت قولها بهذه العبارة وعلى سيمائها مزيج من السعادة والرعب. صاحت سونيا بسخط وهي تجد صعوبة في إخفاء اشمئزازها:

ـ فكري قليلاً في ما تفعلين... لا يمكنني أن أدع هذا الأمر يمر هكذا. هذه الرسائل السرية... كيف استطعت السماح له بها؟

ـ لقد قلت لك إنني كنت مسلوبة الإرادة. كيف لا تفهمين ذلك؟ إنني أحبه:

صرخت سونيا خلال نشيجها: حسناً، لن أدعك تفعلين ذلك، سوف أقص كل شيء!

ـ ماذا تقولين، رباه!؟.. إذا نطقت بكلمة كنت عدوتي. معنى ذلك أنك تريدين تعاستي، وإنك تريدين أن يفصلوا بيننا...

ولما رأت خوف ناتاشا، سكبت سونيا دموع الخجل والإشفاق على صديقتها. وسألت: ولكن، ماذا بينكما؟ ماذا قال لك؟ لمَ لا يأتي إلى هنا؟

توسلت ناتاشا دون أن تجيب عن أسئلة سونيا:

ـ بحق السماء يا سونيا، لا تتحدثي إلى أحد عن الموضوع. لا تعذبيني. تذكري أنه يجب ألّا يتدخل أحد في هذه المواضيع. لقد صرحت لك...

ـ لمَ كل هذه الأسرار؟ لمَ لا يأتي إلى المنزل؟ لماذا لا يطلب يدك بكل بساطة؟ أعطاك الأمير أندريه كل الحرية في أن تتصرفي وفق رأيك. فإذا كانت

الأمور حقيقة قد توقفت عند هذا الحد... ولكن لا، أنا أرفض تصديق هذا... ناتاشا، هل فكرت في ما يمكن أن تكونه تلك «الأسباب السرية»؟

سألتها ناتاشا بنظرة ذاهلة: لا شك أن السؤال قد أربكها لأنها لم تطرحه بعد على نفسها.

ـ هذه الأسباب، أجهلها. لكن يجب التصديق بأن لديه أسباباً!

تنهّدت سونيا وهزت رأسها. همت أن تقول:

ـ إذا كانت لديه أسباب...

لكن ناتاشا روعت للشكوك التي ظهرت على صديقتها فلم تتركها تنهي قولها، صرخت: سونيا، لا يجوز الاسترابة به! لا يجوز، لا يجوز، هل تفهمين؟

ـ هل يحبك؟

ردت ناتاشا التي انتزعت غباوة صديقتها منها ابتسامة إشفاق:

ـ إذا كان يحبني؟ لكنك قرأت رسالته!

ـ ولكن ماذا إذا لم يكن رجلاً نبيلاً؟

ـ هو!... ليتك تعرفينه!

استأنفت سونيا بعزم: إذا كان رجلاً نبيلاً، يجب عليه أن يعلن نياته أو يكف عن رؤيتك. وإذا كنت لا تريدين القيام بذلك بنفسك، كتبت له نيابة عنك وأبلغت «بابا» بالأمر.

صاحت ناتاشا: لكنني لا أستطيع أن أعيش بدونه!

ـ ناتاشا، أنا لا أفهمك. ماذا تقولين؟ فكري في أبيك، في نيكولا.

ـ لست في حاجة إلى أحد، لا أحب أحداً سواه. كيف يمكنك القول بأنه ليس رجلاً نبيلاً؟ ألا تعرفين أنني أحبه؟... إذهبي يا سونيا! لا أريد أن أخاصمك. إذهبي أتوسل إليك، إذهبي. إنك ترين كم أتألم.

قالت ناتاشا تلك العبارات بلهجة عنيفة وبغضب حتى أن سونيا ذرفت دمعاً سخياً وانسحبت.

جلست ناتاشا إلى منضدتها، وذون أن تفكر لحظة واحدة، كتبت للأميرة ماري الجواب الذي لم تستطع إنجازه طوال يومها. أنبأتها ببضع كلمات أن سوء التفاهم الذي قام بينهما قد انتهى: انتهازاً منها لكرم الأمير أندريه الذي سمح لها قبل رحيله بالتمتع بكل حريتها، فإنها تحله من وعده الآن. وبالتالي، لتتفضل ماري بنسيان مقابلتهما والصفح عن كل ما يمكن أن تكون قد أظهرته من إساءات تجاهها. بدا كل ذلك في تلك اللحظة آية في السهولة والبساطة والوضوح.

كان على آل روستوف أن يعودوا إلى منزلهم يوم الجمعة، وفي يوم الأربعاء، ذهب الكونت مع المشتري إلى حقله في الضاحية.

كانت سونيا وناتاشا، ذلك اليوم بالذات، مدعوتين إلى حفلة غداء كبرى في دار آل كاراغين، فصحبتهما ماري دميترييفنا. قابلت ناتاشا أناتول مجدداً هناك. لاحظت سونيا أنهما تحدثا معاً بطريقة لا تجعل سواهما يستمع إلى أقوالهما وأنها ظهرت أكثر اضطراباً أثناء الطعام من ذي قبل. وعندما عاد إلى المنزل، توقعت ناتاشا أسئلة صديقتها. بدأت تقول بتلك اللهجة الماكرة التي يعمد إليها الأطفال الطامعون في الإطراء:

ـ أرأيت يا سونيا، لقد حدثتني بحماقات بصدده. إن كل ذلك خطأ. لقد تفاهمنا حول هذا الموضوع منذ حين.

ـ آه! وماذا قال لك! كم أنا سعيدة يا ناتاشا لأنك لم تحنقي علي. قولي لي كل شيء وبصراحة تامة. ماذا قال لك؟

فكرت ناتاشا برهة. آه! سونيا، ليتك تعرفينه كما أعرفه أنا! لقد قال لي...

سألني عن طبيعة وعدي لـپولكونسكي وقد ابتهج حينما عرف أن الأمر يتوقف علي في فصم الخطبة مع الأمير أندريه.

أطلقت سونيا زفرة عميقة. قالت: لكنك على ما أعلم لم تقطعي علاقتك بپولكونسكي؟

ـ بل يجوز أن أكون قد قطعتها! يجوز تماماً أن يكون كل شيء قد انتهى!... لمَ تحملين مثل هذه الفكرة السيئة عني؟

ـ ليست لدي أية فكرة سيئة. لكنني لا أفهم...

ـ انتظري يا سونيا. ستفهمين كل شيء، سترين أي رجل هو. لا تكوّني فكرة سيئة لا عني ولا عنه.

ـ أنا لا أفكر بسوء في أحد. إنني أحب وأعطف على كل الناس. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

لم تستسلم سونيا للهجة الحاذقة التي كانت تصفها ناتاشا. أخذت تقابلها بوجه يزداد صرامة كلما أمعنت هذه في دلالها. قالت لها: ناتاشا، لقد سألتني أن لا أحدثك عن هذا ولقد سكت. وأنت التي بادرتني بالكلام الآن... أنا لا أثق به يا ناتاشا: ما معنى هذه الأسرار؟

ـ عدنا إلى هذه النغمة!

ـ إنني خائفة من أجلك يا ناتاشا.

ـ ومن أي شيء تخافين؟

أعلنت سونيا بصراحة ندمت عليها من فورها:

ـ إنني أخاف أن تذهبي بنفسك إلى دمارك.

اتخذ وجه ناتاشا مجدداً طابعاً خبيثاً.

ـ حسناً، سأخسر نفسي وبأسرع ما يمكن أيضاً! إن هذا ليس شأنك إنني أسيء إلى نفسي، إلينا نحن... دعيني، دعيني، أمقتك.

صاحت سونيا مروعة: ناتاشا!

ـ نعم، أمقتك، أمقتك! إنك عدوتي إلى الأبد!

وركضت ناتاشا.

كانت تتجنب لقاء سونيا ولم تتحدث بعد ذلك معها بكلمة واحدة. ظلت تروح وتجيء في البيت بتلك المسحة المشدوهة نفسها، تشغل نفسها بمشاغل جمة توقفت عن الاهتمام بهذا منذ حين.

لم تترك سونيا ناتاشا تغيب عن نظرها رغم التعب الذي كانت تحس به. لاحظت في أمسية اليوم الذي سبق عودة الكونت أن ناتاشا تطيل الوقوف أمام نافذة القاعة الكبيرة وكأنها تترقب حادثاً معيناً. ثم رأتها تشير إلى عسكري كان ماراً هناك خيل إلى سونيا أنها عرفت فيه أناتول.

ضاعفت انتباهها ولاحظت أن ناتاشا كانت في تصرّفها غير طبيعية خلال فترة الغداء والسهرة: كانت تجيب خطأ عن الأسئلة، لا تكمل جملتها وتضحك لكل مناسبة.

رأت سونيا عند عودتها إلى غرفتها بعد الشاي، أن وصيفة شديدة الارتباك كانت تترقب مرورها عند باب غرفة ناتاشا. مرت، لكنها عادت على أعقابها وألصقت أذنها على الباب، فاقتنعت أن رسالة جديدة قد سلمت إليها.

رأت سونيا فجأة وبوضوح أن ناتاشا تدبر خطة مخيفة لتلك الليلة بالذات. طرقت باب صديقتها عبثاً.

حدثت سونيا نفسها: «سوف تهرب معه. إنها قادرة على مثل ذلك. لقد بدت اليوم شديدة الحزن ولكن أكثر حزماً من أي يوم. لقد بكت وهي تودع عمي. نعم، لا شك أنها ستهرب معه، ماذا يجب علي أن أفعل؟».

في تلك اللحظة، تذكرت بعض الوقائع التي تؤيد شكوكها الخطيرة: «إن الكونت ليس هنا، ماذا يجب أن أفعل؟ هل أكتب لكوراغين مطالبة إياه

بتفسير عن كل هذا؟ لكن من يرغمه على الإجابة عن رسالتي؟ هل أكتب لـپيار كما طلب الأمير أندريه أن نفعل في حالات الشؤم؟ لكن ألم تقطع رباطها بـپولكونسكي؟ لقد رأيتها ترسل أمس مساء جوابها إلى الأميرة ماري... ثم إن عمي ليس هنا!

أن تقول كل شيء لماري دميترييڤنا التي كانت لها ثقة كبيرة بناتاشا، فإن سونيا لم تكن تقر هذا التصرف. فكرت وهي في الممشى المعتم: «على كل حال لقد حان الوقت لأبرهن عن عرفاني لهم جزاء إحسانهم ولقاء حبي لنيكولا. لن أتزحزح من هذا الممشى ولو أمضيت ثلاث ليال ساهرة، وسأمنعها من الخروج ولو اضطررت إلى استعمال القوة. لا، لن أترك وصمة العار تدخل إلى عائلتهم».

الفصل السادس عشر

أقام أناتول عند دولوخوف، منذ بضعة أيام، وكان قد أعد خطة اختطاف عليه تنفيذها في ذلك المساء الذي قررت فيه سونيا مراقبة باب ناتاشا، إن تقاوم فرارها. كانت ناتاشا قد وعدت بموافاة كوراغين في الساعة العاشرة عن طريق سلم الخدم، حيث سيضعها في زحافة سريعة ليحملها إلى خمس عشرة مرحلة بعيداً عن موسكو، حيث ضاحية كامانكا. وهناك سيعقد كاهن «محروم» قرانهما، وستحملها خيول المراحل على طريق فرصوڤيا، ومن هناك إلى الخارج عن طريق عربة البريد.

تدبّر أناتول جواز سفر وأذناً بالركوب في عربة البريد؛ وكانت أخته قد أعطته عشرة آلاف روبل واقترض مبلغاً مماثلاً عن طريق دولوخوف وكان الشاهدان، خفوستيكوف، وهو أحد موظفي المستشارية السابقين، الذي كان دولوخوف يستخدمه بأعماله المتعلقة بالمقامرة، وماكارين ـ وهو من الفرسان المتقاعدين طيب، ضعيف الإرادة، يؤمن بكوراغين إيماناً حقيقياً، يحتسيان الشاي في الغرفة الأولى من الشقة.

وفي مكتبه الكبير المزين كله بالسجاد العجمي وجلود الدببة ومجموعات الأسلحة. جلس دولوخوف قرب مكتبه المفتوح وهو في سترة السفر ينتعل حذاءين عاليين، وأمامه رزم من الأوراق النقدية. أما أناتول فكان ينتقل محلول أزرار الثوب بين غرفة الشهود مخترقاً المكتب والغرفة التي

يشرف خادمه الفرنسي فيها على معدات السفر الأخيرة. كان دولوخوف يقوم بإحصاء النقود. قال: أتدرين يجب إعطاء ألفي روبل لخفوستيكوف.

ـ ليكن أعطها له.

قال دولوخوف وهو يريه قائمته: إن هذا الباسل ماكارين لا يريد شيئاً. إنه على استعداد لإلقاء نفسه في النار إرضاء لك... هيا، لقد انتهت الحسابات، هل ترضيك؟

أجاب أناتول الذي لم يسمع شيئاً بل كان يحدق أمامه شارداً وعلى شفتيه ابتسامته الدائمة: طبعاً بكل تأكيد.

أغلق دولوخوف مكتبه بضجة وخاطب صديقه بلهجة ساخرة قائلاً: إسمع. دع عنك كل هذه المسألة لا يزال لدينا متّسع من الوقت.

صاح الآخر: يا سخيف! لا تتفوّه بالحماقات. لو كنت تعلم... هل يظن...

ألح دولوخوف: حقاً، دع عنك هذا. إنني أكلمك جدياً. إن القضية غير مضمونة، أتدري.

قال أناتول وهو يعبس: هيا، ها إنك تعاود الكرة! إنك تزعجني. إذهب إلى كل الشياطين، هه! إنني لست في حالة تساعدني على الإصغاء إلى هذرك.

اتجه نحو الباب، فودّعه دولوخوف بابتسامة ساخرة. صاح به:

ـ انتظر قليلاً! لست أمزح، إنني جاد. تعال، هيا. عاد أناتول على أعقابه واستجمع كل انتباهه وراح يتأمل دولوخوف الذي كان يخضع رغماً عنه لنفوذه:

ـ لآخر مرة أرجوك أن تصغي إلي. لم أمزح؟ هل وضعت لك مرة العصي في الدواليب؟ من الذي رتب كل شيء من الذي اكتشف الكاهن، من الذي حصل على جواز السفر، من الذي عرف كيف يتدبر المال؟ إنه أنا.

أجاب أناتول: صحيح، وأنا أشكرك من أجل كل هذا. هل تتصور مرة أنني لست شاكراً لك؟

ـ لقد ساعدتك، وهذا معترف به. لكن من واجبي أن أقول لك الحق: إن المغامرة خطيرة بل حمقاء إذا أمعنّا فيها النظر. حسناً، إنك تخطفها، حسناً جداً. هل تظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد؟ إذا عرفوا أنك متزوج قبل هذه المرة، سوف يرفعون أمرك إلى القضاء...

قال أناتول وقد عاد مكتئباً: كل هذه حماقات! لكنني شرحت لك من قبل.

وراح أناتول، بعناد الأشخاص المحدودين الذين حشوا رؤوسهم بشيء أقنعهم، يكرر على دولوخوف الذريعة التي كررها مائة مرة:

ـ لقد شرحت لك من قبل وجهة نظري في الموضوع، وراح يعد على أصابعه: إذا كان هذا الزواج غير رسمي فأنا لا أتحمل أية مسؤولية، وإذا كان رسمياً، ماذا يهمني؟ لن يعرف أحد بأمره في الخارج. اثنان، هذا صحيح أليس كذلك؟ إذن، ولا كلمة بعد، ولا كلمة!

ـ صدقني، اصرف النظر عن كل هذا! سوف يسوء المنقلب...

قال أناتول: إذهب إلى الشيطان!

وأمسك برأسه بين يديه وخرج، ثم عاد بعد قليل وتربع على مقعد بجانب دولوخوف تماماً. أمسك بيده ووضعها على قلبه وقال: ما معنى هذا؟ خذ، أنظر كم يخفق. آه يا له من قدم يا عزيزي يا لها من نظرة! إلهة؟

أخذ دولوخوف يتمعن في أناتول وعلى شفتيه ابتسامة باردة وفي عينيه لهيب مشتعل، وهو يجد لذة كبيرة في مشاكسته دون ريب: وعندما تنفق المال كله، ماذا تفعل؟

هدت هذه النظرية التي لم يفكر فيها أناتول قط قـواه. كرر: ماذا سأعمل؟... ماذا سأعمل؟ لست أدري... إلى الجحيم كل هذه الخزعبلات!

واختتم قوله وهو ينظر إلى ساعته: لقد حان وقت الذهاب.

ومضى إلى الغرفة الخلفية وصاح بالخدم: هو لا، يا زمرة المتوانين، ألم تنتهوا بعد؟

حزم دولوخوف المال وأمر خادمه أن يهيئ شيئاً يأكلونه قبل الرحيل ثم ذهب إلى الغرفة التي كان خفوستيكوف وماكارين فيها.

كان أناتول مستلقياً على كنبة المكتب، ابتسم بشرود وهو يغمغم ببضع كلمات بين شفتيه... صاح به دولوخوف من الغرفة المجاورة:

ـ تعال كلْ شيئاً، اشرب أقله كأساً.

فأجاب أناتول دون أن يكف عن الابتسام: كلا، شكراً.

ـ تعال، إن بلاجا هنا.

نهض أناتول ومضى إلى غرفة الطعام. كان بلاجا، وهو مؤجر زحافات مشهور، يعرف الصديقين اللذين كثيراً ما احتاجا إلى خدماته، منذ خمس أو ست سنين. لقد حمل أناتول غير مرة من «تفير» مساء عندما كان فيلقه مخيماً هناك، ليصل به إلى موسكو عند الفجر ويعيده في الليلة التالية إلى مركزه. وهو الذي أفلت دولوخوف غير مرة من مطاردات مزعجة، ونقل الصديقين غير مرة عبر المدينة بصحبة بوهيميين و«سيدات صغيرات» كما كان يقول. وكثيراً ما دهس بعض المارة أو قلب عربات خلال تلك الجولات الهوجاء فكان ذانك «السيدان» كما كان يسميهما، ينقذانه من محنته. كم من مرة ضرباه وكثيراً ما سقياه شامبانيا ونبيذ مادير، نبيذه المفضل. إنه يعرف عن كل منهما أكثر من مغامرة تقضي بهما أقلها إلى منافي سيبيريا. كانا يدعوان بلاجا غالباً إلى مائدتهما الحافلة ويرغمانه على الشراب والرقص مع البوهيميين، ويغريانه

بورقة من الألف روبل غير مرة. لقد عرّض حياته في خدمتهما عشرين مرة للخطر كل عام أو غامر أقله بجلد ظهره وأضاع عدداً من الخيول أكبر من أن تفي الأموال التي تقاضاها منهما بثمنها.

مع ذلك فقد كان يحبهما. كان يحب تلك الرحلات المجنونة بسرعة خمسة فراسخ في الساعة، يحب أن يخرق شوارع موسكو ويدهس المشاة ويقلب العربات. يحب أن يسمع وراءه أصواتاً سكرى تزمجر به: بسرعة أكثر! بسرعة أكثر! بينما يكون مستحيلاً عليه أن يزيد في اندفاع خيوله. كان يحب أن يضرب بسوطه قذال عاشق يبتعد بسرعة عن طريق ذلك الإعصار وهو ميت أكثر منه حياً.

«إنهما سيدان حقيقيان». ذلك كان رأي بلاجا في أناتول ودولوخوف اللذين من جانبهما أحلّاه محلاً في مودتهما لأنه كان أمهر سائق ولأن له أذواقاً متجانسة مع أذواقهما. كان مع غيرهما من الزبائن، يساوم ويطلب خمسة وعشرين روبلاً أجراً لرحلة مدتها ساعتان ويحل أحد غلمانه محله غالباً. ولكن مع هذين «السيدين»، كان يقود العربة بنفسه ولا يسألهما أبداً عن أي شيء. وعندما يبلغه عن طريق وصيفيهما أنهما يملكان مالاً، مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، كان يزورهما صباحاً قبل أن يشرب شيئاً، ويسألهما بعد أن يحييهما بصوت خفيض، أن ينقذاه من أزمة مالية. فكان «سيداه» يجلسانه دائماً. كان يقول:

يا فيدور إيـڤانوڤيتش، يا سيدي الطبيب، أو يا صاحب السعادة، لا تبخل عليّ بكتفك: لم يبق عندي حصان واحد، ويجب مع ذلك أن أذهب إلى سوق العرض. أقرضني ما تستطيع.

وحينئذ يعطيه أناتول ودولوخوف، إذا كانا موسرين، ورقة أو ورقتين من فئة الألف روبل.

كان بالجا فتى أشقر في السابعة والعشرين من عمره تقريباً مربوع القامة، ملون الوجه، غليظ العنق اشد احمراراً من وجهه، قصير اللحية، برّاق العينين، كان يرتدي فوق فروته القصيرة جلباباً أزرق من قماش ناعم مبطن بالحرير.

رسم إشارة الصليب أمام الصور المقدسة وتقدم نحو دولوخوف ومد له يده الصغيرة الدكناء وقال وهو ينحني: احتراماتي لفيدور إيڤانوڤيتش!

مرحباً يا عزيزي... آه! ها هو!...

وقال لأناتول الذي دخل في تلك اللحظة وهو يمد له يده: احتراماتي لسعادتك!

قال أناتول وهو يضع يده على كتفه:

إسمع يا بلاجا. هل تحبني حقاً. هنْ؟ الأمر يتعلق بخدمة تؤديها لي... أية خيل جئت بها؟ هِنْ؟

تلك التي أمرتني بقطرها... الحيوانات المتوحشة...

إذن، انتبه يا بلاجا! اقتل خيولك إذا وجب الأمر، ولكن اقطع الطريق في ثلاث ساعات. هِنْ!

اعترض بلاجا وهو يغمز بعينيه بمكر: إذا تركتها تنفق، كيف نصل؟

زمجر أناتول فجأة وهو يدير عينيه الكبيرتين: لا تمزح أو أحطم «بوزك».

قال الحوذي ضاحكاً: المزاح لا يسيء أبداً. هل أرفض شيئاً لسيديّ؟ سنمضي بأقصى سرعة بالطبع.

قال أناتول: حسناً! والآن إجلس.

وألح دولوخوف: إجلس، هيا!

ـ إنني مستريح هكذا يا فيدور ايـڤانوڤيتش.

قال أناتول وهو يسكب له كأساً كبيرة من خمرة ماديرا:

ـ لا حاجة إلى الرسميات، هِنْ! إجلس.

التمعت عينا الحوذي لدى رؤية النبيذ. وبعد أن رفض تأدباً، تجرع الكأس ومسح شفتيه بوشاح أحمر كان يخفيه في قلنسوته.

ـ إذن، متى تذهب يا صاحب السعادة؟

قال أناتول بعد أن نظر إلى ساعته: فوراً. ولكن اعلم يا بلاجا، انتبه، هِن! يجب أن نصل في الوقت المناسب.

قال بلاجا: هذا يتوقف على الرحيل، فإذا تم على ما يرام... وبعد، لم لا نصل في الوقت المحدّد؟ لقد ذهبنا مرة في سبع ساعات إلى تفير، إنك تتذكر بدون شك يا صاحب السعادة؟

قال أناتول وهو يبتسم لهذه الذكرى ويلتفت نحو ماكارين الذي كان يلتهمه بنظراته بغباوة: نعم. أتعلم، ذات مرة في عيد الميلاد، جئت من تفير. نعم، تصور يا عزيزي أن السرعة كانت تقطع أنفاسنا. وبلحظة واحدة، بينما كانت قافلة تقطع علينا الطريق، قفزنا فوق عربتين. هِن! ماذا تقول؟

فأعقب بلاجا محدثاً دولوخوف: ولكن يا لها من خيول تلك! لقد وضعت إلى جانبي أدهمي، مهرين جميلين ليكونا حصاني الجانبين. هل تصدق يا فيدور إيڤانوڤيتش، لقد قطعت هذه الحيوانات الصغيرة خمس عشرة مرحلة دون توقف. كان الصقيع شديداً وكانت أيدينا مخدرة، لا يمكننا إمساك الأعنة بها وتركت الأعنة وقلت: إمسكها يا صاحب السعادة. وسقطت كتلة واحدة داخل الزحافة. آه! لقد أثرت تلك الحيوانات تماماً! لكنني لم أستطع الإمساك بالأعنة حتى النهاية... لقد اجتازوا المسافة في ثلاث ساعات، الشياطين. لكن الحصان الأيسر نفق عقب ذلك.

الفصل السابع عشر

خرج أناتول ورجع بعد قليل وهو يرتدي فروة تلف جسمه، مربوطة بنطاق تزيّنه الفضة عند وسطه، ويعتمر قلنسوة من السمور تميل على أذنه تتفق تماماً مع وجهه الجميل، وبعد أن درس وضعيته أمام المرآة، وقف أمام دولوخوف وقال وهو يمسك كأساً في يده:

ـ هيا، الوداع يا ڤيديا. أشكر لك خدماتك، الوداع.

وأضاف بعد أن بحث فترة عن الكلمة المناسبة:

ـ هيا يا زملائي، أصدقاء الـ... أصدقاء صباي، وداعاً!

وجّه هذه الجملة الأخيرة إلى ماكارين والآخرين. وعلى الرغم من أنهم جميعاً كانوا سيرافقونه، فإن أناتول كان يتعمد إعطاء وداعه لهجة مؤثرة. كان يحدث بصوت مرتفع، مبرزاً صدره متأرجحاً على ساقيه.

ـ تعالوا جميعاً واقرعوا كؤوسكم، وأنت يا بلاجا. يا زملائي وأصدقاء صباي لقد قضينا زمناً جميلاً. لقد قمنا بكثير من الجنون معاً. والآن، متى نلتقي مجدداً؟ أنا ذاهب إلى الخارج. وداعاً أيها السرور. وداعاً يا أصدقائي البواسل نخب صحتكم. هورا!

أفرغ كأسه دفعة واحدة وحطّمها. قال بلاجا الذي شرب كأسه كذلك ومسح يديه بوشاحه:

ضم ماكارين أناتول إلى صدره وعيناه مغرورقتان في الدموع.

ـ آه! يا أمير، إنني عظيم الألم لافتراقي عنك!

صاح أناتول: هيا! إلى المسير!

استعد بلاجا للخروج فقال أناتول: لحظة واحدة! أغلق الباب ولنجلس. هكذا، هنا.

أغلقوا الباب وجلسوا جميعاً. (من عادة الروس قبل السفر، وخصوصاً في المناسبات الجليلة، أن يجلسوا ويستجمعوا أنفسهم فترة).

استأنف أناتول وهو ينهض: والآن، إلى الأمام سر أيها البواسل!

قدم له جوزيف، الوصيف، سيفه وجعبته الجلدية.

استفسر دولوخوف: أين الفروة؟ إينياس! امض فوراً إلى ماترون ماتـڤييڤنا واطلب منها معطفاً من الفراء، المعطف المصنوع من فراء السمور؟ هل سمعت؟...

وأضاف وهو يغمز بعينه: إنني أعرف كيف تجري الاختطافات، سوف تلقي بنفسها إلى الخارج ميتة أكثر منها حية، دون أن تكون متدثرة بشيء. وإذا وقع أدنى تأخير سالت الدموع فوراً، فتنادي «بابا وماما» وسترتجف وتطلب العودة... أما إذا كانت معك فروة، فستقيدها بها وتقودها حتى الزحافة.

جاء الخادم بفروة من جلد الثعلب.

ـ معطف السمور أيها الحيوان! ألم أقل لك، نعم أو لا؟

وصرخ بصوت دوى حتى بلغ أقصى الشقة: آه! ما ترون، معطفك السمور!

أسرعت بوهيمية جميلة، نحيلة وشاحبة، تلبس شالاً أحمر، حاملة معطف السمور. كانت عيناها السوداوان تلتمعان وخصلات شعرها الأسود تعكس لوناً أزرق. قالت وهي تخشى، دون شك، غضب سيدها ومالكها وتأسف في الوقت نفسه على فروتها: خذ، خذها، سيان عندي.

ودون أن يجيبها، ألقى دولوخوف بالفروة على كتفيها ولفها حول قدها وقال وهو يرفع الياقة بشكل لا يترك معه إلا فتحة صغيرة للوجه:

ـ أترى، هكذا... ثم هكذا، وأخيراً هكذا، أرأيت؟

وأجبر أناتول على أن يميل فوق الفتحة التي كانت ابتسامة البوهيمية تلتمع خلالها. قال أناتول وهو يقبلها: هيا، الوداع الوداع يا ماترون. انتهت الحياة الطيبة! تهاني إلى ستيفاني! هيا، الوداع الوداع يا ماترون. تمني لي حظاً سعيداً.

قالت تماترون بلكنة بوهيمية: ليمنحك الله كل السعادات الممكنة يا أميري.

وبالقرب من المرقاة، وقفت زحافتان يقودهما فتيان متينا البنية. صعد بلاجا وغلاماه الجالسان على المقعد يصيحان: هو! آواه!!... هو!... أوه!...

اقتحموا عربة في ساحة «أربات». فارتفعت فرقعة ثم صيحة، لكن الزحافة كانت تطوي في تلك اللحظة شارع «أربات».

وبعد أن صعدوا ثم نزلوا جادة بودنوڤيتسكي على كل طولها، استمهل بلاجا خيوله ثم رجع إلى الوراء وأوقفها في زاوية شارع «فيي إيكوري» الاسطبلات القديمة. قفز الغلام من المقعد ليمسك بالخيول من أعنتها، وصعد أناتول ودولوخوف إلى الرصيف. وعندما اقتربا من البوابة، صفر دولوخوف. أجابه صفير آخر على صفيره وظهرت وصيفة أسرعت إليه تقول:

ـ أدخلوا الفناء وإلا رأوكما. إنها قادمة على الفور.

بقي دولوخوف قرب البوابة بينما تبع أناتول الوصيفة ودار حول زاوية الفناء ثم تسلق درجات المرقاة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع غافريل، الخادم المرافق العملاق لماري دميترييڤنا. قال له الخادم بصوت خفيض وهو يقطع عليه طريقه: إن سيدتي تطلبك. تفضل واتبعني.

غمغم أناتول بصوت متقطع: أية سيدة؟ من أنت؟

ـ تفضل واتبعني. إن لدي أمراً باصطحابك.

صرخ دولوخوف: كوراغين، عد! لقد خانونا! لنهرب!

بدأ دولوخوف يتعارك مع البواب الذي حاول إغلاق البوابة وراء أناتول. تمكّن من أن يتخلص من ذلك المضايق بمجهود جبار ثم أمسك بذراع أناتول الذي كان قادماً بسرعة وجذبه بقوة حتى تخطيا المدخل ثم ركضا بأقصى قوة حتى وصلا إلى زحافتهما.

الفصل الثامن عشر

كانت سونيا غارقة في دموعها فوصلت ماري دميترييڤنا إلى الممشى ولم تتركها إلا بعد أن انتزعت منها اعترافاً كاملاً، فاحتجزت رسالة ناتاشا وقرأتها ثم دخلت على «فليونتها» والورقة في يدها. قالت لها: أيتها الخائنة! لا أريد أن أسمع شيئاً.

دفعت ناتاشا التي كانت تنظر إليها بعينين ذاهلتين ولكن حادتين وأغلقت الباب بالمفتاح. وبعد أن أوعزت إلى البواب أن يسمح بالدخول لكل من يحضر ويمنع خروج أي كان، ولخادمها المرافق أن يأتيها بالقادمين، جلست في القاعة الكبيرة تنتظر المغررين.

ولما وصل جاڤزيل ينبئها أن الأشخاص هربوا، زوت حاجبيها ونهضت وبدأت تذرع القاعة طويلاً ويداها وراء ظهرها، تفكر في ما يجب عليها صنعه. عادت إلى غرفة سونيا حوالى منتصف الليل بعد أن لمست المفتاح في جيبها. كانت سونيا لا تزال تبكي في الممشى. توسلت إليها: يا ماري دميترييڤنا، دعيني أدخل معك.

ودون أن تجيبها، فتحت ماري دميترييڤنا الباب، حدثت نفسها وهي تحاول السيطرة على غضبها: «إنه مخجل، إنه مرذول... تحت سقفي... يا للفتاة الفاجرة!... لكنني أشفق على أبيها، وعلى الرغم من صعوبة الامتثال للأمر، فسآمر كل الناس أن يصمتوا وسأخفي الأمر عن الكونت». دخلت الغرفة بخطى ثابتة. كانت ناتاشا ممسكة رأسها بين يديها مسترخية الجسد،

ممددة على الكنبة في مثل الوضع الذي تركتها عرابتها عليه. قالت هذه: حسناً! إن هذا شريف! إعطاء المواعيد للعشاق تحت سقف بيتي! لا تتصنعي السذاجة. اصغي عندما يحدثونك.

كررت وهي تلمس ذراعها:

ـ ألا تسمعين، لقد جللت نفسك بالعار كأسوأ الفتيات. إنني أعرف تماماً ما يجب فعله، لكنني أشفق على أبيك. لن أقول له شيئاً.

بقيت ناتاشا ساكتة. لكن نشيجاً خافتاً كان يخنقها ولم يلبث جسمها كله، أن تقلص متشنجاً. تبادلت ماري دميتريڤنا نظرة مع سونيا ثم جاءت تجلس على الكنبة بجانب «فليونتها».

قالت بصوتها القاسي؟

ـ لقد تمكّن من الإفلات مني!... لكنني سأجده. حسناً! هل تسمعين ما أقوله لك؟

أدخلت يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وأدارته نحوها. روعت ماري دميتريڤنا وسونيا لمرأى ذلك الوجه ذي العينين البراقتين الجافتين والشفتين المضموتين والخدين الهضيمين.

قالت: دعوني... ماذا يهمني؟... أريد أن أموت...

انتزعت نفسها بغضب من يدي ماري دميتريڤنا وعادت تستغرق في وهنها. قالت ماري دميتريڤنا:

ـ ناتالي!... أنا لا أريد إلا مصلحتك. أمكثي هكذا إذا كنت تفضلين. لن ألمسك. ولكن اصغي إلي... لا أريد أن أقول إلى أية درجة بلغت في ذنبك. إنك تعرفين ذلك مثلما أعرفه... نعم، تماماً... لكن أباك يعود غداً، فماذا أقول له؟ هِن؟

لم تجب ناتاشا إلا بالنحيب.

ـ وإذا علم بالأمر من آخرين؟ وإذا اطلع أخوك أو خطيبك على الأمر؟

صرخت ناتاشا فجأة: لم يعد لي خطيب، لقد قطعت صلتي به.

تابعت ماري دميتريڤنا تقول: هذا غير مهمّ. لنفرض أنهم عرفوا خطأك، هل تعتقدين أنهم يتركون الأمور هكذا؟... أنا أعرف أباك، إنه قادر على الدخول في مبارزة... سيكون الأمر جميلاً، هِن؟

صاحت ناتاشا وهي تنهض وتلقي على ماري دميترييڤنا نظرة حقد:

ـ دعيني... لمَ شوشت كل شيء؟ لماذا؟ لماذا؟ من الذي رجاك؟

صرخت هذه وقد استبد بها الغضب: وماذا كنت تريدين أن تفعلي؟ هل كنا نحبك من قبل عرضاً؟ ماذا كان يمنعه من المجيء إلى البيت؟ لمَ يخطفك كالبوهيمية؟... وإذا كان نجح في خطفك، هل تعتقدين أنهم ما كانوا ليقبضوا عليه؟ سواء أكان أبوك أم أخوك أم خطيبك. إنه حقير صعلوك، هذا كل شيء!

صرخت ناتاشا وهي تنهض مجدداً: إنه أفضل منكم جميعاً! لو أنك لم تمنعيني... آه يا ربي! لماذا؟ لماذا؟... سونيا، ماذا فعلت؟... دعوني.

واستسلمت لذلك اليأس الذي لا يحس به إلا كل من يعرف أنه نفسه سبب تعاسة نفسه، وانفجرت تبكي بكاء عنيفاً. حاولت ماري دميترييڤنا أن تسترسل، لكن ناتاشا عادت إلى الصراخ.

ـ إذهبوا عني، إذهبوا عني! إنكم تكرهونني، جميعاً، إنكم تحقدون عليّ!

وانهارت مجدداً على الكنبة.

استمرت ماري دميترييڤنا توبّخها بعض الوقت أيضاً: كان يجب قبل كل شيء إخفاء المغامرة عن الكونت. لم يكن أحد ليعرف شيئاً شريطة أن تتعهد ناتاشا نسيانه وأن تتحاشى إظهار اضطرابها أمام أي مخلوق كان. لم تجب ناتاشا. كفت عن النشيج لكن قشعريرات محمومة كانت تجتاح كل كيانها.

وضعت ماري دميترييڤنا وسادة تحت رأسها برفق وغطتها بغطاءين وجاءتها بنفسها بنقيع الزيزفون، لكن ناتاشا بقيت محتفظة بسكون تام.

قالت ماري دميترييڤنا وقد ظنت أن النوم استولى عليها: هيا، لندعها تنام.

وانسحبت. لم تنم ناتاشا قط. بقيت خائرة القوى طوال الليل، لا تنام ولا تبكي ولا تخاطب سونيا بكلمة هي التي نهضت مرات خلال الليل وجاءت تطمئن إليها.

وفي اليوم التالي، وقت الغداء، عاد الكونت إيليا أندرييـڤيتش من حقله كما كان متفقاً. كان فرحاً لأن المسألة قد نجحت فلم يعد هناك ما يبقيه في موسكو. أصبح يستطيع العودة إلى مونتيسته العزيزة. لكن ماري دميترييڤنا شرحت له على الفور أن ناتاشا سقطت مريضة مرضاً جدياً أمس، وأن الطبيب قد استدعى، لكنها الآن أفضل حالاً. بقيت ناتاشا ذلك الصباح في غرفتها تعض شفتيها وعيناها شاخصتان جافتان: ظلت جالسة قرب النافذة تراقب المارة في غدوهم ورواحهم وتلتفت منتفضة كلما دخل بعضهم إلى غرفتها. كانت تنتظر أخباراً «عنه» ظناً منها أنه سيأتي أو أنه أقله سيكتب إليها.

وعندما دخل الكونت، انتفضت لدى سماعها خطوات رجل. لكنها عندما رأت أباها، عاد وجهها جامداً حتى أنها لم تنهض لوصوله. سألها:

ـ ما بالك يا ملكي؟ هل أنت مريضة؟

أجابت بعد سكوت طويل: نعم.

سيطر القلق على الكونت إذ رأى الضعف مسيطراً عليها. فسألها عما إذا لم يقع شيء في علاقاتها مع خطيبها. أكدت له عكس ذلك ورجته أن لا يعذب نفسه. أكدت لماري دميترييڤنا صدق توكيداتها، لكن اضطراب ناتاشا ومرضها المصطنع، وأمارات سونيا وماري دميترييڤنا الدالة على الارتباك،

جعلت الكونت يشك في وقوع حدث خطير. لكن مجرد الفكرة في مس شرف ابنته العزيزة كان يرعبه. ثم إنه كان شديد الحرص على هدوئه حتى أنه تحاشى طرح الأسئلة مفضلاً الاعتقاد بأن شكّه لا يستند إلى أساس. لكنه كان يأسف لأن ذلك المرض سبب تأخيره عن السفر إلى الريف.

الفصل التاسع عشر

فكّر پيار في الرحيل إلى أي مكان للتخلص من وجود زوجته معه منذ أن وصلت إلى موسكو، وبعد وصول آل روستوف بفترة قصيرة، وما عجّل في رحيلهم هو الأثر العنيف الذي خلفته ناتاشا في نفسه. فذهب إلى تفير عند أرملة جوزيف ألكسييڤيتش التي وعدت منذ زمن طويل أن تعهد إليه بأوراق المرحوم.

لدى وصوله إلى موسكو رجته ماري دميترييڤنا أن يعرج على مسكنها قليلاً لتبحث معه في مسألة صغيرة هامة تتعلق بأندريه پولكونسكي وبمخطوبته. كان پيار يتجنب ناتاشا لأنها توحي إليه على ما يبدو، شعوراً أعنف مما يجب أن يحس به رجل متزوج إزاء مخطوبة صديقه. مع ذلك بدا كأن القدر يتصرف بمكر لذيذ فيتعمد الجمع بينهما.

فكر وهو يرتدي ثيابه للذهاب إلى مسكن ماري دميترييڤنا: «ماذا حدث إذن؟ كيف يمكنني أن أكون مفيداً لهم»؟

وبينما هو في الطريق حدث نفسه: «ليعد أندريه بسرعة وليتزوجها بأسرع ما يمكن!».

وفي جادة تفير، استوقفه بعضهم. صاح به صوت معروف: پيار! هل عدت منذ زمن طويل؟

ومر «رهوانان» أشهبان يعدوان وهما يثيران في عدوهما زوبعة من الثلج على مقدمة الزحافة الأنيقة التي يقطرانها. كان أناتول قابعاً في تلك الزحافة

مع ماكارين الخالد. جلس أناتول فيها جلسة العسكريين الكلاسيكية وهو منتصب الظهر يخفي أسفل وجهه في ياقته المصنوعة من فراء كلب الماء ورأسه مائل قليلاً، كان نضر الوجه وردي اللون تتيح قبعته ذات الريشة البيضاء المائلة إلى الجانب، لجانب من شعره الأجعد الذي انتثرت عليه طبقة خفيفة من الثلج بالظهور.

قال پيار في سرّه: «هوذا عاقل حقيقي! لا ينظر إلى أبعد من بهجته الآنية. ولما كان لا يعرف الهم، فإنه جذل أبداً وهادئ. إنني أتخلى عن الشيء الكثير لأصبح مثله!» وكان في اعترافه هذا نوع من الغبطة.

في دهليز مسكن السيدة أخروسيموف، قال الخادم الذي نزع عن پيار فروته إن ماري دميترييڤنا ترجوه أن يتفضل إلى غرفة نومها.

وبينما هو يفتح باب القاعة الكبيرة، رأى ناتاشا جالسة إلى إحدى النوافذ ووجهها ممتقع مهزول. قطبت حاجبيها لدى رؤيته وانسحبت وهي تتصنع تحفظاً بارداً.

سأل پيار وهو يدخل غرفة ماري دميترييڤنا: ماذا حدث؟

ـ أشياء مريعة! إنني في الحياة منذ ثمانية وخمسين عاماً ولم أرَ مثل هذا الشيء الفاضح.

وأخبرت پيار، بعد أن استحلفته كتمان السر، أن ناتاشا قطعت علاقتها بخطيبها دون موافقة أبويها وأن ذلك من جراء خطأ أناتول كوراغين الذي قدمته إليها زوجة پيار والذي تواطأت معه على الفرار أثناء غياب أبيها لتتزوج به سراً.

بقي پيار محدودب الظهر فاغر الفم لا يصدق أذنيه. كيف! ناتاشا مخطوبة الأمير أندريه التي يحبها أعمق الحب، روستوف اللذيذة تفضل عليه ذلك السفيه أناتول المتزوج من قبل، لأن پيار كان يعرف قصة زواجه السري،

وتتدله بذلك الأحمق لدرجة موافقتها على أن يختطفها! كلا، لم يكن پيار يطيق فهم ذلك حتى ولا تقبّله.

لم يكن ممكناً للدناءة والغباوة أن تجتمعا في عقله مع ذكرى تلك المخلوقة الرائعة التي يعرفها منذ طفولتها. فكر حينئذ بزوجته بالذات وحدث نفسه وهو يفكر في أنه ليس الوحيد الذي يمتاز بالزواج من امرأة رديئة: «كلهن سواء!» خلال ذلك، شعر بغصّة الدمع في حلقه لفرط انفعاله واضطرابه بشأن مصير الأمير أندريه: كم سيحرج كبرياؤه ويتألم! وبقدر ما كان إشفاقه على صديقه يتزايد، كان شعور الاحتقار بل الحقد على ناتاشا هذه التي مرت منذ حين أمامه متصنعة الكبرياء والترفع، لكنه كان يجهل أن روح ناتاشا كانت غارقة في تلك اللحظة في أعماق الخجل واليأس وأن تلك البرودة لم تكن إلا قناعاً يختفي وجهها وراءه دون أن يكون لإرادتها دخل في الموضوع.

صاح عندما بلغت ماري دميترييڤنا هذا الحد: يتزوجها! لكن هذا مستحيل، إنه متزوج من قبل.

ـ خير! إنه سافل، الفتى! إنه سافل! وهي تنتظره، منذ يومين وهي تنتظره. أقله، سوف تكف عن الانتظار، يجب إخطارها.

وبعد أن اطلعت على تفاصيل زواج أناتول وهدّأت غضبها بسباب عنيف أخبرت ماري دميترييڤنا پيار بالسبب الذي دعته من أجله. إنها تخشى أن يطلع الكونت أو پولكونسكي الذي باتت عودته قريبة، على المغامرة التي قررت إخفاء أمرها، فيدعوان أناتول إلى المبارزة. لذلك ترجو پيار أن يطلب باسمه إلى كوراغين هذا أن يغادر موسكو وألّا يعود إلى الظهور أمامها. وبعد أن أدرك پيار الخطر الذي يهدد الكونت العجوز نيكولا والأمير أندريه معاً، وعدها بأن يعمل وفق إرشاداتها. وبعد أن شرحت له ماري دميترييڤنا بكلمات موجزة ما تنتظره منه، أرسلته إلى القاعة الكبيرة. قالت له:

ـ انتبه جيداً. لا يعلم الكونت شيئاً. تظاهر بالجهل. خلال ذلك سأخطرها أنه ليس لديها ما تنتظره...

وبعد أن انصرف، صاحت في أعقابه متممة: إبقَ لتناول الغداء إذا راقك ذلك.

رأى پيار في القاعة، الكونت العجوز منقلب السحنة. لقد اطلعته ناتاشا منذ حين على أنها فصلت خطبتها إلى پولكونسكي. قال له:

ـ يا عزيزي! إنها مصيبة حقيقية عندما تكون البنية بعيدة عن أمها! كم أنا نادم على رحلتي هذه! سأكون صريحاً معك. هل تصدق؟ لقد قطعت علاقتها بپولكونسكي دون أن تستشير أحداً. والحقيقة إن هذا الزواج لم يفتني قط: إنه بكل تأكيد شاب مستقيم. لكنه لا يمكن أن يكون سعيداً إذا تجاوز إرادة أبيه: ثم إن ناتاشا لا تشكو قلة الراغبين في زواجها. لكن هذا طال منذ أمد بعيد كيف استطاعت أن تتصرف على هذا النحو دون أن تتفوه بكلمة لأبيها أو لأمها! وها هي الآن مريضة، والله يعلم ما بها!... آه! يا للتعاسة يا كونت، عندما تكون الفتيات بعيدات عن أمهن.

وبعد أن لاحظ پيار اضطراب الكونت، حاول عبثاً أن يدير دفة الحديث. كان العجوز يرجع أبداً إلى مشاغله.

ظهرت سونيا على عتبة القاعة مغتمة. قالت: إن ناتاشا في صحة سيئة وهي في غرفتها تريد رؤيتك. إن ماري دميترييڤنا هناك معها وهي ترجوك كذلك أن تحضر.

قال الكونت: صحيح، إنك صديق حميم لپولكونسكي، لعلها تريد أن تحملك رسالة ما إليه... آه! يا إلهي! يا إلهي، لقد كان كل شيء على ما يرام!

وانسحب الكونت وهو يجذب شعيراته الشهباء النادرة.

كانت ماري دميترييڤنا قد أطلعت ناتاشا على قصة زواج أناتول، فلم

تصدق ناتاشا وسألت الكونت أن يؤكد لها ذلك، هذا ما أطلعت سونيا پيار عليه أثناء مرافقتها عبر الأروقة.

كانت ناتاشا جالسة بجانب ماري دميترييڤنا وهي دائمة الامتقاع والشراسة: وما إن ظهر پيار على عتبة الباب حتى سألته بنظرة محمومة. لم تبتسم له ولم تومئ برأسها. لم تبدِ نحوه إلا تلك النظرة، وتلك النظرة كانت تعني: هل هو صديق لأناتول أم عدو له كالآخرين؟ أما پيار نفسه، فلا شك أنه لم يكن يشغل حيّزاً في تفكيرها.

قال تماري دميترييڤنا لناتاشا وهي تشير إلى پيار: إنه يعرف كل شيء.

أجالت ناتاشا الطرف من وجه إلى آخر أشبه بالحيوان الحبيس الذي يرى الكلاب والصيادين محيطين به يقتربون.

بدأ پيار يقول وهو مطرق برأسه لأنه كان يحس بحنان عميق نحوها وباشمئزاز شديد من العمل التي قامت به:

ـ ناتالي إيلينيتشنا، ناتالي إيلينيتشنا، لا يهمك أن يكون ذلك صحيحاً أو لا ما دام...

ـ إذن، إنه ليس صحيحاً، إنه متزوج؟

ـ بل إنه متزوج.

ـ إنه متزوج، ومنذ متى؟ أتقسم بشرفك؟

أقسم لها پيار بشرفه، سألته بعنف؟

ـ ألا يزال هنا؟

ـ نعم، لقد رأيته منذ حين.

لم تقوَ على متابعة الحديث فأشارت بيدها أن يخرجوا.

الفصل العشرون

ودون أن يوافق على البقاء لتناول الغداء، انسحب پيار فوراً، وراح يبحث عن أناتول كوراغين الذي صار اسمه وحده كافياً لردّ الدماء إلى قلبه. وبعد أن فتّش عنه عبثاً في «الجبال» وعند البوهيميين وعند جومونينو، ذهب إلى النادي. هناك كان كل شيء يسير كعادته. والأعضاء الذين توافدوا لتناول الغداء كانوا جالسين جماعات جماعات يتحدثون فيما بينهم، فتبادلوا مع پيار التحيات المناسبة. جاء خادم عليم بطبائعه، يعلمه وهو ينحني أمامه، أن مكانه محجوز في قاعة الطعام الصغرى وأن الأمير «ن.ن.». موجود في المكتبة وأن «ت.ت.» لم يصل بعد: سألته إحدى معارفه أثناء حديثها عن المطر والطقس، عما إذا كان بلغه شيء عن اختطاف الآنسة روستوف من قبل كوراغين وهل هذه الإشاعة التي باتت تسري في المدينة حقيقية أم لا؟ أجابها پيار وهو يضحك إنها محض اختلاق لأنه خرج تواً من منزل آل روستوف.

ولما راح يستفسر عن أناتول من زملائه، أخبره أحدهم بأنه لم يحضر بعد وأكد له آخر أنه سيأتي لتناول الغداء. راح پيار يتأمل هذه الجماعة من الأشخاص الهادئين اللامبالين الذين ما كانوا يخمنون ما يدور في خلده من شعور غريب. تنزه بعض الوقت في الأبهاء. لكنه عندما رأى أن كل المواظبين على النادي قد حضروا ما عدا أناتول، توقف عن تناول الطعام ورجع إلى مسكنه.

أما أناتول الذي كان پيار يبحث عنه، فقد كان يتناول طعامه ذلك اليوم عند دولوخوف ويستشيره بشأن الوسائل الكفيلة بمعالجة الأمر الفاشل. خيل إليه أن مقابلة جديدة مع الآنسة روستوڤ، ضرورية. وعلى ذلك، فقد مضى ذلك المساء إلى منزل أخته ليسألها تدخلها: ولما رجع پيار إلى منزله بعد أن جاب نواحي موسكو عبثاً، أعلمه الخادم أن الأمير أناتول ڤاسيلييـڤيتش عند الكونتيسة. وكانت قاعة الاستقبال تغص بالناس.

دخل پيار إلى القاعة فرأى أناتول وذهب إليه مباشرة، دون أن يحيي زوجته التي لم يرها منذ عودته، لأنها أصبحت في تلك اللحظة مكروهة منه أكثر من أي وقت مضى.

قالت الكونتيسة وهي تقترب: آه! پيار إنك لا تدري في أي موقف ألقى أناتولنا بنفسه...

قطعت جملتها وهي ترى في رأس زوجها المطرق وعينيه الملتمعتين ومشيته الحازمة إشارات مخيفة تدل على الغضب الذي خبرت نتائجه بعد المبارزة مع دولوخوف.

قال پيار لزوجته: أينما تكوني، تكن الجرائم.

وأضاف بالفرنسية محدثاً أناتول: أناتول، تعال، يجب أن أكلمك.

وبعد أن ألقى أناتول نظرة على أخته وقف يودّعه وتبع پيار. أمسكه هذا بذراعه وجره خارج القاعة. همّت هيلين أن تدخل. غمغمت: إذا سمحت لنفسك في قاعة منزلي...

لكن پيار خرج دون أن يدعها تكمل كلامها.

تبعه أناتول بخطواته الثابتة لكن قسمات وجهه اكتست بالقلق.

أغلق پيار باب مكتبه وراءه وقال له فجأة دون أن ينظر إليه:

ـ لقد وعدت الكونتيسة روستوڤ أن تتزوجها وكنت تريد اختطافها؟

أجاب أناتول بالفرنسية وهي اللغة التي دار كل هذا الحديث بها.

ـ يا عزيزي، لا أظنني مضطراً إلى الإجابة عن أسئلة تطرح عليّ بهذه اللهجة.

شوه الغضب وجه پيار الممتقع من قبل فأمسك بيده العريضة أناتول من ياقته وهزه في كل الاتجاهات حتى اكتسى وجهه برعب كاف. كرر پيار:

ـ أقول لك إنه «يجب» أن أكلمك.

قال أناتول وهو يتلمس على ياقته زراً اقتلعه پيار مع قطعة من القماش:

ـ ولكن، إن هذا مخالف للصواب!

صاح پيار بلهجة تعظيم اضطره إليها استعمال اللغة الفرنسية:

ـ إنك أحط الصعاليك. لست أدري ماذا يوقفني عن تحطيم رأسك بهذه!

وأمسك بالثقل الذي يضعه على أوراق فوق المكتب ورفعه مهدداً ثم عاد فوضعه.

ـ هل وعدتها بالزواج؟

ـ كلا على ما أعلم. ثم كيف يمكنني صرف مثل هذا الوعد طالما...

كرر پيار وهو يسير إليه:

ـ ألديك رسائل منها؟ هل لديك رسائل؟

نظر إليه أناتول ثم بحث فوراً في جيبه وأخرج حافظة أوراقه.

أخذ پيار الرسالة التي قدمها أناتول إليه ودفع طاولة كانت تعوق طريقه ثم انهار على الكنبة.

قال جواباً عن حركة جزعة من أناتول: لن أكون قاسياً، لا تخشَ شيئاً.

وتابع وكأنه يتذكر درساً حفظه:

ـ الرسائل و... ـ وبعد لحظة صمت قصيرة استأنف وهو يذرع الغرفة، والشيء الآخر، يجب أن تغادر موسكو منذ الغد.

ـ ولكن كيف أستطيع؟...

أردف پيار دون أن يصغي إليه:

ـ وفي المقام الثالث، يجب ألّا تتفوّه بكلمة واحدة إلى كائن من كان عما وقع بين الكونتيسة وبينك. إن هذا لا أستطيع أن أمنعك عنه، وأنا أعرف ذلك. لكنه إذا بقي لديك بصيص من الوجدان.

توقف عن الحديث واستمر في تجواله صامتاً، بينما جلس أناتول إلى الطاولة وقطب حاجبيه وراح يعض شفتيه.

ـ آن الوقت لتعرف أن خارج حدود لذائذك المفضلة يوم شرف الآخرين وراحتهم وإنك تدمر وجوداً برمته في غمار تسليتك. تسلّ ما شئت مع النساء اللواتي من نوع زوجتي: إنهن يعرفن ما تريده منهن وهن مسلحات ضدك بتجارب العجوز نفسها التي أنت متسلح بها. أما أن تعد فتاة بالزواج... أن تخدعها... أن تغرر بها... ألا تفهم أنها نذالة أن يضرب المرء عجوزاً أو طفلاً؟

وتوقف پيار وراح يسأل أناتول بنظرة اختفى منها الغضب. قال أناتول وهو يستعيد جرأته كلما استعاد پيار هدوءه؟

ـ هذا ما لا أعرفه. هذا ما لا أعرفه ولا أريد معرفته.

ثم ألمح وهو يتصفحه وقد صدرت عن ذقنه حركة عصبية:

ـ لكنك قلت لي أشياء مهينة واستعملت كلمة «نذل» وكلمات أخرى، تجعلني بوصفي رجلاً شريفاً لا أسمح لأحد بقولها.

لم يفهم پيار إلى أي هدف يرمي أخو زوجته، فراح يتأمله بدهشة. استرسل أناتول: وعلى الرغم من أن هذا قيل في خلوة، فإنني لا أستطيع مع ذلك...

قال پيار بلهجة ساخرة: أظن أنك تطلب ترضية مني؟

ـ يمكنك أقله أن تصحح عباراتك على ما أظن إذا شئت أن أتصرف وفق رغباتك، هِنْ؟

قال پيار وهو ينظر بالرغم عنه إلى الزر المنزوع:

ـ ليكن! إنني أسحب أقوالي وأرجوك أن تعذرني. بل حتى إذا كنت في حاجة إلى المال للسفر...

علت شفتي أناتول ابتسامة أسخط تعبيرها الوضيع الوجل پيار. لقد شاهد مثلها على شفتي زوجته. فصاح: يا للعنصر الدنيء!

وترك أناتول الذي سافر في اليوم التالي إلى پيترسبورغ مشدوهاً في مكانه.

الفصل الحادي والعشرون

رجع پيار ليبلغ ماري دميترييڤنا أن رغبتها قد تحققت. وكوراغين ترك موسكو. رأى في المنزل حركة غير مألوفة: كانت ناتاشا مريضة جداً. أطلعته ماري دميتريڤنا، شريطة أن يكتم السر، على أن ناتاشا تناولت «الأرسنيك» الذي حصلت عليه سراً في اليوم نفسه الذي عرفت بنبأ زواج أناتول. مع ذلك، لم تكد تبتلع السم بكمية قليلة حتى أيقظت سونيا واعترفت لها بفعلتها، واتخذت إجراءات حاسمة حينئذ أنقذت حياتها. لكنها لا تزال في حالة من الضعف لا يمكن معها أن تنقل إلى الريف، لذلك فقد أرسلوا يطلبون الكونتيسة. قدم پيار واجباته للكونت الذي كان في منتهى الضعف ولسونيا التي كانت غارقة في دموعها. لكنه لم يستطع رؤية ناتاشا.

تناول الغداء، ذلك اليوم، في النادي. ولما كان اختطاف الآنسة روستوف الذي لم يتم، موضوع كل الأحاديث، فقد أعلن تكذيب النبأ بشدة مؤكداً أن هذه الإشاعات مبعثها طلب زواج سخيف تقدم به أخو زوجته. قدر پيار أن من واجبه أن ينقذ سمعة الآنسة روستوف بهذه الأكذوبة.

كان ينتظر، وصول الأمير أندريه، فيمضي كل يوم يتزود الأخبار عنه من الأمير العجوز. وكانت الآنسة بوريين قد أطلعت هذا على كل الإشاعات التي انتشرت أخيراً في المدينة وكذلك كان قد اطلع على الكلمة التي كتبتها ناتاشا إلى ماري تحل الأمير أندريه من وعده، فكان أكثر ابتهاجاً من عادته يتلهف على عودة ابنه بنفاد صبر.

بعد بضعة أيام، على رحيل أناتول تلقى پيار كلمة من الأمير أندريه يعلمه فيها بنبأ عودته ويرجوه أن يزوره في منزله.

سرقت الآنسة بوريين رسالة ناتاشا إلى ماري وأعطتها إلى الأمير العجوز. فأسرع هذا الأخير إلى اطلاع ابنه عليها وهو لما يصل بعد، وسرد عليه بالتفصيل كل الإشاعات الرائجة حول اختطاف ناتاشا.

أسرع پيار، منذ صباح اليوم التالي، إلى منزل صديقه. كان يتوقع أن يجده في حال قريب من حال ناتاشا لكنه، لدهشته، سمع من القاعة صوت أندريه المجلجل ينبعث من مكتب أبيه وهو يقص بحماسة دسيسة پيترسبورغية. كان الأمير العجوز وشخص آخر يقاطعانه من حين إلى آخر. جاءت الأميرة ماري تستقبل پيار. أطلقت تنهيدة وهي تشير بنظرها إلى باب المكتب أنها أرادت بتلك النظرة أن تعبر عن مدى رثائها لأخيها. لكن پيار لاحظ بوضوح أنها راضية تماماً عن خيانة ناتاشا وعن الطريقة التي استقبل بها أخوها النبأ أكدت:

ـ لقد قال إنه كان يتوقع ذلك. لا شك أن كبرياءه لا تسمح له أن يطلق العنان لعواطفه. لكنه، على كل حال، يحتمل الأمر أفضل، أفضل بكثير مما كنت أظن...

قال پيار: لكن، هل الانفصام حقيقي كامل حقاً؟

نظرت إليه ماري: لم تكن تعتقد أن مثل هذا السؤال جدير بأن يطرح.

دخل پيار إلى المكتب. رأى الأمير أندريه جالساً أمام أبيه والأمير ميشتشيرسكي في ثياب مدنية، يناقش بحرارة ويحرك ذراعيه بنشاط. تبدل تبدلاً كثيراً، وبدا في صحة أفضل. لكن تغضّناً جديداً جاء يقطع جبينه بين حاجبيه. كانوا يتحدثون عن خبر الساعة: نفي سپيرانسكي وخيانته المزعومة.

كان أندريه يقول: إن كل ما حدث منذ شهر يرفعه فوق السحب، رجمه اليوم بالحجر الأول، إنهم الآن ينضمون إلى أولئك الذين كانوا عاجزين عن

فهم خططه وأهدافه، إن من السهل جداً الحكم على رجل مغضوب عليه وتحميله أخطاء الآخرين كلها. حسناً! إنني أزعم إذا حدث شيء مفيد في هذا العهد فإن الفضل فيه يعود إليه...

توقف لدى رؤية پيار وانتفض وجهه ثم اتخذ فوراً سمة خبيثة:

وتابع: ولسوف تنصفه الأجيال القادمة.

ثم التفت إلى پيار وقال بحماسة بينما ازداد غضنُ جبينه بروزاً:

ـ حسناً كيف حالك؟ إنك تسمن باطراد.

وأجاب عن سؤال لـپيار حول صحته بابتسامة مريرة: نعم إن صحتي جيدة.

فسر پيار تلك الابتسامة بما يلي: «نعم، إن صحتي جيدة، ولكن ما من أحد يشغل باله بصحتي».

وبعد حديث مقتضب مع صديقه عن حالة الطرق المريعة اعتباراً من الحدود البولونية، وعن معارف پيار الذين التقاهم في سويسرا، وعن المدعو السيد ديسال الذي جاء به من الخارج ليشرف على تثقيف ولده، عاد أندريه يتدخل بحماسة في المحادثة المستمرة بين العجوزين.

قال بحمية عميقة: إذا كانت ثمة خيانة أو كانت ثمة أدلة على تواطؤ سپيرانسكي ولم أحبه قط. ولكن يجب أن يكون المرء عادلاً.

تعرف پيار إلى بادرة لم يرها تظهر على صديقه غالباً من قبل، ألا وهي الحاجة إلى الحركة والاندفاع في مناقشات شائكة يقصد نسيان أفكار شخصية شديدة الإيلام.

بعد رحيل الأمير ميشتشيرسكي، أمسك أندريه صديقه پيار من ذراعه وقاده إلى الغرفة التي خصصت له. كان هناك سرير وحقائب وصناديق مفتوحة تضيق بها الغرفة. انحنى أندريه على أحدها وأمسك بصندوق صغير أخرج منه

حزمة ملفوفة بالورق. قام بذلك بسرعة فائقة ودون أن ينطق بكلمة، ثم استوى وهو يسعل سعالاً خفيفاً ووجهه كالح وشفتاه مضمومتان بعنف.

ـ أعذرني لإزعاجي لك...

عرف أندريه أنه يريد أن يحدثه عن ناتاشا فازداد انفعاله وخصوصاً عندما رأى وجهه مطبوعاً بالتحنن. قال بصوت قاس: إن الكونتيسة روستوف قد سحبت كلمتها. بل إنني سمعت أن شقيق زوجك طلب يدها أو شيئاً من هذا القبيل...

هم بيارأن يقول مفسراً: هذا صحيح دون أن يكونه...

قاطعه أندريه قائلاً: ها هي رسائلها وصورتها.

وأخذ عن الطاولة الحزمة الملفوفة ومدها إلى بيار وقال:

ـ أعد هذه إلى الكونتيسة عندما تقابلها.

ـ إنها مريضة جداً.

فأجاب أندريه بحدة: إنها لا تزال هنا؟ والأمير كوراغين؟

ـ لقد رحل منذ زمن... لقد كانت مشرفة على الموت...

قال أندريه بابتسامة خبيثة تذكر بابتسامة أبيه: يؤلمني مرضها أشد الألم. ولا شك أن السيد كوراغين لم يجدها جديرة بالزواج به؟

قال بيار: لم يكن يستطيع الزواج بها لأنه متزوج من قبل.

قال أندريه: وهل أستطيع أن أعرف أين هو الآن السيد أخو زوجتك؟

ـ لقد ذهب إلى بيتر... في الحقيقة لست أدري شيئاً عن مكانه.

تابع أندريه: هذا غير مهم على كل حال. قل عن لساني للكونتيسة روستوف إنها كانت من قبل وستظل دائماً. أتمنى لها كل السعادة.

تناول بيار حزمة الرسائل، فسأله أندريه بنظره وكأنه تذكر أن لديه شيئاً لم

يقله بعد أو كأنه كان ينتظر أن يقول پيار شيئاً. قال هذا: أصغ إلي، إنك، بدون شك، لم تنس نقاشنا في پيترسبورغ. تذكر...

فبادر أندريه يجيب: إنني أذكر. قلت لك حينذاك إنه يجب أن يُغفر للمرأة التي سقطت. لكنني لم أقل لك إنني أستطيع أن أغفر لها. أنا لا أستطيع الصفح.

قال پيار: هل يمكننا المقارنة؟

لكن أندريه قاطعه صارخاً بلهجة حادة: نعم، أليس أن أطلب يدها مجدداً وأن أبرهن عن مروءتي وأشياء أخرى من هذا القبيل... لا شك أن ذلك آية في النبل. لكنني لا أشعر بقدرتي على السير فوق بقايا حطام السيد... إذا كنت تريد الإبقاء على صداقتي، فلا تحدثني بعد اليوم قط عن هذه...، عن كل هذا. والآن، وداعاً. لقد اتفقنا، سوف تعيد إليها...

عاد پيار ليقابل الأمير العجوز وابنته.

كان العجوز أكثر تيقظاً من عادته، لكن ماري كانت على حالها. لكن پيار لاحظ أنها رغم رثائها لحال أخيها، كانت مغتبطة لإخفاق الزواج. عرف وهو يراقبهما، مبلغ الاشمئزاز الذي يعمر قلبهما حيال آل روستوف وأحسّ أنه لا يمكن بعد الآن أن يُنطق باسمهم في حضرتهما، اسم تلك التي استطاعت، لأي دافع كان، أن تخون الأمير أندريه.

دار الحديث عن الحرب خلال تناول الطعام، الحرب التي بدت وشيكة الاندلاع. أمسك أندريه بدفة الحديث وانخرط في نقاش سواء مع أبيه أو ديسّال مثقف ابنه السويسري. بدا أكثر نشاطاً من عادته، وكان پيار يعرف أكثر من غيره سبب تلك الحماسة.

الفصل الثاني والعشرون

ذهب پيار إلى منزل آل روستوف، في ذلك المساء، لينفذ مهمته. كانت ناتاشا في سريرها والكونت في النادي. سلّم پيار الرسائل إلى سونيا وذهب إلى غرفة ماري دميترييڤنا التي كانت تريد أن تعرف كيف تلقّى الأمير أندريه النبأ. وبعد عشر دقائق، وصلت سونيا تلحق به. قالت:

ـ تريد ناتاشا رؤية الكونت پيار دون تأخير.

اعترضت ماري دميترييڤنا قائلة: هل يمكن حقاً أخذه إلى غرفتها؟ إن كل شيء فوضى مخيفة.

قالت سونيا: إنها مرتدية ثيابها تنتظر في القاعة.

هزت ماري دميترييڤنا كتفيها باستسلام. قالت توصي پيار: متى ستصل الكونتيسة؟ ما عدت أحتمل... حاذر أن تقول لها كلمة. لا يجد المرء الشجاعة على توبيخها، إنها تستدر الشفقة.

وفي وسط القاعة، وقفت ناتاشا جامدة، شاحبة الوجه كئيبة ولكن، ولدهشة پيار الكبيرة، في غير خجل. فلما ظهر على العتبة، انتابها اضطراب قوي: ترددت بين أن تتقدم نحوه وبين أن تنتظره.

أسرع پيار الخطى. اعتقد أنها ستمد إليه يدها كعادتها. لكنها بعد أن تقدمت نحوه، توقفت مقهورة متدلية الذراعين واتخذت مثل تلك الوقعة التي اعتادت عليها من قبل، حينما كانت تتوسط قاعة الرقص لتغني. لم يتغيرفيها إلا أمارات وجهها.

قالت بصوت لاهث: پيار كريلوڤيتش، إن الأمير پولكونسكي صديقك.

ثم صححت قولها وقد بدا لها أن كل شيء يخص الماضي وحده:

إنه لا يزال صديقك. لقد قال لي من قبل أن أتصل بك...

أصغى پيار إليها مبهور الأنفاس. لقد أثقلها حتى تلك اللحظة باللوم والعنف في سرّه، بل قرر أن يحتقرها. أما الآن، فعلى العكس، لقد أخذت الشفقة تتسرب إلى قلبه تطارد كل فكرة ذم: إنه هنا. قل له... أن يـ... يصفح عني.

توقفت لاهثة ولكن جافة العينين. قال پيار: نعم، سأقول له. لكن...

ولم يعرف ماذا يضيف.

وبحدّة، قالت ناتاشا وقد روعتها الفكرة التي قد تكون مرت برأس پيار:

أنا أعرف أن كل شيء قد انتهى... انتهى إلى الأبد... إن ما يعذبني هو الألم الذي سببته له. قل له فقط إنني أتوسل إليه أن يسامحني، أن يغفر لي كل شيء...

واكتسحت كيانها كله قشعريرة عصبية، فمضت تتهالك على كرسي.

تملّكت الشفقة قلب پيار. لم يشعر قط من قبل بشيء من هذا القبيل.

ـ سأقول له ذلك، سأقول له كل شيء ذات مرة... لكنني... وددت أن أعرف شيئاً...

سألته سونيا: «أن تعرف ماذا؟».

ـ وددت أن أعرف ماذا كنت أحببت، وأرتج عليه فلم يعد يعرف كيف يصف أناتول بل إن وجهه احمرّ لمجرد التفكير فيه، إذا كنت أحببت ذلك الرجل المنحط؟

قالت ناتاشا: لا تنعته هكذا. لست أدري شيئاً، لم أعد أدري شيئاً...

واستسلمت للبكاء. اعتلج شعور بالإشفاق والحب في نفس بيار وأحسّ بالدموع تحت نظارتيه. قال: لنكف عن البحث في هذا يا صديقتي.

أثر ذلك الصوت الرقيق المضطرب في نفس ناتاشا فجأة.

لنتوقّف عن البحث يا صديقتي. سوف أقول له شيئاً أطلب إليك فقط أن تعتبريني بعد الآن صديقتك. فإذا احتجت إلى مساعدة أو نصح أو إذا أردت أن تنفثي عما في نفسك، ليس الآن، ولكن عندما تجدين أن كل شيء قد عاد واضحاً في سريرتك، تذكريني.

وأمسك بيدها وقبّلها ثم قال: أنا سعيد لأنني أستطيع...

واضطرب بيار. فصاحت ناتاشا:

لا تحدثني هكذا. أنا لا أستحق ذلك.

وأرادت أن تنصرف. لكن بيار استوقفها. كان يعرف أن في نفسه شيئاً آخر يقوله. لكنه ما كاد ينطق بما أراد حتى أدهشته كلماته. قال لها: لا تقولي هذا. إن أمامك عمراً كاملاً.

أجابت وهي تحاول أن تنقص من قيمة نفسها: ؟ أنا كلا. لقد ضاع كل شيء.

ضاع كل شيء؟ أتظنين؟ حسناً! لو أنني كنت أنا، لو كنت أجمل وأذكى وأفضل الرجال، لو كنت مالكاً حريتي، لما ترددت لحظة في الركوع أمامك طالباً يدك وحبك.

لأول مرة منذ أيام طويلة، ذرفت ناتاشا، دموع الشكران. شكرته بنظرة وخرجت.

خرج بيار كذلك، أو الأحرى هرب حتى بلغ الممرّ وهو يمسك دموع السعادة التي كانت تخنقه. ارتدى فروته كيفما اتفق وصعد إلى زحافته. سأله الحوذي: أين يريد الذهاب الآن؟

تساءل پيار: «أين يمكنني أن أذهب؟ إلى النادي؟ عند أصدقاء؟ مستحيل».

رأى كل شيء شديد الحقارة والتفاهة بالنسبة إلى ذلك الشعور بالحنان والحب الذي استسلم له، بالنسبة إلى نظرة العرفان تلك التي منحتها له خلال دموعها! قال: إلى المنزل.

وعلى الرغم من درجات البرد العشر، فقد أزاح فروته المصنوعة من جلد الدب عن صدره العريض وراح يتنفس بجذل.

كان يوم صقيع جميلاً والسماء الدكناء المزروعة بالنجوم، تنبسط فوق الشوارع القذرة نصف المعتمة وفوق السطوح المعتمة. لم يكن غير تأمل هذا البهاء الرائع، ينسي پيار دناءة الأشياء البشرية إذا قورنت بالسمو الذي بلغته روحه. وعندما وصل إلى ساحة «آربات» انحسر أمام عينيه فراغ كبير من القبة المنجمة. وفي كبد السماء، فوق جادة بريتشيشتنكي تماماً، وسط موكب من النجوم امتاز عنها بضيائه الأبيض وتجاوره الأكبر وذيله الطويل المرتفع عند طرفه، ظهر المذنب الكبير اللامع، مذنب عام ١٨١٢، الذي زعموا أنه ينبئ بالأهوال الكثيرة بل بانتهاء العالم. لكن تلك النجمة الهائلة المشعة ذات الذنب المضيء، لم توقظ في نفس پيار أيّ رعب. بل على العكس، راح يتأملها فرحاً بعينيه المخضلتين بالدموع: بدت كأنها بعد أن قطعت مسافة يستحيل قياسها بسرعة لا حد لها حسب خط المجاز، انغرست فجأة في المكان الذي اختارته في تلك السماء المظلمة كما يغرز السهم في الأرض، بقيت هناك تنفش ذنبها وتذبذب أضواء نورها الأبيض بين نجوم متألقة لا تحصى. فكان پيار يجد علاقة مبهمة بين بهاء هذا الكوكب وبعث روحه المتفتحة لحياة جديدة.

الجزء التاسع

الفصل الأول

حشدت أوروبا في أواخر العام ١٨١١، وأعدّت قوات عظيمة. ووُجّهت هذه القوات في العام ١٨١٢، وتعدّ بالملايين من الرجال، من الغرب إلى الشرق نحو الحدود الروسية حيث كان تتجمع بالمثل القوات الروسية منذ عام ١٨١١. وفي الثاني عشر من حزيران، اجتازت جيوش أوروبا الغربية الحدود ونشبت الحرب، أي إنه وقع حدث مخالف للمنطق، مخالف لكل طبيعة الإنسان. ارتكبت هذه الملايين من الرجال عدداً كبيراً من الكبائر والخيانات والسرقات وترويج النقد المزيّف والنهب والحرائق والقتل تعجز وثائق كل محاكم العالم عن تقديم أمثلة مماثلة خلال قرون، كل هذا دون أن يعتبر فاعلو هذه الرذائل خلال تلك الحقبة من الزمن أنها جرائم بشعة.

ما هو سبب هذا الحدث الأعجوبي؟ وماذا كانت أسبابه؟ يظهر المؤرخون بتأكيد خالص أنها إهانات الدوق دولدنبرغ وخرق الحصار البري، وطمع ناپليون وعناد ألكسندر وأخطاء الدبلوماسية إلخ... أي إنه لو كان الأمر كذلك. كان يكفي لتجنب الحرب، أن يجتهد ميترنيخ[١] أو رومیانتسيڤ[٢] أو تاليران[٣] بين عشية وضحاها فيحرر مخابرة سياسية بارعة أو أن يكتب ناپليون

(١) رجل دولة نمسوي دبّر زواج ماري لويز بناپليون الأول (المترجم).

(٢) سياسي سبق ذكره (المترجم).

(٣) سياسي فرنسي، أسقف أوتون، (المترجم).

إلى ألكسندر بكل بساطة: «سيدي أخي، إنني أوافق على إعادة الدوقية إلى الدوق دولدنبورغ»[1].

ومن الملاحظ أن هذه كانت وجهة نظر المعاصرين وكذلك كان ناپليون يعزو منشأ المعركة إلى دسائس بريطانيا كما أعلن ذلك بكل صراحة في جزيرة سانت هيلين. ومن الملاحظ أيضاً أن أعضاء مجلس النواب البريطاني ألقوا المسؤولية على طمع الأمبراطور. فالدوق دولنبورغ لا بد وأن يستشهد بالقسوة التي كان ضحية لها وبالمفاوضين والحصار الذي كان يجر الخراب على أوروبا والعسكريين القدامى وضرورة تقديم ما يشغلهم والمشرعين وسرعة إقامة «المبادئ الطيبة» والدبلوماسيين والتحالف المعقود عام ١٨٠٩ بين النمسا وروسيا لم يُخف بمهارة كافية على ناپليون بسبب رداءة تدبيج المذكرة (ميوراندوم) رقم ١٧٨. يُلاحظ أن المعاصرين وإن استعانوا بكل هذه الأسباب وبعدد آخر تبعاً للاختلاف المتناهي في وجهات النظر، فإنها تبدو لنا، نحن الأعقاب الذين نقدّر هذا الحدث الهامّ على كل رحابته ونتعمق في معناه العادي بقدر ما هو رهيب، أقل كفاية. أن يكون الملايين من المسيحيين قد تألموا أو تذابحوا لأن ناپليون كان طماعاً وألكسندر عنيداً وسياسة بريطانيا ملتوية والدوق دولدنبورغ مهاناً، أمر يصعب فهمه، إننا لا نعقل أن هناك رباطاً يمكن أن يجمع بين هذه الظروف وبين جرائم القتل أو أعمال العنف ولا نرى كيف أن الإهانة الموجهة إلى دوق استطاعت نقل الألوف من الرجال من جانب أوروبا إلى جانبها الآخر ليقتلوا وينهبوا سكان أقاليم سمولنسك[2] وموسكو أو ليُقتلوا من جانبهم.

وهذه الأسباب، في نظرنا، نحن الذين نمثل الأجيال المتعاقبة، نحن

---

(١) أولدنبرغ غراندوقية ثم أصبحت جمهورية عام ١٩١٩. (المترجم).

(٢) مدينة روسية انتصر فيها الفرنسيون عام ١٨١٢. (المترجم).

الذين لسنا مؤرخين والذين لا نضيع في مضلة الاستقصاءات بل يمكننا أن نتفحص هذا الحدث بحس واضح أكثر من أن تحصى، وكلما ازددنا تعمقاً في البحث عن هذه الأسباب، تبدت لنا أكثر عدداً، وكل سبب نأخذه على حدة، وكل مجموعة من الأسباب، تبدو لنا في آن واحد، عادلة في نفسها خاطئة بسبب تفاهتها ومقارنتها بفداحة الحدث حتى لتعجز عن الإتيان به دون تدخل الأسباب المطابقة الأخرى كلها. فإذا كنا نستشهد برفض ناپليون إيقاف قواته وراء الفيستول[١] وإعادة دودلنبورغ، فلماذا لا نستعرض كذلك رغبة أي كان من العرفاء الفرنسيين في التطوع من جديد أو رفضه؟ لنفرض جدلاً أن هذا الرجل ومن ورائه ألوف آخرون من العرفاء، رفضوا أن يعودوا إلى الخدمة، فإن جيش ناپليون كان سيمنى بنقص والحرب لم تكن لتقع.

لو لم يعتبر ناپليون الانطواء وراء الفيستول مذلاً لما تقدم بقواته ولما اندلعت الحرب. لكن لو أن رقباءه كلهم رفضوا الخدمة، لما نشبت الحرب كذلك. كما أنه لولا دسائس ووجود دولدنبورغ، ولو أن ألكسندر لم يكن سريع الغضب ولم تكن لروسيا حكومة أوتوقراطية. ولو لم تقع الثورة الفرنسية وحكومات «الإدارة»[٢] و»المملكة»[٣] وأي شيء مما أدى إلى تلك الثورة إلخ. فالعدوان كان مستحيل الوقوع. ما كان ليحدث شيء لولا سبب من هذه الأسباب. فالتقاؤها وعدد هائل آخر مشابه وضع النار في البارود. لا يمكن استبعاد أي سبب ولقد تأدى الحدث لأنه كان لا بد وأن يكون هكذا فحسب. كان يجب أن يمضي الملايين من الرجال فاقدين التعقل مطلقين كل

---

(١) نهر بولوني. (المترجم).

(٢) «الإدارة» ديركتوار اسم أعطي للحكومة، وقلبها ناپليون في (١٨) برومير عام ٨ للثورة). (المترجم).

(٣) المملكة أسسها ناپليون الأول عام ١٨٠٤ (المترجم).

عاطفة إنسانية، ومن الغرب إلى الشرق ليقتلوا أشباههم كما انحدرت جماهير من الرجال قبل بضعة قرون من الشرق إلى الغرب ليقتلوا أمثالهم هناك.

وفي الواقع، إن أفعال ناپليون وألكسندر اللذين كان كلامهما وحده يستطيع في الظاهر إثارة الحدث أو حبسه، كانت تساوي بتفاهة وزنها قيمة أفعال الجندي البسيط الذي كان القدر أو التجنيد يرغمه على خوض الحرب. لم يكن ممكناً أن تكون غير ذلك لأنه لكي تتم مشيئة ناپليون أو ألكسندر المحكمين الظاهرين بالمقدر، كان لا بد من مساهمة الملابسات التي لا تحصى ما دام الأمر لم يكن ليقع لو استبعدت إحداها. كان لا بد لهذه الملايين من الرجال الذين كانت بين أيديهم القوة الفاعلة بوصفهم جنود القتال ونقل أرزاق المدافع أن يوافقوا جميعاً على إمضاء إرادة هذين الشخصين الضعيفين المنعزلين وأن يكونوا مسترشدين بعدد لا يحصى من الأسباب المتعددة والمركبة.

لا بدّ من أن نلجأ إلى مذهب الجبرية إزاء بعض الظواهر التاريخية الخالية من المعنى أو التي يفوتنا معناها. والواقع أن عقلنا كلما اجتهد في تفسيرها بدت لنا منافية للصواب.

إن كل رجل يعيش من أجل نفسه يستعمل حريته لبلوغ أهداف خاصة ويشعر بكل كيانه أنه قادر أو عاجز عن القيام بهذا أو ذاك من الأفعال لكنه ما إن يعمل، حتى يصبح عمله الذي أنجزه في لحظة ما من الديمومة لا رجعة فيه وملكاً منذ ذلك الحين للتاريخ حيث لا يعود حراً بل خاضعاً للقدر.

وجهان للحياة البشرية، فهناك من الجانب الأول الحياة الشخصية التي تبلغ الحرية فيها مبلغ ما للغايات من تجرد، ومن الجانب الآخر الحياة البدائية الجماعية التي ينبغي للإنسان فيها أن يخضع حتماً للقوانين المحددة له.

يعيش الإنسان عامداً من أجل نفسه. لكنه يساهم دون عمد في أهداف

الإنسانية التاريخية جمعاء. والفعل المنجزُ لا مرد له وباتحاده مع ملايين الأفعال الأخرى المتممة من قبل الغير، يأخذ قيمة تاريخية. وكلما ارتفعت مرتبة الرجل على السلم الاجتماعي، كانت الشخصيات التي يعقد معها العلاقات أرفع شأناً وسلطتها على الغير أوسع مدى وكان لكل من أعمالها طابع واضح من الضرورة والاصطفاء.

«إن قلوب الملوك في يد الله».

والملك عبد التاريخ.

والتاريخ، أي إن حياة الإنسانية الجماعية العامة غير العمدية تستخدم كل دقيقة من حياة الملوك لإنجاز مشاريعها.

وعلى الرغم من أن نابليون عام ١٨١٢، كان يعتقد أكثر من أي وقت مضى أن عليه وحده يتوقف «إهراق دم شعبه أو عدم إهراقه» كما قال له ألكسندر في رسالته الأخيرة التي كتبها إليه، فإنه كان أكثر من أي وقت مضى خاضعاً لهذه القوانين الجبرية، التي كانت ترغمه على تنفيذ عمل التاريخ العام، الذي كان ينبغي حتماً أن ينفذ، والتي تترك له التوهم بأنه إنما يفعل وفقاً لرغبته الشخصية.

تحرك رجال الغرب نحو رجال الشرق كي يقتل بعضهم بعضاً. وتبعاً لقانون توافق الأسباب، كانت ألوف الأسباب الصغيرة تتفق مع هذه الحركة: خرق الحصار البري، إهانات الدوق دولدنبورغ، تسيير الجيوش في بروسيا الذي كان نابليون يفكر في الشروع فيه بغية تأمين سلام فحسب، غرام أمبراطور الفرنسيين المتأصل بالحرب متفقاً مع استعداد خاص من جانب شعبه، الجاذبية المباشرة للتجهيزات الجسيمة والنفقات التي أوجبتها، الحاجة إلى فوائد لتغطية هذه النفقات، استقبالات دريسد[1] المسكرة، المفاوضات

(١) دريسد بالألمانية درسدن عاصمة الساكس انتصر فيها نابليون على الحلفاء عام ١٨١٣

الدبلوماسية التي كان المعاصرون يعتقدون أنها تجري برغبة مخلصة في الحصول على السلم، التي كانت في حقيقتها تسيء إلى أنانية هذا وذاك من الجانبين وملايين من الأسباب الأخرى كانت تساهم في إتمام الحدث.

تسقط تفاحة عندما تكون ناضجة فلماذا تسقط؟ هل يجذبها ثقلها إلى الأرض أم أن طرفها قد يبس، أم أن الشمس حمستها أم هزتها الريح فأسقطتها؟ هل تستجيب بكل بساطة لنداء الفتى الخفي الذي اشتهاها؟

لا شيء من كل هذا هو السبب. لا يوجد إلا توافق أسباب مؤاتية لإنجاز أية تظاهرة أولية في الحياة العضوية. يقول عالم النبات إن التفاحة تسقط نتيجة تملل النسيج النووي أو شيء آخر من هذا النوع. والفتى يزعم أن التفاحة سقطت لأنه يشتهيها فتوجه بصلاة لهذه الغاية. وكلاهما يكون على حق. هذا يؤكد أن نابليون جاء إلى موسكو لأنه كان يريد ذلك وأنه وجد فيها خسارته لأن ألكسندر كان قد صمّم على إلحاق الهزيمة به. وذاك يؤكد أن جبلاً زنته ألوف الأطنان قُوّض من قاعدته، فانهار نتيجة لضربة معول أخيرة من يد آخر حفار. كلاهما مخطئ ومصيب معاً. إن الرجال العظام المزعومين ليسوا في الوقائع التاريخية إلا عناوين لا يربطها بالأحداث أي نوع من الصلات رغم أنها تضفي أسماءها على تلك الأحداث.

وعلى الرغم من أن تصرفاتهما بدت لهما ناجمة عن محض إرادتهما، فليس بينهما واحد مخيراً بالمعنى التاريخي للكلمة بل إن كلاً منهما مرتبط بسير التاريخ العام ومعين منذ الأزل.

الفصل الثاني

غادر ناپليون دريسد بعد أن مكث فيها ثلاثة أسابيع تحيط به بطانة من «الدوقات» والأمراء والملوك والأمبراطور، وذلك في التاسع والعشرين من شهر أيار. وقد عامل قبل سفره الأمبراطور والملوك والأمراء الذين خدموه بإخلاص وبمزيد من الإكرام وعزل الأمراء الذين كان مستاء منهم وقدَّم لأمبراطورة النمسا لآلئ وماسات أخذها من صندوقه الخاص أي إنها جواهر مصادرة من ملوك آخرين. وبعد أن ضم بين ذراعيه ماري لويز بحنان، تركها كما يؤكد مؤرخه، حزينة جداً لهذا الرحيل الذي على ما يبدو لم تكن لماري لويز القوة على احتماله وهي التي تعتبر وكأنها زوجته رغم أن زوجته الشرعية موجودة في باريس. وعلى الرغم من أن الدبلوماسيين استمروا مؤمنين بإقامة السلم وجهدوا بنشاط لهذه الغاية، وعلى الرغم من أن ناپليون كتب لألكسندر رسالة بخط يده دعاه فيها «بسيدي أخي» وأكد له فيها أنه لا يريد الحرب ولن ينفك عن تقديره ومحبته، فإن الأمبراطور لم يكن ذاهباً إلا للالتحاق بالجيش فيعطي في كل مرحلة أوامر جديدة تهدف إلى الإسراع بالسير نحو الشرق. كان في عربة مقطورة إلى ستة جياد يحيط به التابعون ومساعدو الميدان والحرس، يسير في طريق بوزن[١]، ثورن[٢]، دانتزيغ[٣]، كونيغزبيرغ[٤] الكبرى وفي كل

(١) مدينة بولونية على نهر وارتا، موطن هندنبرغ. (المترجم).

(٢) مدينة بولونية على نهر ڤيستول. (المترجم).

(٣) مدينة حرة في أوروبا الوسطى احتلها الفرنسيون عام ١٨٠٧ (المترجم).

(٤) كالينينغراد اليوم، مدينة ليتوانية احتلها سولت عام ١٨٠٧ (المترجم).

مدينة من هذه المدن يستقبله ألوف من الناس بحماسة ممتزجة بالخوف.

كان الجيش يزحف نحو الشرق كما أن الجياد الستة التي تجر مركبته والتي كانت تبدل في كل مرحلة، كانت تحمل ناپليون نحو الجيش. لحق به في العاشر من حزيران وأمضى الليل في صلب غابة ڤيلكوڤيسزكي في أملاك «كونت» بولوني حيث أُعد له جناح خاص لإقامته.

تابع الجيش، في صبيحة اليوم التالي، زحفه فبلغ نييمن[1] في عربة حيث راح يتفحص الضفاف وهو في الزي البولوني بحثاً عن مكان مناسب لعبور القطعات.

ولما رأى القوقازيين القائمين على الشاطئ الآخر والقفار اللامتناهية التي تقوم في وسطها موسكو المدينة المقدسة، عاصمة هذه المملكة التي تذكر بمملكة ياجوج وماجوج التي احتلها الإسكندر المقدوني، أمر ناپليون بالسير إلى الأمام وسط الدهشة العامة والاستخفاف بكل العبارات الاستراتيجية أ والسياسية. وفي صباح اليوم التالي، اجتازت قواته النييمن.

خرج في اليوم الثاني عشر، مبكراً من خيمته التي نصبت ذلك اليوم عند منحدر من الضفة اليسرى، وراح يراقب بمنظاره تدفق جيوشه التي كانت تخرج من غابة ڤيلكوڤيسزكي لتنتشر على الجسور الثلاثة المقامة على النييمن. وكان الجنود يعرفون بوجود الأمبراطور، يبحثون عنه بأنظارهم فإذا ما شاهدوا على المرتفع أمام خيمته متنحياً عن حاشيته، شبحه وهو في «الرودنغوت» وعلى رأسه القبعة الصغيرة، ألقوا في الهواء بقلانسهم الوبرة وهم يصيحون «عاش الأمبراطور»! واستمرت القطعات تتدفق بلا انقطاع من الغابة التي كانت تخفيها وتمرّ منقسمة عن طريق الجسور الثلاثة إلى الضفة الأخرى.

---

(١) نهر في روتانيا وليتوانيا يصب في بحر البلطيق. (المترجم).

ـ سوف نصل هذه المرة. آه! عندما يتدخل بنفسه يحمى الوطيس... باسم الله!... ها هو ذا... يعيش الأمبراطور!... ها نحن أولاء في قفار آسيا! بلد رديء رغم كل شيء. ـ وداعاً يا بوشيه، سأحتفظ لك بأجمل قصر في موسكو ـ. إلى اللقاء وحظاً سعيداً!...

ـ هل رأيت، الأمبراطور؟ يحيا الأمبراطور... طور! ـ إذا جعلوا مني حاكماً للهند. سأجعلك يا جيرار وزيراً لكشمير، هذا قرار ـ يعيش الأمبراطور! يعيش! يعيش! يعيش! ـ يا للقوقازيين الأنذال، كيف يهربون! يحيا الأمبراطور ها هو ذا! لقد رأيته مرتين كما أراك. العريف الصغير... لقد رأيته يعطي الصليب إلى أحد الكهول... ـ يحيا الأمبراطور!

تلك كانت العبارات التي يتبادلها الشبان والكهول، أشخاص من كل نوع من كل المراكز الاجتماعية. وكانت الوجوه كلها تعكس فرحة واحدة لرؤية بدء الحملة المنتظرة بفارغ الصبر وحماسة واحدة وإخلاصاً واحداً للرجل ذي الرودنغوت الرمادي الذي كان يُرى في الأعلى فوق المنحدر.

جاؤوا إلى ناپليون، في الثالث عشر، بجواد عربي أصيل فامتطاه وانتهى إلى أحد جسور النييمن هرباً وقد أصمّت أذنه خلال الطريق الهتافات بحياته التي احتملها لأنه لم يكن يستطيع أن يحرم على جنوده الإعراب عن محبتهم له على هذا النحو. وكانت هذه الصيحات تعظّمه. كانت تحرفه عن المشاغل ذات الصبغة العسكرية التي كان فريسة لها منذ أن لحق بالجيش. اجتاز النهر على واحد من الجسور المهتزة وانحرف فجأة إلى اليسار ثم جرى على جواده في طريق كوفنو[١] يسبقه قناصة من الحرس الراكب يستخفهم الفرح كانوا

(١) عاصمة ليتوانيا تحت سيطرة ناپليون. (المترجم).

يشقون له طريقاً خلال القطعات. وعندما وصل إلى شاطئ فيليّا العريض، توقف قرب فيلق من الفرسان البولونيين الذين كانوا نازلين هناك.

صاح البولونيون بدورهم: يحيا!

وفي غمرة حماستهم، أفسدوا نظام الصف ودفع بعضهم بعضاً ليروه بشكل أفضل.

تأمل ناپليون النهر ثم ترجل عن حصانه وجلس على لوح خشبي على جانب الشاطئ. ودون أن ينبس بكلمة، حملوا له منظاره بإشارة منه فأسنده إلى كتف أحد أتباعه الذي أسرع تملأه الغبطة وراح يفحص الشاطئ المقابل. استغرق في دراسة الخريطة المنشورة على جذع شجرة. ودون أن يرفع رأسه، نطق ببضع كلمات، فحث اثنان من مساعدي الميدان جواديهما نحو الفرسان البولونيين. ولما وصل أحدهما إليهم، سرت همهمة بين الصفوف:

ماذا قال؟ ماذا قال؟

كان الأمر ينص على البحث عن مخاضة وعبور النهر. سأل زعيم الفرسان، وكان رجلاً عجوزاً أنيق اللباس، محمر الوجه، يتمتم من التأثر، المساعد عما إذا كان يُسمح له بعبور النهر سباحة دون التفكير في المخاضة. ولقد التمس بخوف واضح خشية أن يرفض ملتمسه، شأن الصبي الذي يسأل الإذن بامتطاء صهوة جواد، أن يُسمح له بتنفيذ هذه المأثرة تحت نظر الأمبراطور. فأجاب المساعد بأن هذا لن يكون ولا ريب مستاء من هذه الغيرة المفرطة.

وعلى الفور، هز الضابط المسن ذو الشاربين الطويلين سيفه وهتف ملتمع العينين مشرق الأسارير: ڤيڤا! يحيا ـ ثم أعطى الأمر لجنوده أن يتبعوه وهمز حصانه واندفع نحو النهر. ولما جمح الحصان، فقد شدد عليه بغضب وغاص في الماء متجهاً نحو موضع يكون التيار فيه قوياً وتبعه مئات من

الفرسان. ولكن ما إن وصلوا إلى منتصف النهر حتى استبد بهم البرد والخوف فتعلق بعضهم ببعض وهم حيارى.

غرقت بعض الجياد وبعض الرجال كذلك وحاول آخرون السباحة وهم متشبثون بعضهم بسروج الجياد وبعضهم بأعرافهم. جاهدوا لبلوغ الشاطئ الآخر رغم أن هناك مخاضة على مسافة خمسمائة متر من المكان. لكنهم كانوا فخورين بأن يسبحوا وأن يغرقوا تحت أنظار ذلك الرجل الجالس على جذع شجرة، الذي لم يكن ينظر حتى إلى ما كانوا يفعلون. ولما رجع المساعد العسكري، انتهز فرصة مواتية ليلفت انتباه الأمبراطور إلى تفاني البولونيين في سبيل شخصه وحينئذ نهض الرجل ذو «الرودنغوت» الرمادي واستدعى بيرتييه[1] وراح يتنزه معه على طول النهر وهو يعطيه أوامره ويلقي نظرات مستاءة على أولئك الفرسان الذين كانوا بغرقهم، يحولون انتباهه عن الأعمال الجدية.

ومنذ زمن طويل، كان مقتنعاً أن وجوده في كل أركان العالم، ابتداء من أفريقيا وحتى قفار موسكوفا، يكهرب كل الرجال ويثير فيهم جنون التضحية لذلك فقد استحضر جواده وعاد إلى مخيمه.

وعلى الرغم من القوارب التي أرسلت لإنقاذهم، فقد غرق حوالى أربعين فارساً وارتد معظمهم إلى الشاطئ. أما الزعيم وعدد من الرجال، فقد وصلوا بصعوبة إلى الشاطئ الآخر. وما إن ظهروا هناك بثيابهم المبللة بالماء حتى صاحوا: ڤيڤا! وهم ينظرون إلى المكان الذي كان فيه نابليون والذي لم يعد فيه، شاعرين بالسعادة.

وفي المساء، بين قرارين، الأول يهدف إلى سرعة استقدام نقد زائف

(١) ماريشال فرنسا، كان على حظوة لدى نابليون وشارك في غزو روسيا. قتل عام ١٨١٥. (المترجم).

معد لإدخاله إلى روسيا، والثاني إعدام سكسوني عثر معه على رسالة تحوي معلومات عن تحركات الجيش الفرنسي، اتخذ الأمبراطور قراراً ثالثاً ينص على تعيين الزعيم البولوني الذي اندفع في النهر دون أية ضرورة ملحة، عضواً في جوقة الشرف التي كان هو رئيسها.

إن الذين يريدون الموت يتخلون عن تعقلهم أولاً.

الفصل الثالث

منذ أكثر من شهر، وفي تلك الأثناء، كان أمبراطور روسيا في فيلنا[1] يتفقد جيوشه ويحضر مناورات عسكرية. كان الناس كلهم ينتظرون الحرب ولقد غادر الأمبراطور بيترسبورغ عامداً ليهيئ العدة للحرب مع أنه لم يكن هناك شيء بعد. لم تكن لديه خطة عامة للعمليات. ولقد عُرضت عليه بضع خطط ولكنه لم يتبنَ أيّ واحدة منها. وكلما أطال ألكسندر مقامه ازداد البلبال في اتخاذ ما يجب. وكان لكل جيش من الجيوش الثلاثة قائده الأعلى ولكن لم يكن هناك قائد أعلى وكان الأمبراطور يرفض الاضطلاع بهذا المنصب الرفيع.

كان الوقت يمر في انتظار غير مجد ويزداد السأم من إعاقة الاستعدادات يوماً بعد يوم وحاشية جلالته تبدو صارفة كل اهتمامها إلى تمضية وقته على أحسن وجه وتناسي خطر الحرب الوشيكة.

وبعد عديد من الحفلات الراقصة والأعياد التي أقامها الأشراف البولونيون ورجال الحاشية والأمبراطور نفسه، أقام أحد المساعدين العسكريين من الجنرالات البولونيين في شهر حزيران مأدبة عشاء وحفلة راقصة على شرف جلالته باسم كل زملائه. وقد قبلت هذه الفكرة بحماسة ووافق الأمبراطور، ففتح المساعدون العسكريون الجنرالات حملة اكتتاب

(١) مدينة احتلتها بولونيا عام ١٩٢٠ طالبت بها ليتوانيا فاستعادها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٩. (المترجم).

ووافقت التي تتمتع بالتفاتة ألكسندر الخاصة على أن تقوم بدور ربة البيت. ولما كان الكونت بينيغسن[1] الذي كانت أملاكه تقع قرب إقليم فيلنا قد وضع تحت تصرف المنظمين قصره في زاكرت، وتقرر أن يتم العيد الذي يشمل العشاء والحفلة الراقصة والنزهة على الماء والنيران الاصطناعية في الثالث عشر من حزيران.

فاليوم إذن الذي أعطى فيه نابليون الأمر باجتياز النييمن والذي راحت طلائعه تصدّ القوقازيين فيه وتنتهك حرمة الحدود الروسية، كان ألكسندر يمضي السهرة عند الكونت بينيغسن بدعوة من مساعديه العسكريين.

كان الاحتفال مرحاً رائعاً أكد العارفون أنهم لم يروا من قبل مثل هذا العدد من النساء الجميلات. وكانت الكونتيسة بيزوخوف التي لحقت بالأمبراطور إلى فيلنا ترافقها سيدات روسيات أخريات، تكسف «بجمالها الروسي» المترف جمال البولونيات الأكثر رقة ولطفاً. ولقد جذبت إليها الأنظار وشرفها الأمبراطور بمراقصتها.

وكان بوريس دروبتسكوي هناك أيضاً عازباً حسب قوله، لأنه ترك زوجته في موسكو. وعلى الرغم من أنه لم يكن مساعداً عسكرياً جنرالاً، فقد ساهم رغم ذلك بمبلغ كبير في الاكتتاب. كان حينذاك قد أصبح رجلاً غنياً متقدماً جداً في طريق المراتب والوظائف، بعيداً عن البحث عمن يحميه، يعامل أرفع معاصريه مكانة الند للند، ولقد وجد هيلين في فيلنا وهو الذي فقد آثارها منذ بعض الوقت وكان الماضي منسياً. ولكن، بما أن هيلين كانت تتمتع بالتفاتة شخصية رفيعة وكان موريس متزوجاً منذ بعض الوقت، فقد أصبحا من فورهما صديقين قديمين.

---

(١) جنرال روسي هزمه نابليون في معركة إيلو في ليتوانيا عام ١٨٠٧. (المترجم).

كان الرقص، حوالى نصف الليل، لا يزال دائراً. ولما لم تجد هيلين فارساً جديراً بمراقصتها، فقد عرضت على بوريس أن ترقص «المازوركا» معه فشكلا الزوج الثالث. وبينما كانا يتسامران حول معارفهما القدماء، كان بوريس يلامس بنظرة لامبالية كتفي هيلين العاريتين البارزتين فوق مشد من شف أدكن موشى بالذهب. ولكن دون أن يشعر أحد بل لعله يشعر هو نفسه، كانت النظرة تتابع الأمبراطور الذي كان موجوداً في تلك القاعة بالذات. لم يرقص ألكسندر. كان يقف قرب الأبواب، يستوقف هذا تارة وذاك تارة أخرى وينعم بتلك الكلمات اللطيفة التي كان وحده يحسن النطق بها.

عند بدء «المازوركا»، لاحظ بوريس، أن الجنرال المساعد العسكري پالاشيـڤ وهو أحد المقربين إلى الأمبراطور، اقترب من سيده وراح ينتظر، رغم آداب الـپروتوكول، أن يتفرغ هذا من التحدث إلى سيدة بولونية. استفسره ألكسندر بالنظر ولما أدرك أن لا بد من أسباب خطيرة أدت إلى تجاوز تابعه، خطا خطوة نحوه بعد أن صرف السيدة بإيماءة من رأسه. وما كاد پالاشيـڤ يدلي ببعض الكلمات حتى ارتسمت الدهشة العميقة على وجه ألكسندر. أمسك بمساعده العسكري من ذراعه واجتاز القاعة معه دون أن يعير الجموع التي كانت تتنحى له عن فسحة عريضة لمروره التفاتاً.

لكن أراكتشييـڤ وحده، الذي كان بادي الانفعال العميق، خرج من بين الجموع وكأنه توقع أن يوجه إليه ألكسندر الكلام، بعد أن ألقى نظرة على وجه سيدة ونخر بخفة بأنفه الأحمر. عرف بوريس الذي لم يغب عنه هذا التدبير، أن أراكتشييـڤ يغار من پالاشيـڤ، مستاء لأن نبأ لا بد وأنه هام لم ينقل إلى الأمبراطور عن طريقه. لكن الأمبراطور مر أمامه دون أن ينظر إليه واقتاد پالاشيـڤ إلى حديقة المنارة فأسند أراكتشييـڤ سيفه بيده وألقى حوله نظرات غاضبة ثم تبعه على بعد عشرين خطوة.

بقي بوريس طوال رقصة المازوركا مضطرب البال لمعرفة الخبر الذي حمله پالاشيـڤ وكيف يستطيع الإحاطة به قبل كل الناس. وفي اللحظة التي كان عليه أن يختار سيدة وشوش في أذن هيلين أنه سيأخذ الكونتيسة بوتوكا التي يظن أنها خرجت إلى الشرفة، ثم اندفع بخطواته المنزلقة نحو باب الحديقة وتوقف لدى رؤيته الأمبراطور وپالاشيـڤ وهما عائدان إلى القاعة. بسرعة تامة، وكأنه لم يجد وقتاً للانحراف، توقف بوريس وقفة محترمة إلى جانب إطار الباب.

كان الأمبراطور ينهي محادثته مع پالاشيـڤ بانفعال الرجل الذي تلقى إهانة بالعبارات التالية:

ـ الدخول إلى روسيا دون إعلان الحرب! لن أعقد صلحاً طالما بقي فوق أرضي عدو واحد مسلح.

بدا لبوريس أن الأمبراطور يتفوه بهذه الكلمات بنوع من الرضاء: لقد حلت له الصيغة التي أعطاها لفكرته. لكنه مع ذلك استاء لأن بعضهم سمع قوله فأضاف مقطباً حاجبيه:

ـ يجب ألّا يعلم أحد شيئاً!

فهم بوريس أن هذه الملاحظة موجهة إليه فخفض عينيه وحنى رأسه. لكن الأمبراطور في تلك اللحظة كان يدخل إلى القاعة حيث بقي قرابة نصف ساعة أخرى.

كان بوريس على هذا النحو أول من علم بأن الفرنسيين اجتازوا النيمن فتمكن بذلك أن يظهر لبعض الشخصيات المرموقة أن ما يُخفى على غيره معلوم لديه، الأمر الذي زاده رفعة في نظر هؤلاء.

بدا هذا النبأ شديد الإذهال لأنه جاء في غمار حفلة راقصة بعد شهر انتظار غير مجد. ولقد ألهم الغضب الأمبراطور الصيغة التي أظهر رضاه عنها

لأنها كانت تستجيب تماماً لعواطفه التي أصبحت فيما بعد ذائعة الشهرة. ولما عاد من الحفلة الراقصة عند الساعة الثانية صباحاً، أرسل يستدعي أمين سره شيشكوف فأملى عليه أمراً يومياً لقطعاته وكتاباً ملكياً إلى الماريشال الأمير سالتيكوف عنى فيه بأن تظهر الجملة العتيدة التي يؤكد فيها أنه لن يعقد صلحاً طالما أن فرنسياً واحداً مسلحاً يطأ الأرض الروسية.

وغداة اليوم التالي، استكتب إلى نابليون الرسالة التالية: «سيدي أخي. لقد علمت أمس أنه رغم الإخلاص الذي حافظت به على تعهداتي تجاه جلالتكم فإن قطعاتكم قد اجتازت الحدود الروسية. وتلقيت الآن من پيترسبورغ إشعاراً يعلن فيه الكونت لوريستون عطفاً على هذا الاعتداء، أن جلالتكم اعتبرتم نفسكم في حالة حرب معي منذ أن طلب الأمير كوراكين أوراق اعتماده. إن الأسباب التي بنى عليها الدوق دوباسانو[1] رفضه إعادتها إليه ما كانت أبداً لتجعلني أتوقع أن هذا التصرف سيصبح ذريعة للاعتداء. والواقع أن هذا السفير لم يكن إطلاقاً مجازاً كما أعلن ذلك بنفسه، وما أُنهي إليّ النبأ حتى أعلمته مدى استنكاري وأمرته بالبقاء في مركزه، فإذا كنتم جلالتكم لا تنوون سفك دماء شعوبكم بسبب سوء تفاهم من هذا النوع وتوافقون على سحب قواتكم من الأراضي الروسية، فإنني سأعتبر ما حدث كأنه لم يكن وحينئذ يمكن إيجاد تسوية بيننا. وفي الحالة المعاكسة يا صاحب الجلالة أجد نفسي مرغماً على صد هجوم لم يثره شيء من جانبي. وذلك، يتوقف على جلالتكم إنقاذ الإنسانية من مصائب حرب جديدة. وإنني ... إلخ».

التوقيع: «ألكسندر».

(١) رجل دولة فرنسي تفانى في خدمة نابليون.

الفصل الرابع

استدعى الأمبراطور پالاشيڤ، عند الساعة الثانية صباحاً في الثالث عشر من حزيران، بعد أن قرأ عليه رسالته إلى ناپليون، أصدر إليه الأمر بالذهاب بنفسه لتسليمها بالذات إلى الأمبراطور الفرنسي. ولما أذن له بالانصراف، كرر مرة أخرى «أنه لن يعقد صلحاً طالما بقي عدو واحد مسلح على الأرض الروسية» وحتم عليه أن يعيد هذه الكلمات بأمانة على مسمع ناپليون. أما إذا كان لم يضمنها رسالته فلأنه كان يشعر بحدسه المألوف أنها لا تتفق مع محاولة أخيرة بهدف التسوية. لكنه أمر پالاشيـڤ أن ينقلها إليه شفهياً.

فجر الرابع عشر من حزيران وصل پالاشيـڤ إلى قرية ريكونتي التي تحتلها الطلائع الفرنسية مصحوباً بنافخ بوق وقوقازيين فأوقفه حراس من الخيالة.

صاح به رقيب أول من الفرسان في بزة من القطيفة الحمراء وقلنسوة مزغبة يأمره بالوقوف. فلم يطع پالاشيـڤ الأمر فوراً وتابع يمشي مترجلاً. فقطب صف الضابط حاجبيه وتمتم بالسباب والشتائم ثم قطع الطريق على الجنرال الروسي بحصانه واستلّ حسامه ثم استجوبه بغلظة: هل هو أصم حتى لا يسمع ما يقال له؟ أعلن پالاشيـڤ اسمه فأرسل الرقيب الأول جندياً لاستقدام ضابط وراح يثرثر مع رفاقه دون أن يلقي بالاً إلى الرسول الروسي أو أن يمنحه مجرد نظرة.

أما پالاشيـڤ الذي كان على علاقة دائمة مع السلطة العليا وكان قبل

ثلاث ساعات يتحدث مع الأمبراطور وقد ألف أساليب الحفاوة والترحيب بحكم منصبه، فقد دهش بألم عندما رأى أنه يعامل معاملة العدو فوق أرض روسية وأنه إضافة إلى ذلك، محروم من كل اعتبار من قبل هذا الممثل عن القوة الوحشية.

كانت الشمس تخترق السحب والهواء يرطبه الندى، والقرويون يسوقون ماشيتهم إلى الحقول، وتنبعث القبرات الواحدة في إثر الأخرى من القمح أشبه بالفقاعات فوق سطح المياه وهي تطلق لحنيها السريعين المتلاحقين.

بدأ پالاشيـڤ، بانتظار الضابط الذي ذهبوا يستقدمونه من القرية، يتفحص كل ما حوله. وراح القوقازيان والبواق يتبادلون بين الحين والحين نظرة مع الفرسان الفرنسيين.

وصل زعيم الفرسان الذي فاجأوه حتماً فور مغادرة سريره، على صهوة جواد أشهب وهو في أحسن هندام، يرافقه اثنان من رجاله. بدأ الضابط والجنود وحتى جيادهم أيضاً بمظهر القرير الظريف. كان ذلك في بداية الحرب حينما كانت القطعات لا تزال شديدة التأنق وكأنها في صبيحة عرض مع شيء ما أكثر «عسكرية» في تجهيزاتهم وذلك اللون من البهجة والاندفاع الذي يرافق دائماً البدء في حملة ما.

وعلى الرغم من أن الزعيم كان يجد صعوبة في إخفاء تثاؤبه، فقد بدأ أنيساً ولم تفته قط أهمية المهمة التي جاء پالاشيـڤ من أجلها. اجتاز معه الخط الأول وطمأنه بأنه تبعاً لرغبته، لن يلبث حتى يمثل بين يدي الأمبراطور الذي كان مقر قيادته على ما يعتقد في مكان مجاور.

اجتاز قرية ريكونتي ومر بحراس خيول ورقباء وفرسان كانوا يحيون زعيمهم وهم يتطلعون بفضول إلى الزي الروسي. وعند خروجهما من القرية

قال الزعيم لپالاشيـف إنهما سيجدان على بعد كيلومترين من هناك قيادة الفوج وسترسله هذه القيادة إلى القيادة العامة.

وكانت الشمس قد أشرقت وبدأت تسطع فوق الخضرة الزاهية.

تسلقا سفحاً وما كادا يجتازان مسافة قصيرة حتى شهدا قبالتهما كوكبة فرسان تظهر صاعدة السفح الآخر وعلى رأسها يتقدم رجل مديد القامة ذو قبعة يزينها ريش وشعر أسود تتساقط خصلاته على كتفيه وساقيه الطويلتين المندفعتين إلى الأمام تبعاً لعادة الفرنسيين الفرسان، على صهوة جواد أدهم كانت عدته تلتمع تحت وهج الشمس. فلما رأى هذا الرجل پالاشيـف، اندفع بجواده وهو يماوج تحت شمس حزيران الحادة ويلألئ ريش قبعته وجواهره وشرائطه الذهبية.

ولم يكد پالاشيـف يصبح على بُعد طولين من ذلك الفارس ذي المظهر المسرحي الموشّى بالأساور والريش والقلائد والبهارج حتى همس الزعيم الفرنسي «أولز» في أذنه بغمغمة كلها احترام: «ملك ناپولي» والواقع أن ذلك الفارس كان مورا[١] الذي أصبح الآن يدعى ملك ناپولي. وعلى الرغم من استحالة معرفة السبب الذي من أجله أعطي له هذا اللقب فقد كانوا يسمونه كذلك وكان هو نفسه مقتنعاً بأنه ملك، الأمر الذي كان يعطيه مظهراً أكثر وقاراً وعظمة. وكان مقتنعاً بذلك حتى أنه عشية يوم رحيله، بينما كان يتنزه مع زوجته في شوارع ناپولي إذ حياهما بعض الإيطاليين بصيحة «يحيا الملك»، فالتفت إلى زوجته وقال لها بابتسامة حزينة: «التعساء، لا يعرفون أنني سأغادرهم غداً!».

(١) ماريشال فرنسي زوج كارولين بوناپرت، وملك ناپولي، أعدم رمياً بالرصاص عام ١٨١٥. (المترجم).

وفي الوقت الذي اعتبر نفسه ملكاً حقيقياً وراح يرثي للألم الذي سيلحق برعيّته بسبب غيابه، فإن مورا عندما تلقى الأمر بأن يعود إلى الخدمة وعلى الخصوص في دانتزيغ عندما قال له صهره المبجل: «لقد جعلتك ملكاً لتحكم على طريقتي وليس على طريقتك»، استعاد بدعة عمله المألوف أشبه بجواد حسن التغذية ولكن قليل الشحم، ما إن أحس نفسه مقطوراً إلى عربة حتى وافق على المحمل ومضى، وذهب في أبهى حلة ودون أن يعرف السبب، يتوثب بخفة على طرق بولونيا.

وعندما رأى الجنرال الروسي، ألقى رأسه المتوج بالشعر العكف إلى الوراء بحركة ملوكية واستفسر الزعيم الفرنسي بنظرة. فعين هذا لجلالته بكل احترام صفة دو پالاشيـڤ الذي لم يوفق في النطق باسمه.

قال الملك حاسماً الصعوبة بعزمه المألوف: دو پالاشيـڤ!

وأضاف بحركة تدل على تنازله الملوكي: يسعدني أنني تعرفت إليك يا جنرال.

وما إن بدأ يتحدث بسرعة وبصوت مرتفع حتى تبددت رفعته كلها واتخذ، دون أن يلاحظ هو نفسه، لهجة سذاجة قلبية. وضع يده على حارك جواد پالاشيـڤ وقال وكأنه يأسف لتوافق ظرفي ليس من اختصاصه الحكم عليه: حسناً يا جنرال، إن كل شيء على ما يبدو راجع إلى الحرب.

أجاب پالاشيـڤ وهو يفرط في استعمال كلمة يا صاحب الجلالة، وهذا تودد لا بد منه عندما يتحدث المرء إلى شخص لا يزال هذا اللقب جديداً عليه:

ـ يا صاحب الجلالة، إن الأمبراطور مولاي لا يرغب أبداً في الحرب كما ترون جلالتكم.

وبينما كان السيد «دو پالاشيـڤ» يتحدث إليه، كان وجه ملك ناپولي

يطفح رضى سخيفاً. لكن الملك مرغم: لقد وجد أن من الضروري بوصفه ملكاً وحليفاً أن يدخل في محاورة سياسية مع مبعوث ألكسندر. وعليه فقد ترجل عن جواده وأمسك بذراع پالاشيـڤ وابتعد به بضع خطوات عن حاشيته التي كانت تنتظره بامتثال وراح وهو يتنزه معه عرضاً وطولاً يحدثه بمواضيع حرص على أن يعطيها بعض القيمة. وتبعاً لقوله، فإن الطلب إلى الأمبراطور بسحب قواته من روسيا قد نكده بقدر ما جرحت علانية هذا المطلب الملحّ كرامة فرنسا.

ولما بدأ پالاشيـڤ يعترض بأن هذا الطلب ليس فيه ما يهين بالنظر إلى... قاطعه مورا قائلاً بابتسامة بلهاء:

ـ إذن، فإن المحرض ليس الأمبراطور ألكسندر في رأيك؟

عرض پالاشيـڤ الأسباب التي من أجلها كان يرى أن ناپليون هو مثير الحرب فقاطعه مورا مجدداً قائلاً باللهجة التي يتظاهر بها الخدم الحريصون على البقاء على وفاق وود رغم مشاحنات أسيادهم:

ـ إيها! يا عزيزي الجنرال، أتمنى من كل قلبي أن يسوي الأمبراطور الأمر بينهما وأن تنتهي الحرب التي بدأت رغماً عني في أسرع وقت ممكن.

استعلم بعدئذ عن صحة الغراندوق واستعرض ذكرى الأويقات الطيبة التي قضياها معاً في ناپولي. وكأنه شعر فجأة بالوقار الملكي، انتصب بجلال واتخذ الوقفة التي وقفها ساعة تتويجه وقال شافعاً قوله بحركة فضفاضة:

ـ لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال. أتمنى نجاح مهمتك.

ورجع إلى حاشيته التي كانت لا تزال بانتظاره بامتثال ظاهر وهو متشح بمعطفه الأحمر الموشى بالذهب ومزين بريش قبعته الذي يخفق مع الريح وجواهره التي تلتمع تحت أشعة الشمس.

تابع پالاشيـڤ طريقه. ولما كان مطمئناً إلى أقوال مورا، فقد كان يظن أنه لن يلبث حتى يجد نفسه في حضرة ناپليون. لكن حراس فوج مدفعية دافو[١] استوقفوه في القرية التالية كما حدث له على خط الجبهة واستدعي مساعد عسكري ليصطحبه إلى حضرة الماريشال.

(١) ماريشال فرنسا، من أفضل معاوني ناپليون. (المترجم).

الفصل الخامس

كان داڤو أراكتشييـڤ شديد التدقيق لا يعرف الجبن والخوف مثل ناپليون تماماً وكذلك يعجز عن إثبات وفائه لسيده عن غير طريق القسوة.

وأمثال هؤلاء الرجال يعتبرون ضرورة في مجموعة دولة ما كضرورة الذئاب في الطبيعة. فهم موجودون ومحافظون على وجودهم مهما بدت دالتهم على رئيس الدولة مستحيلة. إن هذه الضرورة الملحة تفسر كيف أن هذا الأراكتشييـڤ الصارم الذي كان ينتزع بيديه شارب النخبة من جنوده دون أن يجرؤ بسبب ضعف أعصابه أن يواجه أدنى خطر، تفسر كيف أن ذلك الشخص معدوم الثقافة والتهذيب تمكّن أن يمارس تأثيراً كبيراً في طبيعة ألكسندر النبيلة الأبية.

رأى پالاشيـڤ داڤو جالساً فوق برميل في مكدس منشغلاً في تدقيق بعض الحسابات وإلى جانبه يقف مساعد عسكري. كان الماريشال يستطيع أن يجد مستقراً أفضل لكنه كان من أولئك الذين يحبون أن يوفروا لأنفسهم أكثر الشروط الحياتية خشونة ليبرهنوا أنهم أكثر خشونة. ومن أجل ذلك هم مثقلون أبداً بالعمل ينوؤون به. كان المرء يقرأ على وجهه: «كيف يفكر المرء في مباهج الدنيا عندما يكون، كما ترى، جالساً على برميل في مكدس حقير منكباً على العمل». إن فرح هؤلاء الأشخاص ورغبتهم الفطرية تقتصر على إلقاء عملهم المستمر الضجر في وجوه الناس الذين يستسلمون لتيار الحياة. وهذا ما أحس به داڤو عندما رأى پالاشيـڤ يصل. استغرق أكثر من أي وقت

آخر في حساباته وبعد أن ألقى نظرة خلال نظارتيه على وجه الجنرال الذي أعادت له رحلته المبكرة ومداولته مع «مورا» بشاشته، زاد تخديد حاجبيه دون أن يقف أو حتى أن يبدأ بحركة ما وابتسم ابتسامة قبيحة. ولما لاحظ الأثر غير المستحب الذي أحدثه استقباله هذا على الوافد الجديد، انتهى به الأمر إلى أن يرفع رأسه ويسأله بلهجة جامدة عما يريد.

عزا پالاشيـڤ هذا الاستقبال البارد إلى جهل داڤو بصفته المزدوجة كمساعد عسكري ومبعوث إلى ناپليون من قبل الأمبراطور ألكسندر فقط لذلك بادر إلى التصريح بألقابه ولكن، خلافاً لما كان يتوقع، لم يزد ذلك داڤو الإجفاء وتجهماً. قال: أين رسالتك؟ سأرسلها إلى الأمبراطور.

فاعترض پالاشيـڤ بأن لديه أمراً بتسليم الرسالة إلى الأمبراطور بالذات.

ـ إن أوامر أمبراطوركم ذات قيمة في جيشكم. أما هنا، فعليك أن تنفّذ ما يقال لك أن تعمل.

وكأنه أراد أن يشعر الجنرال الروسي بطريقة أفضل بأنه هناك رهن القوة القاهرة، فقد أرسل مساعده العسكري يستدعي الضابط المناوب.

وضع پالاشيـڤ الرسالة على الطاولة التي كانت عبارة عن باب ركز على برميلين كانت رزاته لا تزال تتدلى منه فأخذها داڤو وقرأ ما على الغلاف.

قال پالاشيـڤ.

ـ أنت مطلق الحرية في أن تعاملني باحترام أم لا. لكن من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أنني أعتبر من مساعدي جلالته العسكريين الجنرالات.

نظر إليه داڤو دون أن ينبس بكلمة.

لقد طاب له بشكل ظاهر أن يكتشف على تقاطيعه نوعاً من البلبال. قال:

ـ سوف تعامل بما يحق لك من احترام.

ثم وضع الرسالة في جيبه وغادر المكدس.

وخلال دقيقة واحـدة، وصل مساعد الماريشال العسكري، السيد دوغاستري يصطحب پالاشيـڤ ليدله على المسكن الذي أعدّ له.

تناول پالاشيـڤ الطعام، ذلك اليوم، مع الماريشال في المكدس على الطاولة ذات البرميلين.

وفي الغد، ذهب داڤو منذ الصباح الباكر بعد أن استقدم پالاشيـڤ وحتم عليه بقساوة أن يمكث حيث هو وأن يتنقل مع القوافل في حال صدور أوامر مماثلة إليها وأن لا يتحدث إلا مع السيد دوغاستري.

وبعد أربعة أيام من الوحدة كان العدو خلالها يشتد في اختضاع مُنصب بقدر ما هو تابع للقدرة الكلية، وبعد مراحل عديدة اجتيزت مع متاع الماريشال والقطعات الفرنسية التي كانت تحتل المنطقة كلها، عاد پالاشيـڤ إلى «فيلنا» التي باتت الآن في قبضة العدو، عن طريق الباب نفسه الذي خرج منه قبل بضعة أيام.

جاء أحد حجاب الأمبراطور، في اليوم الثاني، السيد دوتورين يعلمه بأن ناپليون قد منحه مقابلة.

لقد كان حراس فوج بريوبراجنسكي، قبل أربعة أيام، يقفون على باب المنزل الذي قادوا پالاشيـڤ إليه. أما الآن، فكان في مكان أولئك، جنديان فرنسيان ببزة زرقاء ذات «قلبات» كبيرة وقلنسوة مزغبة، وموكب من الفرسان الفرنسيين والألمان وحاشية أنيقة من المساعدين العسكريين الفتيان ينتظرون خروج ناپليون، وجواده المطهم والمملوك روستان واقفين قرب المرقاة. كان ناپليون يستقبل پالاشيـڤ في المنزل نفسه الذي سلمه ألكسندر فيه رسالته إليه.

الفصل السادس

إن الترف والبذخ في هذا البلاط أحدثا في نفس پالاشيـڤ أثراً هائلاً على الرغم من أنه معتاد بهاء البلاطات.

أدخله الكونت دوتورين إلى قاعة فسيحة وكان فيها عدد كبير من الجنرالات والحجاب والأشراف البولونيين، عرف پالاشيـڤ عدداً كبيراً من بينهم كانوا من قبل يحيطون بألكسندر، ينتظرون فيها، وأعلن دوروك[1] أن الأمبراطور سيستقبل الجنرال الروسي قبل نزهته.

وبعد أن انتظر بضع دقائق، جاء الحاجب المنوب وانحنى بتأدب أمام پالاشيـڤ ثم دعاه أن يتبعه.

دخل پالاشيـڤ إلى قاعة صغيرة يقود أحد أبوابها إلى المكتب، ذلك المكتب الذي تلقى فيه آخر أوامر ألكسندر، وانتظر دقيقتين أو ثلاث دقائق. سمع وقع خطوات متلاحقة وراء الباب الذي انفتحت درفتاه فجأة. وساد الصمت ثم ارتفعت خطوات أخرى متزنة ونشيطة وراحت تقترب: ذاك كان ناپليون، وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه للركوب. كانت بزته الزرقاء تنفتح على صدرة بيضاء تنسجم مع استدارة بطنه، والسروال المصنوع من الجلد الأبيض يطبع فخذي رجليه السمينتين المغيبتين في أحذية عالية. وكان شعره القصير قد رُجّل ولا ريب منذ حين. لكن خصلة منه كانت تقع على وسط جبينه العريض. في حين أن عنقه الأبيض السامن الذي تتضوع منه رائحة «الكولونيا»

(١) جنرال فرنسي، قُتل قرب پوتزن ١٨١٣. (المترجم).

كان يتباين كلياً مع ياقة البزة السوداء. وكان وجهه الممتلئ الذي لا يزال فتياً، ذو الذقن البارزة، مطبوعاً بلطف أمبراطوري جليل حقاً.

اقترب بمشية سريعة وهو يتوثب مع كل خطوة ورأسه مائل قليلاً إلى الوراء. كان لشخصه القصير الممتلئ ذي الكتفين العريضتين والبطن والصدر البارزين، رغماً عنه إلى الأمام، مظهر جليل معبر، مظهر أبناء الأربعين الذين ألفوا الحياة الرغيدة كما كان يُرى كذلك أنه على أفضل مزاج ذلك اليوم.

ردّ على تحية پالاشيـڤ العميقة المفعمة بالاحترام بحركة من رأسه وأخذ وهو يتجه نحوه مباشرة يتكلم شأن الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة والذي لا يتنازل إطلاقاً عن تحضير محاضراته لعلمه بأنه سيقول دائماً وبكل إجادة ما يجب أن يقوله.

ـ مرحى أيها الجنرال. لقد تلقيت رسالة الأمبراطور ألكسندر التي حملتها وإنني مسرور جداً برؤيتك.

ركّز لحظة عينيه الكبيرتين على وجه پالاشيـڤ ثم ما لبث أن أشاح بهما. لا شك أن شخصية پالاشيـڤ لم تكن تعنيه في شيء لأن ما يدور في سريرته هو وحده الذي كان يثير اهتمامه. أما كل ما هو خارجي فلم تكن له أية أهمية: ألم يكن يعتقد بكل حزم أن كل ما في الكون يتوقف على إرادته وحدها؟

قال: إنني لا أرغب ولم أرغب قط في الحرب. لكنهم أجبروني على خوضها. ثم أضاف وهو يبرز الكلمة: والآن أيضاً، أنا على استعداد لتقبل كل المبررات التي تستطيع تقديمها إليّ.

شرح بطريقة واضحة وموجزة أسباب استيائه من الحكومة الروسية. ولقد اقتنع پالاشيـڤ استناداً إلى لهجة أمبراطور الفرنسيين الهادئة المتزنة بل الودية أنه راغب في السلم وأنه سيشرع في المفاوضات عن طيب خاطر.

همّ پالاشيـڤ أن يقول:

ـ مولاي، إن مولاي الأمبراطور...

عندما أخذ ناپليون يستفسر بنظره بعد أن انتهى من جملته. ولقد أعد المبعوث الروسي محاضرته منذ وقت طويل. لكن تينك العينين المصوبتين إليه شوشتاه. وبدا ناپليون وهو يفحص بابتسامة لا تكاد ترى بزة پالاشيـڤ وسيفه وكأنه يقول له: «إنك مضطرب، تمالك أعصابك».

وعندما استعاد روعه قال إن الأمبراطور ألكسندر لا يعتبر «حالة حرب» طلب استعادة الجواز الذي قدمه كوراكين الذي تصرف من تلقاء نفسه دون أن يقرره في ذلك مولاه وأن ألكسندر لا يريد الحرب وليست له أية علاقات مع انجلترا.

فرد ناپليون: ليست له «بعد» أية علاقات.

لكنه قطب حاجبيه وأشار بإيماءة خفيفة من رأسه إلى پالاشيـڤ أن يستتلي وكأنه خشي أن يسفر عن عواطفه.

وبعد أن عرض كل ما كانت تعليماته تحويه من أقوال، أكد پالاشيـڤ أن الأمبراطور ألكسندر، مع رغبته في السلام، لن يبدأ بمفاوضات إلا شريطة...

وهنا تردد وتذكر الكلمات التي حذفها الأمبراطور من رسالته والتي أمر أن تظهر في رسالته الملكية إلى سالتيكوڤ وكلفه هو، پالاشيـڤ أن يرددها حرفياً على مسامع ناپليون. تذكر الجملة: «طالما بقي جندي عدو مسلح واحد على الأرض الروسية». لكن شعوراً شديد التعقيد استوقف الجملة على شفتيه. ومهما بلغت رغبته، فإنه لم يستطع أن يتفوه بها فاستبدلها وهو شديد الخجل بالعبارة التالية: «شريطة أن تعود القطعات الفرنسية عبر النيمن من جديد».

لم يخف اضطراب پالاشيـڤ على ناپليون: فقد تقلص وجهه وراحت ربلة ساقه اليسرى ترتجف في حركة منظمة. وتابع الكلام دون أن يبدل مكانه

بصوت أكثر ارتفاعاً وتهافتاً عن ذي قبل. وقد لاحظ پالاشيـڤ رغماً عنه كلما أطرق بعينيه خلال الوقت الذي استغرقته المحاضرة التي تلت، أن ارتجافة ربلة الساق اليسرى آخذة بالتزايد كلما ازداد صوت الأمبراطور ارتفاعاً.

بدأ يقول: لست أقل رغبة في السلام من الأمبراطور ألكسندر. ألست أبذل كل ما في وسعي منذ ثمانية أشهر في سبيل السلام؟ منذ ثمانية عشر شهراً وأنا أنتظر الإيضاحات.

ثم أضاف وهو يعبس ويقوم بحركة عنيفة بيده الصغيرة البيضاء السمينة: ولكن ماذا تراهم يطلبون مني لقاء الدخول في مفاوضات؟

قال پالاشيـڤ: انسحاب الجيوش إلى وراء النييمن يا صاحب الجلالة.

استطرد ناپليون: وراء النييمن؟ إنكم إذن تريدونني الآن على أن أنطوي وراء النييمن.

ثم كرر وهو يغرق نظراته في عيني پالاشيـڤ:

ـ وراء النييمن فقط؟

فانحنى هذه إشارة بالموافقة.

إنهم لا يطلبون الآن بدلاً من إخلاء بومبرانيا[١] التي أصروا عليه قبل أربعة أشهر إلا الانسحاب وراء النييمن. أدار ناپليون ظهره فجأة وراح يذرع الغرفة بخطاه.

ـ تقول إنهم يطلبون مني التراجع وراء النييمن. لكنهم منذ شهرين طلبوا مني أيضاً أن أتراجع وراء الأودر[٢] والفيستول ثم توافقون مع ذلك على إجراء مفاوضات.

---

(١) إحدى جزر أرخبيل بيسمارك تابعة لأوستراليا. (المترجم).

(٢) نهر بولوني ألماني يصب في البلطيق. (المترجم).

مشى دون أن ينطق بكلمة من جانب الغرفة إلى الجانب الآخر ثم توقف فجأة قبالة پالاشيـڤ. لاحظ هذا أن ربلة الأمبراطور تضطرب أكثر من ذي قبل وأن وجهه يبدو وكأنه تصلب في تعبير صارم. كان ناپليون يعرف هذه الخاصية. وقد قال لحاشيته: «إن لاهتزاز ربلتي اليسرى إشارة كبيرة عندي».

صاح فجأة بفوران دهش له بنفسه:

ـ إن مثل هذه العروض، كإخلاء الأودر والفيستول، يمكن أن تُسأل من غراندوق دو باد[1] وليس مني. إنني لن أقبل شروطكم ولو أعطيتموني پيترسبورغ وموسكو. تقولون إنني بدأت الحرب؟ ولكن من الذي لحق بالجيش أولاً؟ الأمبراطور ألكسندر وليس أنا. والآن تحدثونني عن التفاوض في حين أنني أنفقت الملايين وأنتم حلفاء مع الإنجليز وموقفكم سيئ! تعرضون عليّ مفاوضات! ولكن ما هو هدفكم من التحالف مع إنجلترا؟ ماذا أعطتكم؟

كان يلقي بكلامه دون أن يتابع التفكير في إبراز محاسن السلم ومناقشة إمكانياته بل لكي يبرهن حقه وقوته في الوقت نفسه الذي يدلل على أخطاء ألكسندر وأضراره. لقد أراد بادئ ذي بدء أن يبرز ولا شك مزايا موقفه وأن يلمح بأنه يقبل الشروع في مفاوضات رغم ذلك. لكنه كلما ازداد اندفاعاً في الكلام تناقصت سلطته على كلماته حتى اقتصرت محاضرته على تعظيم نفسه والحط من ألكسندر أي على عكس ما كان يزمع السير فيه عند بدء المقابلة.

ـ إنهم يزعمون أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك؟

حرك پالاشيـڤ رأسه إيجاباً وبدأ يقول:

ـ عقد الصلح...

---

(١) بلد ألماني أصبح جمهورية عام ١٩١٩، تغطي قسماً منها الغابة السوداء. (المترجم).

لكن ناپليون قاطعه. كان بدون شك يشعر بحاجة ملحة إلى الكلام فتابع بتلك الثرثرة الغاضبة التي يمتاز بها الأشخاص الذين أفسدتهم النعماء:

ـ نعم، إنني أعرف أنكم عقدتم الصلح مع الأتراك دون أن تحصلوا على مولداڤيا[١] وڤالاكي[٢] وأنا، كنت سأقدم لأمبراطوركم هاتين المقاطعتين هدية كما أعطيته فنلندا.

واسترسل مصرّاً: نعم، لقد وعدت الأمبراطور ألكسندر بمولداڤيا وڤالاكي وكنت سأعطيه هاتين المقاطعتين الجميلتين اللتين أفلتتا من يده؟ كان يستطيع أن يضمهما إلى مملكته فكانت روسيا ستمتد تحت حكم من خليج بوتني[٣] إلى مصب الدانوب[٤]. إن كاترين[٥] العظيمة لم تكن لتستطيع أن تفعل أفضل من ذلك.

وازداد هياجه وراح يتمشى داخل الغرفة ويردد كلمة كلمة تقريباً ما قاله لألكسندر إبان مقابلتهما في تيلسيت.

كان سينال كل هذا بصداقتي. آه! يا للملك الجميل، يا للملك الجميل...

وكرر عدة مرات هذه الكلمات ثم أخرج من جيبه مسعطاً من الذهب أخذ شمة منه بنهم وأردف:

يا للملك الجميل الذي كان يمكن أن يكون عليه ملك الأمبراطور ألكسندر!

---

(١) مولداڤيا، بالرومانية مولدوڤا، بعد ١٩٢٤ أُلحقت بأوكرانيا. (المترجم).

(٢) مقاطعة على نهر الدانوب هي جزء من رومانيا. (المترجم).

(٣) منطقة بين السويد وفنلندا. (المترجم).

(٤) نهر ينبع من الغابة السوداء ويروي ألمانيا والنمسا وهنغاريا وتشيكوسلوڤاكيا ويوغوسلاڤيا ورومانيا وبلغاريا، ويصب في البحر الأسود. (المترجم).

(٥) كاترين الثانية أمبراطورة روسيا. خاضت حروباً وغزوات على العثمانيين. (المترجم).

ثم تأمل پالاشيـڤ بعطف. فلما حاول هذا أن يتقدم بملاحظة، قاطعه فوراً وهو يقول مبيناً دهشته برفع كتفيه:

ـ ما الذي كان يمكن أن يرغب فيه أو أن يبحث عنه دون أن تعطيه إياه صداقتي؟ ولكن لا، لقد فضل أن يخلق حوله لفيفاً من أعدائي وممن! لقد استقدم إلى جواره آل ستين وآل آرمفيلت وبينيغسن ونيتزنغيرود! إن ستين خائن مطرود من بلاده وأرمفيلت فاجر دساس ووينتزنغيرود فرنسي ملتحق بخدمة العدو وبينيغسن عسكري أكثر من الآخرين قليلاً، ولكنه مع ذلك عاجز لم يستطع أن يحقق شيئاً عام ١٨٠٧، فكان يجب أن يوقظ في نفس الأمبراطور ألكسندر ذكريات رهيبة.

وتابع ناپليون الذي لم يكن نطقه ليتماشى مع فكرته لكثرة تهافت البراهين وسرعة تجمعها ليثبت حقه المشروع وقوته اللذين كانا في نظره بمعنى واحد:

ـ لو أن هؤلاء كانوا على قيمة ما لأقنعني استخدامه لهم. ولكن لا، إنهم لا يصلحون لشيء، لا للسلم ولا للحرب. إن باركلي[1] على ما يزعمون أفضل منهم جميعاً لكن هذا ليس رأيي إذا حكمنا عليه تبعاً لأولى تصرفاته. ثم ماذا يفعل كل هؤلاء الأتباع؟ إن بفويل يقترح، وأرمفيلت يناقش وبينيغسن يتمعن. أما باركلي الذي استدعي ليعمل، فهو لا يدري أي جانب يأخذ، ويمر الوقت دون أن يُؤتى بجديد. إن پاغراسيون وحده رجل حرب. إنه غبي، لكن لديه الخبرة والنظر الثاقب والعزم.. وأي دور يلعب أمبراطوركم الشاب بين هذا الخليط؟ إن هؤلاء الناس يرتكبون الإثم ثم يحملونه مسؤولية أعمالهم. إن ملكاً لا يجب أن يكون في الجيش إلا إذا كان جنرالاً.

---

(١) جنرال روسي كان خصماً بارعاً لناپليون. توفي عام ١٨١٨. (المترجم).

ألقى بهذه الكلمات وكأنها تحد مباشر موجه إلى ألكسندر. لم يكن يجهل أن هذا يشعر بضعف في ثقته بأنه رجل حرب. استرسل:

ـ لقد بدأت الحملة منذ ثمانية أيام فلم تعرفوا كيف تدافعون عن «فيلنا». لقد شُطرتم شطرين وطُردتم من الأقاليم البولونية. إن جيشكم يدمدم.

قال پالاشيـف وقد بهرته أضواء هذه الجمل الاصطناعية التي لم يتوصل إلى استيعابها: على العكس يا صاحب الجلالة. إن القطعات تتحرق شوقاً إلى القتال.

قاطعه ناپليون:

ـ أنا أعرف كل شيء، أعرف كل شيء. إنني أعرف أعداد ألويتكم بمثل الدقة التي أعرف بها أعداد ألويتي. ليس لديكم مائة ألف رجل تحت السلاح بينما لدي ثلاثة أضعاف هذا العدد.

ثم أضاف ناسياً أن هذا القسم لم يكن ليعني شيئاً قط:

ـ إنني أعدك بشرفي، أعطيك وعداً بشرفي أن لدي خمسمائة وثلاثين ألف رجل على هذه الضفة من الفيستول. لن يستطيع الأتراك مساعدتكم: إنهم لا يصلحون لشيء وقد برهنوا على ذلك بعقد الصلح معكم. أما السويديون، فإنهم مصطفون لأن يُحكموا من قبل مجانين. لقد كان ملكهم مجنوناً فأبدلوه واتخذوا آخر، برنادوت[1]، الذي سرعان ما فقد صوابه هو الآخر. لأنه يجب أن يكون المرء مجنوناً حتى يعقد اتحاداً مع روسيا وهو سويدي.

انفرج فم ناپليون قليلاً وأخذ شمة جديدة من السعوط.

كان لدى پالاشيـف إثر كل جملة من جمل الأمبراطور اعتراض يقدمه

---

(١) ماريشال فرنسا، التحق بالحلفاء وحارب الفرنسيين. أصبح ملكاً للسويد. توفى عام ١٨٤٤. (المترجم).

لكنه كلما حاول أن يفتح فمه أغلقه له نابليون. أراد أن يقول بخصوص السويديين إن السويد أصبحت بتحالفها مع روسيا أشبه بالجزيرة لأنها تحميها من الخلف. لكن نابليون خنق صوته بصيحات الغضب. لقد كان في تلك الحالات من الإثارة التي يشعر المرء معها بحاجة إلى أن يتكلم ويتكلم ويتكلم لمجرد أن يثبت لنفسه أنه على حق. وكان بالاشيف كمن يقف على الأشواك: فهو كسفير، يخشى أن يسيء إلى كرامة نفسه بالامتناع عن أي اعتراض. أما كرجل، فقد حنى ظهره تحت زوبعة هذه الغضبة الهوجاء. كان يعرف قلة أهمية هذا الذمّ الذي ما إن يستعيد الأمبراطور هدوءه حتى يكون أول من يخجل منه. لذلك وقف في مكانه يحدّق إلى ساقي نابليون الضخمتين المنفعلتين يحاول جاهداً أن يتجنّب نظرته.

واسترسل نابليون:

ـ ثم ماذا يهمني من حلفائكم بعد كل شيء؟ إن لدي حلفاء أنا الآخر، وحلفاء أشرافاً: إنهم البولونيون. إنهم ثمانون ألفاً ويقاتلون كالأسود. وسوف يصبحون بعد قليل أكثر من مائتي ألف.

ولقد دفع هذا الشعور بأن هذا المزعم ليس إلا محض كذب وموقف بالاشيف المتحفظ الذي لم ينبس بكلمة، غضب الأمبراطور إلى أوجه، فأتى بنصف دائرة فجأة واتجه رأساً إلى محدثه فألقى في وجهه عباراته مشفوعة بحركات سريعة ونشيطة من يديه البيضاوين:

ـ اعلموا تماماً أنكم إذا أثرتم بروسيا ضدي، فإنني سأمحوها عن خريطة أوروبا، وأيد هذا التهديد بأن كنس يده اليسرى بيده اليمنى ووجهه ممتقع متقلص، نعم، سوف ألقي بكم إلى ما وراء دونا[1] وما وراء الدنيبير[2] وسأقيم

---

(١) دونا هو اسم الدانوب بالهنغارية. (المترجم).

(٢) نهر روسي أوكراني يصب في البحر الأسود. (المترجم).

في وجهكم هذا السد الذي كانت أوروبا شديدة العمى، مجرمة إذ تركته ينهار. نعم. هذا ما ينتظركم. هذا ما تكونون قد ربحتموه من ابتعادكم عني!

سار بضع خطوات بسكون وكتفاه العريضتان تهتزان بطفرات صغيرة، أعاد مسعطه إلى جيبه ثم أخرجه وحمله مراراً إلى أنفه، ثم عاد إلى پالاشيـڤ ونظر بسخرية في عينيه ثم قال له بهدوء بعد فترة: ومع ذلك، يا له من ملك جميل ذاك الذي كان يستطيع مولاك أن يحصل عليه.

ولما كان يجب على پالاشيـڤ أن يقول شيئاً ما، فقد رد أنهم من الجانب الروسي لا ينظرون إلى هذا الموقف على مثل هذا التجهم. فلم يحر ناپليون جواباً بينما بقيت نظرته المستهزئة مصوبة إلى پالاشيـڤ وكأنه لم يسمع ما قاله. ولما أضاف هذا بأنهم في روسيا يتوقعون من الحرب نتائج ممتازة، هز الأمبراطور رأسه بمراعاة وكأنه يقول له: «نعم، أعرف، أن من واجبك أن تقول هذا القول، لكنك أنت نفسك لا تصدق كلمة واحدة. لقد أقنعتك».

وعندما انتهى پالاشيـڤ، أخرج ناپليون مسعطه من جديد وأخذ شمة جديدة ثم ضرب الأرض بقدمه مرتين متعاقبتين. فتح الباب في إثر هذه الإشارة وظهر حاجب أعطى الأمبراطور قبعته وهو منطوٍ إلى اثنين بكل احترام ثم قفازيه بينما قدم له آخر منديله. استدار ناپليون نحو پالاشيـڤ دون أن يعبأ بالحجاب وقال وهو يأخذ قبعته: طمئن الأمبراطور ألكسندر باسمي بأنني وفيّ له كما في السابق تماماً. إنني أعرفه وأقدر صفاته الكبيرة حق قدرها. لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال سوف تتلقى رسالتي إلى الأمبراطور.

وبسرعة، توجه ناپليون نحو الباب فأسرع كل أولئك الذين كانوا ينتظرونه في الردهة إلى السلم ليسبقوه.

الفصل السابع

أصبح پالاشيـف مقتنعاً، بعد كل ما قاله ناپليون في سورة غضبه وبعد كلامه البليغ في الجفوة «لا أستبقيك أكثر من ذلك يا جنرال، سوف تتلقى رسالتي»، بأن الأمبراطور ليس عازفاً عن مقابلته بعد الآن فحسب بل سيتجنب رؤيته، هو، السفير المذل الذي شهد انفعاله غير اللائق وهذا أسوأ ما في الأمر. لذلك لا تسل عن دهشته عندما وجد نفسه يدعوه دوروك إلى مائدة الأمبراطور ذلك اليوم بالذات.

لقد كان بيسپير[1] وكولنكور[2] وبرتييه حاضرين ذلك الغداء.

ببشاشة مؤنسة، استقبل ناپليون پالاشيـف. لم يترك في نفسه مشهد الصباح أي أثر من الارتباك أو الأسف بل كان هو الذي راح يسعى إلى الترفيه عن ضيفه. لا شك أنه كان مقتنعاً منذ زمن طويل بأنه لا يمكن أن يخطئ وأن كل ما يفعله إنما هو نعم العمل ليس لأن عمله ينسجم مع تعريف الخير والشر الرائج بل لأنه هو صاحب العمل ليس إلا.

لقد رجع مرحاً من نزهته في شوارع فيلنا حيث استقبلته الجماهير وتبعته بحماسة. كانت النوافذ كلها على طول طريقه مزينة بالسجّاد وبالأعلام

---

(١) ماريشال فرنسي، من أفضل مساعدي ناپليون قُتل في معركة لوتزن عام ١٨١٣ (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي، مثّل ناپليون في مؤتمر شاتيّون، قتل في موسكو ١٨١٢ (المترجم.

وبالشعارات التي تحمل الأحرف الأولى من اسمه. وحيّته النساء البولونيات ملوحات بمناديلهن.

أجلس پالاشيـڤ إلى جانبه إلى المائدة وعامله ليس ببشاشة فحسب بل وكأنه يرى فيه واحداً من بطانته، واحداً من أولئك الذين يؤيدون خططه ويغتبطون لنجاحه. تعمد التحدث عن موسكو وراح يسأل ضيفه عن العاصمة بفضول المسافر الذي يجمع المعلومات عن البلد الذي ينوي زيارته وهو قانع بأن هذا التحري لا بد وأن يضاعف نشوة پالاشيـڤ بوصفه روسياً.

سأله: كم يبلغ عدد سكان موسكو، وعدد المنازل؟ هل حقيقة إنهم يسمونها موسكو المقدسة؟ كم عدد الكنائس فيها؟

وبينما هم يجيبونه بأن العدد يبلغ مائتين، بدا مندهشاً: ولماذا كل هذا العدد من الكنائس؟

فقال پالاشيـڤ: إن الروس شديدو الورع.

تابع ناپليون وهو يستجدي بعينيه موافقة كولنكور:

ـ ثم إن كثرة عدد الأديرة والكنائس كان دائماً الدليل على مدنية متأخرة.

سمح پالاشيـڤ لنفسه أن يناقض الأمبراطور باحترام. قال معترضاً:

ـ إن لكل بلد تقاليده.

ـ ولكن لم يعد في كل أوروبا شبيه لهذا.

ـ لتتفضل جلالتكم بمعذرتي. لكن في إسبانيا، كما هي الحال في روسيا، عدد كبير من الأديرة والكنائس.

وعندما حُمل إلى بلاط روسيا هذا الجواب الذي يخفي بين طياته تلميحاً إلى هزيمة الفرنسيين في إسبانيا، لقي فيه أرفع تقدير. أما إلى مائدة ناپليون، فإنه لم يحدث أي أثر، بل لم يؤبه له.

كانت وجوه السادة الماريشالات اللامبالية تدل بوضوح على أن هذا

الجواب الخادع قد غاب عن أذهانهم رغم أن لهجة پالاشيـڤ قد أبرزته. بدوا وكأنهم يقولون: «إذا كان في الأمر قصد ما فإنه يفوتنا إدراكه». ولقد خمنوا مؤداه بانتباه ضئيل جداً حتى أن ناپليون لم يأبه بل استرسل في طرح أسئلته فسأل پالاشيـڤ بسذاجة عن أقصر الطرق المباشرة للذهاب إلى موسكو وعن المدة التي تتطلبها. فأجاب پالاشيـڤ الذي بقي طوال الغداء مترقباً بأنه لما كانت كل الطرق تؤدي إلى روما فإن كل الطرق كذلك تؤدي إلى موسكو. وإن بين هذه الطرق العديدة واحداً يمر ببولتاڤا وهو على التأكيد ذلك الذي انتقاه شارل[1] الثاني عشر. ولقد احمرّ وجه پالاشيـڤ فرحاً لما في رده من معنى لاذع. لكنه ما إن فاه باسم بولتاڤا حتى بادر كولنكور، لكي يضع حداً لهذه المحادثة الخطيرة، إلى وصف حالة طريق پيترسبورغ ـ موسكو السيئة ثم استرسل في سرد ذكرياته عن العاصمة.

وبعد تناول الطعام، انتقلوا لتناول القهوة إلى مكتب ناپليون الذي كان قبل أربعة أيام مكتب ألكسندر. جلس ناپليون وأشار إلى پالاشيـڤ وهو يحرك قهوته في فنجان من خزف «سيفر» الشهيرة، أن يجلس على مقربة منه.

كان ناپليون في تلك الحالة السعيدة التي تهيّئ الإنسان الذي تناول طعاماً طيباً أكثر من أي شيء آخر لأن يشعر بالرضى عن نفسه ويرى الأصدقاء في كل مكان. فكان إذن يظن أنه المثل الأعلى للأشخاص المحيطين به بمن فيهم پالاشيـڤ الذي استوى الآن بدون شك في صفوف المعجبين به. لذلك قال له بابتسامة فيها سخرية رقيقة.

---

(١) شارل الثاني عشر، هزم ملك الدانمارك عام ١٧٠٠، والروس في ناڤا، وأوغست البولوني في كيسو نازع بطرس الأكبروهُزم فالتجأ إلى تركيا، قتل برصاصة في معركة فريدريكشالد عام ١٧١٨. (المترجم).

ـ لقد قالوا لي إن هذا هو المكتب الذي كان يشغله الأمبراطور ألكسندر أليس ذلك مثيراً للفضول يا جنرال؟

بدا قانعاً أن هذه الملاحظة لا بد وأن تدخل الفرح على نفس محدثه. أليست الدليل على تفوقه هو، ناپليون، على ألكسندر؟

اكتفى پالاشيـڤ الذي لم يكن يستطيع الإجابة بحنى رأسه.

استرسل ناپليون دون أن يكف عن ابتسامته المتهكمة:

ـ نعم، في هذه الغرفة منذ بضعة أيام، كان وينتزنغيرود وستين يتشاوران. إن ما لا أستطيع فهمه هو أن الأمبراطور ألكسندر أحاط نفسه بكل أعدائي الشخصيين. كلا، الحق يقال إنني لا أستطيع فهمه. ألم يفكر إذن في أنني قد أتصرف تصرفاً مماثلاً؟

وهو يلقي هذا السؤال كان يستسلم لبقية من سورة غضب الصباح التي لم تتبدد تماماً. أضاف وهو يقف ويدفع فنجانه عنه:

ـ ليعلم جيداً أنني سأفعل مثله. سوف أطرد من ألمانيا كل أقربائه آل «ووتمبرغ» و«باد» و«ويمار».. أجل، سوف أطردهم من هناك. فليهيئ لهم مأوى في روسيا.

حنى پالاشيـڤ رأسه، وكانت أماراته توحي بأنه يرغب في الإذن له بالانصراف وأنه لا يصغي إلى تلك الأقوال إلا مكرهاً. لم يلاحظ ناپليون شيئاً من كل هذا: لم يعد يعامل پالاشيـڤ بوصفه رسولاً للعدو بل كرجل اكتسبه إلى جانبه عليه أن يبتهج للهجاء المكلل لسيده القديم.

تابع ناپليون: ولماذا أمسك الأمبراطور ألكسندر بزمام قيادة جيوشه؟ ما الفائدة؟ إن الحرب مهنتي. أما هو فإن مهنته أن يحكم لا أن يقود الجيوش. لماذا اضطلع بمثل هذه المسؤولية؟

أخرج ناپليون مسعطه مرة أخرى ثم سار بضع خطوات دون أن يتكلم،

وفجأة توجه إلى پالاشيـڤ ورفع يده إلى وجه ذلك الجنرال الروسي ذي السنوات الأربعين بحركة متزنة فجائية، وكأنه يقوم بعمل هام ومتملق، وجذب أذنه جذباً خفيفاً وهو يرسم على شفتيه ابتسامة.

«أن تجذب الأذن من قبل الأمبراطور» يعتبر في البلاط الفرنسي شرفاً كبيراً بل حظوة عالية.

وبدون شك، سأل وهو يعتبر أن من المضحك أن يكون المرء في حضرته «ممالقاً» و«معجباً» برجل آخر غيره هو، ناپليون:

ـ حسناً، لم لا تتكلم بشيء أيها المعجب بالأمبراطور ألكسندر الممالق له؟ ثم أضاف وهو يجيب عن تحية پالاشيـڤ بإشارة من رأسه:

ـ هل أعدت الجياد إلى الجنرال؟ أعطوه جيادي، إن أمامه رحلة طويلة يقوم بها.

وكانت الرسالة التي حملها پالاشيـڤ، الأخيرة التي كتبها ناپليون إلى ألكسندر. لقد نقلت كل تفاصيل المقابلة إلى أمبراطور روسيا واندلعت الحرب...

الفصل الثامن

سافر الأمير أندريه، بعد مقابلة مع پيار في موسكو، إلى پيترسبورغ لبعض الأعمال كما أعلم أقرباءه، أما في الواقع، فكان ينبغي إجراء مقابلة مع الأمير أناتول كوراغين. بحث عنه فور وصوله ولكن دون جدوى. ذلك أن أناتول الذي أخطره أخو زوجته بأن أندريه يلاحقه، لم يلبث حتى التمس من وزير الحربية عملاً في جيش مولداڤيا وحصل على ما أراد. قابل أندريه خلال إقامته في العاصمة «كوتوزوف» جنراله السابق دائم الاستعداد لأداء ما يحتاج إليه فعرض عليه هذا أن يصحبه معه إلى مولداڤيا حيث عيّن قائداً أعلى فوافق أندريه وذهب إلى تركيا بصفته ملحقاً في أركان حرب الجنرال.

لم يكن أرسل طلب مبارزة إلى كوراغين ليلقي قبولاً من جانب الأمير أندريه الذي لم يكن يريد المس بسمعة الكونتيسة روستوف بأي ثمن. لذلك كان يبحث عن مقابلة شخصية مع أناتول تسمح له أن يتحداه متخذاً ذريعة أخرى. لكنه كان أملاً ضائعاً: ذلك أن أناتول حال وصول الأمير إلى الجيش التركي، بادر بالعودة إلى روسيا. ولقد شعر أندريه في ذلك البلد الجديد ببعض الارتياح بفضل الشروط الحياتية الجديدة. ولقد وجهت إليه خيانة مخطوبته ضربة شديدة الإيلام حتى إنه لمزيد ألمه، كان مرغماً على عدم التظاهر بمدى عذابه. ومنذ ذلك الحين، بدت له المباهج التي كان يتذوقها في الحياة تافهة وتلك الحرية وذلك الاستقبال اللذان طالما قدرهما من قبل أكثر تفاهة وتلك الأفكار التي واتته تحت سماء أوسترليتز، والتي كان يجب تعميمها مع پيار،

تلك الأفكار التي لشد ما فتنت وحدته في «بوغوتشارڤو» وسويسرا وروما والتي كانت تفتح له آفاقاً لامتناهية، لم يعد يتوقف عندها بل كان يدفع عنه حتى مجرد ذكراها. لم يعد يهتم الآن إلا بالمصالح الدارجة الأكثر آنية دون رابط مع المصالح السابقة ويتعلق بحماسة تزداد شدتها كلما ابتعدت هذه عن مشاغله السابقة. وتلك القبة اللامتناهية التي كانت منتشرة من قبل فوق رأسه بدت وكأنها استبدلت بأخرى منخفضة محدودة أخذت تسحقه، قبة يبدو كل شيء تحتها واضحاً ليس تحتها شيء غامض.

كانت الخدمة العسكرية بين كل المشاغل التي تعرض له، أبسطها وأفضل ما يتقنه منها. ولقد أكبّ على واجباته كجنرال مساعد عسكري فأنجزها بكثير من الغيرة والدقة حتى أن كوتوزوف نفسه دهش لهما. ولما لم يعد يجد كوراغين في تركيا، فإنه رغم مرور الزمن والاحتقار الذي يشعر به تجاه هذا الشخص ورغم كل ما لديه من أسباب تجعله يجده غير جدير بمبارزة، يتحداه عند أول فرصة دون مراء، مثله في ذلك كمثل الرجل الجائع الذي يلقي بنفسه على الطعام بحكم غريزته. فكان إحساسه بأن إهانته لم ينتقم لها وأن الغضب لا يزال يغلي في أعماق قلبه، يسمم الهدوء الذي اصطنعه في تركيا بفضل فاعلية متحركة نوعاً ما، كان الزهو والطمع يجدان فيها حسابهما.

في عام ١٨١٢، عندما بلغ نبأ الحرب مع ناپليون إلى بخاريست حيث كان كوتوزوف منذ شهرين يمضي الليل والنهار لدى خليلته «ڤالاك»، التمس الأمير أندريه تعيينه في جيش الغرب. فامتثل كوتوزوف الذي كانت غيرة پولكونسكي تبدو له الآن لوماً عنيفاً على قلة مروءته الشخصية، لطلبه وأسند إليه مهمة لدى باركلي دوتولّلي.

وقبل التحاقه بالجيش الذي كان يحتل معسكر دريّسا في أيار، قرر أندريه أن يمر «بلسيياغوري» إذ إن هذا الملك الذي يقع على بعد مرحلة صغيرة من

طريق سمولنسك الكبيرة، كان كذلك على طريقه ولقد حدث خلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة كثير من التبدل في حياته، كثير من الانقلابات في نمط تفكيره وتحسسه ورأى كثيراً من الأشياء خلال رحلاته في الغرب كما في الشرق حتى إنه شعر بذهول حقيقي عندما وجد في ليسياغوري نهج الحياة إياه الذي لم يتغير حتى في أصغر تفاصيله. وعندما اجتاز الممشى وتخطى الباب الكبير، ظن أنه قد دخل قصراً مسكوناً. فالنظام والصمت والنظافة لا تزال سائدة في ذلك المنزل والأثاث لا يزال إياه والجدران نفسها والحركات نفسها والرائحة بعينها والوجوه الوجلة نفسها وإن كانت قد شاخت بعض الشيء.

كانت الأميرة ماري لا تزال هي هي، دميمة وجلة متصاعدة في السن، قضت أجمل سنيها دون أية فائدة ولا أية بهجة في مخاوف وآلام سرمدية. والآنسة بوريين لا تزال تلك المغناج شديدة الرضى عن شخصها الصغير تعرف كيف تتمتع بأتفه اللحظات وتنسج لنفسها أكثر الآمال إشراقاً. وديسال، المدرّس الذي جاء به من سويسرا، كان الآن مرتدياً «رودنغوتاً» على الطريقة الروسية ويتحدث لغة روسية فاسدة عندما يخاطب الخدم. لكنه لا يزال ذلك المربي الذي كان، بذكائه القليل وثقافته على جانب من التحذلق.

أما الأمير العجوز، فإن نقص سنّ في زاوية الفم، كان التبدل الجسدي الوحيد الذي يلاحظ عليه. أما تبدله المعنوي فكان سرعة غضبه المتفاقمة واستياءه الآخذ في الازدياد تجاه كل أحداث هذا العالم. إلا أن نيكولا الصغير وحده هو الذي كبر وظهرت قسماته. كان يضحك تحت شعره الفاحم دون أن يدرك السبب، يسليه كل شيء ويرفع الشفة العليا من فمه الجميل كما كانت تفعل الأميرة الصغيرة المتوفاة. كان وحده لا يخضع لنظام الاستقرار الذي بدا وكأنه يتحكم في ذلك القصر المسحور. وعلى الرغم من أن المظاهر

بقيت دون تغيّر، فإن العلاقات الخاصة بين السكان قد تبدلت كثيراً منذ رحيل أندريه. كانوا الآن يؤلفون معسكرين معاديين غريبين أحدهما عن الآخر، أرغمهما وجوده على التقارب لبعض الوقت. فالأمير العجوز والآنسة بوريين والمهندس ينتمون إلى أحد المعسكرين بينما يتألف المعسكر الآخر من ماري وديسال ونيكولا الصغير والخدم والمرضعات.

أثناء إقامته، تناولوا جميعهم الطعام معاً. لكن أندريه كان يرى أنهم يعاملونه معاملة الضعيف الذي يقومون إكراماً له استثناء للقاعدة والذي يزعجهم وجوده. ولقد شعر بحدسه بهذا الارتباك في اليوم الأول فلم يتكلم إلا قليلاً بينما تمسك الأمير العجوز الذي لمس مظهر ولده المصطنع بصمت عنيد وانسحب فور الانتهاء من الطعام. وعندما دخل عليه أندريه حوالى المساء ليراه، راح يقص عليه حملة الكونت كامنسكي الشاب اعتقاداً منه أن هذا سيرد له طبيعته المألوفة فكان أبوه يقاطعه متشكياً من ماري متهماً إياها بأنها تؤمن بالخرافات وتكره الآنسة بوريين «الشخص الوحيد، كما أكد، المخلص لي إخلاصاً حقيقياً».

فإذا كان الأمير العجوز مريضاً فإنما الذنب هو ذنب ماري وحدها التي تتعمد إيلامه وإثارة أعصابه، والتي تفسد نيكولا الصغير بفرط محبّتها وقصصها البلهاء. وكان في الواقع يعرف تماماً أنه هو الذي يعذب ابنته. لكنه كان يعرف أيضاً أنه لا يستطيع الامتناع عن ذلك وأنها، على أية حال، تستحق مثل تلك المعاملة. كان يحدث نفسه: «لماذا لا يحدثني أندريه، الذي يرى كل هذا، عن ماري شيئاً؟ هل يتصور أنني فاجر أو مجنون عجوز ابتعدت عن ابنتي لأكون على ما يرام مع الفرنسية؟ إنه لا يفهمني. لذلك ينبغي أن أشرح له كل شيء، يجب أن يفهمني». وراح يشرح الأسباب التي تجعل عقلية ابنته المستحيلة غير محتملة.

قال أندريه دون أن ينظر إلى أبيه لأنه كان للمرة الأولى سيسمح لنفسه بلوم أبيه: لو أنك لم تثر هذه المسألة لبقيت صامتاً. لكنك وأنت تسألني رأيي، فأنا سأقول لك بصراحة ما أراه في كل هذا. إذا كان هناك سوء تفاهم بين ماشا (تصغير ماري) وبينك فأنا لا أستطيع أن أجعلها مسؤولة لأنني أعرف مقدار ما تحبك وتحترمك.

وتابع أندريه وهو يستسلم لانفعال بات مألوفاً لديه منذ بعض الوقت.

ـ وطالما أنك تسألني الرأي، لن أقول لك إلا شيئاً واحداً: إن الخلاف، إذا كان هناك خلاف، ناشئ عن هذه المرأة الحقيرة وحدها التي ما كان يجب أن تكون مرافقة أختي.

بقي العجوز، بادئ الأمر، مشدوهاً وعيناه تحدقان إلى ولده ثم كشف بابتسامة مرغمة عن ذلك الفراغ الذي أحدثه فقدان السنّ في زاوية فمه، ذلك الفراغ الذي لم يكن أندريه ليألفه بعد.

ـ من هي هذه الرفيقة يا عزيزي؟... لقد أثاروك قبل أن تدخل إليّ؟

أجاب أندريه بلهجة قاسية:

ـ أبي، لم أكن أريد أن أقاضيك. ولكن، ما دمت أثرت هذا الإيضاح، فقد قلت لك وأكرر القول وسأظل مصراً على أن ماري ليست مذنبة... كلا، إن المذنبين.. المذنبة، هي الفرنسية.

قال الأمير العجوز بصوت هادئ كانت تظهر فيه بادرة بلبلة: آه! إنك تحكم علي!... إنك تحكم علي!...

لكنه قفز فجأة وصاح: أخرج من هنا! أخرج من هنا! لا تطأ بعد الآن هذا المكان!...

أراد أندريه أن يذهب فوراً، لكن ماري توسلت إليه أن يطيل بقاءه أربعاً وعشرين ساعة أخرى. لم ير طوال ذلك اليوم أباه الذي لم يخرج قط من جناحه

ولم يتقبل فيه إلا الآنسة بوريين وتيخون والذي سأل مرات عديدة عما إذا كان ابنه قد رحل. وفي اليوم التالي، قبل سفره، ذهب أندريه لرؤية نيكولا الصغير. جاء الفتى قويّ البنية الذي كان شعره العكف يذكر الناظر بشعر أمه، ركع على ركبتيه فراح أندريه يقص عليه حكاية بارب ـ بلو[1] (ذو اللحية الزرقاء). لكنه لم يكمل قصته بل راح يفكر. نسي هذا المخلوق اللطيف الصغير الذي كان يجلسه على ركبتيه وراح يفكر في نفسه. لقد أغضب أباه وها هو يغادر بعد أن اختصم معه للمرة الأولى في حياته دون أن يشعر بندم أو بأسف. بل راح يبحث في أعماقه عن ذلك الحنان الذي طالما شعر به تجاه ابنه والذي كان يأمل أن ينميه بملاطفة الصغير وحمله على ركبتيه ولكن، وهذا أخطر من الأمر الأول، دون أن يجد له أثراً.

قال الفتى: حسناً، إنها قصتك، إنهها.

فرفعه عن ركبتيه دون أن يجيبه وخرج.

لم يكن الأمير أندريه يهجر مشاغله اليومية ويعود إلى شروطه الحياية التي كان يعيش فيها عندما كان سعيداً حتى يستحوذ عليه الاشمئزاز من الحياة بأكثر قوة من ذي قبل فكان يتعجل الإفلات بأسرع ما يمكن من تلك الذكريات لينغمس في فاعلية ما.

قالت له أخته: هل تذهب يا أندريه؟

فأجابها: إنني أشكر الله على أنني أستطيع الذهاب وأرثي لك لأنك لا تستطيعين أن تفعلي مثلي.

صاحت ماري:

---

(١) ذو اللحية الزرقاء، رجل سمي بهذا الاسم بسبب لون لحيته، وقد ذبح ست زوجات وكان على وشك ذبح السابعة عندما أنقذها إخوتها وقتلوا الزوج الدموي. (المترجم).

ـ ماذا قلت؟ لا تنسَ أنك ذاهب إلى هذه الحرب الرهيبة وأنه عجوز هرم! لقد سأل عما إذا كنت لا تزال هنا. لقد أخبرتني الآنسة بوريين بذلك.

فما كادت تطرق هذا الموضوع حتى ارتعشت شفتاها من التأثر في حين انهمرت الدموع من عينيها. فأشاح أندريه بوجهه وراح يذرع الغرفة.

قال بسورة أذهلت أخته: يا إلهي! يا إلهي! عندما يفكر المرء في أن مخلوقات على هذا الدرك من الحقارة تستطيع أن تسبب تعاسة الآخرين!

حدست أنه بحديثه عن المخلوقات الحقيرة لم يعن الآنسة بوريين وحدها التي سببت شقاءها هي بل كذلك الرجل الذي دمر سعادته هو.

قالت له وهي تلمس مرفقه وترفع إليه عينيها اللتين كانتا تلمعان خلال دموعها: أندريه، إنني أفهمك. ولكن لا تعتقد أن الألم من صنع البشر. إن البشر ليسوا إلا أدوات للألم.

وتجاوزت نظرتها رأس أندريه، إحدى تلك النظرات الواثقة بإيجاد صورة ممجدة في مكانها المألوف: إنه هو، الذي يرسل إلينا الألم وليس البشر. إن الرجال أدوات وهم ليسوا مذنبين. فإذا كنت تعتقد أن بعضهم أساء إليك، إنسَ واصفح إذ ليس من حقنا أن نعاقب، وحينئذ ستتذوق بهجة الصفح.

ـ لو كنت امرأة يا ماري لكان هذا ما أفعله. إن الصفح فضيلة النساء. أما الرجل فلا يجوز بل لا يستطيع أن ينسى وأن يصفح.

وعلى الرغم من أنه لم يكن حتى ذلك الحين قد فكر في كوراغين، فإن كل غضبه الذي لم يشبع، استيقظ فجأة في قلبه. قال في سرّه: «إذا كانت ماري أصبحت تجرؤ على أن تسألني الصفح عنه فما ذلك إلا لأنه كان يجب أن أعاقبه منذ زمن طويل». ودون أن يستمر في الرد على أخته، راح يفكر بفرح حقود في اللحظة التي سيقابل فيها كوراغين الذي يعرف أنه في الجيش.

مرة أخرى، توسلت ماري إلى أخيها أن يبقى يوماً آخر ونبهته إلى مبلغ

ما سيكون أبوه تعيساً إذا ذهب أندريه دون أن يتصالح معه. فرد أندريه بأنه يستطيع أن يعود قريباً من الجيش وأنه لن يتخلف عن الكتابة إلى أبيه، بينما لن تكون إطالة مدة إقامته إلا تعقيداً للأمور.

ـ وداعاً يا أندريه، تذكر أن الآلام تأتي من الله وأن بني البشر ليسوا أبداً مذنبين. تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالتها له أخته في لحظات الوداع.

وهو يغادر ممشى ليسيياغوري فكّر أندريه: «لا بد وأن الأمر يجب أن يكون كذلك! إن هذه المخلوقة المسكينة البريئة ستبقى فريسة هذا العجوز الذي لم يعد بكامل رشده. إنه يشعر تماماً بأنه مذنب لكنه لا يستطيع أن يصحح أخطاءه. إن فتاي الصغير يكبر ويبتسم للحياة وسيكون ككل الآخرين إما خادعاً وإما مخدوعاً. أنا ذاهب إلى الجيش. لماذا؟ لست أدري. ثم إنني أرغب في لقاء هذا الرجل الذي أحتقره لكي أمنحه فرصة قتلي أو الاستهزاء بي!» بقيت العوامل التي تؤلف حياته هي نفسها لكنها فقدت كل تناسق فلم تعد تمر في رأسه إلا أخيلة متباعدة ليس بينها أي رباط.

الفصل التاسع

في نهاية شهر حزيران، وصل الأمير أندريه إلى القيادة العامة، وكان الجيش الأول الذي يقوده الأمبراطور يحتل معسكر دريسا المحصن والجيش الثاني يتراجع محاولاً اللحاق بالأول الذي كانت تفصله عنه، على ما قيل، قوات فرنسية ضخمة. وكان الناس كلهم غير راضين عن سير العمليات العام ولكن ما من أحد كان يتوقع غزواً للأقاليم الروسية الحقيقية كما أن ما من أحد كان يستطيع الافتراض أن الحرب ستنتقل إلى ما وراء الأقاليم البولونية.

كان يقيم باركلي دوتوللي الذي أرسل إليه كوتوزوف الأمير أندريه، في مشارف دريسا. ولما لم تكن هناك قرى صغيرة أو كبيرة قريبة، فإن الجنرالات الكثر من البطانة الذين كانوا في الجيش كانوا يحتلون على قطر ثلاث مراحل دائرياً، أهم المساكن في البلدات الواقعة على شاطئي النهر كليهما. وكان باركلي دوتوللي يسكن على مسافة مرحلة من الأمبراطور. استقبل بولكونسكي ببرود، وقال له بلهجته الأجنبية إنه وافق أن يعهد إليه بأي عمل، سيعود إلى استشارة جلالته. ولكنه بانتظار ذلك، يلحقه بهيئة أركانه.

أما أناتول كوراغين الذي كان أندريه يفكر في إيجاده في الجيش، فكان قد رجع إلى بيترسبورغ. ولقد وجد هذا النبأ وقعاً حسناً في نفسه أكثر مما كان يتوقع أن يزعجه لأنه عندما وصل إلى مركز العمليات التي كانت سعتها لا متناهية، أحسّ بمصلحته تستيقظ في أعماقه فلم يسخط قط لأنه تحرر لوقت ما من الانفعال الذي كان يثيره فيه التفكير في كوراغين.

طاف خلال الأيام الأربعة الأولى التي لم يلجأ أحد فيها إلى الانتفاع بخدماته في المعسكر المحصن وحاول أن يكون لنفسه فكرة صحيحة بفضل معلوماته ومداولاته مع أشخاص من أصحاب النفوذ. كان يتساءل عما إذا كان لهذا المعسكر سبب لوجوده دون أن يتوصل أبداً إلى إيجاد الجواب. ولقد علمته تجاربه في الحرب وخصوصاً معركة أوسترليتز، أن أكثر الخطط إحاطة وأعمقها دراسة ليس لها إلا أهمية جدّ ضئيلة وأن كل شيء يتوقف على الطريقة التي يُرد بها على الضربات الفَجائية غير المتكهن بها التي يوجهها العدو وعلى الأسلوب الذي تدار به العمليات وقيمة الرؤساء. ولكي يعرف كيف يركز حول هذه النقطة الأخيرة، فقد اجتهد بفضل مركزه ومعارفه، أن يغوص عميقاً في عقلية القيادة العليا والأشخاص والجماعات الذين يساهمون فيها وتوصل في نهاية المطاف إلى تحضير اللوحة التالية من هذه المجموعة.

كانت قواتنا مقسّمة إلى ثلاثة جيوش عندما كان الأمبراطور لا يزال في فيلنا، يقود الأول باركلي دوتوللي والثاني پاغراسيون والثالث تورماسوف. وكان الأمبراطور مع الجيش الأول ولكن دون أن يشغل منصب القائد الأعلى. وكانت البيانات الملكية تنص على أنه سيكون موجوداً وليس على أنه سيكون قائداً. ولم تكن حوله أية هيئة أركان لقيادة عليا ولكن هيئة أركانه العامة الشخصية التي كان يرأسها الجنرال الأول ڤولكونسكي. وكان هناك جنرالات ومساعدون عسكريون ودبلوماسيون وطائفة من الغرباء ولكن ليس من هيئة قيادة للجيش. وكان يرى كذلك إلى جانب الأمبراطور دون مهمة خاصة، وزير الحربية أراكتشييـڤ والكونت بينيغسن أقدم الجنرالات رتبة وقريب القيصر كنستانتان باڤلوڤيتش والمستشار الكونت رومیانتسيـڤ والوزير البروسي السابق ستين والجنرال السويدي آرمفيلت وبفريل، واضع مخطط الحملة الرئيسي واللاجئ السرديني (من سردينيا) «بولوكشي» والمساعد العسكري

الجنرال فولزوغن وكثيرون آخرون. وعلى الرغم من انعدام المهام الرسمية لهؤلاء الأشخاص، فقد كانوا يمارسون على أية حال سلطة ما. فكان غالباً ما لا يعرف قائد فوج أو حتى قائد عام بأية سلطة يسأله بينيغسن أو الغراندوق أو أراكتشييـڤ أو الأمير ڤولكونسكي عن هذا أو ذاك من الأمور وينصحه بتنفيذه ويجهل ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك يُنقل إليه من عندياتهم أم من قِبل الأمبراطور ومنقولاً إليه على شكل نصيحة وما إذا كان عليه تنفيذه أم لا. لكن كل هذا لم يكن أكثر من مجرد مظهر: فكل كان يعرف ما معنى بطانة، ومن ذا الذي ما كان يصبح مشايعاً للأمبراطور في حضرته؟ ومعنى وجود ألكسندر في الجيش ووجود كل هذه الشخصيات. وإذا كان الأمبراطور لم يتخذ بالفعل لقب القائد الأعلى، فإن الجيوش كلها لم تكن أقل ائتماراً بأمره، أما كل من حوله فمساعدون له. فأراكتشييـڤ هو الحارس الأمين للنظام والمرافق لجلالته. وبينيغسن، رغم كل تظاهره بالاكتفاء بحفاوات البلاد بوصفه ملاكاً كبيراً لإقطاعية مجاورة، جنرالٌ ممتازٌ يصغى إلى رأيه بكل ارتياح ويحتفظ رهن الإشارة ليحل محل باركلي.

وإذا كان الغراندوق هناك، فلأن تلك كانت رغبته. أما الوزير السابق ستين، فكان بوصفه خير مشير ولأن الأمبراطور يتذوق صفاته الشخصية البارزة. بينما آرمفيلت أسوأ أعداء ناپليون وجنرال معتد بنفسه، الأمر الذي كان له أثر قوي في نفس الأمبراطور. ووجود بولوكشي، مرده إلى جرأة أحاديثه وأثرها، في حين أن المساعدين العسكريين الجنرالات ملزمون على مواكبة الأمبراطور دائماً.

وأخيراً، وهذه نقطة جوهرية كان بفويل هناك لأنه واضع مخطط حملة استطاع بفنه أن يجعل ألكسندر يوافق عليه فكان في واقع الحال هو الذي يدير كل العمليات. وإلى جانب بفويل، وقف ڤولزوغن يترجم بشكل عملي

أفكار هذا الرجل، العالم النظري الغضوب شديد الاعتداد بنفسه، حتى ليظهر تجاه كل شيء اشمئزازاً مترفعاً. وما عدا هؤلاء الأشخاص الروس والغرباء، وخصوصاً الغرباء الذين كانوا يقترحون كل يوم خططاً جديدة بالجرأة الطبيعية لكل شخص يمارس نشاطاً في وسط ليس وسطه، ما عدا هؤلاء، كان كثيرون آخرون يتبعون في المرتبة التالية نجاح أسيادهم في الجيش.

سرعان ما ميّز أندريه بين كل هذه الآراء المشرقة في هذا «العالم» الصاخب المترفع، تيارات عديدة واضحة المعالم.

كان الفريق الأول يتألف من بفويل ونظريين آخرين آمنوا بوجود علم للحرب، علم يرتكز على قوانين ثابتة بالحركة الزوراء والالتفاف حول العدو إلخ... فكان بفويل وأتباعه يطالبون بانسحاب إلى داخل البلاد نزولاً عند القواعد الدقيقة التي وضعتها نظرية الحرب المزعومة ويعتبرون كل مخالفة لهذه النظرية، دلالة على البربرية والجهل وقصر النظر. وكان الأمراء الألمان وڤولزوغن ووينتزنغيرود وكثيرون معظمهم من الألمان يشايعون هذا الفريق.

وكان الفريق الثاني يعارض الفريق الأول دائماً، كلما استدعي سواه. وكان أتباع هذا الفريق يطالبون منذ «فيلنا» بهجوم في بولونيا وإغفال كل خطة مسبقة. وهم يمثلون الجرأة في العمل ويجسدون العقلية القومية ومن ثم يظهرون أكثر كمالاً من كل خصومهم. كان هؤلاء روساً منهم باغراسيون وأيكروولوف الذي بدأ التقدم والذي تكللت إحدى هجماته بنجاح فائق، فقال للأمبراطور الذي ترك له أمر اختيار المكافأة: أريد أن أرفع إلى مرتبة «ألماني». كان أعضاء هذا الفريق يستعرضون ذكرى سوڤوروف ويرددون حيثما كانوا أن من العبث بناء نظريات وغرس دبابيس على الخرائط وأنه يجب القتال وهزم العدو ومنعه من دخول روسيا وعدم ترك المجال لقواتنا لتفقد معنوياتها.

والفريق الثالث، ذلك الذي يوحي إلى الأمبراطور بأكبر ثقة، كان يضم

المشايعين من البطانة ومن بينهم أراكتشييـڤ. وكان هؤلاء ينادون بالتوفيق بين الجانبين المتنابذين، يفكرون ويقولون ما يقوله عادة أولئك الذين لا معتقدات لهم بل يريدون الحصول على بعضها. كانوا يؤكدون أن الحرب وخصوصاً مع خصم عبقري كبوناپرت، ذلك أنهم عادوا إلى تسميته ببوناپرت من جديد، تتطلب بدون شك علماً تاماً وأكثر التدابير براعة. لذلك فإن بفويل عبقري حقاً في هذا الصدد. ولما كان لا يمكن الإنكار بحال أن النظريين غالباً ما يكونون مانعين، فإنه لا بد، وهم الذين لا يمنحونهم ثقة تامة، من الإصغاء في الوقت نفسه إلى خصم بفويل، وهم الرجال العمليون ذوو التجربة، واتخاذ حل وسط بينهم. وتبعاً لذلك، فإنهم وهم يعترفون بضرورة الاحتفاظ بمعسكر دريسا استجابة لخطة بفويل، يتطلعون إلى تعديل سير الجيشين الآخرين وعلى الرغم من أنه بهذه الطريقة لا يمكن تحقيق أي من الأهداف المقترحة، فإن أعضاء هذا الفريق كانوا يزعمون أن ذلك أفضل الحلول.

أما تيار الآراء الرابع، فكان يرأسه التسيزاريـڤيتش. كان هذا لا يزال محتفظاً في ذاكرته بخيبته في أوسترليتز، حيث تقدم وكأنه في عرض، بخوذته وسترته القصيرة، على رأس الحرس وهو مقتنع بأنه سيسحق الفرنسيين بكل بسالة ولكنه أخذ على حين غرة في الخط الأمامي فأحاطت به الفوضى ولم يتخلص إلا بشكل محزن.

لقد كان لرجال هذا الفريق فضيلة الإخلاص وخطأه. كانوا يخافون ناپليون ويعرفون قوته وضعفهم ثم لا يجدون غضاضة في التصريح بذلك. كانوا يرددون: «لن يلحق هذا كله إلا الضرر والهزيمة والعار بنا. لقد تخلينا حتى الآن عن فيلنا ثم عن ڤيتيبسك. وسوف نتخلى كذلك عن دريسا. إن الحل المعقول الوحيد الذي بقي علينا أن نأخذ به هو التوصل إلى صلح بأسرع وقت إذا كنا لا نريد أن نطرد من پيترسبورغ»!

كان لهذا الرأي المنتشر في المقامات العالية من الجيش، صدى في پيترسبورغ وحتى في نفس المستشار رومیانتسیـڤ الذي كان يريد الصلح ولكن لأسباب أخرى.

وثمة معسكر خامس يساند باركلي دوتوللي بسبب مركزه كوزير للحربية وقائد أعلى أكثر مما كان يسانده لقيمته الشخصية. وكان رجال هذا الفريق يقولون: «مهما بلغت أخطاؤه، وكانوا أبداً يبدأون بهذه العبارة، فإنه رجل نشيط ونبيل وليس لدينا أفضل منه. أعطوه سلطة حقيقية، لأن وحدة القيادة في الحرب هي شرط النجاح، وسيريكم ما يستطيع صنعه كما أظهره من قبل في فنلندا. فإذا تمكّن جيشنا أن ينسحب دون عوائق حتى دريسا وإذا كان الآن قوياً ومنظماً، فإننا مدينون بذلك إلى باركلي وحده. فإذا استبدلناه بـ:بينيغسن، فقدنا كل شيء. لقد برهن بينيغسن أكثر مما يجب عن عجزه عام ١٨٠٧».

وكان الفريق السادس، أنصار بينيغسن، على العكس يؤكدون أن ما من أحد أكثر نشاطاً وأكثر خبرة من هذا الرجل وأنه لا بد من الرجوع إليه إن عاجلاً وإنْ آجلاً، وأن تراجعنا إلى دريسا ليس في الواقع إلا هزيمة مخزية سببتها سلسلة من الأخطاء: «وكلما اجتمعت أخطاء متشابهة كان ذلك أفضل: إذ يُفهم بسرعة أن الأمر لا يمكن أن يسير على هذا النحو. إن ما يلزمنا ليس باركلي ما، بل رجل مثل بينيغسن الذي قدم براهينه من قبل، عام ١٨٠٧ والذي اعترف له ناپليون بالذات بكفاءته. إنه الوحيد الذي سينحني كل الناس أمامه.

أما التابعون للفريق السابع فكانوا من الأشخاص الذين لا يعدم المرء مقابلة أمثالهم في محيط الأمراء والعظماء الشبان الذين كانوا كثراً بصورة خاصة حول الأمبراطور ألكسندر، تعدادهم جنرالات ومساعدون عسكريون مخلصون للرجل أكثر من إخلاصهم للعاهل. كانوا يعبدونه بتجرد نزيه كما كان يعبده روستوڤ عام ١٨٠٥ ويعزون إليه ليست الفضائل كلها فحسب، بل

كل الصفات الإنسانية. كان هؤلاء يمجدون ويذمون في الوقت نفسه تواضع مولاهم الذي رفض القيادة العليا ويرغبون في أن يعلن مليكهم تسلّم قيادة الجيش نابذاً قلة ثقته المفرطة بنفسه، وأن ينظم هيئة أركان كبرى. وبعد أن يستشير، عند الاقتضاء، رجال النظريات كما يستشير الرجال العمليين ذوي الخبرة، يقود بنفسه جيوشه إلى المعركة إذا كان وجوده وحده، يملأ الرجال بحماسة جنونية.

لكن المعسكر الثامن والأهم، والذي تبلغ نسبته إلى السابقين تسعة وتسعين إلى واحد، فقد كان يضم الرجال الذين لا يريدون الحرب ولا السلم ولا المعسكر المحصن على دريسا أو في مكان آخر ولا باركلي ولا الأمبراطور ولا بفويل ولا بينيغسن، لأن مصالحهم ومسراتهم كانت أكثر أهمية في نظرهم، كما كانت الهدف الأوحد للذين يسيرون وراءه. وكان المستحيل يصبح ممكناً في هذه البلبلة من الدسائس التي تتشابك في المعسكر الأمبراطوري. فهذا أحدهم يشارك اليوم بفويل في الرأي خشية أن يفقد مركزاً رابحاً وغداً يشارك خصومه ويؤكد بعد غد أنه لا رأي له حول مسألة الخلاف.

كل ذلك دفعاً للتعرض للخطر وحرصاً على البقاء حول مليكه. وذاك راغب في بلوغ مركز مرموق، يستلفت انتباه الأمبراطور بالمناداة برأي كان هذا قد ألمح به بالأمس، ويناقش ويصيح في المجلس ويكيل لنفسه ضربات قوية على صدره ويطلب المعارضين له إلى المبارزة ليثبت بذلك أنه على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل المصلحة العامة. وثالث بين مجلسين وفي غياب أعدائه، يلتمس دون خجل عوناً مادياً لقاء خدماته المخلصة وهو يعرف أنه لن يكون هناك متسع من الوقت لرفض طلبه، ورابع مرهق دائماً بالعمل وكأنه يفعل متعمداً، كلما أراد سيده رؤيته. وخامس، بغية الحصول على

بطاقة دعوة إلى المائدة الأمبراطورية طالما تاقت نفسه إليها، يبرهن بكثير من الحجج المتفاوتة بالقوة، صحة نظرية شائعة أو بطلانها.

لا يفكّر هذا الثول من الزنابير إلا في امتصاص المال والأوسمة والمناصب، همه أن يسترشد باتجاه ميل الرعاية الأمبراطورية. فما إن تتجه إلى وجهة ما حتى ينفخ في ذلك الاتجاه بالذات بشكل يتعذر معه على الأمبراطور تحويل رعايته إلى ناحية أخرى. وكان هذا الفريق الثامن، وسط قلق الساعة البلبال الذي أحدثه الخطر الماثل، وبين كل هذا الإعصار من الدسائس والأنانيات والخصومات بين الاتجاهات المختلفة المتعارضة، بين كل هؤلاء الناس من مختلف الجنسيات، كان هذا الفريق الأكبر عدداً، المنصرف إلى مصالحه الشخصية، يعقّد سير الأمور بصورة خاصة. وأياً كان الموضوع المثار، كان هذا الثول من الزنابير الذي لم يفرغ بعد من التبويق في الموضوع الذي كان يشغله من قلبه، يطير سباقاً إلى الموضوع التالي فيكتم بطنينه الأصوات الوفيّة التي تساهم في النقاش.

وبدأ فريق تاسع يبصر النور، في اللحظة التي وصل الأمير أندريه إلى المعسكر، إنه فريق أولئك المسنين العاقلين الذين حطمتهم الأعمال والذين ما كانوا يشاطرون أحداً في الآراء القائمة بل يفحصون بتجرد ما يدور في البلاط الأمبراطوري ويبحثون عن الوسيلة التي يضعون بها حداً للقلق والتردد والغموض والضعف.

كان هؤلاء يقولون ويفكرون في أن الضرر ينجم قبل كل شيء عن وجود الأمبراطور وحاشيته العسكرية في الجيش وأن الجو الاتفاقي والتقلب السائدين في البلاط يلحقان الضرر بالجيش، وأن دور الملك هو أن يحكم وليس أن يقود الجيوش، وليس هناك غير مخرج واحد للمأزق: ألا وهو رحيل الأمبراطور الذي يشل وجوده خمسمائة ألف جندي ضروريين لتأمين

أمنه وأن جنرالاً قائداً أعلى رديئاً ولكن مستقلاً، أفضل من رئيس من المرتبة الأولى مرتبط بحضرة الأمبراطور ورغبته السامية.

وبينما الأمير أندريه يقيم في المعسكر دون أن يضطلع بأية أعباء، رفع أحد أعضاء هذا الفريق الأكثر نفوذاً، وهو سكرتير الدولة شيخكوف، رسالة إلى الأمبراطور موقعة من پالاشيـڤ وأراكتشييـڤ. ولقد استغل الإذن الممنوح له بالحكم على سير الأمور، فألمح بعبارات محترمة إلى العاهل أن وجوده في العاصمة ضرورة لإثارة حماسة الجماهير الحربية.

ولقد فهم ألكسندر ضرورة استفزاز الشعب للدفاع عن الوطن، فاتخذها ذريعة ليغادر الجيش، فكانت الحماسة القومية التي بقيت مستعرة طوال وجوده في موسكو العامل الرئيسي في انتصارنا.

الفصل العاشر

عندما أخطر باركلي ذات يوم پولكونسكي، أثناء الغداء، لم تكن تلك الرسالة قد سُلمت إلى الأمبراطور، وهي أن جلالته يرغب في رؤيته ليستفسره عن تركيا وأن على الأمير أندريه أن يمثل ذلك المساء في الساعة السادسة بين يديه في مسكن بينيغسن.

في ذلك اليوم، كانت القيادة الأمبراطورية قد أخطرت بحركة جديدة لناپليون يمكن أن تصبح خطيرة على الجيش. لكن النبأ دحض فيما بعد. ولقد طاف الزعيم ميشو صبيحة ذلك اليوم مع ألكسندر في حصون دريسا ودلل له على أن هذا المعسكر المحصن العتيد، إنتاج پفويل، هذه الطرفة في فنّ «التكتيك»، ليست في الحقيقة إلا شيئاً تافهاً محضاً ولن تسبب ضياع ناپليون بل ضياع الجيش الروسي.

ولما وصل الأمير أندريه إلى المسكن الأميري الصغير القائم على شاطئ النهر مباشرة الذي كان بينيغسن يقيم فيه، لم يجد فيه لا هذا الجنرال ولا الأمبراطور. لكن أحد المساعدين العسكريين الجنرالات واسمه تشيرنيشيـف، استقبله وأنهى إليه أن جلالته يتفقد للمرة الثانية ذلك اليوم، تحصينات المعسكر الذي أصبح الشك في جدواه يتسرب إلى النفوس، يرافقه بينيغسن والمركيز بولوكشي.

كان تشيرنيشيـف جالساً إلى نافذة في الغرفة الأولى يقرأ رواية فرنسية. ولا بد أن تلك الغرفة كانت فيما مضى قاعة رقص لأن الأرغن كان لا يزال هناك

وقد رصفت فوقه النجاد. وفي إحدى الزوايا، كان مساعد بينيغسن العسكري مرتمياً فوق سريره القابل للانطواء، يغط في النوم إثر غداء فاخر أو وفرة عمل. كان للقاعدة بابان: الباب المقابل يقود إلى القاعة القديمة والباب الأيمن إلى مكتب عمل. ومن وراء الباب الأول، ترتفع أصوات باللغة الألمانية وبالفرنسية بين حين وآخر. لم يكن هناك اجتماع لمجلس حربي، لأن الأمبراطور لم يكن يحب التعاريف الدقيقة، بل اجتماع بعض الشخصيات. كان يريد الاستئناس برأيهم في هذا الموقف الحرج: وبالاختصار، مجلس سري على نحو ما. وكان بين المستدعين الجنرال السويدي آرمفيلت وڤولزوغن ووينتزنغيرود، هذا الفرنسي المشايع للعدو حسب تعبير ناپليون وميشو وتولّ والكونت ستين الذي لم يكن قط عسكرياً وأخيراً پفويل (نقطة جمع) المسألة كلها كما قيل للأمير أندريه. تسنى لهذا المتسع من الوقت ليتفحص هذا الرجل لأن پفويل وصل بعده مباشرة وتحادث بعض الوقت مع تشيرنيشيـڤ قبل أن يدخل القاعة.

ومن النظرة الأولى، رغم أنه لم يكن قد رآه من قبل، بدا پفويل للأمير أندريه في زي جنرال روسي سيئ الخياطة كان يعطيه شكل المتنكر، كان يعرفه من قبل. كان پفويل يذكر المرء بشكل غامض بالجنرالين ويرودر وماك شميدت وطائفة أخرى من أمثالهم من النظريين الذين صادفهم عام ١٨٠٥، لكنه كان أكثرهم نموذجاً كاملاً. لم ير پولكونسكي قط من قبل ألمانياً يجمع إلى هذا الحد تقاسيم كل هؤلاء الألمان النظريين البارزة.

كان رجلاً قصير القامة، شديد النحول، ولكن متين التركيب قوي البنية ذا حوض عريض ورسلين بارزي العظام وغضون تخدد وجهه وعينين غائرتين بعمق في محجريهما. أما شعره المصقول من الأمام وعلى الصدغين بعجلة بالفرشاة، فقد كان منتصباً من الوراء في خصلات هوجاء. دخل وهو يلقي

نظرات قلقة ذات اليمين وذات اليسار وكأن كل شيء في تلك القاعة الفسيحة يخيفه. سأل تشيرنيشيـڤ بالألمانية وهو يمسك سيفه بشكل أخرق عن مكان وجود الأمبراطور. لا بد وأنه كان متعجلاً اجتياز الغرف وإرسال التحيات والتمنيات المناسبة الشكلية ليتمركز وراء خريطة ويعود إلى طبيعته. وعندما سأله تشنيتشيـڤ أن جلالته يتفقد التحصينات التي أمر هو، پفويل، ببنائها تبعاً لنظرياته الشخصية، هز رأسه بعنف وطافت على شفتيه ابتسامة ساخرة. غمغم في سره بذلك الصوت الخفيض الذي امتاز به الألمان الواثقون بأنفسهم «غباوة... أو سينهار كل شيء... أو يمكن توقع أشياء جميلة...» ولم يميز الأمير أندريه تماماً ما كان يقوله فأراد أن يمر، لكن تشيرنيشيـڤ قدمه لـپفويل مشيراً إلى أن الأمير وصل من تركيا حيث انتهت الحرب هناك نهاية سعيدة. وبالكاد تنازل پفويل أن يمنحه نظرة وغمغم ضاحكاً: «لا بد وأنها كانت حملة تكتيكية رائعة». ثم ازداد تهاتفاً وهو يتجه صوب القاعة التي ترتفع منها الأصوات.

ومما لا شك فيه، أن واقع التجرؤ على فحص وانتقاد معسكره دون وجوده، أثار غضب پفويل المألوف إلى أقصى حد واستعداده الطبيعي للاستهزاء. ولقد أتاحت هذه المقابلة القصيرة للأمير أندريه أن يكون لنفسه، اعتماداً على ذكرياته عن أوسترليتز، فكرة واضحة عن الرجل. كان پفويل واحداً من أولئك الذين يمكن أن تقود الثقة اليائسة بأفكارهم إلى حد الاستشهاد والذين لا يُرى مثيل لهم إلا في ألمانيا لأن الألمان وحدهم يركزون اطمئنانهم على فكرة مجردة، على العلم، وأعني المعرفة المزعومة بالحقيقة المطلقة.

إن الفرنسي واثق بنفسه لأنه يتصور أنه يمارس، سواء أكان بفكره أم بجسمه، فتنة لا تقاوم على النساء كما على الرجال. والإنجليزي يثق بنفسه

لأنه يعتقد أنه مواطن في أفضل بلدان العالم مدنية: فهو بصفته إنجليزياً يعرف دائماً ما يجب أن يفعل وبوصفه إنجليزياً يعرف أن كل ما يقوم به إنما هو خير ما يُعمل دون نقاش. والإيطالي يثق بنفسه لأن طبيعته الاهتزازية تجعله ينسى نفسه والآخرين معه. أما الروسي فإنه يثق بنفسه لأنه لا يعرف شيئاً ولا يريد أن يعرف شيئاً ولأنه لا يؤمن بأنه يمكن أن يعرف أي شيء كان. إن ادعاء الألماني أكثره عناد لأنه يتصور أنه يعرف الحقيقة، وبعبارة أخرى العلم الذي صنعه هو نفسه والذي يعتبره بمثابة الحقيقة المطلقة.

هكذا إذن كانت دون شك عقلية پفويل. كان يملك علماً، أعني نظرية الحركة المنحرفة تلك التي استلهمها من دراسته لحروب فريدريك[1] الأكبر. وتبعاً لذلك، فإن الحملات التي جاءت بعدها، ليست في نظره إلا سلسلة من الالتحامات البربرية الفارغة، ارتكبت أخطاء كثيرة من جانب ومن آخر حتى أصبحت تلك الحروب لا تستحق اسم الحروب ولما كانت لا تتفق مع نظريته، فإنه لم يكن يعتبرها جديرة بأن تُدرس.

وفي عام ١٨٠٦، كان واحداً من واضعي الخطة التي أفضت إلى إيينا وأويرستات. لكن هذه الهزائم لم تبرهن له قط على خطأ نظريته. على العكس، فإن المخالفات التي حدثت لهذه النظرية كانت في نظره الأسباب الوحيدة للهزيمة ولقد قرر بلهجة التهكم الخاصة به قائلاً: «لقد تنبأت تماماً من قبل أن كل شيء سيذهب إلى الشيطان!» كان پفويل واحداً من أولئك النظريين شديدي الولع بنظرياتهم لدرجة ينسون معها الغاية وبالتالي التطبيق العملي: كان يحتقر كل ما هو تطبيقي لشدة حبه بالنظرية. بل إنه كان يبتهج للفشل لأن الفشل الناجم عن خرق للنظرية في تطبيقها لا يبرهن له إلا على صحة أفكاره.

---

(١) ملك بروسيا، كان محارباً شهيراً وإدارياً لامعاً. كتب مذكراته بالفرنسية واجتذب المفكر ڤولتير ولفيفاً من أعلام الفكر، توفي عام ١٧٨٦. (المترجم).

ولقد نطق بالكلمات القليلة التي تبادلها مع تشيرنيشيف والأمير أندريه حول الحملة الراهنة، بلهجة الرجل الذي يعرف مسبقاً أن كل شيء سيكون سيئاً وأنه على أي حال لا يشعر بأي أسف تجاه ذلك. ولقد كانت الخصلات المتمردة في مؤخرة رأسه وصدغيه المصقولين بعجلة تدل ببلاغة على هذه الطريقة بالنظر إلى الأمور.

ولم يكد يدخل القاعة الأخرى، حتى ارتفعت صيحات صوته الخفيض الجهم.

الفصل الحادي عشر

بالكاد غادر الأمير أندريه بنظره پفويل حتى دخل الكونت بينيغسن مندفعاً وأسرع إلى المكتب بعد أن حيا پولكونسكي بانحناءة من رأسه وأعطى باختصار تعليماته إلى مساعده العسكري. وكان الأمبراطور يتبعه ملازماً إذ كان متعجلاً اتخاذ بعض الاستعدادات قبل أن يستقبله. خرج تشيرنيشيڤ والأمير أندريه على المرقاة: ترجل الأمبراطور عن جواده ظاهر الإعياء، وأمال رأسه إلى اليسار، وأصغى بإذن ساهمة إلى المواضيع الحادة التي كان المركيز پولوكشي يبحثها. تقدم الأمبراطور بضع خطوات إلى الأمام ظاهر الرغبة في قطع الحديث لكن الإيطالي محمرّ الوجه، شديد الانفعال، اجتاز وراءه المرقاة متناسياً آداب اللياقة. وبينما كان الأمبراطور يحدق إلى پولكونسكي الذي بقي في وقفة الاحترام، تابع پولوكشي بشدة تقرب من الجنون:

ـ أما فيما يختص بذلك الذي أشار بمعسكر دريسا، فإنني يا مولاي لا أجد له أفضل من الاختيار بين البيت الأصفر ـ وهو الاسم الذي يطلق في روسيا على مأوى العجزة الذي كان يُطلى بهذا اللون، والمشنقة.

قال الأمبراطور لـپولكونسكي برفق وقد عرفه أخيراً دون أن يبدو عليه أنه مصغ إلى منظوم قول الإيطالي: مسرور برؤيتك. امض إلى الغرفة التي يجتمع فيها هؤلاء السادة وانتظرني هناك.

دخل ألكسندر إلى المكتب فتبعه الأمير پيار ميخائيلوڤيتش ڤولكونسكي

والبارون ستين ثم أغلق الباب. دخل الأمير أندريه مع پولوكشي الذي عرفه من قبل في تركيا، إلى القاعة التي عقد فيها الاجتماع تبعاً لإذن الأمبراطور.

كان الأمير ڤولكونسكي حينذاك يشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب لدى الأمبراطور بصورة غير رسمية. خرج من المكتب مزوداً خرائط نشرها على الطاولة في القاعة وعرض على المجتمعين المسائل التي يرغب في أخذ رأيهم حولها. لقد تلقوا خلال الليل النبأ الذي ثبت فيما بعد أنه غير صحيح، والذي يقول إن الفرنسيين عازمون على الالتفاف بعيداً عن معسكر دريسا.

بدأ الجنرال أرمفليت الكلام وتقدم بغية تجنب متاعب الساعة، بعرض ما كان منتظراً، لا يبرره إلا رغبته في أن يظهر أنه هو الآخر قادر على إبداء الرأي فحسب. وتبعاً لقوله، كان على الجيش أن يحتل مركزاً جديداً متنحياً عن طريق پيترسبورغ وموسكو وأن ينتظر هجوم العدو. وكان يرى أن أرمفيلت قد هيّأ هذه الخطة منذ مدة طويلة وأنها على أية حال، لم تكن عن المسائل المطروحة وأنه انتهز هذه الفرصة ليتعرّف إلى خطته فحسب. ولقد كانت الخطة واحدة مع تلك الوسائل التي لا تحصى التي يمكن أن تكون نافعة كأية فكرة أخرى بالنسبة إلى أي كان على أي علم بالطابع الذي كانت تلك الحرب تتخذه. ولقد حاربها بعضهم ودافع عنها البعض الآخر.

ولقد انتقد الزعيم الشاب تول بقساوة مشروع الجنرال السويدي وأخرج من جيبه مخطوطاً وسأل الإذن له بتلاوته. كان تول يعرض في مذكرته شديدة الإسهاب تلك، خطة جديدة للحرب تناقض تماماً المشروع الذي تقدم به أرمفيلت كما تناقض خطة پفويل. فاستبعدها پولوكشي بدوره وأوصى بالهجوم الذي يمكنه وحده إخراجنا من التردد ومن هذا الشرك الذي هو معسكر دريسا حسب زعمه. وفي تلك الأثناء كان پفويل وترجمانه لدى البلاط ڤولزوغن لا ينبسان بكلمة. استدار پفويل الذي كان ينخر باشمئزاز معرباً بذلك عن ترفعه

عن مناقشة مثل هذه الأضغاث. ولما دعاه الأمير ڤولكونسكي الذي يدير المناقشات إلى إبداء وجهة نظره، اكتفى بالقول: ولماذا أسأل؟ إن الجنرال أرمفيلت يشير عليكم بوضعية رائعة مع مؤخرات عارية. ثم لديكم الاختيار بين الهجوم الذي يقدمه هذا السيد الإيطالي وهو جيد أو الانسحاب وهذا رائع أيضاً. لماذا تسألني رأيي؟ إنك تعرف كل شيء أفضل مني.

نبهه پولكونسكي وهو متجهم أنه إنما يسأله باسم الأمبراطور وحينئذ وقف پفويل وأعلن وهو يثور فجأة: لقد أفسد كل شيء، لقد خُلط كل شيء. كانوا جميعاً يريدون معرفة أكثر مما أعرف والآن يسألونني رأيي. كيف نصلح الأخطاء؟ ليس هناك ما يصلح. يجب تطبيق المبادئ التي حددتها بكل دقة.

وختم كلامه وهو يضرب الطاولة بأصابعه بارزة العظام: صعوبة الموقف؟ عبث أطفال، ترهات.

وجذب الخريطة إليه وأكد وهو يربت عليها بيده الضامرة أن أي عارض لا يمكن أن يضعف قوة معسكر دريسا: لقد درس كل شيء. فإذا بدأ العدو كما يزعمون بحركة التفاف، فإنه سيباد دون أدنى شك.

طرح عليه پولوكشي الذي كان يجهل الألمانية بضعة أسئلة بالفرنسية. فهب ڤولزوغن لنجدة سيده الذي يتكلم بصعوبة وترجم تفسيراته، ولقد كان يجد صعوبة كبيرة في متابعته لأن پفويل كان يؤيد بطلاقة أن خطته محيطة بكل شيء إطلاقاً، بمثل الإحاطة بما سيقع. فإذا كانوا الآن يصطدمون بأشياء لم تكن في الحسبان، فإن الخطأ في ذلك يقع على الفجوات التي وقعت في تنفيذ الخطة المذكورة. وكان يشفع بيانه هذا بضحكة ساخرة واستخف بالاستمرار فيه حتى النهاية مثله في ذلك مثل عالم الرياضيات الذي يكف عن الإتيان ببراهين لدعم مسألة أنجز حلها. فاستمر ڤولزوغن يشرح بالفرنسية أفكار پفويل بدلاً منه. وكان من حين إلى آخر يستنجد به بعبارة: «أليس كذلك

يا صاحب السعادة؟». لكن پفويل كان يرد عليه بلهجة غاضبة أشبه بالرجل الذي يطلق في حميا القتال النار على جماعته: بالطبع نعم. أية فائدة من هذه الشروح؟

ودحض پولوكشي وميشو معاً أقوال ڤولزوغن بالفرنسية. وأرمفيت يخاطب پفويل بالألمانية وتول يشرح كل شيء بالروسية لـڤولكونسكي. أما الأمير أندريه، فكان يصغي ويلاحظ بصمت.

كان ميله منصرفاً إلى پفويل. كان هذا الرجل سريع الغضب، ذو اللهجة الحاسمة، الواثق بنفسه لدرجة الجنون، الوحيد بين كل هؤلاء المستشارين الذي لا يرغب لنفسه شيئاً ولا يحقد على أحد. لم يكن يريد إلا شيئاً واحداً: تنفيذ خطته الموضوعة وفقاً لنظريته التي اقتضاه إنضاجها سنوات من الدراسة. ولا شك أنه كان مضحكاً وأن ابتسامته المستهزئة منفرة. لكن تعلقه التعصبي بآرائه كان يوحي باحترام لا إرادي. بالإضافة إلى أن كل الأبحاث، باستثناء أبحاثه التي دارت خلال هذا الاجتماع، كانت ذات طابع مشترك لم يكن ظاهراً إبان المجلس الحربي عام ١٨٠٥: لقد كانت عبقرية ناپليون تحدث في هؤلاء الفنيين رعباً مخيفاً بدون شك ولكنه يؤثر في أتفه دليل.

ذلك الرجل الذي لم يكن ثمة شيء مستحيلاً في عرفه، كانوا يتوقعون انبعاثه من كل الجهات معاً ويستعملون اسمه المهيب ليحاربوا بعضهم بعضاً. ما عدا پفويل الذي كان ينعته بالبربري لا أكثر ولا أقل من كل أعداء نظريته. وكان احترام الأمير أندريه يحمل في طياته على أية حال شيئاً من العطف. لقد كان من السهل تبعاً للهجة أفراد البطانة تجاه پفويل وتبعاً لما سمح پولوكشي لنفسه أن يقوله للأمبراطور وبصورة خاصة، تبعاً لاحتداد محاضراته الشخصية المكفهرة، أن يعرف المرء أنهم جميعاً عالمون بقرب سقوط اعتبار پفويل الذي

لم يكن نفسه يشك فيه. وعلى الرغم من ثقته الرائعة وسخريته اللاذعة ماني، فإن ذلك الرجل ذا الشعر الأملس على الصدغين والخصلات الثائرة على مؤخرة الرأس كان يبدو جديراً بالشفقة. ورغم إخفائه عواطفه وراء مظهره المستخف، فإنه كان يرى بوضوح أنه في يأس من رؤيته الفرصة الوحيدة التي تمكنه من اختبار نظريته على مدى واسع وتفجير صحتها في وجه العالم كله.

استمر النقاش طويلاً حتى تجاوز الحد إلى الصيحات والمس بالأشخاص. ولكن كلما طالت المناقشات ضعف الأمل في الخروج بنتيجة عملية. وعندما سمع الأمير أندريه بلغات مختلفة وبالالتجاء إلى الصياح، كل هذا العدد من الآراء المتناقضة والمشاريع المعاكسة تدعم من قبل أصحابها، لم يصدق أذنيه. لقد حدّث نفسه مراراً خلال سنوات خدمته وبحوثه الطويلة حول مهنة السلاح بأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد علم للحرب وأن عبارة «عبقرية عسكرية» ليست بالتالي إلا عديمة المعنى. فإذا به الآن يجد في المناقشات الراهنة تأييداً ساطعاً لوجهة نظره تلك. «كيف يمكن التحدث عن نظرية وعلم في المواضيع التي لا يمكن تحديد الشروط والاتفاقات فيها والتي تكون القوات العاملة فيه أقل تحديداً أيضاً؟ لم يستطع أحد أبداً ولن يستطيع قط معرفة الوضع الذي سيكون عليه جيشنا أو جيش العدو في غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة وقيمة هذا الفوج أو ذاك وإنه بدلاً من جبان في الصفوف الأولى يلوذ بالفرار إثر صيحة: «لقد قُطعنا»! يقف فتى مرح وباسل يصيح: «هورا»!

إن فرقة قوامها خمسة آلاف رجل تعادل ثلاثين ألفاً كما وقع في شوبنغراين. وفي المقابل، يمكن أن ينهزم خمسون ألف رجل أمام ثمانية آلاف كما وقع في أوسترليتز. هل هناك علم ممكن في مادة لا يمكن، ككل

شيء في الحياة العامة، أن يُتكهن بشيء مسبقاً، مادة يتوقف كل شيء فيها على ظروف لا عدّ لها ولا تظهر قيمتها إلا في دقيقة واحدة لا يعرف أحد متى تحين. إن أرمفيلت يزعم أن جيشنا قد شطر وپولوكشي على العكس، يؤكد أننا وضعنا الجيش الفرنسي بين نارين. وميشو يرى معسكر دريسا خطراً لأن النهر وراءه وپفويل يرى خلافاً لذلك أن النهر ضمانه للأمان. إن تول يقترح خطة وأرمفيلت أخرى وكلها رديئة وجيدة معاً لأن مزايا هذه أو تلك من الخطط لا يمكن أن تظهر إلا في الساعة التي يتم فيها الحدث. فكيف يتأتى أن يزعم كل هؤلاء بأرجحية العبقرية العسكرية. هل هناك من عبقرية في معرفة الوقت المناسب لتزويد الجيش «بالبقسماط» وإرساله هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار؟ كلا. لكن العسكريين متشحون بالسلطة، والجمهور الجبان يمتدح المتنفذين الأقوياء عازياً إليهم العبقرية خطأ.

إن أفضل الجنرالات الذين عرفتهم بدوا لي أبعد ما يكونون عن الرجال المتفوقين، قليلي الذكاء أو ساهمين. وأولهم پاغراسيون الذي يعتبره ناپليون مع ذلك أكثر خصومه موهبة. وناپليون نفسه! إنني أذكر هيئته المحدودة على ساحة القتال في أوسترليتز. ليس الرئيس الجيد بحاجة إلى عبقرية أو إلى صفات خاصة بل على العكس، يجب أن يكون محروماً من أسمى خصائل الطبيعة البشرية، الحب، الشعر، الحنان والشك الفلسفي. يجب أن يكون محدوداً، قانعاً بأهمية تصرفاته وإلا، فإنه سيفقد الصبر «ولن يكون قائد جيش باسلاً إلا لقاء الثمن. ولكن، ليصنه الله من أن يتظاهر بالإنسانية أو أن يود أحداً أو يشفق على أحد، أن يفكر في ما هو عادل وما هو جائر! إن من الواضح أن نظرية العبقريات قد زُودت في كل حين من قبل هؤلاء الرجال لأنهم يمثلون القوة. فكسب معركة أو خسارتها يتوقف ليس عليهم، بل على الجندي الذي

يصرخ في الصف: «لقد ضعنا»! أو الذي يصيح: «هورا»! نعم، في الصف، وفي الصف وحده يمكن أن يخدم المرء وهو قانع بأنه مفيد».

وهكذا كان الأمير أندريه يفكر وهو يصغي إلى النقاش بأذن شاردة. وأخيراً سمع پولوكشي يناديه والمجتمعون كلهم ينسحبون.

وخلال العرض، في اليوم التالي، سأل الأمبراطور پولكونسكي أين يرغب في الخدمة فضاع هذا إلى الأبد في نظر البلاط حينما لم يطلب إلى جلالته أن يلحقه بخدمته بل سأله الإذن بالخدمة في صفوف الجيش.

الفصل الثاني عشر

تلقى روستوف رسالة من عائلته، قبل بدء الحملة، أعلنوا له فيها باقتضاب مرض أخته وفسخ خطبتها مع الأمير أندريه مفسرين ذلك برفض ناتاشا الاستمرار ويرجونه مرة أخرى أن يقدم استقالته وأن يعود إليهم. ودون أن يفكر في الانسحاب من الجيش، كتب نيكولا لذويه أن مرض ناتاشا وزواجها الذي لم يتم يؤلمانه كثيراً وأنه سيعمل كل ما في وسعه للنزول عند رغبتهم. وفي رسالة خاصة إلى سونيا شرح سلوكه كما يلي:

«صديقة روحي المعبودة، ليس إلا الشرف ما يمنعني من العودة إلى قربك. ففي اللحظة التي فتحت الحملة، أعتقد أنني سأخسر شرفي ليس أمام زملائي فحسب بل كذلك تجاه نفسي إذ فضلت سعادتي على واجبي، وحبي على وطني. لكن هذه ستكون آخر فراق لنا. كوني على ثقة أن ما إن تنتهي الحرب وأبقى أنا في هذا العالم وتبقين أنت على حبي، حتى أترك كل شيء وأطير إليكِ لأضمّك إلى الأبد إلى قلبي المضطرم».

وفي الواقع إن البدء بالحملة وحده هو الذي استوقف روستوف ومنعه من العودة للزواج بسونيا كما وعد. لقد كان خريف «أوترادنواي» ورحلات الصيد فيه والشتاء بأعياد الميلاد وحب سونيا، كل هذه الأمور كانت قد فتحت له أفقاً جديداً من المباهج الريفية الهادئة يجذبه بقوة لا تقاوم. كان يقول في سرّه: «نعم، زوجة ممتازة وأطفال، فصيلة من كلاب العدو عشرة أو اثنا عشر زوجاً من الكلاب السلوقية الباسلة وتحسين مردود الأرض والزيارات بين

الجيران ومركز ما يساعدني على اختيار أقراني، هذا هو نوع الحياة الذي يروقني». لكن الحرب وقد نشبت، أرغمته على البقاء في الكتيبة وبفضل عقليته السهلة، فإنه لم يكن أقل تقديراً لهذا النوع من الحياة التي كان يعرف كيف يستخلص منها كل ما يمكن من مباهج.

استقبل روستوف، عند عودته إلى الكتيبة، استقبالاً ودياً من قبل زملائه وكلف الذهاب إلى روسيا الصغيرة حيث عاد منها بجياد ممتازة كانت مبعث غبطته وسبباً في تهنئة رؤسائه له. ولقد رقي إلى رتبة رئيس أثناء غيابه ولما أعدت الكتيبة للحرب وزيدت رواتبها، ألحقوه بكوكبته السابقة.

وفي بداية الحرب، نقلت الكتيبة، إلى بولونيا حيث التحق ضباط جدد ورجال جدد وجياد وسادت فيها تلك الحيوية المرحة التي تسبق عادة الشروع في حملة. ولقد استسلم روستوف بكليته وهو العارف بالمزايا التي يوفرها له مركزه، لملاذه ـ واجبات الخدمة وإن كان عارفاً أن عليه أن يتخلى عنها إن آجلاً وإنْ عاجلاً.

أخلت الوحدات فيلنا لأسباب مختلفة سياسية وفنية. وكانت كل خطوة إلى الوراء تثير في هيئة الأركان العامة مجموعة معقدة من الأهواء والترتيبات والدسائس. ولكن، بالنسبة إلى فرسان باڤلوغراد، كان ذلك التقهقر في أفضل مواسم السنة مع الزاد الكافي، مجرد رحلة مرح. فكان بمقدور القيادة العامة أن تفقد شجاعتها وتسيء استخدام العقل وتتآمر كما يحلو لها. أما الجيش فما كان يسأل حتى إلى أين يرسل ولا سبب تراجعه. وإذا كان هناك من أسف على التقهقر فإن مرده مقتصر فقط على وجوب التخلي عن فتاة بولونية جميلة وتوديع مسكن كان شاغله قد ألف العيش فيه.

وإذا كان أحدهم يرتئي أن الأمور تسير بشكل سيئ، فإنه يجتهد للظهور

بمظهر المرح وينسى الموقف العام كله ليصرف انتباهه إلى خدمته المباشرة. كانوا في بادئ الأمر يعسكرون بمرح في ضواحي فيلنا ويرتبطون بصداقات مع أثرياء ريفيين بولونيين ويتأهبون للاستعراضات التي يشرّفها الأمبراطور ورؤساء كبار آخرون. ثم جاء الأمر بالانسحاب نحو سوينسياني وإتلاف المؤن التي لا يستطيعون نقلها. ولقد احتفظ الفرسان بذكرى سوينسياني بوصفه: «معسكر السكر» إذ إن الجيش كله عمّد هذا المعسكربهذا الاسم حيث كان للسكان كثير مما يشتكون منه من القطعات التي انتهزت فرصة الإذن لها بالتزود محلياً، فراحت تصادر إلى جانب الأرزاق، الخيول والعربات بل حتى النجد من بيوت السادة البولونيين.

وكان روستوف يذكر سوينسياني لأنه يوم وصوله إلى ذلك المكان، اضطر أن يجهز الرقيب الأول ولم ينجح في إعداد الكوكبة التي كان أفرادها سكارى كلهم بعد أن نهبوا خمسة براميل من الجعة المعتقة دون علمه. ثم تراجعوا من سوينسياني حتى دريسا ثم إلى أبعد من ذلك، ودائماً إلى الوراء باتجاه الحدود الروسية.

أتيح لكتيبة باڤلوغراد في الثالث عشر من تموز، عمل جدي لأول مرة.

نشط ليل ١٢ ـ ١٣، إعصار من تلك الأعاصير الهائلة الذي سخا بها صيف ١٨١٢ زاخراً بالمطر والبرد.

كانت كوكبتان مخيمتين في حقل شيلم داسته الجياد والماشية فأتلفته كله.

وكان المطر يهطل مدراراً، وروستوف يصحبه أحد مرؤوسيه، إيلين الشاب الذي وضعه تحت حمايته، يأوي تحت كوخ صغير جداً بني على عجل. ولقد دهمت الأمطار ضابطاً من الكتيبة كانت وجنتاه مدعومتين بشاربين لا نهاية لهما فاحتمى بالكوخ، قال:

ـ إنني خارج فوراً من الأركان يا كونت. هل علمت شيئاً عن مأثرة راييـڤسكي؟

وقص عليه بالتفصيل معركة سالتانوڤكا.

كان روستوف يشنج عنقه الذي سال المطر عليه ويدخن غليونه وهو يصغي شارداً إلى القصة ويلقي نظرة بين الحين والآخر على إيلين الشاب الجالس بالقرب منه. كان نيكولا بالنسبة إلى هذا الفتى البالغ من العمر ستة عشر عاماً والذي وصل إلى الكتيبة منذ قليل أشبه بما كان دينيسوف بالنسبة إليه قبل سبعة أعوام وكان إيلين يجتهد في الاقتداء بروستوف ويحبه كما تحب المرأة.

أخذ زدرجينسكي، الضابط ذو الشاربين الطويلين، يؤكد أن سد سالتانوڤكا أصبح بالنسبة إلى روسيا أشبه بتيرموبيل[1] بالنسبة إلى اليونان وأن الجنرال راييـڤسكي قام هناك بمأثرة جديرة بمساواتها بالمفاخر الغابرة. لقد انطلق إلى السد مع ولديه تحت نار رهيبة وألجأ الرجال إلى الهجوم. لم يدعم روستوف رواية المتحدث بأية إشارة استحسان بل يبدو وكأنه خجل مما يُروى له دون أن يسمح لنفسه على أية حال بإبداء أي اعتراض. كان يعرف من تجاربه الخاصة في أوسترليتز في عام ١٨٠٧، أن الروايات من هذا النوع كاذبة دائماً، ويعرف كذلك بفضل عمله في الحرب أن ما من شيء يقع كما يتصوره المرء أو كما يُرى بعد حدوثه، لذلك فقد نفرت نفسه من قصة زدرجينسكي بقدر ما نفرت من الرواية، هو الذي كانت عادته الكريهة أن ينحني بشاربيه اللامتناهيين على وجه محدثه. أضف إلى ذلك أنه كان يحتل فراغاً كبيراً في ذلك الكوخ

---

(١) ممرّ مشهور في اليونان بين جبل أنوبيا وخليج مالياك. هناك كمن ليونيداس محاولًا إيقاف جيش كسيركسيس. لكن إيفيالت الخائن دلّ الفرس على ممرّ يسمح بالالتفاف حول جبل أنوبيا، فكان لا بدّ لليونيداس والإسبارطيين من الموت. (المترجم).

الصغير. نظر إليه روستوف دون أن ينطق بكلمة. قال في سرّه: «أولاً، لا بد وأنه حدث على هذا السد العتيد بلبال عنيف. حتى ولو تقدم رايـيـڤسكي مع ولديه، فإن هذه الحركة لم تستطع التأثير إلا في العشرة أو الاثني عشر رجلاً الذين كانوا يحيطون بهم. أما الآخرون فلم يتمكنوا من رؤية مع من ذهب رايـيـڤسكي إلى الهجوم. بل حتى الذين شاهدوه لم يتأثروا قط لأنهم كانوا يفكرون في جلودهم أكثر من تفكيرهم في عواطف هذا الجنرال الأبوية! أضف إلى ذلك أن مصير البلاد لا يتوقف إطلاقاً على هذا السد كما كان الحال بالنسبة إلى «تيرموبيل» إذا صدقنا رواية المؤرخين. فأية جدوى من هذه التضحية إذن؟ ثم أية فكرة هذه أن يقود ولديه إلى المعركة؟ إنني لن أعرض على هذا النحو لا أخي پيتيا ولا حتى إيلين الذي لا تربطه بي أية صلة والذي أعتبره فتى باسلاً فحسب، بل لا بد لي وأن أضعه في منجاة من الخطر». ولقد حرص روستوف على أية حال على أن لا يفصح عن آرائه الشخصية: إن هذه القصة تهدف إلى تعظيم جيشنا فيجب إذن أن نتظاهر بتصديقها. كان يعرف هذه الحقيقة منذ زمن طويل.

أخيراً قال إيلين الذي لم يغب عنه استياء روستوف: لا يمكننا أن نصمد أكثر من ذلك. إن جواربي وقميصي وكل ثيابي مبللة سوف أبحث عن ملجأ في مكان آخر. أعتقد أن المطر قد خف.

خرج إيلين بينما تابع زدرجينسكي طريقه.

وبعد خمس دقائق، رجع إيلين راكضاً وهو يجري في الوحل:

ـ هورا! روستوف، تعال بسرعة! لقد وجدت، أن هناك نزلاً على بعد مائتي خطوة من هنا والرفاق فيه الآن وكذلك ماري هنريخوڤنا. إننا نستطيع أقله أن نجفف ثيابنا.

كانت ماري هنريخوڤنا ألمانية جميلة شابة تزوجها طبيب الكوكبة في

بولونيا وكان الطبيب يصحب زوجته أينما ذهب بسبب حاله المالية بدون شك أو لعله لم يكن يريد الانفصال عن زوجته في الفترات الأولى التي تلت زواجهما. ولقد كانت غيرة الماجور تتيح للفرسان مادة غزيرة للمزاح.

ارتدى روستوف معطفه وصاح مهيباً بلاڤروشكا أن يتبعه مع بعض الأمتعة ثم ذهب مع إيلين يروغ هنا من الطين ويقع هناك في برك ماء تحت المطر الذي بدأ يهدأ في ذلك الليل الحالك الذي تخططه ومضات برق بعيد. كانا يتحادثان بينهما:

ـ روستوف أين أنت؟

ـ هنا. أرأيت هذا البرق!

الفصل الثالث عشر

كانت ماري هنريخوڤنا، وهي ألمانية شقراء صغيرة وبدينة بصدار وقلنسوة نوم جالسة في مكان الشرف على مقعد عريض وزوجها نائم وراءها. وكان أربعة أو خمسة ضباط جالسين في المنزل وعربة الطبيب متوقفة أمام بابه؛ استقبلت روستوف وإيلين لدى دخولهما ضحكات وهتافات مرحة.

قال روستوف ضاحكاً: آه، لا يبدو عليكم أنكم متذمرون!

ـ ولماذا لم تأت قبل الآن؟

ـ كم أنتما مبتلان! ميازيب حقيقية! لا تغرقا أقله قاعتنا!

ـ وعلى الخصوص لا توسخا ألبسة ماري هنريخوڤنا.

راح روستوف وإيلين يحاولان أن يكتشفا زاوية صغيرة ليبدلا فيها ثيابهما دون أن يخدشا عذار السيدة. صحيح أنه كانت هناك خلوة صغيرة وراء الحاجز. لكن الضباط الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق فيها على ضوء شمعة وضعوها على صندوق فارغ ويشغلون الفراغ كله رفضوا التخلي عن أماكنهم. لحسن الحظ، وافقت ماري هنريخوڤنا على أن تتنازل لهما عن ثوب من أثوابها أقاماه حاجزاً وراحا وراءه بمساعدة لاڤروشكا الذي حمل معه اللوازم الكاملة يبدلان ثيابهما المبتلة بأخرى جافة.

أشعلوا النار في المدفأة نصف المدمرة وركزوا لوحاً من الخشب على سرجين وغطوه بلباد ثم استحضروا «سماروراً» صغيراً ونصف زجاجة روم، وبعد أن طلبوا من ماري هنريخوڤنا أن تقوم بدور ربة البيت، التفوا حولها. قدم

لها أحدهم منديلاً نظيفاً لتمسح به يديها الصغيرتين وألقى آخر على قدميها سترة عسكرية ليقيهما من الرطوبة وعلق هذا معطفه على النافذة كيلا يشعر رفاقه بالريح وراح ذاك يطرد الذباب عن وجه الزوج خشية أن يستفيق.

قالت ماري هنريخوڤنا وهي تجود بابتسامة مرحة: دعوه هادئاً. انظروا كيف ينام مستغرقاً بعد ليلة بيضاء.

فأجاب الضابط: ولكن يا ماري هنريخوڤنا. يجب علي أن أُعنى بسيدي الطبيب. لعله بذلك سيشفق علي عندما يبترون لي ذراعاً أو ساقاً.

لا يوجد إلا ثلاثة أقداح. وكان الماء الكدر يمنعهم من معرفة ما إذا كان الشاي قوياً جداً أم خفيفاً جداً. ولم يكن السمارو ليتسع لأكثر من ستة أقداح. مع ذلك، كانت المتعة أعم أن يتلقى أحدهم كأسه دورياً وتبعاً للقدم من يدي ماري هنريخوڤنا ذواتي الأظفار القصيرة غير الظاهرة. لقد كان الضباط كلهم ذلك المساء عاشقين للمرأة الشابة دون أي شك. ولقد ألقى أولئك الذين كانوا يلعبون الورق وراء الحاجز بأوراقهم وأسرعوا يلتفون حول السماور تدفعهم كذلك الرغبة في مغازلتها. وعلى الرغم من الخوف الذي كانت تشعر به لأتفه حركة من زوجها النائم وراءها، فإن ماري هنريخوڤنا كانت مشرقة الوجه لم تحسن إخفاءه وهي ترى نفسها محاطة بهذه الشبيبة الأنيسة.

وإن كان السكّر متوافراً، فإنهم ما كانوا يتوصلون إلى إذابته بسرعة لأنه لم يكن هناك إلا ملعقة واحدة. لذلك فقد تقرر أن تحرك بنفسها دورياً السكّر في قدح كل منهم. ولما استحوذ روستوف على قدحه، اكتفى بأن سكب فيه قليلاً من الروم وقدمه إلى ماري هنريخوڤنا لتحرك الشراب.

قالت له دون أن تتوقف عن الابتسام وكأن كل ما كانت تقوله ويقوله الآخرون يبعث على التسلية بل يحمل معنى مزدوجاً:

ـ ولكن، أليس لديك سكر؟

ـ أنا لا أبالي بالسكر! إن ما أريده هو أن أراك تحركين الشاي في قدحي بيدك الجميلة.

أذعنت ماري هنريخوڤنا وراحت تبحث عن الملعقة التي استحوذ عليها بعضهم.

قال روستوف: حركيه بإصبعك يا ماري هنريخوڤنا. سيكون ذلك أفضل.

قالت وهي تحمرّ من الغبطة: كم هو ساخن!

تناول إيليا دلو الماء وصب فيه قطرات من الروم ثم اقترب من ماري هنريخوڤنا. فاقترعوا لمعرفة من سيكون في صفها. واقترح روستوف كقاعدة للعب أن من يصبح «ملكاً» يصر من حقه تقبيل يد ماري هنريخوڤنا.أما «الخادم» فعليه على العكس أن يعدّ «سماوراً» جديداً للطبيب.

سأل إيلين: وإذا خرجت ماري هنريخوڤنا »ملك»؟

ـ إنها حتى الآن ملكة! وأومرها قوانين. بالكاد بدأ اللعب حتى انتصب وراء ماري هنريخوڤنا رأس الطبيب الأشعث. لم يكن منذ بعض الوقت نائماً بل كان يصيخ السمع إلى هذه الأحاديث المرحة. وكان واضحاً على وجهه الشرس أنه لا يراها وديعة ولا مرحة، ودون أن يبادل أحداً التحية، سأل وهو يحك رأسه أن يفسح له في المجال للخروج. وما إن خرج، حتى انطلق الجميع بضحكة صاخبة في حين كانت ماري محمرّة الوجه لدرجة أقرب إلى البكاء، الأمر الذي أعطاها جاذبية أقوى في نظر السادة الضباط. وعاد الماجور بعد قليل وقال لزوجته التي غاضت ابتسامتها وباتت تنظر إليه بقلق وكأنها تنتظر صدور حكم عليها، أن المطر قد توقف وأنه يجب أن تذهب إلى العربة لتنام وإلا فسوف ينهبون كل الأمتعة التي فيها.

قال روستوف: لا تقلق يا دكتور، سوف أرسل تابعاً إلى العربة... أو تابعين إذا شئت!

وقال إيلين: سأقوم بحراستها بنفسي!

غمغم الطبيب وهو يجلس بقرب زوجته بانتظار نتيجة الشوط وهو عابس: ذلك أنكم كما ترون أيها السادة، نمتم نوماً هنيئاً. أما أنا، فإنني لم يغمض جفني منذ ليلتين.

لقد حمل وجه الطبيب المكفهر الذي كان يقبل باتجاه زوجته المرح العام إلى الأوج حتى أن بعضهم ما كانوا يستطيعون التوقف عن القهقهة التي كانوا يتذرعون لإطلاقها بشتى المبررات. ولما انسحب الزوجان وأقاما في العربة، استلقى الضباط على الأرض والتفوا بمعاطفهم المبللة.

لكنهم لبثوا وقتاً طويلاً لا ينامون، كانوا يذكرون وجه الطبيب الهلع ومرح زوجته ويجرون حيناً آخر إلى العتبة ويقصون على بعضهم ما يجري في العربة. حاول روستوف مراراً، وقد سحب معطفه إلى ما فوق رأسه، أن ينام. لكنه كان ينصرف إلى احتداد ما فيشترك مجدداً في الحوار الذي كانت تقطعه أجمل الضحكات المرحة الطفولية التي لا سبب لها ولا مبرر.

الفصل الرابع عشر

حوالى الساعة الثالثة صباحاً، لم يكن أحد قد نام بعد، عندما وصل الرقيب يحمل الأمر بالانثناء إلى أوسترفنيا.

هيّأ الضباط أمتعتهم وهم يضحكون ويثرثرون وأشعلوا السماور ذا الماء العكر من جديد. لكن روستوف ذهب يلتحق بكوكبته دون أن ينتظر إعداد الشاي. كان الصباح يبزغ والمطر منقطعاً والغيوم تتبدد والبرد والرطوبة يتسللان خلال الألبسة التي لم تجف بعد. وبخروجهما من المنزل، ألقى روستوف وإيلين في ضياء الفجر الباهت نظرة على العربة التي يلتمع غطاؤها بالماء فكانت ساقا الطبيب الطويلتان تبرزان من تحت المئزر الجلدي الذي في مقدمة العربة. وكانت ترى في الداخل قلنسوة المرأة الشابة ويسمع تنفس بعضهم وهو نائم.

قال روستوف لإيلين: إنها حقاً لطيفة جداً.

فأجاب إيلين بإيمان سنواته الست عشرة: رائعة!

كانت الكوكبة، بعد نصف ساعة، منتظمة على الطريق. وعند الإيعاز: «إلى السرج» رسم الجنود إشارة الصليب على صدورهم واعتلوا جيادهم. واتخذ روستوف مكانه في المقدمة وصاح: «إلى الأمام، سر»! وعندئذ اهتزت صفوف الفرسان بين قرقعة السيوف ووقع الحوافر في الوحول وهمس المحادثات المكتومة، وبدأت تتقدم أربعة فأربعة على طول الطريق المحاط من الجانبين بأشجار السندر، تتبع وسط فرقة مشاة «وبطارية» مدفعية.

وتناثرت الغيوم التي يصطبغ لونها البنفسجي الأدكن بحمرة المشرق، بفعل دفعة الريح العنيفة والضياء يزداد امتداداً فبدأت الأعشاب الصغيرة المجعدة التي تنبت عادة على طرق المرور والمطر لا يزال يبللها، تتميز للعيان وأشجار السندر تهتزّ تحت النسمة فتتساقط من أغصانها المتدلية اللآلئ الفضية. وأصبحت وجوه الفرسان تميز بعضها من بعض أكثر فأكثر، وكان روستوف يرافقه إيلين الذي لا يتركه، يتبع الجانب المنخفض من الطريق بين صفين من السندر.

في الريف، كان روستوف يسمح لنفسه أن يتمتع بركوب جواد ليس على الطريقة النظامية بل على طريقة فرسان القوقاز. ولقد استحضر لنفسه حديثاً بوصفه هاوياً وخبيراً، فرساً أشقر من «الدون» ذا عرف أبيض، فكان حيواناً قوياً ضخماً لا يسمح للجياد الأخرى أن تسبقه، كان يمتطيه بمتعة حقيقية. وكان يفكر في جواده وفي الصباح البازغ وزوجة الطبيب. لكنه لم يفكر مرة واحدة في الخطر القريب.

كان روستوف يشعر بالخوف قبل القتال من قبل. وإذا لم يعد الآن يشعر بأي ذعر فليس مرده إلى أنه تعود القتال لأن المرء لا يمكن أن يألف الخطر، ولكن لأنه أصبح يستطيع السيطرة على نفسه. لقد ألف في مثل هذه الحالات أن يثير مختلف الأفكار باستثناء الفكرة التي كان يجب أن تثير انتباهه قبل كل شيء وهي اقتراب الخطر. وفي الأيام السالفة، رغم مجهوداته، رغم اتهامه نفسه بالنذالة والجبن، فإنه لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه. لكن هذه السيطرة أضحت مع السنين طبيعية جداً.

كان إذن يسير إلى جانب إيلين بين خطي السندر، يعري الأغصان التي تقع تحت امتداد يده ويمس بطن جواده بمهارة أو يمد غليونه المطفأ دون

أن يلتفت إلى الفارس الذي يتبعه، ووجهه هادئ القسمات خلي البال وكأنه في نزهة. لقد كان النظر إلى وجه إيلين المربد الذي يكثر الكلام، يؤلمه. كان يعرف بالتجربة هذا الانتظار المؤسي للموت الذي يقلق الفتى ويعرف أيضاً أن الزمن وحده يستطيع علاجه.

وبالكاد ظهرت الشمس بين طائفتين من السحب حتى هدأت الريح وكأنها خجلت أن تفسد ذلك الصباح البديع الذي أعقب تلك الليلة العاصفة. وانهمرت بعض قطرات المطر كذلك ولكن عمودياً ثم هدأ كل شيء. وكانت الشمس قد أشرقت تماماً، ظهرت عند الأفق لتختفي من فورها وراء عصابة طويلة من السحب التي كانت تحجبها. وبعد دقائق قليلة، عادت إلى الظهور فوق العصابة أكثر سطوعاً فجوفت جانبها. وراح كل شيء يلتمع. ودوى المدفع فجأة على البعد وكأنه يجيب عن هذا السيل من الضياء.

لم يستطع روستوف أن يقدر المسافة التي انطلقت منها المدافع عندما وصل من جانب ڤيتيبسك، مساعد عسكري يجري على جواده، تابع للكونت أوسترمان تولستوي يحمل الأمر بالسير خبباً على الطريق.

تجاوزت الكوكبة قطعة المشاة وبطارية المدفعية اللتين غذتا مشيتهما بالمثل وانحدرت على أحد السفوح واجتازت قرية مهجورة ثم صعدت سفحاً آخر. وبدأ الزبد يظهر على صدور الجياد وأصبحت الوجوه شديدة الاحمرار.

أمر رئيس المفرزة من الأمام: قف! انتظم، نصف دائرة إلى اليمين، سيراً عادياً إلى الأمام. سر!

سار الفرسان على جناح القطعات الأيسر وتجمعوا وراء رماحتنا المقاومين في الخط الأول. وإلى اليمين، كانت قطعة مزدوجة من المشاة تشكل احتياطينا. وعلى الهضبة التي تعلوها، تظهر مدافعنا على خط الأفق في ذلك الهواء شديد النقاء وتحت ضياء الصباح المشرق. وإلى الأمام في

المنخفض، كانت قطعات العدو ومدافعه ترى وقد اشتبكت معها طلائعنا وتبادلت معها الطلقات النارية بحدّة.

ابتهج روستوف من أزيز الرصاص الذي لم يسمعه منذ أمد طويل وكأنه النغمات الأولى من الموسيقى: «تراب ـ تا ـ تا ـ تاب»! انفجرت الطلقات تارة إفرادية وتارة أخرى مجموعة ثم يصمت كل شيء ليسمع بعد ذلك أشبه بانفجار سلسلة من المفرقعات وضع بعضهم قدمه عليها.

بقي الفرسان في أمكنتهم ساعة كاملة ثم ارتفع قصف المدافع بدوره. ومر الكونت أوسترمان مع حاشيته وراء الكوكبة وتوقف ليتبادل بضع كلمات مع الزعيم ثم ابتعد باتجاه المدافع.

وبعد رحيله بقليل، علا صوت آمر يهيب بالرماحة: «بوضعية الهجوم! إلى الأمام»! وضاعفت فرق المشاة صفوفها لتسمح للخيالة بالمرور وراحت ومضات الرماح تتماوج والرماحة ينحدرون تاركين لجيادهم الأعنة باتجاه سفح التل حيث كان الفرسان الفرنسيون يظهرون إلى يساره.

وما إن وصل الرماحة إلى نهاية المنحدر حتى تلقى الفرسان الأمر بالصعود إلى المرتفع لتغطية بطارية المدفعية. وبينما هم ينفذون هذه الحركة، راحت بعض الرصاصات الطائشة تصفر حول آذانهم.

أثارت هذه الضجة روستوف أكثر مما حفزته الطلقات الأولى. انتصب على سرجه وراح يراقب ساحة المعركة التي كانت تتكشف ابتداء من أول المرتفع وشاركت روحه الرماحة في هجومهم. انحدر هؤلاء على الفرسان الفرنسيين إلى يسار مركزهم الأول. وبين الرماحة ذوي الثياب برتقالية اللون والخيول الشهباء وراءهم، كان يرى حشد كثيف من الفرسان الفرنسيين الزرق على خيولهم الرمادية.

الفصل الخامس عشر

كان روستوف أول من رأى بعين الصياد الثاقبة هؤلاء الفرسان الفرنسيين الزرق الذين يطاردون رماحتنا. وكان التابعون والمتبوعون يقتربون أكثر وأكثر فأصبح من الممكن رؤية هؤلاء الرجال الذين يبدون من الأعلى صغار الحجم، يتصادمون ويحركون الأذرع والسيوف.

تأمل روستوف هذا المنظر كما يتأمل رحلة صيد بالكلاب، وحدسه يقول له إنه إذا نزل في تلك اللحظة على الفرنسيين فإن هؤلاء لا يمكن أن يصمدوا ولكن كان يجب العمل بسرعة، في تلك اللحظة بالذات، وإلا فقد فات الأوان. ألقى نظرة حوله فرأى رئيس الكوكبة الذي وقف إلى جانبه لا يزحزح عينيه عن المعركة. قال له: يا أندريه سيـڤاسيتيانيتش، نستطيع أن نردهم.

ـ هذا صحيح، وستكون الضربة رائعة!

همز روستوف جواده دون أن يسمع المزيد، وانبرى إلى الكوكبة ولم يكد يأمر بالحركة حتى كان الرجال كلهم، وقد تأثروا بمثل شعوره، يندفعون وراءه. تصرف كما يتصرف في الصيد دون تفكير ولا حساب. كان يرى الفرسان الفرنسيين يهدبون قريباً منتشرين فكان واثقاً بأنهم لن يستطيعوا الثبات وبأن الفرصة يتيمة لن تعود أبداً. لقد أثاره أزيز الرصاص لدرجة، وكان جواده شديد اللهفة على الجري، حتى إنه لم يستطع الصمود. أطلق العنان للجواد وصاح بالأمر ثم عندما سمع كوكبته تهتز وراءه فوراً، انحدر بأقصى سرعة على العدو. وما إن وصلوا إلى سفح التل حتى اندفعت الجياد دون

عمد تعدو وتضاعف سرعتها كلما اقتربت من رماحتنا، والفرسان الفرنسيون على آثارهم. وكان الفرنسيون قريبين جداً، فلما رأوا الفرسان قد وصلوا، كر الذين في المقدمة على أعقابهم بينما توقف الذين في الخلف. وبمثل النشاط الذي استحوذ عليه من قبل عندما قطع الطريق على الذئب، اندفع روستوف مرخياً الأعنة لجواده «الدوني»، بين صفوف العدو المتضعضعة. وتوقف رماح وتمدد آخر على وجهه وقد فقد جواده، ليتجنب الدهس ووصل جواد دون فارسه يصطدم بالفرسان.

وكان فرسان العدو كلهم تقريباً قد هربوا فانتقى روستوف واحداً منهم ممتطياً صهوة جواد رمادي واندفع يطارده. ولما اعترضت سبيله دغلة، تخطاها جواده الثائر واثباً. وجد نفسه وهو لا يكاد يتمالك على السرج أنه بات قريباً من خصمه. وكان هذا، وهو ضابط بدون شك تبعاً لبزته، يهرب بأقصى سرعة وقد انحنى فوق جواده وراح يمطر كشحها ضرباً بعرض سيفه. وبمثل لمح البصر، جاء حصان روستوف يصطدم بملء صدره مؤخرة حصان الضابط حتى كاد يطرحه أرضاً بينما رفع روستوف سيفه دون وعي منه وضرب به الفرنسي.

خبت حماسته فوراً وسقط الضابط بفعل صدمة الجوادين والخوف أكثر مما أثرت فيه الضربة التي سببت له قطعاً جرحاً بسيطاً فوق مرفقه. وضبط روستوف جماح جواده وراح يبحث بعينه عن خصمه ليرى أي رجل على وجه الدقة ضرب وكان ضابط الفرسان الفرنسي الذي علقت إحدى ساقية بالركاب، يقفز على ساقه الأخرى ويقطب حاجبيه وينظر من الأسفل إلى الأعلى إلى الفارس الروسي مروعاً وهو يترقب دون ريب أن تصيبه منه في أية لحظة طعنة أخرى. وكان وجهه الشاحب الفتي الملطخ بالوحل، وشعره الأشقر وعيناه الزرقاوان والغمازة التي وسط ذقنه تتناسب مع مشهد عائلي

وادع أكثر مما تنسجم مع ساحة قتال. وكان روستوف لا يزال يتساءل عما يجب أن يفعل حينما صاح الضابط: «إنني أستسلم!» وراح دون أن يستطيع أن يرفع عن روستوف نظرته المروعة، يحاول تخليص ساقه من الركاب. أنقذه بعض الفرسان الذين أسرعوا وساعدوه على امتطاء الجواد. وكان فرساننا في صراع مع العدو في مواقع متعددة، وكان أحد هؤلاء، جريحاً ملطخ الوجه بالدم، يرفض تسليم حصانه، وآخر يعانق أحد فرساننا وهو راكب وراءه على جواده وثالث يمتطي جواده بمساعدة أحد فرساننا. وأسرع المشاة الفرنسيون وهم يطلقون النار لنجدة الفرسان إلى الارتداد مع أسرهم وتبعهم روستوف وهو فريسة انقباض غريب، إذ تبدى له شيء حالك معقد لم يستطع فهمه نتيجة أسره هذا الضابط الفرنسي والضربة التي وجهها إليه.

انطلق الكونت أوسترمان ـ تولستوي للقاء الفرسان واستدعى روستوف وشكره وقال له إنه سينقل تصرفه البطولي إلى مسامع الأمبراطور ويطلب له وسام صليب سان جورج. ولما استدعي روستوف، تذكر أنه هاجم دون أن يتلقى أي أمر، فتوقع زجراً مراً. لذلك فإنه في المقابل يجب أن يبدو أكثر حساسية تجاه كلمات أوسترمان المطرية والمكافأة المنتظرة. لكن ذلك الإحساس الأليم الغامض نفسه ظل يعتصر قلبه وتساءل وهو يغادر الجنرال: «هه، ما الذي يزعجني إذن؟ إيلين: كلا، إنه صحيح معافى. هل أسأت التصرف؟ كلا، إن هذا ليس السبب»! لقد كان في قرارة نفسه شيء آخر يعذبه أشبه بتبكيت الضمير. «آه! نعم، إنه هذا الضابط الفرنسي ذو الغمازة وسط ذقنه وذلك التردد الذي اعتراني عندما ارتفعت ذراعي لتضربه».

وعندما رأى روستوف قافلة الأسرى، تبعها ليرى فرنسيَّه ذا الغمازة وسط ذقنه من جديد. كان ممتطياً حصان فارس روسي وهو في بزته الغريبة، يسرح حوله نظرات قلقة. وكان جرحه في ذراعه عديم القيمة. ابتسم لروستوف

ابتسامة مغتصبة وحيّاه بيده. وبقيت وخزات ضمير روستوف وسوء حالته النفسية تلازمه.

ولاحظ أصدقاؤه وزملاؤه ذلك اليوم، واليوم التالي، أنه يلبث ساكتاً منطوياً على نفسه وإن لم يكن حزيناً أو غاضباً. لم يعد يستطيب الشراب بل راح يبحث عن الوحدة ولا يني يقلب الأمر في ذهنه على كل وجوهه.

كان روستوف دائم التفكير في مأثرته العسكرية اللامعة التي، لدهشته البالغة، عادت عليه بصليب سان جورج بل اكتسبت له صفة باسل. فكان فيها شيء لم يتوصل إلى فهمه. كان يحدث نفسه: «إنهم إذن أشد خوفاً مني! هل هذا إذن ما يسمونه بطولة؟ ثم هل حقيقة إنني فعلته من أجل وطني؟ وهذا الآخر، بغمازته وعينيه الزرقاوين، ما هو ذنبه؟ كم كان خائفاً! كان يعتقد أنني سأقتله. لماذا كنت سأقتله؟ ثم هم يعطونني صليب سان جورج. كلا، لا شك إنني لا أفهم شيئاً!».

وبينما كان روستوف يطرح على نفسه كل هذه الأسئلة، دون أن يتوصّل إلى تكوين فكرة واضحة عما كان يمضه، دارت عجلة السعادة لمصلحته كما يحدث غالباً. فقد عيّنوه رئيس كوكبة بعد عجلة أوستروڤنا وأصبحوا يعهدون إليه بالمهام التي تتطلب بسالة نادرة.

الفصل السادس عشر

ما إن عرفت الكونتيسة بمرض ناتاشا ولم تكن قد شفيت من مرضها بعد حتى انطلقت رغم ضعفها إلى موسكو مع بيتيا وكل الذين يتبعونها، واستأذنت الأسرة ماري دميتربيڤنا لتقيم نهائياً في مسكنها.

لقد اتخذ مرضها شكلاً جدياً حتى أن سلوكها وفسخ خطبتها، وهما سبب مرضها، أصبحا لحسن حظها وحظ العائلة في المرتبة الثانية. لم تكن حالتها تسمح بالتعمق حول أخطائها المسلكية: لم تعد تأكل ولا تنام وتزداد نحولاً وتسعل. وألمح الأطباء إلى أنها تتعرض لخطر حقيقي. فلم يعد بالإمكان التفكير إلا في معالجتها. وكان الرجال المختصون الذين يجيئون لزيارتها جماعات أو فرادى، يتناقشون كثيراً بالفرنسية والألمانية وأحياناً باللاتينية وينتقدون بعضهم بعضاً ويصفون العلاجات المتنوعة الخاصة بمداواة كل الأمراض التي يعرفونها ولكن ما من أحد منهم خطرت بباله الفكرة البسيطة بأن المرض الذي تشكو منه ناتاشا لم يكن بالنسبة إليهم سهل المعالجة كأي من الآلام التي ترهق الإنسانية. وفي الواقع، إن كلاً منا له بناؤه الخاص، يحمل في نفسه مرضاً خاصاً جديداً يستقل به، معقداً ومجهولاً من الطب، لا يدخل في إصابات الرئتين المبوبة أو الكبد أو الجلد أو القلب أو الأعصاب إلخ... بل ينجم عن تأثيرات لا تحصى أحدثتها عيوب هذه الأجهزة كلها. لم تخطر هذه الفكرة على بال الأطباء كما لا يمكن أن تطرأ على بال السحرة فكرة الكف عن سحرهم. ذلك أن المعالجة كانت مصدر قوتهم وسر وجودهم ومهنة كرسوا

لها أفضل سنواتهم. وأخيراً على الخصوص، كانوا واثقين بأنهم نافعون لشيء ما. والواقع أن وجودهم لدى آل روستوف لم يكن عديم الجدوى والأثر. وأية أهمية لفرضهم على ناتاشا أدوية معظمها ضار خفف أثرها المؤذي بتخفيف الجرعات إلى أقل حد. كان وجودهم ضرورياً بل لا بد منه لمجرد أنهم كانوا يرضون حاجات ناتاشا الفكرية وحاجات من حولها. فلنقل إذن بين معترضتين، إن هذا هو السبب الذي سيظل فيه معالجون مزيفون ومشعوذون سواء من معالجي الداء ضده أو الذين يعالجونه بالتجانس. إنهم يرضون هذه الرغبة الأزلية عندالإنسان، رغبة الحصول على الشفاء ورؤية الناس يتدافعون حوله ويرثون لآلامه. إنهم يرضون هذه الحاجة الأزلية التي تلاحظ عند الطفل على شكله البدائي، حاجة تلك الجهة التي نحس بالألم فيها.

والطفل إذا ما أصاب نفسه بصدمة ما، يهرع بين ذراعي أمه أو مرضعته لتقبله وتدلك له مكان الألم فتمنحه تلك الملاطفة راحة حقيقية. فهو لا يلاحظ أن أشخاصاً أكثر قوة وحكمة يمكن ألّا يستطيعوا العمل على نجدته. لذلك فإن الأمل في نيل الراحة والإشفاق الذي تظهره الأم نحوه وهي تدلك له مكان الألم يكفيانه للترفيه عنه. لقد كان الأطباء إلى جانب ناتاشا يمثلون هذا الدور نفسه، دون «الماما» التي تعانق وتنفخ مكان «الواوا». كانوا يؤكدون لها أن مرضها سيزول حالما يعود الحوذي من صيدلي «الأربات» ومعه بعض المساحيق المحفوظة في علبة جميلة قيمتها روبل واحد وسبعون كوپيكاً فتأخذ منها بانتظام كل ساعتين قدراً مذاباً في ماء مغلي.

تُرى ماذا كان سيقع لسونيا والكونت والكونتيسة لو أنهم اضطروا إلى ضم أذرعهم على صدورهم بدلاً من إعطاء ناتاشا تلك الحبوب في الأوقات المعينة وتلك المشروبات الساخنة ومغلي الأرز بالدجاج والسهر على تنفيذ مئات الإرشادات الأخرى التي أوصى بها الأطباء والتي كانت تتيح لهم عملاً

يريح نفوسهم؟ هل كان بوسع الكونت احتمال مرض ابنته الغالية لو لم يعرف أن ذلك المرض كلفه حتى تلك اللحظة ألف روبل وأنه ليعطي راضياً ألف روبل أخرى في سبيل شفائها، وأن ذلك إذا لم يكن كافياً فإنه سيضحي بورقة ثالثة من ذات الألف روبل ليأخذ ابنته إلى الخارج ويعرضها هناك على مشاهير الأطباء. ولو أنه لم يجد الفرصة سانحة له ليحدث كل وافد بأن ميتيـڤييه وڤيللير لم يفقها شيئاً من مرضها وأن «فريز» كان أوسع خبرة وأن مودروت استطاع أخيراً أن يشخص حقيقة المرض؟

ماذا بوسع الكونتيسة أن تفعل لو أنها لم تستطع التخاصم بين الحين والحين مع المريضة التي لم تكن تراعي بالدقة اللازمة تعليمات كلية الطب؟

كانت تقول بغضب كان ينسيها همها: إذا كنت ستعصين الطبيب ولا تتناولين علاجاتك في حينها، فإنك لن تبرئي أبداً! ابذلي قليلاً من الجد وإلا فإن المرض سينقلب إلى ذات الرئة.

كانت تقول هذه الكلمات وهي تجد سلوكاً كبيراً في نطق هذا الاسم الذي لم يكن متعذراً فهمه عليها وحدها.

ماذا كان بوسع سونيا أن تعمل لو أنها لم تجد القناعة في أن تحدث نفسها بأنها لم تخلع ثيابها طوال الليالي الثلاث الأولى كي تكون مستعدة دائماً لتنفيذ إرشادات الطبيب بحذافيرها وإنها الآن لا تكاد تتذوق طعم النوم كي لا تسهو عن إعطائها الحبات الكامنة في العلبة الجميلة المذهبة؟

زعمت ناتاشا نفسها ما راقها أن ما من علاج يستطيع شفاؤها وأن كل هذه الأشياء إن هي إلا سخافات. مع ذلك فإنها لم تكن تشعر بأقل من متعة النظر إلى ما يقدمون في سبيلها من تضحيات وتناول علاجاتها في ساعاتها المحددة والتظاهر عن طريق إغفال تعليمات الأطباء، بأنها لا تؤمن بشفائها ولا تتمسك بالحياة.

يأتي الطبيب كل يوم فيجس نبضها وينظر إلى لسانها ويمازحها دون أن يلقي بالاً إلى وجهها المفتقر إلى العناية. وفي المقابل، كانْ عندما يمضي إلى الغرفة الأخرى حيث تسرع الكونتيسة إلى اللحاق به، يطبع على وجهه سيماء الجد ويهز رأسه بشرود فكر ويعلن أنه رغم الخطر الذي لا يمكن إنكاره، فإنه يعتمد على تأثير العلاج الأخير الجيد وأنه يجب الانتظار والمشاهدة وأن المرض نفسي على الغالب ولكن..

وتدسّ الكونتيسة في يده خفية قطعة ذهبية وتعود إلى سرير المريضة وقلبها أكثر اطمئناناً.

كانت علامات المرض ترتكز على ضعف في الشهية ونقص في النوم ونوبات سعال وبلادة عامة. وكان الأطباء يؤكدون أنه لا يمكن ترك ناتاشا دون معالجات طبية، لذلك يحتفظون بها في جو المدينة الخانق. وعليه، فقد قضى آل روستوف صيف عام ١٨١٢ كله في موسكو.

وعلى الرغم من ابتلاع الحبات والقطرات والمساحيق الأكثر اختلافاً المعبأة في علب أو في زجاجات كانت مدام شوسّي التي تبحث عن مثلها قد جمعت منها مجموعة كاملة، وعلى الرغم من حرمانها من هواء الحقول، فإن الشباب تغلب. أخذت تأثيرات الحياة الجارية تخفف الهمّ عن ناتاشا رويداً رويداً وترميه بلطف في أعماق الماضي وبدأت قواها الجسدية تعود تدريجاً.

الفصل السابع عشر

لم تعد ناتاشا تتحاشى مناسبات الترفيه، وأصبحت أكثر اطمئناناً وليس أكثر جذلاً، وعادت إلى حضور الحفلات الموسيقية والراقصة والمسارح والنزهات، بل كانت كذلك لا تضحك إلا والدموع من وراء ضحكتها، ولم تعد تقوى على الغناء. وكلما حاولت أن تضحك أو أن تختبر صوتها في خلوة مع نفسها، كانت الدموع تخنقها، دموع الغيظ لأنها حطمت بحماقتها وجودها الفتي الذي كان يمكن أن يكون في أعمق مراتب السعادة. وكان الضحك، وبصورة خاصة الغناء يبدوان لها تدنيساً لألمها. لقد أغفلت كل مظاهر الدلال دون أن تشعر بأي حرمان منها.

كانت تقول وتشعر أن كل الأشخاص أصبحوا في نظرها سواء أشبه بالمهرج ناستاسيا إيڤانوڤنا وكان هاتف داخلي يحرم عليها كل متعة. لقد فقدت كل موجبات الحياة التي طالما ملأت شبابها بالآمال. وكان أكثر ما تذكره بأشدّ أسى، أشهر الخريف تلك والصيد وأعياد الميلاد التي جرت في اترادنواي برفقة نيكولا. لم تكن لتبخل بشيء تهبه في سبيل بعث يوم واحد من تلك الأيام الرائعة! ولكن لا، لقد اختفت إلى الأبد.

كان شعور مسبق يقول لها إنها لن ترى بعد روحها المتحررة السابقة المتفتحة لكل المباهج. مع ذلك كان يجب أن تعيش.

كانت تفكر، ليس دون ارتياح، خلافاً لما كانت تظنه حتى ذلك الوقت،

من أنها أفضل من الأخريات، إنها أخبث كل المخلوقات في الوجود. وإنه لعزاء كاف! كانت تتساءل دون جدوى: «ماذا يخبئ لي المستقبل؟» ما كانت الحياة لتدخر لها أية مسرة مع ذلك فقد كانت الحياة تمر. لذلك دأبت ألّا تكون عالة على أحد وألّا تطالب بشيء من أجلها وراحت تتجنب كل أقربائها باستثناء أخيها بيتيا الذي كانت صحبته تسرها، بل إنها أحياناً كانت في خلوتها معه تستعيد مرحها. وكفت تقريباً عن الخروج ولم تعد تشعر بأية رغبة في لقاء الذين ألفوا زيارة البيت باستثناء پيار. والواقع أنه كان يستحيل إيداع حنان ولياقة بل جد كذلك أكثر مما كان يودعه الكونت بيزوخوف في علاقاته مع ناتاشا. وكانت تشعر بذلك العطف بإبهام دون أن تعترف له بما يستحق من جميل. كان يخيل إليها أن هذا التصنع الدقيق من جانب پيار لا يكلفه مجهوداً كبيراً وأنه بطبيعته شديد الطيبة مع كل الناس حتى ليصبح تصرفه تجاهها خالياً من كل المزايا.

وكانت ناتاشا أحياناً تلاحظ اضطرابه في حضرتها وخصوصاً عندما يخشى أن تذكرها المحادثة بذكريات أليمة، فكانت تعزو ذلك إلى طيبة قلبه وخجله لأنه، حسب زعمها، لا بد وأن يكون خجولاً مع الناس كلهم كحاله معي. ومنذ ذلك اليوم الذي قال لها دون وعي إذ رآها شديدة الاضطراب، إنه لو كان حراً لسألها يدها وحبها وهو جاث على ركبتيه، لم يعد پيار يحدثها عن عواطفه، تلك الكلمات التي كانت لها حينذاك عوناً كبيراً. وكانت ناتاشا تقدر أنه يجب ألّا تعلّق بعد الآن، أهمية إلا على الأحاديث التافهة التي يقصد بها مواساة طفل، ليس لأن پيار متزوج، بل لشعور ناتاشا بقيام تلك الحواجز الفكرية التي انخفضت أمام كوراغين، منتصبة شديدة الارتفاع فما كانت لتفكر إطلاقاً في أن علاقتهما الطيبة يمكن أن تتحول إلى حب أو حتى إلى تلك

الصداقة الشاعرية التي يمكن أن تتبادل بين رجل وامرأة والتي عرفت أمثلة عنها.

بعد صوم القديس بطرس، جاءت أغرافينا إيڤانوڤنا بيبلوڤا، وهي إحدى جارات آل روستوڤ في الريف، إلى العاصمة لتحج. فعرضت على ناتاشا أن تنضم إليها لتمجيد القديسين الموسكوڤيين فقبلت العرض بفرح. وعلى الرغم من أن الأطباء حرموا عليها الخروج مبكرة، فقد صممت على أن تظهر تعبدها ليس على طريقة آل روستوڤ الذين يقيمون عادة ثلاث صلوات خاصة، بل على طريقة أغرافينا إيڤانوڤنا التي بقيت طوال أسبوع كامل تحضر كل القداسات وصلوات الصبح والغروب والنوم.

ولقد راقت الكونتيسة حماسة ابنتها الدينية فكانت تأمل في أعماق قلبها أنه بعد المعالجة قليلة الجدوى التي أجراها الأطباء يمكن أن يكون للصلاة مفعول أقوى من الأدوية. لذلك استسلمت لرغبة ابنتها وسلمتها للسيدة بيبلوڤا وهي تختفي خائفة من لقاء الطبيب. وكانت أغرافينا إيڤانوڤنا تحضر ابتداء من الساعة الثالثة صباحاً لتصحب ناتاشا التي كثيراً ما وجدتها مستيقظة. وبعد أن ترتب شعرها بسرعة وترتدي على سبيل التواضع أبشع ثوب لديها ومعطفاً قديماً ثم تطوف في الشوارع الخالية التي يضيئها الفجر بأشعة شفافة وهي ترتجف. إذ كانت ناتاشا، تبعاً لنصيحة رفيقتها، لا تذهب إلى كنيسة رعيّتها، بل إلى كنيسة كان الراهب فيها يعيش حياة كلها تقشف حسب مزاعم السيدة بيبلوڤنا الورعة. وكان المؤمنون في تلك الكنيسة قليلي العدد دائماً والمرأتان تتخذان عادة مكاناً لهما في الجانب الأيسر أمام صورة للعذراء فاستحوذ شعور مجهول أوجده الخضوع والخشوع أمام ما لا يُطال، على الفتاة كلما راحت تتأمل وجه أم الله المضاء بالشموع وبنور الفجر الذي كان

في تلك الساعة الخارقة يسقط عليه من إحدى النوافذ وكلما أصاخت السمع إلى القداس مجتهدة أن تتبعه وتتفهمه. وعندما كانت تفهمه، كانت عواطفها الشخصية بمختلف مقوماتها تختلط بصلاتها.

أما في الحالة العكسية فإن التفكير في أن رغبتها فهم كل شيء نوع من الكبرياء، وأنه لا يمكن فهم كل شيء بل يجب الإيمان فقط والاستسلام لرب تشعر في تلك اللحظات أنه سيد روحها، كان أكثر عذوبة في نفسها. وكانت ترسم إشارة الصليب على صدرها وتركع. وعندما يتعذر عليها الفهم تكتفي بالتوسل إلى الله والخوف مستول عليها إزاء بغيها، أن يغفر لها كل شيء وأن يرأف بحالها. وكانت أدعية الندم مفضلة عندها على كل الصلوات. وفي أوبتها في ساعة لا تزال شديدة الابتكار، حين لا يكون في الشوارع إلا البناؤون الذاهبون إلى أعمالهم والخادمات يكنسن أمام البيوت، ويكون الناس كلهم نياماً، كانت ناتاشا تفاجئ نفسها متوقعة إمكانية نهضة وحياة جديدة نقية وسعيدة.

استمر شعورها بالبعث يزداد نمواً خلال الأسبوع الذي أمضته كله في هذه الممارسات الورعة. فالمناولة أو المكالمة مع الله كما كان يحلو لأغرافينا إيـڤانوڤنا أن تحور الكلمة، كانت تبدو لها سعادة كبرى حتى أنها كانت تخشى أن تموت قبل ذلك الأحد السعيد.

وجاء ذلك اليوم السعيد. وعندما جاءت ناتاشا من التناول ذلك الأحد الذي لا ينسى، مرتدية ثوبها القطني الأبيض، شعرت لأول مرة منذ أشهر طويلة أنها في حالة سلم مع ذاتها فلم تعد الحياة التي تنتظرها تبدو لها عسيرة ومتعبة.

وبعد أن فحص الطبيب الذي كان ذلك اليوم موعد زيارته ناتاشا، أمر أن تكرر تناول المسحوق الذي أوصى لها به قبل خمسة عشر يوماً وقال وهو

يتظاهر بسعادة مخلصة لتحسن حالتها: أرجوك، صبحاً ومساء دون خطأ وبكل دقة.

وبينما هو يقبض قطعته الذهبية في راحة يده، داعب الكونتيسة قائلاً:

ـ كوني مطمئنة يا سيدتي الكونتيسة. سوف ترينها بعد قليل تغني وتمرح مجدداً. لقد أفادها العلاج الأخير إفادة كلية. إن مظهرها في تحسن.

ولكي تطرد الكونتيسة فأل السوء، بصقت وهي تنظر إلى أظفارها ثم ذهبت إلى القاعة متهللة الأسارير.

الفصل الثامن عشر

انتشرت في موسكو، في مطلع شهر تموز أنباء متفاقمة الخطورة: يتحدثون عن نداء من الأمبراطور إلى الشعب وعن عودته القريبة. ولما لم يتلق أحد حتى الحادي عشرأي بلاغ، فإن أكثر الإشاعات مبالغة انتشرت حول هذا الموضوع كما حول الموقف العام. كانوا يزعمون أن ألكسندر يترك الجيش لأن الجيش في خطر وأن سمولنسك قد استسلمت وأن لدى ناپليون مليون رجل وأن المعجزة وحدها يمكن أن تنقذ روسيا.

ويوم السبت في الحادي عشر، تلقوا البيان ولكن لا يزال يجب طبعه. لقد وعد پيار الذي كان ذلك اليوم لدى آل روستوف، أن يعود غداً الأحد لتناول الطعام وأن يأتي بالبيان والغداء اللذين سيحصل عليهما عند الكونت روستوبتشين.

في ذلك الأحد، ذهب آل روستوف كما هي عادتهم إلى كنيسة آل رازوموڤسكي الخاصة لحضور القداس. ومنذ الساعة العاشرة، عندما ترجلوا من عربتهم أمام الكنيسة، كان الهواء ساخناً وصيحات الشيالين، والجمهور في ثيابه الفاتحة وأشجار الشارع المغطاة بالغبار وضوضاء الموسيقى، والسراويل التي كان يرتديها جنود كتيبة ذاهبة إلى العرض، وهدير العربات على بلاط الشارع، وحرارة الشمس التي تعمي العيون، كل ذلك كان يضفي على الناس شعوراً بالإرهاق والانزعاج بارزاً خلال بهجة الحياة التي يلمسها المرء في مدينة كبيرة ذات يوم مفرط الحرارة. وكان أشراف موسكو كلهم

وكل معارف آل روستوف مجتمعين في الكنيسة، ذلك أن كثيراً من العائلات الغنية لم تذهب ذلك العام إلى أراضيها الريفية بانتظار الأحداث الجارية. سمعت ناتاشا وهي تتبع مع أمها خادماً في ثياب رسمية يفسح لهما في الطريق بين الجماهير، شاباً يقول لآخر بصوت أعلى من الطبقة الطبيعية:

ـ هذه هي الآنسة روستوف، تلك التي...

ـ كم نحلت! مع ذلك، لا تزال جميلة.

خيل إليها أنها تبينت في حديثهما اسمي كوراغين وبولكونسكي. على أية حال، كان هذا يحدث لها باستمرار. كانت تتصور دائماً، أن كل من يراها يفكر في مغامرتها. أخذت ناتاشا تتقدم منقبضة الصدر كعادتها كلما وجدت نفسها في حفلة، وهي ترتدي ثوباً حريرياً ليلكي اللون موشى بالمخرم الأسود، متخذة ذلك المظهر الذي تحسن النساء اتخاذه، فيه كثير من الهدوء والجلال بقدر ما كان في أعماق قلبها ألم وخجل. كانت تعرف أنها جميلة بالفعل. لكن ذلك لم يكن ليبهجها كسابق العهد بل على العكس يعذبها خصوصاً في مثل ذلك الأحد المشرق القائظ.

راحت تحدث نفسها وهي تذكر أنها جاءت الأحد الفائت إلى هنا: «أحد آخر، أسبوع آخر ينقضي بينما تستمر الحياة هي هي، لا حياة، في جو كان العيش فيه سابقاً متعة حقيقية. إنني شابة وجميلة ولقد أصبحت جيدة. نعم، لقد كنت رديئة فيما مضى أما الآن فأنا أعرف أنني طيبة رغم ذلك، فإن أفضل سنواتي تمر ضياع هباء دون فائدة لأحد». جلست إلى جانب أمها وتبادلت مع بعض معارفها إشارات برأسها. وبحكم عادتها المألوفة راحت تتفحص زينة النساء وتنتقد المظهر والأسلوب غير المحتشم الذي دأبت إحدى جاراتها ترسم به إشارات الصليب، وفكرت في غير قليل من السخط أنها ولا بد مدار أحكام متهورة وأنها هي الأخرى تسمح لنفسها باتخاذ مثلها حيال الآخرين.

وفجأة، بينما بدأ القداس، شعرت بخجل لانحطاطها وفكرت من جديد في أنها أضاعت نقاءها القديم.

كان عجوز قصير القامة، نبيل الأسارير، يقدس بطلاقة جليلة تحدث في نفس المؤمنين أثراً مهدئاً جداً. وفتحت الأبواب الملكية وأسدل ستار المحراب ببطء وارتفع صوت غامض جميل تسلل إلى الأسماع وراحت الدموع التي لم تكن تدرك لها سبباً تنبجس في أعماقها واستولى عليها ارتخاء سعيد.

راحت تصلي: «علمني ما يجب أن أفعل وكيف يجب أن أتصرف في الحياة وأتصرف مرة إلى الأبد، إلى الأبد»!

تقدم الشماس إلى المنبر وحرر شعره الطويل العالق بثوبه الكهنوتي بحركة عريضة من إبهامه، وبعد أن ارتسم، ردد بصوت عال جليل الصلاة:

ـ لنصلِّ إلى الله بسلام.

فكرت ناتاشا: «نعم، لنصل كلنا معاً، دون تباين في الطبقات، يجمعنا حب أخوي».

ـ لنبتهل إلى الرب من أجل السلام والخلاص لأرواحنا.

ففهمت ناتاشا أنه: «من أجل عالم الملائكة وكل الأرواح غير المتجسدة التي تعيش فوقنا».

وعندما صلوا من أجل الجيوش، تذكرت أخاها ودينيسوف. ولما صلوا من أجل البحارة والمسافرين، تذكرت الأمير أندريه وصلّت من أجله وتوسلت إلى الله أن يغفر لها الأذى الذي سببته لخطيبها. وعندما صلوا من أجل أولئك الذين يحبوننا، صلت من أجل أقاربها كلهم، من أجل أبيها وأمها وسونيا وبانت لها للمرة الأولى خطورة الأخطاء التي وقعت فيها نحوهم كما ظهرت لها قوة الحب الذي تكنه لهم. وعندما صلوا من أجل الذين يكرهوننا،

راحت تبحث عمن يمكن أن يكونوا أعداءها لتصلي من أجلهم فلم تجد غير دائني أبيها وكل أولئك الذين لهم به صلات عمل. وفكرت في أناتول الذي سبب كثيراً من الأذى، وعلى الرغم من أنه لم يُدرج في عداد أولئك الذين يكرهونها، فقد صلت من أجله وكأنه عدو.

كانت في تلك اللحظات فقط تجد في نفسها القدرة الكافية على استعراض ذكرى أندريه وأناتول دون أن تضطرب لأن عواطفها التي تشعر بها تجاههما حينذاك كانت تختفي أمام خوفها من الله وحبها له. وعندما صلوا من أجل أسرة الأمبراطور وسان سينود[1]، رسمت إشارة الصليب من جديد وانحنت بأكثر حمية وتقوى وهي تحدث نفسها أنه بعدم فهمها حقيقة ما يراد بذلك، فإنها يجب على أية حال أن تحب سينود هذا وتصلي من أجله.

وعندما انتهت الجبوة، شبك الشماس «بطرشينه» على صدره وردد:

ـ لنضع شخصنا وكل حياتنا بين يدي المسيح ربنا.

فكررت ناتاشا في سرها: «لنضع شخصنا بين يدي الله. رباه إنني أسلم نفسي لمشيئتك. لست أريد شيئاً ولا أرغب في شيء. علمني ماذا يجب أن أفعل وكيف استعمل الإرادة». وراحت تكرر بنفاد صبر وانجذاب من أعماق قلبها: «ولكن خذني»! ودون أن ترتسم مجدداً، أسبلت ذراعيها وبدت كأنها تنتظر قوة غير مرئية تأتي فتمسك بها وتنتزعها من نفسها، من تحسراتها ورغباتها وآمالها وأسوائها.

وقد ألقت الكونتيسة خلال القداس مراراً، نظرات على وجه ابنتها المتأمل وعينيها الساطعتين وابتهلت إلى الله أن يكون في عونها.

وعند منتصف القداس، لاحظت ناتاشا وقوع مخالفة للمألوف: لقد جاء

---

(١) تعبير يقصد به المجمع المقدس (سينودوس) (المترجم).

قيّم الكنيسة بالمقعد الصغير الذي يقرأون الصلوات ركوعاً عليه يوم العنصرة ووضعه قبالة الأبواب الملكية. وخرج الكاهن وعلى رأسه قلنسوة من قطيفة بلون ليلكي من محراب وسوى شعره ثم ركع بصعوبة. فحذا المصلون حذوه ولكن ليس دون أن يتبادلوا نظرات قلقة. كان الموضوع متعلقاً بصلاة أرسلها سينود للتوسل إلى الله أن ينقذ روسيا من الغزو الأجنبي.

بدأ الكاهن بصوته الواضح العذب الخالي من التفخيم الذي ينفرد به الكهان السلافيون والذي له أقوى الأثر في القلوب الروسية: «أيها الرب القادر على كل شيء، رب خلاصنا، تنازل برحمتك واخفض اليوم نظرتك إلى خدامك المتواضعين، أصغ إلى صلاتنا وارحمنا واشفق علينا. إن العدو الذي يقلب أرضك ويزمع أن يجعل من العالم كله صحراء قد نشط ضدنا. واجتمع الزنادقة ليدمروا ملكك ويهدموا أورشليمك المخلصة، روسياك الحبيبة، ويدنسوا معابدك ويقلبوا مذابحك ويحقروا أشياءنا المقدسة. إلى متى أيها الرب ينتصر الخاطئون؟ إلى متى يستطيعون استخدام قوتهم المجرمة؟

«أيها الرب كلي القدرة، إصغ إلى صلواتنا. أعن بقوتك أمبراطورنا شديد التقوى مطلق السلطان ألكسندر باڤلوڤيتش، تذكر استقامته وحلمه، عامله بمثل الرفق الذي يعاملنا به نحن، شعبك المحبوب، بارك قراراته ومشاريعه ومكّن ملكه بيمينك الشديدة القوة وهب له النصر على العدو كما وهبته لموسى على Amalex (العمالقة) ولجدعون على مَدْين ولداوود على غوليات واحفظ جيوشه، وضع قوس الميديين في يد الذين يحاربون باسمك وأحط صدورهم بقوتك. خذ أسلحتك وترسك وتعال إلى نجدتنا. وليصب العار والبلبال أولئك الذين يريدون بنا الشر وليكونوا أمام المخلصين لك أشبه بالغبار أمام الريح وليلعنهم ملكك وليطاردهم، ليحط بهم شبكك دون أن يشعروا وليقعوا

في شباكهم نفسها وليقعوا على أقدام خدامك ولتطأهم جيوشك أيها الرب! إليك مرجع سلام الكبار الصغار. أنت الله، ولا يستطيع الإنسان تجاهك شيئاً.

«يا رب آبائنا، تذكر رحمتك وشهامتك اللتين هما أزليتان. لا تبعدنا عن وجهك ولا تحقد علينا لفحشائنا، أنظر إلى جرائمنا وخطايانا بكل سعة رحمتك اخلق فينا قلباً نقياً وجدد في صدرنا فكرة الحق. قونا جميعنا في الإيمان ومكن آمالنا وأوح إلينا حباً حقيقياً بعضنا لبعض، سلمنا بروح واحدة للدفاع المشروع عن الميراث الذي أعطيته لنا ولآبائنا، وليمتنع صولجان الكفرة عن الارتفاع على فئة المصطفين.

«أيها الإله ربنا الذي نؤمن به والذي وضعنا فيه ثقتنا، لا تخيب انتظارنا، قم بإشارة لمصلحتنا. ليبل الذين يكرهوننا نحن ودينا الأورثوذكسي المقدس بالبكم ولينفقوا. ولتعلم الأقوام كلها أن اسمك هو الله وأننا أبناؤك. أيها الرب، أظهر لنا شفاعتك وامنحنا خلاصك وأبهج قلب خدامك واضرب أعداءنا واقلبهم بأسرع وقت تحت أقدام المؤمنين بك المخلصين. لأنك أنت السند والنجد والنصر لأولئك الذين يؤمنون بك. المجد للأب والابن وللروح القدس الآن ودائماً وإلى أبد الآبدين».

كانت روح ناتاشا متفتحة لكل الأحاسيس حتى بات لهذه الصلاة أثر شديد فيها. والواقع أن انتصارات موسى على العمالقة هذه وجدعون على مدين وداوود على غوليات وانهيار أورشليم أيضاً، كانت تدفعها إلى الصلاة بكل الحمية التي كانت تفعم قلبها. مع ذلك، فإنها لم تكن تدرك كل ما تطلبه من الله. ولقد اتحدت اتحاداً كلياً مع البهلة للحصول على عقلية مستقيمة وقلب يقويه الإيمان ويوقظه الأمل ويحييه الحب. ولكن كيف كانت تستطيع التماس إفناء أعدائها وهي التي كانت قبل دقائق ترغب في الحصول على عدد

أكبر منهم لتصلي من أجلهم؟ مع ذلك، فإنها لم تكن لتضع الصلاة التي انتهوا من تلاوتها راكعين موضع الشك من حيث موضوعها. كانت تشعر في أعماقها بارتعاشة تقية وذعر مقدس وهي تفكر في العقاب الذي ينزل بالخاطئين وعلى الخصوص بذلك الذي بنفسها له. توسلت إلى الله أن يمنحهم الغفران جميعهم والراحة والسعادة في هذه الدار. وخيل إليها أن الله كان يصغي إلى صلاتها.

الفصل التاسع عشر

لا يزال بيار تحت تأثير نظرة ناتاشا منذ ذلك اليوم الذي تأمل النجم المذنب وهو في طريق عودته من لدن آل روستوف وأحسّ بأفق جديد يفتح أمامه، وتوقفت مسألة العدم والكبرياء بكل ما هو أرضي عن تعذيبه. والسؤال المؤلم: «لماذا؟» الذي كان من قبل يتدخل في كل مشاغله، لم يترك مكانه لسؤال آخر ولا لأي حل كان، بل للصورة التي احتفظ بها «لها». فإذا تابع أو أثار هو نفسه مناقشة مبتذلة أو قرأ أو تعلم حماقة ما أو رذيلة فما كان يسخط كسابق عهده ولم يعد يتساءل عن سبب اضطراب الناس إلى هذا الحد في حين أن كل شيء شديد القصر قبل القفزة إلى المجهول. ولكي تزول كل شكوكه، كان يكفيه أن يتمثلها «هي» كما رآها آخرمرة وعندئذ تختفي كل الشكوك ليس لأنها تجيب عن الأسئلة التي تعرض له، ولكن لأن صورتها كانت تنقله فجأة إلى منطقة مشرقة من الروح حيث لا يستطيع أن يرى هناك محقاً ولا مذنباً، إلى منطقة الجمال والحب، هذين السببين الوحيدين للحياة.

ومهما بلغت الأسواء الفكرية التي كانت الحياة توجدها أمامه فإنه كان يحدث نفسه: «لا يهمني أن يكون ن. ن. قد سرق الدولة والقيصر وأن يكون القيصر والدولة يغدقان عليه الأمجاد مكافأة له. لقد ابتسمت لي أمس ورجتني أن أعود لزيارتها. أحبها ولن يعرف أحد إطلاقاً شيئاً». وحينئذ تحتفظ نفسه بكل إشراقها.

خلال ذلك، استمر بيار في ارتياد المحافل والإكثار من الشراب والحياة

في الفجور لأنه كان عليه إضافة إلى الساعات التي يقضيها لدى آل روستوف أن يقتل ما تبقّى من الوقت. ثم إن معارفه كعاداته كانوا يجرونه دون أي رادع إلى مثل هذه الحياة. ولكن، في الأوقات الأخيرة، عندما أصبحت أنباء الحرب أكثر إخافة، وعندما كفت ناتاشا، بعد أن أبلت قليلاً، عن الإيحاء إليه بمثل ذلك الاشفاق المرهف، تملّكته كآبة غامضة أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم. كان يشعر بأن مصيبة ما سوف تقلب حياته رأساً على عقب فكان يترقب بنفاد صبر الإشارات المنذرة، أطلعه أحد إخوانه الماسونيين على النبوءة التالية المتعلقة بناپليون.

يقول الإصحاح الثالث عشر من رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي الآية الثامنة عشرة: «ها هنا الحكمة! ليحصي لديه ذكاء عدد الوحش لأنه عدد إنسان وهذا العدد هو ستمائة وستة وستين».

وفي الإصحاح نفسه الآية الخامسة: «ولقد أعطي له فم ينطق بكلمات متكبرة تجديفية ولقد أعطي له أن يعمل خلال اثنين وأربعين شهراً».

وإذا نقلت بالفرنسية الأعداد العبرية، حيث الأحرف العشرة الأولى تمثل تتابع الآحاد والتي تتابع العشرات يُحصل على الجدول التالي:

A	B	C	D	E	F	G	H	I	K	L	M	N
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	20	30	40
O	P	Q	R	S		T	U	V	W	X	Y	Z
50	60	70	80	90		100	110	120	130	140	150	160

فإذا كتبت الأرقام تبعاً لهذه الآية تكون الكلمات: «الأمبراطور ناپليون L'empereur Napoléon فإن مجموع هذه الأرقام يعطي بالتأكيد ٦٦٦، وتبعاً لذلك فإن ناپليون هو الوحش الذي تنبأ به يوحنا. ومن جهة أخرى، إذا كتبنا تبعاً لتلك الألفبائية كلمة اثنين وأربعين Quarante-deux. أي الحد المقرر

للوحش لكي «ينطق بكلمات متكبرة تجديفية» فإن مجموع هذه الأرقام يكون ٦٦٦ من جديد. وإذن فإن حدود سلطان ناپليون سينتهي عام ١٨١٢ الذي سيبلغ خلاله الثانية والأربعين.

وهذه النبوءة أدهشت پيار كثيراً وراح يتساءل عمن سيضع حداً لسلطة الوحش أو بعبارة أخرى لناپليون. وأخذ يحاول إيجاد جواب عن هذا السؤال بواسطة التعداد نفسه. جرب أولاً عبارة: الأمبراطور ألكسندر؟ ثم: الأمة الروسية؟ لكن المجموع كان إما أكثر وإما أقل من رقم ٦٦٦. وذات يوم جاءته فكرة إحصاء اسم: الكونت پيار بيزوخوف لكنه لم يتوصل إلى الرقم المنشود. وضع حرف «z» بدلاً من حرف «S» في اسمه «Bézouk'hoff» وأضاف إشارة «de» بدلاً من «الـ» التعريف ولكن دون نتيجة مرضية. وحينئذ تبادر إلى ذهنه أنه إذا كان الجواب عن السؤال كامناً في اسمه فيجب عليه إضافة قوميته إليه. كتب حينئذ: الروسي بيزوخوف فجاءت نتيجة الجمع ٦٧١ أي بزيادة «o». ورقم «o» يمثل حسب هذا التعداد حرف «e»، أي الحرف نفسه المحذوف من «الـ» التعريف «L» التي تسبق كلمة أمبراطور[1]. وإذن فإن حذف هذا الحرف من اسمه ـ وهو حذف غير صحيح ـ يعطيه الرقم المنشود ٦٦٦ (أي L'russe Bésuhof بدلاً من Le russe Besuh'of). قلبه هذا الاكتشاف ظهراً لبطن. كيف، وبأي رباط يتصل هو بهذا الحدث الكبير الذي تعلنه رؤيا القديس يوحنا؟ لم يكن يدري لكنه لم يرتب أبداً في صحته. كان حبه للآنسة روستوف، والدجال وغزو ناپليون والنجم المذنب وهذا الرقم ٦٦٦ الذي هو الأمبراطور ناپليون والروسي بيزوخوف، كل هذه العوامل كان لا بد وأن تختلط في نفسه لتنفجر ذات يوم وتجره بعيداً عن دائرة العادة الموسكوفية

(١) «باللغة الفرنسية وتحذف عادة عند إلقاء حرفين صوتيين ما هو معلوم».

الفاسدة التي كان يشعر أنه سجين ضمنها لتأخذ بيده كي يقوم بعمل بطولي ويبلغ ذلك سعادة قصوى.

مساء ذلك الأحد، الذي تليت فيه تلك الصلاة كان بيار قد وعد آل روستوف بأن يأتيهم بالبيان وبآخر أنباء الجيش التي كان على روستوبتشين أن ينهيها إليه. وفيما هو يدخل صباح اليوم التالي عنده، وجد حامل بريد حديث الوصول من الجيش كان بيار يعرفه منذ زمن طويل إذ التقاه في حفلات موسكو الراقصة.

قال حامل البريد: ستكون لطيفاً لو ساعدتني قليلاً إذ لدي ملء كيس من الرسائل إلى الأقارب.

بين تلك الرسائل، وجد بيار واحدة من نيكولا روستوف إلى أبيه فأخذها أضف إلى ذلك أن الكونت روستوبتشين أعطاه نداء الأمبراطور إلى موسكو الذي انتهى من طبعه حديثاً والأوامر اليومية الجديدة الصادرة عن الجيش وآخر بيان عنه. وبينما بيار يمر بنظره على لائحة القتلى والجرحى والمكافآت الممنوحة، وجد اسم نيكولا روستوف حائزاً صليب سان جورج من الدرجة الرابعة للبسالة التي أبداها في مسألة أوستروڤنا. وكان الأمر اليومي نفسه يحمل نبأ تعيين أندريه بولكونسكي لقيادة فوج من القناصة. ولما لم يكن يتعمد تذكير آل روستوف باسم بولكونسكي منذ ذلك الوقت فإنه لم يستطع الامتناع عن إبلاغهم بأسرع ما يمكن نبأ الامتياز الذي حصل عليه ابنهم متجنباً حمل الأوامر اليومية والنداء وبيان الجيش إليهم وقت الطعام مكتفياً بإرسال النداء المطبوع والرسالة بأسرع ما يمكن.

وساهم حديثه مع الكونت روستوبتشين وانشغال هذا وقلقه ولقاء حامل البريد الذي وصف له بلا مبالاة الحالة السيئة التي بلغت إليها أوضاعنا والشائعة التي راجت باكتشاف جواسيس في موسكو كانوا يوزعون أوراقاً جاء فيها أن

نابليون يعد باحتلال العاصمتين قبل الخريف وانتظار وصول الأمبراطور في اليوم التالي، كل هذا ساهم في إنماء ذلك الاضطراب المحموم في نفس پيار الذي لم يفارقه منذ ظهور النجم المذنب وبصورة خاصة منذ بدء الحرب.

منذ فترة طويلة كان پيار يغذي فكرة الانتساب إلى الجيش. لكن يمينه كان يربطه بالمحفل الماسوني الذي يبشر بالسلم الأبدي وإبطال الحروب. ثم إن رؤية كل هذه الكثرة من الموسكوڤيين الذين يرتدون اللباس العسكري وهم يعرضون وطنيتهم، لم يكن يحفزه كثيراً للقيام بمثل هذا. كان في أعماقه يخضع بشدة، دون أن يلتحق بالخدمة، لذلك الاعتقاد الغامض بأنه هو، الروسي بيزوخوف الذي يمثل رقم الوحش ٦٦٦، وأن مساهمته في العمل الكبير الذي يهدف إلى إبادة الوحش مقررة منذ أبعد الأزل. فلم يكن عليه والحالة هذه أن يبدأ بشيء من تلقاء نفسه بل أن ينتظر ما سيقع دون أن يكون له مرد.

الفصل العشرون

وكعادتهم كل يوم أحد، كان آل روستوف يستقبلون بعض المقربين إلى مائدة الغداء. وقد وصل پيار مبكراً لكي ينفرد بهم.

ولقد ازدادت سمنته، ذلك العام، لدرجة كادت تكون مشوهة لولا أن قامته المديدة وبنيته المتينة وتكوينه القوي كانت تساعده على احتمال وزن شخصه بسهولة.

صعد السلم لاهثاً وهو يدمدم بشيء بينه وبين نفسه. ولما كان حوذي پيار يعرف أن الكونت يتأخر عادة لدى آل روستوف حتى منتصف الليل، فلم يسأله عما إذا كان عليه أن ينتظره. ولقد أسرع الخدم يتنافسون في تخليصه من معطفه وأخذ عصاه وقبعته التي درجت عادته في النادي على تركها في الدهليز.

كانت ناتاشا هي الشخص الأول الذي رآه، أو الأحرى الذي سمعه منذ أن دخل الردهة. كانت تتدرب على الألحان في قاعة الرقص. ولما كان يعرف أنها لم تغن خلال مدة مرضها، فقد أحدث صوتها في نفسه مفاجأة سارة. فتح الباب على مهل: كانت ناتاشا مرتدية ذلك الثوب الخبازي الذي ارتدته بمناسبة القداس، تروح وتجيء وهي تمرن صوتها. استدارت فجأة على صوت الباب فشاهدت وجه پيار الضخم المروع. احمرّ وجهها وتقدمت نحوه.

قالت وكأنها تعتذر: إنني أحاول أن أعود إلى الغناء.

إنك على كل الحق.

تابعت بتلك الحيوية القديمة التي لم يرها پيار منذ مدة طويلة:

ـ كم أنا مسرورة لمجيئك! إنني سعيدة جداً اليوم! هل تعلم، لقد حصل نيكولا على صليب سان جورج. إنني فخورة به.

ـ بلى، إنني أنا الذي أرسلت الأمر اليومي إليكم...

وأضاف وهو يتجه نحو القاعة: هيا، لا أريد أن أزعجك.

استوقفته ناتاشا وسألته ووجهها يتخضب بالحمرة وهي تنظر إلى عينيه مباشرة. كونت، هل أخطئ إذ أغني؟

ـ كلا... كلا... على العكس لِمَ هذا السؤال؟

أجابت بحماسة: لست أدري. لكنني لا أريد أن أقوم بشيء تستقبحه. إنني أثق بك ثقة لا حدود لها.

وأضافت بتلك اللهجة نفسها دون أن تلاحظ أن پيار قد أصبح محمرّ الوجه: إنك تعرف أي دور تلعبه في حياتي وكم من الأشياء فعلتها من أجلي... آه! لقد وجدت في ذلك الأمر اليومي نفسه «إنه» في روسيا..

وتابعت وهي تخفض صوتها:

ـ نعم، هو، پولكونسكي... عاد إلى الخدمة. هل تظن أنه سيغفر لي ذات يوم؟ هل تفكر في أنه سيحقد علي دائماً؟ قل لي، ماذا تفكر؟

ألقت هذه الأسئلة بتلاحق خشية أن تخونها قواها. فقال پيار:

ـ أظن... أن لا شيء لديه يغفر لك. ولو أنني كنت مكانه...

حملت پيار دفعة من الذكريات فجأة إلى الفترة التي قال لها محاولاً الترويح عن نفسها، إنه لو كان يملك حريته أو كان أفضل الرجال، لسألها يدها وهو جاث على ركبتيه. فلم تلبث تلك الأحاسيس من الإشفاق والحنان والحب أن ملأت قلبه واندفعت إلى شفتيه الكلمات نفسها التي فاه بها حينذاك. لكنها لم تمهله حتى يتفوّه بها.

صاحت وهي تشدد على كلمة «أنت» بشيء من العجب:

ـ أوه! أنت... أنت،... إنه أمر مختلف تماماً. أنا لا أعرف رجلاً أفضل ولا أشد كرماً منك. ثم إنه لا يمكن أن يكون أفضل منك. ولو أنني لم أكن أعرفك حينذاك، ولو أنني لم أكن أعرفك حتى الآن، لما عرفت ماذا سيكون من أمري لأن...

واغرورقت الدموع في مآقيها وأشاحت عنه وأخفت وجهها وراء دفتر الموسيقى ثم استأنفت غناءها ومشيها.

وفي الوقت نفسه، أسرع پيتيا إلى القاعة. كان قد أصبح فتى يافعاً في الخامسة عشرة، متورد الوجنتين، ضخم الشفتين قانيتي اللون يشبه ناتاشا. وعلى الرغم من أنه كان يستعد لدخول الجامعة، فإنه كان يتآمر مع رفيقه أوپولنسكي منذ بعض الوقت لينخرط في سلك الفرسان.

اندفع پيتيا نحو سميّه وسأله أن يبحث له عما إذا كان سيقبل في سلاح الفرسان. لكن پيار كان يخطر في القاعة دون أن يكون قد سمعه. فجذبه پيتيا من ذراعه ليلفت انتباهه:

ـ حسناً! أين أصبحت قضيتي يا پيار كيريلليتش بحق السماء؟ إن كل أملي مركز عليك.

ـ آه! نعم، قضيتك. الفرسان؟ سوف أتحدث عنها، سأتحدث عنها، سأتحدث عنها. اليوم دون إرجاء.

ـ حسناً يا «عزيزي»، حسناً! هل لديك النداء؟

بذلك استقبله العجوز لأول وهلة ثم أردف: لقد كانت كونتيستي الصغيرة في القداس مع آل رازوموڤسكي فسمعت هناك الصلاة الجديدة التي يقولون إنها جميلة جداً.

أجاب پيار: نعم، لدي النداء. سيكون الأمبراطور هنا غداً. وسيكون

اجتماع فوق العادة للنبلاء. كذلك يتحدثون عن جباية عشرة على كل ألف. وبالمناسبة، تهاني الحارة.

ـ نعم، نعم والحمد لله!... أية أنباء عن الجيش؟

ـ يبدو أننا تراجعنا مجدداً حتى تحت سمولنسك.

ـ رباه، رباه!... وأين البيان؟

ـ النداء؟ آه، نعم!

فتش پيار عبثاً في جيوبه واستمر في التفتيش وهو يقبل يد الكونتيسة التي دخلت في تلك اللحظة وهي تلقي حولها نظرات كئيبة بانتظار ناتاشا التي توقفت عن الغناء دون أن تدخل إلى القاعة.

اعترف أخيراً: ما عدت أعرف أين وضعته.

قالت الكونتيسة: آه! إنه يضيع كل شيء دائماً.

دخلت ناتاشا في تلك اللحظة، متحننة وجلست على مقربة من پيار وحطت بأنظارها عليه دون أن تنبس بكلمة. ولقد أزال دخولها الغضون من وجه بيزوخوف الذي ظل كئيباً حتى تلك اللحظة، فراح يضاعف جهده في البحث وينظر مرات عديدة ناحية الفتاة.

ـ لا شك أنني نسيته في منزلي. أنا ماض لإحضاره...

ـ لكنك ستتأخر عن موعد الطعام؟

ـ هه، صحيح، ثم إن حوذي قد ذهب!

لكن سونيا التي راحت تبحث عن أوراق حتى بلغت الردهة، وجدتها أخيراً مطوية بعناية تحت بطانة قبعة پيار. فاستعد هذا لتلاوتها.

قال الكونت العجوز الذي كان بدون شك يعد نفسه ببهجة كبرى بتلك التلاوة:

ـ كلا، بعد الطعام.

وإلى المائدة، حيث شربوا الشمبانيا على شرف فارس سان جورج الجديد، روى شينشين أنباء المدينة: مرض الأميرة العجوز جييورجيين، اختفاء ميتيڤيه، قصة ألماني عجوز جيء به إلى روستوبتشين وهم ينعتونه بـ«فُطر»[1] وأن هذا أطلق سراحه مفسراً للشعب أن فطراً من هذا النوع غير سام. هذا أقله ما كان روستوبتشين نفسه يقول.

قال الكونت: أجل، أجل. إنهم يطبقون عليهم، إنهم يطبقون عليهم. كم من مرة توسلت إلى الكونتيسة ألا تتكلم الفرنسية بهذه الكثرة! لم يعد الآن وقت التكلم بالفرنسية.

استأنف شينشين: هل تعرفون أن الأمير جوليتسين استخدم مربياً روسياً؟ نعم، إنه يعطي دروسه بالروسية. لقد بدأ التحدث بالفرنسية في الشوارع يصبح خطراً.

قال الكونت العجوز: لكن پيار كيريلليتش، عندما يشكلون فرق الميليشيا، سيتحتم عليك الركوب على الجواد.

نظر پيار، الذي كان حتى هذه اللحظة مدفوناً في أفكاره، إلى الكونت العجوز دون أن يبدو عليه أنه فهم.

ـ آه نعم، لقد أزف الوقت للذهاب إلى الحرب. سأكون وجهاً جميلاً فيها! على أية حال، إن كل شيء شديد الغرابة! إنني لم أعرف نفسي. أنا لا أملك أي استعداد لاحتراف الجندية ولكن في وقتنا اليوم، لا يستطيع أحد أن يجيب بشيء.

وبعد الطعام، تركز الكونت في كنبة مريحة، ورجا سونيا بوصفها قارئة مجيدة، أن تتلو النداء.

---

(١) أي جاسوس. (المترجم).

«إلى موسكو، عاصمتنا الأولى».

«لقد اجتاز العدو الحدود الروسية بقوات ضخمة. لقد جاء يدمر وطننا الحبيب...».

كانت سونيا تقرأ بصوتها الرقيق واضعة كل اهتمامها في القراءة. وكان الكونت يصغي مغمض العينين وهو ينقط بعض المقاطع بتنهدات عميقة. وناتاشا منتصبة الجذع تعاين بنظرة متفحصة تارة أباها وتارة پيار الذي كان يشعر بتلك النظرة تقع عليه فيتجنب ملاقاتها. وكانت الكونتيسة تهز رأسها بعد كل عبارة مفخمة في النداء دلالة على عدم الموافقة: فالخطر الذي يتعرض لها ابنها ليس الانتهاء، وهذا كل ما كانت تفهمه من تلك العبارات. أما شينشين، فكان يمرز شفتيه في ضحكة ساخرة ويستعد للنقد لدى أول فرصة: سواء من حيث صوت سونيا أو حماسة الكونت أو النداء نفسه إذا لم يجد شيئاً آخر يُنقد.

وبعد قراءتها للمقاطع المتعلقة بالأخطار التي تهدد روسيا والآمال التي يعلقها الأمبراطور على موسكو وبصورة خاصة على مجموعة الأشراف الشهيرة فيها، انتهت سونيا التي كان صوتها يرتجف بنسبة الانتباه الذي يولونه لقراءتها، إلى النتيجة:

«سوف لن نتأخر بأنفسنا عن الظهور بين شعبنا في هذه العاصمة وفي الأماكن الأخرى من مملكتنا للتشاور ولقيادة كل فرق متطوعينا، تلك التي تقطع الطريق الآن على العدو والتي سوف تتشكل مجدداً لنضرب العدو في كل مكان يظهر فيه. ليسقط البلاء الذي يتأهب لإلقائنا فيه على رأسه ولتلهج أوروبا المحررة من الرق باسم روسيا»!

صاح الكونت: هذا نداء رائع!

ثم باعد بين جفنيه المبللين ونخر مرات متكررة وكأنهم نشقوه أملاحاً

وأضاف: ليس على الأمبراطور إلا أن يتكلم. لسوف نضحي بكل شيء دون أي أسف.

قفزت ناتاشا وأسرعت إلى أبيها دون أن تترك لشينشين الوقت لصرف دعايته التي أعدها حول وطنية الكونت ثم عانقته وقالت:

ـ كم أنت لطيف يا أبي!

وأرخت نظرة باتجاه پيار مستسلمة لذلك الدلال البريء الذي كان يعاودها مع مرحها.

قال شينشين: مهلاً قليلاً أيها المواطنة!

فاحتجت ناتاشا غاضبة:

ـ ولكن لا، ويلاه... إنك تستهزئ دائماً. لكنني لا أمزح.

واستأنف الكونت: ليس الأمر دعاية! ليقل كلمة فقط فنذهب كلنا... إننا ويحك لسنا ألماناً. تدخل پيار قائلاً: هل لاحظت أن النداء يقول: «للتشاور»؟

ـ آه وأية أهمية!...

وفي تلك اللحظة، تقدم پيتيا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد، نحو أبيه وقال له بصوت متقطع تارة وحاد تارة أخرى: حسناً ياأبي، أعلن لك الآن... ولأمي أيضاً ولتحمله على أي محمل تشاء،... أعلن لكم أنه يجب أن تدعاني أذهب إلى الخدمة... لأنني لم أعد أستطيع التريث، هذا كل شيء...

رفعت الكونتيسة عينيها مروعة وضمت يديها والتفتت إلى زوجها تقول: هذا ما كان يريد بلوغه!

لكن الكونت لم يحمل المسألة على محمل الأسى:

ـ هيا، هيا. لا تنطق بالحماقات. أنظر قليلاً إلى هذا المحارب الجميل! الأفضل أن تنهي دراستك.

ـ إنها ليست حماقات يا أبي. إن ڤيديا أوپولنسكي أصغر مني سناً، وهو

سيذهب بالمثل... على أية حال، لا أستطيع أن أدرس الآن وقد... وهنا توقف واندفعت الدماء إلى وجهه حتى احمر بياض عينيه ثم أنهى جملته مع ذلك!ـ: ... الآن وقد أصبح الوطن في خطر.

ـ كفى، كفى، ويلاه. إن هي إلا حماقات...

ـ لكنك قلت بنفسك منذ حين إننا سنضحي بكل شيء.

صرخ الكونت وهو ينظر إلى زوجته التي امتقع لونها وحدقت بأنظارها إلى وجه ابنها الأصغر: پيتيا هلّا لزمت الصمت!

ـ دعوني أقول لكم وسيؤيد پيار كيريللوفيتش قولي...

ـ أسكت، قلت لك! هذه حماقات. لا تزال نقطة الحليب في أنفه ثم يريد أن يجعل من نفسه جندياً. كفى، أليس كذلك؟...

ثم أضاف وهو يأخذ النداء الذي كان يزمع إعادة قراءته في مكتبه قبل قيلولة الظهر: يا پيار كيريللوفيتش، تعال ندخن غليوناً.

وكان پيار أشد اضطراباً من أي وقت مضى. وكانت عينا ناتاشا منذ بعض الوقت، شاخصتين إليه بإلحاح مربك، وهما أشد التماعاً وأكثر ممالقة من المألوف.

ـ أعذروني، سأعود إلى مسكني...

فقال الكونت بسلامة طوية وهو يشير إلى ناتاشا:

ـ كيف! إلى مسكنك وأنت الذي كنت ستقضي السهرة هنا... إنك في الفترة الأخيرة أصبحت قليل الظهور في حين أن صغيرتي ناتاشا لا تكون مرحة إلا في حضرتك.

فأسرع پيار يقول: نعم، لكنني نسيت... يجب أن أعود بأي ثمن... إنها الأعمال...

قال الكونت وهو ينسحب: حسناً إذن، إلى اللقاء.

سألت ناتاشا وهي تتفحص وجه پيار بنظرة جريئة:

ـ لماذا تذهب؟ لماذا أنت مضطرب؟ لماذا؟

ودّ پيار أن يجيب: «لأنني أحبك»! لكنه لم يستطع. احمرّ وجهه وخفض عينيه وتمتم: من الأفضل أن أقلل من زياراتي... كلا، كل ما في الأمر أنها الأعمال...

ـ لماذا؟ هيا، قل لي السبب.

ألحت ناتاشا، لكنها ما لبثت أن سكتت فجأة.

تبادلا النظر بذعر وحاول هو أن يبتسم، لكنه لم يطلع إلا بإشارة تدل على الألم، قبّل يد ناتاشا دون أن يقول كلمة واختفى.

واتخذ پيار قراراً حازماً ألّا يعود إلى منزل آل روستوف أبداً.

الفصل الحادي والعشرون

حبس پيتيا نفسه في غرفته، بعد الرفض الذي مُني به، ليبكي بدموع حارة. وعندما رجع ساعة تناول الشاي كئيباً محمرّ العينين، تظاهر كل الذين في المنزل بأنهم لم يشاهدوا من هذه البوادر شيئاً.

صباح اليوم التالي، وصل الأمبراطور فسأل كثير من خدم آل روستوف أن يسمح لهم بحضور دخوله إلى المدينة. ذلك الصباح، أطال پيتيا ترجيل شعره وارتداء ثيابه ووضع الياقة على طريقة الشخصيات الكبار. راح يقطب حاجبيه أمام المرآة ويقوم بحركات من هم أكبر منه سناً ويدير كتفيه. وأخيراً، اعتمر قبعته الوحيدة الحافة وخرج عن طريق مدخل الخدم دون أن يكلم أحداً محاولاً أن يخفي خروجه عن الأنظار. قرر الذهاب مباشرة إلى مستقر الأمبراطور وأن يخاطب مباشرة واحداً من الحجاب الكثيرين بكل جرأة وهم على ما يظن كثيرون يحيطون دائماً بجلالته. سوف يشرح له أنه الكونت روستوف وأنه رغم صغر سنه يرغب في الاضطلاع بخدمة وطنه وأن السن لا يمكن أن تؤجل التفاني وأنه مستعد... وبالاختصار، كان قد هيّأ أقوالاً كثيرة أراد قولها للحاجب الأمبراطوري.

قدر پيتيا أن صغر سنه سيدهش الجميع وأنهم، لهذا السبب بالذات، لن يتأخروا عن تقديمه إلى الأمبراطور. خلال ذلك، راح يحاول إضفاء سيماء الرجل الناضج على نفسه عن طريق تسوية ياقته وطريقة ترجيل شعره ومشيته البطيئة المتزنة. لكنه كلما أوغل في التقدم، ترك لنفسه أن تتلهى بالجماهير

التي كانت تصل من كل صوب فيبتعد عن ذلك الاتزان الخطير الذي انتهجه: وكلما اقترب من الكرملين، اضطر أن يحترز كيلا يدفعه الناس وراح يستعمل مرفقيه ليشق لنفسه الطريق بأسلوب تهديدي. وتحت باب «الثالوث»، رغم كل الجهود التي بذلها، فإن أشخاصاً جاهلين بدون شك نياته الوطنية، دفعوه بشدة إلى الجدار الضخم حتى اضطر، مرغم أخاك لا بطل، أن يتوقف ليدع رتلاً طويلاً من العربات يمر في ضجيج زاد العقد في نشره. وكان إلى جانبه امرأة من الشعب وخادم واثنان من التجار وجندي متقاعد. أراد پيتيا أن يتابع طريقه دون أن ينتظر نهاية الرتل، فراح من جديد يعيد حركة مرفقيه النشيطة لكن المرأة التي كانت أول من تعرض لحملاته، أنبته بقوة:

ـ هيه يا! أيها السيد الصغير، هلّا كففت عن الدفع؟ لا بد وأنك ترى أنهم لا يتحركون. فالزم الهدوء إذن.

وأضاف الخادم مؤيداً: دون شك. وإذا رحت تدفع، فإن الناس كلهم سنيهجون نهجك.

وقرن القول بالفعل فدفع پيتيا حتى زاوية كريهة الرائحة.

جفف پيتيا العرق الذي انثال على وجهه ورتّب على قدر ما يستطيع ياقته المبللة، تلك الياقة الجميلة التي ثبتها في البيت على طريقة الشخصيات الكبيرة.

أصبح يرى الآن أنه لم يعد ذا مظهر لائق وأنه إذا تقدم على هذا الشكل إلى الحجاب فلن يدعوه يصل إلى الأمبراطور. لكن الازدحام الذي منعه من إصلاح زينته كان أيضاً يمنعه من الخروج من ذلك المأزق. شاهد بين الجنرالات الذين كانوا يمرون واحداً ممن يعرفهم ذووه فكاد يطلب إليه العون. لكنه قدر أن ذلك غير جدير برجل مثله. ولما مرت العربات كلها، جرّه الحشد في اندفاعه إلى الساحة التي أصبحت سوداء من الخليقة كما كان حال

المرتفعات والسطوح المجاورة. فما كاد يصل إلى هناك حتى سمع بوضوح قرع الأجراس المتناسق وهمهمة الجمهور المرح.

وفجأة ران فراغ على الساحة وحسرت الرؤوس كلها وعمت اندفاعة جديدة إلى الأمام فكان پيتيا محصوراً بشدة حتى لقد تعذر عليه التنفس. وصاح الناس كلهم: «هورّا! هورّا! هورّا!» ورغم أن پيتيا تطاول على أطراف قدميه ودفع جيرانه وتعلق بهم، فإنه لم ير إلا الجمهور المحيط به.

كانت الوجوه كلها تعكس تحناناً واحداً وحماسة موحدة. وكانت بائعة إلى جوار پيتيا تنتحب وتبكي بدموع سخية وتقول في شبه ترتيل وهي تجفف عينيها: أبانا، ملكنا، أبانا!

وتعالى الهتاف من كل حدب: هورا!

واندفعت الجماهير إلى الأمام بعد هذا التوقف القصير.

وفي أوج الانفعال، اندفع پيتيا، شاداً على أنيابه وعيناه خارج محجريهما وهو يعمل مرفقيه بنشاط ويصيح: «هورّا»! وكان يبدو أشبه بمن على استعداد لإفناء نفسه والآخرين. ومن حوله كل الوجوه على مثل وحشية مظهر وجهه تندفع إلى الأمام وتزمجر هي الأخرى: «هورّا!».

قال پيتيا في نفسه: «إذن هذا هو الأمبراطور! يستحيل في مثل هذه الظروف أن أرفع إليه ملتمسي. سيكون تجاوزاً في الاجتراء!» مع ذلك فقد استمر يدفع بيأس وأصبح يرى وراء الأكتاف التي أمامه رقعة فارغة رسم عليها طريق من النجد الحمراء. ولكن في اللحظة نفسها، تقهقر الجمهور لأن رجال الشرطة صدوا أولئك الذين تجاوزوا حد الاقتراب: كان الأمبراطور ينتقل من القصر إلى كاتدرائية أسومسيون (انتقال العذراء) وحينذاك تلقى پيتيا في جنبه ضربة بلغت من الشدة حداً دارت له عيناه وفقد الوعي وعندما استفاق، وجد رجل كنيسة بجبة خلقة وذيل صغير من الشعر الأشيب على القذال، شماساً

ولا ريب، يرفعه بإحدى يديه من تحت إبطه بينما يدفع عنه باليد الأخرى غائلة الضغط.

ـ قد سحقوا السيد الصغير! ترفقوا، هه، ترفقوا!... لقد سحقوه، المسكين!...

وكان الأمبراطور قد دخل الكاتدرائية وكف اللجب فاستطاع الشماس أن يقود پيتيا الممتقع الوجه، الذي كان يتنفس بصعوبة نحو «ملك المدافع ـ مدفع أقيم قرب باب القديس نيكولا وقد صنع في القرن السادس عشر وزنته «١٩٦٠٠٥» كيلوغرامات، وهذا سبب التسمية». ولقد تحنن بعض الأشخاص على مصيره فاندفع الجمهور نحوه. أسرع الأقربون إليه يفكون أزراره ويجلسونه على قاعدة المدفع وكلهم يقذفون أقذع الشتائم بحق «الدهاسين» المجهولين.

ـ ذلك أنه كان بإمكانه المرور بكل راحة. هل يتصور العقل هذا؟ قتل حقيقي! إنه أبيض كقطعة قماش، الظريف الصغير!

لم يلبث پيتيا أن استعاد قواه وعادت الألوان إلى وجهه وزال الألم. ولقد حصل على مكان جيد فوق المدفع بفضل هذا الطارئ، ومن موضعه، راح يأمل أن يرى الأمبراطور لدى عودته. أما عن المتلمس، فلم يعد البحث يتعلق به. لقد أصبحت رؤية الأمبراطور وحدها كافية لإسعاده!

وبينما كان يقام في الكاتدرائية قداس شكر لعودة الأمبراطور كما لإجراء الصلح مع الأتراك، أخذت الجماهير تتفرق. وشوهد منادون على شراب «كفاس»[1] والحلوى والقنبز (حب الخشخاش) التي يعتبر پيتيا من كبار هواتها، يظهرون، وتبودلت حوله أحاديث مبتذلة. كانت بائعة تُري شالها

(١) شراب روسي يُستخرج من الشعير. (المترجم).

الممزق وتزعم أنه كلفها عيني رأسها، وأخرى تؤكد أن الأقمشة الحريرية باتت لا تحصر بثمن. والشماس الذي أنقذ پيتيا يقدم لأحد الموظفين معلومات إضافية عن الشخصيات التي تشارك عظمته في القداس، ويلفظ عدة مرات كلمة «حبريّ» الذي استغلق معناها على پيتيا واثنان من أصحاب الحرف الشبان يمجنان مع خادمتين تقضمان بندقاً. ولقد كانت كل هذه الأحاديث، وبصورة خاصة دعابات الشابين التي كان لا بد وأن تلفت انتباه من هو في سنه، أمراً لا يأبه له فكان وهو في وقوفه على المدفع، يذوب شوقاً وهو يفكر في الأمبراطور وكانت ذكرى إغمائه ومخاوفه أثناء الازدحام ترفع من معنوياته وتجعل هذه اللحظة الرهيبة خالدة إلى الأبد في ذهنه.

ودوت فجأة طلقات المدافع على طول رصيف الميناء حيث كانوا يطلقونها احتفالاً بالسلم مع تركيا. اندفعت الجماهير نحو ذلك الاتجاه وهمّ پيتيا أن يحذو حذوها. لكن الشماس الذي وضعه تحت حمايته منعه. وكانت الطلقات لا تزال تدوي حينما شوهد الجنرالات والضباط والحجاب يخرجون من الكاتدرائية بسرعة وأعقبهم أشخاص آخرون أقل تعجلاً. وانحسرت الرؤوس مجدداً وارتد الفضوليون الذين اندفعوا نحو الرصيف إلى الساحة مرة أخرى. أخيراً، ظهر أربعة من كبار الشخصيات بالأشرطة الطويلة والبزة الرسمية في فناء الكنيسة فصاحت الجماهير مرة جديدة «هورّا»!

سأل پيتيا جيرانه بصوت منتحب: أيهم هو؟ أيهم؟

فلم يجبه أحد. كان الناس جميعهم في أوج الانشغال. انتخب واحد من الأربعة اعتباطاً ما كان يستطيع تمييز تقاطيعه بعينيه اللتين تبللهما الدموع وركز كل حماسته فيه رغم أنه لم يكن الأمبراطور. أطلق صيحة «هورّا» مجنونة وقرر فيما بينه وبين نفسه أن ينخرط منذ الغد في سلك الجندية مهما كلف الأمر.

وبعد أن سارت الجماهير حتى القصر وراء الأمبراطور، بدأت تتفرق.

وأصبح الوقت متأخراً و پيتيا لم يذق بعد طعاماً فكان العرق ينثال على جبينه. مع ذلك، لم يفكر في العودة، انضم إلى المتسكعين الذين كانوا عدداً وفيراً مجتمعين أمام القصر، بقي هناك طوال الوقت الذي استغرقه جلالته في تناول الطعام، منتظراً، الله يعلم أي حدث، وهو يحسد المدعوين إلى المائدة كما يحسد الخدم الذين كان يراهم من النوافذ.

قال ڤالوييف أثناء الطعام وهو يلقي نظرة إلى الخارج: لايزال الشعب يأمل رؤية جلالته.

وعند النهوض عن المائدة، انتقل الأمبراطور إلى الشرفة وهو لا يزال يمضغ قطعة من البسكويت. فأسرع الحشد وپيتيا بينه إلى ناحيته.

راح الشعب يصيح و پيتيا معه: يا ملكنا! يا أبانا! هورّا! يا أبانا!...

وراحت النسوة من جديد، كما راح الرجال الذين يستبد بهم الحنان سريعاً، و پيتيا من هؤلاء، يذرفون دموع الفرح.

سقط جانب غير صغير من قطعة البسكويت التي كان الأمبراطور ممسكاً بها من يده على حاجز الشرفة وقفز منه إلى الأرض فاندفع حوذي ذو معطف عريض كان أقرب الناس إلى مكان سقوط القطعة والتقطها بشدة. وارتمى البعض من جواره عليه وحينئذ، استقدم الأمبراطور طبقاً من البسكويت وراح يلقي محتوياته من أعلى الشرفة. احتقنت عينا پيتيا بالدم وقد أثارته جاذبية الخطر، فاندفع إلى الأمام. كان يريد أن يعرف السبب، أن يحصل بأي ثمن على واحدة من قطع البسكويت تلك التي سقطت من يد القيصر. ولقد طرح في اندفاعه امرأة عجوزاً كانت على وشك التقاط قطعة. وعلى الرغم من سقوط هذه على الأرض فإنها لم تنهزم. لكن ذراعها كانت أقصر من أن تصل. دفعها پيتيا بضربة من ركبته وتناول القطعة ثم أطلق «هورا» جديدة خشية أن

يكون قد اقتصد في إظهار حقيقة مشاعره بدونها. لكنها جاءت بصوت أبح قليلاً.

احتجب الأمبراطور فتفرق الناس كلهم تقريباً هذه المرة: وكانت أصوات مبتهجة تقول من كل صوب: كنت متأكداً أنه يجب الانتظار ولم أخطئ في ظني.

أفسد مزاج پيتيا الفرح فكرة انتهاء متعة النهار. ولما لم يكن يريد أن يعود بعد، فقد مر على صديقه أوبولنسكي، وهو في مثل سنه، الذي كان يتأهب للالتحاق بالفوج. ولما رجع إلى المنزل، أعلن بعزم أنهم إذا لم يدعوه يتصرف كما يريد، فسوف يهرب من البيت. ومنذ صبيحة اليوم التالي، ذهب الكونت العجوز، وإن كان ضد إرادته، يستعلم عن الوسائل التي تمكنه من إلحاق پيتيا بالخدمة دون أن يعرضه كثيراً للخطر.

الفصل الثاني والعشرون

ملأ جمع غفير القاعات، في اليوم التالي، في الخامس عشر من تموز وقد توقف عدد كبير من العربات أمام قصر سلوبووسكي، وفي القاعة الأولى اجتمع النبلاء في لباسهم الرسمي، وفي الثانية التجار ذوو اللحى الطويلة.

«وميدالياتهم» تتدلى فوق «قفاطينهم» الزرقاء. وكانت قاعة النبلاء تعج بحيوية جياشة. ولقد كان أكثر الشخصيات أهمية يجلسون بجلال حول طاولة كبيرة والآخرون يروحون ويجيئون.

كان هؤلاء النبلاء كلهم الذين كان پيار يختلط بهم كل يوم سواء في النادي أو في منازلهم، يرتدون بزات بعضها يرجع إلى أيام كاترين وپول وألكسندر أو البزة البسيطة عند النبلاء، فكان هذا الطابع «الرسمي» يضفي شيئاً غريباً خيالياً على تلك الوجوه المسنة أو الفتية المختلفة والمألوفة. ولقد كان الكهول وهم بين قصير بصر وأصلع، منتفخ بالدهن الأصفر أو نحيل مهزول يثيرون الفضول بصورة خاصة. ما كانوا ينطقون بكلمة ولا يتحركون من أماكنهم وإذا نهضوا من أماكنهم، فليحدثوا من هم أصغر سناً. وهنا، كما على الساحة حيث كان پيتيا، كانت الوجوه تنطق إضافة إلى ترقب حدث جلل بمشاغل شديدة الإسفاف كلعبة «الباصرة» ومواهب الطاهي پيروشكا وصحة زيناييدا دميترييڤنا إلخ...

كان پيار الذي ارتدى منذ الصباح الباكر بزة النبلاء التي أصبحت ضيقة عليه، موجوداً في القاعة فريسة تأثير شديد جداً. لقد كان الاجتماع الخارق،

ليس للنبلاء بل للتجار كذلك، تلك الدعوة لطبقات مختلفة، وبالاختصار، تلك «الطبقات العامة» توقظ في نفسه مجموعة من الأفكار أغفت منذ أمد طويل ولكنها ظلت ملقية مرساتها في ذهنه، أفكار تدور حول «العقد الاجتماعي»[1] والثورة الفرنسية. وكان المقطع الذي جاء في النداء، والذي قال الأمبراطور فيه إنه قادم إلى عاصمته «للتداول» مع شعبه، يحدث في نفسه أثراً قوياً. ولما كان تبعاً لهذا التسلسل من الأفكار، يفترض جدلاً أن هناك أمراً هاماً في طور الإعداد، ينتظر صدوره عنه منذ أمد بعيد، فقد راح يتجول بين الجماعات وينظر حوله ويصيخ السمع إلى المحادثات دون أن يكتشف فيها على أية حال ما يستجيب لتخيلاته.

قُرئ النداء الذي استفز الحماسة ثم استؤنفت المحادثات. ولقد سمع پيار إضافة إلى المواضيع الاعتيادية، مناقشات حول الأمكنة التي سيحتلها رؤساء الإشراف لدى دخول جلالته وحول تاريخ الحفلة الراقصة التي ستقام على شرفه والطريقة المفضلة للاجتماع: كل مقاطعة أو كل إقليم؟ إلخ... ولكن ما إن يعود البحث إلى الحرب وموضوع الاجتماع نفسه حتى يدخلوا حدود الغموض، فكانوا يفضلون الإصغاء على التكلم.

كان سيد في سن متقدّمة، عسكري المظهر، بهيّ الصورة، في بزة البحار المتقاعد، يغط وسط جمع، فاقترب پيار ليصغي إليه. وكان الكونت إيليا اندييـڤيتش في «قفطان» حاكم مدينة يرجع زيه إلى عصر كاترين الثانية، يخطر والابتسامة على شفتيه بين هذه الوجوه من معارفه. فأصاخ هو الآخر السمع وعلى وجهه طابع العطف المألوف في تلك المناسبات وأخذ يشجع المحاضر بهزات رأسه المؤيدة. وكان يبدو أن البحار يتطرق إلى بحوث بالغة

---

(١) كتاب شهير لجان جاك روسو، أوحى بمعظم سياسات الثورة الفرنسية. (المترجم).

الجرأة إذا حكمنا أقله مظاهر التبدل التي كانت تطرأ على وجوه مستمعيه ومناقضة بعضهم له، ممن يعرف پيار مزاجهم السلمي، بل ابتعادهم عنه استنكاراً لأقواله.

شق پيار مزاجهم السلمي، بل استطاع أن يقنع نفسه أن المتحدث الجميل متحزب حقاً للحرية والمدنية والدينية ولكن باتجاه يختلف كل الاختلاف عن اتجاهه. كان للبحار صوت خفيض، يلثغ بملاحة و«يبتلع» الأحرف الساكنة، من تلك الأصوات الخاصة بالنبلاء الذين ألفوا الصراخ: «يا غلام، إليّ بغليوني!» أو أي شيء آخر من هذا النوع: صوت مترف اعتاد إصدار الأوامر.

ـ لقد عرض نبلاء سمولنسك متطوعين على الأمبراطور؟ وماذا بعد؟ هل هم الذين يسنون لنا القانون؟ إذا وجدت طبقة النبلاء المبجلة في موسكو ضرورة لإظهار إخلاصها لجلالته، فإنها تستطيع إظهارها على شكل آخر. هل نسينا المتطوعين عام ١٨٠٧؟ لم يربح بينهم إلا الكهنة والمحتالون...

كان الكونت إيليا أندرييـڤيتش يؤيد أقواله برأسه وعلى شفتيه ابتسامته الدمثة.

هل كان متطوعونا ذوي فائدة للبلاد؟ كلا على ما أعلم. لقد نكبونا بكل بساطة. بل إن التجنيد أفضل... وإلا، فإنهم لن يعودوا إلينا جنوداً ولا فلاحين بل فاسقين ليس إلا. إن النبلاء لا يساومون على حياتهم. سوف نذهب جميعناوسنعود بمجندين.

ثم أعقب باندفاع حماسي متمماً: ليوجه الأمبراطور إلينا النداء فقط فنموت كلنا من أجله.

كان إيليا أندرييـڤيتش يبتلع لعابه من الرضى ويلكز پيار بمرفقه. لكن هذا كان يريد بدوره أن يقول كلمته. تقدم إلى الأمام مستسلماً لاندفاع غامض

دون أن يعرف على الضبط ما يريد أن يقول. ما كاد يفتح فمه حتى قاطعه عضو في مجلس الشيوخ، ذو وجه غاضب عليه علامات الذكاء كان واقفاً قرب الخطيب. قال بلهجة واضحة هادئة، لهجة رجل خبير بالمناقشات: افترض يا سيدي العزيز أننا لم نستدع إلى هنا لمناقشة المزايا التي يمكن أن تعطيها في الظروف الحاضرة طريقتا التطوع أو التجنيد. يجب أن نجيب عن النداء الذي شرفنا به جلالته. أما الاختيار والتقرير بين التطوع والتجنيد فأمر يجب أن نتركه للسلطة العليا... وما يلبث پيار أن وجد مخرجاً للغليان الداخلي. كيف! إن هذا العجوز يريد فرض وجهات نظره الضيقة المتطرفة في الانسجام مع التشريع على مداولات النبلاء! تقدم خطوة إلى الأمام وراح يحاضر بحماسة وقد قطع عليه الكلام، رغم أنه استعمل لغة روسية مدرسية محشوة بتعابير فرنسية.

بدأ يقول: أعذرني يا صاحب السعادة...

ذلك أنه رغم العلاقات الطيبة التي تجمعه بهذا العجوز، فقد ارتأى أن من الأفضل منحه لقبه الرسمي.

ـ على الرغم من أنني لا أشارك رأي السيد، وهمّ أن يضيف قوله: المشرع كلي الاحترام. لكنه أمسك وأضاف، الذي لم يحصل لي شرف معرفته، فإنني أفترض أن طبقة النبلاء قد استدعيت إلى هذا المكان ليس لتعبر عن مشاعرها وحماستها فحسب، بل لتناقش كذلك الوسائل التي يمكن أن تلجأ إليها لنجدة الوطن.

ثم تابع وهو يزداد اندفاعاً:

ـ إنني أعتقد أن الأمبراطور نفسه سيكون مستاء إذا لم يجد فينا إلا مالكي قرويين... للمدفع... إذا لم يجد فينا... مجلساً استشارياً.

ولقد حفزت هذه اللغة شديدة التحرر وابتسامة العجوز المزدرية أناساً كثيرين على الابتعاد. فلم يؤيد خطاب پيار غير إيليا أندرييڤيتش، كما أيد من

قبل خطاب البحار والعجوز وكما كان على استعداد لتأييد كل شخص يكون آخر من يتكلم.

واسترسل پيار: أقدر أنه قبل مناقشة هذه المسائل، يجب علينا أن نسأل الأمبراطور. نعم، أن نسأل بكل احترام جلالته أن يعلمنا بعدد قواتنا ومركز جيوشنا وعندئذ.

لم يتمكن پيار أن يكمل لأنهم هاجموه من ثلاث جهات معاً. وكان أكثر خصومه قسوة من أقدم زملائه في لعبة «الباصرة» التي لم يكن قط إلا من كان على استعداد لخدمته، ستيپان ستيپانوڤيتش أدراكسين كان هذا السيد الآن يرتدي البزة الرسمية. وسواء كان لهذا السبب أو لسبب آخر، فإن پيار وجد أمامه رجلاً آخر مختلفاً. صاح ستيپان ستيپانوڤيتش وقد تقلصت قسمات وجهه بغضب الشيخوخة:

ـ أولاً لا حق لنا بطرح هذا السؤال على الأمبراطور. وفي المرحلة الثانية لو أن للأشراف الروس هذا الحق، فإن الأمبراطور لا يستطيع أن يجيبنا. إن سير جيوشنا تابع لسير العدو أما العدد فهو تارة منخفض وتارة مرتفع...

وارتفع صوت آخر، صوت رجل متوسط القامة في حوالى الأربعين من عمره، كان پيار قد عرفه من قبل عند البوهيميين وكان غشاشاً في اللعب: تحول هو الآخر في البزة، فتقدم من پيار وقاطع أدراكسين صاح:

ـ على أية حال، إن الوقت الآن ليس وقت النقاش بل العمل: إن الحرب في بلدنا. إنّ العدو يقترب ليمحو روسيا، ليدنس ضرائح أبنائنا، ليقتل نساءنا وأولادنا. سوف ننهض جميعنا وسنعطي كل شيء من أنفسنا إلى أبينا القيصر!

كان يصرخ ويضرب صدره ويدير عينيه المعكرتين بالدم. ولقد ارتفعت بضع كلمات مؤيدة بين الصفوف ـ إننا روس، ولن ندخر دماءنا لندافع عن الدين وعن العرش والوطن لندع جانباً كل هذه السخافات إذا كنا بالفعل أبناء حقيقيين لهذا الوطن. سوف نري أوروبا كيف تنهض روسيا من أجل روسيا.

أراد پيار أن يجيب، لكنه اعترف بعجزه. كان يرى أن كلماته، لولا المعنى الذي تحمله، أقل صدى من أقوال هؤلاء السادة الممجدين.

وكان إيليا أندرييـڤيتش يؤيد وراء الجمع. ولقد جاء بعض السامعين يشدون أزر الخطيب ببسالة وهم يؤيدون أقواله بـ: «عظيم جداً! عظيم جداً! كامل! هو كذلك!».

أراد پيار أن يقول إنه هو الآخر عى استعداد لكل التضحيات بالرجال والمال وأن يضحي بنفسه إذا اقتضى الأمر ولكن، لكي يمكن علاج الموقف يجب قبل كل شيء معرفته؟ لكنه لم يستطع: كانوا جميعاً يصرخون ويتحدثون معاً لدرجة أن إيليا أندرييـڤيتش كان لا يكف عن هز رأسه مؤيداً وكان الجمع المتحمس يزداد عددياً تارة وتارة يتفرق شمله ليعود إلى التشكل مجدداً ويتجه نحو الطاولة الكبيرة عبر القاعة. لم يكن پيار عاجزاً عن إبداء كلمة واحدة فحسب، بل كانوا كذلك يقاطعونه بغلظة ويصدونه أو يشيحون بوجوههم عنه وكأنه العدو المشترك. غير أن خطابه لم يكن ذا أثر في هذا الحشد إذ سرعان ما نسوه تماماً بعد الخطب التي تلته. لكن لا بد لذلك الجمهور المثار أن يعبر عن موجدته كما يعبر عن حبه فكان پيار كبش الفداء.

وتحدث كل النبلاء الذين تعاقبوا بعد النبيل المستفز على تلك الوتيرة فأجاد بعضهم ولم يخرج البعض الآخر على الطريق المبتذلة. ولقد قال صاحب «الرسول الروسي» الذي استقبلوه بهتافات: «الكاتب! الكاتب!» وكان اسمه سيرج جلينكا: «يجب أن تصد الجحيم بالجحيم» وإنه «رأى فتى يبتسم على ضوء البرق وقصف الرعود» ولكن «لن تكون نحن ذلك الفتى».

وكرروا في الصفوف الخلفية دون أن يفهموا: نعم، نعم، على قصف الرعد!

اقترب الحشد من الطاولة الكبيرة التي جلس وراءها كبار ذوي المقام متشحين بأوسمتهم. وكانوا كلهم سبعينيين بعضهم أصلع وبعضهم عديم الشعر، كان پيار يعرفهم سواء في بيوتهم بين مهرجيهم أو في النادي حول طاولات «الباصرة» مع ذلك فإن المحادثات لم تتوقف. راح الخطباء، واحد إثر الآخر، وأحياناً اثنان معاً يتكلمون يضغطهم الجمهور فيلصقهم بمساند الكراسي العالية. وكان أولئك الذين في المؤخرة، يسجلون ما لم يقله الخطباء ليقولوه بدورهم. وبعضهم يعصر دماغه وسط ذلك الازدحام وتلك الحرارة محاولين اكتشاف فكرة ما، لم يسبقهم أحد إلى إعلانها، علهم يذيعونها على الآخرين. وكان ذوو المقام، جامدين في مقاعدهم يلقون حولهم نظرات وجلة ووجوههم لا تعبر إلا عن شيء واحد، هو أنهم يشعرون بحرارة شديدة. وكان پيار خلال هذه الفترة، يشعر بالتأثر: تلك الرغبة في البرهنة بأي ثمن على إخلاصه للوطن، التي كان يقرأها على كل الوجوه والتي كانت الأصوات تعبر عنها خيراً مما تعبر الخطب نفسها، بدأت تغزو مخيلته. شعر شعوراً غامضاً بأنه مذنب دون أن ينكر جانباً من آرائه التي يؤمن بها فأراد أن يبرر سلوكه.

صاح محاولاً أن يطغى على الأصوات كلها: كل ما قلته هو أن تضحياتنا ستكون أكثر سهولة لو أننا عرفنا على الضبط الحاجات الداعية إليها.

أدار عجوز، وهو أقرب الجوار إليه، نظره نحوه. لكنه لم يلبث أن مال به إلى الجانب الآخر من الطاولة حيث كان بعضهم يقول:

ـ نعم، سوف تنقذ موسكو! سوف تكون منقذتنا!

وصاح صوت آخر: إنه عدو الجنس البشري!... دعوني أتكلم... أيها السادة، إنكم تخنقونني!...

الفصل الثالث والعشرون

دخل الكونت روستوبتشين القاعة، مرتدياً بزة جنرال، في تلك الأثناء، ومتقلداً الوشاح الأكبر، بارز الذقن، متقد العينين، يسير بخطى سريعة ففسحت له جماعة النبلاء في الطريق.

ـ سوف يصل جلالته. قال. لقد جئت الآن من القصر. أظن أن في الموقف الذي نحن فيه، لا مجال للنقاش طويلاً. لقد تفضل الأمبراطور فجمعنا كما جمع رجال التجارة.

ثم أضاف وهو يشير إلى قاعة التجار: سوف تأتي الملايين من هنا. إن دورنا نحن يقتصر على إعطاء المتطوعين وعدم توفير أنفسنا... وهذا أقل ما نستطيع عمله.

وجرت مشاورة بصوت أكثر خفوتاً بين السادة الجالسين وراء الطاولة وحدهم. ولقد أحدث سماع تلك الأصوات المحطمة، بعد ذلك الصخب الأخير وهي تدلي برأيها الواحد تلو الآخر، نوعاً من الحزن. كان هذا يقول: «إنني أوافق» وذلك ليبدل العبارة: «إنني من الرأي نفسه».

تلقى أمين السر الأمر بتسجيل القرار التالي من النبلاء الروس: «إن نبلاء موسكو، أسوة بأمثالهم في سمولنسك، يعطون عشرة رجال على كل ألف رجل مع تجهيزاتهم الكاملة». ثم نهض ذوو المراكز المرموقة براحة ظاهرة فدفعوا كراسيهم بجلبة وتوزّعوا في القاعة ممسكين بمعارفهم من سواعدهم

ومثرثرين معهم في شتى المواضيع وكأنهم بانتشارهم أرادوا أن يحركوا أطرافهم الساكنة.

صاح بعضهم فجأة: الأمبراطور! الأمبراطور!

ثم أسرع الجميع نحو المدخل.

على طول طريق عريض يحيط به من الجانبين سياج مزدوج من النبلاء، تقدم ألكسندر إلى القاعة. كانت الوجوه كلها معبرة عن فضول خاشع وجل معاً. لم يميز پيار وهو في مكانه البعيد الكلمات التي قالها جلالته. لكنه فهم فقط أنه يتكلم عن الخطر الذي تتعرض البلاد له وعن الآمال التي يبنيها على نبلاء موسكو. وأجاب صوت ينهي إلى جلالته القرار الذي اتخذ.

بدأ الأمبراطور يقول بصوت متهدج: أيها السادة.

وسادت الجموع رعشة ثم ران صمت عميق فسمع پيار بوضوح صوت ألكسندر العذب المتأثر يقول:

ـ إنني لم أرتب قط في غيرة الأشراف الروس. لكن هذه الغيرة اليوم فاقت ما كنت أتوقع. أشكركم باسم الوطن. لنعمل أيها السادة، الوقت ثمين.

سكت الأمبراطور فتألبت الجموع حوله وراحت أصوات التعجب المجنونة تنطلق من كل مكان. وكان إيليا أندرييـڤيتش يقول في الصفوف الخلفية وهو ينتحب رغم أنه لم يسمع شيئاً بل كان يفهم كل شيء على طريقته: نعم، إن أثمن ما في الأمر هو كلمة القيصر.

انتقل الأمبراطور من قاعة الأشراف إلى قاعة التجار حيث بقي قرابة عشر دقائق. ولقد رآه پيار ككثير غيره، وفي عينيه دموع الحنان. وكما نما إليهم فيما بعد، لم يكد ألكسندر يبدأ خطابه إلى رجال التجارة حتى انهمرت الدموع من عينيه فلم يفرغ من أقواله إلا بصوت لاهث. وكان اثنان من الحاضرين يرافقانه: أحدهما، وكان پيار يعرفه، تاجر مشروبات روحية كبير والآخر، ذو

وجه أصفر هزيل ولحية ضعيفة، كان نقيب التجار. وكان كلاهما يبكيان. وكانت عينا الهزيل مبللة بالدموع أما الآخر، فكان ينتحب كالطفل ويكرر دون كلال: خذ حياتي وثروتي يا صاحب الجلالة!

باتت رغبة پيار الوحيدة الآن أن يظهر على الملأ أنه لا يأسف على أية تضحية وأن يسخر من كل شيء آخر. كان يأسف على ميوله التأسيسية التي أبداها في خطابه وراح ينتهز الفرصة لإصلاح خطأه. ولما علم أن الكونت مامونوف يقدم فوجاً كاملاً، أعلن فوراً للكونت روستوبتشين أنه يقدم ألف رجل ويتحمل مسؤولياتهم.

لم يستطع روستوف العجوز أن يتمالك دموعه وهو يروي لزوجته كل ما حدث وأذعن فوراً لإلحاح پيتيا فذهب بنفسه يسجله في عداد المتطوعين.

وفي اليوم التالي، ذهب الأمبراطور وخلع كل أعضاء الجمعية أزياءهم الرسمية وعادوا إلى مألوف عاداتهم في بيوتهم وفي النادي وراحوا يوعزون إلى مديري أعمالهم بالأوامر المتعلقة بالتطوع في شيء من الهمهمة وهم في دهشة من أنفسهم لما بذلوه.

الجزء العاشر

الفصل الأول

لم يستطع ناپليون إلا أن يصل إلى دريسد ويحارب روسيا ولم يتجنّب الاستسلام لسكرة المجد والعظمة وارتداء بزة بولونية وأن يذعن لفتنة صباح جميل من حزيران المثير وكذلك لأنه لم يعرف قط كيف يخمد لحظات غضب في حضرة كوراكين ثم بالاشيف.

رفض ألكسندر كل مفاوضات لأنه كان يظن أنه أهين شخصياً. واجتهد باركلي دوتولي ليقود الجيش أفضل قيادة حتى يقوم بواجبه ويحصل على شهرة رئيس كبير. واندفع روستوف يهاجم الفرنسيين لأنه لم يستطع الصمود لرغبة الجري على الحصان في الأرض البراح. وهكذا كان يتصرف الأشخاص الذين لا عدّ لهم ممن ساهموا في الحرب، تبعاً لاستعداداتهم الشخصية وعاداتهم وشروط حياتهم أو مقدراتهم. كانوا يحسون بالخوف ويتباهون ويسخطون ويناقشون ويعتقدون أنهم يعرفون ما هم فاعلون وأنهم إنما يفعلونه لحسابهم الخاص في حين كانوا أدوات صمّاء في يد التاريخ، يقومون بعمل يستغلق معناه عليهم، عمل نفهمه نحن الآن. كذلك هو مصير كل رجال العمل الذي لا يتبدل: إنهم أقل حرية كلما شغلوا منصباً أكبر في التسلسل الاجتماعي.

اختفى صانعو أحداث ١٨١٢ منذ زمن طويل ولم تعد للمصالح التي جعلتهم ينشطون أي أثر فلم تبق إلا النتائج التاريخية لتلك الحقبة من التاريخ.

لكننا إذا اعتبرنا أن سكان أوروبا كان عليهم أن يوغلوا على عهد ناپليون في قلب روسيا ليهلكوا فيها، فإن سلوك المساهمين في الحرب كلهم، ذلك السلوك المعاكس الوحشي، يصبح غير مفهوم لدينا.

كان القدر يلجئ كل واحد من أولئك الرجال إلى المساهمة في الوقت نفسه الذي يتتبع فيه أهدافاً شخصية، في نتيجة واحدة هائلة، لم يكن لأحدهما، سواء كان ناپليون أو ألكسندر، بل لم يكن لأي كان من الفاعلين، أية فكرة عنها.

نرى اليوم بشكل واضح السبب الذي أدى إلى هزيمة الجيش الفرنسي عام ١٨١٢ ما من أحد يناقض القول إن ذلك البلاء العظيم كان أولاً بسبب الدخول المتأخر إلى قلب روسيا دون استعدادات كافية لحملة شتوية ومن ثم بسبب العقلية المتأثرة بالحرب التي دلت عليها حرائق المدن والموجدة المثارة في نفوس الشعب الروسي إزاء المحتل. ولكن ما من أحد كان بإمكانه حينذاك أن يتنبأ بما يبدو لنا اليوم بديهياً وخصوصاً إذا علمنا أن هذه الأسباب وحدها كانت السبب في انهيار جيش قوامه ثمانمائة ألف رجل وأنه كان أفضل جيش في العالم يقوده أعظم القادة، في وجه جيش أضعف مرتين منه، محروم من كل خبرة، يقوده جنرالات غير مجربين كذلك.

ليس فقط أن ما من أحد كان يستطيع تخمين ذلك بل كذلك أنه بينما كانوا من الجانب الروسي يحبطون التدابير الآيلة إلى إنقاذ روسيا بجهد وكأنهم يجدون متعة فيه، كانوا من الجانب الفرنسي كذلك رغم خبرة ناپليون وعبقريته المزعومة، يبذلون أقصى الجهد للوصول إلى موسكو حوالى نهاية الصيف، أو بعبارة أخرى، يعملون ذاك الذي كان عليه أن يسبب هلاكهم.

ففي كتب التاريخ عن عام ١٨١٢، يلح الفرنسيون بمجاملة حول واقع ناپليون الذي كان يشعر بخطر إطالة خطه الحربي وأنه كان يسعى إلى المعركة وأن ماريشالاته كانوا يشيرون عليه بالتوقف في سمولنسك وبالإيجاز، حول

عدد من الذرائع الرامية إلى الدلالة على أنهم كانوا يشعرون بالخطر. ومن جهة ثانية، يؤكد المؤرخون الروس بأكثر مجاملة أيضاً وجود خطة «حرب ياجوجية» منذ البداية غايتها استدراج ناپليون إلى قلب روسيا ويعزون هذه الخطة إلى پفويل تارة وإلى تولّ تارة أخرى، بعضهم يعزوها إلى فرنسي والبعض الآخر إلى ألكسندر نفسه مستندين في ذلك إلى المذكرات والمشاريع والرسائل التي وردت فيها بالفعل تنويهات عن هذا النوع من التصرف. ولكن كل هذه التلميحات إلى استقراء ما كان سيحدث سواء من الجانب الروسي أو من الجانب الفرنسي، لم تستعرض إلا في هذا الوقت لأن الحدث نفسه قد أيدها. فلو أن ما وقع كان، العكس، لنسيت هي الأخرى اليوم كما نسيت ألوف الفرضيات التي درجت حينذاك والتي ثبت بطلانها. إنّ نتيجة كل حدث تبيح كثيراً من الافتراضات حتى أنك لن تعدم أشخاصاً يقولون مؤكدين: «لقد قلت هذا من قبل!» متناسين أن بين هذه الافتراضات التي لا تعدّ،وقع عدد آخر مما يناقض هذه تناقضاً كلياً.

لذلك فإن شعور ناپليون بالخطر لتوسيع خطه الحربي والخطة المدروسة الهادفة إلى استدراج العدو إلى قلب روسيا، إنما هما من هذا النوع من الفرضيات. ولا بد وأن المؤرخين قد تجاوزوا الواقع كثيراً ليستطيعوا أن يعزوا وجهة النظر تلك كلها إلى ناپليون وتلك الخطة إلى الرؤساء الروس لأن الوقائع كلها تعطي تكذيباً واضحاً هذه الافتراضات المجانية. لقد عمل الروس كل ما في وسعهم بعيداً عن فكرة استدراج الفرنسيين إلى قلب بلادهم لتأخير العدو منذ أن بدأ التقدم. وناپليون، بعيداً عن التخوف من امتداد خط القتال، كان يبتهج، ابتهاجه بنصر مبين، بعد كل خطوة إلى الأمام ولا يبحث عن المعركة إلا بتراخ خلافاً لحملاته السابقة.

شُطرت جيوشنا منذ اندلاع الحرب فلم يكن همنا إلا جمعها في حين

أن التقهقر واجتذاب العدو إلى داخل البلاد لم يكن حلاً يبشر بأي أهمية. وإذا كان الأمبراطور موجوداً حينذاك في صفوف الجيش فإنما كانت غايته لتشجيع قطعاته على الدفاع عن كل «بوصة» من الأرض وليس ليرأس التقهقر. لقد نظموا معسكر دريسا الهائل وفقاً لخطة پفويل ليس للتقهقر بل للصمود فيه. ولقد وجه ألكسندر اللوم إلى القائد الأعلى على كل خطوة إلى الوراء. ولم يكن حريق موسكو ولا هجر سمولنسك من الأشياء المقبولة. ولما قامت الجيوش بحركة انضمام بعضها إلى بعض، سخط لرؤية هذه المدينة الأخيرة تسقط في أيدي العدو دون أن تدور تحت جدرانها معركة شاملة.

كان القادة العسكريون والشعب الروسي كله، كالأمبراطور نفسه، محزونين حزناً أليماً لتقدم العدو.

وراح ناپليون يتوغل إلى الأمام، بعد أن شطر جيوشنا، يتجنّب مناسبات كثيرة للالتحام في معركة. ففي شهر آب، كان في سمولنسك. فلم يفكر إلا في استمراره في الهجوم الذي، كما نراه الآن، أصبح قاضياً عليه قضاء مبرماً.

وتثبت الوقائع، بشكل جازم، أن ناپليون لم يكن يتوقع أي خطر في سيره باتجاه موسكو وأن ألكسندر، بعيداً عن تسهيل مثل هذه الحركة، راح مع جنرالاته يفكر في وضع عائق لها. فالحادثة إذن وقعت ليس تبعاً لخطة ما، لأن ما من أحد كان حتى يتوقع هذا الاحتمال، بل بفعل سلسلة شديدة التعقيد من الدسائس والأهواء والرغبات، كانت الخلاص الأوحد لروسيا ولو أن صانعي الحرب لم يحدسوا ما كان سيقع تبعاً لها، لقد وقع كل على حين غرة.

كانت جيوشنا مشطورة منذ بدء الحملة فحاولنا جهدنا أن نجمعها ونحن نهدف من وراء ذلك بديهياً إلى الدخول في معركة وإيقاف العدو، وفي سياق هذه المحاولة، وبينما نحن نتجنّب لقاء قوات أوفر منا عدداً، قدنا الفرنسيين إلى سمولنسك ونحن نتراجع رغماً عنا على زاوية حادة ولكن لا يكفي القول

إننا نتراجع مشكلين زاوية حادة لأن الفرنسيين شكلوا زاوية بين الجيشين فأصبحت الزاوية أكثر ضيقاً ونشطنا في التقهقر لأن باركلي دوتوللي، ذلك الغريب معدوم الشعبية، كان مكروهاً من پاغراسيون قائد الجيش الثاني الذي يجب أن يكون مرؤوساً له والذي يؤخر الالتقاء مع جيشه بقدر ما يستطيع كي لا يكون تحت أمره. وإذا كان پاغراسيون قد رفض طويلاً القيام بتلك الحركة، وهي الغاية الرئيسة ككل قادة الجيوش، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى تعريض جيشه للخطر بدون شك، ولأنه يفضل أن يتراجع أكثر فأكثر إلى اليسار وإلى الجنوب، مشكلاً خطراً على جناح جيش العدو ليتمم جيشه في أوكرانيا. ولكن يبدو كذلك أنه عمد إلى هذا التدبير كي يتجنب مرؤوسيته لباركلي الغريب الذي يعتبر هو أقدم منه رتبةً، وهو الأمر الذي لم يكن يحتمله.

ووجود الأمبراطور في الجيش كان ليزكي الحماسة بوجوده. لكن ذلك الوجود نفسه وذلك التردد في اتخاذ القرارات وعدد المستشارين والخطط الكبيرة عكست قصد القوة الهجومية الكامنة في الجيش الأول وأرغمتها على التراجع.

عزموا على التوقف في معسكر دريسا. لكن پولوكشي الذي كان يهدف إلى القيادة العليا، استعمل نفوذه على ألكسندر، فأهملت خطة پفويل كلها وعهد بكل شيء إلى باركلي. ولما كان هذا لا يوحي بثقة، فقد حدوا رغم ذلك من صلاحياته. وجزّئت الجيوش إذن، فلا وحدة قيادة ولا شعبية لباركلي. ومن الفوضى، ومن هذا التجزؤ، ومن عدم شعبية القائد الأعلى الأجنبي هذه، نجم التردد من جهة والامتناع عن خوض معركة ما كان يمكن الامتناع عنها لو أن الجيوش كانت موحدة ولم يكن پاغراسيون يقود جيشاً منها ومن جهة ثانية، السخط المتزايد على الغرباء ويقظة الشعور الوطني.

وأخيراً، ترك الأمبراطور الجيش فلا يُرى لهذا الرحيل إلا تفسير واحد

مقبول: ضرورة إثارة حماسة العاصمتين لاحتمال خوض حرب قومية، فضاعف هذا الرحيل إلى موسكو قوات الجيش الروسي إلى ثلاثة أمثالها.

ترك الأمبراطور الجيش ليترك كل الحرية للقائد الأعلى، فيُتوقع حينذاك صدور قرارات أكثر حزماً في حين أن العكس كان. لقد تعقد موقف القائد وازداد ضعفاً. لقد بقي بينيغسن والغراندوق، وثول كبير من المساعدين العسكريين في الجيش بقصد المراقبة والتعريض بالقائد الأعلى. فيضاعف باركلي تعقله بتجنب المعركة وهو يشعر بأن حريته في العمل آخذة بالتناقص تحت مراقبة كل هذا العدد من «عيون الأمبراطور».

وبينما باركلي متخذاً حذره، يتحدث التسيزاريـڤيتش عن خيانة ويطالب بمعركة شاملة. وينضم لوبوميرسكي وبرونيكي وولوكي وعدد آخر إلى صفه ويجسمون هذه الإشاعة حتى أن باركلي، متذرعاً بحجة إرسال وثائق إلى الأمبراطور اضطر إلى ترحيل المساعدين العسكريين البولونيين إلى بيترسبورغ والدخول في نضال سافر ضد بينيغسن والغراندوق.

وفي سمولنسك، أخيراً رغم عدم تعجل پاغراسيون، تقوم الجيوش بحركة الالتقاء.

يصل پاغراسيون إلى مسكن باركلي في عربة فيندفع هذا للقائد متدثراً بوشاحه، ويقدم إليه تقريره كما يفعل مع من أقدم منه رتبة. ويظهر پاغراسيون شهامة عالية بتقبله رئاسة باركلي، لكنه بذلك يزداد في الاختلاف معه. ويوجه تقاريره مباشرة إلى الأمبراطور كما أمره هذا أن يفعل ويكتب إلى أراكتشييـف قائلاً: «إنني رغم رغبة جلالته، يستحيل علي الاتفاق مع «الوزير» (باركلي). أرسلني بحق السماء إلى مكان ما حتى ولو إلى قيادة فوج. لكنني لا أستطيع البقاء هنا...

إن القيادة العليا كلها مزدحمة بالألمان لدرجة أن الروسي لا يمكنه أن

يعيش فيها وأنها فوضى حقيقية. كنت أعتقد أنني أخدم الأمبراطور والوطن. لكنني في الواقع إنما أخدم باركلي. لذلك، أعترف لك أنني أرفض هذه الخدمة». وينشط ثول بروّنيكي وونتزبخيرود وآخرين في تسميم العلاقات بين الجنرالين أكثر فأكثر، فتصبح وحدة القيادة مجرد مظهر. وتبدأ الاستعدادات لمهاجمة الفرنسيين أمام سمولنسك. فيُرسل جنرال لدراسة الموقف ولما كان هذا الجنرال من الحاقدين على باركلي، فإنه يمضي لزيارة قائد من جناح أصدقائه فيمضي النهار عنده. وعند رجوعه، يندفع في نقد ساحة معركة لم يرها قط.

وبينما هم يدرسون ويناقشون حول ساحة المعركة المقبلة هذه، وبينما هم يبحثون عن الفرنسيين ويخطئون في تحديد مواقعهم على الضبط، يصطدم العدو بجيش نـڤييروسـڤكي ويقترب من جدران سمولنسك نفسها.

ولقد اضطررنا إلى خوض المعركة في سمولنسك لنمحو خطوط اتصالنا، فسقط من الجانبين ألوف من الرجال.

وهُجرت سمولنسك برغبة من الأمبراطور والشعب أجمع، لكن المدينة أحرقت من قبل السكان أنفسهم الذين خدعهم حاكم مدينتهم. وذهب هؤلاء المنكوبون إلى موسكو فأصبحوا مثالاً للروس الآخرين وهم لا يفكرون إلا في الخسائر التي لحقت بهم وفي إذكاء الموجدة على العدو. ويتابع هذا تقدمه فنتابع تقهقرنا، وهكذا دارت الأمور دورتها القاضية على نابليون.

الفصل الثاني

غداة يوم رحيل ابنه، استدعى الأمير نيكولا أندرييـڤيتش الأميرة ماري وقال لها: حسناً! أنت سعيدة الآن: لقد خاصمتني مع ولدي! هذا ما كنت تريدينه تماماً. ها أنت سعيدة الآن!... بينما ذلك يؤلمني، يؤلمني كثيراً. إنني عجوز وضعيف... أما أنت، فقد نلت ما كنت تشتهين... هيا، قري عيناً، قري عيناً...

ثم لم ترَ ماري أباها طوال الأسبوع إذ كان مريضاً لا يخرج من مكتبه. ولدهشتها العظيمة، لم يكن يستقبل الآنسة بوريين ولا يتقبل خدمات تيخون.

وخلال ثمانية أيام، عاد إلى مألوف عاداته تستفزه حمى الإنشاء والغرس لكنه لم يستعد علاقاته مع الآنسة بوريين. وكانت أماراته ولهجته الباردة التي يخاطب ابنته بها أشبه بالقول: «هل ترين، لقد رويت لأخيك الأكاذيب حول علاقاتي مع هذه الفرنسية وخاصمتني معه مع أنك ترين أنني لست في حاجة إليك ولا إلى الفرنسية».

كانت ماري تقضي نصف يومها قرب نيكولا الصغير تراقب تثقيفه وتعطيه بنفسها دروساً بالروسية والموسيقى وتتباحث مع ديسال. أما بقية وقتها، فكانت تقضيها بالقراءة أو بمحادثات مع المربية العجوز و«رجال الله» الذين كانوا أحياناً يغامرون بالمجيء إلى مدخل الخدم لرؤيتها.

كانت تفكر في ما يدور في تفكير النساء في الحرب وكانت تخشاها من أجل أخيها الذي يساهم فيها وتلعن، دون أن تتوصل إلى فهمها، قسوة

الرجال التي تجرهم إلى الاقتتال. لكنها لم تكن تعرف أهمية الحملة التي لم تكن تبدو في نظرها مختلفة عن الحملات الأخرى. مع ذلك، فإن ديسال، محدثها المألوف، الذي كان يتابع سير العمليات باهتمام كبير، كان يحاول أن يفتح عينيها وكذلك «رجال الله» كل على طريقته، يفسرون في حضرتها الإشاعات الرائجة بين الشعب حول مجيء المسيح الدجال، وأخيراً جولي، التي استعادت اتصالها الخطي معها منذ زواجها، كانت ترسل إليها من موسكو مراسلات مطبوعة بوطنية مضطرمة. كانت تنبئها:

«يا صديقتي الطيبة، إني أكتب إليك بالروسية لأنني بدأت أحقد على كل الفرنسيين حقدي على لغتهم التي ما عدت أطيق سماعها... إننا جميعاً في موسكو شعلة حماسة في سبيل أمبراطورنا المعبود.

«إن زوجي المسكين يحتمل الجوع وكل أنواع المزعجات في مختلف الخانات اليهودية القذرة. لكن الأنباء التي أملكها لا تعمل إلا على زيادة حماستنا.

«لا بد وأنك علمت بصنيع راييڤسكي البطولي الذي عانق ولديه وقال لهما: «سأموت معهم، لكننا لن نتراجع!» وهكذا كان. فعلى الرغم من أن قوة العدو كانت ضعفي قوتنا، فإننا لن ننثني. إننا نقضي الوقت كما نستطيع ولكن في الحرب نمضيه كما تتطلب الحرب! إن الأميرة آلين وصوفي تكرسان من أجلي أياماً كاملة. إننا ونحن أرامل أزواج أحياء، نتحادث في موضوعات جميلة ونحن نشتغل بالنسيل ولا ينقصنا إلا أنت يا صديقتي».

وإذا غابت أهمية هذه الحرب عن ماري، فما ذلك إلا لأن الأمير العجوز لم يكن يتحدث عنها البتة، متظاهراً بأنه يجهلها مستهزئاً بديسال كلما أدار هذا الحديث نحو هذا الموضوع حول المائدة. وكانت لهجته بالغة الهدوء والثقة حتى أن ماري لم تكن تحاول التعمق في الأمور.

خلال شهر تموز بكامله، بدا الأمير شديد النشاط بل كثير المشاغل. أمر بتخطيط حديقة جديدة وجناح إضافي مخصص للخدم. لكن ماري لاحظت بقلق أنه ينام قليلاً وأنه خلافاً لعاداته، كان يبدل كل ليلة الغرفة التي يأوي إليها. كان حيناً يأمر بنصب سرير الميدان الذي ينام عليه في الرواق وينام حيناً آخر بثيابه كاملة على كنبة في القاعة أو على مقعد من طراز ڤولتير. ولم تعد الآنسة بوريين هي التي تقرأ له، بل الخادم الصغير بيتروشكا الذي يقوم بهذه المهمة. وكان أحياناً يقضي الليل في قاعة الطعام.

في الأول من آب، وصلت رسالة ثانية من الأمير أندريه. كانت الأولى التي وصلت بعد ذهابه بوقت قصير، يطلب بخشوع صفح أبيه عما سمح لنفسه بقوله له ويرجوه أن يرضى عنه. فأجابه الأمير العجوز بتودد ولم يلبث أن تباعد عن الفرنسية. أما الرسالة الثانية التي كتبت في ضواحي ڤيتيبسك بعد احتلال تلك المدينة، فقد كانت تحتوي على وصف قصير للمعركة مع مخطط بياني وبعض الآراء حول توسيع العمليات المقبلة. كان أندريه يلفت نظر أبيه إلى ما في مستقره الحالي من موانع بصفته واقعاً على مقربة من مسرح الحرب وعلى خط مسير الجيوش ويشير عليه بالذهاب إلى موسكو.

وفي ذلك اليوم بالذات، أخطره ديسال أثناء الطعام، أنه تبعاً للإشاعات الرائجة، أصبحت ڤيتيبسك محتلة من الفرنسيين. وحينئذ تذكر الأمير رسالة ابنه. قال لماري:

ـ لقد تلقيت منذ حين رسالة من الأمير أندريه. ألم تقرئيها؟

أجابت وهي شديدة الجزع: كلا يا أبي.

وفي الواقع كيف يتسنى لها قراءة هذه الرسالة وهي التي لم تعلم بوصولها؟

قال الأمير بتلك الابتسامة المحتقرة التي باتت مألوفة لديه كلما تكلم حول هذا الموضوع: إنه يتكلم عن هذه الحرب.

فقال ديسال: لا شك أنها شديدة الأهمية. لا بد وأن الأمير قادر على معرفة الحقيقة وهو في مركزه..

وعقبت الآنسة بوريين مؤيدة: نعم، نعم، شديدة الأهمية.

قال الأمير لهذه: اذهبي وائتني بها، إنك تعرفين، على النضد تحت المثقلة.

كادت الآنسة بوريين تندفع لتنفيذ رغبته وقد استخفها الفرح. لكن الأمير اكفهر وجهه فجأة وصاح:

ـ كلا، كلا. اذهب أنت يا ميخائيل إيـڤانوڤيتش.

وقف ميخائيل إيـڤانوڤيتش وذهب إلى المكتب. فلم يكد يدخله، حتى كان الأمير العجوز يدير حوله نظرات قلقة ثم يلقي بمنشفته ويتبعه.

ـ إن هؤلاء الناس لا يعرفون عمل شيء. لسوف يفسد كل شيء.

وبينما هو يخرج، راح ديسال والأميرة والآنسة بوريين ونيكولا الصغير يتبادلون النظر دون أن ينطقوا بكلمة. عاد بخطى متلاحقة يصحبه نيكولا إيـڤانوڤيتش ومعه الرسالة والمخطط فوضعها جانباً ولم يسلمها إلى أحد قبل الانتهاء من الطعام.

ولما انتقلوا إلى القاعة، قدم الرسالة إلى ماري ورجاها أن تقرأها بصوت عال في حين راح ينشر أمامه مخطط بنائه الجديد. وبعد أن قرأت ماري الرسالة سألت أباها بنظرة: كانت عينا الأمير العجوز شاخصتين إلى المخطط أمامه وكأنه مستغرق في تأملاته:

سمح ديسال لنفسه بالسؤال: ما رأيك في كل هذا يا أمير؟

أجاب دون أن يرفع عينيه وكأنه يستفيق من حلم: أنا، أنا؟

ـ من الجائز أن يقترب ميدان المعركة منا..

فقال الأمير: ها! ها! مسرح الحرب! لقد قلت وأكرر أن مسرح الحرب هو بولونيا وأن العدو لن يتوغل أبداً إلى الأمام أكثر من النييمن.

نظر إليه ديسال بدهشة: إنه يتكلم عن النييمن في حين أن العدو بلغ الدنيبر. لكن ماري التي نسيت موقع هذا النهر الجغرافي الصحيح، أيدت أقوال أبيها مؤمنة.

أضاف وهو يفكر بدون شك في حملة عام ١٨٠٧ التي كانت في نظره قريبة جداً: عند ذوبان الثلوج، سوف يغرقون كلهم في مستنقعات بولونيا. إن ما لا يستطيعون رؤيته هو أن بينيغسن كان عليه أن يدخل إلى بروسيا بسرعة وحينئذ كانت الأمور ستأخذ شكلاً آخر.

اعترض ديسال بخوف:

ـ ولكن يا أمير، إن الرسالة تتحدث عن ڤيتيبسك...

زمجر: الرسالة؟.. آه! نعم.. نعم.. نعم..

وفجأة اربدّ وجهه ثم أعلن بعد فترة صمت: نعم، إنه يقول إن الفرنسيين قد هزموا، قرب أي نهر كان؟..

خفض ديسال عينيه وقال بلطف:

ـ لم يكتب الأمير شيئاً من هذا القبيل.

ـ كيف لم يكتب شيئاً من هذا القبيل؟ هل ابتكرته أنا؟

سكتوا جميعهم فترة طويلة. وفجأة استأنف الأمير مشيراً إلى المخطط وقد رفع رأسه: نعم.. نعم.. هيا يا ميخائيل إيـڤانوڤيتش. قل لي كيف تريد أن تشرع في التجديد..

اقترب ميخائيل إيـڤانوڤيتش وبعد أن تحادث الأمير معه حول البناء، ألقى نظرة غاضبة على ماري وديسال ثم انسحب.

لاحظت الأميرة ماري صمت ديسال المرتبك والطريقة التي نظر بها إلى أبيه ولقد دُهشت إذ رأت أن هذا قد نسي على الطاولة رسالة الأمير أندريه. لكنها لم تجرؤ على سؤال المدرس عن أسباب سكوته وتشوشه لأنها كانت تخشى التفكير في هذه الأمور.

وحوالى المساء، جاء ميخائيل إيـڤانوڤيتش يسألها عن الرسالة موفداً من قبل الأمير فأعطتها ماري له وسألته رغم ارتباكها عما كان يفعل أبوها.

أجاب المهندس بابتسامة شحب وجه ماري للسخرية الكامنة فيه وراء مظاهر الاحترام: إنه كعادته يزعج نفسه كثيراً. إن البناء الجديد يسبب له متاعب جديدة.

وأضاف ميخائيل إيـڤانوڤيتش وهو يخفف من صوته:

ـ لقد قرأ فترة وهو الآن وراء مكتبه يعمل في وصيته بلا ريب.

سألت ماري: يبدو أنه يرسل الباتيتش إلى سمولنسك؟

ـ نعم. والباتيتش ينتظر أوامر الأمير منذ وقت طويل.

الفصل الثالث

كان الأمير جالساً وراء مكتبه المفتوح عندما دخل ميخائيل إيـڤانوڤيتش بالرسالة، وكانت نظارتا الأمير فوق أنفه وعلى جبهته عاكس نور. كان يقرأ أوراقاً في يده على ضوء الشموع بوضع مسرحي تقريباً وقد جعلها بعيدة عن عينيه مسافة ما وكانت تلك الأوراق هي «ملاحظاته»، كما كان يدعوها، التي يجب تسليمها إلى الأمبراطور بعد موته. وكانت عيناه تنديان بالدموع لذكرى الوقت الذي كتب فيه ما يقرأه الآن.

تناول الأمير الرسالة فوضعها في جيبه ونظم أوراقه ثم استدعى الباتيتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل.

كان قد دوّن على وريقة الأشياء التي يجب شراؤها من سمولنسك فراح وهو يذرع الغرفة يلقي بأوامره إلى الباتيتش المسمر على العتبة.

ـ أولاً، ورقاً للرسائل، هل تسمع، مائتي ورقة وإليك نوعها: مذهبة عند أطرافها مماثلة للأنموذج تماماً، ثم طلاء وشمعاً للختم حسب ملاحظة ميخائيل إيـڤانوڤيتش.

استشار المذكرة: ثم تقدم بنفسك إلى الحاكم الرسالة المتعلقة بمذكراتي.

كان يجب أيضاً أن يحضر مزاليج لأبواب البناء الجديد مطابقة للأنموذج الذي ابتكره الأمير تماماً ثم محفظة خاصة ليضع فيها وصيته.

استمرت المقابلة أكثر من ساعتين دون أن يترك الأمير الباتيتش يرحل.

وأخيراً جلس واستغرق في أفكاره وأغمض عينيه واستسلم للنعاس. وحينئذ قام الباتيتش بحركة.

ـ هيا، يمكنك أن تذهب، وإذا كنت لا أزال أحتاج إلى شيء أبلغك ما أريد.

خرج الباتيتش فعاد الأمير إلى مكتبه ليلقي عليه نظرة أخيرة ثم أغلقه وجلس إلى طاولته حيث راح يكتب إلى الحاكم.

كان الوقت متأخراً عندما نهض بعد أن ختم رسالته. كان يتوق إلى النوم لكنه كان يعرف إنه لن يتمكن من النوم وأن الأفكار الأشد سواداً تحاصره وهو في السرير. استدعى تيخون وتحول معه في غرفٍ كثيرة بحثاً عن مكان يضع فيه سريره، فكان يأخذ قياس كل زاوية.

لم يعجبه مكان. كان يشعر بنفور شديد من فراشه القديم يسبب نوبات الأرق القاسية التي أصيب بها وهو راقد عليه. قرر أخيراً قبول زاوية من مخدع وراء المعزف، وهو مكان لم ينم فيه من قبل.

جاء تيخون بالسرير يساعده خادم المائدة، فأقاماه هناك. صرخ الأمير وهو يبعد سريره بضع أصابع ليعيده من فوره إلى حيث كان.

ـ ليس هكذا، ليس هكذا.

قال في سرّه وهو يترك أمر نزع ثيابه لتيخون: «هيا، لقد سوي كل شيء الآن. سوف أستطيع أن أنام».

اقتضاه المجهود الذي أبداه لخلع «قفطانه» وسراويله أن يكفهر وجهه وأخيراً تهالك على السرير وألقى على ساقيه الهزيلتين الصفراوين نظرة احتقار. بدا كأنه يفكر، لكنه كان في الحقيقة يتردد في رفع ساقيه والاستلقاء على سريره فحسب. كان يقول في نفسه: «أوه! كم هذا منصب! أوه! لو أن كل هذه المنغصات تنتهي بسرعة، لو «أنكم» تستطيعون أن تتركوني أذهب!»

وللمرة العشرين ألفاً في حياته تقريباً، قام بالمجهود المطلوب وهو يصرف على أسنانه. لكنه ما كاد يستلقي حتى راح سريره يتماوج ويتأرجح: كذلك كان الحال كل ليلة تقريباً. عاد ففتح عينيه نصف المغمضتين.

زمجر يخاطب مضطهديه الوهميين: ألن تتركوني أنام أيها الملاعين!... ولكن ماذا، لقد احتفظت بشيء ما مهم لأفكر فيه في السرير، شيء مهم جداً. المزاليج؟ كلا، لقد فكرت فيها... إن الموضوع يتعلق بشيء وقع في القاعة... هل هو هذيان ماري؟ أم هو هذر هذا التافه ديسال؟ شيء في جيبي؟ لم أعد أتذكر... تيخون، عن أي شيء تكلموا حول المائدة؟

ـ عن الأمير ميخائيل...

صاح الأمير وهو يضرب الطاولة بكف يده:

ـ أصمت، أصمت. لقد وجدتها! رسالة الأمير أندريه. لقد قرأتها ماري علينا وروى ديسال ما لست أدري عن ڤيتيبسك. يجب أن أقرأها الآن.

أمر أن تعطى إليه الرسالة وقرب النضد الذي كان كأس الليمون عليه إلى جانب شمعة على هدب حلزوني ثم أحكم نظارتيه وبدأ يقرأ. وحينئذ فقط، في هدأة الليل، وتحت النور الشحيح الذي كان يعكسه عاكس أخضر، أدرك فجأة أهمية الأنباء التي تحملها الرسالة.

ـ إن الفرنسيين في ڤيتيبسك وهم يستطيعون أن يكونوا في سمولنسك في أربع مراحل. بل لعلهم هناك الآن! تيخون! ـ وانتصب تيخون منتفضاً ـ كلا، لا جدوى.

دس الأمير الرسالة تحت الشمعدان وأغلق عينيه. شاهد أمامه الدانوب ظهر يوم مشع والقصب والمعسكر الروسي ونفسه، وهو جنرال شاب حينذاك،

متيقظ بهيج النفس نضر، يدخل في خيمة باتيومكين[1] المرقشة. وفجأة، استبد به شعور بالغيرة من ذلك المفضل كاوٍ ومحتدم كما كان حينذاك. تذكر الكلمات التي تبادلاها أثناء تلك المقابلة. وفجأة، انبعثت في ذاكرته، امرأة قصيرة القامة، قوية، ممتلئة الوجنتين، صفراء اللون، هي أمنا الأمبراطورة، ومثلت أمام عينيه: إنه يراها مجدداً وهي تبتسم له ويسمعها من جديد توجه إليه كلمات ترحيب لطيفة. ثم أخذ يتذكر ذلك الوجه نفسه على النعش المزين والجدال الذي وقع بينه وبين زوبوف[2] حول حق تقبيل يد الأمبراطورة.

«آه! ليتني أستطيع العودة إلى ذلك الوقت، ليت الحاضر يمكن اختفاؤه بأقصى سرعة، وليتهم فقط يتركونني بسلام!».

---

(١) فيلد ماريشال روسي من المقربين لدى كاترين الثانية أمبراطورة روسيا. (المترجم).

(٢) آخر المفضلين لدى الأمبراطورة كاترين الثانية. (المترجم).

الفصل الرابع

مساء ذلك النهار الذي أصدر فيه الأمير تعليماته إلى الباتيتش، كانت ليسيياغوري تقع على مسافة خمسة عشر ميلاً وراء سمولنسك وثلاثة أرباع الميل عن طريق موسكو.

سأل ديسال الأميرة ماري أن تمنحه مقابلة عرض عليها خلالها أن صحة الأميرة لا تسمح له بأن يتخذ التدابير لأمنهم كما وأن رسالة الأمير أندريه من جهة ثانية تلمح إلى أن البقاء في ليسيياغوري يشكل خطراً ما. وطلب إليها باحترام أن يستفسر لدى حاكم المقاطعة عن الموقف الحقيقي وعن الخطر الذي يتعرضون له ببقائهم في الريف. وكتب ديسال الرسالة التي وقعتها ماري وأعطيت إلى الباتيتش مشفوعة بأمر تسليمها إلى الحاكم بالذات والعودة بأسرع ما يمكن إذا اقتضت الضرورة الإسراع.

راح الباتيتش وعلى رأسه قبعة من جلد كلب الماء كانت هدية من سيدة، وبيده عصا، على غرار الأمير كلما أراد الخروج، يستعد مع نفر من العاملين في المنزل لركوب عربة صغيرة ذات غطاء من الجلد يجرها ثلاثة جياد أقوياء.

ربطوا الجريس ولفوا الجلاجل بالورق لأن الأمير لم يكن يسمح لأحد باستعمالها في أراضيه، وكان الباتيتش يحب سماع أصواتها كلما ذهب برحلة طويلة. وكان مقرّبوه، المحاسب والكاتب والطاهية ومساعدها وامرأتان عجوزان والقوقازي الصغير وسائقو العربة وبعض الخدم الآخرين، يرافقونه.

ووضعت ابنته على مقعدها ومسنده وسائد مختلفة ودست أخت زوجه

العجوز بينها رزمة خلسة بينما ساعدها أحد السائقين على الصعود وهو يرفعها من تحت إبطها. زمجر الباتيتش وهو يقلد لهجة سيده:

ـ آه! آه! من استعدادات النساء! آه! النساء، النساء!

ثم اتخذ مكانه في العربة وهو ينفخ ويزمجر.

وبعد أن أرشد رئيس المكتب كما يجب إلى موضوع الأعمال الدارجة، نزع الباتيتش قبعته عن رأسه الأصلع، ودون أن يقلد سيده هذه المرة، رسم على صدره إشارة الصليب ثلاثاً.

صاحت به زوجته وهي قلقة من الإشاعات الرائجة حول اقتراب العدو:

ـ إذا وقع شيء ما... ستعودون فوراً أليس كذلك يا أياكوف الباتيتش؟... بحق السماء، اشفق علينا.

غمغم الباتيتش بينما راحت العربة تدرج:

ـ آه! النساء! إن المرء لا ينتهي أبداً معهن!

راح طوال الطريق يمتع الطرف تارة بالشيلم الآخذ بالنضج وطوراً بالخرطال الأخضر الكثيف، وبالحقول التي لا تزال سوداء لم تفلح إلا للمرة الثانية تارة أخرى. كان يتأمل موسم حنطة الربيع المقبل ويمعن النظر في خطوط الشيلم الذي حصد بعضه هنا وهناك ويبدي ملاحظاته حول البذار والمواسم المقبلة ويتساءل عما إذا لم ينس مطلباً لسيده.

وبعد أن علف خيوله مرتين في الطريق، وصل إلى المدينة مساء الرابع من آب.

كان قد تجاوز في طريقه بعض القوافل والقطعات. فلما اقترب من سمولنسك، سمع طلقات بعيدة لكنه لم يلق إليها بالاً. لكن ما أدهشه أكثر فأكثر كان رؤيته حقلاً بديعاً من الخرطال كان الجنود يعسكرون فيه ويحصدون زرعه لإطعام خيولهم. على أية حال، كانت مهمته تشغل كل تفكيره مما لم

يجعله يتوقف عند هذه البادرة متأملاً. كان الباتيتش منذ ثلاثين عاماً لا يعرف إلا إرادة الأمير فلم يكن يفكر ليمتد إلى أبعد من تلك الإرادة. فكان كل ما ليس له علاقة بتنفيذ أوامر سيده لا يثير اهتمامه بل إنه لم يكن موجوداً أصلاً بالنسبة إليه.

ذهب الباتيتش تبعاً لعادة أصبحت ثلاثينية، ينام في ضاحية غانشا على الجانب الآخر من الدينيبر في خان يديره من يدعى ڤيرابونتوف. قبل ثلاثين عاماً، اشترى ڤيرابونتوف هذا تبعاً لمشورة الباتيتش، أخشاباً من الأمير راح يتجر بها فأصبح يمتلك الآن بيتاً وخاناً ومخزناً لبيع الدقيق وكان رجلاً ضخم الجسم، أحمر الوجه، في نحو الخمسين من عمره، ذا شعر أسود وشفتين غليظتين وأنف كأنه قطعة من البطاطا وحدبتين فوق حاجبيه الكثيفين الأشعثين وبطن عظيم.

كان ذلك المساء في دكانه يرتدي صدرة فوق ذراعيه من قماش هندي. فلما شاهد الباتيتش، تقدم لاستقباله وقال له:

ـ أهلاً وسهلاً بإياكوف الباتيتش. إن الناس يغادرون المدينة بينما أنت تدخلها.

يغادرونها؟ لماذا؟

ـ لسخفهم، ماذا! إنهم جميعاً خائفون من الفرنسيين.

ـ ترهات نساء مسنات!

ـ وهذا ما أظنه يا إياكوف الباتيتش. مادام الأمر ينص على عدم السماح لهم بالدخول، فليس هناك ما يخيف أليس كذلك؟.. وها إن جماعتنا يندفعون في طلب ثلاثة روبلات لقاء العربة العادية، هؤلاء الملحدون، إنهم لا يخجلون!

كان إياكوف الباتيتش يستمع إليه بأذن ساهمة. طلب سماوراً وعلفاً لخيوله وبعد أن شرب الشاي أوى إلى سريره.

استمرت قطعات تمر أمام الخان طوال الليل. وفي الصباح، ارتدى الباتيتش ثياب المدينة وذهب إلى أعماله. وكان الصباح مشمساً والحرارة مرتفعة في الثامنة صباحاً. قال الباتيتش في نفسه: «طقس جميل جداً للحصاد». تناهت إلى الأسماع طلقات بنادق كثيرة اتحد معها منذ الساعة الثامنة قصف المدفعية. وكانت الشوارع تغصّ بالجنود والناس في حمى العجلة. لكن العربات كانت كعادتها تسير في الشوارع والدكاكين مفتوحة والقداس يقام في الكنائس، دخل الباتيتش إلى بعض الدكاكين والمكاتب وذهب إلى إدارة البريد فكانوا يتحدثون عن الحرب وعن العدو الذي يهاجم المدينة والناس كلهم يتساءلون عما يجب عمله وكل يحاول بعث الطمأنينة في نفس جاره.

اصطدم الباتيتش أمام مقر الحاكم بعدد كبير من الناس وكانت فرقة من القوقازيين تحيط بعربة سفر ذلك الموظف الكبير. وعلى المرقاة، التقى اثنين من أثرياء الريف كان أحدهما، وقد عرف فيه الباتيتش رئيس بوليس منطقتهم سابقاً، يتكلم بحرارة.

ـ لم يعد الموضوع يحتمل المزاح يا رجل! إن الأمر أكثر يسراً بالنسبة إلى من ليس لديه إلا نفسه ينقذها: فلوحظ البلاء عليه، لما تألم أحد غيره! ولكن عندما يكون لدى المرء ثلاثة عشر شخصاً هم أعضاء أسرته ويجب عليه كذلك أن ينقذ ما يستطيع إنقاذه!... هل سمع الناس برؤساء مماثلين؟ لقد اتخذوا احتياطاتهم بكل دقة حتى أننا قضي علينا جميعاً... كان يجب شنقهم هؤلاء الآثمون!

وكان الآخر يقول: هيا، هيا، استكن.

ـ ليسمعني من يشاء، لست أبالي! لسنا كلاباً على أية حال!

تفوّه رئيس الشرطة السابق بهذه الكلمات. وبينما هو يلتفت شاهد الباتيتش فصاح: آه ياه! إياكوف الباتيتش؟ ماذا تفعل هنا؟

أجاب الباتيتش وهو منتفخ الأوداج وإحدى يديه في فتحة ثوبه الخارجي وهي وضعية يلجأ إليها كلما كان الكلام يدور حول سيده:

ـ لقد جئت بناء على أمر سموّه لرؤية سيدي الحاكم... لقد تفضل سموه فأرسلني لأستفسر عن الوضع.

صاح الثري الريفي: الوضع؟ إنه جميل! لقد تصرفوا بشكل لم يبق معه عربات ولا أي شيء. ثم استرسل وهو يشير إلى الاتجاه الذي تنبعث منه طلقات البنادق:

ـ خذ، ها هم أولاء، هل تسمع؟ وبفضل هؤلاء السادة الرائعين سوف نذهب كلنا إلى الجحيم!...

وكرر وهو يهبط المرقاة: عصابة سفّاحين!

هز الباتيتش رأسه وصعد السلم. كان في الردهة مجموعة من التجار والنساء والموظفين يتبادلون النظر صامتين. وفتح باب المكتب فنهض الموجودون كلهم وتقدموا. خرج موظف متعجلاً وتبادل كلمات مع تاجر ثم استدعى مستخدماً ضخماً كان يحمل وساماً حول عنقه وزاغ من فوره من دائرة نيران الأنظار المتقاطعة والأسئلة. دفع الباتيتش نفسه إلى النصف الأول ولما ظهر الموظف مرة أخرى، مدّ له يداً بالرسالتين وهو يدفع الثانية في شق ثوبه الخارجي قال بصوت بلغ من جلاله وتسلطه حداً لم ير الموظف بداً من أن يأخذ منه رسالتيه:

ـ إلى سيدي البارون آسش من قبل الجنرال الأعلى الأمير بولكونسكي.

وخلال بضع دقائق، استقبل الحاكم الباتيتش وأعلن وهو يدندن:

ـ قل للأمير والأميرة إنني لم أكن على علم بشيء وإنني تصرفت حسب أوامر عليا...

وأضاف وهو يمد إليه ورقة: خذ، هذا. على أية حال، إنني أشير على الأمير أن يذهب إلى موسكو طالما أنه مريض. إنني ذاهب بنفسي في هذه اللحظة. قل له...

ولم يستطع الحاكم أن يتم جملته: دخل ضابط غارق في عرقه يغطيه الغبار واندفع إلى الغرفة معلناً له بالفرنسية نبأ جعله يشحب من الخوف. قال لألباتيتش وهو يصرفه بإشارة من رأسه.

ـ إذهب:

وراح يستجوب الضابط.

راحت نظرات متعطشة إلى الأنباء يقلقها الخوف والعجز تستفسر الباتيتش عند خروجه من المكتب. اندفع الرجل إلى الخان مسرعاً وهو يصيخ السمع رغماً عنه إلى طلقات الرصاص القريبة الآخذة بازدياد. كانت الورقة التي يحملها من الحاكم تحوي الأسطر التالية:

«أستطيع أن أؤكد أن مدينة سمولنسك لا تتعرض لأي خطر وأن من المشكوك فيه أن تُهدد أبداً. إنّ الأمير باغراسيون من جهة وأنا من الجهة الأخرى، نمشي لنربط قواتنا بعضها ببعض أمام سمولنسك. وسيقوم الاتصال في الثاني والعشرين من الشهر الحالي وسيدافع الجيشان بعد ضم مجموع قواهما عن المواطنين في الإقليم الموكل إليك حتى تبعد جهودهما العدو عن الوطن أو تبيد صفوفه وفيرة العدد إلى آخر جندي. فأنت إذن كما ترى مطلق الحق في طمأنة سكان سمولنسك لأنهم عندما يكونون محميين من قبل جيشين على هذا الجانب من البطولة فإنهم يستطيعون أن يكونوا واثقين

بالنصر». (أمر يومي من باركلي دوتوللي إلى حاكم سمولنسك المدني البارون آسش ١٨١٢).

وكان الشعب يتزاحم في الشوارع وهو فريسة القلق.

وكانت عربات محملة بالآنية والكراسي والصناديق تخرج في كل لحظة من أروقة المنازل. وأمام البيت الذي بالقرب من مسكن ڤيرابونتوف، وقفت عربات تحمل أثاثاً ونساء يتوجعن وعبارات الوداع ترتفع مزمجرة، بينما أخذ كلب ينبح بين قوائم الخيول.

دخل الباتيتش بخطوات أسرع من العادة إلى المرأب الذي أودع فيه عربته وجياده وكان الحوذي نائماً فأيقظه وأمره بأن يجهز عربته ثم ذهب إلى المنزل. تناهت إلى أسماعه من غرفة المدير أصوات بكاء أطفال ونحيب نساء يفتت الأكباد وصوت ڤيرابونتوف الغاضب الأبح. وعندما دخل الباتيتش، كانت الطاهية تركض في الدهليز كالدجاجة المذعورة.

ـ لقد ضربها، السيد، لقد ضربها حتى الموت!... آه! المسكينة، كم ضربها وكم جرها!

استفسرها الباتيتش: ولماذا؟

لأنها سألته الذهاب. إنها امرأة وهذا يفهم تماماً. «خذني، لا تدعني أموت مع أطفالي لأن كل الناس يذهبون فماذا تنتظر؟» هذا كل ما قالته له فراح يضربها. آه! كم ضربها وكم جرّها!

هز الباتيتش رأسه بحركة نصف مؤيدة وتوجه نحو الغرفة المقابلة لغرفة المدير وهو قليل الرغبة في الاستزادة من المعلومات وكان قد أودع مشترياته تلك الغرفة.

وفي اللحظة نفسها، أفلتت من الغرفة امرأة شاحبة ممتقعة تحمل طفلاً

على يديها وقد تمزق شالها واندفعت نحو السلم المؤدي إلى الفناء وهي تصيح: سفاك! قاتل!

وخرج ڤيرابونتوف بدوره فلما رأى الباتيتش، أعاد النظام إلى صدرته وشعره وتثاءب ثم راح في إثره. سأله: هل عزمت على الرحيل؟

استفسره الباتيتش دون أن يجيبه أو حتى ينظر إليه عن المبلغ الذي يدين به إليه وتابع يجمع مشترياته.

ـ لن نختلف... ولكن قل لي هل رأيت الحاكم؟ ماذا قرروا؟

أجاب الباتيتش أن الحاكم لم يجبه إجابة صريحة.

ـ هل يمكن نقل أشياء كأشيائي أنا؟ إنهم يسألون سبعة روبلات على كل عربة إلى دوروغوبوج فقط. يا للفكرة! لقد كان سيليڤانوف... لقد باع منذ يوم الخميس دقيقه إلى الجيش لقاء تسعة روبلات للكيس الواحد... سوف نتناول الشاي على أية حال؟

وبينما كانوا يقطرون الخيول بدأ الصديقان يشربان الشاي وهما يتحادثان عن أسعار الحنطة والحاصلات الزراعية والوقت المناسب للحصاد.

قال ڤيرابونتوف وقد نهض بعد أن احتسى أقداحه الثلاثة:

ـ يعتقد أن الهدوء قد خيم. يظن أن الغلبة لرجالنا. لقد صدقونا القول عندما أكدوا أنهم لن يدعوهم يدخلون. إننا الأكثر قوة أليس كذلك؟... يبدو لي أن ڤيرابونتوف پلاتوف قد ألقى بهم ذلك اليوم إلى مارينا ولقد غرق على ما قالوا ثمانية عشر ألفاً في يوم واحد.

جمع الباتيتش مشترياته وأعطاها إلى الحوذي الذي دخل في تلك اللحظة ثم أجرى حسابه مع صاحب الخان. وأمام الباب الخارجي سمعت أصوات العجلات ووقع الحوافر ودندنة الجلاجل إذ كانت العربة حينذاك تخرج من الفناء.

كان بعد الظهر قد أوغل في التقدم، والظل يغمر نصف الشارع بينما النصف الآخر تضيئه الشمس بقوة. ألقى الباتيتش نظرة من النافذة وخرج، وفجأة سُمع على البعد صفير غريب لم يلبث بعده أن دوت زمجرة المدافع متطاولة حتى اهتز لها الزجاج.

وعندما وصل الباتيتش إلى الشارع، مر رجلان باتجاه الجسر. وراح الصفير ينبعث من نواح مختلفة وصوت القذائف المكتوم وانفجار القنابل. لكن هذا الضجيج لم يكن يجتذب انتباه السكان بمثل ما سيجتذبه قصف المدافع الذي بات مستشرياً حول المدينة. لقد شرعت مائة وثلاثون قطعة مدفعية بقصف مدينة سمولنسك بناء على أمر ناپليون منذ الساعة الخامسة. إلا أن سكان المدينة لم يدركوا للوهلة الأولى مدى الخطر.

أيقظ سقوط القنابل والقذائف بادئ الأمر فضول السكان. سكتت زوجة ڤيرابونتوف فجأة وهي التي بقيت حتى تلك اللحظة تتوجع في المرأب ومضت إلى الباب الخارجي وطفلها على ذراعها ووقفت هناك لا تتحرك ولا تنظر إلى الجمهور بعينين شاخصتين وتصيخ السمع إلى الضجيج.

وجاء مستخدم الدكان والطاهية يلحقان بها وراحوا جميعاً يحاولون رؤية المقذوفات التي كانت تمر فوق رؤوسهم بفضول مفرط. وعند زاوية الشارع، ظهر بعض الأشخاص يتباحثون بحماسة كان أحدهم يقول:

ـ كم هو قوي! فالسطح والسقف كله أصبح حطاماً.

وكان الثاني يقول وهو يضحك: إنه يحرث الأرض كالخنزير بخطمه. إنه عمل جميل يجعل القلب يهبط إلى البطن. لو أنك لم تقفز جانباً لسوّى أمرك!

راح هؤلاء يروون لأشخاص استوقفوهم كيف أن القنابل سقطت على دورهم قريبة منهم. وفي تلك الأثناء استمرت المقذوفات بوشوشة مقتضبة

محزنة والقذائف بصفير مقبول تطير فوق الرؤوس دون أن تسقط إحداها في الأمكنة المجاورة. صعد الباتيتش إلى عربته يشيعه مضيفه.

صاح هذا بالطاهية ذات «التنورة» الحمراء التي ذهبت إلى زاوية الشارع لتستمع إلى ما يقولون وقد شمرت عن ساعديها وأثبتت قبضتيها على وركيها: ألم تفرغي من «البصبصة»؟ ألم تريْ بعد شيئاً؟

وكانت هذه تقول: هل مثل هذه الأشياء ممكنة، بالله؟

لكنها سمعت صوت سيدها، عادت وهي تجر «تنورتها» المشمرة.

ومجدداً، سمع صفير قريب هذه المرة ثم، كالعصفور الذي يهوي فجأة انبعث بريق وسط الشارع أعقبته زمجرة انفجار وزوبعة دخان حجبت كل ما يجاورها.

وصرخ صاحب الخان وهو يسرع لنجدة الطاهية: ألن تنتهي، يا للإجرام!

وفي اللحظة نفسها، ارتفعت صيحات نساء معولة من جهات مختلفة وراح الطفل الصغير يبكي مروعاً واجتمع حشد من الناس الصامتين ممتقعي الوجوه حول الطاهية التي كانت زمجراتها وصيحاتها تطغى على كل ضجيج:

ـ أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين، يا أعزائي لدى الرب الكريم! لا تدعوني أموت! أوه! أوه! يا أصدقائي الطيبين!

وخلال خمس دقائق، لم يبق أحد في الشارع. ونقلت الطاهية التي حطمت شظية القنبلة أحد أضلاعها إلى المطبخ. أما الباتيتش وسائقه وزوجة ڤيرابونتوف وأولادها وخادم الإصطبل، فقد لجأوا إلى القبو وراحوا يصيخون السمع. وكانت صيحات الطاهية تطغى على دوي المدفع وصفير القنابل اللذين لم يتوقفا قط. وكانت زوجة صاحب المنزل تهدهد طفلها وتهدئه تارة وطوراً تسأل كل وافد، بصوت من اعتاد الأنين، أنباء عن زوجها الذي بقي

في الخارج فأبلغها مستخدم الدكان أن زوجها تبع الجمهور الذي ذهب إلى الكاتدرائية حيث عمدوا إلى رفع عذراء سمولنسك صاحبة المعجزات.

سكتت المدافع عند الغسق فخرج الباتيتش من القبو ووقف على العتبة. كانت السماء المضيئة منذ حين قد أظلمت جراء الدخان الكثيف الذي راح الهلال الجديد المرتفع عند الأفق، يلقي خلاله ضياء غريباً. أعقب صمت حزين ورعود فوهات النار لم تعكره إلا أصوات خطى مكتومة وزمجرات وصيحات بعيدة والطقطقة التي تنجم عن الحرائق. وكفت الطاهية عن إرسال أنينها وراحت أعمدة من الدخان الأسود تعصف ذات اليمين وذات اليسار والجنود التابعون لمختلف الأسلحة يهربون في مختلف الاتجاهات حتى ليقال إنهم مملكة نمل مدمرة. دخل بعضهم فناء منزل ڤيرابونتوف في حين مضى الباتيتش إلى الباب الخارجي، فإذا بفوج كامل يتقهقر في فوضى شاملة.

صاح به ضابط لمح شبحه وهو في طريقه: اذهب، اذهب بأكثر سرعة فالمدينة تستسلم.

وأضاف مخاطباً رجاله:

ـ وأنتم، سأعلمكم كيف تدخلون الأفنية!

عاد الباتيتش إلى النزل وصرخ بحوذيه أن يتأهب للرحيل. ولقد غامر عدد من آل ڤيرابونتوف ومستخدميه فخرجوا في أعقاب الرجلين. ولما رأت النساء الدخان وألسنة اللهب التي أصبحت أكثر ظهوراً في الليل، رحن يطلقن شكاواهن بعد أن بقين صامتات حتى ذلك الحين فردت نساء أخريات بالمثل من طرفي الشارع. وكان الباتيتش وحوذيه يحاولان تحت الطنف أن يخلصا بأيديهما المرتعدة الصروع والمجار المتشابكة.

ولما خرجت العربة إلى الشارع، شاهد الباتيتش في دكان ڤيرابونتوف المفتوحة حوالى عشرة جنود يتنادون بصوت مرتفع ويملأون أكياسهم

بالدقيق وحب دوار الشمس. وفي تلك اللحظة بالذات، عاد ڤيرابونتوف من الخارج. ولما رأى الجنود، كاد يطلق صرخات لولا أنه فجأة أمسك بشعره بقبضتيه وراح يطلق ضحكة مشفوعة بالنحيب.

زمجر وهو يمسك بنفسه الأكياس ليلقي بها إلى الشارع:

ـ خذوا كل شيء أيها الفتيان! لا تتركوا شيئاً لهؤلاء الشياطين!

لاذ بعض الجنود المذعورين بالفرار بينما استمر الآخرون يملأون أكياسهم. ولما شاهد الباتيتش، صاح ڤيرابونتوف:

ـ ضاعت، روسيا، ضاعت!.. سأضرم النار في كل مكان..

وأخذ يردد وهو يندفع في الفناء:

ـ ضاعت روسيا!

سدت موجات الجنود المستمرة الشارع في وجه الباتيتش فلم يستطع التقدم وكانت زوجة ڤيرابونتوف محمولة فوق عربة مع أطفالها تنتظر أن يتسنى لها المرور.

كان الظلام قد خيم تماماً والقمر يرى في السماء ذات النجوم خلال ستر من الدخان. وفي المنحدر إلى الدنيبر، اضطرت العربتان اللتان كانتا تتبعان رتل العربات والجنود بسرعة بطيئة إلى التوقف مجدداً. كانوا في ضاحية اشتعلت النيران في بيت ودكاكين غير بعيدة وراحت تحترق. وكان اللهب يخبو تارة ويضيع في سحابة سوداء من الدخان وطوراً يلمع من جديد فيضيء وجوه الأشخاص المتدافعين عند الناصية بوضوح خيالي. وراحت أشباح سوداء تمر أمام المحرق وصيحات وخطى وأصوات ترتفع خلال طقطقة الحريق المتواصلة. ترجل الباتيتش ولما رأى أن الطريق لن يخلو في برهة وجيزة، تسلل إلى الشارع ليتأمل الكارثة عن قرب. والجنود يجيئون ويروحون أمام المحرق، فشاهد اثنين منهم يساعدهم رجل ذو معطف من نسيج خشن،

يجرون أعمدة محترقة إلى فناء مجاور في حين راح آخرون يأتون «بأغمار» من القش.

اقترب الباتيتش من جمهرة كبيرة وقفت أمام مستودع ضخم كانت النار فيه على أشدها والجدران كلها تحترق في حين بدأ الجدار الخلفي ينهار. وانهار السقف ذو الألواح الخشبية الرقيقة وراحت الأخشاب تلتهب بينما بدت الجماهير كأنها تنتظر أن يشمل الانهيار كل شيء فانضم الباتيتش إليها.

صاح به فجأة صوت معروف: الباتيتش!

أجاب وقد عرف فجأة صوت سيده الشاب: يا صاحب السعادة!

كان الأمير أندريه متشحاً بمعطف، ممتطياً صهوة جواد أدهم، ينظر إليه من فوق رؤوس الجماهير.

سأله:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ صاحب... صاحب... السعادة..

وانخرط الباتيتش في البكاء:

ـ يا صاحب.. يا صاحب.. هل ضعنا حقاً؟ آه! أبانا..

كرر الأمير أندريه: ماذا تفعل هنا!

كشف التماع مفاجئ من اللهب لعيني الباتيتش وجه الأمير الشاب الشاحب المتقلص. روى له كيف أُرسل إلى سمولنسك والعقبات التي صادفها في طريق العودة. ثم سأله مرة أخرى:

ـ قل لي يا صاحب السعادة، هل ضعنا حقاً؟

ودون أن يجيبه، أخرج الأمير أندريه دفتره فانتزع منه صفحة وكتب مستنداً إلى ركبته الكلمات التالية بالقلم الرصاص موجهة إلى أخته:

«إن سمولنسك تستسلم. سوف يحتل العدو ليسياغوري قبل ثمانية أيام،

اذهبوا من فوركم إلى موسكو. أعلميني عن تاريخ رحيلكم بإرسال رسول سريع إلى «أوسفياغ» فور تسلمك هذه الرسالة».

وبعد أن سلم الرقعة إلى الباتيتش أنهى إليه تعليماته شفهياً حول سفر الأمير وأخته وابنه والمدرس والطريقة التي ينهون إليه فيها جواباً سريعاً. ولم يكد ينهي حديثه، حتى اندفع نحوه ضابط من الأركان تصحبه حاشية. صاح القادم الذي عرفه أندريه من لهجته الألمانية:

ـ أنت زعيم؟ إنهم يشعلون الحرائق بحضورك وتدعهم يفعلون! ما معنى هذا؟ سوف تسأل عن هذا.

كان ذاك هو بيرج. نائب القائد الأعلى للجناح الأيسر لمدفعية الجيش الأول وهو «مركز مستحب جداً ومرموق» كما كان يقول.

نظر إليه الأمير ودون أن يتنازل بالرد عليه، أنهى حديثه إلى الباتيتش:

ـ وهكذا إذن ستقول إنني أنتظر رداً حتى تاريخ العاشر من هذا الشهر. فإذا لم أتلق حتى ذلك التاريخ جواباً يشعر كل من في ليسيياغوري قد ارتحلوا، فإنني سأترك كل شيء وأحضر بنفسي إلى هناك.

قال بيرج الذي عرفه حينذاك: إذا كنت أحدثك على هذا النحو يا أمير فما ذلك إلا لأن عليّ أن أنفذ الأوامر. وأنا أنفذها دائماً بكل دقة.. أعذرني أرجوك.

ارتفع صوت أشياء تتحطم بين اللهب الذي بدا وكأنه خبا وراحت عواصف من الدخان الأسود تسقط من السقف. وبعد دوي فظيع، انهار جانب كبير من البناء.

زمجرت الجماهير مستقبلة انهيار سقف المخزن:

ـ بو.. نوم!..

وفاحت رائحة خبز محروق ثم انبعث اللهب فأضاء وجوه النظارة المنهكة ولكن القريرة.

صاح الرجل ذو المعطف الخشن وهو يرفع ذراعيه في الهواء:

ـ مرحى! إنه يزداد اشتعالاً. مرحى أيها الفتيان!

وقالت الأصوات: إنه المالك نفسه.

سأل الأمير أندريه الباتيتش: إذن، مفهوم؟ كرر لهم هذا القول كما رويته لك..

ودون أن يلتفت إلى بيرج الواقف إلى جانبه صامتاً، دفع حصانه واختفى في الشارع الضيق.

الفصل الخامس

ظلت قواتنا تتراجع، بعد سمولنسك، تحت ضغط العدو. وفي العاشر من شهر آب، كان الفوج الذي بقيادة الأمير أندريه يمر بالطريق الكبير قرب الممشى المؤدي إلى ليسيياغوري وكان الجفاف والحرارة مستمرين منذ أكثر من ثلاثة أسابيع والغيوم البيضاء تتحرك على أديم السماء نهاراً أشبه بقطيع الخراف لتتبدد قبل المغيب بين أبخرة سمراء تلوّنها الحمرة. فكان ندى الليل السخي وحده يرطب الأرض. أما القمح الذي لايزال فوق سوقه، فكان يحترق وتنفرط سنابله والمستنقعات تجف والقطعان تجأر من الجوع ولا تجد في المروج المتفحمة شيئاً تأكله. وكانت الرطوبة تهبط ليلاً في الغابة وتستمر ما استمر الندى.

أما على الطريق الذي كان الجيش العرم يسلكه، فلم يكن ثمة وجود للرطوبة، حتى أثناء اجتياز الغابات لأن الندى كان يختفي هناك وسط الغبار الذي تنشره الخطى عاصفاً إلى ارتفاع أكثر من نصف قدم. كانوا يبدأون السير منذ الصباح الباكر والقوافل والمدفعية المتقدمة دون جلبة تغوص حتى محاور العجلات، والرجال حتى الكعاب في ذلك الغبار الخانق الذي لم يكن يبرد حتى في الليل، والذي يرتفع ما لم يحف منه بالأقدام والعجلات على شكل سحابة كثيفة فوق القطعات فيتخلل العيون والشعر والآذان والأنوف وبصورة خاصة رئات الرجال والخيل. وكلما ازداد ارتفاع الشمس في الأفق ازداد هذا الستار كثافة حتى ليسمح للعين المجردة أن تحدق إلى الشمس التي تبدو

خلاله أشبه بكتلة كبيرة قانية. ولم تكن نأمة ريح تهبّ على ذلك الجو الساكن الذي يكاد الرجال يختنقون فيه فكان يجب السير والمنديل فوق الأنف والفم. وعند اجتياز القرى، كانوا يتهافتون إلى الآبار ويتدافعون للحصول على الماء الذي يمضون في نضحه حتى يخلفوا الطين وحده.

وكان الأمير أندريه مستغرقاً بكليته في قيادة فوجه ومشاغل راحة رجاله وضرورة تلقي الأوامر وإصدارها، ولقد وسم حريق سمولنسك والانسحاب منها تلك الحقبة من حياته بميسم لا يبلى وأخذ شعور جديد بالحقد على العدو يعتلج في صدره وينسيه همومه، كان يستسلم لمشاغله بكليته ويظهر تجاه ضباطه وجنوده مفعم النفس بالأنس والترفق فكانوا يسمونه «أميرنا» ويحبونه ويفخرون به، وكان عطفه وحسن التفاتته يقتصر على رجال فوجه ورجال تيموخين وغيرهم ممن هم جديدون عليه، تابعون لوسط آخر لا يقدرون على معرفته ولا فهم ماضيه، لكنه ما إن يلتقي من هم من وسطه القديم أو واحداً من السادة التابعين للأركان، حتى ينفر فجأة ويصبح سريع الغضب مستهزئاً متعالياً، كان كل ما يذكره بحياته السابقة ينفره. مع ذلك، فقد كان في علاقاته مع أشخاص عالمه، يتحرى حدود الواجب والعدالة الأكثر دقة وتمحيصاً.

والحق يقال إن كل شيء بات يمثل لعينيه تحت أكثر الألوان سواداً وبصورة خاصة منذ السادس من آب يوم مغادرة سمولنسك التي، بحسب رأيه، كان يمكن ويجب الدفاع عنها ومنذ أن اضطر أبوه المريض إلى الفرار إلى موسكو تاركاً ليسياغوري العزيزة عرضة للسلب والنهب، بعد أن نظمها واعتنى بها وشيّد فيها الأبنية على أفضل وجه، لكن فوجه كان هذه المرة أيضاً بمثابة محول لانشغالاته الكئيبة، وفي العاشر من آب، وصل الرتل الذي كان فيه إلى حذاء ليسياغوري وقد تلقى قبل يومين نبأ مفاده أن أباه وأخته وابنه غادروها إلى موسكو، وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه ما يفعله هناك، فقد

اتخذ قراراً أن يمر بالمكان لأنه كان من أولئك الذين لا يتركون فرصة بعث أحزانهم تمر دون انتهازها.

أمر أن يسرج جواده وانطلق من نقطة الحلول إلى الأرض القديمة التي ولد فيها وقضى صباه، وبينما هو يسير على طول المستنقع الذي درجت العادة على أن يجتمع حول ثول من النساء بين غاسلات وضاربات بالمخباط ألبستهن وهن يثرثرن، لاحظ أن زمث الغسلات المفصول عن الشاطئ ونصف الغائص في الماء، عائم وسط المستنقع، وعندما وصل إلى منزل الحارس قرب المدخل الكبير، لم ير أحداً لكنه وجد البوابة مفتوحة، وكانت الأعشاب قد نبتت في ممرّات الحديقة والعجول والخيول تطوف في الحديقة الإنجليزية، وكان عدد من زجاج بستان البرتقال محطماً وبعض الشجيرات المغروسة في صناديق خاصة منقلباً والبعض الآخر يابساً، نادى أندريه البستاني تاراس، لكنه لم يتلق جواباً، دار حول حديقة البرتقال فبلغ الشرفة ورأى أن دائرة الألواح الخشبية الرقيقة التي يعمل فيها يوم كانت محطمة وأنهم كسروا أغصان أشجار الخوخ للحصول على الفاكهة. وكان كهل تذكر أندريه أنه رآه في طفولته قرب الباب الكبير، يضفر «قلشيناً» وهو جالس فوق المقعد الأخضر الذي كان الأمير يفضله وكبب لحاء القنب معلقة إلى أغصان شجرة مانوليا محطمة وجافة، كان العجوز أصمّ فلم يشعر باقتراب سيده.

وصل أندريه أخيراً إلى البيت، كانوا قد قطعوا بعض أشجار الزيزفون من الحديقة القديمة وراحت فرس بلقاء ومهرها يطآن بقوائمهما مجموعة أشجار الورد، وكانوا قد أغلقوا النوافذ بتثبيت المصاريع إلا واحدة في الدور الأسفل كانت مفتوحة، ولدى رؤية الأمير، اندفع أحد الفتيان إلى داخل المنزل ليخطر الباتيتش الذي ظل وحده في ليسيياغوري بعد أن رحّل أسرته، وكان جالساً يقرأ حياة القديسين، فلما علم بقدوم الأمير أندريه، خرج من المنزل وهو يزرّر

سترته واقترب من الأمير مسرعاً ونظارتاه على أنفه وانخرط باكياً وهو يقبل ركبتيه دون أن ينطق بكلمة.

ثم أشاح، وهو شديد الندم، على إظهار ضعفه وراح ينهي إليه تقريره عن الوضع، لقد حملت كل الأشياء الثمينة إلى بوجو تشاروڤو التي نقلوا إليها كذلك من القمح حوالى مائتي كنتال. أما العلف وقمح الربيع، وهو محصول رائع كما راح يؤكد الباتيتش، فقد أخذ وهو لا يزال غير ناضج واحتشته القطعات، أما الفلاحون فقد نُكبوا، ونزح بعضهم إلى بوجوتشاروڤو، أما العدد الأكبر فقد بقي في مكانه.

سأل أندريه دون أن يدعه يسترسل: متى ذهب أبي وأختي؟

وكان يعني بسؤاله: إلى موسكو، إلا أن الباتيتش اعتبر أنه إنما يعني: بوجوتشاروڤو، فأجاب بأنهم ذهبوا يوم ٧ آب، وبدأ مجدداً يشرح مسائل الأرض ويسأله التعليمات.

ـ هل نأمر بأن أسلم القطعات لقاء إيصال العلف الذي بقي لدينا؟ لا يزال عندنا ألف ومائتا كنتال.

تساءل أندريه: «ماذا يجب أن أقول له؟» وكان يتأمل جمجمة العجوز الأصلع وهي تلتمع تحت أشعة الشمس ويقرأ على وجهه أنه رغم إدراكه عدم لياقة مثل هذه الأسئلة إنما يطرحها ليكبت ألمه.

ـ نعم، سلمهم.

استرسل الباتيتش: لا بد وأنك لاحظت الفوضى الشاملة في الحديقة، لا سبيل إلى منعها، لقد أمضى الليل هنا جنود ثلاثة أفواج، ومعظمهم من الفرسان الفرنسيين، ولقد سجلت اسم قائدهم ورتبته لأتقدم بالشكوى.

سأله الأمير أندريه:

ـ وماذا أنت عازم على عمله؟ هل ستبقى إذا جاء العدو؟

التفت الباتيتش إلى سيده ونظر إلى عينيه وفجأة رفع يده إلى السماء بحركة جليلة وقال:

ـ إنه هو الذي يحميني فلتكن مشيئته!

أخذ جمع من الفلاحين والخدم حاسري الرؤوس، يتقدمون فوق الأرض المعشوشبة باتجاه الأمير أندريه. قال هذا وهو ينحني نحو الباتيتش:

ـ هيا، الوداع! إذهب أنت الآخر، واحمل ما تستطيع حمله وقل للقرويين أن يلجأوا إما في أرضنا في ريازان وإما في المنزل الريفي قرب موسكو.

ضم الباتيتش نفسه وهو ينتحب إلى ساق سيده فأزاحه أندريه بلطف وهمز جواده وانحدر جارياً فوق الممشى.

وعلى فسحة حديقة البرتقال، وبمثل لامبالاة الميت بذبابة سقطت فوق وجهه، استمر العجوز يربت «قلشينه» المثبت فوق القالب. والتقت فتاتان صغيرتان شمرتا عن أذيال ثوبيهما اللذين ملأتاهما بالخوخ الذي جنتاه من أشجار بستان البرتقال وجهاً لوجه مع سيدهما الصغير. فلما وقعت أعينهما عليه، أمسكت كبراهما سناً بيد رفيقتها وقد استبد بها الخوف وركضتا تختبئان وراء شجرة سندر وقد تركتا الخوخ الفج يسقط منهما.

أسرع الأمير أندريه فأشاح بوجهه كيلا يشعرهما بأنه رآهما. كان يشعر بالإشفاق على تلك البنية الصغيرة الجميلة ذات الأمارات المروعة التي لم يكن يجرؤ على النظر إليها رغم رغبته الملحة. استحوذ عليه شعور جديد مرح ومسكّن لدى رؤيته تينك الطفلتين، ذلك أنه أدرك وجود مصالح في الحياة تختلف عن مصالحه، مصالح طبيعية جداً. لم يكن لهاتين الطفلتين إلا رغبة واحدة: حمل خوخهما الفج دون أن يمسكهما أحد والتهامه باطمئنان. فلم يكن الأمير أندريه أقل منهما رغبة في نجاح مشروعهما. لم يستطع أخيراً أن يتمالك نفسه فنظر إليهما مرة أخرى. كانت تعتبران أنهما خرجتا عن نطاق

الخطر فرفعتا ذيول ثوبيهما مجدداً بعد أن خرجتا من مخبئيهما وراحتا تقفزان وتظهران فوق الأرض المخضرة، تزقزقان بصوتيهما العذبين.

كان أندريه قد ترطب قليلاً، بخروجه من غبار الطريق العام لكنه عاد إلى طريق غير بعيد عن ليسيياغوري ولحق بفوجه الذي كان قد توقف عند مستنقع صغير. وكانت الساعة الثانية بعد الظهر والشمس، دائرة حمراء خلال الغبار، تشوي الظهر بشكل لا يطاق خلال قماش البزات الأسود والغبار، وهو أبداً على كثافته المعروفة، يحوم فوق القطعات المتوقفة على شكل طبقة ساكنة تضم ذوي الأحاديث المتبادلة والريح ساكنة لا تتحرك.

وبينما الفوج يمر فوق السد، أذكت الرطوبة ورائحة الوحل المترسب المتصاعدتان من المستنقع في نفس الأمير أندريه الرغبة في الارتماء في الماء مهما كانت قذرة. وانبعثت من المستنقع ضحكات وصرخات. لقد بدا ذلك المستنقع المخضوضر وكأن مياهه ارتفعت ثلاثين سنتيمتراً وكادت تغرق السد لكثرة الأجساد البيضاء العارية التي امتلأ بها والتي كانت الأعناق والأيدي والوجوه الحمراء بلون القرميد تظهرفوقها بوضوح لتنافر اللون. وكانت هذه الأجساد كلها تتخبط بين الضحكات والأصوات، وسط تلك الحفرة الموحلة أشبه بقبضة من السميكات احتجزت في مسقاة. وكان ذلك الحمام البهيج في تلك السعة يثير في النفوس أفكاراً تمتاز بكآبتها.

تراجع جندي شاب أشقر اللون كانت ربلته محاطة بإسار عرف فيه أندريه جندياً من الفصيلة الثالثة، ورسم على صدره إشارة الصليب ثم غطس وراح صف ضابط شديد السمرة غارق في الماء حتى وسطه، يدير جذعه العاضل ويغتسل مستعيناً بذراعيه السوداوين حتى الرسغ في سفح الماء على رأسه. كان كل هؤلاء يصرخون ويتراشقون بالماء ويتبادلون الأقوال اللاذعة.

وعلى الشطآن وفوق السد وفي المستنقع وفي كل مكان كانت الأجساد

البيضاء السليمة العاضلة منتشرة. وكان تيموخين، الضابط ذو الأنف الصغير المحمرّ يجفف جسده بمنشفة رغم ارتباكه لدى رؤية الأمير ويقول له:

ـ إن هذا ينشط يا صاحب السعادة. كان يجب أن تنتهز الفرصة.

قال الأمير أندريه وهو يصعر خده: إن الماء بالغ القذارة.

فعرض تيموخين قائلاً: سوف ينظفون لك ركناً.

وراح وهو في عريه الطبيعي يجري لإعطاء الأوامر للمستحمين: إن الأمير يريد...

صاحت أصوات عديدة:

ـ أي أمير؟ أميرنا؟

واندفعوا جميعهم متزاحمين حتى أن أندريه وجد صعوبة كبيرة في تهدئتهم واستحضار ماء نظيف إلى المكادس حيث يستطيع الاغتسال بأكثر راحة.

قال في سرّه وهو ينظر إلى جسمه العاري ويرتجف من البرد أقل من ارتعاده تحت وطأة شعور غامض بالاشمئزاز والهول أثارته في نفسه رؤية تلك الأجساد المتخبطة في الماء الضحل: «هذا الجسد. لحم للمدفع!».

كتب الأمير باغراسيون، في السابع من آب، من مخيمه في ميخائيلوڤكا إلى أراكشييـڤ رسالة كان متأكداً أن الأمبراطور سيقرأها لذلك فقد وزن العبارات أقله بالقدر الذي استطاعه.

«سيدي الكونت ألكسيس أندرييـڤيتش العزيز.

«أعتقد أن الوزير قد رفع إليك تقريره حول إخلاء سمولنسك وتركها للعدو. إنه حدث مؤلم يأسف الجيش كله له أيما أسف لأن أكثر مدننا أهمية قد سلمت دون أي مبرر. إنني من جانبي توسلت إليه بإلحاح شديد سواء عن

طريق القلم أو الشفة ولكن ما من شيء استطاع إقناعه. إنني أصرف لك كلمتي على أن ناپليون كان محصوراً وكأنه في كيس وأنه كان سيضيع نصف جيشه دون أن يستطيع احتلال سمولنسك. ولقد قاتلت قواتنا ولا تزال تقاتل ببسالة قلّ نظيرها. إنني شخصياً أوقفتهم بخمسة عشر ألف رجل أكثر من خمس وثلاثين ساعة ثم هزمتهم، أما هو، فإنه لم يشأ الصمود حتى ولا أربع عشرة ساعة. إنها وصمة عار بالنسبة إلى جيشنا كما يخيل إلي. وإذا أعلمكم بأن خسائرنا جسيمة فقوله ليس صحيحاً: إنها تبلغ أربعة آلاف رجل على الأكثر. بل إنها ولو كانت عشرة آلاف، فأية أهمية؟ إنها الحرب. إن خسائر العدو في المقابل جسيمة.

«ماذا كان يكلف البقاء يومين آخرين؟ كانوا سيتقهقرون على أقل تقدير لأنه لم يكن ليتبقى لديهم ماء لا لهم ولا لخيولهم لقد وعدني بأنه لن يتراجع وإذا به فجأة يرسل إلي قراراً يقول فيه إنه راحل خلال الليل، إن الحرب لا تخاض على هذا الشكل. إننا بهذا الشكل، لن نلبث حتى نستقدم العدو إلى موسكو.

«تروج الإشاعات حول تفكيركم في الصلح. ألا ليجنبكم الله هذا التفكير! إن عقد الصلح بعد كل هذه التضحيات والتراجع السخيف! إنكم بذلك تتعرضون لروسيا كلها وسيخجل كل منا أن يرتدي البزة. إننا في الوضع الذي نحن فيه يجب أن نقاتل ما استطاعت روسيا القتال وما بقي رجل على قيد الحياة.

«يجب أن يقود رجل واحد ولا اثنان. لعل وزيركم ممتاز في وزارته. أما بصفته جنرالاً، فإنه غير ناجح أبداً. لقد أودع مصير وطننا بين يدي رجل من هذا النوع.. إنني أثور وأكاد أجن، فأرجو أن تغفروا لي جرأة هذه الكلمات. إن ذلك الذي يشير بالصلح ويريد أن يقود الوزير الجيش، رجل لا يحب

أمبراطوره ويرغب في هزيمتنا.. إنني أقول لك الحق: سلح المتطوعين بسرعة لأن الوزير سوف يصحب ضيفه إلى العاصمة بشكل يناسب المقام.. إن السيد المساعد العسكري الجنرال ڤولزوغن يوحي بالشك في كل أوساط الجيش. إنه على ما يزعمون رجل ناپليون أكثر من أن يكون رجلنا وهو المستشار الأكبر للوزير. أما أنا، فإنني لا أكتفي بأن أكون مهذباً معه فقط، بل أطيعه كذلك كما يطيع أي عريف رئيسه رغم أنني أقدم منه. إن هذا مؤلم. لكنني أخضع حباً بأمبراطوري والمحسن إلي. إلا أنني مشفق إذ سلم الأمبراطور جيشنا المعظّم إلى أشخاص من هذا النوع. تصوروا أكثر من خمسة عشر ألف رجل قد ماتوا من التعب أو في المستشفيات خلال تقهقرنا. فلو أننا تقدّمنا إلى الأمام لما كابدنا مثل هذه الخسائر. بحق السماء، ماذا ستقول روسيا، أمنا، عندما تعلم بأننا نخاف وأننا نسلم وطننا الباسل إلى أسافل وأن نثير في قلب كل مواطن الضغينة والسخط؟ هل هي خطيئتي إذا كان الوزير قلقاً غبياً ضعيف النفس وإذا كان يجمع في نفسه كل الأخطاء الممكنة؟ إن الجيش كله لا عمل له إلا البكاء وإرهاقه بالشتائم».

الفصل السادس

يمكن أن نميّز، بين وسائل الحياة التي لا عدّ لها تلك الوسائل التي ينتصر فيها الكنه على الصيغة، وتلك التي على العكس تنتصر فيها الصيغة. وفي هذه الزمرة الأخيرة، يمكن أن نضع مقابل حياة الريف والمراكز حتى وموسكو، الحياة في پيترسبورغ، وبصورة خاصة، الحياة في مجتمعاتها. إنها حياة ثابتة لا تتغير. منذ عام ١٨٠٥ ما برحنا نتصالح ثم نتخاصم مع بوناپرت ونقيم الأنظمة ونسقطها. مع ذلك فإن «صالونَي» آنّا پاڤلوڤنا وهيلين بقيا كما كانا عليه الأول منذ سبع سنين والثاني منذ خمس. كانوا لدى آنّا پاڤلوڤنا يتحدثون دائماً بدهشة عن نجاح بوناپرت ويجدون في ذلك النجاح المتعاقب وفي مجاراة أمراء أوروبا له مؤامرة بشعة ضد هذه الدائرة من البلاط التي تنتسب إليها ربة الدار وصفائها أما لدى هيلين حيث كان روميانتسيـڤ نفسه يشرفها بزياراته ويعتبرها امرأة على جانب نادر من الذكاء، فقد كانوا مستمرين عام ١٨١٢ كما كانوا عام ١٨٠٨ في التحمس للرجل الكبير والأمة العظيمة ويستنكرون قطع العلاقات مع فرنسا التي يجب أن تنتهي حسب مزاعمهم بصلح قريب.

وعندما وصل الأمبراطور إلى پيترسبورغ، قامت حركة معينة في هذين الوسطين المعاكسين ودارت فيهما بعض المشاهد العدائية من جانب نحو الجانب الآخر دون أن يتبدل في الواقع ميل أحد الجانبين. بقيت دائرة آنّا پاڤلوڤنا لا تستقبل من الفرنسيين لا المدافعين عن حق الملك الشرعي المدعوين رسمياً وتعرب عن وطنيتها بالمسرح الفرنسي الذي كانوا يزعمون

أن تكاليفه تبلغ تكاليف تجهيز جناح من الجيش. وكانوا يتابعون في تلك الدائرة بحماسة الأحداث العسكرية ويوزعون أفضل الإشاعات حول موقف جيوشنا. أما في دائرة هيلين، التي كانت دائرة روميانتسيـڤ وأنصار فرنسا، فقد كانوا ينكرون وحشية العدو ويحاضرون حول محاولات ناپليون العديدة في سبيل الصلح ويذمّون أولئك الذين نصحوا بسرعة نقل البلاط ومؤسسات التعليم التابعة للأمبراطورة الأم إلى كازان.

وكانت العمليات العسكرية تعتبرها مجرد مظاهر بسيطة يجب أن تنتهي بالصلح. ولقد أصبح بيليبين من رواد هذا الوسط الذين كان كل رجل فكر يلجأ إلى الانتساب إليه، وأصبح رأيه فيه قانوناً وهو أن المسألة لن تحسم بالبارود بل عن طريق أولئك الذين خلقوها. وكانوا يسخرون بأقوال طريفة ولكن بشيء من التحفظ حماسة أهل موسكو، تلك الحماسة التي بلغت أصداؤها پيترسبورغ إبّان عودة ألكسندر.

لكن العكس كان لدى أنّا پاڤلوڤنا. كانوا يعظّمون هذه التظاهرات ويتحدثون عنها حديث پلوتارك[1] عن القدماء. وكان الأمير بازيل الذي لايزال يحتل مراكزه المرموقة السابقة، يقوم بدور همزة الوصل بين الدائرتين فكان يرود دورياً «صديقتي الطيبة» أنّا پاڤلوڤنا و«صالون ابنتي الدبلوماسية» وكانت هذه الحركة الانتقالية الدائمة غالباً ما تعرضه للأخطاء فيقع له مثلاً أن يتحدث لدى هيلين ما كان عليه أن يقوله لدى أنّا پاڤلوڤنا والعكس بالعكس.

بعد رجوع ألكسندر بقليل، راح الأمير بازيل وهو يتحدث لدى أنّا پاڤلوڤنا عن الموقف، يحكم على باركلي دوتوللي بقسوة وتساءل عمن يمكن أن يُحل محله، وروى واحد من أكثر الناس ارتياداً للوسط. ذلك الذي أطلق

---

(١) مؤرخ يوناني شهير مؤلف حياة مشاهير رجال اليونان وروما. (المترجم).

عليه اسم «الرجل ذو المزايا الكثيرة» أنه رأى ذلك اليوم بالذات رئيس متطوعي بيترسبورغ، كوتوزوف، يرأس في ديوان الخزينة استقبال المتطوعين، ثم أعرب بحكمه أن كوتوزوف هذا يمكن أن يكون على الضبط الرجل المطلوب.

فأظهرت آنّا پاڤلوڤنا بابتسامة سوداوية أن كوتوزوف لم يسبب للأمبراطور إلا المصائب.

ـ قلت وكررت ذلك في جمعية النبلاء لكنهم لم يصغوا إليّ. لقد قلت إن تعيينه رئيساً للمتطوعين لا يريح الأمبراطور. لكنهم لم يصغوا إلى قولي. إنها دائماً عادة التراشق وتبادل اللوم. وأمام من؟ كل ذلك لأننا نريد الموافقة على حميات الموسكوڤيين الرعناء.

وشعر الأمير بازيل أنه خلط بين الأمور: ذلك أن حميات الموسكوڤيين التي هي موضوع سخرية دائرة هيلين يجب أن تُحمل لدى آنّا پاڤلوڤنا على محمل الإطراء فأصلح خرقه بسرعة:

ـ هل من المناسب أن يقيم الكونت كوتوزوف أقدم جنرالات روسيا هناك وذلك إضافة إلى ما فيه من إيلام له! هل يعقل أن يعين قائداً أعلى رجل لا يستطيع امتطاء صهوة جواد، ينام في المجلس الاستشاري، رجل متهتك فوق كل هذا! لقد خلق لنفسه سمعة رائعة في بوخاريست! إنني أترك جانباً مزاياه كجنرال. ولكن هل يمكن حقاً في هذا الوقت الحرج أن نضع على رأس جيشنا رجلاً عاجزاً وأعمى، نعم، أعمى بكل معنى الكلمة سيكون ذلك جميلاً، جنرال أعمى! إنه لا يرى شيئاً، مطلقاً أبداً... ليذهب ويلعب «التغماية»!

ولم يعترض على قوله أحد.

كان هذا الاتهام في الرابع والعشرين من تموز قائماً على أساس صحيح، لكن كوتوزوف تلقى في التاسع والعشرين من الشهر نفسه لقب أمير. لعل منح

هذه الرتبة لم يكن إلا كفّ يد بشكل مشرف، مع ذلك فإن الأمير بازيل، رغم اعتباره وجهة نظر مشروعة، أصبح أكثر تحفظاً. وفي الثامن من آب، اجتمعت لجنة مؤلفة من الماريشال سالتيكوف، أراكتشييـف، فيازميتينوف لوبوجين وكوتشوبيي، للتداول في سير الحرب العام. عزت هذه اللجنة خسارتنا إلى التناحر على القيادة وعرضت رغم ما تعرفه عن نفور الأمبراطور من كوتوزوف، أن يعين هذا قائداً أعلى بعد نقاش قصير. وفي ذلك اليوم بالذات، عُين كوتوزوف قائداً أعلى للجيوش، وللمناطق التي نحتلها كلها.

والتقى الأمير بازيل مجدداً، في التاسع من آب، لدى آنّا پاڤلوڤنا بالرجل ذا المواهب الجمة. كان هذا يشغل منصب قيّم في مؤسسة للفتيات، ويتملق آنّا پاڤلوڤنا دون كلال. دخل الأمير بازيل بأمارات الرجل المنتصر الذي تحققت رغباته أخيراً.

ـ حسناً! هل تعرفين النبأ العظيم. إن الأمير كوتوزوف الآن ماريشال. لقد انتهت الخلافات كلها الآن. أنا مسرور بذلك، شديد السرور! أخيراً ها هو ذا رجل!

كذلك كان يعلن وهو يدير بالموجودين نظرة ملؤها الصرامة والأهمية.

وعل الرغم من أن الرجل ذا المواهب الجمة كان يرغب بقوة في الحصول على مركز ما، فإنه لم يستطع إلا أن يلفت انتباه الأميربازيل إلى أنه لم يتحدث دائماً على هذا النحو. وكان ذلك صدمة موجهة إلى الأمير بازيل في قاعة آنّا پاڤلوڤنا بقدر ما هي موجهة إلى المضيفة نفسها التي تلقت النبأ بفرح. لكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه. قال وهو يذكر الأمير بتأكيد الحديث: لكنهم يقولون يا أميري إنه أعمى.

فأجاب الأمير بازيل بشدة بصوته الخفيض وهو يسعل سعالاً خفيفاً، وتلك وسيلته في استجماع أعصابه عندما يكون مرتبكاً، هيا، إنه يرى كفاية.

ثم كرر: هيا، إنه يرى كفاية. إن ما يسرني أكثر هو أن الأمبراطور أعطاه مطلق السلطة ليس على الجيوش فحسب بل كذلك على الأراضي التي تحتلها. وهي سلطة لم يحصل على مثلها قط أي قائد أعلى.

وأعقب مستنتجاً وهو يبتسم ابتسامة المنتصر: إنه حاكم ثان مطلق الصلاحية.

وقالت أنّا پاڤلوڤنا: ليساعدنا الله!

فظن الرجل ذو المواهب الجمة وهو الحديث في حياة البلاط، أن جملة أنّاپاڤلوڤنا تلك ليست إلا صدى لرأيها السابق فاستأنف رغبة منه في امتداحها: يزعمون أن الأمبراطور لم يمنحه هذه السلطة عن طيب خاطر. ولقد قالوا إن وجهه احمرّ كونه آنسة تُليت عليها «جوكوندا» عندما قيل له: إن الأمبراطور والوطن يحيطانك بهذا الشرف.

فقالت أنّاپاڤلوڤنا: لعل القلب لم يكن له دور في المسألة.

صاح الأميربازيل الذي جعل من كوتوزوف رجله فأصبح لا يطيق ألّا يحبه أحد: مطلقاً، أبداً! هذا مستحيل لأن الأمبراطور عرف دائماً كيف يقدر مواهبه.

ألمحت أنّاپاڤلوڤنا موحية برفق: عسى أن يتسلم الأمير كوتوزوف السلطة حقاً وأن لا يسمح «لأحد» أن يضع له العصي في العجلات.

ولقد أدرك الأمير بازيل فوراً ما أرادت أنّاپاڤلوڤنا أن تقوله فقال بصوت خفيض:

ـ أنا أعرف من مصدر موثوق به أن كوتوزوف تقدم بشرط أساسي هو استدعاء التسيزايـڤيتش. هل تعلمين ماذا قال للأمبراطور؟ «لا أستطيع أن أعاقبه إذا أساء التصرف ولا أن أكافئه إذا أحسن العمل» إنه رجل حاذق جداً هذا الأمير كوتوزوف. إنني أعرفه منذ زمن طويل.

فأضاف الرجل ذو المواهب الجمة الذي كان أسلوب البلاط ينقصه بدون شك: بل إنهم يقولون أيضاً إن شديد الرفعة يطلب من الأمبراطور ألّا يلحق بالجيش شخصياً.

وبالكاد تفوّه بهذه الجملة حتى أشاح الأمير بازيل وأنّاپاڤلوڤنا بحركة واحدة ليتبادلا نظرة آسفة وليعيبا على تلك السذاجة المنفرة بتنهدة حارة.

الفصل السابع

عندما جرت كل هذه الأمور في بيترسبورغ، كان الفرنسيون قد تجاوزوا سمولنسك واقتربوا من موسكو. وعمد تيير ككل مؤرخي سيرة نابليون، إلى تبرير سلوك بطله زاعماً أنه اجتُذب إلى جدران تلك المدينة رغماً عنه. إنه محق ككل أولئك الذين يبحثون عن إرادة رجل واحد تفسيراً للأحداث. إنه على حق لمثل الأسباب التي دفعت بعضاً من كتابنا إلى الزعم أن نابليون اجتُذب إلى الأمام ببراعة الجنرالات الروس.

إن قانون الحكم على الماضي يظهر لهم الماضي كله على اعتباره تحضيراً لحادث وقع. أضف إلى ذلك أن توافقاً ما بين الأحداث يزيد كذلك في تعقيد الأمور. فإذا خسر لاعب ماهر شوط شطرنج، اعتقد بإخلاص أنه أضاعه نتيجة خطأ من جانبه فيعود إلى الشوط يعيد حركاته حتى البداية ليبيّن موضع الخطأ متناسياً أنه ارتكب أخطاء أخرى وأن ما من حركة من حركاته كاملة. فالخطيئة التي يلاحظها، ما كانت لتلفت انتباهه لولا أن خصمه أفاد منها. فكم هي أكثر تعقيداً، لعبة الحرب التي تدور خلال ظروف زمنية معينة، والتي لا علاقة لإرادة واحدة في إدارة الآلات الجامدة فيها بل هي نتيجة التقاء عدد لا يحصى من الإرادات الخاصة.

بحث نابليون عن الاشتباك في معركة وراء دوروغو بوغ قرب فيازما بعد سمولنسك ثم في تساريـڤو ـ زايميختشه، ولكن، لم يتقبل الروس خوض

المعركة إلا في بورودينو على مسافة حوالى ثلاثين كيلو متراً من موسكو نتيجة ملابسات عديدة.

كانت موسكو، العاصمة الآسيوية لهذه الأمبراطورية الشاسعة، المدينة المقدسة لشعوب ألكسندر، موسكو بكنائسها الكثيرة التي تشبه في بنائها هياكل الصينيين، تثير ناپليون دون هوادة، كان خلال المرحلة من فيازما إلى تساريـڤو ـ زاييختشه، ممتطياً صهوة جواده الأبيض المموّه الإنجليزي بصحبة كوكبة الحرس وموكب من جواده والأتباع والمساعدين العسكريين. ولقد تخلف رئيس الأركان بيرتييه لاضطراره إلى الفتيان روسي أسرته الخيالة، فلم يلبث أن لحق بالأمبراطور هدباً يصحبه المترجم ليلورم ديدڤيل ثم أوقف جواده مشرق الأسارير، سأله ناپليون: حسناً؟

ـ إنه قوقازي من پلاتوڤ، يقول إن أفواج پلاتوڤ سوف تجتمع مع مجموعة الجيش وإن كوتوزوڤ قد عين قائداً أعلى، إنه شديد الذكاء وثرثار.

ابتسم ناپليون وأمر أن يُعطى جواد إلى ذلك القوقازي وأن يمثل بين يديه: لقد كان يرغب في استجوابه شخصياً، هدب عدد من المساعدين العسكريين خيولهم وبعد ساعة، اقترب المملوك لاڤروشكا الذي تخلى عنه دينيسوڤ لروستوڤ من ناپليون مرتدياً سترة، معتلياً سرجاً فرنسياً، بوجهه المرح، الثمل، سمح له الأمبراطور أن يمشي إلى جانبه وطرح عليه بعض الأسئلة: هل أنت قوقازي؟

ـ قوقازي يا صاحب النبالة.

قال تيير عندما روى هذه الحادثة: «لم يكن القوقازي يعرف الشخصية التي كان يمشي إلى ركابها لأن بساطة ناپليون لم يكن فيها ما يوقظ في خيال شرقي وجود أمبراطور، لذلك تحادث معه عن مشاكل الحرب الراهنة بأقصى ما تبلغ إليه الألفة».

وفي الواقع، إن لاڤروشكا الذي سكر بالأمس فترك سيده دون طعام، تعرض للضرب بالعصي ثم أُرسل بعد ذلك إلى إحدى القرى للبحث عن بعض الدجاج فاستمر يتلكأ ويحوم حتى سقط بين يديّ الفرنسيين، وكان واحداً من أولئك الخدم السفهاء الذين لا يستطيعون رغم ما رأوه من كل الألوان خلال حياتهم، أن يتصرفوا دون دناءة ومكر والذين هم على استعداد دائم للقيام بكل الخدمات الممكنة لأسيادهم الذين يحدسون لأول نظرة آراءهم السيئة وخصوصاً تلك التي يوحي بها إليهم الزهو والحقارة.

وعندما استُقدم أمام ناپليون الذي لم يلبث حتى أدرك حقيقته، لم يتأثر لاڤروشكا كما يجب لكنه اجتهد ليجعل أسياده الجدد يستقبلونه أفضل استقبال.

كان يعرف جيداً أن هذا هو ناپليون، لكن وجود الأمبراطور ما كان يمكن أن يبعث في نفسه اضطراباً أكثر من وجود روستوف أو الرقيب الأول المكلف ضربه بالعصي، ولما كان لا يملك شيئاً، فإن ناپليون ولا هذا الصف الضابط يمكن أن يأخذا منه شيئاً.

روى إذن كل القصص التي تدرو بين التابعين والتي كان الجانب الأكبر منها صحيحاً، ولكن، عندما سأله ناپليون عما إذا كان الروس يفكرون في التغلب على پونابرت أم لا، قطب لاڤروشكا حاجبيه وراح يفكر، خيل إليه أن السؤال يخفي شركاً لأن الأشخاص من نوعه يشمون رائحة الفخاخ في كل مكان.

قال بلهجة من يفكر: أعني إذا اندلعت المعركة على الفور كان الفوز بجانبكم، وهذا مؤكد، ولكن إذا مضت أيام ثلاثة، فإن هذه المعركة نفسها يمكن أن تطول.

أما ما ترجمه ليلورم ديدڤيل باسماً لناپليون، فهو كما يلي: «إذا نشبت

المعركة قبل ثلاثة أيام فإن الفرنسيين سيكسبونها، أما إذا نشبت فيما بعد، فإن الله وحده يعرف ما سيحدث». وعلى الرغم من حسن مزاجه، فإن ناپليون لم يبتسم بل أمر أن تعاد الجملة على مسامعه، فلاحظ لاڤروشكا ذلك ولكي يبهجه، تابع وهو يتظاهر بجهله حقيقة الشخص الذي يحدثه:

ـ نعم، إننا على معرفة أن لديكم من يدعى پونابرت، لقد هزم كل الناس في هذا العالم، لكن الأمر سيختلف بالنسبة إلينا...

ولقد أفلت منه هذا التبجح الوطني دون أن يعرف السبب.

وترجم المترجم فعني خلال ذلك بإخفاء الكلمات الأخيرة، وكتب تيير يقول: ««لقد أضحك القوقازي الشاب محدثه العظيم». وبعد أن خطا بضع خطوات في صمت، قال ناپليون لـپرتييه إنه يرغب في معرفة الأثر الذي سيحدث في نفس «فتى الدون هذا» إذا أطلعوه على أن الشخص الذي تحدث معه ليس إلا الأمبراطور، ذلك الأمبراطور الذي كتب على الأهرام اسمه المظفر الخالد.

وأزجي النبأ إلى لاڤروشكا.

عرف هذا أنهم يريدون أن يشوشوه وأن ناپليون يعتقد أنه سيخيفه لذلك تصنع الدهشة إرضاء لأسياده الجدد وتظاهر بذهول عميق: أدار حوله عينين متسعتين وانطبع وجهه بالإمارات التي تظهر عليه كلما أخذ ليُجلد، وكتب تيير: «لم يكد مترجم ناپليون يتكلم حتى استبدّ بالقوقازي لون من الدهشة فلم يعد يحير جواباً بقي يمشي وعيناه شاخصتان إلى ذلك الغازي الذي بلغ اسمه مسامعه عبر قفار الشرق، لقد توقفت ثرثرته فجأة ليحل محلها شعور بالإعجاب الصامت، وبعد أن كافأه ناپليون، منحه الحرية كما يحرر العصفور الذي يعاد إلى الحقول التي شاهدت مولده».

تابع ناپليون طريقه وهو يحلم بموسكو تلك التي كانت تحتل حيزاً كبيراً

من تفكيره. أما العصفور الذي أعيد إلى الحقول التي شهدت مولده، فقد لكز جواده حتى بلغ الخطوط الأمامية وهو يحضّر في خياله قصة مغامرات وهمية يرويها على زملائه لأن ما حدث له بالذات لم يكن في نظره يستأهل عناء روايته. ولما لحق بالقوقازيين، استعلم عن المكان الذي ينزل فيه فوجه الذي كان تابعاً لجيش پلاتوف.. وحوالى المساء، وجد سيده نيكولا روستوف قرب إيانكوفو وهو يمتطي صهوة جواده مع إيلين للقيام بنزهة في القرى المجاورة. وحينئذٍ، أمر روستوف أن يُعطى لاڤروشكا جواداً آخر ثم صحبه معه.

الفصل الثامن

عندما رجع الباتيتش سمولسنك، لم تكن الأميرة ماري في موسكو ولا خارج منطقة الخطر كما كان يعتقد أندريه.

وبدا الأمير العجوز كأنه استيقظ من حلم فجأة. أصدر الأمر بتجنيد متطوعين في قراه وبتسليحهم. ثم أنبأ الجنرال القائد الأعلى بأنه قرر البقاء في ليسيياغوري وأن يدافع عن نفسه فيها حتى الرمق الأخير وأنه يرجع إليه أمر اتخاذ التدابير الآيلة إلى حماية إقطاعية يتعرض فيها واحد من أقدم الجنرالات الروس إلى الأسر أو القتل أو إغفال مثل هذه التدابير. ثم أعلن للمقربين إليه أخيراً أنه لن يتحرك من مقاطعته.

رغم رفضه ترك منازله، عجّل في ترحيل ماري والأمير الصغير وديسال إلى بوغوتشاروڤو ومنها إلى موسكو. ولقد روعت الأميرة كثيراً لذلك النشاط المحموم الذي أعقب فترة من الجمود: لم تستطع أن توافق على ترك والدها وحده، لذلك سمحت لنفسها، لأول مرة، في حياتها بعصيانه ورفضت الذهاب، فانهالت عليها العاصفة التي كلفتها المساوئ غضب الأمير. وألقي عليها كل الأسواء التي تجعلها مسؤولة دون وجهة حق: لقد جعلت حياته لا تطاق وخاصمته مع ولده واتخذت آراء على حسابه بشعة لم تفكر إلا في تسميم حياته. وأخيراً طردها من مكتبه وأعلن أنه سيان عنده أذهبت أم لم تذهب: إنه يعتبرها ميتة ويمنعها إلى الأبد من الظهور أمامه. ولقد هدأ حزن

ماري عندما عرفت أنه لم يأمر بترحيلها بالقوة كما توقعت: لقد أدركت أن العجوز في أعماق نفسه سعيد لبقائها إلى جانبه.

وفي اليوم التالي لذهاب نيكولا الصغير، ارتدى الأمير العجوز منذ الصباح الباكر بزته الرسمية واعتزم الذهاب لرؤية القائد الأعلى. وكانت العربة قد أعدت فرأته ماري يخرج من مكتبه متحلياً بكل أوسمته ويأخذ طريق الحديقة ليستعرض فلاحيه وخدمه وهم تحت السلاح. جلست إلى إحدى النوافذ وراحت تصيخ السمع إلى نبرات صوت أبيها التي كانت تصل إليها منذ أن وصل إلى البستان. وفجأة أسرع بعض الرجال عن طريق الممشى الرئيسي تنطق وجوههم بالخوف.

اندفعت ماري إلى المرقاة ووصلت إلى الممشى الرئيسي جرياً مخترقة بستان الخضار. رأت جماعة من الخدم المتطوعين يسرعون للقائها وفي وسط هذه الجماعة، بعض الرجال يجرون العجوز القصير في بزته المغطاة بالأوسمة من تحت إبطيه. لم يسمح لها الضوء الخفيف الذي كان يتسلل عبر أغصان الزيزفون الكثيفة أن تتبين للوهلة الأولى انقلاب تقاطيع وجهه. لاحظت فقط أن وجهه الذي كان من قبل حازماً قد اتخذ طابعاً من الخضوع والخوف. ولما رأى ابنته، بعث من شفتيه العاجزتين بضعة أصوات غامضة مبحوحة فلم يستطع أحد معرفة ما كان يريد قوله. نقلوه حملاً إلى مكتبه حيث أجلسوه على تلك الكنبة التي باتت منذ بعض الوقت توحي إليه بخوف هائل.

وصل الطبيب الذي أرسلوا يستدعونه في الليل فقصد الأمير وأعلن أنه أصيب بشلل في جنبه الأيمن. ولما أصبح البقاء في ليسيياغوري يزداد خطراً، نقلوه إلى بوغوتشاروڤو منذ صباح اليوم التالي حيث صحبه الطبيب. فلما وصلوا إلى هناك، كان ديسال ونيكولا الصغير قد سافرا إلى موسكو.

بقي الأمير العجوز ثلاثة أسابيع على حالته تلك. لقد نقلوه إلى المنزل

الجديد الذي ابتناه أندريه لنفسه فبقي مسجى هناك فاقداً وعيه أشبه بالجثة المشوهة. كان يدمدم باستمرار ويحرك شفتيه وحاجبيه ولكن كان يستحيل معرفة ما إذا كان يشعر بما يدور حوله. وكل ما أمكن معرفته هو أنه يتألم ويشعر بحاجة إلى التعبير عن شيء ما. ولكن أي شيء؟ لم يستطع أحد معرفته. هل كانت نزعته مجرد هوى أو هذيان مريض أم كان لذلك علاقة بالأحداث أم بشؤون الأسرة؟

عزا الطبيب هذا الاضطراب إلى أسباب جسدية بينما كانت ماري على العكس تظن أن أباها يريد أن يكلمها الأمر الذي يؤيده اكتئاب المريض المتزايد باستمرار في حضرتها.

كان، بدون شك، يتألم جسدياً وفكرياً. لم يكن هناك أمل في شفائه كما لم يكن مستطاعاً التفكير في نقله إذ ماذا كان بمقدورهم أن يفعلوا لو أنه مات أثناء الطريق؟ وكانت ماري تتساءل أحياناً: «ألا تكون النهاية أفضل؟» كانت تراقبه ليل نهار دون أن تنام تقريباً فكان وهذا ما يؤلم قوله، يكتشف أحياناً على وجهها ليس أمارات التحسن بل على العكس بوادر ما يسبق النهاية.

اضطرت ماري سواء برضائها أو رغماً عنها أن تعترف بهذا الشعور الذي هو أسوأ ما في الأمر، وهو أنه منذ مرض أبيها بل قبل ذلك بقليل، عندما بقيت وحيدة معه تنتظر حدوث شيء ما، عادت الرغبات والآمال المنسية في أعماق نفسها إلى التيقظ بتجبر، عادت فكرة استطاعتها الحياة مستقلة متحررة من رهبة أبيها بل التعرف إلى الحب والسعادة الزوجية، تلك الفكرة التي لم تعد تخطر ببالها منذ سنوات، عادت اليوم تراود مخيلتها، ولقد فعلت ما تستطيع لطرد هذه الفكرة، لكنها ظلت تتساءل كيف ستنظم حياتها بعد وقوع حدث معين، فكانت هذه الآراء، بدون شك، إغراءات الشيطان لا تستطيع دفعها إلى الصلاة، لذلك كانت تتخذ وضع الصلاة وتنظر إلى الصور المقدسة وتتلفظ

بالعبارات المألوفة لكنها لم تكن تصلي إلا بشفتيها. كانت ترى نفسها في عالم جديد، عالم من الحركة والعمل والحرية معاكس تماماً للعالم الفكري الذي ظلت سجينته حتى ذلك الحين والذي كانت الصلاة وحدها سلوتها فيه. فلم تعد تستطيع الصلاة ولا البكاء: لقد استبدت بها الحياة.

أصبح التأخر في بوغوتشاروڤو خطراً. ما زال الفرنسيون يتقدمون ولقد نهبت مقاطعة على مسافة أربعة أميال من هناك من قبل رجالهم السارقين.

أخذ الطبيب يلح على ماري بنقل المريض، وأرسل نقيب الأشراف إلى الأميرة ماري موظفاً يطلب إليها الذهاب في أسرع ما يمكن. وجاء النقيب نفسه ينبئها بأن الفرنسيين أصبحوا على بعد ثمانية أميال من هنا: إن نداءاتهم باتت الآن تتناقل في القرى فإذا لم ترتحل حتى الخامس عشر فإنه لن يكون مسؤولاً عن شيء.

اتخذت ماري قرارها، أن تذهب ذلك اليوم فانشغلت في الاستعدادات وإصدار الأوامر طوال يومها لأن الجميع باتوا الآن يوجهون الكلام إليها. وأمضت ليلة ١٤ ـ ١٥، كعادتها دون أن تخلع ثيابها، في الغرفة المجاورة لغرفة الأمير. سمعت مرات عديدة خلال نومها أنات أبيها بصوته الأجش وطقطقة سريره وخطوات الطبيب وتيخون اللذين كانا يبدلان من وضعيته في الفراش. وجاءت مرات عدة تصيخ السمع وراء الباب: خيل إليها أن المريض ليلتئذ يتألم ويتخبط أكثر من المعتاد. فلم تستطع أن تعود إلى سريرها واقتربت مرات عديدة من ذلك الباب الذي لم تكن تجد الجرأة على اجتيازه. وعلى الرغم من عجزه عن الكلام فإن ماري كانت تشعر أن كل تظاهر بالعطف يغضب أباها: ألم يكن يتهرب باستمرار من نظرتها كلما رأى أنها شاخصة إليه؟ لذلك كانت تعرف أن زيارتها له في الليل، في ساعة غير مألوفة، ستثير غضبه.

مع ذلك، لم تشعر قط بأكثر من ذلك الحزن وأعظم من ذلك الرعب

اللذين أثارهما خوفها من فقده. كانت تستعرض مراحل الحياة التي أمضياها واحدهما بجانب الآخر، فكانت تكتشف في كل كلمة وفي كل حركة من كلمات العجوز وحركاته محبة لها. وكان الشيطان من حين إلى آخر يعود إلى مهاجمتها، فيدخل في ذكرياتها المناظر المغرية لمستقبل أكثر استقلالاً، لكنها سرعان ما كانت تطرده بشدة... وحوالى الصباح، هدأ الأمير فاستطاعت ماري أن تنام.

استيقظت متأخرة. وفجأة أطلعتها الصراحة الوحشية في الإحساس الذي يرافق اليقظة على ما كان يشغل بالها أكثر من أي شيء في مرض أبيها. مضت إلى الباب تصغي ولما تناهى إليها تنفس المريض الأجش، عرفت، وهي تتنهد، أن الأمر لايزال على ما كان. وفجأة، صاحت وقد استبد بها تقزز من نفسها: ولكن، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ ماذا أريد إذن؟ موته!

ارتدت ثيابها واعتنت بشعرها ثم تلت بعض الصلوات ومضت إلى المرقاة حيث وقفت العربات دون أن تقطر إليه الخيول وهم يملأونها بالأمتعة، كان الصباح بديعاً يتخلله غيم خفيف. بقيت ماري هناك فترة طويلة يذهلها الهول إزاء دناءتها تحاول استعادة هدوئها قبل أن تعود المريض. وهبط الطبيب السلم وجاء إليها يقول:

ـ إنه أحسن حالاً قليلاً اليوم. كنت أبحث عنك، لقد بدأنا نفهم ما يقول. تعالي، إنه يطلبك!

خفق قلب ماري لهذا النبأ بشدة حتى أن وجهها امتقع واضطرت أن تعمد إلى الباب فتستند إليه خشية أن تقع أرضاً. أن ترى أباها وتخاطبه وتقابل نظرته وهي التي كانت منذ حين فريسة مثل تلك الأفكار المجرمة، كان مدعاة لقلقها العنيف رغم ما يخالط ذلك العذاب من فرح.

عاد الطبيب يقول: تعالي.

دخلت غرفة أبيها واقتربت من السرير. كان قد أُقعد في سريره بينما راحت يداه الصغيرتان اللتان ظهرت فيهما العروق الزرقاء تدعك الغطاء وكانت عينه اليسرى شاخصة إلى نقطة أمامه أما اليمنى فتشوص، بينما ظل حاجباه وشفتاه في جمود. وكانت لشخصيته الجافة كلها منظر يثير الشفقة. وباتت تقاسيمه قد رقت وبدا وجهه كأنه مذاب. قبلت ماري يده. ومن الطريقة التي ضغط بها العجوز بيده اليسرى على يدها، أدركت أنه ينتظرها منذ زمن طويل. بل إنه هزها أيضاً بينما تقلصت شفتاه وحاجباه بحركة غاضبة.

نظرت إليه في شيء من الخوف وهي تحاول أن تخمن ما كان يريد منها. ولما أبدلت مكانها لتسمح لعين العجوز اليسرى أن ترى وجهها، هدأ بضع لحظات ثم تحركت شفتاه ولسانه وخرجت أصوات من فمه وراح يتكلم وهو يتوسل إليها بنظرة واجفة وبه خشية واضحة من أن لا تفهم قوله.

أخذت ماري تتأمله وهي تركز كل انتباهها فيه. لكنه كان يحرك لسانه بمجهودات مضحكة حتى أنها لم تستطع إلا أن تكف الطرف وأن تدفع بمجهود جبار الحشرجات التي بدأت تتصاعد إلى حنجرتها. غمغم بشيء ما وكرر كلماته مراراً فلم تتمكن الأميرة ماري من فهمها. مع ذلك فقد كانت تجهد نفسها لتخمن المعنى وتعيد ما يخيل إليها أنها فهمته من كلمات بلهجة مستفهمة.

أخيراً، اعتقد الطبيب أن المريض يسأل عما إذا كانت الأميرة خائفة.

لكن العجوز سفه هذا الظن بإشارة من رأسه وعاد مجدداً إلى الأصوات نفسها يخرجها.

أكدت ماري فجأة: آه! لقد عرفت إنه يقول إن روحه تتألم.

فأجاب «بنعم» غير واضحة وأمسك بيد ابنته وأثبتها على عدة مواضع من صدره وكأنه يبحث عن أفضلها.

نطق بشكل أكثر وضوحاً هذه المرة: كل أفكاري نحوك، كلها...

وأصبح صوته وقد تأكد أنه استطاع إفهامها قصده أكثر ثباتاً.

حبست ماري دموعها وحنت رأسها على يد أبيها فمر هذا بيده على شعرها. ودمدم: لقد ناديتك مرات عديدة خلال الليل.

فأجابت خلال دموعها: نعم، لقد عرفت. وكنت أخاف الدخول عليك.

ضغط على يدها وقال: ألم تنامي؟

ـ كلا.

وأيدت هذا الجواب بإشارة نفي من رأسها. ثم راحت مثله تتحدث، بالإشارات وكأنها صارت تحت تأثير أبيها وخيل إليها أن لسانها يدور بجهد.

يا روحي العزيزة... يا صديقتي العزيزة.. ـ ولم تفهم التعبير الصحيح ولكنها أدركت من نظرته أنه يوجه إليها لأول مرة كلمة حانية ـ لماذا لم تأتِ؟

فكرت ماري في نفسها: «وأنا التي كنت أتمنى له الموت!» استأنف بعد صمت!

ـ شكراً. شكراً يا صديقتي، يا ابنتي.. على كل شيء، على كل شيء.. صفحاً.. شكراً.. صفحاً.. شكراً!

وسالت دموع من مآقيه ثم سأل وقد اتخذ وجهه سيماء الطفل الذي يخاف مجابهة سؤاله بالرفض: استدعي أندريه.

بدا كأنه أدرك شخصياً صبيانية هذا الطلب أو أن هذا أقله ما خيل إلى ماري. أجابت: لقد تلقيت رسالة منه.

نظر إليها بدهشة ووجل: وأين هو إذن؟

ـ إنه في الجيش يا أبي، في سمولنسك.

أغمض عينيه وظل طويلاً ساكتاً ثم، وكأنه أراد أن يبدد شكوكها وأن يثب

في الوقت نفسه أنه استعاد ذاكرته وأحاسيسه، عاد وفتحهما ثم أشار برأسه إشارة إيجابية.

قال بصوت خفيض ولكن واضح:

ـ نعم، لقد ضاعت روسيا. لقد أضاعوها.

وانفجر منتحباً من جديد وانهمرت دموع على خديه. فلم تستطع ماري الصمود أكثر من ذلك، فاستسلمت لدموعها هي الأخرى وهي تتأمل وجهه.

أغمض عينيه ولم يلبث أن هدأ وأشار إلى عينيه فأدرك تيخون قصده فجففها.

عاد ففتح عينيه ثم فاه ببضع كلمات لم يتوصل أحد إلى فهمها باستثناء تيخون وحده. وكانت ماري تحمل معناها على مختلف الأفكار التي جاءتها حتى ذلك الحين: روسيا، أندريه، هي نفسها، حفيده أم موته. لكن الأمر كان متعلقاً بشيء آخر. لقد قال: اذهبي وارتدي ثوبك الأبيض إنه يعجبني.

ولما نقل إليها تيخون هذا التمني، تضاعف إجهاش ماري وحينئذ أمسك الطبيب بيدها وأخذها إلى الشرفة حيث عني بتهدئتها ولفت نظرها إلى ضرورة الإسراع باستعدادات الرحيل. تكلم الأمير مرة أخرى عن ولده أثناء غياب ماري وعن الحرب والأمبراطور وقطب حاجبيه بشكل يدل على الغضب وراح صوته الأجش يزداد ارتفاعاً وفجأة أصيب بصدمة ثانية كانت الأخيرة.

خلال ذلك، كانت ماري واقفة على الشرفة وقد أخذ الطقس يتحسّن والحرارة تثقل. لم تكن ماري قادرة على فهم شيء. كانت مستسلمة بكليتها لمحبتها التي تكنها لأبيها، تلك المحبة التي خيل إليها أنها ظلت تجهل أعماقها حتى ذلك اليوم. أسرعت إلى الحديقة وهي تنشج ونزلت حتى بلغت المستنقع على طول الممشى الحديث الذي تحيط به من الجانبين أشجار الزيزفون الفتية التي غرسها الأمير أندريه.

أخذت تكرر في نفسها وهي تسير بخطى واسعة وتضغط على صدرها بيدها، ذلك الصدر الذي كانت تنبعث منه زفرات تشنجية: وأنا... وأنا... التي تمنيت موته! نعم، لقد تمنيت أن ينتهي كل هذا بسرعة... كنت تواقة إلى أن أتذوق الراحة أخيراً... ثم ماذا سيحل بي الآن؟ أية فائدة تعود بالراحة علي إذا لم يعد هو في الوجود!

قادها طوافها في الحديقة إلى التوجه نحو المنزل فإذا بها ترى الآنسة بوريين التي كانت ترفض مغادرة بوغوتشاروفو قادمة لاستقبالها ومعها رجل مجهول. كان هذا نقيب الأشراف في المقاطعة وقد جاء بنفسه يحث الأميرة على الرحيل. وبعد أن لبثت ترافقه فترة، اعتذرت وأرادت أن تدخل غرفة أبيها. لكن الطبيب الذي كان خارجاً منها منقلب الأسارير منعها من الدخول: يستحيل يا أميرة، يستحيل!

عادت ماري إلى الحديقة، إلى أسفل المنحدر المؤدي إلى المستنقع، إلى مكان لا يمكن لأحد أن يراها فيه وجلست على العشب. لم تكن تستطيع معرفة الوقت الذي أمضته في مكانها ذاك خائرة القوى حتى جعلتها خطوات نسائية مندفعة تعود إلى تمالك نفسها. نهضت فشاهدت وصيفتها دونياشا التي كانت تفتش عنها. لكنها ما إن رأت سيدتها، حتى توقفت وكأنها صعقت. قالت بصوت متقطع: هل تريدين الحضور يا أميرة. إن الأمير...

قالت ماري دون أن تترك لها وقت إتمام جملتها: إنني ماضية، إنني ماضية.

وذهبت إلى المنزل وهي تتحاشى نظرة دونياشا.

قال لها النقيب الذي كان ينتظرها عند المدخل:

ـ أيتها الأميرة، إن مشيئة الله على وشك أن تتم، فكوني مستعدة لكل شيء.

صرخت بصوت شرس: دعني، هذا غير صحيح.

وحاول الطبيب أن يمنعها فدفعته جانباً واندفعت إلى الباب. «لماذا يستوقفني هؤلاء الناس؟ ماذا تعبر عنه وجوههم المروعة؟ لست في حاجة إلى أحد. ماذا يفعلون هنا جميعهم؟» فتحت الباب وأحست بالخوف وهي ترى تلك الغرفة التي بقيت حتى ذلك الحين غارقة في عتمة الظل، تسطع فيها أنوار النهار القوية. كانت مربيتها العجوز ونسوة أخريات هناك فابتعدن عن السرير ليتحن لها مجال المرور.. كان الأمير لا يزال مستلقياً لكن وجهه كان مطبوعاً بخطورة مشرقة جعلت ماري تتوقف لحظة على عتبة الباب.

قالت في سرّها وهي تقترب: «كلا، إنه ليس بميت. هذا مستحيل!» تغلبت على خوفها ولمست بشفتيها وجنة أبيها. لكنها لم تلبث أن تراجعت إلى الوراء. لقد فسح الحنان كله الذي كانت تحس به حياله في المكان فجأة لعاطفة من الهول. «إذن، لم يعد على قيد الحياة! لم يعد في المكان الذي كان فيه. لم يعد الآن إلا ما لست أدري من مجهول ومخيف، سرّ رهيب يجعلني أرتعد من الهول!» ثم أخفت رأسها بين يديها وانهارت بين ذراعي الطبيب الذي أسندها.

بدأت النساء بحضور تيخون والطبيب يعنين بزينة من كان الأمير ـ بولكونسكي. غسلن الجسد وأبقين الفم مطبقاً مستعينات بمنديل ثم أوثقن الساقين اللتين انفرجتا بمنديل آخر. ثم، بعد أن ألبسنه بزته الموشاة بالأوسمة، مددن تلك الجثة الصغيرة المهزولة فوق الطاولة. الله وحده يعرف من أعطى الأوامر ومنذ متى أعطيت. لكن كل شيء كان يسير بنظام تلقائي. وحوالى المساء، أضيئت الشموع حول النعش المغطى بستار رقيق وكانت الأرض قد فُرشت بأغصان العرعر وأودعت صلاة مطبوعة تحت رأس الميت بينما راح المرتل يترنم في صلواته في إحدى الزوايا.

وكما تُرى الخيول عندما تجتمع وتتنافر وتحتد حول جواد ميت، كذلك شوهدت في القاعة حول النعش، مجموعة من الناس تحتشد بين أقرباء وغرباء، نقيب الأشراف، والحاكم ونساء القرية، وكلهم شاخصة أبصارهم مفعمة بالذعر، يرسمون إشارة الصليب وينحنون ويقبلون يد الأمير العجوز الباردة المتصلبة.

الفصل التاسع

بقي فلّاحو بوغوتشارڤو بعيدين عن أنظار سيدهم الأمير أندريه قبل أن يقيم في ذلك الملك. فهم يختلفون كلياً عن فلّاحي ليسيياغوري الذين امتازوا عنهم باللغة والألبسة والعادات. كانوا يسمونهم «جماعة القفار». وعندما كانوا يذهبون إلى ليسيياغوري لمساعدتهم في الحصاد أو لتنظيف المستنقعات والحفر، كان الأمير يمتدح كفاءتهم في العمل. لكن وحشيتهم كانت تنفره.

وعملت إقامة الأمير أندريه الأخيرة بينهم وتجديداته التي أدخلها: مستشفيات، مدارس، تخفيف قيود حصة المالك بعيداً عن تلطيف عاداتهم على إبراز هذه البادرة الظاهرة من عقليتهم التي كان الأمير العجوز يسميها وحشية كانت الإشاعات المبهجة تروج بينهم دائماً: فحيناً كانوا سيسجلونهم في عداد القوقازيين وحيناً آخر سيدخلونهم في دين جديد. وكانوا تارة يتبادلون ما يزعمون أنه رسائل من القيصر ويزعمون حيناً آخر أن السادة عندما أقسموا يمين الولاء للأمبراطور پول، وعدوا بتحرير رقيق الأرض لكنهم لم ينفذوا ما وعدوا به. بل إنهم تناقلوا مرة مؤكدين أن «پول الثالث» سيعود ويحكم في غضون سبع سنوات وسيصبح كل الرقيق حراً على عهده وسيجري كل شيء ببساطة حتى أنه لن يكون ثمة حاجة إلى أية قوانين بهذا المعنى. وكان ما يروونه عن الحرب وناپليون والغزو، يختلط عندهم بمبادئ غامضة عن المسيح الدجال ونهاية العالم والحرية العامة.

وكان إلى جوار بوغوتشاروڤو قرى كبيرة تعود إلى التاج أو إلى أناس

خصوصيين ولكنها جميعها آهلة بقرويين تابعين لنظام الإتاوة. كان عدد قليل جداً من السادة يقيم بينهم لذلك فإن عدد الملمين بقواعد القراءة بين الرقيق والخدم نادر جداً. وعلى ذلك فإن التيارات الخفية في الحياة الشعبية بين سكان تلك القرى التي بقيت أسبابها سراً مغلقاً على المعاصرين، كانت أكثر قوة منها في الأمكنة الأخرى.

وكذلك على سبيل المثال، وقعت بينهم منذ عشرين عاماً، حركة هجرة إلى بعض الأنهار ذات المياه الساخنة. وباعت مئات الأسر فجأة ماشيتها ومن بينها عدد من عائلات بوغوتشاروڤو، ونزحت إلى مكان ما في الجنوب الشرقي، فكانوا يتوجهون إلى تلك المناطق التي لم تطأها من قبل قدم أحدهم مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم أشبه بالعصافير المهاجرة التي تعبر البحار. وكان بعضهم يشتري حريته والبعض الآخر يهرب ويذهبون جميعهم على أقدامهم أو في عربات قوافل إلى المياه الحارة. ولقد لحق ببعضهم فعوقبوا وأرسلوا إلى سيبيريا ونفق البعض الآخر خلال الطريق من البرد والجوع وعاد الباقون طواعية إلى أمكنتهم الأولى ثم انتهت الحركة من تلقاء نفسها كما بدأت دون سبب ظاهر.

لكن التيارات العميقة استمرت تجري بين هذا الشعب الذي أخذ يستمد منها قوة جديدة كانت ستظهر يوماً ما على شكل غاية في الغرابة وعدم التوقع وفي الوقت نفسه غاية في البساطة. وكان كل من عاش خلال تلك الفترة من عام ١٨١٢ مع هذا الشعب، يشعر بأنه إنما يعدّ من قبل هذه القوى البطيئة التي لا بد وأن تظهر إلى الوجود ذات يوم.

قبل موت الأمير ببعض الوقت، لاحظ الباتيتش الذي وصل إلى بوغوتشاروڤو حركة ما بين الفلاحين: ذلك أن «رجال القفر»، على عكس ما كان يجري في منطقة ليسياغوري أو في دائرة قطرها خمسة عشر ميلاً

حيث السكان يهجرون قراهم لينهبها القوقازيون، كانوا يعقدون الصلات مع الفرنسيين ويتلقون منهم بعض الأوراق ولا يفكرون إطلاقاً في الرحيل. وعلم الباتيتش عن طريق بعض الخدم الموالين له أن المدعو «كارب»، وهو شخص قوي النفوذ في المنطقة الذي رجع أخيراً من تسيير قافلة من العلف لحساب التاج، كان ينشر إشاعة مفادها أن القوقازيين ينهبون القرى التي يهجرها سكانها في حين أن الفرنسيين يحترمون السكان. وأخبروه كذلك أن قروياً آخر حمل أمس من ضيعة فيسلووتخوڤو التي يحتلها العدو، نداء يخطر فيه الجنرال الفرنسي السكان بأنه لن يقع لهم أي مكروه وأنهم إذا ظلوا في أماكنهم، فإنهم سيدفعون لهم عداً ونقداً ثمن كل شيء يأخذونه منهم. وتأييداً لهذا الزعم، كان ذلك الفلاح الخشن يريهم ورقة مالية من ذات المائة روبل، لم يكن يعرف أنها زائفة، أعطيت له عربوناً على علف اتفق معهم على تسليمه لهم.

بل هناك ما هو أشدّ خطراً. لقد علم الباتيتش أنه في ذلك الصباح بالذات الذي أصدر الأمر إلى شيخ الضيعة بإعداد العربات لنقل الأميرة، عقد اجتماع في القرية قرر فيه عدم الذهاب وانتظار ما تأتي به الأحداث. مع ذلك، فقد كان الوقت مدركاً. وفي ١٥ آب، يوم وفاة الأمير، ألح نقيب الأشراف على الأميرة ماري أن تذهب فوراً لأن الموقف بات مثيراً للقلق وأنه إذا انقضى يوم ١٦ آب، فإنه لن يكون مسؤولاً. ولقد ذهب ذلك المساء بالذات واعداً أن يعود في اليوم التالي ليحضر الدفن. لكنه لم يف بوعده لأن تقدماً مفاجئاً من جانب العدو اضطره إلى ترحيل عائلته وما يملكه من ثمين بأسرع ما يمكن.

منذ حوالى ثلاثين عاماً، كانت بوغوتشاروڤو تدار من قبل المدعو درون، وهو واحد من أولئك القرويين الأقوياء جسدياً وأخلاقياً الذي تزداد كثافة لحاهم كلما تقدموا في السن ولكنهم يبلغون الستين وأكثر دون أن يتبدل فيهم

شيء آخر أو أن تغزو شعرة بيضاء مفارقهم أو أن تسقط واحدة من أسنانهم، بل يستمرون منتصبي القامة مثل قوة أبناء الثلاثين.

ولقد عين درون بعد حركة الهجرة إلى المياه الحارة بقليل، تلك الهجرة التي اشترك فيها، شيخ بلد في بوغوتشاروڤو، وهو مركز بقي يشغله منذ ثلاثة وعشرين عاماً بشكل لا يتطرق إليه النقد. وكان الفلاحون يخافونه أكثر مما يخافون أسيادهم. أما سيادة الأمير العجوز والشاب، وكذلك الوكيل فقد كانوا يحترمونه ويسمونه على سبيل الدعابة: الوزير. لم يُر طوال مدة خدمته ثملاً أو مريضاً مرة واحدة ولم يظهر قط، حتى في أعقاب ليال بيضاء أو بعد أعمال مضنية، أية بادرة من التعب. ولم يخطئ قط رغم جهله القراءة والكتابة لا في حساباته النقدية ولا في عدد مكاييل الدقيق الذي كان يبيع منه عربات ضخمة ولا في عدد حزم الحشيش الذي تنتجه كل قصبة مربعة من مساحة الحقل.

وكان درون هذا، هو الذي استقدمه الباتيتش الذي جاء من الأرض المخربة المنهوبة: ليسياغوري يوم الدفن وكلفه استحضار حوالى اثني عشر جواداً لعربات الأميرة وثماني عشرة عربة صغيرة للأمتعة التي كان يجب نقلها. وعلى الرغم من أن القرويين كانوا خاضعين لنظام الحصة، فإن تنفيذ مثل هذا الأمر في نظر الباتيتش، ما كان يجب أن يلقى أية صعوبة لأن بوغاتشاروڤو كانت تعد مائتي وثلاثين بيتاً وسكانهم كلهم في يسر.

مع ذلك، فإن شيخ القرية درون خض عينيه لدى تلقيه الأمر دون أن ينبس بكلمة. ولقد عين له الباتيتش بعض القرويين من معارفه الذين يمكن أن يقوموا بعملية النقل. فقال درون إن خيول أولئك القرويين غير موجودة فعين له الباتيتش غيرهم. غير أن درون زعم أن هؤلاء بالمثل لا يملكون جياداً: فالبعض صودر لمصلحة التاج والبعض الآخر أنهك بل إن قسماً من خيولهم نفقت من قلة الغذاء. ولقد اشتط في مزاعمه إلى حد إيجاد خيول للعربات.

تأمله الباتيتش بانتباه وقطب حاجبيه. وإذا كان درون يعتبر شيخ بلد مثالياً، فإن الباتيتش الذي ظل عشرين عاماً يدير أملاك الأمير، كان كذلك مسجلاً مثالياً بالمثل. ولقد كان يمتاز بحاسة خارقة تساعده على تفهم حاجات ومشاعر الأشخاص الذين يتعامل معهم تفهماً ممتازاً. لذلك فإن نظرة واحدة إلى درون، كشفت له فوراً أن أجوبة درون لم تكن تعكس إمكانياته واستعداداته الشخصية، بل إمكانيات بوغوتشاروڤو الذي كان متأثراً بنفوذ أهلها. ولم يكن جاهلاً أن درون الفلاح الذي أثرى والذي يكرهه القرويون الآخرون لا بد وأن يتردد بين اختيار واحد من العسكريين: معسكر السادة ومعسكر القرويين. ولقد قرأ الباتيتش كل هذا على وجه الرجل البسيط لذلك مشى إليه مقطب الحاجبين وقال له: اسمع يا درون، لا ترو لي ترهات. لقد أعطاني صاحب السعادة الأمير أندريه نيكولايتش نفسه الأمر بإجلاء كل الناس وعدم ترك أحد على اتصال مع العدو. وهناك أمر من القيصر متعلق بهذا الموضوع. وكل من يبقى يعتبر خائناً هل تسمعني؟

أجاب درون دون أن يرفع إليه عينيه: أسمع.

لكن هذا الجواب لم يرض الباتيتش فقال وهو يهز رأسه: آه! درون، سوف يفسد الأمر!

فقال درون حزيناً: كما تشاء!

استرسل الباتيتش الذي أخرج يده من شق «قفطانه» وأشار إلى الأرض يلفت نظر درون بحركة مفخمة إلى موطئ قدميه:

ـ كفى، لا تتظاهر بالمكر! أنا لا أرى بوضوح ما في نفسك فحسب، بل أرى أيضاً ما تحت قدميك إلى عمق ثلاث أقدام.

ألقى درون المضطرب نظرة مختلسة على الباتيتش لكنه ما لبث أن خفض عينيه فوراً.

ـ دعك من هذه الحماقات. واذهب إليهم وقل لهم أن يستعدوا للرحيل غداً إلى موسكو وأن يأتوا منذ صباح الغد بالعربات لنقل أمتعة الأميرة. وعلى الخصوص، لا تظهر في الاجتماع. هل سمعتني؟

تهالك درون عند قدمي المسجل: يا أياكوف الباتيتش، اعزلني من مناصبي! استعد مني المفاتيح بحق السماء! فقال الباتيتش بحزم: كفى!

وأعاد قوله:

ـ إنني أرى ما تحت قدميك إلى عمق ثلاث أقدام.

كان يعرف أن براعته في العناية بالنحل وخبرته في مسائل البذار وتمكنه طوال عشرين عاماً وأكثر أن يرضي الأمير العجوز، كل ذلك أعطاه لقب ساحر وأن السحرة يستطيعون رؤية ما تحت قدمي رجل إلى عمق ثلاث أقدام.

وقف درون وحاول أن يتكلم. لكن الباتيتش قطع حديثه: ما الذي يطوف برأسك، هن؟ هيا، ماذا دهاك؟

ـ ماذا أستطيع أن أفعل مع هؤلاء الناس؟ إنهم كلهم منقلبون رأساً على عقب... ولطالما قلت لهم!... إنهم سكارى، أهو هذا؟

ـ لم يعودوا مالكين أعصابهم يا أياكوف الباتيتش، هذا هو البرميل الثاني الذي يأتون عليه.

ـ رهن أوامرك.

لم يلح أياكوف الباتيتش أكثر من ذلك. كان يعرف أن أفضل طريقة لجعل الناس يطيعونك هي أن لا تضع طاعتهم موضع الشك. فلما حصل من درون على جملة «رهن أوامرك» الخاضعة، اكتفى بها رغم أنه تأكد أكثر من أي وقت أن العربات لن تقدم دون تدخل القوات المسلحة.

وفي الواقع، إن المساء أقبل دون أن تصل عربة واحدة. ولقد انعقد اجتماع جديد أمام ا لمشرب قرروا فيه طرد الخيول إلى الغابة وعدم تقديم

شيء. ودون أن يقول شيئاً للأميرة، أمر أن تحل الخيول المقطورة إلى عرباته الشخصية التي جاء بها من ليسيياغوري وأن تقطر تلك الخيول التي تصبح شاغرة بحكم إبقائه عرباته في مكانها، إلى عربات الأميرة. ثم ذهب يستنجد بالسلطات.

الفصل العاشر

اعتكفت ماري في غرفتها ورفضت استقبال أي كان، بعد أن شيعت والدها إلى مثواه الأخير. وجاءت إحدى الخادمات تطرق بابها قائلة إن الباتيتش ينتظر تعليماتها من أجل الرحيل وكان ذلك قبل حديثه مع درون فنهضت الأميرة عن الكنبة التي كانت مستلقية عليها وقالت من وراء الباب إنها لا تفكر أبداً في الرحيل وألحت أن يتركوها بسلام.

كانت نوافذ غرفتها تطل على الغرب وكانت، هي، مستلقية على الكنبة ووجهها إلى الجدار تعبث بزر وسادة من الجلد بين أصابعها فلا ترى إلا تلك الوسادة إذ تركزت أفكارها المبهمة حول موضوع وحيد: كانت تفكر في طبيعة الموت المحتوم وفي إسفافها الخلقي التي لم تكن تلمسه حتى ذلك الحين والذي تجلى لها خلال مرض أبيها. وكانت تريد من أعماق نفسها أن تصلي ولكن في الحالة الفكرية التي وجدت نفسها فيها، لم تكن تجرؤ على الالتفات إلى الله وهكذا بقيت في وضعها ذاك ممددة فترة طويلة.

كانت الشمس تغيب في الجانب الآخر من المنزل فراحت أشعتها المنحرفة تغمر غرفتها خلال النافذة المفتوحة جانباً من الوسادة الجلدية التي ركّزت ماري عليها أنظارها. وفجأة انقطع مجرى أفكارها فانتصبت بحركة آلية وسوت شعرها ثم اقتربت من النافذة وراحت رغماً عنها تستنشق الهواء العليل في تلك الأمسية الرائعة.

حدثت نفسها وهي تستلقي على كرسي وتتكئ برأسها على حافة النافذة:

«نعم، تستطيعين الآن أن تتأملي جمال المساء بهدوء. لم يعد هناك من يزعجك بعد الآن كما أنه لن يأتي أحد لهذه الغاية».

ناداها صوت رقيق من الحديقة وأحست أن أحدهم يقبل رأسها فالتفتت وإذا بالآنسة بوريين في ثوب حداد مزين بأكمام عريضة خاصة بمناسبات الحداد على فقيد عظيم، قد اقتربت برفق وعانقت ماري وهي تتنهد ثم غرقت في الدموع. تذكرت ماري حينذاك خلافاتهما ومدى إحساسها بالغيرة من هذه الفرنسية. لكنها تذكرت أيضاً أن الأمير في الأيام الأخيرة غيّر سلوكه تجاهها وأنه لم يعد يرغب في رؤيتها فاستنتجت من ذلك أن الشكوك التي أقامتها في أعماق نفسها لم تكن محققة. وقالت لنفسها: «ثم، هل لي أنا، أنا التي تمنيت موت أبي أن أحكم على غيري؟».

رسمت ماري لنفسها بسرعة موقف الآنسة بوريين التي أجبرتها الظروف على العيش عند الآخرين، رهن مشيئة شخص استبعدها منذ فترة من الزمن فأشفقت على هذه المرأة. نظرت إليها بحنان ومدت إليها يدها، فقبلت الآنسة بوريين تلك اليد وراحت خلال دموعها تحدثها عن البلاء الذي أصابها والذي تحمل هي نصيباً منه. قالت إنها لن تجد عزاء لألمها الشخصي إلا في عطف الأميرة وأن الخلافات السابقة كلها يجب أن تتبدد أمام هذا الألم الفظيع وأنه فيما يتعلق بها، فإن ضميرها نقي وأن «هو» من الأعلى كان يرى حبها وعرفانها بالجميل. أصغت إليها الأميرة ماري دون أن تدرك معنى كلماتها وراحت من حين إلى آخر ترفع عينيها إليها مستسلمة للهجة حديثها. استأنفت الآنسة بوريين بعد فترة صمت:

ـ إن موقفك رهيب بشكل مضاعف يا أميرتي العزيزة. إنني أدرك أن لا تكوني قد استطعت التفكير في نفسك كما لا تفكرين فيها الآن. لكن محبتي

التي أكنها لك تجبرني على أن أقوم مقامك في ذلك... هل جاء الباتيتش لرؤيتك؟ هل حدثك عن الرحيل؟

لم تجب ماري. لم تكن تدرك عن أي رحيل تتحدث. «هل أستطيع الآن أن أبدأ بأي شيء كان؟ هل أستطيع حتى التفكير في أي شيء؟ أليس العالم كله في نظري عديم القيمة؟» لم تجب فألحت الآنسة بوريين:

ـ هل تعرفين يا عزيزتي ماري أننا في خطر؟ إننا محاطون بالفرنسيين حتى أصبح الرحيل الآن خطيراً. فإذا رحلنا، تعرضنا لخطر الوقوع في الأسر. والله يعلم.

راحت ماري تنظر إلى رفيقتها دون أن تفهم قصدها. أخيراً قالت: ليتهم يعرفون أن كل شيء في نظري أصبح تافهاً! لا ريب أنني أفضل ألّا أبتعد «عنه»... ولقد ألمح الباتيتش إلى هذا الرحيل.. اتفقي معه، أما أنا، فلست أريد شيئاً ولا أقدر على شيء...

ـ لقد تكلمت إليه. إنه يأمل أن نستطيع الرحيل غداً. لكنني أعتقد أن من الأفضل بقاءنا هنا. وافقي على ذلك يا عزيزتي ماري. سيكون مريعاً أن نقع خلال الطريق بين يدي الجنود أو القرويين الثائرين.

وأخرجت الآنسة بوريين من حقيبة يدها بياناً يختلف ورقه عن ورق الوثائق الروسية، صادراً عن الجنرال رامو يدعو فيه السكان إلى عدم مغادرة مساكنهم وأن السلطات الفرنسية سوف تمنحهم الحماية اللازمة لهم.

قالت الآنسة بوريين وهي تمد يدها بالبيان إلى الأميرة: أعتقد أن من الأفضل أن تتصلي بهذا الجنرال. إنني مقتنعة أنه سيظهر تجاهنا ما نستحق من رعاية.

قرأت ماري البيان فتقلصت أساريرها وسألت: من أين لك هذا؟

أجابت الآنسة بوريين ووجهها يحمرّ: لا شك أنهم عرفوا من اسمي أنني فرنسية.

اغبرّ وجه ماري فوقفت والورقة في يدها وذهبت إلى المكتب الذي كان الأمير أندريه يجلس فيه وهناك أمرت: دونياشا، ادعي الباتيتش أو درون أو من تشائين!

ثم تابعت عندما سمعت صوت الآنسة بوريين:

ـ وقولي لإميلي كارلوڤنا ألّا تدع أحداً يدخل.

قررت وقد رُوعت لفكرة إمكانية وقوعها بين أيدي الفرنسيين: «يجب الذهاب، أو الذهاب بأسرع ما يمكن!».

«لو أن أندريه عرف أنها رهن مشيئتهم، لو عرف أن ابنة الأمير نيكولا أدرييڤتش پولكونسكي قد التمست حماية السيد الجنرال «رامو» وأفادت من حسن التفاتاته!» أخذت هذه الفكرة تدفع الدماء إلى وجهها وتجعلها ترتجف ثم تغلي من الاعتداد والغضب. وكانت تتصور ما في مثل هذا الموقف من إيلام. «سوف يتمركز هؤلاء الفرنسيون هنا. لكن الجنرال رامو سيحتل مكتب أخي وسوف يتلهى بقراءة أوراقه ورسائله. وستقدم لهم الآنسة بوريين تحيات بوغوتشاروڤو. وسيتركون لي غرفة صغيرة على سبيل الإحسان وسوف يدنس الجنود ضريح أبي الذي لما يجف بعد لكي ينتزعوا منه صليبه وأوسمته وسيروون لي انتصاراتهم على الروس، وسيظهرون حيالي عطفاً منافقاً..» والحق يقال إن هذه الأفكار لم تكن تعبر عن إحساسات الأميرة ماري وحدها، بل كذلك إحساسات أبيها وأخيها التي وجدت أنها مرغمة على تبنيها بحكم الظروف الراهنة. لم يكن يهمها أين ستكون ولا ماذا سيحدث لها. لكنها كانت تتصور وجود أبيها المرحوم وأخيها الغائب فكانت تحس مثلهما رغماً عنها. وكانت تقدر أن من واجبها أن تعمل وتقول ما كانا سيعملانه ويقولانه.

ولما كانت معتكفة في مكتب الأمير أندريه، فقد راحت تحاول أن تستعرض الموقف وهي تفكر مثله.

وفجأة فرضت ضرورات الحياة اليومية التي ظنت أنها اختفت منذ وفاة والدها، وجودها فرضاً عليها وبأشد قوة كما لم تثقل كاهلها قط من قبل.

بدأت تروح وتجيء في الغرفة وهي مضطربة محمرة الوجه تطلب الباتيتش تارة وميخائيل إيـڤانوڤيتش تارة أخرى، تيخون حيناً ودرون حيناً آخر. ولم تكن دونياشا ولا المربية ولا أية واحدة من الخادمات لتستطيع أن تحدثها بشيء واضح حول مزاعم الآنسة بوريين. لقد كان الباتيتش غائباً ساعياً وراء الاستعانة بالسلطات ولم يستطع المهندس ميخائيل إيـڤانوڤيتش الذي مثل أمامها وعيناه متورمتان من النوم، أن يحدثها بشيء. لقد أجاب عن أسئلة الأميرة بمثل تلك الابتسامة المؤيدة التي سمحت له خلال خمسة عشر عاماً أن يجيب عن أسئلة الأمير العجوز دون أن يعبر عن رأيه في محادثاته معه. فكانت كلماته لا تتيح للمرء أن يستنتج منها شيئاً. ولما سألت الوصيف العجوز تيخون الذي كان وجهه المنقلب يحمل طابع حزن لا شفاء منه، أجاب بعبارته الدائمة: «رهن أوامرك» وكلما رفع عينيه إلى ماري وجد صعوبة عظيمة في كبت إجهاشه.

جاء شيخ البلد درون، أخيراً، وبعد أن حيا سيدته بمزيد الاحترام تسمّر في مكانه بجانب إطار الباب.

اجتازت ماري الغرفة ووقفت أمامه. وقالت له وهي تظن واثقة أنها واجدة صديقاً أميناً في درون ذاك الذي كان يأتيها بالحلوى من الأنواع التي تحبها كلما ذهب في رحلته السنوية إلى معرض فيازما:

ـ يا دروني الطيب، يا دروني الطيب، أنظر بعد مصيبتنا..

وسكتت وقد خانها النطق على الاسترسال. فأجاب وهو يتنهد: إننا جميعاً في يد الله.

وساد صمت عميق. أخيراً استطاعت ماري أن تقول: يا دروني الطيب. لقد ذهب الباتيتش ولم يبق لدي من أتوجه إليه بالحديث، إنهم يزعمون أنني لا أستطيع الذهاب قبل هذا صحيح؟

ـ ولماذا لا تستطيعين الذهاب يا صاحبة السعادة؟

ـ إنهم يؤكدون لي أن الرحيل يشكل خطراً بسبب جوار العدو: يا صديقي الباسل، إنني لا أستطيع شيئاً ولا أفهم شيئاً وليس لدي من يشير عليّ بشيء. أريد، مهما كلف الأمر، أن أرحل هذه الليلة أو غداً صباحاً على أكثر حد.

لم ينبس درون بكلمة. أخذ يختلس النظر إلى سيدته ثم قال أخيراً:

ـ لا توجد خيول. لقد قلت هذا القول من قبل لإياكوف الباتيتش؟

ـ ولماذا لا توجد خيول؟

ـ إن عقاب الله مسلط علينا. فالخيول التي كانت موجودة صودر بعضها من قبل الجيوش ونفق الباقي. يا لها من سنة شقاء! إن أمر الحيوانات بسيط لولا أن الناس أنفسهم لا يجدون ما يأكلونه.. هناك، منذ ثلاثة أيام، مَن لم يضعوا شيئاً تحت أسنانهم.. لقد نكبنا، كما ترين نكبنا تماماً!

أصغت إليه ماري بانتباه ثم سألت: الفلاحون منكوبون؟ ألم يعد لديهم شيء من القمح؟

ـ إنهم يموتون جوعاً... كيف تريدين أن يقدموا عربات...

ـ ولماذا لم تقل شيئاً يا دروني الطيب؟ ألا يمكن تقديم المساعدة إليهم؟ سوف أقوم بكل ما أستطيع...

في تلك اللحظة التي كانت متأثرة بحزن عميق يحرقها، وجدت الأميرة ماري أن من الغرابة وجود أغنياء وفقراء وأن لا يفكر الأغنياء في نجدة الفقراء،

ولقد سمعت بشيء من الغموض عن قمح مخصص «للسيد» كانوا أحياناً يوزعونه على القرويين، وكانت تعرف أن أباها وأخاها ما كانا يرفضان تقديم المساعدة لهم، لكنها كانت تخاف ألا تستطيع التعبير عن رغبتها، كانت سعيدة ألّا تستطيع بسبب غاية نبيلة، طرد ألمها لفترة ما، لذلك فقد سألت درون عن تفاصيل حاجات القرويين واحتياطي بوغوتشاروڤو.

ـ ولكن يجب أن يكون لدينا قمح... حصة أخي؟

أجاب درون باعتداد: إن حنطة الأمير سليمة لم تمس، لقد رفض أميرنا أن تباع.

ـ وزعها على القرويين، أعطهم كل ما يحتاجون إليه، إنني أجيزك باسم أخي.

اقتصر جواب درون على تنهدة عميقة.

ـ أعطهم ذاك القمح إذا كانت كميته تكفيهم، أعطه لهم كله، آمرك باسم أخي، قل لهم إن مالنا نحن لهم كذلك وإننا لا ندخر شيئاً في سبيل مساعدتهم، قل لهم كل ذلك.

بقيت عينا درون شاخصتين إلى الأميرة خلال حديثها فقال:

ـ بحق السماء يا أميرة، اعزليني من منصبي، مريني أن أعيد مفاتيحي، لقد خدمت طوال ثلاثة وعشرين عاماً دون أن آتي سوءاً فاعزليني بحق السماء.

ولما لم تفهم ماري شيئاً من دوافع هذا الطلب، أجابته بأنها لم تشك قط في وفائه وأنها ستعمل المستحيل من أجله ومن أجل القرويين.

الفصل الحادي عشر

دخلت دونياشا، بعد ساعة، تعلن للأميرة أن درون قد رجع وأن القرويين، حسب أوامرها، موجودون قرب المكدس يطلبون التحدث إليها.

قالت ماري: أنا لم أستدعهم، لقد قلت لدرون فقط أن يعطيهم قمحاً.

فقالت دونياشا: إذن يا أميرتي الطيبة، مري بهم أن يطردوا وخصوصاً لا تذهبي إليهم بحق السماء، إن كل هذه ليست إلا خدعة، سوف نذهب عندما يعود إياكوف الباتيتش... ولكن لا تحتملي عناء.

سألت ماري بدهشة: عن أية خدعة تتحدثين؟

ـ إنني أعرف ما أقول... إتبعي نصائحي بحق السماء، سلي المربية إذا شئت، إنهم يرفضون الرحيل حسب أمرك.

ـ لا بد وأنك مخطئة، إنني لم آمرهم بالرحيل... ادعي درون.

أيد درون أقوال دونياشا: لقد جاء القرويون للقاء الأميرة بناء على أمرها.

قالت ماري: لكنني لم أستدعهم قط، لعلك أخطأت، لقد قلت لك بوضوح أن توزع عليهم القمح.

أطلق درون تنهدة وقال: سوف يعودون إذا كنت تأمرين.

ـ كلا، كلا، أريد أن أذهب لرؤيتهم.

وعلى الرغم من توسلات دونياشا والمربية فقد ذهبت إلى المرقاة فتبعها درون والمرأتان وميخائيل إيـڤانوڤيتش.

حدثت نفسها: «إنهم، بلا شك، يعتقدون أنني أمنحهم القمح شريطة

أن يبقوا في أماكنهم فأهجرهم بذلك ليصبحوا رهن أوامر الفرنسيين، سوف أعدهم بجراية شهرية وبمأوى في عقارنا القريب من موسكو، إنني واثقة بأن أندريه كان سيفعل أكثر من ذلك لو كان في مكاني».

ولما وصلت إلى المرعى قرب المكدس حيث ينتظرها القرويون، كان الليل قد هبط. ولقد دخلت بين الجماعة المحتشدة ثم حسرت الرؤوس فجأة، فاقتربت ماري منهم مطرقة الرأس وهي تتعثر بردائها، ولكثرة الوجوه الفتية والهرمة والأنظار التي كانت متجهة نحوها، لم تستطع أن تميز أحداً، ولما كانت واثقة بأنها تخاطبهم جميعاً فقد أرتج عليها، ولكن، إيمانها بأنها تمثل أباها وأخاها، أعطاها مجدداً همة ونشاطاً فراحت تتكلم بجرأة رغم أن قلبها كان يخفق بشدة.

قالت دون أن ترفع عينيها إليهم: أنا مسرورة لمجيئكم، لقد قال لي درون إن الحرب قد نكبتكم، إنها بلاؤنا المشترك، لذلك فإنني لن أدخر وسعاً في سبيل مساعدتكم... يجب علي أن أذهب لأن العدو قريب ولأن... ولأنني معرضة للخطر ببقائي هنا... لكنني أعطيكم كل شيء يا أصدقائي، أسألكم أن تأخذوا كل قمحنا كيلا تصبحوا معوزين، وإذا قالوا لكم إنني أقدم لكم هذه المنحة كي تبقوا هنا، فهو خطأ، إنه على العكس، إنني أرجوكم أن تذهبوا حاملين كل ما تملكونه وأن تقيموا في أملاكنا قرب موسكو وأعدكم بتقديم المأوى والطعام.

توقفت ماري ولم يجبها الجمع إلا بالتنهدات، ثم استرسلت: إنني لا أتقدم بهذا العهد باسمي وحدي، بل إنني أتصرف باسم المرحوم أبي الذي كان سيداً طيباً لكم وباسم أخي وابنه.

توقفت مرة أخرى ولم يقطع أحد الصمت، وأردفت وهي تتفحص

الوجوه بأنظارها: إن البلاء يشملنا جميعاً لذلك فإننا سنوزع كل شيء مناصفة، إن كل ما يخصني يخصكم.

كل العيون كانت شاخصة إليها وفيها تعبير عام متشابه، ولكن ماذا كان يعني ذلك التعبير: الفضول، التفاني، العرفان، أم على العكس الذعر والتحفظ؟ هذا ما لم تستطع تبيانه.

قال صوت من الوراء: إننا نشكرك على أفضالك لكننا لا نستطيع أخذ حنطة السيد.

ـ ولماذا إذن؟

لم تحظ بجواب، ولاحظت ماري أن النظرات التي أخذت تلتقي الآن نظراتها راحت تروغ منها فوراً، ألحت في السؤال: لماذا لا تريدون؟

ولكن دون أن يجيب أحد.

شعرت ماري بالانزعاج فحاولت أن تستوقف إحدى تلك النظرات فسألت عجوزاً واقفاً قبالتها مباشرة على عصاه، استطاعت أن تضبط نظرته.

ـ لماذا لا تقولون شيئاً؟ تكلم، هيا، إذا كنتم في حاجة إلى شيء آخر فإني سأعمل كل ما يجب.

لكن العجوز زاد من إطراق رأسه وكأن الأمر زاد في إغضابه وأعلن:

ـ لماذا نوافق؟ لسنا في حاجة إلى القمح.

وقالت أصوات كثيرة انبعثت من الحشد: ولماذا يجب أن نتخلى عن كل شيء؟ إننا لن نوافق... إننا لن نوافق. لن نعطي موافقتنا... اذهبي وحدك...

وعادت الوجوه مجدداً تنطبع بذلك الطابع ولكن بات الآن بالإمكان قراءة المعنى بكل وضوح، إنه ليس طابع الفضول أو العرفان، بل إنه أمارات العزم الوحشي.

قالت ماري بابتسامة حزينة: لا شك أنكم أسأتم فهمي، لماذا ترفضون الذهاب؟ إنني أعدكم بإيوائكم وإطعامكم في حين أن العدو سينكبكم هنا...

لكن أصوات الجماعة خنقت صوتها:

ـ سيان! لينكبنا! إننا لا نريد قمحك ولن نعطي موافقتنا.

حاولت ماري أن تضبط نظرة في ذلك الجمع ولكن لم تكن إحداها متجهة نحوها، كانت العيون كلها تتجنبها فازداد انزعاجها.

ـ كم هو جميل هذا الذي تعرضه علينا! أن نذهب هكذا معها ونترك بيوتنا تهدم، أن نضع الحبل حول أعناقنا! وكيف لا، إنني أعطيكم قمحاً!

هذا ما راحوا يقولونه فيما بينهم، فعادت ماري إلى منزلها منكسة الرأس، وبعد أن كررت لدرون أنها تريد خيولاً لصباح اليوم التالي، انسحبت إلى غرفتها حيث انفردت مع أفكارها.

الفصل الثاني عشر

وقفت ماري في تلك الليلة فترة طويلة أمام نافذتها المفتوحة غير مبالية بضجيج الأصوات التي كانت تتصاعد من القرية: ماذا يهمّها من هؤلاء الناس الذين لا يمكن أن يفهموا أبداً؟ لم تعد تفكر إلا في ألمها، ذلك الألم الذي أخذ يدخل في حنايا الماضي بعد هذا الإلهاء الذي أوجدته هموم الحاضر. إنها تستطيع الآن أن تذكر وتبكي وأن تصلي. هدأت الريح عند غروب الشمس وجاء الليل ساكناً رطيباً. وسكنت الأصوات تدريجاً حوالى منتصف الليل وصاح ديك، وظهر البدر من وراء الزيزفون ونشر الندى أنجزته البيضاء وساد السكون فوق القرية والمنزل.

تمثلت أمامها صور ماض قريب الواحدة تلو الأخرى: المرض ولحظات أبيها الأخيرة. ولقد توقفت عندها بتلذذ ضجر لا تدفع عنها منها بهول إلا واحدة، تلك التي تمثل الموت التي كانت تشعر أنها لا تملك القوة لاستعراضها في تلك الساعة الغامضة من الليل. ولقد بدت لها تلك المشاهد بوضوح شديد وتفصيل دقيق حتى أنه كان يخيل إليها أنها ملك الحاضر تارة وتارة الماضي والمستقبل، مرة أخرى.

عادت ترى تلك اللحظة التي أصيب فيها أبوها بالنوبة القلبية في حديقة ليسياغوري: كانوا عائدين به وهم يحملونه من تحت إبطيه وكان يغمغم شيئاً بلسانه العاجز ويقطب حاجبيه الأبيضين وينظر إليها بحزن وخجل.

فكرت: «كان يريد منذ ذلك الحين أن يقول لي ما قاله يوم مماته. لقد كان

ذلك هو مستقر تفكيره دائماً». وفجأة تذكرت الليلة التي سبقت النوبة في أدق تفاصيلها، حينما توقعت أن يحل مكروه فرفضت أن تتركه وحيداً. لقد نزلت على أطراف قدميها وقد جفاها النوم فلما وصلت إلى باب الحديقة الشتوية حيث كان أبوها يقضي ليلته تلك، سمعته يتحدث مع تيخون بصوت منهك، محطم، عن القوم والليالي الحارة وعن الأمبراطورة. كان بدون شك، يشعر بحاجة إلى الكلام. ولقد حدثت ماري نفسها وهي تتصور موقفه الآن: «ولماذا لم يأمر باستدعائي؟ لماذا لم يسمح لي بأن أحل محل تيخون بالقرب منه؟ آه! إنه لن يقول لأحد أبداً ما كان يعتلج في قلبه حينذاك. إن تلك اللحظة التي كان يمكن أن يقول أثناءها ما يريد والتي لو كنت هناك عوضاً عن تيخون أصغي إليه وأفهمه، لن تعود أبداً بالنسبة إليه ولا بالنسبة إلي. آه! لماذا لم أدخل في تلك الليلة! كان سيحدثني بدون شك كما حدثني وهو على فراش الموت.

إنني أذكر أنه بينما راح يتحدث مع تيخون، استفسر مرتين عني. كان يتوق إلى رؤيتي بينما كنت أنا وراء الباب، كان يتألم من أن لا يسمعه أحد غير تيخون الذي لم يكن يستطيع فهمه لقد حدثه عن «ليز» وكأنها لا تزال على قيد الحياة لأنه نسي أنها ماتت. فلما لفت تيخون انتباهه إلى أنها لم تعد في هذه الدنيا نعته بالأحمق. كان يتألم. لقد سمعت خلال الباب كيف زمجر وهو يستلقي على السرير وكيف صاح: «رباه!» لماذا لم أدخل حينذاك ماذا كان فعل لي؟ أي خطر كان يهددني؟ لعل زيارتي كانت ستحمل له الراحة ولعله كان سيقول لي هذه الكلمة. وبصوت مرتفع، لفظت ماري تلك الكلمة الممالقة التي قالها لها يوم موته: «يا روحي العزيزة» وراحت ترددها وهي تذرف الدموع المسكنة. بات الآن أمامها وجه أبيها. ليس ذلك الوجه النافر الذي عرفته دائماً بل ذلك الوجه الضعيف الذي تأملته لأول مرة في أدق تقاطيعه عندما مالت عليه لتقترب من شفتيه بغية سماعها ما سيقول.

كررت: «يا روحي العزيزة...».

وتساءلت فجأة: «ماذا كان يفكر عندما قال لي هذه الكلمة؟ بأي شيء يفكر الآن؟» وجواباً عن هذا السؤال تصورت التعبير الذي انطبع على وجهه وهو في نعشه وحول ذقنه العصابة البيضاء. وعاد ذلك الرعب الذي استحوذ عليها عندما لمسته فأحسّت بأنه لم يعد هو نفسه فحسب بل أصبح شيئاً غامضاً، استحوذ عليها ذلك الرعب في تلك اللحظة. أرادت أن تفكر في شيء آخر، في الصلاة. لكنها لم تستطع. راحت تتأمل ضياء القمر والأطياف بعينين جاحظتين وهي تتوقع في كل لحظة أن يظهر أمامها وجه الميت. وشعرت كأن السكون العميق الذي يخيم على المنزل وما حوله يشل حركتها فغمغمت ثم صرخت بصوت غريب: دونياشا!... دونياشا!

وانتزعت نفسها من الصمت، فاندفعت إلى غرفة الوصيفات حيث أسرعت المربية ونساء أخريات إلى لقائها استجابة لندائها.

الفصل الثالث عشر

ذهب روستوف وإيلين وتابع لهما ومعهم لاڤروشكا الذي رجع من أسره القصير في السابع عشر من آب، في نزهة من معسكرهم في إيانكوڤو على مسافة أربعة أميال من بوغوتشاروڤو، بغية تجريب حصان جديد اشتراه إيلين والبحث عن إمكان وجود علف في القرى المجاورة.

كانت بوغوتشاروڤو، منذ ثلاثة أيام، بين الجيشين العدوين معرضة في كل لحظة لأن تحتلها مؤخرة الجيوش الروسية أو طلائع الجيوش الفرنسية. لذلك فقد كان روستوف بصفته رئيس كوكبة نابهاً يريد أن يحصل قبل العدو على ما قد تبقى من الأرزاق.

في ذلك اليوم، كان الشابان على خير مزاج، فكانا وهما في طريقهما إلى ذلك الملك الأميري، بوغوتشاروڤو الذي توقعا أن يريا فيه خدماً كثيرين وبينهم فتيات جميلات كثيرات، يتسليان بالسؤال من لاڤروشكا عن ناپليون أو باختبار الحصان الذي اشتراه متبارزين في الجري.

لم يكن روستوف يشك في أن القطاع الذي يذهب إليه ملك لـ‍ـپولكونسكي ذاك الذي كان خطيب أخته.

وللمرة الأخيرة، أطلق وإيلين جواديهما عند المنحدر قبل بوغوتشاروڤو فكان روستوف الذي سبق صديقه أول من جرى في شارع القرية.

قال له إيلين وقد تورد وجهه: لقد سبقتني!

فأجاب روستوف وهو يربت بيده جواده «الدوني» الذي أبيض من الزبد:

ـ لي السبق في كل الميادين.

وقال لاڤروشكا من الوراء: أتدري يا صاحب السعادة أنني كنت قادراً على اللحاق بك على ظهر فرسي، وكان يدعو كديشة الجر التي كان يمتطيها بهذا الاسم، لكنني ما أردت أن أخجلك.

اقتربا من رواق وقف تحته عدد كبير من القرويين فنزع بعضهم قلانسهم واكتفى الآخرون بالنظر إلى الوافدين الجدد. وخرج عجوزان عملاقان متغضنا الوجه لهما لحيتان غير ناميتين، من المشرب وهما يبتسمان ويتمايلان ويدمدمان في غير انسجام واقتربا من الضباط.

قال روستوف ضاحكاً: يا لهما من فتيين! قولا، هل لديكما علف؟

وقال إيلين ملاحظاً: إن كليهما زوج نادر..

ونطق أحد العجوزين بضحكة بلهاء: سررنا با.. للقـ..ـاء..

واقترب واحد من الجماعة من روستوف وسأل: من أنتم؟

فأجاب إيلين بانشراح: فرنسيون.

وأضاف وهو يشير إلى لاڤروشكا: بل إن هذا هو ناپليون بالذات.

استأنف القروي: استناداً إلى هذا فأنتم روس؟

واستفسر آخر قصير القامة وقد اقترب بدوره:

ـ هل معكم خلق كثير؟

أجاب روستوف:

ـ كثير كثير... ماذا تفعلون هنا؟ هل اتفق أن اليوم يوم عيد؟ فقال الرجل وهو يبتعد:

ـ لقد اجتمع عُجَّزنا للتداول في شؤوننا.

وفي تلك اللحظة ظهرت على الطريق المؤدي إلى المنزل الكبير امرأتان ورجل يضع على رأسه قبعة بيضاء فتوجهوا نحو الضابطين.

قال إيلين وهو يشير إلى دونياشا التي راحت تتجه نحوه بخطى مصممة: إنني أحتفظ بالثوب الوردي نفسه، فحذار أن «يلطشه» مني أحد!

وقال لاڤروشكا وهو يغمز بعينيه بقحة: سوف ننالها!..

سألها إيلين وهو يبتسم: ماذا يلزمك يا جميلتي؟

- إن الأميرة أرسلتني لأسألكم عن الفوج الذي تنتمون إليه وعن اسمكم؟

- إن السيد هو الكونت روستوف قائد الكوكبة وأنا خادمك المتواضع.

ودمدم العجوز الثمل ذو الضحكة البلهاء وهو يتأمل هذا المنظر: سررنا با.. للقـ...ـاء.

وصل الباتيتش على أثر دونياشا وقد كشف عن رأسه باحترام قبل أن يصل وقال بامتثال يظهر فيه بعض المقت لشباب روستوف، محتفظاً بيده في شق ثوبه:

هل أجرؤ على إزعاجكم يا صاحب النبالة. إن سيدتي، ابنة الجنرال القائد الأعلى الأمير نيكولا أندرييـڤيتش پولكونسكي المتوفى في الخامس عشر من هذا الشهر في موقف صعب بسبب غلظة هؤلاء الناس، وأشار بيده إلى القرويين، وهي تسألكم أن تذهبوا لرؤيتها.. هل تريدون أن تتنحوا قليلاً، إننا لا نستطيع أن نتفاهم بحضور هؤلاء.. وأشار بابتسامة ضجرة إلى الثملين اللذين كانا يدوران حوله متأخرين قليلاً كما يدور الذباب حول الخيل.

وقال الرفيقان الثملان وهما يكشفان له عن أجمل ابتساماتهما:

- هي! الباتيتش!... إياكوف الباتيتش!... إنك تتكلم جيداً.. اعذرنا بحق المسيح.

فلم يستطع روستوف تجاه هذا المشهد إلا أن يبتسم هو الآخر. فقال إياكوف الباتيتش بأشد لهجاته اتزاناً:

ـ إلا إذا كان ذلك يبعث التسلية في نفس سعادتك.

فقال روستوف:

ـ كلا، لا يوجد ما يدعو إلى التسلية.

ثم سأل بعد أن ابتعد قليلاً:

ـ ها، ما هو الموضوع؟

ـ يجب أن أخطر سعادتك بأن هؤلاء القضامين لا يريدون أن يسمحوا لسيدتي بمغادرة المكان مهددين بحل الخيول من العربات حتى أن كل شيء مهيّأ منذ هذا الصباح دون أن تستطيع الأميرة الذهاب.

صاح روستوف: مستحيل!

ـ لي الشرف بأن أروي لك الحقيقة النقية.

ترجل روستوف وسلَّم جواده إلى التابع ثم اتجه نحو المنزل برفقة الباتيتش الذي شرح له تفاصيل المسألة. ولقد أفسد عرض توزيع القمح على القرويين وتفاهم الأميرة مع درون ومندوبي المقاطعة الأمر حتى أن شيخ القرية أعاد مفاتيحه نهائياً ليلحق بمرؤوسيه فلم يستجب لدعوة الباتيتش. وعندما أصدرت الأميرة منذ الصباح الباكر الأمر بقطر الخيول إلى العربات استعداداً للرحيل، اجتمع القرويون بعدد كبير أمام المكدس وأرسلوا من يقول إنهم بدلاً من أن يدعوها تذهب، سيحلون الخيول. ولما حاول الباتيتش أن يعيدهم إلى صوابهم أجابه السيد كارب، لأن درون كان يتجنب الظهور، أن الأميرة بذهابها إنما تخالف التعليمات التي أصدرتها السلطات وأن واجبها يحتم عليها البقاء وأنهم سيستمرون في خدمتها كسابق عهدهم ويطيعونها في كل شيء إن هي بقيت. وعندما كان روستوف وإيلين يصلان هدباً إلى الطريق العام، كانت الأميرة متصامة عن سماع لوم الباتيتش والمربية والخادمات، تستعد للذهاب مهما كلف الأمر. لكنها عندما لمحت الفرسان الذين ظنت

أنهم من الفرنسيين، كان الحوذيون قد هربوا بينما راحت النساء يملأن البيت توجعاً وأنيناً.

تعالت صرخات متوسلة بينما كان روستوف يجتاز الدهليز.

ـ أنقذنا أيها السيد العزيز. إن الله الكريم هو الذي أرسلك!

وكانت الأميرة ماري منهوكة القوى في القاعة عندما أدخل عليها روستوف فلم يسمح لها قلقها البالغ أن تدرك للوهلة الأولى من هو ذلك الرجل وماذا جاء يفعل هناك. ولكنها عندما تبينت من تصرف الضابط الشاب وكلماته الأولى التي تفوّه بها أنه روسي وأنه رجل من طبقتها، حتى شخصت إليه بنظرتها العميقة المشرقة وأجابته بصوت متهدج يقطعه الانفعال. ولا شك أن روستوف اكتشف لأول وهلة الجانب الروائي في المغامرة. فكر وهو يتأمل ماري ويستمع إلى قصتها وهي ترويها بصوتها الحي: «هذه الفتاة العزلاء المحطمة من الألم واقعة تحت رحمة القرويين المتمردين! يا لدعابة القدر الذي ساقني إلى هنا في الوقت المناسب!.. ويا للرقة، يا للنبل في تقاسيمها وفي أمارات وجهها!».

وعندما بلغت في قولها أن كل هذا جرى غداة يوم دفن أبيها، ازداد صوتها اضطراباً فأدارت رأسها خشية أن يعتقد روستوف أنها تحاول أن تثير شفقته على مصيرها ثم ألقت نظرة مستفسرة وجلة على الشاب. رأت أن الدموع كانت تتلألأ في مقلتيه. لاحظت الأميرة ماري ذلك فشكرته بتلك النظرة المشرقة التي تذهب دمامة تقاسيمها.

أعلن روستوف وهو ينهض: لا أستطيع يا أميرة أن أعرب عن مدى سعادتي لوجودي هنا صدفة ولاستطاعتي أن أضع نفسي تحت تصرفك الكلي. اذهبي، وإنني أكفل بشرفي أنك إذا سمحت لي بمرافقتك، لن يستطيع أحد أن يسبب لك أي إزعاج.

واتجه نحو الباب وهو ينحني أمامها باحترام وكأنها أميرة من البيت المالك. لقد كانت تلك التصرفات الاحتفالية تقول إنه رغم رغبته الشديدة في أن يربط معها أواصر معرفة أوسع، إلا أنه لا يريد استغلال شقاء ماري ليتابع الحديث معها. وفهمت الفتاة هذا المعنى وقدرت تلك الفطنة.

قالت له بالفرنسية: أنا شاكرة لك صنيعك جداً جداً. آمل ألا يكون هذا كله أكثر من سوء تفاهم ألّا تجد فيه مذنباً..

ثم أضافت وهي تشعر بالدموع تطفر من عينيها: أعذرني..

قطب روستوف حاجبيه وانحنى مرة أخرى وخرج.

الفصل الرابع عشر

جميلة واسمها دونياشا، إن فتاتي فاتنة يا عزيزي... لكنه ألقى نظرة يتيمة على روستوف أسكتت إيلين فوراً. وحدس أن رئيسه، بطلبه، لا يفكر إلا في الترهات.

والواقع أن روستوف لم يجبه إلا بنظرة ثائرة وانطلق نحو القرية يسرع الخطى.

كان يدمدم في سره: سوف أريهم، سوف أعطيهم ما يستحقونه، هؤلاء الأنذال!

وقد وجد الباتيتش صعوبة في اللحاق به رغم أنه راح يوسع خطاه. ولما أدركه سأله: أي قرار اتخذتم يا صاحب السعادة؟

فجأة، توقف روستوف، وتقدم نحو الباتيتش مهدداً بقبضتيه وصاح:

ـ قرار! أي قرار؟ أين كانت عيناك أيها الأبله العجوز؟ يتمرد القرويون فلا تعرف كيف تعيدهم إلى الطاعة! لست إلا خائناً أنت الآخر! آه! إنني أعرفكم جيداً، سوف أسلخ جلودكم جميعاً!

ولما كان يخشى أن يبدد عبثاً الغضب الذي تجمع في نفسه، فقد ترك المسجل ليعود إلى مشيته السريعة. أما الباتيتش، فقد راح بإلحاح يلحق بروستوف ركضاً ليعرض عليه أفكاره وقد فرض الصمت على كرامته المهانة. فالقرويون، إذا آمنا بكلامه، مدعومون بقوة ومن غير الحكمة أن يناوئهم دون اللجوء إلى القوة المسلحة. فمن الأفضل إذن استدعاء الجنود.

قال نيكولا وهو يجيب دون ترو بعد أن استبدت به ضرورة كبح غضبه المخالف للصواب، الحيواني، الذي كان يخنقه: استدعاء الجنود!... مناوءتهم!.. سوف نرى هذا!

مشى بخطوات حازمة إلى الجموع المحتشدة دون أن يفكر في ما سيفعل. وكلما ازداد قرباً من المحتشدين، ازداد اعتقاد الباتيتش بأن هذه الحركة غير الحكيمة قد تؤدي بالفلاحين الثائرين إلى الندم وخصوصاً أن مشية روستوف النشيطة ووجهه المتقلص أخذ على ما يبدو يحدث على وجوههم مثل ذلك الأثر.

بالكاد دخل الفرسان القرية ولم يكد روستوف يمضي إلى زيارة الأميرة حتى عمّ الخلاف والتباين في آراء الجماعة المحتشدة. صرخ بعضهم بأن الوافدين الجدد من الروس وإنهم يستاؤون من استبقائهم الأميرة. وكان درون من أنصار أصحاب هذا الرأي. لكنه ما كاد يفتح فمه حتى هاجم كارب وعدد آخر شيخ البلد السابق هجوماً عنيفاً. صرخ كارب: سيان عندك هذا، هن؟ منذ كم عام وأنت تجتز الصوف من على ظهورنا؟ ثم تستخرج كنزك الدفين ثم الوداع، لقد رأيتك. سيان عندك أن يخربوا بيوتنا!

وصرخ صوت آخر: إن ما قيل قد قيل. لا يتحرك أحد منكم ولا ليحمل أحد ذره! لا يمكن التراجع عن هذا القرار.

وقال عجوز صغير فجأة مخاطباً درون: كان دور ابنك في الذهاب إلى الجيش. لكنك خشيت على ذلك المنتفخ الضخم فكان أن أرسلت ولدي محله!.. سوف نموت كلنا، هه، إذ يجب أن تكفر أنت الآخر عنها، عن أخطائك!

ـ نعم، بالطبع، يجب ذلك!

فأعلن درون: لن أنفصل عن البلد.

ـ كلام.. وبطنك العظيم هذا، من أين اكتسبته على هذا الشكل؟.. كذلك كانت ثرثرة العملاقين العجوزين.

لم يكد روستوف وبصحبته إيلين ولافروشكا والباتيتش، يصل قريباً من الجماعة حتى انبرى كارب إلى الأمام وأصابعه في حزامه والابتسامة الخفيفة على شفتيه. أما درون فراح على العكس يختفي في الصفوف الخلفية. واقترب الحشد المكتظ.

صاح روستوف وهو يتجه إليهم:

ـ هولا! من هو شيخ البلد؟

فسأل كارب: شيخ البلد؟ وماذا تريد منه؟

لكنه لم يكد يتم جملته حتى كانت قلنسوته تطوح في الهواء ورأسه يتأرجح تحت وطأة الضربة القوية.

زمجر روستوف: إرفعوا القلانس! أيها الخونة!

وكرر بصوت رهيب: أين شيخ البلد؟

أسرعت بعض الأصوات تقول وقد خضعت بينما انحسرت الرؤوس:

ـ شيخ البلد! شيخ البلد!.. يا درون زاخاريتش، إنه يدعوك!

أعلن كارب: إننا لم نتمرد. لكننا نسهر فقط على التدابير المتخذة..

وبادرت أصوات من الوراء إلى نجدته:

ـ لقد تمسكنا بقرار شيوخنا.. أما سلطات مثلكم فكثيرة الوجود..

هدر روستوف بصوت لم يكن فيه شيء من الإنسانية:

ـ هن؟.. تناقشون؟.. عصيان!.. عصبة الأشرار! عصبة الخونة! وأمسك كارب من ياقته وقال آخر:

ـ ليشد وثاقه، ليشد وثاقه!

رغم أنه لم يكن هناك لتنفيذ هذا الأمر غير لاڤروشكا والباتيتش. مع ذلك فقد أسرع لاڤروشكا وأمسك يديّ الرجل من الخلف وقال:

ـ إن الرفاق عند أسفل المنحدر فهل يجب استدعاؤهم؟

وانتخب الباتيتش اثنين من القرويين خرجا بوداعة من بين الصفوف وشرعا يحلان نطاقيهما بينما صرخ روستوف مجدداً:

ـ أين شيخ البلد؟

خرج درون من بين الجمع، شاحب الوجه، مكتئباً فصاح روستوف آمراً وكأن تنفيذ أمره يجب ألّا يصطدم بأي عائق:

ـ هذا أنت شيخ البلد؟ أشدد وثاقه يا لاڤروشكا!

وبالفعل، فقد حل اثنان آخران من القرويين حزاميهما وراحا يوثقان يدي درون الذي سهل المهمة من جانبه بتقديمه نطاقه الذي حل من حول وسطه.

استأنف روستوف يقول مخاطباً القرويين: أما أنتم، فاصغوا إلي جيداً. منذ هذه اللحظة، إلى الأمام سر! ليمض كل منكم إلى داره وليتجنب التفوه بكلمة!

قالت بعض الأصوات، راح أصحابها يتبادلون الاتهام: لم نرتكب إثماً.. لقد تصرفنا هكذا بغباوة.. لقد قلت إن هذا لن يؤدي بنا إلى أي شيء.

وقال الباتيتش الذي استعاد سلطته فوراً:

ـ لقد أخطرتكم من قبل. إن العمل ليس حميداً أيها الفتيان!

فأجابته أصوات: ماذا تريد يا إياكوڤ الباتيتش، لسنا ماكرين.

وتفرقت الجماعة فوراً بينما تأثر الثملان خطوات السجينين اللذين اقتيدا إلى المنزل.

قال أحدهما لكارب: يا لشكلك الجميل!

وأيد الآخر:

ـ ماذا دعاك إلى التحدث هكذا إلى الأسياد! إنك أبله يا فتاي، أبله بائس!

وبعد ساعتين، وقفت العربات في الفناء وراح القرويون يرصفون فيها أمتعة سادتهم بحماسة، بينما راح درون الذي أخرج من الغرفة الصغيرة التي سجن فيها بناء على طلب الأميرة، يلقي الأوامر إلى القرويين.

قال أحد الفلاحين، وهو فتى مديد القامة، ذو وجه مستدير باسم، وهو يتلقى صندوقه من يدي إحدى الخادمات:

ـ ضع هذا في مكان جيد. إن مثل هذا الشيء ثمين فلا يجب حشره كيفما اتفق ولا ربطه بقطعة حبل لأن ذلك سيفسده. إن مثل هذه الأساليب الشريفة.. هكذا، أحزم لي هذا كما يجب في القش وغطه بقطعة حصير. هكذا، «مشي الحال».

وقال آخر وهو يفرغ مكتبة الأمير أندريه:

ـ يا لكثرة ما فيها من كتب!.. لا تعترني، هن! آه، كم هي ثقيلة يا فتيان! إن كتباً كهذه عمل رائع..

وقال الفلاح العملاق ذو الوجه المستدير وهو يلقي نظرة الخبير على المعاجم الضخمة:

ـ طبعاً، إن الذين كتبوا هذه الكتب لم يدخروا وسعاً..

لم يشأ روستوف أن يفرض نفسه على الأميرة لذلك لم يعد لرؤيتها بل مكث في القرية حتى لحظة الرحيل. وعندما تحرك الموكب، امتطى جواده ورافق الأميرة حتى أبلغها الطريق الذي تحتله قواتنا على مسافة ثلاثة أميال من بوغوتشاروڤو. وفي نزل إيانكوڤو، سأل باحترام أن تأذن له بالانصراف وسمح لنفسه للمرة الأولى أن يقبل يدها.

قال لماري التي راحت تشكره على إنقاذه حياتها ووجهه متورد: إنك

تخجلينني. كان باستطاعة أي دركي أن يفعل ما فعلت... لو أننا لم نكن نحارب إلا القرويين لما تركنا العدو يتقدم إلى مثل هذه المسافة.

ثم أضاف في شيء من الارتباك محاولاً أن يقف بالحديث عند ذلك الحد:

ـ على أنني أبارك هذا الحادث الذي سمح لي بالتعرف إليك. وداعاً يا أميرة، أتمنى لك كل سعادة. عسى أن نلتقي في ظروف أقل حزناً. كلا أتوسل إليك، لا تخجليني ولا تشكريني.

لكن الأميرة إذا كفت عن شكره بالكلمات، فإنها ظلت تشكره بتعابير وجهها المشرق بالعرفان والحنان. كانت ترفض أن تصدق أنها غير مدينة إليه بآيات الشكر، وتقول لنفسها: «لو أنه لم يكن هناك، لكنت ضحية القرويين الثائرين والفرنسيين. ولقد تعرض لأخطار رهيبة بديهية بقصد إنقاذي. ليس في ذلك أدنى شك. ثم إنه بلا ريب روح نبيلة: لقد عرف كيف يرثي لألمي فقد اغرورقت عيناه الشديدتا الطيبة والنبل بالدموع في اللحظة التي كنت أبكي عندما حدثته عن أبي المتوفى». ولقد رست هذه الذكرى بعمق في قلب الأميرة ماري.

ولما ودعته وأصبحت وحيدة، شعرت فجأة باستعدادها للبكاء. تساءلت وإن لم تك تلك الفكرة الغريبة قد غزت رأسها لأول مرة: «ترى هل أحبه؟».

ولاحظت دونياشا التي رافقت سيدتها خلال الرحلة إلى موسكو أن الأميرة قد أخرجت رأسها مراراً خلال باب العربة وابتسمت ابتسامة حزينة وسعيدة معاً رغم أن الرحلة لم تكن إلا قليلة المرح.

وعلى الرغم من الخجل الذي شعرت به وهي تعترف بأنها تحب أول رجل لا يبادلها ولا شك عاطفتها بمثلها، فقد كان عزاؤها أن ما من أحد

سيعلم عن الموضوع شيئاً وأنها لا ترتكب أي خطأ إذا أحبت بصمت وإلى آخر عمرها، ذلك الذي سيكون حبها الأول والوحيد.

واستعرضت أحياناً بعض التفاتات روستوف ونظراته وكلماته فخُيل إليها حينذاك أن السعادة ليست مستحيلة. وكانت دونياشا تلاحظ في مثل تلك اللحظات الابتسامة على شفتي سيدتها وهي تطل من باب المركبة.

راحت ماري تحدث نفسها وهي ترى في كل ذلك إصبع القدر: «كان يجب أن يأتي إلى بوغوتشاروڤو، إنه بينما ذهب للبحث عن العلف اكتشف واحدة من أغنى وارثات روسيا، لم ترقه الدعابة. ذلك لأن فكرة الزواج بتلك الفتاة الرقيقة المحبوبة المالكة ثروة ضخمة قد راودت رأسه في الواقع غير مرة. لم يكن يستطيع أن يتمنى أفضل منها زوجة. إن هذا الزواج قادر على إقرار أوضاع أبيه المالية وإغداق السعادة على قلب والدته وقلب ماري نفسها بدون أي شك. إنه يحس بذلك. نعم، ولكن سونيا، ولكن الوعد الذي صرفه؟ وكانت هذه النقطة الأخيرة هي التي تفسد مزاجه وتزعجه في موضوع الأميرة پولكونسكي.

الفصل الخامس عشر

تذكر كوتوزوف الأمير أندريه، حين تسلّم قيادة الجيوش، فأرسل يستدعيه إلى القيادة العامة ووصل أندريه إلى تساريـڤو ـ زاييميختيه في اليوم نفسه وفي اللحظة التي كان كوتوزوڤ يقوم فيها باستعراضه الأول. توقف أمام منزل كاهن القرية حيث وقفت عربة «عظيم الرفعة» ـ وهو اللقب الذي أطلقه الناس كلهم على كوتوزوڤ، وجلس ينتظره على المقعد الذي يدعم البوابة.

كانت ألحان موسيقى عسكرية تتناوب في الحقول مع هتافات مدوية: هورّا. وعلى مسافة عشر خطوات من أندريه، أخذ تابعان وحاجب وخادم يتنزهون في الهواء الطلق في غياب سيدهم. وأوقف نائب زعيم من الفرسان جواده أمام پولكونسكي وكان قصير القامة، أسمر اللون، ذا شاربين وسالفين طويلين، وسأله عما إذا كان هذا هو منزل «عظيم الرفعة» وما إذا كان يمكن رؤيته بعد حين.

ولما أنبأه أندريه بأنه ليس من أعضاء أركان كوتوزوڤ وأنه مثله، وصل منذ فترة قصيرة، خاطب الفارس واحداً من التابعين. فأجاب المتظرف بتلك اللهجة الطلقة التي يتصنعها حيال الضباط تابعو الجنرالات: عن ماذا؟ عظيم الرفعة؟ نعم، يعتقد أنه سيكون هنا قريباً. ماذا تريد منه.

ابتسم نائب الزعيم في شاربيه وترجل. وبعد أن أسلم جواده إلى تابع، اقترب من پولكونسكي يحييه تحية خفيفة ففسح له هذا في المكان على المقعد.

سأله وهو يجلس إلى جانبه: هل تنتظر القائد الأعلى أيضاً؟ يقولون إنه يستقبل كل الناس، وهذا مضجر. لقد كان هذا الأمر مختلفاً مع أكلة النقانق. إن إيرمولوف لم يطلب عبثاً تعيينه «ألمانيا». لنأمل أن يستطيع الروس بعد الآن قول كلمتهم. لم يكن الآخرون يعرفون إلا التقهقر. كفانا تقهقراً على هذا النوع بالألف شيطان!.. هل اشتركت في الحرب؟

أجاب أندريه: لقد حصل لي السرور، ليس بالمساهمة في التراجع فحسب، بل كذلك بفقد وإضاعة أثمن ما كان عندي إضافة إلى أملاكي.. وهو أبي الذي مات من الحزن. إنني من مقاطعة سمولنسك.

أنت الأمير بولكونسكي؟ يسرني أن أتعرف إليك. إنني نائب الزعيم دينيسوف، اشتهرت باسم ڤاسكا.

قال ذلك وهو يضغط على يد أندريه وينظر إليه باهتمام ودي. وتابع بعد فترة صمت: الحقيقة إني علمت.. ها هي ذي إذن حرب ياجوج. إنها جميلة جداً إذا أريد لها ذلك ولكن بالنسبة إلى الذين يقدمون تكاليفها!.. إذن، أنت الأمير أندريه بولكونسكي؟ إنني سعيد يا أمير، سعيد بمعرفتك.

وراح يهز رأسه بابتسامة حزينة وهو يردد هذا القول ومجدداً عاد يضغط على يده.

كان الأمير أندريه يعرف دينيسوف تبعاً لما روته له ناتاشا عن المتقدم الأول لطلب يدها. فأيقظت هذه الذكرى الرقيقة في نفسه المشاعر الموجعة التي كانت هامدة في أعماق قلبه حتى إنه لم يفكر فيها منذ بعض الوقت: لقد أصيب في الأيام الأخيرة بصدمات نفسية أخرى: مغادرة سمولنسك، زيارته لليسيياغوري، النبأ الجديد الذي تلقاه عن وفاة والده، حتى أصبحت تلك الذكريات معدومة أو أقله، لم تعد تهاجمه بمثل تلك القسوة. أما بالنسبة إلى دينيسوف، فإن اسم بولكونسكي أنعش في ذاكرته ذلك الماضي الشاعري

البعيد: عاد في ذلك المساء بعد العشاء وأغنية ناتاشا، يبوح بحبه لتلك الصبية البالغة من العمر ١٥ عاماً دون أن يدرك ماذا يفعل.

لكنه بعد أن أقطع هذه الرواية السالفة ابتسامة، عاد فوراً إلى مشاغله الحاضرة الوحيدة، لقد ابتكر وهو يحمي بفرسانه تراجع الجيوش، خطة حربية عرضها على باركلي دوتوللي وأراد الآن أن يعرضها على كوتوزوف. بدا له خط عمليات الفرنسيين شديد الامتداد فكان يجب العمل ضد خطوط مواصلاتهم بدلاً من العمل في الجبهة وقطع الطريق عليهم أو حتى تنفيذ الخطتين معاً. وراح يشرح أفكاره للأمير أندريه:

ـ لن يستطيعوا الصمود على طول هذا الخط. بل إنني، أؤكد إمكان قطعه. أعطني خمسمائة رجل وأقسم بشرفي على أنني سأخترق هذا الخط! إن حرب الأنصار هي الأسلوب الجيد والأوحد!

وبيما راح دينيسوف وهو واقف يشرح خطته العتيدة ويدعمها بإشارات كبيرة من ذراعيه، انطلقت من ساحة العرض هتافات أكثر تبايناً واتساعاً وراحت تختلط بأنغام الموسيقى والغناء، فبلغت مسامعهم. ولم تلبث أن ملأت الجلبة المصحوبة بوطء قوائم الخيل، القرية كلها.

صاح القوقازي القائم بالحراسة عند باب الفناء: ها هو ذا يصل! هذا هو!

وفي تلك الأثناء، وقفت مفرزة من الجنود بالباب. إنها حرس الشرف. واقترب بولكونسكي ودينيسوف فرأيا كوتوزوف يتقدم ممتطياً صهوة جواد صغير باسل، تواكبه حاشية كبيرة من الجنرالات وكان باركلي يواكبه على جواده بمحاذاته تقريباً. بينما أخذت مجموعة من الضباط تجري إلى جانب الموكب وهم يهتفون: هورّا!

تقدم المساعدون العسكريون ودخلوا إلى الفناء وراح كوتوزوف يستحث بنفاذ صبر جواده الذي كان يهملج منحنياً تحت ثقل وزن فارسه،

وهو لا يني يحني رأسه ويرفع يده إلى عمرته البيضاء الخاصة بالحرس الراكب، وهي عمرة بيضاء ذات حاشية حمراء لا طرف لها. وعندما بات بمحاذاة حرس الشرف المؤلف من نخبة من الجنود البواسل يحمل معظمهم الأوسمة، تأملهم فترة طويلة، وهم يحيونه بالسلاح، بنظرته النافذة كرئيس ثم التفت إلى الذين كانوا يحيطون به. وفجأة اتخذ وجهه طابع الازدراء وهز كتفيه بحركة تدل على الدهشة، ثم قال:

ـ ومع مثل هؤلاء الفتيان لا نكف عن التقهقر!

ثم أضاف وهو يدفع جواده نحو البوابة ويمر منها ماراً بالأمير أندريه ودينيسوف: هيا يا جنرال، إلى اللقاء.

وارتفعت الأصوات من الوراء:

ـ هورّا! هورّا! هورّا!

رأى أندريه أن كوتوزوف أضخم وأثقل وزناً وأكثر ترهلاً مما كان عليه عندما قابله آخر مرة، بينما في المقابل لم تتبدل عنه البيضاء وذلك الجرح الملتئم وتلك المظاهر المنهكة التي كان يعرفها جيداً. وكان يتمنطق بسوطه فوق بزته وقد تدلى إلى سير جلدي رقيق. وكان متهاوياً على ظهر جواده الصغير الباسل يتأرجح بتثاقل ويصفر صفيراً خافتاً خلال أسنانه. أما وجهه، فكان يعكس الرضى عن إمكانية التنعم بقسط من الراحة بعد سخرة تقليدية. سحب ساقه اليسرى من الركاب ومررها فوق السرج بحركة دائرية من كل جسمه وقد قطب استجابة للمجهود وانطوى على ركبته ثم تهاوى وهو يزمجر بين أذرع القوقازيين والمساعدين العسكريين الذين أخذوا يسندونه.

ومجدداً، انتصب وأجال حوله الطرف بعينيه نصف المغمضتين وتصفح وجه الأمير أندريه دون أن يعرفه ثم اتجه نحو المرقاة بمشيته النازلة وعاد من

جديد إلى الصفير وهو يتأمل الأمير أندريه. وكما يقع عادة للعُجّز، اقتضاه بضع ثوان حتى استطاع أن يضع اسماً لذلك الوجه. قال:

ـ آه! مرحباً يا أمير، مرحباً يا عزيزي. هيا بنا..

واجتاز بخطواته الثقيلة درجات المرقاة التي تطقطق تحت ثقل وزنه.

حل أزراره وجلس على مقعد عند أعلى المرقاة.

ـ حسناً! وأبوك؟

أجاب أندريه بإيجاز:

ـ لقد تلقيت أمس نبأ وفاته.

تأمله كوتوزوف بعينين مروعتين ثم رفع عمرته ورسم إشارة الصليب.

ـ ليتغمد الله روحه! لتكن مشيئته نافذة فينا جميعاً!

ثم أطلق زفرة عميقة واستأنف بعد فترة صمت:

ـ كنت أحبه وأقدره وأنا أرثي من كل قلبي لمصابك.

وفتح ذراعيه للأمير أندريه وضمه إلى صدره العريض حيث أبقاه طويلاً، ولما تركه أخيراً، رأى أندريه أن شفتيه المنتفختين ترتجفان وأن عينيه مبللتان بالدموع، وبعد زفرة جديدة، أسند كلتا يديه إلى المقعد لينهض وقال: أدخل، سوف نتحدث...

إلا أن دينيسوف في تلك اللحظة، وهو قليل الرهبة أمام رؤسائه كما هي حاله أمام أعدائه، أبعد عنه المساعدين العسكريين الذين كانوا يحاولون بصوت خفيض غاضب استبقاءه عند أسفل المرقاة، وارتقى الدرجات يرن بمهمازيه، فنظر إليه كوتوزوف باستياء ويداه لا تزالان متكئتين على المقعد، أعلن كوتوزوف اسمه وقال إنه يحدث سموه حديثاً على جانب عظيم من الأهمية يتعلق بسلامة الوطن، فعقد كوتوزوف يديه على بطنه بحركة منقادة وهو لا يزال يتصفح وجهه بعينيه المنهكتين وقال مكرراً: «لسلامة الوطن؟

هيا، ما هو الموضوع؟ تكلم». احمر وجه كوتوزوف وكأنه فتاة، وكان من الغريب أن يحمر هذا الوجه العجوز، وجه مدمن ذو شاربين، ثم عرض بجرأة خطة قطع خطوط اتصال العدو بين سمولنسك وڤيازما، وهي المنطقة التي يعرفها جيداً لأنه كان يسكن فيها، وكانت تلك الخطة ممتازة إذا حكمنا أقله على قوة الإيمان التي أفعم بها كلماته، وكان كوتوزوف حينذاك قد أخذ يحدق إلى قدميه وينقل نظرته من حين إلى آخر إلى الكوخ الخشبي القريب وكأنه يتوقع أن يظهر منه شيء ما مزعج، والواقع أن جنرالاً خرج من الكوخ المجاور يحمل تحت إبطه محفظة، عندما بلغ دينيسوف أفضل نقطة من الموضوع الذي كان يشرحه.

قال كوتوزوف: كيف! هل أصبحت مستعداً؟

فأجاب الجنرال: نعم يا صاحب السمو.

هز كوتوزوف رأسه وكأنه يقول: «كيف توصل رجل واحد إلى صنع كل هذا؟» ثم أصغى مجدداً إلى شرح الضابط الروسي، وختم هذا حديثه بقوله:

ـ سوف أدمر مواصلات ناپليون، وإنني أقسم على ذلك بشرفي كضابط روسي.

سأله كوتوزوف:

ـ هل سيريل أدييـڤيتش دينيسوف، الأمين العام، قريبك؟

ـ إنه عمي يا صاحب السمو.

أجاب الجنرال القائد الأعلى ببشاشة: آه! لقد كنا صديقين، حسناً يا عزيزي، إبق هنا في الأركان، وسوف نتحدث غداً عن كل هذا.

وصرفه بإشارة من رأسه ثم مد يده إلى الأوراق التي حملها له كونوڤيتسين الجنرال المنوب.

قال هذا بلهجة استياء: هل تتفضلون سموكم بالدخول؟ هناك مخططات قيد الدرس وأوراق قيد التوقيع.

برز مساعد عسكري من ناحية المنزل وقال إن كل شيء حاضر، لكن كوتوزوف، بدون شك، لم يكن يريد الدخول إلا بعد أن يتخلص من كل عمل، قطب حاجبيه: كلا يا عزيزي، مر بإحضار طاولة سوف أتفحص هذه الأوراق هنا..

ثم تابع مخاطباً الأمير أندريه: لا تذهب.

فبقي هذا على المرقاة يصيخ السمع إلى تقرير الجنرال المنوب، لكنه لم يلبث أن اجتذبه همس صوت مؤنث وحفيف ثوب من الحرير، وبعد أن التفت عدة مرات إلى الناحية التي صدر عنها الصوت، انتهى به الأمر إلى رؤية امرأة جميلة متينة البنية بثوب وردي ودثار خبازي اللون، تبدو خلال الباب الموارب حاملة طبقاً في يدها وكأنها تنتظر القائد الأعلى، ولقد فسر المساعد العسكري للأمير أندريه أنها ربة المنزل، زوجة الكاهن، التي كانت تستعد لتقديم الخبز والملح لسعادته، ولقد استقبل الزوج عظيم الرفعة في الكنيسة والصليب في يده، أما الآن، فإن المرأة تريد استقباله في المنزل، وأضاف باسماً: «إنها ليست رديئة أبداً». وعند هذه الكلمات، أدار كوتوزوف رأسه، كان يصغي إلى الجنرال الذي أخذ يشرح له بصورة خاصة النقاط الضعيفة في مركز تساريــڤو ـ زاييميختشيه، كما أصغى إلى دينيسوف وكما أصغى منذ سبع سنوات إلى النقاش في المجلس الاستشاري العسكري في أوسترليتز، وكان يُرى أنه ليس مصغياً إلا لأنه كان يملك أذنين لا تستطيعان رغم المشاقة ـ وهو علاج شعبي لآلام الأسنان ـ إلا أن تسمعا، ولم يكن هناك شيء مما يعرضه عليه ذلك الجنرال قادر على إثارة دهشته أو إثارة اهتمامه، كان يعرف

مسبقاً كل ما يمكن أن يقولوه له فكان يصغي إلى أقوالهم بحكم الواجب كما يصغي المرء إلى قداس رباني حتى النهاية.

كانت خطة دينيسوف بارعة ورصينة وكذلك كان تقرير الجنرال أكثر رصانة، لكن كوتوزوف بدون شك كان يمقت المعرفة والذكاء ويعرف أن المسألة ستحسم بشيء آخر، لا علاقة لها بالعلم ولا بالذكاء، وكان الأمير أندريه يتفحص بعناية وجه القائد الأعلى فكان التعبير الوحيد الذي استطاع أن يقرأه عليه هو الملل ثم الفضول الذي أيقظه الهمس النسوي خلف الباب الذي ضبطته الرغبة في التقيد بالمجاملات، وإذا كان كوتوزوف يزدري العلم والذكاء حتى الشعور الوطني الذي برهن عليه دينيسوف منذ حين، فليس مرد ذلك ذكاؤه هو أو علمه أو وطنيته التي يحاول حتى التظاهر بها، بل عمره وتجاربه، وكان التدبير الوحيد الذي اتخذه إثر ذلك التقرير يتعلق بعادة السلب لدى القطعات، ولما قدم له الجنرال أمراً إدارياً ينص على اعتبار قادة القطعات مسؤولين عن الأضرار التي يسببها رجالهم للتوقيع عليه، وكان ذلك بناء على طلب أحد الملاكين الذي احتصدوا زرعه وهو لا يزال أخضر، هز كوتوزوف رأسه وقال وهو يسطع بلسانه:

ـ إلى النار! إلى الموقد! أقول لك للمرة الأخيرة يا عزيزي: كل هذه الأمور إلى النار! ليحصدوا قمحاً وليحرقوا خشباً ما شاؤوا! إنني لا آمر به ولا أجيزه لكنني كذلك لا أرغم أحداً، إنه أمر لا يمكن تجنبه، لا يستطيع المرء أن يحضر العجة دون أن يكسر البيض..

ثم اختتم قوله بعد أن ألقى نظرة أخيرة على الورقة وهز رأسه مجدداً: ها هي ذي دقتهم الألمانية!

الفصل السادس عشر

هيّا بنا. انتهينا! قال كوتوزوف عند توقيعه آخر ورقة، ونهض بجدّ وهو يبسط تجعدات عنقه الأبيض السمين واتجه نحو الباب بوجه مرح.

احمرّ وجه زوجة الكاهن من الانفعال وأمسكت بالطبق بسرعة، لكنها رغم استعداداتها الطويلة لم تتمكن من تقديمه في الوقت المناسب، انحنت انحناءة عميقة وقدمته إلى كوتوزوف فأغمض هذا عينيه نصف إغماضة وابتسم ثم قال وهو يمسك ذقنها: كم هي جميلة! شكراً يا فاتنتي.

وأخرج من جيب سرواله بعض القطع الذهبية وضعها على الطبق ثم سألها وهو يتجه إلى الغرفة المعدة له: آمل أن تكون صحتك جيدة؟

فتبعته امرأة الكاهن وهي تبتسم حتى ظهرت كل غمازاتها. وجاء المساعد العسكري إلى المرقاة يدعو الأمير أندريه إلى الطعام. وبعد نصف ساعة، استدعي مرة أخرى للمثول لدى القائد العام. كان كوتوزوف ممدداً على كنبة في بزته تلك محلولة الأزرار وكان يمسك بيده كتاباً فرنسياً أغلقه لدى وصول الأمير بعد أن أشار إلى الصفحة بسكين المكتب. كان الكتاب لمدام دوجنليس[1] بعنوان فرسان الأردف (Les Chevaliers Cygne) حسب ما تمكن أن يلمح على الغلاف.

قال كوتوزوف:

(١) مدام ستيفاني دوجنليس، مربية أولاد الدوق دورليان... لها مؤلفات في التربية. (المترجم).

ـ هيا، اجلس، اجلس هنا ولنتحدث. آه! هذا محزن، محزن جداً. ولكن لا تنسَ يا صديقي أنني لك أب، أب ثان.

روى له أندريه كل ما كان يعرفه عن لحظات أبيه الأخيرة وكل ما رآه عند مروره بليسياغوري. وفجأة قال كوتوزوف الذي بيّنت له قصة الأمير آفاقاً شديدة الوضوح عن موقف روسيا، بصوت متأثر:

ـ هذا هو الدرك الذي قادونا إليه!

ثم أضاف بلهجة ثائرة: ولكن صبراً! صبراً!

وقال وهو راغب في الاستمرار في محادثة تقلق راحته: لقد استدعيتك لأستقبيك بالقرب مني.

فأجاب الأمير أندريه مبتسماً:

ـ أشكر سموك. لكنني أخشى ألّا أكون قادراً على ملء مركز في الأركان.

استفسره كوتوزوف بنظره حين لم تخف عليه ابتسامته، فاستأنف أندريه قائلاً:

ـ ثم إنني تأقلمت مع فوجي وأحب ضباطي وأعتقد أن رجالي يحبونني بالمثل حتى أنني أجد صعوبة بالافتراق عنهم. وإذا كنت أرفض شرف البقاء بقربك فأرجو أن تصدق..

أضاءت وجه كوتوزوف المنتفخ ومضة من الرفق مشوبة بالسخرية وقال مقاطعاً بولكونسكي:

ـ أنا آسف. كنت ستغدو ذا نفع لي، لكنك على حق، إنك على حق. إننا لسنا بحاجة إلى الرجال هنا؟ إن الناصحين كثر في كل وقت لكن ينقصنا الرجال الحقيقيون. لم تكن الأفواج لتكون على ما هي عليه لو أن كل الناصحين خدموا فيها كما تخدم. إنني أذكر أوسترليتز وما زلت أراك والعلم في يدك.

احمرّ وجه الأمير أندريه فرحاً لهذه الذكرى. جذبه كوتوزوف من ذراعه

وقدم له وجنته، فرأى الأمير أندريه أن عينيه قد اخضلتا مجدداً. كان يعرف أن دمع العجوز مطواع وأنه يتظاهر بهذا التودد الخاص لأنه يريد أن يبرهن على مشاركته له في حزنه. مع ذلك، فإن تذكيره لسلوكه في أوسترليتز سره وأرضاه. استأنف كوتوزوف القول:

ـ اتبع الطريق التي رسمها لك الله. إنني أعرف أنها طريق الشرف.

ثم أضاف بعد فترة صمت: لقد افتقدتك كثيراً في بوخارست إذ لم يكن لدي أحد أعهد إليه بمهامي.

ثم أبدل الحديث وراح يتكلم عن حملة تركيا: كم وجّهوا اللوم إليّ على سير الحرب وعقد الصلح! مع ذلك فإن المشكلة قد انتهت نهاية طيبة وفي الوقت المناسب. إن كل شيء يتم على ما يرام بالنسبة إلى من يحسن الانتظار.

واسترسل ملحاً على موضوع بدا يثقل قلبه:

ـ هل تعلم أن الناصحين هناك لم يكونوا أقل عدداً مما هم عليه هنا. آه! من الناصحين؛ الناصحين! ولو أصغينا إليهم جميعاً لما وضعنا حداً للحرب ولما عقدنا الصلح! تبعاً لأقوالهم، كان يجب العمل بسرعة. لكن العمل بسرعة يعني غالباً الإطالة. ولو لم يمت كامنسكي لضاع ما في ذلك ريب. كان في حاجة إلى ثلاثين ألف رجل ليحتل الحصون. يا له من عمل مجيد، احتلال حصن! إن الصعب هو ربح المعركة. ومن أجل ذلك، لا حاجة إطلاقاً إلى الهجوم ولا احتلال ما يحاصر، بل إن الصبر والوقت هما كل ما يلزم. لقد أطلق كامنسكي جنوده على روستشرك. أما أنا، فقد احتلّيت أكثر مما احتل كامنسكي من معاقل باللجوء إلى الصبر والوقت وجعلت الأتراك يأكلون لحم الجياد.

وتابع وهو يهز رأسه ويطرق صدره باحتداد: وصدقني أنني سأطعم الفرنسيين مثل ذلك.

ثم اغرورقت عيناه بالدموع مجدداً. فقال أندريه:

ـ مع ذلك، يجب الالتحام في معركة؟

ـ بدون شك، إذا كانوا جميعاً يرغبون في ذلك.. ولكن، صدقني يا عزيزي أن ما من شيء يساوي هذين الجنديين: الصبر والوقت. إنهما اثنان يستطيعان أن يفعلا كل شيء. لكن الناصحين لا يتقبلون هذا الرأي وهذا هو السوء. إن بعضهم يريد وبعضهم لا يريد. وإذن، ماذا يجب أن نفعل؟

وتوقف منتظراً جواباً ثم قال بإلحاح وقد التمعت عيناه ببريق من الذكاء عميق: قل لي ماذا كنت تفعل أنت؟ هيا.

ولما لم يجب أندريه، استرسل يقول:

ـ حسناً، سأقول لك ما يجب أن تفعل. سأقول لك ماذا يجب عمله وما أقوم به أنا.

ثم قال وهو يتمهل بين كل كلمة: عند الشك يا عزيزي، تريث. هيا يا صديقي، الوداع. تذكر أنني أشاطرك حزنك من كل قلبي وأنني لست بالنسبة إليك لا «عظيم الرفعة» ولا أميراً ولا جنرالاً قائداً أعلى. اعتبرني كأب. وإذا كنت في حاجة إلى شيء ما، فاتصل بي مباشرة. الوداع يا عزيزي.

عانقه مرة أخرى. لكن الأمير أندريه لم يكن قد تجاوز الباب بعد عندما أطلق كوتوزوف تنهُّده راحة واستعاد كتابه «فرسان الأردف» يقرأ فيه.

ودون أن يعرف السبب تماماً، رجع أندريه إلى فوجه بعد تلك المقابلة وهو شديد الاطمئنان إلى سير الأمور العام، واثق بالذي يديرها كان يمكن القول إن هذا العجوز لا يحتفظ إلا بعادات عاطفية وإن الذكاء الذي يميل إلى جمع الحوادث لاستخلاص النتائج منها يستعاض عنه لديه بالقدرة البسيطة على تأمل الأحداث بكل إشراق فكري. وكلما ازداد أندريه في ملاحظة غياب الشخصية عنده ازداد اطمئناناً إلى أن كل شيء سيسير على أكمل وجه.

كان يحدث نفسه قائلاً: «إنه لن يبتكر شيئاً ولن يبدأ بشيء لكنه سوف يصغي وسيذكر وسيضع كل شيء في مكانه فلن يمنع شيئاً مفيداً ولن يسمح بشيء مؤذٍ. إنه يدرك أن هناك شيئاً أكثر قوة وأبعد أثراً من إرادته الشخصية وهو سير الأحداث الذي لا يقاوم. إن له موهبة ويعرف بالتالي كيف يتجرد عن إرادته الشخصية ليوجهها نحو هدف آخر كي لا يدعها تتدخل في الأمور. لكنه يوحي بالاطمئنان لأن المرء يشعر بأنه روسي حقاً رغم قراءته مؤلفات مدام دو جنليس واستعماله الأمثلة الفرنسية لأن صوته كان يرتجف وهو يقول: «هذا هو الدرك الذي قادونا إليه!» ولأنه كان يجهش بالبكاء وهو يؤكد أنه سوف يطعمهم «لحم الجياد».

كان هذا الشعور، الذي أحسّ به الجميع بشكل يختلف في الوضوح والإبهام، هو الذي قاد إلى الموافقة العامة الإجماعية التي أعقبت الانتقاء القومي لكوتوزوف كقائد أعلى، وهو الانتقاء الذي جعل دسائس البلاط تمنى بالإخفاق.

الفصل السابع عشر

عادت الحياة إلى سياقها المألوف بعد أن غادر الأمبراطور موسكو، حتى أصبح متعذراً إدراك حماسة الأيام الأخيرة والاعتقاد بأن روسيا تتعرض حقاً للخطر وأن أعضاء النادي الإنجليزي يمكن أن يكونوا هم كذلك وطنيين مستعدين لكل التضحيات. وكان الشيء الوحيد الذي يذكر بذلك التحمس القريب هو تغطية الهبات بالرجال والمال تلك الهبات التي لم تلبث بعد إقرارها أن اتخذت صفة مشروعة يتعذر تبديلها.

لم يجعل اقتراب العدو من الموسكوفيين أكثر جدية بل على العكس. لقد ارتفع صوتان في أعماق النفوس متماثلان بالقوة، كما يحدث عادة أمام مصيبة فادحة. يوحي الصوت الأول بحكمة أن ينتبه إلى الخطر القريب وأن يصار إلى البحث عن الوسائل التي تنجي منه. ويقول الصوت الثاني، بأكثر حكمة إن من التألم جداً التفكير في الخطر وإن الإنسان لا يمكن أن يعرف الخطر قبل حدوثه ولا أن يفلت من سير الأحداث وأن من الأفضل إبعاد كل تفكير منغص أمام الأمر الواقع. والرجل في حالة الوحدة، يطيع الصوت الأول بوجه عام. لكنه في المجتمع على العكس، يخضع للثاني. وهذا هو السبب الذي جعل الموسكوفيين ينعمون تلك السنة بمتعة التسلية أكثر من أي وقت مضى.

كانت إعلانات روستوبتشين تحمل في وسطها صورة متجر للمشروبات وخمّار وسيد من أهالي موسكو هو كاربوشكا تشيغيرين «الذي كان قد

تطوع في إعداد المجندين، فسمع إثر إفراطه قليلاً في الشراب أن بونابرت يريد الذهاب إلى موسكو فغضب ونعت الفرنسيين بشتى الأسماء ثم خرج من متجره ووجه إلى الشعب، تحت الأعلام، خطاباً». فكانوا يقرأون هذه الإعلانات ويشرحونها على طريقة آخر تشجيع لـڤاسيلي لـڤوڤيتش بوشكين.

كانوا يقرأونها في النادي في القاعة المنزوية، فكان بعضهم يجد طريقة كاربوشكا في السخرية بالفرنسيين مسلية. فهم، حسب قوله، «سينفقون لأنهم أكلوا كثيراً من البرغل وسيختنقون من سوء هضم ناجم عن حساء الملفوف وأن أية قروية روسية تستطيع بضربة منجل واحدة أن تقطع ثلاثة منهم دفعة واحدة نظراً إلى صغر حجمهم المضحك». والبعض الآخر كانوا على العكس ينتقدون هذا الأسلوب الذي يجدونه سخيفاً. ويروى أن روستوبتشين نفى الفرنسيين من موسكو وكذلك الأجانب كلهم الذين كان بينهم عدد من الجواسيس ومن رجال ناپليون وأن الحاكم بهذه المناسبة قد وجه كلمة طيبة إلى هؤلاء التعساء الذين كانوا ينقلونهم عن طريق النهر إلى نيجني إذ قال: «فكروا وادخلوا القارب ولا تجعلوه كارون»[1].

وكانوا يروون أن الإدارات كلها قد غادرت المدينة ويضيفون بالمناسبة كلمة شينشين الذي زعم أن هذه الواقعة نفسها تستحق أن تشكر عليها موسكو كلها ناپليون ويروون أن فوج مامونوف وحده يكلفه أكثر من ثمانمائة ألف روبل وأن بيزوخوف أنفق أكثر من هذا المبلغ على فوجه. وإن بيزوخوف هذا، وهذا أمر يلفت الانتباه أكثر من سواه، يقيم على رأس رجاله في البزة الرسمية يعرض نفسه مجاناً على كل الراغبين في رؤيته.

راحت جولي دروبتسكوي تقول حول هذا الموضوع وهي تضغط بين

---

(١) ربان الجحيم، يوصل إلى نهر ستيكس أرواح الموتى لقاء كوپيك. (المترجم).

أصابعها النحيفة المغطاة بالخواتم رزمة من النسيل في الحفلة الوداعية التي أقامتها بسبب سفرها إلى نيجني في اليوم التالي:

ـ لا تصفح عن أحد، إن بيزوخوف مضحك لكنه طيّب ولطيف للغاية. أية متعة في أن تكون هجاء لاذعاً إلى هذا الحد؟

وأضاف شاب في بزة المتطوعين كانت جولي تدعوه «فارسي» وكان سيصحبها إلى نيجني: غرامة!

قرروا في قاعة استقبال جولي كما في كثير من الأبهاء الأخرى أن يقتصروا في الحديث على اللغة الروسية وأن كل من يخالف هذا التعهد يتعرض لدفع غرامة لمصلحة لجنة الإنقاذ.

وقال رجل أديب كان هناك أيضاً: وغرامة ثانية للاصطلاح. «أية متعة في أن تكون..» ليس تعبيراً روسياً.

عادت جولي تقول مخاطبة المتطوع:

ـ إنك لا توفر أحداً. سوف أدفع من أجل كلمة «هجاء» وإنني مستعدة كذلك للدفع رغبة مني في أن أقول لك الحقيقة.

وأضافت وهي تلتفت إلى الأديب: أما عن الاصطلاحات، فأنا لست مسؤولة. وليس لدي الوقت ولا المال لاتخاذ مدرس كالأمير پوليتسين لأتقن الروسية.. هه هذا هو. عندما..

(وتوقفت مستدركة لأنها كادت تذكر المثل الفرنسي: عندما يتحدثون عن الذئب يجدون ذيله على الفور)، وقالت للمتطوع: لا، لا، لن تضبطني مرة أخرى. عندما يتحدثون عن الشمس يرون أشعتها.

ووجهت إلى پيار الذي كان يدخل في تلك اللحظة، ابتسامة رقيقة وقالت مؤكدة بالسهولة التي يبرع النساء فيها عند الكذب:

ـ كنا نتحدث عنك منذ لحظات وكنا نقول إن فوجك سيتفوق على فوج مامونوف.

قال پيار الذي بعد أن قبّل يد ربة البيت، جلس إلى جوارها:

ـ لا تحدثيني عن فوجي! ليتك تعلمين مبلغ نصيبي منه!

قالت جولي وهي ترسل إلى المتطوع ابتسامة مكر خبيثة:

ـ لا بد وأنك ستقود فوجك بنفسك؟

إلا أن المتطوع الذي توقّف منذ وصول پيار عن أن يكون «هجاء لاذعاً» لم يبادر إلى نجدتها. ذلك أن شخصية بيزوخوف رغم براءة مظهره، كانت تقضي بحزم على كل محاولة استهزاء في حضرته.

قال پيار ضاحكاً وهو يحيط شخصه الثقيل بنظرة ساخرة: أوه! كلا! سوف أكون هدفاً رائعاً للفرنسيين. ثم إنني ألا أستطيع امتطاء صهوة جواد.

وبعد أن تحدث المدعوون عن هؤلاء وأولئك من الناس: دارت أحاديثهم حول آل روستوف. قالت جولي: يبدو أن أوضاعهم في حالة سيئة جداً. ثم إن الكونت قليل الروية. لقد أراد آل رازوموڤسكي شراء نزلهم وبيتهم الريفي ولا تزال القضية في أخذ ورد. إنه يتطلب ثمناً باهظاً.

وتدخل أحدهم: مع أنني سمعت أن البيع سيتم في هذه الأيام الأخيرة. أليس من الجنون شراء شيء ما في موسكو الآن؟

قالت جولي: ولماذا؟ هل تفكر أن موسكو في خطر حقاً؟

لولا ذلك، لماذا ترحلين؟

ـ أنا؟ يا له من سؤال مضحك! إنني أرحل لأن.. ولكن لأن الناس كلهم يرحلون. وكذلك لأنني لست جان دارك ولا أمازونية[1]

---

(١) امرأة محاربة في الأساطير الأمازونية. (المترجم).

ـ نعم، بالطبع.. أعطني قطعة خرقة أخرى.

وقال المتطوع الذي ما زال يتحدث عن آل روستوف:

ـ لو أنه عرف كيف يتصرف، فإنه سيسدد ديونه كلها.

ـ أجل، إنه رجل باسل ولكنه فقير جداً. ثم ما الذي يبعثهم هنا كل هذا الوقت؟ منذ زمن طويل وهم يريدون العودة إلى الريف. لقد استعادت ناتاشا صحتها على ما أعتقد أليس كذلك؟

كان هذا السؤال موجهاً إلى پيار ومشفوعاً بابتسامة ساخرة. فقال:

ـ إنهم ينتظرون ابنهم الأصغر الذي تطوع في مفرزة قوقازيين أبولنسكي وأرسل إلى بيلاييا تسيركوف حيث يتم تشكيل الفوج، فنقله ذووه إلى فوجي وهم ينتظرون عودته من يوم إلى آخر. إن الكونت يرغب في الذهاب منذ أمد طويل، لكن الكونتيسة ترفض بأي ثمن مغادرة العاصمة قبل رؤية ابنها.

ـ لقد قابلتهم أول أمس لدى آل أرخاروف. لقد ازدادت ناتاشا جمالاً وصفا مزاجها ولقد أنشدت قصيدة مؤثرة. كم يُنسى كل شيء بسرعة لدى بعض الناس!

سأل پيار بلهجة جافة: ما الذي ينسى بسرعة؟

فطافت على شفتي جولي ابتسامة: هل تعرف يا كونت أن فارساً مثلك لا يرى الإنسان مثله في هذه الأيام إلا في روايات مدام دوسوزا؟

سأل پيار وقد احمرّ وجهه:

ـ أي فرسان؟ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ هيا أيها الكونت العزيز. لا تتظاهر بالدهشة. «إنها أقصوصة موسكو كلها. إنني معجبة بك وأقسم بشرفي».

فقال المتطوع: غرامة! غرامة!

ـ ليكن!.. لم نعد نستطيع التكلم، وهذا ينتهي بنا إلى التضجر!

كان پيار قد وقف فقال في غير لطف:

ـ ما هو الذي أقصوصة موسكو كلها!

ـ ولكن يا كونت، لكأنك لا تعرف!

ـ لست أعرف شيئاً مطلقاً.

ـ وأنا أعرف أنك مع ناتاشا على أتم وفاق ومن ثم... إنني فيما يتعلق بي كنت دائماً على أوثق ألفة مع ڤيرا، ڤيرا العزيزة تلك..

استرسل پيار وهو لا يزال ساخطاً:

ـ كلا يا سيدتي، إنني لست الفارس التابع للآنسة روستوف وإنني منذ أكثر من شهر لم تطأ قدمي بيتهم. لكنني لا أفهم هذه الفظاظة..

قاطعته جولي وهي تبتسم: من يعتذر يعترف بخطأه.

ثم بادرت إلى تحويل دفة الحديث بغية الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة لنفسها فقالت: هل تعلم ماذا بلغني منذ حين؟ لقد وصلت ماري پولكونسكي المسكينة أمس. هل تعرف أنها فقدت أباها؟

قال پيار: صحيح؟ وأين هي؟ كم أتوق إلى رؤيتها!

ـ لقد أمضيت السهرة معها. لسوف تذهب اليوم أو غداً مع ابن أخيها إلى أملاكهم في الضاحية.

ـ آه! وكيف حالها؟

ـ بين بين. بل إنها أميل إلى الحزن. ولكن هل تعلم لمن تدين بحياتها؟ إنها رواية كاملة. لنيكولا روستوڤ. كانوا محيطين بها يريدون قتلها بل إنهم أصابوا رجالها بجراح.. لكنه أسرع هو وأنقذها..

قال المتطوع:

ـ رواية جديدة. لا شك أن هذا الفرار العام لمن يستطيع الفرار قد ابتكر على ما يبدو بهدف تزويج العانسات. كاتيش أولاً ثم ها هي ذي الأميرة بولكونسكي.

ـ أتدري، أظنها «مغرمة قليلاً بالفتى».

ـ غرام! مغرمة! مغرمة!

ـ ولكن كيف أقول هذا بالروسية؟

الفصل الثامن عشر

قدّموا إلى پيار عندما عاد إلى منزله إعلانين لروستوبتشين وصلا أخيراً، في الأول، يؤكد الحاكم أنه بعكس ما أشيع من أنه منع مغادرة المدينة، وسيكون سعيداً إذا شاهد نساء الأشراف وطبقة التجار يغادرون موسكو. وكان يزعم «أنهن بذلك سيتعرضن لخوف أقل وسيثرثرن أقل. لكن الأثيم لن يأتي إلى موسكو وأنا أراهن برأسي على ذلك». فلما قرأ هذه الكلمات، رأى پيار بوضوح لأول مرة أن الفرنسيين سيدخلون موسكو. أما الإعلان الثاني، فكان يقول إن قيادتنا العامة موجودة في ڤازما وإن الكونت ويتجنشتاين قد هزم الفرنسيين. مع ذلك، ولما كان عدد كبير من السكان يرغبون في التسلح، فإنهم وجدوا بسعر جيد سيوفاً وبنادق ومسدسات في مستودع الذخائر. لم تعد لهجة الإعلانين هزلية كتلك التي عُزيت إلى تشجيرين في أقواله مما دعا پيار إلى التفكير. أدرك أن كل هذه الجحافل الرهيبة من العاصفة التي كان يدعوها من كل جوارحه والتي كانت تسبب له خوفاً غير إرادي في الوقت نفسه، ناشطة في سيرها.

أخذ يتساءل للمرة المائة: «هل يجب أن ألتحق بالجيش المحارب أم على العكس أن أنتظر الأحداث؟» أمسك بورق لعب كان متروكاً على الطاولة وراح «يبصّر». حدث نفسه بعد أن خلط الورق ورفع عينيه إلى السماء: «إذا «فتح الفال» كان معنى ذلك.. ماذا سيكون معنى ذلك؟..».

وقبل أن يجد الجواب، ارتفع صوت عند الباب يسأل عما إذا كان يمكن الدخول.

قرر پيار: «سيكون معنى ذلك أنه يجب أن ألتحق بالجندية» ثم صاح:

ـ أدخل، أدخل.

كانت الداخلة هي كبرى الأميرات، تلك التي كانت مشيقة القامة، جامدة الوجه، الوحيدة التي بقيت تسكن نزل بيزوخوف لأن الاثنتين الأخريين كانتا قد تزوجتا.

قالت بصوت مضطرب وبلهجة فيها لوم: أعذرني يا ابن عمي لمجيئي إليك. ولكن، لقد حان الوقت لاتخاذ قرار. إن الناس جميعهم غادروا موسكو والشعب بدأ يتمرد.. فماذا ننتظر إذن؟

أجاب پيار هازلاً: ولكن على العكس يا ابنة عمي. إن كل شيء يبدو لي على أفضل وجه.

كانت تلك طريقته في إخفاء الارتباك الذي يوقعه فيه دائماً دوره كمحسن.

ـ جميل جداً! من أين جئت بهذا الخبر؟ لقد روت لي فرفارا إيـڤانوڤنا منذ حين بطولات جنودنا: إن ذلك يشرفهم شرفاً عظيماً حقاً!.. ثم إن الشعب يتصرف على هواه. ما من أحد بات يقبل الإطاعة حتى أن خادمتي نفسها تحدثني بالغلاظات. سوف يضربوننا بعد حين. لم يعد المرء يستطيع وضع قدمه خارج منزله.. لكن أخطر ما في الأمر هو أن الفرنسيين سيكونون هنا اليوم أو غداً.. ماذا ننتظر بالله؟ أرجوك يا ابن عمي، أصدر أمراً بنقلي إلى پيترسبورغ لن أستطيع، مهما بلغت من تفاهة القيمة، أن أعيش تحت نير بوناپرت.

ـ ماذا تقولين يا ابنة عمي؟ من أين تستقين معلوماتك؟ على العكس..

ـ إنني لن أخضع لناپليونك. أما الآخرون، فهذا شأنهم.. وإذا كنت لا تريد الموافقة على ما أسأله منك...

ـ ولكن بكل تأكيد. سوف أعطي أوامر فوراً.

تهالكت الأميرة على كرسي وقد أغاظها أن لم تعد تجد من تعاتبه وراحت تهمهم بينما استرسل پيار:

ـ إنهم ينقلون إليك معلومات خاطئة. إن كل شيء هادئ في المدينة ولسنا نتعرض لأي خطر. أنظري ماذا كنت أقرأ، وأظهرها على الإعلانين، إن الكونت يقول إن العدو لن يدخل موسكو ويقدم حياته ضمانة لذلك.

أجابت الأميرة بغضب:

ـ آه! كونتك هذا! إنه منافق، إنه أثيم دفع الشعب بنفسه إلى التمرد! ألم يوعز في إعلاناته المنافية هذا أن يمسك بالناس من شعورهم دون استثناء وأن يؤخذوا إلى المخفر، هذا شديد الغباوة! ثم إنه يعد بالمجد والشرف كل من يتصرف على هذا النحو. هل تريد معرفة نتائج هذه الممالقات؟ لقد قالت فارفارا إيـڤانوڤنا إنهم كادوا يقتلونها في الشارع لأنها كانت تتكلم بالفرنسية.

قال پيار وهو يفتح «فاله»:

ـ هيا، هيا، إنك تحملين كل شيء على محمل الجد.

على الرغم من أن «الفال» قد «فتح» فإن پيار لم يلتحق بالجيش بل بقي في موسكو التي بدأت تخلو من السكان وهو فريسة ذلك الشك المحموم، ينتظر بقلق ممزوج بالسرور وقوع حدث رهيب ما.

رحلت الأميرة، في مساء اليوم التالي، وجاء المسجل العام يعلن لـپيار أنه يتعذر تغطية نفقات تجهيز الفوج الضرورية اللازمة إلا إذا عمد إلى بيع أحد الأملاك وألمح إلى أن كل هذه الأهواء سوف تؤدي به إلى الدمار. فأصغى إليه پيار بابتسامة لم يحسن إخفاءها ثم قال:

ـ بع رغم ذلك. ما العمل؟ لا أستطيع الرجوع عن وعد قطعته!

بدأت أعماله الشخصية تسوء وأخذ الموقف العام يكفهر وپيار يتلقى

هذه الأنباء ببهجة متزايدة لأنها كانت تؤكد له قرب النكبة التي ينتظرها. ولقد غادر كل معارفه موسكو تقريباً وذهبت جولي والأميرة ماري أيضاً، ولم يبق إلا آل روستوف الذين لم يعد پيار يزورهم.

ذهب ذلك اليوم على سبيل التسلية إلى ضاحية فورونتسوڤو لرؤية المنطاد الذي ابتكره المهندس ليبيخ لتدمير العدو ومنطاد التجربة الذي سيطلقونه غداً. لم تكن الاستعدادات قد أنجزت بعد. لكنهم أطلعوا پيار على أن الأمبراطور يؤيد هذا المشروع بقوة بل إنه كتب إلى روستوتبشين الرسالة التالية:

«حالما يصبح ليبيخ جاهزاً، شكلوا له فريقاً لسلة المنطاد مؤلفاً من رجال أذكياء موثوقين بهم وأرسلوا رسولاً إلى الجنرال كوتوزوف لإعلامه. ولقد أطلعته على الأمر.

«نبهوا على ليبيخ أرجوكم، أن يكون منتبهاً إلى المكان الذي سينزل فيه أول مرة كي لا يخطئ ويقع بين يديّ العدو. يتحتم عليه أن ينسق حركاته مع الجنرال القائد الأعلى».

ولدى عودته من فورونتسوڤو، وبمروره من ساحة بولوتنايا، شاهد پيار مجموعة من الناس حول وتد العقاب. فأعطى الأمر بالوقوف ونزل من العربة. كانوا قد انتهوا من جلد طاه فرنسي متهم بالجاسوسية وراح الجلاد يفك عن الوتد رجلاً ضخم الجثة، ذا شعر أشقر، على العارضين، كان يزمجر معولاً. وكان متهم آخر، شاحب وشديد النحول ينتظر دوره. ولقد كان وجهاهما يدلان على أنهما فرنسيان بدون شك. شق پيار الزحام بوجه منقلب كوجه المتهم الثاني وسأل:

ـ ما هذا؟ من هم هؤلاء؟ ماذا فعلوا؟

لكن انتباه المتسكعين بين موظفين وصناع ورجال أعمال وقرويين

ونساء في معاطف طويلة ذات ثنيات أو مبطنة بالفرو، كان منصرفاً إلى المشهد حتى أن أحداً لم يجبه. وقف الرجل الضخم وهو يقطب حاجبيه ويهز كتفيه وراح رغبة منه في إظهار تجلده، يرتدي سترته دون أن يخفض عينيه عن المحتشدين. لكن شفتيه ارتجفتا فجأة وأجهش بالبكاء وهو يلعن ضعفه، كما يبكي الرجال ذوو الدم الوفير. وراح المجتمعون يتحدثون بصوت مرتفع ليكتموا شعورهم بالإشفاق كما خيل إلى پيار.

ـ يبدو أنه طاه لدى أحد الأمراء..

ـ إيه! «موسيو»[1] إن المرق الروسي حامض قليلًا بالنسبة إلى حنك فرنسي.. إنه يضرس أسنانك هن؟

تلك كانت العبارة التي تفوه بها جار پيار، وهو موظف صغير أعجف، عندما رأى الفرنسي يبكي. ثم ألقى الموظف الصغير نظرة حوله باحثاً عن موافقة الجمهور ولقد انفجر بعض الأشخاص ضاحكين بالفعل. لكن الآخرين لم يستطيعوا انتزاع أنظارهم عن الجلاد الذي أخذ ينزع ثياب المحكوم الثاني.

نخر پيار بقوة من أنفه وقطب حاجبيه ثم دار على أعقابه وعاد إلى عربته فاستقلها وهو لا يزال يدمدم. وبقيت التشنجات تحركه طوال الطريق وهو يصيح بصوت مرتفع متعجباً حتى أن حوذيه انتهى إلى سؤاله: ماذا تأمرني؟

صرخ پيار وهو يراه متجهاً إلى لوبيانكا: إلى أين تذهبين؟

ـ لدى الجنرال الحاكم. ألم تقل لي أن أحملك إلى هناك؟

ولقد بلغ من غضب پيار أن شتم هذا الرجل، وهو الأمر الذي ندر أن يقع له.

---

(١) «موسيو»، للتهكم وهي في الأصل مسيو Monsieur (المترجم).

ـ يا غبي! يا حيوان! لقد قلت لك أن تعود إلى المنزل وبأسرع من هذا.. أيها الغبي المثلث!.. «يجب الرحيل اليوم بالذات».

لقد قرر پيار بحزم أكيد لدى رؤية تنفيذ الحكم والمجموعة المحتشدة أن يلحق بالجيش فوراً دون زيادة في التأخر في موسكو حتى أنه خيل إليه أنه أطلع الحوذي على رغبته أو أن هذا أقله كان يجب أن يعلم قراره.

ولم يكد يدخل إلى المنزل حتى استدعى حوذيه إيڤستاڤييڤيتش، وهو رجل يستطيع صنع كل شيء، يعرف كل الناس وتعرفه موسكو كلها، أخطره بأنه يرغب في أن يرحل تلك الليلة بالذات إلى موجاييسك ويريد أن ترسل جياد الركوب إلى هناك، ولما كان هذا الأمر لا يمكن أن ينفذ في يوم واحد، فقد اضطر پيار بناء على نصيحة إيڤستاڤييڤيتش أن يرجئ رحيله إلى الغد حتى يتسنى إعداد خيول البدل.

وفي الرابع والعشرين وقد اعتدل الطقس، غادر پيار موسكو بعد الغداء، وفي الليل، بينما كان يبدل خيوله في بيرخوشكوڤو، علم أن معركة دارت أول المساء وأن قصف المدافع هز الأرض حتى في تلك القرية الصغيرة فاستفسر عن المنتصر لكن ما من أحد استطاع أن ينبئه، لقد كانت تلك معركة شيـڤاردينو.

وعند الفجر، وصلا إلى موجاييسك. كانت البيوت كلها محتلة من قبل الجنود ولقد انتظره خادمه المرافق وسائق عربته في النزل، لكنهم لم يستيطعوا إعطاءه أية غرفة لأنها كانت تعج بالضباط.

كانت المنطقة كلها تغصّ بالجنود بين مستريحين وفي طريق السير، ولم يكن يرى من كل صوب إلا قوقازيين ومشاة وخيالة وعربات نقل وصناديق صغيرة وقطع المدفعية، ولقد كان پيار مستعجلاً في التوغل إلى الأمام، وكلما ازداد توغلاً في ذلك الخضم من الجنود، ازداد قلقه شدة وشابه شعور بالرضى

الضمني جديد كل الجدة، ولقد كان ذلك الإحساس يذكره بذاك الذي أحسّ به في قصر سلوبودسكي إبان إقامة الأمبراطور: كان يجب اتخاذ قرار ما والتضحية بالذات. بدأ پيار يدرك الآن بفرح أن كل ما يسبب سعادة المرء من ثراء ولذة الحياة بل الحياة نفسها، كل ذلك لم يكن إلا ترهات يسهل القذف بها ثمناً لشيء ما.. وهذا الشيء، لم يكن پيار يتوصل إلى تصوره، بل إنه لم يكن يحاول حتى أن يشرح لنفسه لماذا ومن أجل من، يجد متعة خاصة بالتضحية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ما كان يهمه سبب تضحيته، لكن التضحية كانت تحمل إليه شعوراً جديداً بالسعادة.

الفصل التاسع عشر

في الرابع والعشرين من شهر آب اندلعت معركة شيـڤاردينو، وفي الخامس والعشرين، لم تطلق رصاصة واحدة من هذا الجانب أو من ذاك، وفي السادس والعشرين اندلعت معركة بورودينو.

لماذا نشبت هذه المعارك وكيف اندلعت وبصورة خاصة معركة بورودينو؟ لم يكن الفرنسيون ولا الروس مدفوعين بأي سبب لخوضها، لقد كانت نتيجتها الأكثر مباشرة بالنسبة إلى الروس، كما وجب أن تكون، خطوة إضافية في طريق ضياع موسكو، الأمر الذي كنا نخشاه أكثر من أي شيء في الوجود، أما بالنسبة إلى الفرنسيين، فكانت خطوة إضافية نحو ضياع كل جيشهم، الأمر الذي كانوا هم كذلك يخشونه أكثر من كل شيء في الوجود، ولم تكن هذه النتيجة خافية أبداً، مع ذلك، فإنها لم تمنع ناپليون من أن يعرض القتال وكوتوزوڤ من أن يقبل المعركة.

فلو ترك الرؤساء الكبار للعقل أن يقودهم لرأى ناپليون بوضوح وقد تقدم مسافة خمسمائة ميل بعيداً عن قواعده وقد التحم في معركة كان يتعرض لفقد ربع عدد جيشه، فإنه إنما يمضي إلى خسارة أكيدة، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى كوتوزوڤ الذي قبل الدخول في المعركة، فهو بقبوله القتال وتعرضه هو الآخر لفقد ربع جيشه تقريباً، إما يجب عليه أن يخلي موسكو، ولقد كانت النتيجة واجبة الظهور لكوتوزوڤ بصورة خاصة ببداهة العملية الحسابية، فلو أن لدي في لعبة «الضاما» بيدقاً أقل مما لدى خصمي، وإذا كان كل حركة

تخسر مبادلة، فإنني خاسر للشوط ولا شك والعقل يحتم علي إذن أن أمتنع، وفي الواقع إنه لو كان لدى خصمي ستة عشر بيدقاً ولدي أربعة عشر، فإنني أضعف منه بمعدل واحد إلى ثمانية، ولكن بعد أن يكون كل منا قد فقد ثلاثة عشر بيدقاً، فإنه حينئذ سيصبح أقوى مني بثلاثة أضعاف.

بالنسبة إلى قوات الفرنسيين كانت قواتنا قبل معركة بورودينو، بنسبة خمسة إلى ستة: مائة ألف رجل ضد مائة وعشرين ألفاً، وبعد المعركة، لم تعد هذه النسبة إلا بمعدل واحد إلى اثنين: خمسين ألفاً ضد مائة ألف، ومع ذلك، فإن كوتوزوف، ذلك العسكري المجرب، قد قبل المعركة، ونابليون ذلك الرئيس العبقري، كما يسمونه، خاض معركة كلفته ربع جيشه وأطال خطه أكثر فأكثر، ولقد زعم بعضهم أنه كان يفكر في إنهاء الحرب بعد احتلاله موسكو كما وقع في ڤيينا. لكن هناك أدلة كثيرة تبرهن على العكس.

إن مؤرخي نابليون أنفسهم يعترفون بأنه كان يريد التوقف منذ سمولنسك: كان يعرف خطر امتداد خطه ويعرف أن احتلال موسكو لا ينهي الحملة لأنه كان يرى منذ ذلك الوقت بأية حال كانوا يخلون له المدن وأنه لم يكن يتلقى أية أجوبة على محاولاته الكثيرة للدخول في مفاوضات.

وهكذا فإن كوتوزوف ونابليون، الأول بعرضه والثاني بقبوله المعركة لم يخضعا لا لعقلهما ولا لحكمهما الحر. في حين أن المؤرخين، بعد أن وقعت المعركة، استنتجوا منها أدلة مموهة عن بعد نظر رئيسي الجيشين هذين وعبقريتيهما ذينك اللذين كانا بين كل الأدوات الصماء في أحداث هذا العالم، أكثرها خضوعاً لا إرادياً وأكثرها استرقاقاً.

لقد خلّف لنا الأقدمون نماذج من القصائد الخرافية التي ترتكز الأهمية فيها كلها على الأبطال، ولما كانت هذه القصائد تراثاً غالياً فإننا نمتنع عن رؤية ما في مثل هذه المدارك التاريخية في عصرنا هذا من بطلان.

وهناك حول النقطة الثانية أي، كيف جرت معركة بورودينو ومن قبلها معركة سيـڤاردينو التي سبقتها، هناك وجهة نظر دقيقة للغاية ومقبولة بصورة عامة بقوة بقدر ما هي خاطئة كذلك، وفيما يلي كيف يصف المؤرخون واقع هذه المعركة المزدوجة:

إن الجيش الروسي بانطوائه بعد سمولنسك كان لا بد وأن يبحث عن أفضل مركز ليلتحم فيه بمعركة عامة ووجد ذلك المركز في بورودينو.

إن الروس بدون شك حصنوا مسبقاً هذا المركز إلى يسار الطريق من موسكو إلى سمولنسك وبشكل عمودي على هذه الطريق تقريباً من بورودينو إلى أوتيتسا في المكان نفسه الذي نشبت فيه المعركة.

وإن الروس بدون شك، أقاموا هذا الموقع طليعة على مرتفع شيـڤاردينو لمراقبة العدو فهاجمهم ناپليون في الرابع والعشرين واحتل ذلك المركز الأمامي ثم هاجم كل الجيش الروسي في موقعه المحصن على سهل بورودينو في السادس والعشرين.

تلك هي رواية المؤرخين، وهي رواية غير مضبوطة كلياً كما لا بد سيقتنع بذلك بسهولة كل من يضطلع بعناء دراسة المسألة قليلاً.

فالروس بعيداً عن اختيار الموقع الأفضل، أهملوا في سياق تقهقرهم عدداً كبيراً من خيرة المواقع التي ترجح على بورودينو وذلك لأسباب عديدة لأن كوتوزوف لم يكن يريد تقبل نقطة لا يختارها بنفسه ولأن ضرورة خوض معركة قومية لم يكن ملحاً بكل هذه القوة ولأن ميلورادوڤيتش لم يكن بعد قد وصل مع فرق المتطوعين وإلخ...، إلخ...، وإنه مما لا يمكن إنكاره أن المواقع الأخرى أكثر مناعة من ذلك الذي دارت عليه رحى الحرب لأن بورودينو لم تكن أفضل «كموقع» من أي موقع عابر يشار إليه على خريطة الأمبراطورية الروسية بدبوس صغير.

وليس أن الروس لم يحصنوا موقع بورودينو إلى اليسار وعمودياً على الطريق فحسب، أي في المكان الذي نشبت فيه المعركة بل إنهم كذلك لم يفكروا قبل الخامس والعشرين من آب ١٨١٢ أن معركة يمكن أن تقع في هذا المكان، وسأقدم على سبيل التدليل على صحة هذا الزعم مذكراً في المرحلة الأولى بعدم وجود تحصينات ما قبل الخامس والعشرين من آب وأن التي شرع في بنائها في ذلك التاريخ لم تنته في السادس والعشرين وفي المرحلة الثانية أذكر بموقع حصن شيـڤاردينو عينه الذي لم يكن له أي معنى رغم وقوعه أمام النقطة التي نشبت المعركة فيها. فلماذا إذن حصنوه أكثر من أية نقطة أخرى؟ لماذا بذلوا كل هذه الجهود الكبيرة للدفاع عنه يوم الرابع والعشرين إلى ساعة متأخرة من الليل وخسروا ستة آلاف رجل في حين كان يكفي لمراقبة العدو تسيير دورية من القوقازيين؟

وأخيراً الدليل الثالث والأخير: كان باركلي دوتوللي وباغراسيون مقتنعين حتى اليوم الرابع والعشرين بأن حصن شيـڤاردينو يشكل الجناح الأيسر للموقع. بل إن كوتوزوف نفسه في تقريره الذي دبجه تحت تأثير المعركة الذي كان لا يزال حامياً، وأطلق عليه هذا الاسم. ثم إن كثيراً فيما بعد في تقاريرهم التي كتبوها على مهل أظهروا قصد تبرير أخطاء الجنرال القائد الأعلى الذي كان لا بد من إظهاره بمظهر المعصوم عن الخطأ، الزعم الخاطئ الغريب القائل بأن حصن شيـڤاردينو كان نقطة أمامية ـ وهو الذي لم يكن أكثر من نقطة محصنة في الجناح الأيسر ـ وإننا قبلنا المعركة في موقع محصن اخترناه سلفاً، في حين أنها دارت في مكان لم يكن منتظراً وقوعها كما لم يكن محصناً قط تقريباً.

وإليكم كيف دارت الأمور بكل وضوح: اختاروا نقطة على نهر كولوتشا تقطع الطريق العام ليس على شكل زاوية قائمة بل على زاوية حادة بشكل

جعل الجناح الأيسر في شيـڤاردينو والأيمن قرب قرية نوڤواي والوسط في بورودينو عند التقاء نهري كولوتشا وڤويينا. ولا بد لجيش يهدف إلى إيقاف العدو المتقدم على طول طريق سمولنسك ـ موسكو أن يحتل هذا الموقع الذي يحميه نهر كولوتشا. وكل من يراقب ساحة المعركة متناسياً كيف جرت الأمور حقيقة لا بد مقتنع فوراً.

ولم ير ناپليون كما يؤكد المؤرخون، في تقدمه يوم الرابع والعشرين نحو ڤالوييـڤو موقع الروس من أوتيتسا إلى بورودينو. وما كان يمكن أن يراه لأنه كان غير موجود أصلاً. ولم ير كذلك النقطة الأمامية للجيش فلم يصطدم بجناح الروس الأيسر إلا وهو يطارد المؤخرة أي في حصن شيڤاردينو وبعد أن اجتاز بقواته نهر «كولوتشا» ولقد طوى الروس جناحهم الأيسر من النقطة التي أرادوا احتلالها إلى موقع جديد غير مدروس وغير محصن لأن حركة ناپليون تلك فوّتت عليهم فرصة الدخول في معركة شاملة. وبمرور ناپليون أو باجتيازه ضفة كولوتشا اليسرى وبالتالي بوصوله إلى يسار الطريق، نقل المعركة المقبلة من جناح الروس الأيمن إلى جناحهم الأيسر، في السهل الواقع بين أوتيتسا وسيميونوڤسكوي وبورودينو، وهو السهل الذي لم يكن يمتاز كموقع عن أي موقع آخر. وهنا اندلعت معركة السادس والعشرين. وفيما يلي الخطوط العامة للمعركة المخمنة كما كان يمكن أن تقع وخطوط المعركة الحقيقية.

مخطط معركة بورودينو.

١ ـ موقع الفرنسيين المفترض.

٢ ـ موقع الروس المفترض.

٣ ـ موقع الفرنسيين الحقيقي خلال المعركة.

٤ ـ موقع الروس الحقيقي خلال المعركة.

(وفق مخطط وضعه تولستوي بنفسه).

فلو أن ناپليون لم يعبر نهر كولوتشا في الرابع والعشرين مساء، ولو أنه بدلاً من أن يقع فوراً على الحصن، أجل الهجوم إلى اليوم التالي، لرأى العالم أجمع أن هذا الحصن كان يشكل الجناح الأيسر في موقعنا وأن المعركة كانت ستدور حسبما توقعناه. وحسب كل احتمال. كنا سندافع عن شيـڤاردينو، جناحنا الأيسر، بحماسة أقوى، ونهاجم ناپليون في الوسط وفي اليمين، وكانت المعركة العامة ستقع في الرابع والعشرين على الموقع الذي كان معداً ومحصناً. ولكن، عندما وقع الهجوم على جناحنا الأيسر مساء عقب انثناء مؤخرتنا، أي بعد معركة غريدنييـڤو مباشرة، ولما لم يستطع رؤساؤنا أو لم يريدوا خوض المعركة العامة مساء الرابع والعشرين، فقد ضاع الجزء الأول الرئيسي من معركة بورودينو منذ الرابع والعشرين، الأمر الذي أدى إلى هزيمة السادس والعشرين.

بعد خسارة شـڤاردينو، وجدنا أنفسنا صباح الخامس والعشرين محرومين من نقطة ارتكاز في الجناح الأيسر فاضطررنا إلى ثني جناحنا الأيسر وتحصينه بأسرع وقت وفي أي موقع كان.

وهكذا إذن، لم تكن الوحدات الروسية محصنة يوم السادس والعشرين إلا في خنادق غير مستكملة. بل أخطر من ذلك أن جنرالاتنا لم يدركوا تماماً الأمر الواقع: لم يروا أن خسارة الجناح الأيسر ستجري تبديلاً من اليمين إلى اليسار في اتجاه المعركة. لذلك تركوا خطوطهم تتطاول كالسابق من نوڤواي إلى أوتيتسا، الأمر الذي أرغمهم على البدء بتحريك قطعاتهم في إبان احتدام المعركة من اليمين إلى اليسار. وبذلك لم يستطع الروس أن يواجهوا الفرنسيين إلا بجناحهم الأيسر، أي بقوات أضعف مرتين. أما هجمات

بونياتووسكي ضد أوتيتسا، وأوڤـاروف ضد الجناح الفرنسي الأيمن، فكانت حوادث عرضية مستقلة عن سير المعركة العام.

وعلى هذا، فإن معركة بورودينو وقعت على شكل مخالف تماماً للأسلوب الذي رويت به بغية إخفاء أخطاء جنرالاتنا، الأمر الذي لم يعمل إلا على الإقلال من مجد جيشنا وشعبنا. إنها لم تقع في موقع مختار ومحصن سلفاً ولكن بقوات أقل قليلاً من جانبنا من قوات العدو. بل إنها دارت إثر خسارة شيـڤاردينو وعلى أرض عراء أو عديمة التحصين في مثلها ولا أقول لخوض معركة طوال عشر ساعات كاملة بشكل غير مقرر بل للصمود ثلاث ساعات فقط دون التعرض لهزيمة كاملة.

الفصل العشرون

صباح الخامس والعشرين غادر پيار موجاييسك. وترجل پيار من عربته لكي ينحدر على طول الشارع المتعرج الذي يخرج من المدينة تاركاً على اليمين الكنيسة التي كان يقام فيها قداس وسط قرع الأجراس، واجتاز المسافة على قدميه ومن ورائه، كانت فرقة من الفرسان يسبقها مشدوهاً، بينما راحت قافلة من الجرحى في معركة الأمس تصعد المنحدر في الاتجاه المعاكس والقرويون الذين يسوقونها يسرعون من جانب إلى آخر من الشارع وهم يملأون الجو صراخاً وقرعاً بالسياط: وكانت العربات التي تقل كل واحدة منها ثلاثة أو أربعة جرحى جالسين أو مستلقين، تقفز فوق الحجارة الملقاة هنا وهناك بمثابة رصيف للطريق، والجرحى، بوجوههم الشاحبة، ملتفون في أسمال، وقد كظموا شفاههم وقطبوا حواجبهم، يتشبثون بجوانب العربة ويصطدم بعضهم ببعض. وكانوا كلهم تقريباً يتأملون قبعة پيار البيضاء وثوبه الأخضر في فضول صبياني.

صاح حوذي پيار بسائقي العربات أن يتنحوا جانباً. لكن فرقة الفرسان الذين كانوا ينحدرون على الطريق يسبقهم صدّاحوهم، قطعت كل تقدم. وتوقف پيار وقد انتبذ سفح التل الذي بلغ من انحداره أن الشمس لم تكن تستطيع التوغل في الطريق العميق الوعر فكان المرء يشعر بالبرد والرطوبة، وفوق رأس پيار، أضاء صباح جميل من أيام آب، بينما أخذ قرع الأجراس

يتبدد بهدوء. توقفت إحدى العربات على جانب الطريق بالقرب منه فأسرع السائق ذو «القلشين» المصنوع من القنب وهو مبهور الأنفاس فوضع حجاراً تحت العجلات الخلفية وأصلح عدة جواده.

وكان أحد الجرحى، وهو جندي هرم يحمل ذراعه إلى عنقه، يتبع العربة مشياً على قدميه تشبث بها بيده السليمة والتفت إلى پيار يسأله:

ـ قل لي: أيها المواطن، هل تعلم ما إذا كانوا سيتركوننا هنا أم سيحملوننا إلى موسكو؟

وكان پيار مستغرقاً في أفكاره حتى أنه لم يفهم السؤال. كان يتأمل فرقة الخيالة التي وصلت إلى مكان القافلة تارة وطوراً العربة القريبة منه حيث جلس فيها جريحان واستلقى ثالث. وكان يخيل إليه أن هؤلاء الحقيرين سيقدّمون له حل المسألة التي تشغله. كان أحد الاثنين الجالسين معصوب الرأس كله بالخرق وفمه وأنفه معوجين وقد أصبح أحد خديه المنتفخ ولا شك من أثر جرح، في حجم رأس طفل صغير. وكان يرسم على صدره إشارة الصليب وهو شاخص بعينيه إلى الكنيسة. أما الثاني، وهو مستفر شاب ممتقع الوجه، أشقر الشعر، يبدو وكأنه فقد آخر قطرة من الدم في وجهه الدقيق، راح يتأمل پيار وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة. بينما كان الثالث مستلقياً على بطنه لا يمكن تمييز معالم وجهه. وبلغ المغنون الفرسان مكان تلك العربة بالذات وهم يضجون بأغنية راقصة يستسيغها الجنود، كانت بعض عباراتها واضحة:

ـ آه! آه! أيتها الكتلة الشائكة.. تدحرجي، تدحرجي وتدحرجي. عبر الجبال والسهول.

بينماراح قرع الأجراس، وكأنه يريد أن يرجع الصدى ولكن على نمط

بهيج آخر، يبعثر في السماء أنغامه المعدنية. وجاءت الشمس تضيف عاملاً ثالثاً من البهجة إلى المشهد بأن أخذت تصب أشعتها الدافئة على المرتفع الآخر على جانب الطريق. ولكن الجو في الجانب الذي وقف فيه پيار قرب عربة الجرحى والحصان المنهوك، كان معتماً وحزيناً.

ألقى الجندي ذو الوجنة المنتفخة على المغنين نظرة غاضبة وغمغم:

ـ يا لطغمة خالقي البلبال!

وقال الجندي العجوز الواقف وراء العربة وعلى شفتيه ابتسامة نادبة: في هذه الساعة لا يكفي الجنود بل إنهم يأخذون كذلك أبناء الأرض. لا تمييز في الوقت الحاضر. يجب أن يشترك كل الناس في الأمر. ماذا! إن موسكو كلها تمر. يجب الانتهاء من هذا الأمر.

وعلى الرغم من عدم الوضوح في هذه الكلمات، فإن پيار فهمها كلها وأيدها بإشارة من رأسه.

ثم أصبح الطريق حراً. فلما وصل پيار إلى أسفل المنحدر، رجع إلى عربته يستقلها وتابع الطريق. كان يدير نظره فيما حوله باحثاً عن وجوه يعرفها، لكنه لم يكن يرى غير عسكريين من مختلف الأسلحة لا يعرفهم وكلهم يبدي دهشته لقبعته البيضاء وثوبه الأخضر.

وبعد أن اجتاز ميلاً، وجد أخيراً شخصاً يعرفه فصاح يناديه بابتهاج. كان أحد رؤساء الأطباء في الجيش يرافقه طبيب شاب. وكانت عربته الصغيرة قادمة في الاتجاه المضاد لوجهة عربة پيار. ولما عرف پيار، أشار إلى القوقازي الذي يقوم بدور الحوذي أن يقف.

ـ كيف، هذا أنت يا كونت! ماذا تفعل سعادتك هنا؟

ـ لقد استبدت بي رغبة معاينة..

ـ آه! نعم، سيكون هناك ما يرى..

ترجّل پيار من عربته وعبر له عن رغبته في حضور المعركة فأشار عليه الطبيب أن يتصل «بعظيم الرفعة» مباشرة. قال وهو يتبادل نظرة مع زميله الشاب: الله يعلم أين يمكنك أن تجد لنفسك مكاناً خلال المعركة إذا كنت غير معروف. إن «عظيم الرفعة» أقله يعرفك وسيستقبلك بحسن التفات. نعم يا عزيزي، هذا ما يجب أن تفعل.

كان الطبيب بادي التعب مستعجلاً. سأله پيار:

ـ آه! أتظن.. ولكن قل لي، أين موقعنا؟

ـ الموقع؟ هذا ليس من اختصاصي. عندما تجتاز تاتارينوڤو، سترى أنهم يحفرون هناك مساحة كبيرة من الأرض. اصعد على التل ومن هناك يمكنك أن ترى..

ـ آه! حقاً.. لو أنك..

لكن الطبيب كان قد رجع إلى عربته. قال وهو يشير إلى حنجرته:

ـ كنت سأرافقك عن طيب خاطر، لكنني كما ترى ملآن إلى هنا. إنني ذاهب لدى قائد الوحدة. هل تعرف كيف تسير الأمور يا كونت؟ غداً سندخل في معركة. ويجب أن نحصي أقله عشرين ألف جريح على مائة ألف محارب. وليس لدينا نقالات ولا أسرّة ميدان ولا ممرضون ولا أطباء حتى لستة آلاف جندي. صحيح أن لدينا عشرة آلاف عربة. لكننا في حاجة إلى أشياء أخرى وينبغي أن نتدبر الأمر!

لم تلبث أن طافت بذهن پيار فكرة غريبة: بين هذه الألوف من الرجال الأحياء الأصحاء الشبان والكهول الذين يمرون أمامه الآن ويتأملون قبعته

البيضاء باستغراب فيه تسلية، عشرون ألفاً نذروا لاحتمال الآلام والموت، لعلهم هؤلاء أنفسهم الذين يشاهدهم الآن.

«قد يموتون غداً فكيف يمكنهم التفكير في شيء آخر غير الموت؟» وفجأة، تمثل بنتيجة اتحاد غامض بين الأفكار، منحدر موجاييسك والعربات المحملة بالجرحى وصوت الأجراس وأشعة الشمس المنحرفة وأنشودة الفرسان. فراح يقول في سرّه وهو يتابع طريقه نحو تاتارينوڤو: «إن هؤلاء الفرسان الذين ينطلقون إلى المعركة، يقابلون الجرحى ويتبادلون وإياهم غمزات بعيونهم دون أن يفكروا لحظة واحدة في ما ينتظرهم. وبين كل هؤلاء الناس، عشرون ألفاً قدر أن يتعرضوا للموت مع ذلك، فإن قبعتي تسليهم! هذا غريب!

وعلى يسار الطريق، بالقرب من منزل أحد السادة، عربات نقل وعربات ركاب وجماعة من الخفراء والأتباع. إنه مقام عظيم الرفعة. لكن هذا كان متغيباً في الساعة التي وصل فيها پيار كما كان معظم أفراد هيئة الأركان متغيبين. كانوا جميعاً في القداس المقام لذلك فقد استمر پيار باتجاه غوركي.

وعندما دخلت عربته شارع القرية الصغير بعد أن صعدت مرتفعات، شاهد لأول مرة قرويين متطوعين في ستراتهم البيضاء يحملون صلباناً على قلانسهم وهم يضحكون ويتكلمون بأصوات مرتفعة في حميّة تنضح أجسادهم بالعرق ويشتغلون على تل كبير إلى يمين الطريق اكتسحته الأعشاب الطفيلية.

وعندما رأى پيار هؤلاء القرويين منكبين على أداء عمل غير مألوف لديهم، تذكر جرحى موجاييسك ففهم معنى كلمات الجندي العجوز العميقة:

«يجب أن يتدخل كل الناس في الأمر». لقد أوحى هؤلاء الرجال الملتحين كلهم الذين يشتغلون في ساحة المعركة ويلفتون الأنظار بأحذيتهم الغريبة وأقذالهم السابحة في العرق وستراتهم تلك المفتوحة من الجانب التي تترك للعين فرصة مشاهدة تراق عظيمة ملوحة، أوحى إلى پيار أكثر من أية مرة سبقت، بأنه استطاع مراقبة وسماع خطورة الساعة الحاضرة وجلالها.

الفصل الحادي والعشرون

في الساعة الحادية عشرة صباحاً، نزل پيار من العربة وسار بين المتطوعين الدائبين في العمل وصعد التل الذي يشاهد المرء من أعلاه ساحة المعركة حسب قول الطبيب الرئيس، وكانت الشمس، التي وراء پيار تضيء في جو نقي نادر المشهد الذي تبدّى أمام عينيه على شكل حلبة.

كان طريق سمولنسك الكبير، يقطع متعرجاً هذه الحلبة إلى اليسار وهو يرتفع عبر قرية صغيرة ذات كنيسة بيضاء، تقع على مسافة خمسمائة خطوة إلى الأمام في مستوى أدنى من التل هي قرية بورودينو. وكان الطريق يمر هناك عبر جسر وفي سلسلة من المرتفعات والمنخفضات باتجاه مركز فالوبيغو الذي يحتله ناپليون والذي يراه الناظر على بعد ميل ونصف الميل من هناك. وبعد ذلك يختفي الطريق في غابة مصفرة. وفي تلك الغابة من أشجار السندر والصنوبر، إلى يمين الاتجاه الذي يسير الطريق فيه، كانت الشمس تلتمع فوق قبة جرس دير كولوتشا وصليبه. وإلى أبعد من ذلك، على يمين الغابة والطريق ويسارهم، في البعد الضارب إلى الزرقة، ظهرت هنا وهناك نيران المعسكرات ثم الكتل غير الواضحة لقطعاتنا وقطعات العدو. وإلى اليمين، على طول كولوتشا وموسكوڤا، كانت الوديان تحتل الأرض وبينها علامات قريتي بيزوبوڤو وزاخارينو أما إلى اليسار، فكانت الأرض أكثر استواء فكانت تظهر للعيان حقول القمح وبقايا قرية سيميونوڤسكوي المحترقة.

كان كل ما يراه پيار من الإبهام حتى أن ما من شيء في اليمين أو اليسار

كان يجيب تماماً عما كان يتوقع. فبدلاً من ساحة المعركة التي كان يتوقع أن يرى، لم يجد غير البراري والمزارع والقطعات والغابات ونيران المعسكرات والقرى والتلال والأنهار. وعلى الرغم من الانتباه الشديد الذي صرفه، فلم يتوصَّل إلى معرفة الموقع ولا حتى أن يميز قطعاتنا من قطعات العدو.

حدث نفسه قائلاً: «يجب السؤال من شخص مختص» ثم اتجه نحو ضابط كان يتأمل بفضول جسمه الضخم قليل الشبه بالأجسام العسكرية وقال له: هل أستطيع أن أسألك عن اسم هذه القرية هناك، قبالتنا؟

أجاب الضابط وهو يلتفت نحو زميله: بوردينو أليس كذلك.

فصحح الزميل: بل بورودينو.

اقترب الضابط الذي بدا شديد الغبطة بالثرثرة. فسأله پيار:

ـ هل هم رجالنا، هناك؟

ـ نعم. وهناك، إلى الوراء، الفرنسيون. هناك، هل ترى؟

ـ أين؟

ـ ولكن يمكن رؤيتهم بسهولة بالعين المجردة. هنا، أنظر.

أشار الضابط إلى الدخان المتصاعد عن اليسار عبر النهر، وقد اتسم وجهه بالقلق الصارم الذي لاحظه پيار على وجوه الآخرين كلهم.

سأل پيار وهو يشير إلى تل إلى اليسار كانت ترى حوله قطعات من الجنود: آه! هؤلاء هم الفرنسيون! وهنا؟

ـ إنهم جماعتنا.

ـ آه! جماعتنا! وهنا؟

وأشار إلى هضبة أبعد، تتوجها شجرة كبيرة، غير بعيدة عن قرية منزوية في منحدر من الأرض، كان الناظر يرى إلى جانب نيران المعسكر المدخنة شيئاً ما أسود اللون. ذلك هو حصن شيڤاردينو.

ـ هناك؟ إنه «هو» أيضاً. لقد كنا يوم أمس هناك واليوم أصبحت له «هو».

ـ إذن أين مواقعنا؟

فقال الضابط بابتسامة راضية:

ـ مواقعنا؟ إنني أستطيع أن أصفها لك وصف العارف لأنني أنا الذي أشرفت على تحضير كل الخنادق والمتاريس. إنّ وسطنا كما ترى في بورودينو هنا ـ وأشار إلى القرية ذات الكنيسة البيضاء الماثلة أمامهم مباشرة. ـ وهنا يوجد ممركولوتشا، أنظر إلى هناك، حيث تقوم صفوف من الحشيش المرزوم، إن الجسر قريب من هناك، إنه وسطنا. وجناحنا الأيمن هذا هو ـ وأشار إلى أخدود متعرج منحدر عند أقصى اليمين. ـ إنه الموسكوڤا يسيل هناك ولقد أقمنا ثلاثة حصون منيعة قوية جداً. أما جناحنا الأيسر.. فمن الصعب تفسيره.. لكننا سحبنا الجناح الأيسر إلى الوراء. والآن، أنظر هنا، إلى القرية والدخان، إنها سيميونوڤسكوي.. ثم هنا، ـ وأشار إلى هضبة رايـڤسكي.. مع ذلك، إن من المشكوك فيه أن تنشب المعركة هنا. لقد أمرّ «هو» قواته من هنا. لكنها خدعة. سوف «يقوم» بدون شك بحركة التفاف إلى يمين موسكوڤا.. على كل حال، فإن عدداً كبيراً لن يحضر نداء التفقد غداً!

قاطعه صف ضابط عجوز كان قد اقترب أثناء الحديث وراح يصغي بصمت وقد ساءته بلا شك ملاحظة رئيسية حول ذلك الموضوع. قال له بلهجة خشنة: ينبغي لنا بعض القفف.

بدا الضابط مضطرباً وكأنه عرف أن من الممكن للجنود التفكير في أن عدداً كبيراً من الزملاء لن يحضروا نداء الغد ولكن ليس من اللائق التحدث عن هذا الأمر فأجاب متعجلاً: حسناً، أرسل السرية الثالثة أيضاً.

ثم التفت إلى پيار فقال:

ـ ولكن أنت، من أنت؟ طبيب بلا شك؟

ـ كلا. إنني هنا هكذا.

وعندما نزل پيار مرّ مجدداً وسط المتطوعين وكان الطبيب يتبعه بخطوات واسعة. قال هذا وهو يسد منخريه:

ـ آه! يا للأقذار!

وقالت أصوات كثيرة:

ـ ها هم أولاء!.. إنهم يحملونها، إنهم آتون.. ها هم أولاء..

ولم يلبث أن اندفع الضباط والجنود والمتطوعون إلى الطريق.

كان موكب يصعد الهضبة خارجاً من بورودينو وعلى رأسه يتقدم لواء من المشاة حاسر الرأس مخفوض السلاح فوق الطريق الغبراء. ومن وراء الجنود تعالت تراتيل كنائسية.

أسرع الجنود المتطوعون وقد رفعوا قبعاتهم وتخطوا پيار لاستقبال القادمين.

لقد جاؤوا بها، بالأم الطيبة! حاميتنا!.. عذراء إيبيريا «نوتردام ديبري».

فصحح آخر: كلا، بل عذراء سمولنسك.

وألقى المتطوعون، الذين كانوا في القرية والذين كانوا يعملون في إعداد «بطارية» المدفعية، المعاول من أيديهم وذهبوا لاستقبال الموكب الديني، وكانت الهيئة الدينية في حلل القداس تتقدم وراء لواء المشاة: كاهن عجوز وعلى رأسه كمّه وحوله فريق من الشمامسة والمرتلين، وفي أعقاب هؤلاء كان عدد من الضباط والجنود يحملون أيقونة كبيرة ذات وجه مسود في زينتها المعدنية الخاصة، وكانت هذه الأيقونة هي التي حملوها من سمولنسك استمرت منذ ذلك الحين تتبع الجيش في تنقله، ومن الوراء والأمام وعلى الجانبين، راح عدد كبير من العسكريين يمشي أو يجري والرجال حاسرو الرؤوس يخشعون.

توقفت الأيقونة عند قمة التل وتناوب الأشخاص الذين كانوا يحملونها بقطع من القماش وأعاد حاملو المباخر إشعال مباخرهم وبدأ القداس، كانت أشعة الشمس تسقط عمودية ونسمة خفيفة تتلاعب بشعر الأيقونة والأشرطة التي تزينها تتصاعد وتضيع في السماء. وتكأكأ حشد هائل من الضباط والجنود والمتطوعين حول المكان وشغل الضباط الكبار فراغاً خصص لهم وراء رجال الدين.

كان الجنرال أصلع يطوق عنقه بربطة القديس جورج واقفاً وراء الكاهن مباشرة ينتظر بفارغ صبر دون أن يرسم إشارة الصليب على صدره، ولا بد أنه ألماني، انتهاء الصلوات التي كان يعتقد أنه مرغم على حضورها لأنها تغذي الحمية الوطنية في نفوس الشعب الروسي، وجنرال آخر وقف بتجبّر وقفة عسكرية كان لا يفتأ يرسم على صدره إشارات الصليب وهو يجيل عينيه يمنة ويسرة ولقد عرف پيار الذي اختلط بالقرويين عدداً من معارفه بين أولئك الشخصيات الكبيرة لكنه لم ينظر إليها لأن انتباهه كله كان محتكراً في معاينة وجوه الجنود الصارمة الذين كانت عيونهم تلتهم الأيقونة بلهفة وكلف. ولما شرع المرتلون الذين بلغوا فرضهم العشرين في ترديد التضرّع: «أيتها القديسة أم الله، أنقذي خدامك من البلاء» بصوت متعب كامد واستأنف الكاهن والشماس: «لأنه تبعاً للتعاليم السماوية، نلجأ كلنا إلى شفاعتك ونعتمد عليك كما نعتمد على جدار لا يتزعزع» لاحظ پيار على كل الوجوه ذلك الشعور برهبة الساعة الذي لاحظه عند منحدر موجاييسك وفي مناسبات كثيرة خلال رحلته. انحنت الرؤوس بخشوع وتناهت الزفرات إلى الأسماع وإيقاع الأصابع وهي ترسم إشارات الصليب على الصدور.

تفرّق الحشد الذي كان متكاثفاً حول الأيقونة فجأة فاندفع پيار إلى

الوراء مع الحركة. ولقد دلت هذه العجلة في الانتظام في صفوف على وصول شخصية رفيعة المقام.

كان كوتوزوف هو القادم ليتفقد الموقع ويعود إلى تاتارينوڤو. ولقد عرفه پيار من شكله البارز.

كان جسمه الضخم ملفوفاً في قميص طويل يظهر منه ظهره المحدودب وقد بدا رأسه الأبيض الحاسر وعينه المطفأة الفارقة في وجه رهل. تقدم بمشيته المتأرجحة وتوقف وراء الكاهن مباشرة ثم رسم إشارة الصليب بحركة آلية ولمس الأرض بيده وبعد أن أطلق زفرة عميقة حنى رأسه المجرد من الشعر. وكان بينيغسن وحاشيته يتقدمون من ورائه. لم يلبث حضور القائد الأعلى أن احتكر عناية كبار الضباط لكن المتطوعين والجنود لبثوا مستغرقين في صلاتهم دون أن يعيروه التفاتة.

وعندما انتهى القداس، اقترب كوتوزوف من الأيقونة وتهاوى على ركبتيه ثم سجد حتى بلغ الأرض وظل طويلاً دون أن يستطيع النهوض بسبب ثقل وزنه وضعفه حتى تقلص وجهه من الجهد. أخيراً وقف وقرّب شفتيه بصورة ساذج طفولي وطبع قبلة على الصورة ثم انحنى مجدداً ولمس الأرض بيده فاقتدى به الجنرالات كلهم ثم الضباط ومن بعدهم الجنود فالمتطوعون وهم يتدافعون ويتناحرون لاهثي الأنفاس يعلو التأثر وجوههم.

الفصل الثاني والعشرون

أيها الكونت پيار كيرلليتش! أنت هنا! قال أحد الأصوات، بينما أخذت الجماهير تسوقه من جهة إلى أخرى، وراح پيار يلقي نظرات حوله.

التفت پيار فإذا ببوريس دروپتسكوي يتقدم نحوه مبتسماً وهو ينفض الغبار عن ركبتيه اللتين اتسختا بدون شك بسبب ركوعه على الأرض أمام الأيقونة. كان يبدو في أناقة مدققة مرتدياً مثل بيزوخوف سترة طويلة ويمسك سوطاً.

كان الجنرال القائد الأعلى في تلك الأثناء قد بلغ القرية وجلس في ظلال أقرب منزل على مقعد جاء به قوقازي راكضاً وغطاه آخر بنجد. وكانت حاشية مرموقة كثيرة العدد تحيط به.

عاد الموكب الديني إلى المسير بينما توقف پيار على بعد ثلاثين خطوة من كوتوزوڤ يتحدث مع بوريس شارحاً له رغبته في حضور المعركة وتفقّد الموقع فقال له هذا.

ـ حسناً! هذا ما سوف تفعله. سوف أقدم لك حفاوات المعسكر. لا شك أن أفضل مكان لمعاينة المعركة هو حيث يقف الآن بينيغسن. إنني ملحق بشخصه وسوف أخطره. وإذا كنت ترغب في تفقد الموقف فما عليك إلا أن تتبعنا لأننا ذاهبون الآن لتفقد الجناح الأيسر. ولدى عودتنا سوف تسمح لي بأن أستضيفك هذه الليلة وسوف نمضي سهرة طيبة. إنك تعرف دميتري سيرغييتش؟ ها هو ذا منزله.

وأشار إلى المنزل الثالث من غوركي. قال پيار:

لكنني كنت أفضل زيارة الجناح الأيمن الذي يزعمون أنه حصين جداً ولكم أودّ الطواف بالموقع اعتباراً من موسكوڤا.

ـ يمكنك أن تقوم بذلك فيما بعد لكن النقطة الرئيسة هي الجناح الأيسر.

ـ نعم، نعم. ثم ألا تستطيع أن تدلني على الفيلق الذي فيه الأمير پولكونسكي؟

ـ فيلق أندريه نيكولاييـڤيتش؟ سوف نمر أمامه وسأقودك إليه؟

حسناً. وماذا كنت تريد أن تقول عن الجناح الأيسر؟

استطرد بوريس وهو يخفض صوته بلهجة من يودع سراً:

ـ في الحقيقة، وهذا بيننا، إن هذا الجناح الأيسر في حالة موقتة أكثر منها ثابتة، الأمر الذي لم يكن الكونت بينيغسن يرغب فيه مطلقاً. كان يريد أن يحصن هذا التل هناك على شكل آخر مختلف، وأضاف وهو يهز كتفيه، غير أن «عظيم الرفعة» لم يرض أم أنهم أثروا عليه. ذلك لأن..

لكن بوريس لم يتمم سرد فكرته لأن كاييساروڤ، أحد مساعدي كوتوزوڤ العسكريين اقترب من پيار في تلك اللحظة فاستطرد بوريس بضحكة مرحة وجهها إلى القادم الجديد.

آه! ياباييسي سيرغييتش، إنني كما ترى أحاول أن أشرح الموقف للكونت. يا لبراعة «عظيم الرفعة» في تخمين نيات الفرنسيين! إنه لأمر رائع!

سأل كاييساروڤ:

ـ إنك تتحدث عن الجناح الأيسر؟

ـ نعم، بالضبط. إن جناحنا الأيسر الآن قوي جداً جداً.

على الرغم من أن كوتوزوڤ صرف من الأركان العامة كل الذين لا نفع فيهم، فإن بوريس استطاع أن يحتفظ بمركزه في المقر الرئيسي بالالتحاق إلى

حاشية الكونت بينيغسن. وكان هذا كالآخرين يعتقد أن له في دروپتسكوي الشاب مساعداً ثميناً.

كانت القيادة العليا تنقسم إلى قسمين: جانب كوتوزوف وجانب بينيغسن رئيس الأركان. وكان بوريس منتمياً إلى هذا الجانب الأخير يوحي إلى سامعيه رغم إبدائه احترام الخادم للمخدوم لكوتوزوف بأن العجوز لا يساوي شيئاً وأن بينيغسن هو الذي يسيّر دفة كل شيء. وكانت اللحظة الحاسمة تقترب فإذا ضاعت المعركة نُحّي كوتوزوف ووجب تسليم منصبه إلى بينيغسن. أما إذا رُبحت المعركة. فإنهم سوف يتدبرون الأمر على العكس ليجعلوا شرف النصر يعود إلى بينيغسن. على أية حال، فإنّ نهار غد سيؤدي إلى توزيع المكافآت على نطاق واسع كما سيؤدي في المرحلة الأولى إلى مجيء رجال جدد. ذلك كان السبب الذي جعل بوريس ذلك اليوم في هرج ومرج شديدين.

جاء بعد كاييساروف عدد آخر من معارف پيار فأحاطوا به حتى أنه بات يجد صعوبة في الإجابة عن كل الأسئلة التي راحوا يوجهونها إليه عن موسكو، وفي تتبع كل الأقاصيص التي أخذوا يروونها على مسامعه. وكانت الوجوه كلها متأثرة وبالغة ذروة الانفعال ولكن خيل إلى پيار أن كل ذلك التهيج إنما يرتكز على أسس أقامتها المصلحة الشخصية، فلم يستطع إلا أن يقارنه بذلك الذي قرأه على وجوه أخرى والذي نجم غن مسألة كلية مختلفة، مسألة الحياة أو الموت. ولاحظ كوتوزوف شخص پيار الضخم والزمرة التي تحيط به فقال آمراً: قولوا له أن يأتي إلي!

وحمل مساعد عسكري رغبة «عظيم الرفعة» إلى پيار فتوجه هذا نحو مقعد الجنرال. لكن جندياً من المتطوعين سبقه وكان ذلك الجندي هو دولوخوف. سأل پيار: كيف جاء هذا إلى هنا؟

فأجابه بعضهم:

ـ أوه! إنه شاطر يعرف كيف يتسلل في كل مكان. لقد كسرت رتبته مجدداً وهو يرغب الآن في أن يسترد مركزه. ولقد قدم عدداً من المشاريع المختلفة وقام بغارة ليلية على خطوط العدو.. لا مجال للنقض، إنه فتى باسل!

رفع پيار قبعته وانحنى باحترام أمام كوتوزوف. وكان دولوخوف في تلك اللحظة يقول:

ـ ولقد فكرت أنني إذا خاطبت سموكم، فإن أسوأ ما يمكن أن يقع لي هو أن ترفضوا الإصغاء إليّ أو أن تقولوا إنكم عارفون كل هذا مثل ما أعرفه..

ـ حسناً، حسناً...

ـ وإذا كنتم سموكم في حاجة إلى رجل لا يخشى تعريض نفسه للخطر، فلتتفضلوا بتذكر اسمي.. علني أكون مفيداً لسموكم..

فكرر كوتوزوف وقد وقعت عينه الضحاكة على پيار:

ـ حسناً..

خلال ذلك، كان بوريس، ببراعته ولباقته، قد استطاع أن يجعل نفسه ملازماً لـپيار، إلى جوار الرئيس الأكبر مباشرة، فقال بلهجة طبيعية جداً لا يتطرق إليها الشك، يخاطب بيزوخوف وكأنه ينهي حديثاً بدأ بينهما:

ـ لقد ارتدى المتطوعون قمصاناً جديدة بيضاء ليستعدوا للموت. يا لها من بطولة يا كونت!

وكان يشك في أن لا توقظ هذه الكلمات انتباه كوتوزوف. والواقع أن هذا لم يلبث أن سأله:

ـ ماذا تقول عن المتطوعين؟

ـ لقد ارتدوا يا صاحب السمو قمصاناً بيضاء استعداداً ليوم غد، للموت.

فقال كوتوزوف:

ـ آه! يا له من شعب رائع، يا له من شعب لا يبارى!

وأغمض عينيه وهز رأسه وأطلق تنهّدة وردد:

ـ نعم، يا له من شعب لا يبارى!

ثم خاطب پيار سائلاً:

ـ إذن، إنك تريد أن تستنشق رائحة البارود؟ نعم، إنها رائحة جميلة. لي الشرف أن أكون أحد المعجبين بالسيدة زوجتك. كيف حالها؟ إن معسكري رهن أمرك.

وكما يحدث عادة للأشخاص المسنين، أدار كوتوزوف حوله نظرة ساهمة وكأنه لم يعد يذكر ما كان يريد أن يقول أو أن يعمل. ثم استدعى بإشارة سيرغييتش كاييساروف أخا مساعده العسكري وقال له وكأنه استعاد حبل تفكيره:

ـ ذكرني بأبيات مارين، إنك تعرف ماذا كتب عن جيراكوف: «سوف تلقن سرايا الجدد دروساً...» هيا، هيا..

وكان إلحاحه يظهر استعداده الواضح لإدخال بعض المرح على نفسه. فراح كاييساروف يتلو الأبيات عليه وهو، كوتوزوف، يضبط الإيقاع بهزات رأسه.

وبينما بدأ پيار ينسحب، استوقفه دولوخوف من ذراعه وقال له بصوت مرتفع يحمل طابع تمجيد خاص، غير مبال بوجود غرباء:

ـ يفتنني أن ألقاك هنا، عشية يوم لا يعلم إلا الله الذين سوف يبقون على قيد الحياة بيننا. وإنني سعيد إذ أقول لك إنني آسف لسوء التفاهم القديم وإنني أرغب في ألّا يكون في نفسك شيء من الضغينة ضدي. تفضل بالصفح عني.

نظر إليه پيار وابتسم دون أن يعرف كيف يجيب، بينما ضمه دولوخوف إلى قلبه والدموع تتلألأ في عينيه.

والتفت الكونت بينيغسن نحو پيار بعد أن حدثه بوريس ببضع كلمات ودعاه إلى مرافقته في جولته التفتيشية قال له:

ـ سوف يثير ذلك اهتمامك.

فأجاب پيار:

ـ نعم بدون شك.

وفي غضون نصف ساعة، عاد كوتوزوف إلى تاتارينوڤو، بينما توجه بينيغسن وحاشيته، ومعهم پيار، نحو خطوط القتال.

الفصل الثالث والعشرون

بعد أن اجتازوا الجسر وقرية بورودينو، وقد كان بينيغسن نزل من غوركي على الطريق الرئيسية حتى وصل إلى ذلك الجسر الذي دلّ الضابط پيار عليه من فوق التل مشيراً إلى أنه «وسط» الموقع، والذي انتشرت بقربه رزمة من الحشيش العطر. هناك استداروا إلى اليسار ومروا بحشد كبير من الجنود والمدافع فعرضت لأنظارهم ربوة كان المتطوعون يقلبون أرضها. تلك كانت الحصن الذي عرف فيما بعد باسم «حصن راييـڤسكي» أو «بطارية التل».

لم يعلق پيار عليها إلا اهتماماً عابراً لأنه لم يكن يعتقد أن ذلك الحصن سيصبح بالنسبة إليه المكان الذي يستحق الذكر أكثر من أي موقع آخر من ساحة المعركة. وبعد أن عبروا خوراً، بلغوا قرية سيمينوڤسكوي حيث كان الجنود يحملون آخر أخشاب الأكواخ والمكادس. وأخيراً، وبعد سلسلة من المرتفعات والمنخفضات، عبر حقول من الشيلم الذي حطمه البرد، وصلوا إلى طريق شقّته المدفعية بين أخاديد حقل محروث ومنه وصلوا إلى الخنادق التي كانوا يقومون بحفرها.

وعندما وصلوا إلى هناك، رفع بينيغسن عينيه قبالته نحو حصن شيـڤاردينو الذي كان حتى الأمس في أيدينا والذي كان يرى حوله بعض الفرسان. ولقد زعم بعض الضباط أن واحداً من أولئك الفرسان كان ولا ريب ناپليون أو مورا. فراح الجميع ينظرون تلك الناحية بتعطش وراح پيار يسعى لمعرفة مَنْ

مِنْ أولئك الفرسان يمكن أن يكون ناپليون. لكن الجماعة ما لبثت أن تركت التل وضاعت عن متابعة الأنظار.

شرح بينيغسن لجنرال كان يقترب، في تلك اللحظة من موقع قطعاتنا بالتفصيل وراح پيار يصغي إليه جاهداً أن يتفهم موضوع المعركة المقبلة. لكنه لمس أن ذكاءه لا يبلغ هذا الحد لأنه لم يكن يفهم من الشرح شيئاً. وبينما بينيغسن ينهي درسه، لاحظ ما اعترى وجه پيار من أمارات وهو يصغي إليه فسأله فجأة:

ـ لن يثير هذا اهتمامك بدون شك؟

فاحتج پيار بقليل من الإخلاص: بل على العكس؟

اتجهوا إلى اليسار بعد موقع الاستحكامات عبر طريق متعرج يخترق غابة من أشجار السندر الصغيرة. وفي وسط تلك الغابة، انبعث أمامهم أرنب بري أشهب ذو قوائم بيضاء. ولقد روعه اقتراب كل هذا العدد من الجياد، ففقد صوابه وراح يعرقص طويلاً على الطريق مثيراً الضحك العام حتى أنه لم يعتزم أخيراً الدخول إلى الدغل إلا بعد أن صاحت عدة حناجر تفزعه. وبعد نصف ساعة، انتهوا إلى فسحة جرداء تشغلها وحدة توتشكوف التي عُهد إليها الدفاع عن أقصى الجناح الأيسر.

وهنا تحدث بينيغسن طويلاً وبحماسة ثم اتخذ إجراء خيل إلى پيار أنه ذو أهمية أولية. لقد كان قبالة وحدة توتشكوف تل أهملوا احتلاله، فانتقد بينيغسن هذا الخطأ بصوت مرتفع قائلاً إن من الجنون ترك نقطة تتحكم في المنطقة دون حماية وإنه يجب إقامة وحدات عند أسفل التل. ولقد أعرب بعض الجنرالات عن الرأي نفسه. بل إن أحدهم، أعرب بصراحة عسكرية صميمة أنهم أرسلوهم إلى المسلخ. فأمر بينيغسن من تلقاء نفسه باحتلال التل وغير مراكز القطعات.

لقد أقنع هذا التصرف بيار بعجزه عن تفهم الفن الحربي. تساءل وهو يشاطر بينيغسن وجنرالاته الرأي، كيف استطاع الذي أقام وحدة توتشكوف هنا، أن يرتكب مثل هذا الخطأ الفاحش.

كان يجهل أن تلك الوحدة لم تكن مهمتها حماية الموقع كما تصور بينيغسن، بل إنهم أخفوها هناك استعداداً لشرك أعد سلفاً بقصد مهاجمة العدو بغتة وهو في سيره. ولقد خضع بينيغسن وهو يبدل ذلك الموقع لوجهات نظر خاصة حاذر أن يطلع القائد الأعلى عليها.

الفصل الرابع والعشرون

ليلة الخامس والعشرين كان الأمير أندريه يستريح في مكدس خرب في قرية كينازكوڤو عند الطرف الأقصى من الجبهة التي يدافع لواؤه عنها. كان يتكئ على مرفقه ينظر خلال الحواجز المفككة إلى خط من السندر الثلاثيني ذي الأغصان المنخفضة المشذبة الذي يمتد على طول الحاجز وإلى حقل تناثرت فيه جرز العلف غيضة يتصاعد منها دخان المطابخ.

وعلى الرغم من أنه اعتقد بأنه شخص عديم الفائدة ولا يليق بالحياة، فقد شعر بالانفعال وشدة التأثر كشعوره عشية معركة أوسترليتز قبل سبعة أعوام.

لقد تلقى الأوامر المتعلقة بمعركة الغد ونقلها فلم يتبق له ما يعمله. لكن أكثر الأفكار بساطة وبالتالي أكثر إيلاماً، ما برحت تهاجمه. كان يعرف أن تلك المعركة ستكون أشد هولاً من كل المعارك التي خاضها لذلك فقد تمثلت له لأول مرة إمكانية الموت بكل وضوح وعلى شكلها المخيف، بحدة بل بالتأكيد. لم يعد يتساءل عن التأثير الذي يمكن أن يحدثه هذا العارض في الآخرين بل أصبح يتصوره على زاوية شخصية بحتة، كما لم يعد يفكر إلا في نفسه. وممّا بلغته أفكاره، استضاء كل ما كان يعذبه من قبل عذاباً مبرحاً بنور أبيض بارد دون ظلال ولا توقع ولا خطوط واضحة. أدرك أنه لم يتأمل حياته حتى ذلك الحين إلا على ضوء مصباح سحري وتحت إضاءة اصطناعية. أصبح يرى فجأة تلك اللوحات الملونة دون واسطة عدسة بل على ضوء النهار

الباهر. راح يحدث نفسه وهو يستعيد لوحات ذلك المصباح السحريّ الرئيسية التي راح ينظر إليها الآن على ضوء ذلك النور الأبيض البارد الذي تلقيه فكرة الموت المشرقة: «نعم، نعم. ها هو ذا ذلك السراب الخادع التي طالما هزني وأثارني وآلمني. ها هي ذي، هذه الصور الملونة بغلظة التي تبدو لي رائعة جداً وشديدة الغموض. المجد، الصالح العام، الحب، بل الوطن نفسه. كم كانت كل هذه الأشياء تبدو لي كبيرة ومليئة وذات معنى عميق! مع أنها كلها شديدة الشحوب، غليظة على الضوء الفاضح الذي يلقيه هذا الضجر الذي أشعر أنه يشرق علي!» ولقد كانت آلامه الثلاثة الكبرى تستنفد كل اهتمامه: حبّه، موت أبيه وغزو الفرنسيين الذين باتوا يحتلون نصف روسيا. وفجأة صاح بمرارة ساخرة: «الحب!.. تلك البنية التي كانت تبدو لي زاخرة بكثير من القوى المبهمة! وماذا! كنت أحبها، وأقيم أحلام حب شاعرية وأحلام سعادة..

يا للطفل الصغير! أي نعم! كنت تؤمن بلست أدري أي حب مثالي كان عليه أن يبقيها مخلصة لك طوال عام كامل من الغياب. كان عليها أن تضني نفسها بانتظار كحمامة القصة الحانية.. لكن كل شيء كان وللأسف أكثر بساطة!.. إن كل هذا بسيط بشكل مريع ومنفر!».

«كان أبي يبني في ليسيياغوري ويعتقد أن ذلك الركن يخصه وأن فيه أرضاً وهواء وقرويين له. لكن ناپليون جاء فجأة ودون أن يعرف أن أبي موجود، كنسه وكأنه حطام قش، هو وليسيياغوري. وماري تزعم أنه اختبار آتٍ من الأعلى! فلماذا هذا الاختبار إذن طالما أنه لم يعد حياً ولن يحيا أبداً؟ كلا، إنه لن يعود بعد اليوم أبداً. وإذن، لمن هذا الاختبار؟.. الوطن، خسارة موسكو! لكنهم غداً سيقتلونني. ولن يكون الفاعل فرنسياً بل سيكون واحداً من رجالنا، مثل ذلك الجندي الذي أطلق سراحه أمس قرب أذني.. سيأتي

الفرنسيون وسيحملونني من قدمي ورأسي ويلقونني في حفرة كي لا تؤذيهم رائحتي النتنة.. وستقوم شروط حياتية جديدة وستصبح طبيعية تماماً بالنسبة إلى آخرين كالنظم السابقة.. ولن أعرفها. إذن لن أكون على قيد الحياة».

راح يتأمل خط أشجار السندر وأوراقها الصفراء وقلافتها البيضاء التي تلتمع تحت أشعة الشمس. «الموت.. نعم، يمكن أن أقتل غداً.. أن لا أصبح من أهل الحياة.. وأن كل هذا موجود ولكنه بالنسبة إليّ انتهى، انتهى كل شيء». تمثل مشهد الحياة في سياقها الطبيعي بوضوح دون أن يساهم فيها. وأشجار السندر تلك بألوانها وظلالها، وتلك الغيوم الكثيفة ودخان المعسكرات ذاك، كل ذلك انقلب فجأة واتخذ أمام ناظريه شكلاً مخيفاً مهدداً فاقشعر بدنه، نهض فجأة وخرج وراح يذرع الأرض.

وفجأة دوت أصوات وراء الضفة فسأل الأمير أندريه: من هناك؟

دخل تيموخين، الضابط ذو الأنف الأحمر، القائد السابق لسرية دولوخوف الذي عين بسبب نقص الضباط قائد لواء، إلى المكدس خجلاً. وكان ضابط تابع والضابط المحاسب يتبعانه.

نهض أندريه متلهفاً وأصغى إلى تقرير مرؤوسيه ثم أنهى إليهم أوامره الأخيرة. كاد يصرفهم عندما تناهت إليه من الخارج نغمة صوت مألوف لديه. زمجر أحدهم وقد اصطدم بدون شك بحاجز ما: يا للشيطان!

فألقى أندريه نظرة على الخارج فعرف بيار. كان هذا يشتم خشبة اشتبكت قدمه بها. وكان أندريه لا يتوقع رؤية أشخاص من بيئته وعلى الخصوص بيار الذي يذكره بفترات إقامته الأخيرة في موسكو الأليمة. قال:

ـ آه! هذا أنت، أية مصادفة جاءت بك؟ لم أكن أتوقع رؤيتك.

كان في صوته وعينيه وفي كل أماراته برود وعداء شديدا الظهور حتى أن مزاج بيار المرح لم يستطع مقاومة هذا الاستقبال فشعر بشيء من الانزعاج.

غمغم پيار الذي استعمل خلال ذلك النهار كلمة «هام» عديمة المعنى مرات كثيرة: لقد جئت.. هكذا.. إنه شديد الأهمية.. أردت مشاهدة المعركة.

سأله پيار ساخراً: آه، حقاً! والإخوان الماسونيون، ماذا يقولون عن الحرب؟ هل استطاعوا منعها؟

ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

ـ وماذا يقولون في موسكو؟ هل وصل ذويّ؟

ـ نعم. لقد قالت لي جولي دروپتسكوي ذلك. ولقد ذهبت لرؤيتهم، لكنني لم أجدهم إذ كانوا قد ارتحلوا إلى بيتكم الريفي.

الفصل الخامس والعشرون

لم يكن أندريه يرغب في الانفراد مع صديقه، فاستبقى الضباط الذين أرادوا أن ينسحبوا ثم جيء بمقاعد وقُدم الشاي. أخذ الضباط يتأملون جسم پيار الضخم بدهشة ويصغون إلى ما يرويه عن موسكو والمواقع التي طاف بها. ولقد ظل أندريه متخذاً مظهراً فيه كثير من العناد حتى أن پيار أخذ يفضل مخاطبة تيموخين الفاضل وفجأة قاطعه أندريه:

ـ وإذن، لقد فهمت تنظيم القطعات جيداً؟

ـ نعم.. أو على الأصح، لما كنت غير مختص، فإنني لا أستطيع القول بأنني فهمته تماماً. لكنني استوعبت الخطوط العامة.

ـ إذن، إنك أكثر تقدماً من أي كان.

قال پيار وهو ينظر إليه خلال نظارتيه بذهول:

ـ كيف! إذن، ماذا تقول عن تعيين كوتوزوف؟

ـ لقد سرني تعيينه. هذا كل ما أستطيع قوله.

ـ وماذا تفكر في باركلي دوتوللي؟ الله يعلم ماذا قالوا عنه في موسكو. هيا، ما هو رأيك عنه؟

قال أندريه وهو يشير إلى الضباط:

ـ سل هؤلاء السادة.

وبمثل تلك الابتسامة الرحيمة التي تطوف على شفاه كل من ينظر إلى

تيموخين، نظر بيار إلى هذا فأجاب تيموخين بشيء من التردد وهو شاخص بأنظاره إلى زعيم فوجه:

ـ كما ترى سعادتك، لقد شاهدنا النور عندما اضطلع «عظيم الرفعة» بأعباء القيادة.

فسأله بيار:

ـ وكيف ذلك؟

ـ حسناً. لنأخذ مثلاً الحطب والعلف. عندما تراجعنا أمام سوينسياني، كان محظوراً لمس غمر من العلف أو قشة تبن. مع ذلك، لقد كان «هو» الذي سيستفيد منها ما دمنا سنرحل، أليس كذلك يا صاحب السعادة.

كانت العبارة الأخيرة موجهة إلى أميره. وتابع: لقد مثل ضابطان من فيلقنا أمام المحكمة لأسباب من هذا النوع. أما مع «عظيم الرفعة»، فقد أصبح كل شيء أكثر بساطة. لقد شهدنا النور.

ـ وإذن، لماذا حظر باركلي دوتوللي هذا العمل؟

أخذ تيموخين يدير عينيه مرتبكاً بهذا السؤال دون أن يجيب. فبادر الأمير أندريه إلى نجدته فقال بلهجة ساخرة مريرة:

ـ ولكن، لكي لا نتلف الأرض التي نسلمها للعدو. وأي شيء أكثر عدالة؟ لا يمكن السماح للجنود بنهب البلاد أو بالقيام بأعمال السلب. ولقد فكر تفكيراً صحيحاً في سمولنسك أيضاً عندما زعم أن العدو يمكن أن يلتف حولنا وأن قواته أكثر من قواتنا.

ـ وفجأة صاح بصوته الثاقب: مع ذلك، فإن ما لم يستطع فهمه، نعم، ما لم يستطع فهمه، هو أننا كنا في سمولنسك ندافع لأول مرة عن أرض روسية وأننا صددنا خلال يومين متعاقبين هجمات الفرنسيين، وأن مقاومتنا ضاعفت قوانا إلى عشرة أمثال. مع ذلك فقد أمر بالانسحاب فأصبحت مجهوداتنا كلها

وخسائرنا عديمة الجدوى. لا شك أنه لم يكن يفكر في الخيانة بل كان يعمل جاهداً لبلوغ أفضل النتائج ويزين كل الأشياء. لكنه من أجل ذلك بالذات لا يساوي شيئاً. إنه لا يساوي شيئاً، نعم، لأنه ككل ألماني جيد، يهتم كثيراً بكل الأمور. كيف أشرح لك؟... لنفرض أن لأبيك خادماً ألمانياً. إنه تابع ممتاز، يخمن رغبات أبيك وينفذها أفضل مما تستطيع أنت، فتترك له الحرية التامة في خدمته. ولكن إذا كان أبوك مشرفاً على الموت، فإنك حينئذ ستنحي ذلك الرجل وستعنى بأبيك بيديك عديمتَي المهارة والحذق وسترفه عنه أفضل مما يفعل غريب، مهما بلغ شأنه وهكذا تصرفوا مع باركلي دوتوللي. ما دامت روسيا على مايرام، كان يستطيع الأجنبي أن يخدمها وأن يقوم بدور وزير ممتاز. ولكن منذ أن أصبحت في خطر، بات من الضروري أن يكون فيها رجل من دمها. لقد زعموا في ناديك أنه خائن! ولسوف يخجلون ذات يوم من هذه الشتيمة وسيجعلون منه بطلاً أو عبقرياً، الأمر الذي سيكون أكثر إجحافاً. إنه ليس أكثر من ألماني شريف ومدقق.

اعترض بيار: يقولون إنه رجل حرب ماهر.

فأجاب أندريه بابتسامة ساخرة: أنا أجهل معنى هذا القول.

ـ إن رجل حرب ماهراً هو الذي يرى مسبقاً كل العرضيات... الذي يخمن نيات العدو.

فأجاب أندريه وكأن المسألة قد حُسمت منذ زمن بعيد:

ـ لكن هذا مستحيل.

نظر إليه بيار بدهشة وقال:

ـ مع ذلك فهم يزعمون أن الحرب تشبه شوط شطرنج.

فقال أندريه:

ـ نعم، مع ذلك الفرق الصغير التافه أن في الشطرنج يستطيع المرء أن

يفكر بعد كل حركة كما يريد إذ إن الوقت لا يلعب فيه أي دور، ومع ذلك الفرق أن «الفرس» أقوى دائماً من «البيدق» وأن «بيدقين» أقوى دائماً من بيدق واحد. بينما في الحرب، يكون اللواء أحياناً أقوى من فيلق كامل وأحياناً أضعف من سرية. ما من أحد يستطيع معرفة قوى القطعات النسبية، صدقاً أنه لو كانت النتائج تتوقف على الإجراءات المتخذة في قيادات الأركان، لاستمررت في القيادة العامة لإعطاء الأوامر. في حين أن لي شرف الخدمة هنا، في هذا الفوج مع هؤلاء السادة وأقدر أن نتيجة يوم غد تتوقف علينا.. إن النجاح لم يتوقف قط ولن يتوقف على الموقع ولا التسلح ولا حتى على العدد على أية حال، ليس على الموقع!

ـ وإذن على أي شيء؟

ـ على الشعور الذي في نفسي وفي نفسه ـ وأشار إلى تيموخين ـ وفي نفس كل جندي.

نظر الأمير أندريه إلى تيموخين الذي كان يحدّق إلى رئيسه بعينين مروعتين قلقتين. لقد بدا الأمير أندريه الآن مضطرباً وهو الذي كان متحفظاً من قبل. وكان واضحاً أنه عاجز عن كبت الأفكار التي هاجمته فجأة.

ـ إن هذا يكسب المعركة التي صمم بعزم أن يربحها. لماذا خسرنا معركة أوسترليتز؟ لم تكن خسائرنا تفوق خسائر الفرنسيين لكننا حدثنا نفسنا في وقت مبكر بأننا هزمنا فكنا كذلك. ولقد قلنا لأنفسنا ذلك لأننا لم نكن نرغب في القتال، كنا نريد مغادرة ساحة المعركة بأسرع ما يمكن. «لقد ضاعت المعركة فلم يبق إلا الفرار!» ثم فررنا. ولو أننا لم نعمد إلى هذه اللغة لكان الله يعلم بما كان سيقع. أما غداً فسيكون الأمر مختلفاً. إنك تتنبأ بأن جناحنا الأيسر ضعيف وأن جناحنا الأيمن طويل الامتداد. ترهات كل هذه! سوف تقع غداً ملايين وملايين من الحوادث العرضية تجعل رجالهم ورجالنا في

وقت ما يفرون، وتسبب في مقتل فلان أو فلان. ولكن بانتظار ذلك، كل ما صنع وأقيم ليس إلا لعبة. إن أولئك الذين زرت معهم الموقع، أبعد من أن يساعدوا على سير العمليات، يعملون على عرقلتها. إنهم لا يفكرون إلا في مصالحهم الشخصية التافهة.

قال پيار ساخطاً: في مثل هذه اللحظة؟

فاستأنف الأمير أندريه:

ـ نعم، في مثل هذه اللحظة. إن هذه اللحظة في نظرهم ليست إلا اللحظة المناسبة لنسف مركز خصم والحصول على صليب أو وشاح آخر. إليك، حسبما أرى، الموقف كما هو: سيتقاتل غداً جيش مؤلف من مائة ألف روسي ضد مائة ألف فرنسي. والجيش الذي سيكون أشد ضراوة وأقل اقتصاداً لمجهوداته، هو الذي سيربح المعركة. وإنني لأقول لك إنه مهما حدث، وعلى الرغم من مؤامرات الرؤساء، فإننا نحن الذين سننتصر. نعم «غداً» سنربح المعركة رغم وضد كل شيء.

تدخل تيموخين قائلاً:

ـ إنها الحقيقة يا صاحب السعادة. هل هذا وقت التحفظ؟ هل تصدق: قد رفض جنود لوائي شرب قطرة واحدة من الشراب. إنهم يقولون: ليس الوقت مناسباً.

ساد صمت رهيب، فنهض الضباط وتبعهم الأمير أندريه ليزودهم آخر تعليماته. وعندما انصرفوا، أراد پيار أن يستأنف البحث، لكن وقع حوافر جياد ثلاثة سمع على الطريق على مقربة من الضفة. نظر أندريه إلى تلك الجهة فإذا القادمون ڤولزوغن وكلوزويتز يرافقهما قوقازي. ولقد مروا قريباً جداً حتى أن الصديقين استطاعا التقاط نتف من حديثهما. كان أحدهما يقول بالألمانية:

ـ يجب أن تمتد رقعة الحرب، هذا رأي لا أستطيع إلا أن أؤيده.

والآخر يجيبه مؤيداً:

صحيح، إن الهدف هو إضعاف العدو. بينما لا تدخل خسائر الأفراد الخصوصيين في ميزان التقدير.

ـ بديهياً.

وعندما مر الرجلان، ردد الأمير أندريه في غضب متفجر:

ـ حقاً، ينبغي أن تمدد الرقعة! إن أبي وابني وأختي ظلوا ضمن هذا الامتداد بينما لا يهتم هذان السيدان بالموضوع. هذا ما كنت أقول لك: ليس هؤلاء الألمان الذين سيكسبون المعركة غداً. إنهم سيفسدون كل شيء، بقدر طاقتهم لأن رأسهم الضخم لا يستوعب إلا آراء لا أدفع دبوساً ثمناً لها. وليس في قلبهم شيء مما يجب من أجل الغد، شيء مما في قلب تيموخين. بعد أن «أعطوه» أوروبا كلها، أخذوا الآن يتدخلون لتلقيننا الدروس.

وأردف بصوت حاد: آه! يا للأساتذة الفاتنين الذين لدينا هنا!

سأل پيار:

ـ إنك تعتقد إذن أننا سنربح المعركة؟

ـ فأجاب أندريه ساهماً:

ـ نعم، نعم. على أية حال، لو أن الأمر لم يكن متوقفاً إلا عليّ، فإننا لن نأخذ أسرى. أسرى؟ إنه عمل من الفروسية لقد نهب الفرنسيون بيتي وهم مصممون على نهب موسكو. لقد أهانوني وما زالوا يهينونني كل لحظة. إنهم أعدائي، أرى فيهم جميعاً مجرمين يجب قتلهم. وما داموا أعدائي فلا يمكن أن يكونوا أصدقائي رغم كل محاضراتهم الجميلة في تيلسيت.

ـ قال پيار مؤيداً وقد التمعت عيناه:

ـ بالتأكيد. أنا من رأيك تماماً.

بدت المشكلة التي ما فتئت تشغل بال پيار منذ منحدر موجاييسك،

واضحة الآن وقد حُلت نهائياً، بات يفهم معنى هذه الحرب والمعركة المقبلة كاملاً، ولقد اتخذ كل ما رآه ذلك اليوم وما شاهده من وجوه صارمة متزنة أثناء مروره، ضوءاً جديداً أمام عينيه، فهم الحرارة «الكامنة» كما يقولون في الفيزياء، الوطنية أولئك الناس كلهم وأصبحت تشرح له الآن لماذا يستعدون جميعهم للموت بهدوء قريب من اللاشعور.

تابع الأمير أندريه:

ـ إن عدم أخذ أسرى معناه تحويل الحرب كلها وجعلها أقل قسوة، وبدلاً من ذلك، فإننا للأسف، نلعب لعبة الحرب! إننا نظهر كرمنا، وهذا الكرم، وهذا الإحساس، يذكرانني بإحساس ربة بيت صغيرة تشعر بالانزعاج أمام منظر عجل يذبح لأن قلبها الرقيق لا يسمح لها برؤية الدماء تسيل. لكنها تشبع معدتها راضية من لحم ذلك العجل بالذات المعد مع المرق الجيد، إنهم يبرزون قوانين الحرب، الإنسانية، الفروسية، احترام المفاوضين، إلخ.. ترهات كل هذه! لقد شهدت كل هذه الأشياء الجميلة عام ١٨٠٥ : لقد خدعونا وخدعنا، إنهم يسلمون منازلنا للسلب ويضعون قيد التداول أوراقاً نقدية زائفة ثم، وهذا هو الأسوأ، يقتلون أبي وأولادي ثم يأتون إلي بعد ذلك ليحدثوني عن قوانين الحرب والكرم تجاه العدو! كلا، لا يجب أخذ أسرى بل يجب قتلهم جميعاً والسير كذلك إلى الموت! إن ذلك الذي بلغ مثلي هذا الاعتقاد ماراً بما مرّ بي من آلام..

أراد الأمير أندريه أن يقول إنه سيان عنده احتلت موسكو أو لم تُحتل كما وقع لسمولنسك، لكن غصة اعتصرت حنجرته فخطا بضع خطوات صامتاً ثم عاد إلى بحثه محموم العينين مرتجف الشفتين:

ـ لولا هذا الكرم المزيف، لما كنا لنمشي إلا عندما يجب الذهاب إلى موت محقق كاليوم. ولن تكون هناك حروب بحجة أن پاڤل إيـڤانيتش قد أهان

ميخائيل إيـڤانيتش، وعندما تنشب حرب كحرب اليوم، فستكون حينئذ حرباً حقيقية، ولا شك أن عدد القطعات وتأثيرها سيكون أقل كثيراً مما هو عليه اليوم، لأن كل هؤلاء الهسيين[1] والويستفاليين الذين يجرهم ناپليون وراءه ما كانوا ليتبعوه إلى روسيا ولما ذهبنا نحن لنقاتل في بروسيا والنمسا دون أن نعرف السبب. أي محل للظرافة في الحرب؟ أليست الحرب أكثر ما في الوجود خزياً وعاراً؟ يجب أن يتذكرها المرء فحسب لا أن يجعل منها تسلية. إن هذه الضرورة المخيفة يجب أن تُتقبل بالرغبة الجدية، لنبعد كل كذبة: الحرب، إنها الحرب وليست ألعوبة، يجب ألّا يُجعل منها تسرية برسم العاطلين وذوي الأفكار الطائشة، أليست المهنة العسكرية معتبرة أنبل كل المهن؟

«مع ذلك، ما هي هذه المهنة؟ وكيف يحصل المرء فيها على النجاح؟ وأية عادات يألفها أولئك الذين يمتهنونها؟ إن غايتها هي القتل ووسائلها التجسس والخيانة والتشجيع على الخيانة ودمار السكان والنهب والسرقات التي تقع لتزويد الجيش والخداع والكذب المزينين باسم خداع الحرب، وعاداتها الاسترقاق المعمّد باسم الطاعة والبطالة والغلظة والقسوة والفجور والسكر، مع ذلك، فإن الطائفة العسكرية تترأس الطوائف الأخرى والناس كلهم يمجدونها، إن الملوك كلهم، باستثناء أمبراطور الصين، يرتدون البزة العسكرية ويعطون أسخى المكافآت وأرفعها للذي قتل عدداً أكبر من الناس.

أن يلتقي عشرات الألوف من الرجال، كما سيكون الحال غداً، ليجرح بعضهم بعضاً وليتقاتلوا ويشوهوا بعضهم بعضاً، فإن قداسات ستقام، قداسات غفران، لأنهم قتلوا كذا وكذا عدداً من الرجال الذي يزيدونه تباعاً على أية حال، مقدرين أنه كلما ازداد عدد القتلى، كان النصر أكثر روعة».

---

(١) اسم ولايات ثلاث في الاتحاد الجرماني. (المترجم).

وصاح أندريه بصوته النباح: «كيف يرى الله من عليائه هذا الأمر ويتقبل تلك الصلوات! آه يا عزيزي، لقد برمت في الحياة كثيراً في الآونة الأخيرة! لا شك أنني بدأت أفهم أشياء كثيرة، إنه ليس من المناسب للرجل أن يتذوق ثمار شجرة الخير والشر.. ثم إنه لن يتذوقها طويلاً على أية حال.. لكنني أراك نائماً؟ لا شك أن الوقت قد حان لأغفو قليلاً، عد إلى غوركي».

أجاب پيار وهو يلقي على أندريه نظرة مطبوعة بألم: آه، كلا!

ـ بل نعم، امض، لكي يقاتل المرء جيداً يجب أن ينام جيداً.

اقترب فجأة من پيار وعانقه بشدة وصاح:

ـ هيا، اذهب. الوداع، ترى هل نرى بعضنا أبداً؟

واستدار بسرعة ودخل المكدس، ولما كان الظلام قد حل، فإنّ پيار لم يستطع أن يميز وجه صديقه خلال فترة الوداع وهل كان حانياً أم صارماً، تردد بعض الوقت في اتخاذ قرار اللحاق به، لكنه قال لنفسه مصمماً: «كلا، إنه ليس في حاجة إلي، ثم إنني أعرف أن هذا آخر لقاء لنا». وأطلق تنهّدة عميقة وعاد إلى غوركي.

تمدّد أندريه، بعد أن دخل مكدسه، على «بطانية»، لكن النوم لم يجد إليه سبيلاً، لقد كانت الصور فوق الصور تحاصره فتوقف عند إحداها مبتسماً، كان يرى سهرة في پيترسبورغ وناتاشا تروي له باندفاع كيف ضاعت في الصيف الماضي في غابة كبيرة. بينما كانت تسعى وراء الفطر، كانت تصف له بحماسة الغابة العميقة والإحساسات التي اعتلجت في قلبها والحديث الذي دار بينها وبين أحد مربي النحل، وتبتر حديثها في كل لحظة لتقول له: «كلا، لا أحسن الرواية، فلا تستطيع إذن أن تفهمني». لكنه كان يطمئنها زاعماً أنه يفهمها فهماً كاملاً لأنه في واقع الحال كان يعرف ما ستقوله، وكانت ناتاشا تتحسر لأنها لا تستطيع الإعراب عن الانفعال الشاعري الذي استحوذ عليها ذلك اليوم،

وتقول بحميًّا ووجهها محمرّ: «كان ذلك الهرم فتاناً جداً، والظلام كثيف جداً في الغابة، وله عدد طيب جداً.. كلا، لا أحسن الرواية». وأخذ أندريه يبتسم تلك الابتسامة السعيدة التي كانت تطوف على شفتيه كلما نظر إلى عينيها. «آه! كنت أفهمها جيداً. أجل، كنت أفهمها وكنت أحب فيها روحها الجياشة الخالصة المتهورة التي كانت أشبه بالسجينة في جسدها.. نعم، تلك كانت الروح التي كنت أحبها حباً عنيفاً جداً كان يبعث في نفسي سعادة غامرة..» وفجأة، تذكر الخاتمة الحزينة لذلك الحب. «لم يكن ذلك الرجل ليأبه لكل هذا. لم يكن يرى فيها إلا قذاة فتاة جميلة لا يجد أنها جديرة بأن يشركها في مصيره. أما أنا؟.. ثم القول بأن هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة!».

قفز أندريه عند هذه الذكرى وكأن بعضهم أحرقه بحديد محمى وعاد يذرع أرض المكدس جيئة وذهاباً.

الفصل السادس والعشرون

عشية معركة بورودينو، في الخامس والعشرين من شهر آب، وصل السيد دو بوسيّه المشرف على القصر والزعيم فابييه، الأول من باريس والثاني من مدريد، إلى معسكر نابليون في ڤالوييـڤو.

وبعد أن ارتدى بزة البلاط، حمّل السيد دو بوسيّه رزمة بحضوره كان عليه أن يسلمها إلى الأمبراطور ودخل المقصورة الأولى من الخيمة الأمبراطورية حيث راح يفك الرزمة وهو يثرثر مع المساعدين العسكريين الذين حاصروه بالأسئلة، وفي تلك الأثناء، كان فابييه الذي أوقف أمام الخيمة يتحدث مع أصدقائه من الجنرالات.

وكان الأمبراطور ينهي زينته في غرفة النوم، فكان يمد ظهره العريض تارة وهو ينخر وتارة صدره الثمين للفرشاة التي كان أحد الخدم يدلكه بها، بينما راح خادم آخر، وإصبعه فوق فتحة زجاجة، يبلل جسد سيده المرفه بماء الكولونيا ووجهه ينطق بأنه وحده الذي يعرف أين وبأية كمية يجب أن يسفح العطر على الجسد. وكان شعر نابليون القصير مبللاً ومشعثاً فوق جبينه ووجهه رغم صفرته وانتفاخه، يعبر عن الراحة والرضى.

قال وهو منكمش تحت عملية التدليك: «هيا، استمر بحزم..» وكان مساعد عسكري ينتظر الأمر بالانصراف بعد أن أنهى إليه عدد الأسرى الذين وقعوا في معركة الأمس فألقى نابليون نظرة نحوه وهو يصر على أسنانه. قال

معقباً على تقريره: ليس من أسرى! إنهم يدمّرون أنفسهم. خسارة على الجيش الروسي..

ـ استأنف وهو يحدب ظهره تحت الفرشاة:

ـ استمر، استمر بحزم.. حسناً، ادخلوا السيد دو پوسيّه وكذلك السيد فابييه.

وبعد أن أصدر هذا الأمر إلى المساعد العسكري، صرفه بإشارة من رأسه فقال هذا: نعم يا صاحب الجلالة.

انسحب المساعد وبدأ الخادمان يلبسان جلالته بحذاقة وبعد أن ارتدى زي الحرس الأزرق، ذهب إلى صالة الاستقبال بخطى متلاحقة ثابتة.

وكان السيد دو پوسيّه هدية الأمبراطورة التي جاء بها على كرسيين قبالة المكان الذي وجب أن يأتي الأمبراطور منه. لكنه دخل بشكل مفاجئ، حتى أن هذا لم يجد الوقت الكافي لإنهاء إعداداته.

لقد خمن ناپليون أنهم بصدد إعداد مفاجأة له فلم يشأ حرمان السيد دو پوسيّه من تلك المتعة، لذلك تظاهر بأنه لم يره. استدعى السيد فابييه وراح يصغي إليه في صمت عبوس ما كان يروي له عن بسالة جنود جلالته وتفانيهم في قتالهم في سلامانك[1]، في الجانب الأقصى الآخر من أوروبا وأنهم لا يرغبون إلا في أن يكونوا جديرين بأمبراطورهم ويخشون أمراً واحداً وهو أن لا يوفقوا في إرضائه. ولقد كانت نتائج القتال مؤسية لذلك فقد ألمح إليه ناپليون ببضع ملاحظات ساخرة، أن الأمور لا يمكن في غيابه أن تسير على نحو آخر. قال: يجب أن أصحح هذا في موسكو. بعد حين.

استطاع السيد دو پوسيّه، خلال ذلك، أن ينتهي من تهيئة مفاجأته التي

---

(١) مدينة إسبانية (المترجم).

كانت ترتكز على بعض الكراسي مغطاة بعناية بستر. ولما التفت ناپليون نحوه، حياه هذا تحية عميقة على الطريقة الفرنسية لا يتقنها إلا خدام آل بوربون القدامى واقترب منه وقدم له غلافاً.

استقبله الأمبراطور ببشاشة وقرز له طرف أذنه. سأله بلهجة انقلبت فجأة إلى حليمة مؤنسة: لقد أسرعت وإنني مسرور. ماذا يقولون في باريس؟

أجاب السيد دو پوسيّه بحكمة:

ـ إن باريس كلها تأسف لغيابك يا صاحب الجلالة!

وعلى الرغم من أن ناپليون كان يتوقع جواباً من هذا النوع، وأنه في لحظات تيقظه كان يعرف كيف يتصرف إزاء هذه الإطراءات، فإنه تقبل هذا الإطراء بسرور وشرف السيد دو پوسيّه بقرزة جديدة لأذنه وقال:

ـ إنني مستاء إذ أراك تقطع كل هذه المسافة الطويلة.

ـ يا صاحب الجلالة، لم أكن أتوقع إطلاقاً أن أراك إلا على أبواب موسكو.

ابتسم ناپليون وألقى على اليمين نظرة ساهمة، فاقترب مساعد عسكري بخطوات متسللة ومد له علبة سعوط ذهبية.

استأنف الأمبراطور وهو يدني من أنفه المسعطة المفتوحة:

ـ نعم، إنك موجود. أنت الذي تحب السفر، سترى موسكو في غضون ثلاثة أيام. لم تكن تتوقع زيارة العاصمة الآسيوية. وبذلك تكون قد قمت بسفر طيب.

وعلى الرغم من أن أمبراطوره افترض فيه ذوقاً لم يكن هو يعرف لوجوده ظلاً فإنّ السيد دو پوسيّه شكره وانحنى لهذه الالتفاتة اللطيفة.

سأل الأمبراطور وهو يرى أن أنظارحاشيته كلها مستديرة نحو الشيء الذي غطي بالستر: ولكن ما هذا؟

تراجع السيد دو پوسيّه خطوتين بحذق رجل البطانة المجرب دون أن يدير ظهره رفع الستر وهو يعلن: هدية لجلالتكم من قبل جلالة الأمبراطورة.

كانت الهدية لوحة رسمها جيرار[1] بألوان صارخة للطفل الصغير، المولود من ناپليون وأرشيدوقة النمسا، الذي كان الناس جميعهم يدعونه، دون معرفة السبب، ملك روما. وكان ذلك الطفل الجميل ذو الشعر العكف والنظرة التي تشبه نظرة يسوع في صورة المادونا «لسان سيكست» مرسوماً وهو يلعب بكرة خشبية مثقوبة. وكانت الكرة الأرضية أما المقبض الذي كان ممسكاً به في يده الأخرى فيشبه الصولجان.

وعلى الرغم من أن غاية الرسام لم تكن واضحة تماماً، إذ ما الذي يدعو ملك روما في الواقع إلى أن يثقب الكرة بعصا؟. فإن الاستعارة كانت مفهومة ومقدرة من قبل كل الذين شاهدوا اللوحة في باريس وكذلك بدا حال ناپليون.

قال وهو يشير إلى اللوحة بحركة ظريفة:

ـ ملك روما، رائع!

اتخذ ميزة الإيطاليين التي تجعلهم قادرين على تبديل أمارات وجوههم وفق هواهم، وهو يتقدم من اللوحة بمظهر مُفكر ألماني. كان يعرف أن كل ما سيقوله ويفعله سيصبح ملكاً للتاريخ. ولقد بدا له أن الحنان الأبوي الأكثر صفاء هو المظهر الأكثر ملاءمة، بوصفه مباينة لعظمته التي بفضلها يستطيع ابنه الصغير أن يلعب بالعالم بدلاً من الكرة الخشبية المثقوبة. واغرورقت عيناه بالدموع فراح يبحث بنظره عن كرسي «طار» للقائه ثم جلس أمام اللوحة وأخيراً، صدرت عنه إشارة، فانسحب الجميع على أطراف أصابعهم تاركين الرجل العظيم في خلوة مع أفكاره.

(١) رسام التاريخ الفرنسي مؤلف معركة أوسترليتز. (المترجم).

وبعد أن تأمل اللوحة بضع لحظات ومر بيده على حرشة الألوان بحركة آلية، نهض نابليون واستدعى السيد دو بوسيّه مجدداً كما استدعى الضابط المنوب وأصدر الأمر بأن توضع اللوحة أمام خيمته حتى يتسنى للشعب الخاص أن يرى ملك روما، ابن أمبراطورهم المعبود ووارثه.

ولم يخذل انتظاره إذ بينما كان يتناول طعامه مع السيّد دو بوسيّه الذي حظي بهذا الشرف العظيم، أسرع الضباط ورجال الحرس جماعات جماعات إلى أمام الخيمة وراحوا يحيون الصورة بهتافات حماسية:

ـ يحيا الأمبراطور! يحيا ملك روما! يحيا الأمبراطور!

وبعد الطعام، وبحضور السيد دو بوسيّه، أصدر نابليون أمراً يومياً للجيش ثم قال وهو يقرأ بيانه الذي كتبه دفعة واحدة دون أن يدخل عليه أي تصحيح:

ـ بيان قصير وقوي!

وهذا نص البيان:

«أيها الجنود! ها هي ذي المعركة التي طالما تمنيتموها. إن النصر منذ الآن يتوقف عليكم، وهو ضروري لنا لأنه سيعطينا الوفرة والمراكز الشتوية الجيدة وعودة سريعة إلى الوطن! تصرّفوا كما تصرفتم في أوسترليتز وفريدلاند، وفتيبسك وسمولنسك ولتتحدث الأجيال الصاعدة عن سلوككم في هذا اليوم. ليقولوا عنكم: لقد كانوا في المعركة الكبرى عند جدران موسكو».

ردد نابليون: جدران موسكوڤا!

وبعد أن دعا السيد دو بوسيّه المولع بالسَفَر إلى مرافقته في نزهته، خرج من خيمته واتجه نحو الجياد المسرجة، هم السيد دو بوسيّه أن يعترض وهو الذي كان في حاجة إلى النوم أضف إلى ذلك جهله التام بركوب الخيل: إن جلالتكم تغمرونني بعطفكم.

لكن إشارة من رأس ناپليون أرغمت الرحالة على اللحاق به. ولما ظهر الأمبراطور، تضاعفت هتافات جنود الحرس فقطب ناپليون حاجبيه. قال وهو يدل بإشارة عريضة من يده على صورة ابنه:

ـ ارفعوها. لا يزال صغيراً جداً حتى يرى ساحة المعركة.

فأغمض السيد دو پوسيّه عينيه وحنى رأسه وأطلق تنهدة عميقة مدللاً بذلك على أنه يدرك تماماً وساوس جلالته.

الفصل السابع والعشرون

لقد قضى ناپليون طوال يوم الخامس والعشرين من شهر آب، على جواده الأبيض، حسب قول المؤرخين، يتفحص الأرض ويناقش الخطط التي يعرضها عليه ماريشالاته، ويصدر نفسه الأوامر إلى جنرالاته.

كان خط الروس الأول على طول نهر كولوتشا قد تصدع وسُحب جزء من هذا الخط، وهو الجناح الأيسر، إلى الوراء بسبب سقوط حصن شيـڤاردينو يوم الرابع والعشرين من آب. فلم يعد هذا الجزء محصناً أو محمياً بالنهر ولم يعد أمامه إلا قطعة أرض مكشوفة وكان الفرنسيون، بدون شك، سيهاجمون من هناك لأن ذلك كان يقفز لعيني كل ناظر حتى ولو لم يكن عسكرياً. ولم يتمكن إعداد ذلك الهجوم على ما يبدو، يحتاج إلى كثير من التجهيزات ولا إلى كل تلك الروحات والغدوات من جانب الأمبراطور وماريشالاته، حتى ولا إلى تلك القدرة الرفيعة الخاصة التي يسمونها بالعبقرية والتي يحبون كثيراً أن ينسبوها إلى ناپليون. لكن المؤرخين الذين رووا الحادث فيما بعد والرجال المحيطون به والأمبراطور نفسه كانوا يفكرون تفكيراً مختلفاً.

إذن، لقد كان يتجول على جواده دارساً طوبوغرافية الأرض دراسة المتأمل مؤيداً أو رافضاً بإشارة من رأسه الأفكار التي تطوف برأسه، مطلعاً معاونيه دون إظهارهم على سير أفكاره السري على النتيجة بشكل أوامر يوجهها إليهم. عرض داڤو، الذي باتوا الآن يدعونه الأمير ديكموهل، أن يُعمد إلى الالتفاف حول جناح الروس الأيسر. لكن ناپليون اعترض على ذلك

دون بيان أسباب الرفض. وفي المقابل، فإنّ الجنرال كومـپان الذي عُهد إليه مهاجمة المتاريس عرض فكرة إخفاء فوجه في الغابة، فوافق الأمبراطور عليها رغم أن الدون ديلشجن المزعوم، أي الماريشال ناي، سمح لنفسه بالاعتراض على هذا الإجراء لأنه خطير يمكن أن يشيع الفوضى بين الصفوف.

وبينما هو يتفحص الأرض قبالة حصن سيـڤاردينو، بقي بضع لحظات صامتاً ثم أشار إلى المواضع التي يجب أن تقام فيها «البطاريتان» المنتدبتان للعمل ضد التحصينات الروسية، في حين تركز مدفعية الميدان حولهما.

وبعد أن أصدر هذا الأمر وأوامر أخرى أيضاً، رجع إلى مقره العام ونصوص المعركة. وكانت تلك النصوص التي يتحدث المؤرخون الفرنسيون عنها بحماسة بينما يتحدث الآخرون عنها بكثير من الاعتبار، كما يلي:

«عند انبلاج الصباح، تبدأ «بطاريتان» جديدتان تقامان خلال الليل على هضبة الأمير ديكموهل، بإطلاق نيرانهما على «البطاريتين» العدوّتين.

«في اللحظة نفسها، يبدأ الجنرال بيزنيتي، قائد مدفعية الفوج الأول بإطلاق النار من مدافعه الثلاثين التي ستكون في جيش كومـپان وكذلك من كل قاذفات القنابل التابعة للفوجين ديسيكس وفريان التي ستقدم إلى الأمام، على «بطارية» العدو التي سيكون أمامها على هذا الشكل مدافع فرقة الحرس الأربعة والعشرين، وثلاثون مدفعاً من فوج كومـپان وثمانية من فوجَي ديسيكس وفريان، المجموع اثنان وستون مدفعاً.

«على الجنرال فوشيه، قائد مدفعية الفوج الثالث أن يتمركز مع كل قاذفات القنابل من الفوجين الثالث والثامن وعددها ست عشرة، حول «البطارية» التي في الحصن الأيسر وبذلك يصبح عدد المدافع ضد هذه «البطارية» أربعين مدفعاً.

«على الجنرال سوربيه أن يكون مستعداً عند أول أمر، على الانفصال مع

كل قاذفات القنابل التابعة لسلاح الحرس للمبادرة إلى هذا الحصن أو ذاك.

«خلال هذا القصف، يمضي الأمير يونياتوڤسكي من القرية نحو الغابة ويدور حول موقع العدو. أما الجنرال كومـپان، فإنه يسير بمحاذاة الغابة للاستيلاء على الحصن الأول.

«وبعد أن تندلع المعركة على هذا النحو، ستعطى الأوامر تبعاً لأوضاع العدو.

«يبدأ قصف المدفعية على الجناح الأيسر منذ أن يسمع القصف من الجناح الأيمن. وستنظم سلسلة قوية من هجمات رماة البنادق من قبل قناصة فيلق موران وفيالق نائب الملك حالما يرون أن الهجوم من الأيمن قد بدأ. وعلى نائب الملك أن يحتل القرية (بورودينو) وأن يصل على طريق جسورها الثلاثة إلى المرتفع في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وجيرار تحت أوامر نائب الملك لاحتلال حصن العدو وتشكيل خط الجيش.

«ينبغي أن تنفذ كل هذه التعليمات بنظام وبصورة منهجية مع مراعاة الاحتفاظ باحتياطي كبير.

«في المعسكر، على مسافة ميلين من موجاييسك، في ٦ أيلول ١٨١٢».

كان أمر المعركة هذا، الذي صيغ بعبارات غامضة تماماً، إذا أمكن التعبير على هذا النحو دون الكفر بعبقرية ناپليون، يضم أربع نقاط، أربعة تدابير.. ولكن ما من واحد منها كان يمكن أن ينفذ أو نفذ بالفعل.

كان يأمر أولاً أن تعمد «البطاريات» المركّزة في المكان الذي اختاره الأمبراطور، وكذلك قطع بيرنيتي وفوشيه التي كان يجب أن تنتظم إلى جانبيها والتي يبلغ مجموعها مائة مدفع ومدفعين، إلى إطلاق النار وغمر التحصينات الروسية والحصن بالقذائف، في حين أن القذائف لم تكن لتصل

إلى التحصينات الروسية من تلك المواقع. أي إن مائة مدفع ومدفعين كانت تطلق النار دون جدوى حتى عمد الرؤساء الذين تتبع وحداتهم تلك المدافع، إلى تقديمها مخالفين بذلك أوامر ناپليون.

أما الترتيب الثاني، فكان يفرض على پونياتوڤسكي أن ينتقل نحو الغابة ليدور حول جناح الروس الأيسر. وهذا لم يكن يمكن التنفيذ كما أنه لم ينفذ لأن پونياتوڤسكي اصطدم خلال تقدّمه هذا بتوتشكوڤ الذي قطع عليه الطريق ومنعه من الالتفاف حول الموقع.

والترتيب الثالث يأمر كومپان بالسير بمحاذاة الغابة ليحتل الحصن في حين أن جيش كومپان لم يتمكن من احتلال ذلك الحصن بل صُدّ لأنه اضطر عند خروجه من الغابة أن يصطف تحت نار بنادق حامية لم يتوقعها ناپليون.

بينما كان على نائب الملك عملاً بالترتيب الرابع أن يحتل قرية بورودينو وأن يصل إلى المرتفع عن طريق جسورها الثلاثة في الوقت الذي يصل فيه الجنرالان موران وفريان (اللذان لم يشر إلى تحركاتهما في الأمر أبداً) تحت أوامره لاحتلال الحصن وتشكيل خط الجيش.

وكما يفهم من أمر المعركة هذا، ليس تبعاً لأسلوبه الغامض، بل وفقاً لمحاولات نائب الملك تنفيذه، كان على هذا أن يهاجم الحصن من اليسار مخترقاً بورودينو في حين تهاجمه فيالق موران وفريان من اليمين.

إن هذا الأمر، كالأوامر التي سبقته، ما كان يمكن أن ينفذ ولم ينفذ لأن نائب الملك بعد أن اخترق بورودينو أوقف على نهر كولوتشا فلم يستطع التقدم أكثر من ذلك. أما فيالق موران وفريان، فقد صدت ولم تحتل، والحالة هذه، الحصن. ولقد احتل هذا الحصن آخر الأمر من قبل سلاح الفرسان، وهو واقع غريب بدون شك أن ناپليون لم يتوقعه إطلاقاً.

وكذلك، ينص أمر المعركة على أنه «بعد أن تندفع المعركة على هذا النحو، ستعطى الأوامر تبعاً لأوضاع العدو». فيمكن الاستدلال إذن على أن الأمبراطور سيعطي خلال المعركة كل الأوامر اللازمة في حين أن شيئاً من هذا لم يحدث لسبب بسيط ووجيه وهو أنه بقي بعيداً في ساحة المعركة طوال الوقت ففاته سير العمليات ولم يمكن تنفيذ واحد من الأوامر التي أصدرها.

الفصل الثامن والعشرون

إن معركة بورودينو كما يؤكد عدد كبير من المؤرخين، لم ينتصر فيها الفرنسيون لأن ناپليون كان يومذاك مصاباً بزكام ولولا ذلك لكانت ترتيباته قبل المعركة وأثناءها أكثر عبقرية، ولانهارت روسيا برمتها ولتغير وجه العالم؛ إن هذا التحليل بالنسبة إلى المؤرخين الذين يؤكدون أن روسيا تشكلت بإرادة رجل واحد هو بطرس الأكبر وأن فرنسا قد انقلبت من جمهورية إلى أمبراطورية وأن الجيوش الفرنسية دخلت روسيا تبعاً لرغبة رجل واحد هو ناپليون. إن هذا التحليل الذي يؤكد أن بقاء روسيا قوية يعود إلى إصابة ناپليون يوم السادس والعشرين من آب بزكام عنيف، منطقي تماماً بالنسبة إلى هؤلاء.

فلو أن الأمر كان يعود إليه بالدخول في معركة بورودينو أو عدم خوضها. وباتخاذ هذا التدبير أو ذاك، فإن زكاماً قوياً يؤثر في مظاهر إرادته كان من الممكن أن يسبب بالطبع خلاص روسيا ولكان مخلّصنا هو ذلك الخادم الذي نسي أن يقدم إلى ناپليون يوم الرابع والعشرين من آب حذاءه الواقي، إن مثل ذلك التحليل يقود حتماً إلى مثل هذه النتيجة، وهي نتيجة لا تقبل الجدل أشبه بدعابة ڤولتير وأية سخرية كانت؟ حول سان بارتيلمي[1] التي وقعت بسبب تلبك أصاب معدة شارل التاسع، ولكن بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يتقبلون أن روسيا تشكلت تبعاً لإرادة رجل هو بطرس الأكبر ولا أن

---

(١) اسم لمذبحة البروتستانت على عهد شارل التاسع بتحريض من كاترين دو ميديسيس. (المترجم).

الأمبراطورية الفرنسية أقيمت وأن الحرب مع روسيا أعلنت وفق إرادة رجل واحد هو نابليون، يعتبر هذا التحليل ليس خاطئاً ومخالفاً للصواب فحسب بل مخالفاً لجوهر الإنسانية نفسه، إنّ من ينقّب عن أسباب الأحداث التاريخية يجد سبباً آخر هو أن سير الأمور في هذا العالم مقرر مسبقاً وأنه متوقف على تدخل كل أحكام الأشخاص الحرة الذين يساهمون فيها وأن جماعة نابليون ليس لهم عليها إلا الأثر الظاهر الخارجي فقط.

ومن الغريب أن يؤكد المرء للوهلة الأولى أن مذبحة سان بارتيلمي، رغم أن شارل التاسع أمر بها، لم تكن، مهما كان تفكيره الشخصي، نتيجة لإرادته، وكذلك يبدو غريباً الزعم بأن مجزرة بورودينو التي كلفت ثمانين ألف رجل لم تنجم عن رأي نابليون الشخصي رغم أنه أعطى الأمر ورتب سير المعركة، بيد أن الكرامة الإنسانية التي تؤكد أن كلاً منا رجل، يماثل في العظمة نابليون الكبير إن لم يكن يتفوق عليه، تبيح هذا الزعم والتحريات التاريخية تؤيده بوفرة.

لم يطلق نابليون في بورودينو رصاصة واحدة ولم يقتل رجلاً واحداً. لقد كان ذلك من صنع جنوده وبالتالي، فإنه ليس بالذي قتل.

لقد قاتل جنود الأمبراطور لا لينفذوا أوامره، ولكن عن طيبة خواطرهم. لقد كان الجيش كله، أولئك الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبولونيون المتعطشون المتعبون ذوو الثياب الخلقة، يشعرون تماماً أمام ذلك الجيش الآخر الذي يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، أن النبيذ قد صُفي فحان أن يشربوه، ولو أن نابليون منعهم من مقاتلة الروس حينذاك لقتلوه ومشوا بعد ذلك إلى المعركة لأنهم ما كانوا يستطيعون إلا أن يفعلوا كذلك.

عندما قرئ عليهم أمر نابليون اليومي الذي وعدهم فيه بمكافأة على الجراح والموت بأن تتحدث الأجيال القادمة عنهم قائلة إنهم كانوا في المعركة

الكبرى قرب جدران موسكو، صاحوا: «يحيا الأمبراطور! يحيا الأمبراطور!» عندما شاهدوا ذلك الطفل يخرق الكرة الأرضية بمقبض لعبته الخشبية، وكما كانوا سيهتفون لأي حماقة يقولونها لهم. لم يعد لديهم شيء آخر يفعلونه إلا أن يصيحوا: «يحيا الأمبراطور!» وأن يذهبوا إلى القتال وينتصروا كي يجدوا في موسكو الغذاء والراحة. وبناء عليه، لم يقتلوا أمثالهم استجابة لأوامر سيدهم.

ولم يكن ناپليون نفسه ذا أهمية في سياق المعركة لأن أية نقطة من ترتيباته لم تنفذ ولأن نفسه بقي يجهل خلال المعركة ماذا دار فيها، وبالتالي، فإن قتل هؤلاء الناس أمثالهم، حدث دون تدخل من جانبه، ليس نتيجة لإرادة ناپليون، بل بإرادة مئات الألوف من الرجال الذين ساهموا في الأمر، وكل ما كان لناپليون، اقتصر على توهّمه بأن كل شيء يسير وفق إرادته، لذلك فإن مسألة معرفة ما إذا كان الأمبراطور قد أصيب بزكام أو لا، لا تشكل لمصلحة التاريخ أكثر من مدلول الزكام الذي يصيب أي جندي عادي.

ثم إن أولئك الذين يعتقدون أن ناپليون لم يتخذ ذلك اليوم ترتيبات طبية كعادته وأن أوامره خلال المعركة كانت أقل حزماً بسبب ذلك الزكام العتيد، يخطئون كلياً.

كان نص المعركة الذي نقلناه مماثلاً، إن لم يكن أفضل، لكثير من النصوص الأخرى التي رُبح كثير من المعارك بموجبها. والأوامر المعطاة خلال المعركة لم تختلف بكثير عن تلك التي تصدر عادة ودائماً. وإذن، فإن هذا النص وتلك الأوامر، لم تصبح خاضعة للنقد إلا لأن معركة بورودينو كانت المعركة الأولى التي لم ينتصر فيها ناپليون. والعادة أن أجمل الترتيبات وأفضلها وأعمقها تبدو، إذا لم تجر النصر، سيئة يأخذ علماء فن الحركات العسكرية بنقدها بلغة مسموعة. والعكس صحيح، فما إن ينجم نصر ما، فإن

أسوأ الترتيبات وأكثرها خضوعاً للنقد تصبح ممتازة، ويشرع الكتّاب الأعم شهرة في تمجيدها وتعداد محاسنها في مجلدات عديدة.

كان ترتيب ويروذر في أوسترليتز مثالاً من هذا النوع: لقد انتقدوه وعارضوه بسبب كماله، بدون شك، ودقة تفاصيله.

قام ناپليون بدوره في بورودينو، بوصفه ممثل السلطة كما أدّاه في المعارك الأخرى إن لم يكن أفضل من ذلك، إنه لم يأت أمراً سيئاً بالنسبة إلى سير المعركة. ولقد انحاز إلى جانب أكثر الآراء حكمة، فلم يفقد أعصابه ولم يناقض أقواله وظل محتفظاً بهدوئه فلم يغادر ساحة المعركة. وقد أمكنته لباقته الكاملة وخبرته الكبيرة في شؤون الحرب أن يلعب بهدوء دوره الشكلي كرئيس أعلى.

الفصل التاسع والعشرون

«أصبحت القطع مصفوفة فوق الرقعة وسيبدأ اللعب غداً». قال ناپليون لدى عودته من تفتيش ثان دقيق للخطوط العسكرية.

أمر لنفسه بمزيج من الشاي والكحول والليمون والسكر (پونش) واستدعى السيد دو پوسيّه وراح يحدثه عن باريس والتبديلات التي يريد إدخالها على منزل الأمبراطورة فكانت الذكرى التي يحملها لأبسط أشياء البلاط مدعاة دهشة القيّم الشديدة.

اهتم بتفاهات عديدة، ومازح السيد دو پوسيّه حول حبه للأسفار، وبالإيجاز، راح يثرثر بلا مبالاة جرّاح كبير واثق بنفسه متعمق في مهنته، وهو يشمر عن أكمامه ويضع مئزره بينما يسجّون المريض على طاولة العمليات. «إنّ المسألة واضحة تماماً والخيوط كلها في رأسي وفي يدي. فإذا وجب البدء بالعمل سأعمل أفضل من أي كان. أما الآن، فإنني أستطيع أن أسمح لنفسي بالمزاح. إنني كلما كنت هادئاً طيب المزاج، وجب عليكم من جانبكم أن تثقوا بي أكثر وأن تعجبوا بعبقريتي».

وبعد أن ارتشف قدحه الثاني، ذهب ناپليون لنيل قسط من الراحة قبل المسألة الخطيرة التي يدخرها للغد. لكنه كان كثير الانشغال فتعذر عليه النوم وعلى الرغم من زكامه القوي الذي كانت رطوبة المساء تزيد في خطورته، ذهب في الساعة الثالثة صباحاً إلى غرفة الدخول في خيمته وهو يتمخط بصوت مدو استفسر عما إذا لم يكن الروس قد انسحبوا عرضاً. فأكدوا له أن

نيران العدو لا تزال ظاهرة في المواقع نفسها وحينئذ أظهر رضاه بحركة من رأسه. ولما كان المساعد العسكري المنوب يدخل الخيمة في تلك اللحظة، فقد سأله: حسناً يا راب، هل تظن أننا سنقوم اليوم بأعمال مجيدة؟

ـ دون أي شك يا صاحب الجلالة.

ظل الأمبراطور يستفسره بنظره فاسترسل راب قائلاً:

ـ هل تذكر يا صاحب الجلالة ما شرفتني بقوله لي في سمولنسك؟ لقد صُفيَ فيجب شربه.

عبس ناپليون ووضع رأسه بين يديه وسكت. وفجأة قال:

ـ هذا الجيش المسكين. لقد قل عدده كثيراً منذ سمولنسك. إن السعادة يا راب مما لقة صريحة. لقد قلت ذاك دائماً وبدأت أشعر به الآن. ولكن الحرس يا راب، هل الحرس سليم؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

أخذ ناپليون حبة ورفعها إلى فمه ثم نظر إلى ساعته. لم يكن يريد أن ينام وكان الصباح بعيداً ولم يكن لديه ما يقتل الوقت به: فالأوامر قد أعطيت وهي في طريق التنفيذ. سأل بلهجة صارمة: هل وزعوا البسكويت والأرز على أفواج الحرس؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

ـ لكن الأرز؟

أجاب راب بأنه نقل بنفسه الأوامر بهذا الصدد. لكن الأمبراطور أظهر شكّه بحركة من رأسه. جاء خادم بشراب الـپونش. وبعد أن أمر بإعداد كأس آخرى لراب، راح ناپليون يمتص قدحه بجرعات صغيرة. قال وهو يشم كأسه: لم أعد مسيطراً على حاستَي الشم والذوق. إن هذا الزكام لا يحتمل. إنهم يتحدثون إلي دائماً عن الطب. فما هو هذا العلم المزعوم الذي لا يستطيع

شفاء الزكام؟ لقد أعطاني «كورڤيزار» هذه الحبوب. لكنها غير صالحة لشيء. ماذا يعرفون عن شفائه؟ إنهم على أية حال لا يقدرون على شفاء شيء. إن جسمنا عبارة عن آلة الحياة. إنه مركب لهذا الغرض وهذه طبيعته. فدعوا الحياة على هواها ولتدافع عن نفسها بنفسها. إنّها ستعمل أفضل من عملها إذا أثتلتموها بالأدوية. إنّ جسمنا مثل ساعة كاملة عليها أن تدوم وقتاً ما، وليس من صلاحية الساعاتي أن يفتحها بل أن يعالجها باللمس وعيناه معصوبتان... إن جسمنا آلة حياة، هذا كل ما في الأمر.

وكأنما حلا له السير في طريق التعاريف، وهي طريقة مألوفة لديه، لم يلبث أن خرج بتعريف جديد. سأل راب:

ـ أتعرف يا راب ما هو فن الحرب؟ إنه فن يقتصر على أن يكون المرء في فترة ما أقوى من عدوه. هذا كل شيء.

فلم يجب راب.

ـ غداً، سيكون لنا ما نعمله مع كوتوزوف. سوف نرى. تذكر أنه هو الذي كان يقود في برونو وأنه طوال ثلاثة أسابيع، لم يمتط صهوة جواده مرة واحدة ليفتش عن نقاط دفاعه. سوف نرى!

ومجدداً استشار ساعته فكانت لم تتجاوز الرابعة بعد. لم يكن ميالاً إلى أن ينام وشراب الپونش كان قد شرب ولايزال دون عمل يقوم به. وقف وراح يذرع المكان ثم ارتدى سترته الرسمية «رودنغوت» ووضع قبعته وخرج. كان الليل حالكاً رطباً والضباب الذي لا يكاد يرى بوضوح في طور الانتشار. وكانت نيران أفواج الحرس القريبة تشتعل ضعيفة. وعلى البعد، خلال الضباب كانت نيران الخطوط الروسية ظاهرة. وكان كل شيء هادئاً فكانت خطوات الوحدات الفرنسية المنطلقة لاحتلال مواقعها المقررة تسمع بوضوح.

عاين الأمبراطور النيران وأصاخ السمع إلى وقع أقدام الجنود ولما مرّ بأحد جنود الحرس القائم بالحراسة أمام الخيمة وهو في وضعية الاستعداد وكأنه دعامة سوداء، وقف أمامه. سأله بتلك الخشونة الودودة التي كان يستخدمها دائماً في مخاطبة جنوده:

ـ كم أمضيت في الخدمة؟

فأجابه الجندي.

ـ آه! واحد من القدماء!

ـ والأرز، هل وزع عليكم في الفيلق؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة.

أشار إليه ناپليون برأسه إشارة ودية وابتعد.

وفي الخامسة والنصف، امتطى الأمبراطور جواده واتجه إلى قرية شيـڤاردينو.

أخذ الفجر ينبلج والسماء بدأت تصفو فلم يبق من الغيوم إلا سحابة في الشرق واستمرت النيران المهجورة تتآكل في ضياء الشفق الخفيف.

وفجأة، دوّت طلقة مدفع مكتومة وحيدة عن اليمين، انتشرت ثم غابت في الصمت الشامل. وبعض بضع دقائع ثار دوي ثان ثم ثالث هزا الفضاء أعقبهما رابع وخامس أكثر جلالاً وكلها عن اليمين. ولم تلبث الانفجارات أن تضاعفت واختلطت في هدير دائم مستمر.

وصل ناپليون مع حاشيته إلى حصن شيـڤاردينو وترجل عن جواده. لقد اندلعت المعركة.

الفصل الثلاثون

أصدر پيار أمره إلى مرافقه، بعد أن غادر الأمير أندريه ورجع إلى غوركي، أن يجهّز الخيول ويوقظه باكراً ثم نام وراء الحاجز في الزاوية الضيقة التي تخلى له بوريس عنها.

وعندما استيقظ في اليوم التالي، لم يجد أحداً في الكوخ. كانت ألواح النوافذ الزجاجية تهتز وخادمه المرافق يهزه. كان المرافق يكرر بإصرار وهو يجذبه من كتفه دون أن ينظر إليه، واليأس من بلوغ غايته واضح على معالمه:

ـ يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة!

أخيراً سأل پيار:

ـ ماذا؟ هل نشبت؟ هل هي الساعة المقررة؟

قال الخادم المرافق وهو جندي سابق:

ـ ألا تسمع سعادتك قصف المدافع؟ لقد ذهب كل هؤلاء السادة و«عظيم الرفعة» نفسه منذ أمد طويل.

ارتدى پيار ثيابه بسرعة وخرج. كان الصباح مشرقاً وقد رطبه الندى. وراحت الشمس تمزق السحاب وترسل أشعتها التي ما زالت السطوح المقابلة تحجز نصفها، على غبار الطريق الرطب وجدران المنازل وفتحات الحصون وعلى خيول پيار التي كانت واقفة أمام الكوخ وبدا دوي المدافع أكثر وضوحاً. مر مساعد عسكري يتبعه قوقازي على جواديهما خبباً فصاح الأول: لقد أزف الوقت يا كونت، أزف الوقت!

سار پيار على الدرب الذي يوصل إلى التل الذي عاين منه بالأمس ساحة المعركة وأمر أن تتبعه الخيول. وجد هناك عدداً كبيراً من العسكريين مجتمعين. وكان هؤلاء السادة أعضاء هيئة الأركان، يتحدثون بالفرنسية، وقد ظهر كوتوزوڤ بينهم برأسه الأشيب المتقلنس بقبعته البيضاء ذات الشريط الأحمر وقذاله الضائع في كتفيه العريضتين. كان الجنرال القائد الأعلى ينظر خلال منظار أمامه باتجاه الطريق العام.

عندما اجتاز پيار الدرجات التي تقود إلى التل، ذهل إعجاباً بالمشهد الذي ظهر لعينيه. كان المشهد إياه الذي تأمله بالأمس ولكن الجنود الآن كانوا قد غزوه وعمه دخان البارود. وكانت الأشعة المائلة للشمس المشرقة تنشر في فضاء الصباح ضوءاً وردياً مذهباً تخططه طائفة من الظلال. والغابات البعيدة التي يطبق عليها الأفق، تبدو وكأنها منقوشة في حجر كريم بلون أخضر مائل إلى الصفرة، وذراها تقاطع فيه خطوطاً غير واضحة، يقطعها وراء ڤالوييـڤو، طريق سمولنسك العام المغطى كله بالجنود. وإلى مسافة أقرب، كانت الحقول المذهبة وباقات من الشجر تلتمع. والجنود في كل مكان، إلى اليمين وإلى اليسار وفي المقدمة. ولقد كان مجموع المشهد مفعماً بالجلال والمفاجأة. لكن انتباه پيار توقف عند ساحة المعركة نفسها، عند بورودينو ووادي كولوتشا.

فوق كولوتشا على جانبي بورودينو، وبصورة خاصة إلى اليسار حيث يصب نهر «ڤويينا» عند شواطئه المليئة بالمستنقعات في نهر كولوتشا، امتد ضباب من ذلك النوع الذي يتبخر بتأثير حرارة الشمس فيعطي لوناً وظلالاً سحرية على كل ما يبدو خلاله للعيون. وكان دخان الطلقات النارية يختلط بالضباب بينما أضواء نور الصباح المتسللة عبر تلك المجموعة من الغيوم، تتلاعب على صفحة الماء وفوق الندى وعلى رؤوس الحراب. كان الناظر

يميز الكنيسة البيضاء ثم سطوح بورودينو ثم كتل الجنود المتراصة والصناديق المطلية بالأخضر والمدافع. وكل ذلك يتحرك أو يبدو كأنه يتحرك في ذلك الفضاء الذي يكتسحه الضباب والدخان. وكما هي الحالة في الأغوار الغارقة في الضباب التي تحيط بورودينو، كانت دوامات من الدخان ترتفع تارة منعزلة وتارة مجتمعة متباعدة تارة ومتقاربة تارة أخرى، في المناطق المجاورة وبصورة خاصة إلى أقصى اليسار فوق كل الغابات والحقول والمنخفضات وفوق المرتفعات وكأنها تخلق من لا شيء فتنتفخ وتهمد وتتشابك إلى غير نهاية في ذلك الفضاء الرهيب.

وكانت تلك الأدخنة والانفجارات التي تصحبها تشكل، وهو أمر غريب، العنصر الرئيسي في جمال المشهد.

بوف! بوف!! وتشابكت الأدخنة واختلطت ثم بم! بم!! وجاءت الطلقتان تؤيدان ما رأته العين.

كان پيار قد استدار ليرى الدخان الأول المستدير الكثيف كأنه كرة حينما تمطت في المكان نفسه ثلاث كرات من الدخان. بوف.. وبعد فترة: بوف، بوف! وارتفعت ثلاثة أو أربعة أدخنة أخرى لم تلبث أن أجابتها في فترات متساوية بالترتيب أصوات خطيرة قوية: بم.. بم، بم! وكانت تلك الأدخنة تبدو تارة منهزمة وتبقى معلقة تارة أخرى فيحين دور الغابات والحقول والحراب اللامعة بالفرار. وإلى اليسار على طول الحقول والأدغال كانت كتل أخرى كثيفة الدخان يتبعها صداها الرهيب تنبعث في حين تنفجر في الأغوار والغابات القريبة طلقات بنادق مخلفة دخاناً صغيراً لا يجد الوقت الكافي ليشكل كتلاً لكنه مع ذلك يصطحب هو الآخر صداه على شكل ضربات جافة. وكانت البنادق تقول «تا ـ را، تا، تا، تا..» بفترات متقاربة ولكن منتظمة وأقلّ اتساعاً بكثير من دوي المدافع.

ولكم ودّ پيار أن يكون وسط هذه الأدخنة والحراب وهذه الحركة وهذا الضجيج. ألقى نظرة على كوتوزوف وحاشيته ليقارن بين مشاعره ومشاعر الآخرين. فوجد أنهم جميعهم مثله يتأملون ساحة المعركة وتعتلج في صدورهم المشاعر نفسها. ومن كل الوجوه، كانت الحرارة الكامنة التي لمسها أمس والتي عرّفه حديثه مع الأمير أندريه بكنهها تبدو وكأنها تشع من كل الوجوه.

قال كوتوزوف في تلك اللحظة لواحد من الجنرالات الذين في حاشيته دون أن تتزحزح عيناه عن ساحة المعركة:

ـ إذهب يا عزيزي، اذهب وليباركك الله!

فتأهب الجنرال الذي تلقى هذا الأمر لنزول التل. وبينما هو يمر بجانب پيار، سأله أحد ضباط الأركان عن المكان الذي يذهب إليه. فأجاب الجنرال بصوت بارد قاس:

ـ إلى معبر النهر!

فقال پيار في نفسه وهو يتبع خطاه: «وأنا كذلك أذهب إلى هناك».

امتطى الجنرال جواداً جاء به قوقازي. بينما راح پيار يعتلي صهوة جواده بدوره بعد أن تأكد من تابعه المرافق أنه أهدأ من كل الخيول وتشبث بعرف الجواد بينما ضغط بكعبيه على جانبي بطنه ولقد أضاع نظارتيه لكنه كان يشعر بعجزه عن ترك عرف الجواد والمقودين لذلك فقد ترك نفسه يقاد في أعقاب الجنرال مثيراً بذلك ابتسامات الضباط الذين كانوا ينظرون إليه من أعلى التل.

الفصل الحادي والثلاثون

راجع جواد پيار يجري إلى اليسار وراء الجنرال الذي استدار، وفجأة بعد أن انحدر عن التلّ ضاع عن أنظار پيارَ وأخذ دون قصد يجري بين صفوف المشاة الذين كانوا أمامه. حاول أن يتخلص سواء من الأمام أو من اليسار أو من اليمين. لكن وجوه الجنود المطبوعة بقلق مماثل الذين اتجهت أفكارهم نحو شيء ما غير منظور وخطير، أخذت تطالعه من كل صوب. كانوا جميعهم يستفسرون بعيونهم مستائين من هذا الشخص الضخم ذي القبعة البيضاء الذي جاء يدفعهم بجواده لسبب لا يعرفه إلا الله.

صاح أحدهم:

ـ ماذا جاء هذا يعمل وسط المواء؟

وضرب آخر الجواد بعقب بندقيته فأطبق هذا فكيه على الشكيمة فلم يهدئه پيار إلا بصعوبة وهو متشبث بقربوس السرج واستطاع أخيراً أن يبلغ الطريق الخالية.

كان أمامه جسر أخذ جنود آخرون يطلقون النار بالقرب منه. لقد وصل دون أن يعرف الجنود، إلى جسر كولوتشا القائم بين غوركي وبورودينو. وهو الجسر الذي كان على الفرنسيين أن يهاجموه في المرحلة الأولى من المعركة بعد أن يحتلوا القرية الأخيرة. شاهد پيار على جانبي النهر وبين رزم الهشيم التي لم يلاحظها أمس بسبب الدخان، جنوداً في شغل شاغل. مع ذلك وعلى الرغم من طلقات البنادق المتلاحقة، لم يشعر أنه أصبح في قلب المعركة. لم

يكن يسمع أزيز الرصاص من كل الجهات ولا القذائف التي تمر فوق رأسه، لم يكن يرى العدو على الجانب الآخر من النهر، بل إنه ظل طويلاً قبل أن يشعر بالقتلى والجرحى الذين يتساقطون حوله. لقد كان يتأمل المشهد وقد ارتسمت على زاوية شفتيه ابتسامة.

قال صوت من جديد:

ـ ماذا يفعل هذا بانتصابه هكذا أمام الخطوط؟

وقالت أصوات أخرى:

ـ خذ اليسار.. كلا، اليمين..

اتجه پيار إلى اليمين فصادف فجأة مساعداً عسكرياً للجنرال رايـڤسكي كان يعرفه. ولقد ألقى هذا الضابط عليه نظرة غاضبة كاد يعقبها بالشتائم عندما عرفه فجأة فحياه بإيماءة من رأسه. قال له وهو يتابع سيره:

ـ كيف! أنت، هنا؟

شعر پيار أنه في غير مكانه المناسب فخشي أن يكون مبعث إزعاج لذلك فقد مضى يتابع المساعد العسكري هدباً. سأله: هل أستطيع مرافقتك؟ ماذا يدور هنا على الضبط؟

أجابه المساعد العسكري: لحظة، لحظة!

أسرع إلى زعيم ضخم واقف وسط البرية فنقل إليه أمراً ثم عاد إلى پيار وقال له باسماً:

ـ ماذا جئت تفعل هنا يا كونت: إنك هنا لمجرد الفضول؟

ـ نعم، نعم..

وكان المساعد العسكري قد قفل راجعاً. قال:

ـ إن الحالة هنا محمولة والحمد لله. ولكن على الجناح الأيسر، من جانب باغراسيون، الحالة حرجة.

قال بيار: حقاً وأين هذا المكان؟

ـ اتبعني فوق الهضبة. يمكن أن يرى المرء من هنا بوضوح. إن الحالة عندنا، في موقع «البطارية» محمولة نوعاً ما.

أجاب بيار وهو يفتش بعينيه عن مرافقه:

إنني أتبعك.

حينئذ رأى بيار، للمرة الأولى، أن الجرحى منتشرون حوله على الأرض في حين كانوا ينقلون بعضهم على محفات. وفي ذلك المرج الأخضر الذي اجتازه بالأمس، كان جندي لا حراك به، ملقى على الهشيم وقد مال رأسه بشكل خرق بينما انزلقت عمرته على الأرض.

ـ وهذا، ألا يرفعونه من هنا؟ أقلها.

لم يستطع اكتشاف خادمه المرافق وبات الآن يسير على طول المنخفض الذي يؤدي إلى تل رانيـفسكي. وكان جواده الذي يهزه هزات وتيرية، يجد صعوبة في اللحاق بالمساعد العسكري. سأله رفيقه:

ـ إنك، بدون شك، لم تألف ركوب الخيل يا كونت؟

أجاب بيار بارتباك: بلى، لكن جري هذا شديد القسوة.

ـ إيه! ولكن.. إنه جريح في قائمته اليمنى فوق الركبة... رصاصة ولا ريب.. تهاني يا كونت: ها هو ذا عماد النار.

تجاوزا خلال الدخان الفوج السادس وراء المدفعية التي كان قصفها يصم آذانهما ووصلا إلى غابة صغيرة هادئة تفوح منها رائحة الخريف وهناك ترجلا ليتسلقا التل.

سأل المساعد العسكري: هل الجنرال هنا؟

فأجابوه وهم يشيرون إلى الجهة اليمنى: كان هنا منذ لحظة، لكنه ذهب.

استدار المساعد العسكري صوب پيار وبدا كأنه يتساءل عما سيفعله بهذا الرفيق غير المنتظر. فقال پيار:

ـ لا تقلق إذا كنت لا ترى مانعاً، فسأبقى هنا على التل.

ـ وهو كذلك. من هنا يمكن رؤية كل شيء دون خطر وسآتي لآخذك.

توجه پيار نحو «البطارية» في حين تابع الضابط سيره. ولقد قدر أن لا يلتقيا بعد ذلك اليوم.

اشتهر المرتفع الذي تسلقه پيار منذ حين، بين الروس فيما بعد باسم «بطارية التل» أو «بطارية» رايـڤسكي وبين الفرنسيين باسم «الحصن الكبير» أو «الحصن المشؤوم» أو «حصن الوسط» ولقد سقط حول هذه النقطة التي كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاح الموقع، عشرات الألوف من الرجال.

كان ذلك الحصن مشكلاً من خنادق محفورة على جوانب المرتفع الثلاثة، كانت عشر قطع مدفعية تبصق قذائفها خلال فتحاتها. وعلى جانبي التل، على صف واحد، ما فتئت قطعات مدفعية أخرى تدعم هذه بينما تكتلت قطعات المشاة إلى الوراء.

عندما وصل پيار إلى هناك، لم يفكر في أن هذه الخنادق القليلة، التي تنطلق منها قنابل هذه المدافع القليلة، تشكل أهم نقطة في ساحة المعركة. بل على العكس، وبسبب وجوده هناك حتماً، كان يظن أنه موقع من أقل المواقع أهمية.

جلس على حافة الخندق المحيط بمجموعة المدافع، وراح يتأمل ما يدور حوله بابتسامة المرح الغافل. وكان ينهض، من حين إلى آخر، والابتسامة مطبوعة على شفتيه، فيتجول بين قطعات المدفعية وهو يعمل جاهداً ألّا يزعج الجنود المكلفين خدمتها الذين كانوا يحملون الأكياس وعتاد المدافع،

ويروحون ويجيئون أمامه بلا انقطاع. وكانت المدافع تنطلق بعضها في إثر بعض مصحوبة بدويّ يصم الآذان وهي تغطي ما حولها بالدخان.

وعوضاً عن القلق الذي يُشاهد عادة عند المشاة من فوق التغطية، كان يشعر هنا، في «البطارية»، بين هذا الفريق الصغير من الرجال المنهمكين الذين يفصلهم عن الآخرين خندق، بحيوية مماثلة لدى كل فرد منهم وكأنها أليفة.

ولقد أزعجهم، بادئ الأمر، أن يظهر بينهم پيار بثوبه المدني وقبعته البيضاء فكانوا ينظرون إليه وهم يمرون به نظرات جانبية ملؤها الدهشة والذهول ولقد اقترب منه رئيس «البطارية» بحجة تفحّص حركة القطعة القصية، وكان رجلاً مديد القامة، ذا وجه منقوش بالجدري، وساقين طويلتين، وأخذ يتأمله ملياً بفضول.

وقال ضابط آخر، فتى صغير ذو وجنتين محمرتين، تخرج تواً من قطعات التدريب، كان يشرف على مدفعين عهد إليه بقيادتهما، قال لبيزوخوف بلهجة صارمة:

ـ هلا ابتعدت يا سيدي؟ إنك تزعجنا هنا.

أخذ الجنود يهزون رؤوسهم إشارة الامتعاض. ولكن، عندما تبين لهم أن هذا الشخص ذا القبعة البيضاء لا يقوم بأي عمل مؤذ بل يظل هادئاً في مجلسه على التل أو يتنزه في المكان وعلى شفتيه ابتسامة متهيبة ويفسح لهم في المجال بأدب وهو رابط الجأش ساكن تحت وابل النار سكونه في شارع عام، خلف امتعاضهم تدريجاً مكانه للونه من الميل المرح يشبه ذاك الذي يشعر به الجنود نحو الحيوانات الأليفة التي تتبعهم في الحملة، كالكلاب والديكة والماعز إلخ.. تبنوه، كل في سره، بل وأعطوه لقباً. لقد عمدوه باسم «سيدنا» وراحوا يمزحون بلطف بينهم حول موضوعه.

جاءت قذيفة تحرث الأرض على بعد خطوتين من پيار فأخذ هذا يجيل حوله عينيه الباسمتين وهو ينفض التراب الذي أصاب ثوبه.

قال له فتى عملاق، عريض المنكبين، مورد الوجه، وهو يظهر أسنانه البيضاء القوية: ألست خائفاً يا سيدي؟

ـ وأنت، هل أنت خائف؟

فاعترف الجندي:

ـ طبعاً.. إن هذه القذيفة لا ترحم. إذا ما سقطت على إنسان طارت أحشاؤه في الفضاء.. فالمرء مجبر على الشعور بالخوف..

أضاف جملته الأخيرة ضاحكاً.

توقف بعض الجنود قرب پيار وأبدوا حيرة مستطابة وهم يرونه يتحدث ككل الناس.

ـ هذه مهنتنا نحن. أما هو، السيد، فإنه مدهش. ها هو ذا سيد!

صاح بهم الضابط الشاب: إلى قطعكم!

وبدون شك، كانت المرة الأولى أو الثانية التي يقوم خلالها بأعباء رتبته إذا حكمنا على تمسكه المفرط بالشكليات حيال رجاله وحيال رؤسائه.

بدأت نيران المدافع والبنادق المتلاحقة تنتشر على عموم مساحة ساحة المعركة وبصورة خاصة على اليسار، صوب تحصينات باغراسيون. لكن الدخان كان يمنع رؤية أي شيء من المكان الذي وقف فيه پيار. أضف إلى ذلك أن العالم المستقل الذي قوامه رجال «البطارية»، كان يحتكر كل انتباهه. ولقد قامت في نفسه بعد الهيجان والتفكه اللذين أحدثهما المشهد وما يصحبه من ضوضاء المعركة في نفسه، عواطف جديدة مختلفة كلياً وخصوصاً بعد أن رأى ذلك الجندي الملقى وحيداً على المرج. راح يراقب الرجال من حوله بشره وهو جالس على المنحدر.

وحوالى الساعة العاشرة، كانوا قد حملوا من «البطارية» قرابة عشرين رجلاً وأتلفت قطعتان وراحت القذائف تزداد في تساقطها وباتت الرصاصات الطائشة أكثر تواتراً على الأسماع. لكن المدفعيين ظلوا يتابعون أحاديثهم المرحة وكأن شيئاً ما لم يحدث.

صاح أحدهم لدى وصول قنبلة مرت وهي تصفر:

ـ هذه «نانّا» حلوى بلغة الأطفال.

فأجاب آخر وهو يرى أن القنبلة سقطت بين قطعات التغطية: إنها ليست لنا، إنها «للبياده».

وسأل ثالث أحد المتطوعين وهو ينحني تحت لفحة ريح قذيفة:

ـ أراك تحيي أحد معارفك!

واجتمع بعض الجنود عند الحاجز ليروا ما يدور أمامهم.

قالوا:

ـ خذ، لقد أرجعوا الخطوط إلى الوراء، إنهم يتقهقرون.

فصاح بهم صف ضابط عجوز:

ـ هيه، أنتم هناك! اهتموا بعملكم. إذا كان الفتيان يتراجعون فمعنى ذلك أنهم في حاجة إليهم في مكان آخر.

وجذب أحدهم من كتفه وركز له ضربة من ركبته فارتفعت الضحكات وارتفع صوت آمر: القطعة الخامسة! أعيدوها!

فصرخ أولئك الذين كانوا يعيدون المدفع إلى مكانه بمرح:

ـ هو، هيس!.. هو، هيس!.. لنرفع بإيقاع كالذين يسحبون المراكب!

وراح المزّاح ذو الوجه المتورد الذي يشهد به إدمان صاحبه يقول:

ـ آه باه! كادت القذيفة تطيّر قبعة سيدنا.

وصاح بلهجة غاضبة موجهاً حديثه إلى قذيفة أخرى أطارت عجلة مدفع وساق رجل دفعة واحدة:

ـ هيه لا! لا تستطيع الانتباه!

وداعب آخر وهو يرى المتطوعين يحنون ظهورهم ويتسللون عبر «البطارية» لالتقاط الجريح: هه! يا من هناك! عصابة ثعالب!

صاحوا بأولئك القرويين الذين كانوا يترددون في نقل الجندي ذي الساق المبتورة:

ـ ترى هل الحساء مخالف لمزاجكم؟. إن هؤلاء الكسالى ينفرون دائماً من العمل.

وقالوا وهم يشاكسونهم: رباه، للأسف! هذا ممكن تماماً. لا بد وأن المهنة لا تروقهم..

لاحظ پيار أنه كلما ازدادت المقذوفات كثرة وقوة، ازداد معها الهيجان العام. لقد كانت نفوس هؤلاء البواسل كلهم تكن ناراً راحت انعكاساتها تظهر على وجوههم بازدياد أشبه بالبروق التي تخطط أديم سماء متجهّم بالغيوم الدكناء حتى لكأنه تحد موجّه إلى ما لا بد منه. أية أهمية لساحة المعركة إن بقيت في نفسه؟ لقد استبدت به هو الآخر تلك الشعلة المضطرمة التي راح يشعر أنها تكاد تلتهمه هو نفسه.

تراجع المشاة الذين كانوا يقاتلون في الساعة العاشرة، مشكلين سياجاً واقياً أمام «البطارية» وعلى طول كامنكا. ولقد شوهدوا يفرون حاملين جرحاهم على البنادق. وظهر على التل جنرال مع حاشيته فقال بضع كلمات للزعيم ثم ألقى على پيار نظرة غاضبة وانحدر بعد أن أصدر أوامره إلى وحدات التغطية بالانبطاح ليكونوا أقل تعرضاً للنيران وبعد لحظات، دوى قرع الطبول

في صفوف المشاة المتمركزين إلى يمين «البطارية» وتناهت إلى الأسماع أوامر صدرت ثم شوهدت الصفوف تتحرك إلى الأمام.

ألقى پيار نظرة من فوق الحاجز فاستلفت انتباهه بصورة خاصة ضابط المؤخرة، وكان شاباً ذا وجه ممتقع ممسكاً بسيفه منخفضاً، يجيل حوله نظرات قلقة.

غاب المشاة في الدخان وارتفع ضجيج متواصل وصوت طلقات بنادق سخية ولم يلبث الجرحى أن أعيدوا والقتلى على المحفات. وراحت القذائف تتساقط على «البطارية» بغزارة لم يسبق لها مثيل. وسقط رجلان بقيا مهملين في مكانهما وازداد نشاط الجنود بشؤون المدافع. لم يعد أحد يفكر في پيار، ولقد رجوه مرتين أو ثلاث مرات في غير لطف أو ينتحي جانباً، وراح قائد «البطارية» يتنقل بين مدفع وآخر وهو مقطب الحاجبين، بينما أخذ الضابط الشاب يبدي غيرة متزايدة ووجهه يزداد احمراراً. وكان الجنود يحملون القذائف ويعبئون المدافع وينجزون مهمتهم بتفاخر صميم، فبدوا في غدواتهم وروحاتهم وكأنهم يتحركون بقوة نوابض.

كانت العاصفة تقترب فأصبحت الوجوه كلها الآن تستعر بذلك اللهيب الذي كان پيار يترقب ظهوره. وكان واقفاً إلى جانب قائد المدفعية حينما أسرع إلى هذا الضابط المناوب وقال ويده إلى عمرته:

ـ لي الشرف بأن أخطرك يا زعيمي أنه لم يبق لدينا أكثر من ثمانية مقذوفات، هل يجب الاستمرار في إطلاق النار؟

صاح الزعيم، دون أن يجيب مباشرة، وهو منحن فوق الحاجز:

ـ أحشوا المدافع بقطع من الحديد!

لكن الضابط الصغير أطلق فجأة زمجرة ودار حول نفسه ثم انهار وكأنه

عصفور أصيب وهو في أقصى طيرانه. فبدا كل شيء غريباً غامضاً ومظلماً أمام ناظري پيار.

راحت القذائف الواحدة تلو الأخرى تمزق الحاجز والرجال والمدافع فلم يعد پيار يعير شيئاً آخر التفاتة غير هذا الدوي الذي لم يشعر به حتى ذلك الحين. وعن يمين «البطارية»، بدت له القطاعات عند صيحة «هورّا» تتراجع إلى الوراء بدلاً من أن تندفع إلى الأمام.

ضرب مقذوف حافة الحاجز فغطاه بالتراب ومرت كتلة سوداء أمام عينيه أعقبتها صدمة لينة، فدار بعض المتطوعين الذين كانوا على وشك الدخول إلى «البطارية» على أعقابهم فارين.

صاح الزعيم: أحشوا كل القطع، بقطع من الحديد!

وأسرع إليه صف ضابط مروع وهمس في أذنه أن الذخيرة قد نفدت، فكان أشبه برئيس خدم يبلغ صاحب الدعوة في أدق اللحظات بنفاد الخمر.

صرخ الزعيم ووجهه متضرج بالحمرة طافح بالعرق وعيناه اللامعتان تكادان تخرجان من محجريهما:

ـ ماذا يفعل أولئك الآثمون؟ اسرع إلى الاحتياط واحمل الصناديق!

واختتم قوله بنظرة حانقة وجهها إلى پيار فقال هذا:

ـ سوف أذهب كذلك.

ابتعد الزعيم بخطوات واسعة دون أن يجيبه وصاح آمراً:

ـ ممنوع القصف.. انتظروا.

اصطدم المدفعي الذي تلقى الأمر بحمل الذخيرة فصرخ به وهو يتدحرج على المنحدر:

ـ هه! يا سيدي، ليس هنا مكانك.

لكن پيار تبعه وهو يدور حول المكان الذي سقط فيه الضابط الشاب.

مرت قذيفة فثانية فثالثة فوق رأسه وسقطت إلى الأمام والجانب وإلى الوراء. وبينما هو قرب الصناديق الصغيرة المطلية بالأخضر، سأل نفسه: «إلى أين أذهب؟» توقف حائراً وهو لا يدري ما إذا كان عليه أن يتقدم إلى الأمام أو أن ينكص على عقبيه. وفجأة ألقته صدمة هائلة على الأرض وفي اللحظة نفسها أحاطت به شعلة من النار بينما دوى انفجار كالرعد صحبه صفير صمّ أذنيه.

ولما ثاب إلى رشده، وجد نفسه جالساً ويداه مستندتان إلى الأرض، لم يبق من الصناديق التي كان قريباً منها غير بضعة ألواح خشبية خضراء متفحمة وبعض الخرق المبعثرة فوق العشب الأمغر. وكان جواد يجر وراءه حطام نقالات، يجري مبتعداً وثانٍ ممدد على الأرض مثل پيار يطلق زمجرات طويلة.

الفصل الثاني والثلاثون

قفز پيار إذ استبدّ به الذعر تماماً وفرّ باتجاه البطارية وكأنها خشبة الخلاص الوحيدة من كل هذه الأهوال المحدقة به.

وبينما هو يدخل الخندق، وجد أنهم توقفوا عن إطلاق النار وأن أشخاصاً آخرين يحتلون المكان. من كان هؤلاء؟ وماذا يعملون هنا؟ لم ينتبه لأول وهلة. شاهد الزعيم مستلقياً على بطنه فوق الحاجز حيث كان يبدو من هناك وكأنه ينظر إلى الأسفل، وجندياً، كان قد لاحظ وجوده من قبل يتخبط وآخر أمسكوا به من ذراعه وهو يصيح: «إليّ أيها الأخ!» كما شاهد أموراً أخرى تماثلها في غرابتها.

لم يكن قد أدرك بعد أن الزعيم قد قُتل وأن الجندي المستغيث أسير، حينما طعن جندي آخر تحت أنظاره بحربة في ظهره. لم يكن قد وضع قدمه في الخندق بعد حينما ركض نحوه شخص في بزة زرقاء، نحيل أصفر يسبح في العرق وسيفه بيده وهو يصرخ، وبالغريزة، بغية تفادي الصدمة الشديدة، مدَّ پيار ذراعيه فأمسك بإحدى يديّ ذلك الرجل (وكان ضابطاً فرنسياً) من كتفه وبالأخرى من عنقه. فأسقط الضابط حسامه وأطبق عليه هو الآخر من ياقته.

بقيا بضع لحظات يتأمل أحدهما وجه الآخر الغريب عنه في ذعر وحيرة وكل منهما يتساءل: «ترى هل أنا الذي أسرته أم هو الذي يأسرني؟» وبدا الضابط الفرنسي ميالاً إلى هذا الرأي الأخير لأن يد پيار القوية التي أخذ الرعب الغريزي يحركها، راحت تضغط بشدة متزايدة على حنجرته. كاد يقول شيئاً

عندما مرت قذيفة فوق رأسيهما تماماً حتى كادت تمسهما، مصحوبة بصفير مروّع فظن بيار أن رأس الفرنسي قد اجتثت نظراً إلى السرعة التي خفض رأسه بها. فخفض هو رأسه الآخر وأفلت الرجل.

ودون أن يأبه الضابط كثيراً لأيهما وقع في أسر الآخر، فرّ مسرعاً إلى «البطارية» بينما انحدر بيار على التل وهو يتعثر بالقتلى والجرحى الذين خيل إليه أنهم إنما يتشبثون بساقيه. ولم يكد يبلغ السفح حتى اصطدم بحشد كبير من الروس يزمجرون ويسقطون ويتدافعون ويركضون كالإعصار نحو «البطارية». ذلك كان الهجوم الذي عزاه «إيرمولوف فيما بعد إلى صحة خطته وشجاعته بل إلى دهائه لأنه، إذا آمن المرء بأقواله، نثر فوق التل صلبان القديس جورج (أوسمة) التي كان يملأ بها جيوبه.

فرّ الفرنسيون رغم سيطرتهم على «البطارية» وبقي رجالنا يتبعونهم وهم يصيحون «هورّا» مسافة بعيدة حتى كاد يتعذر إيقافهم.

جاؤوا بأسرى من «البطارية» ومن بينهم جنرال فرنسي جريح أحاط به ضباطنا. وكانت طائفة من الجرحى من الروس وفرنسيين، عرف بينهم بيار وجوهاً رآها من قبل أصبحت الآن مقلوبة من الألم، تجر نفسها جراً أو تنقل على المحفات. رجع يصعد التل حيث بقي أكثر من ساعة دون أن يجد واحداً من أعضاء ذلك العالم المغلق الذي تبناه. مع ذلك، فقد تعرف بين العديد من القتلى المجهولين منه، إلى بعض من أولئك. فالضابط الصغير ما زال هناك قرب الحاجز غارقاً في بركة من الدم، والمدفعي ذو الوجه المحمرّ ما زال عرضة لحركات تشنجية، لكنهم أعرضوا عن نقله.

نزل بيار المنحدر ركضاً.

قال في سرّه وهو يمشي على غير هدى تابعاً مجموعة المحفات العائدة

من ساحة المعركة: «سوف يتوقف كل هذا. لا شك أنهم روعوا من هول ما فعلوا!».

كانت الشمس المحجوبة بالدخان، لا تزال بعيدة فوق الأفق فكان يُرى بغموض إلى الأمام وبصورة خاصة إلى اليسار، من جانب سيميونوڤسكوي حركة عنيفة أبعد ما تكون عن الخمود، بينما راح دويّ الانفجارات يزداد عنفاً كما يفعل الرجل الذي يجمع كل قواه وهو مبهور الأنفاس ليودعها صرخة أخيرة.

الفصل الثالث والثلاثون

على مساحة نصف ميل بين بورودينو وتحصينات پاغراسيون دارت رحى المعركة الرئيسية. وقد قامت أفواج فرسان: «أوڤـاروڤ» بحركة أثبتت بها وجودها حوالى منتصف النهار وقامت معركة من جهة أخرى وراء أوتيتسا بين پونياتوڤسكي وتوتشكوڤ. لكن هذه كلها لم تكن سوى عمليات بسيطة بالنسبة إلى ما دار في الوسط. لقد شبت المعركة الحقيقية على الساحة القائمة بين بورودينو والتحصينات، على مقربة من الغابة، على أرض خواء مكشوفة من الجانبين، وذلك بطريقة غاية في البساطة والبعد عن التعقيد.

اشتركت في القتال من الجانبين بضع مئات من القاذفات. ولما غطّى الدخان ساحة المعركة كلها، بدأت أفواج دو سيكس وكومـپان تتقدم نحو التحصينات بينما بدأ جيش نائب الملك إلى يسارها يتقدم نحو بورودينو.

وكانت المسافة بين حصن شيـڤاردينو حيث كان ناپليون، وبين التحصينات ربع ميل على الخط المستقيم وأكثر من نصف ميل منه إلى بورودينو، فكان الأمبراطور لا يستطيع أن يرى ما يجري بوضوح وخصوصاً أن الدخان المختلط بالضباب قد غطى المساحة كلها، ولم تُشاهد قطعات دو سيكس إلا عندما أخذت تنحدر إلى الوادي الذي يفصلها عن التحصينات. وما إن نزلت، حتى بات الدخان من الكثافة فوق التحصينات لدرجة ملأت معها الجانب المقابل للوادي فكان هذا الستار لا يترك المجال إلا لرؤية شيء ما أسود يشبه الجمهرة البشرية ومن حين إلى آخر التماع الحراب. ولكن ما

كان يمكن من شيـڤاردينو رؤية ما إذا كان الرجال جامدين أو متحركين وهل هم فرنسيون أم روس.

وكانت الشمس تصعد مشرقة في السماء فتغمر أشعتها المنحنية وجه ناپليون الذي كان يتفقّد المواقع واقياً عينيه بيده. وكان الدخان يمتد أحياناً إلى الأمام حتى ليخيل إلى الناظر أنه جيوش تتحرك. وفي الفترات بين طلقات المدفعية، كانت تسمع أصوات دون أن يدرك مدلولها.

وعلى الرابية، كان ناپليون ينظر خلال منظاره إلى ساحة المعركة الضيقة فكانت العدسة تريه دخاناً وجنوداً، جنوده أحياناً وأحياناً جنوداً من الروس. لكنه فيما بعد، لم يكن يستطيع بالعين المجردة أن يخمن مواقع ما رآه.

نزل من فوق التل وبدأ يذرع السفح، ويتوقف من حين إلى آخر ليصيخ السمع إلى دوي الانفجارات وليلقي نظرة على ساحة المعركة. ولكن لا من هناك ولا من أعلى المرتفع، حيث ظل عدد من جنرالاته، ولا من التحصينات كذلك التي كان الفرنسيون يحتلونها تارة ليسلموها إلى الروس تارة أخرى تاركين قتلى وجرحى وأحياء مروعين أو مذهولين، لم يكن ممكناً اتخاذ فكرة صحيحة عما يجري في ذلك المكان. ولقد تعاقب طوال ساعات بين قصف المدافع وأزيز الرصاص المتواصلين، فرنسيون وروس مشاة وفرسان، دون هوادة ولا ملل. كانوا يظهرون ويطلقون النار ويسقطون ويتدافعون دون أن يدري هؤلاء ماذا يفعلونه بأولئك ويصرخون ويتقهقرون.

وكان المساعدون العسكريون الذين يُوفدهم الأمبراطور بمهام يعودون ويقدمون تقاريرهم. والضباط، التابعون لماريشالاته يتصرفون مثلهم، ولم تكن كل تلك التقارير دقيقة، إذ لا يمكن في غمار المعركة أن يقول المرء على وجه الدقة ما يحدث في فترة ما، كما أن كثيراً من أولئك الضباط لم يستطيعوا الوصول إلى الأمكنة المحددة لهم فكانوا يكتفون بترديد ما سمعوه من أقوال،

أضف إلى ذلك أن الموقف كان يتبدل بينما هم يجتازون نصف الميل أو ثلاثة أرباع الميل التي تفصلهم عن سيدهم فتصبح الأخبار التي يحملونها خاطئة، وعلى هذا النحو، جاء مساعد عسكري تابع لنائب الأمبراطور يعلن أن بورودينو قد احتلت وأن الجسر القائم على نهر كولوتشا أصبح في أيدي الفرنسيين، وسأل عما إذا كان يجب إمرار القطعات عبر النهر، فأوعز إليه ناپليون أن ينظموهم على الشاطئ الآخر وأن ينتظروا.

ولكن، في اللحظة التي أعطى فيها ذلك الأمر، بل أكثر من ذلك ما كاد المساعد العسكري يغادر بورودينو، حتى استعاد الروس الجسر وأحرقوه. وكان ذلك أثناء الواقعة التي وجد پيار نفسه مشتركاً فيها عند بدء المعركة، وجاء مساعد عسكري آخر يهرول من التحصينات بأقصى ما في طاقة الجواد وقد امتقع وجهه من الذعر فأعلن للأمبراطور أن الهجوم قد صدّ وأن كومـپان قد جرح وداڤو قتل، في حين أنه بينما كان ينقل تلك الأنباء، احتلت قطعات أخرى التحصينات، أما داڤو، فإن «قتله» لم يتجاوز الرض الخفيف. وكان ناپليون، تبعاً لهذه البيانات الخاطئة يتخذ تدابير اتخذت من قبل آخرين قبله أو يستحيل تنفيذها سلفاً.

وكان الماريشالات والجنرالات الذين أصبحوا أقرب إلى خطوط النار والذين لم يدخلوها إلا نادراً، يصدرون من أنفسهم الأوامر بصدد اشتباكات الرماة وتدخل الفرسان أو المشاة، ولكن تلك الأوامر، مثل أوامر الأمبراطور نفسها، لم تكن تنفذ إلا على نطاق ضيق ضعيف، ولقد كانت الواقعة غالباً تخالف التدابير المتخذة، فكان الجنود الذين صدرت إليهم الأوامر بالتوجه إلى الأمام، يرون أنفسهم واقعين تحت نيران البنادق المتعاقبة، فيضطرون إلى الفرار، والجنود الذين يجب عليهم البقاء في أماكنهم يهجمون على العدو حينما يرونه برز أمامهم فجأة، ويندفع الفرسان دون أن يصدر إليهم الأمر،

للحاق بالروس المشتتين. وعلى هذا النحو، اجتاز فوجان من الفرسان وادي سيميونوڤسكوي فلم يكادوا يصلون إلى الجانب الآخر حتى لووا أعنّة جيادهم وانحدروا بأقصى سرعة، كذلك، اندفع أكثر من فوج من المشاة إلى أماكن لم يرسلهم إليها أحد. وعندما كان يجب استخدام المدافع أو تحريك المشاة أو الفرسان، كان ضباط الصف هم الذين يقومون بذلك بتصرفهم الذاتي دون الرجوع إلى نيْ أو داڤو أو مورا أو بالتالي إلى ناپليون. ولم يكونوا خائفين من أن يوجه إليهم اللوم على مثل ذلك التصرف، لأن المرء في المعركة لا يفكر إلا في إنقاذ أثمن ما عنده، أي حياته، ويمكن تبعاً لذلك أن يكون الخلاص تارة بالفرار وتارة بالسير إلى الأمام، لذلك فقد كان هؤلاء الرجال في حميا المعركة، يتصرفون تبعاً لشعورهم الآني.

وفي الواقع، إن تلك التحركات إلى الأمام أو إلى الوراء لم تكن لتخفف أو لتعدل موقف القطعات لأن تلك الهجمات والملاحم لم تكن لتحدث إلا أضراراً طفيفة إذا قورنت بأضرار القذائف والرصاص الذي كان يطير في منطقة القتال. كانت هذه هي التي تسبب الجراح والبتر والموت. ولا يكاد الجنود يجدون أنفسهم خارج مرمى المقذوفات، حتى يبادر الرؤساء في المؤخرة بفضل الطاعة، إلى إعادة تشكيلهم وإعادة إرسالهم إلى منطقة النار تلك، حيث يودي الخوف من الموت بتلك الطاعة مجدداً ويترك الجنود تحت رحمة غريزة المجموعات العمياء.

الفصل الرابع والثلاثون

وبالقرب من منطقة النار، كانت تقع مراكز قيادات جنرالات ناپليون: داڤو، وني، ومورا. بل إنهم دخلوا تلك المنطقة غير مرة وقادوا قطعات كثيرة العدد ومطواعة. ولكن، على عكس ما جرى دائماً في المعارك السابقة، لم يتقدم أحد ليعلن فرار العدو، فكانت تلك القطعات المنظمة بشكل ممتاز، تعود من هناك مشتتة مروعة فيعيدون تنظيمها. لكن أعدادها كانت تنقص نقصاً ظاهراً للعين. وحوالى الظهر أرسل مورا إلى الأمبراطور مساعداًعسكرياً في طلب المدد.

وكان ناپليون جالساً عند سفح التل يشرب «الـپونش» عندما وصل مساعد مورا العسكري يؤكد أن الروس سيسحقون إذا تفضل جلالته بإرسال فوج آخر إلى المعركة.

فقال ناپليون بلهجة حازمة وكأنه لم يفهم ماذا يريد ذلك الشاب الفتي الذي يشبه شعره الأسود الطويل العكف شعر سيده أن يقول:

إمدادات؟

وكرر يخاطب نفسه: «إمدادات! كيف يحدث أن يطلبوا إمدادات وهم الذين بين أيديهم نصف الجيش ويقتصر هجومهم على جناح ضعيف جداً لا يكاد يكون محصناً!».

ثم نطق بصوت مرتفع وبجفاء: قل لملك ناپولي (مورا) إن الظهر لم يحن وإنني لا أرى بوضوح بعد الوضع على رقعة الشطرنج. إمض.

فأطلق المساعد العسكري ذو الشعر الطويل العكف تنهدة عميقة ويده إلى حافة عمرته ومضى خبباً من جديد إلى المكان الذي كانوا يقتلون بعضهم بعضاً فيه.

وقف ناپولي واستدعى كولنكور وبيرتييه وراح يتبادل معهما مواضيع غريبة تماماً عن سياق المعركة.

وبدأ الحديث يلذ للأمبراطور حينما انتقلت عينا بيرتييه فجأة إلى جنرال تتبعه حاشيته، جاء بأقصى سرعة الجواد قاصداً التل. كان ذلك هو بيليار. قفز من على جواده المغطى بالزبد وتقدم بخطى سريعة إلى الأمبراطور وراح يعرض عليه بصوت مرتفع جريء ضرورة إرسال الإمـدادات. كان يقسم بشرفه أن الروس ضائعون لا محالة إذا دخل فوج آخر المعركة.

هز ناپليون كتفيه واستمر في تمشيه دون أن يجيب فراح بيليار يتكلم بحمية إلى جنرالات الحاشية الذين أحاطوا به.

قال الأمبراطور وهو يعود إلى الجنرال:

ـ إنك محتد كثيراً يا بيليار! من السهل أن يخطئ المرء في حميا الحركة، إذهب وافحص الموقف وعد إليّ...

لم يكد بيليار يختفي عن الأنظار، حتى وصل رسول آخر من نقطة أخرى من ساحة المعركة. قال ناپليون ساخطاً بلهجة الرجل الذي يرى العوائق تبعث في طريقه باستمرار: حسناً! ماذا هناك؟

شرع المساعد العسكري يقول: يا صاحب الجلالة، إن الأمير...

فأعقب الأمبراطور بحركة غاضبة: يطلب المدد؟

فأشار الضابط برأسه أن نعم وراح يقدم تقريره. استدار الأمبراطور، لكنه لم يلبث أن رجع على عقبيه والتفت إلى بيرتييه وقال: «لذلك الفرخ الذي جعلته نسراً» كما أخذ يدعوه فيما بعد:

ـ لا شك أنه يجب إعطاؤهم إمدادات.. هيّا من سنرسل؟

فأجاب بيرتييه الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الأفواج والفيالق والألوية: لنرسل فوج كلاباريد يا صاحب الجلالة.

فأيده ناپليون بحركة من رأسه.

انطلق المساعد العسكري نحو فوج كلاباريد وبعد دقائق، بدأ فوج الحرس الفتي، الذي كان مقاماً احتياطاً وراء التل، يتحرك وناپليون ينظر بسكون في ذلك الاتجاه.

وفجأة قال لبيرتييه: كلا، لا أستطيع إرسال كلاباريد. أرسل فوج فريان.

وعلى الرغم من أن إرسال فوج فريان بدلاً من فوج كلاباريد لم يكن له أية ميزة أو فائدة، وأن إبدال فوج بآخر سبب ضياعاً حقيقياً للوقت، فإن هذا الأمر نفذ بكل دقة. لم ير ناپليون أنه حينذاك كان يلعب حيال قطعاته دور الطبيب الذي تزيد أدويته من خطورة المرض، وهو الدور الذي كان بارعاً في تمييزه ونقده عند الآخرين.

اختفى فوج فريان في الدخان كالأفواج الأخرى. ومن نقاط مختلفة، استمر المساعدون العسكريون يهرعون ليقولوا، وكأنهم وحدوا كلمتهم، الشيء بعينه. كانوا جميعاً يطلبون الإمدادات ويؤكدون أن الروس أبعد من أن يفكروا في التراجع، يفتحون نيران جحيم تذوب فيه القطعات الفرنسية.

وبقي ناپليون متفكراً على مقعده.

اقترب السيد دو پوشيه، هاوي الأسفار الذي لم يأكل شيئاً منذ الصباح من جلالته وعرض عليه بكل احترام تناول الإفطار. قال:

ـ آمل أنني أستطيع منذ الآن أن أقدم لجلالتكم تهاني بالنصر..

فهز ناپليون رأسه نفياً. واعتبر السيد دو پوشيه أن تلك الإشارة تعني

النصر وليس الطعام، لذلك فقد سمح لنفسه أن يلاحظ بلهجة محترمة أن ما من شيء في الدنيا يمكن أن يمنعنا من تناول الطعام ما دمنا نستطيع أن نتناوله.

قال الأمبراطور فجأة بلهجة غاضبة: امضِ عن...

وأدار له ظهره. فتهلل وجه السيد دو پوشيه بابتسامة ورعة تجمع بين العطف وخيبة الأمل والإعجاب ومضى بخطواته المنزلقة يلحق بالجنرالات الآخرين.

كان ناپليون يشعر بإحساس اللاعب المجدود دائماً، الذي يلقي بجنون معتمداً على حظه، بكل ماله على الطاولة وفجأة، يرى بمزيد الألم أنه على وشك أن يخسر لأنه أفرط في حساب الشوط.

كانت قطعاته هي الأولى نفسها وجنرالاته أنفسهم والتدابير المتخذة نفسها وأمر المعركة نفسه والنداء القصير الحازم إياه. ثم إنه نفسه لم يتبدل، وهو يعرف ذلك جيداً. وهو يزعم لنفسه أنه أصبح أكثر روية واختباراً من ذي قبل وأن العدو لايزال نفسه الذي كان في أوسترليتز وفريدلاند. فلماذا إذن تصبح ضربته الرهيبة المفاجئة عاجزة وكأنها بسحر ساحر؟

لقد كانت وسائله الفنية التي طالما نجحت معه بمألوف العادة: تركيز المدفعية في نقطة واحدة، اختراق الخطوط بواسطة الاحتياطي، هجوم هؤلاء الرجال الحديديين العتيد الذين يشكلون فرق فرسانه، كل هذه الوسائل استعملها دون أن يحصل على النصر. بينما الأنباء نفسها تتعاقب: جنرالات قتلى أو جرحى، سرعة إرسال الإمدادات، تشتت القطعات، استحالة هزم الروس.

كان يكفي من قبل، الاستيلاء على مركزين أو ثلاثة مراكز والنطق بجملتين أو ثلاث حتى يرى الماريشالات والمساعدين العسكريين يصلون

متهللي الوجوه يعلنون النصر مع جيوش كاملة من الأسرى وباقات من الأعلام والشعارات العدوة والمدافع والصناديق على شكل أسلاب. وما كان على مورا إلا أن يطلب إطلاق فرسانه حتى يغنم عربات النقل. هكذا جرت الأمور في «لودي» ومارانغو وأركول وإيينا وأوسترليتز وواغرام إلخ.. إلخ.. فما الذي حدث لجنوده إذن؟

كان ناپليون يرى الأمور، على الرغم من نبأ احتلال التحصينات، تسير على نهج مخالف تماماً لسير معاركه السابقة. وكان يرى أن من حوله من الرجال وكلهم خبروا الحرب، يشعرون مثل شعوره. كانت الوجوه كلها حزينة والعيون تتجنب لقاء نظراته باستثناء السيد دو پوشيه الذي بدا وحده غير مقدر خطورة الموقف. وكان ناپليون لا يجهل بحكم خبرته، معنى قتال يستنفد طوال ثماني ساعات من الجهد دون أن ينتزع المهاجم النصر. لقد كان أشبه بالهزيمة بالنسبة إليه، فالميزان يميل بشكل يصبح معه أبسط حادث قميناً بضياعه هو وجيشه.

وعندما كان يستعرض هذه الحملة الغريبة التي لم يحصل خلالها طوال شهرين كاملين على نصر واحد ولم يغنم علماً واحداً أو مدفعاً واحداً ولا فصيلة من الجند ويتأمل هذه الوجوه المكتئبة في السر ويسمع تلك التقارير عن مقاومة العدو العنيدة. كان يخيل إليه أنه فريسة حلم مخيف. طافت برأسه كل الحوادث العرضية التي يمكن أن تسبب ضياعه: يهجم الروس على جناحه الأيسر ويخرقون خط الوسط فتأتي قذيفة تائهة تذهب به شخصياً. إن كل الأشياء ممكنة الوقوع. كان في معاركه السابقة لا يحسب إلا إمكانيات النجاح. أما الآن، فقد بات ينتظر عدداً من الأحداث العارضة السيئة. نعم، لقد كان ذلك يشبه الحلم المرعب: يحلم المرء بأن آثماً يهاجمه، فيشهر سلاحه

ليضربه به بكل قواه لكنه يشعر بأن يده تتدلى عاجزة كالخرقة، فيعتصر قلبه خوف من موت لا مفر منه.

ولقد أحدث نبأ مهاجمة الروس لجناحه الأيسر، مثل ذلك اللون من الخوف في نفس نابليون. فبقي متهالكاً فوق كرسي الميدان ورأسه بين يديه، اقترب بيرتييه منه وعرض عليه الطواف بالخطوط لتكوين رأي صحيح عن الموقف. فأجابه: ماذا؟ ماذا تقول؟.. نعم، مر لي بجواد.

اعتلى صهوة جواده ومضى نحو سيميونوڤسكوي.

على طول الطريق التي مر بها، وسط الدخان الذي كان ينقشع ببطء، كانت جثث الرجال والخيول ملقاة سابحة في برك الدم، منفردة أو مجتمعة حتى أن نابليون وملازميه لم يروا قط من قبل مثل ذلك الهول ولا ذلك العدد من الجثث المجتمعة على رقعة بمثل تلك المساحة الضيقة. وكان دوي المدافع الذي لم يتوقف منذ عشر ساعات كاملة ولم يفتأ يصفع صحناء الأذن، يزيل جلال المشهد كما تبرز الموسيقى قيمة الصور الحية.

وعندما بلغ مستوى سيميونوڤسكوي، رأى نابليون خلال الدخان، صفوفاً كاملة من الجنود مرتدين أزياء لم تكن ألوانها مألوفة لديه. إنهم الجنود الروس.

كان هؤلاء متمركزين وراء القرية والمرتفع وقاذفاتهم تطلق النار دون تمهل وتملأ خطهم كله بالدخان. لم يعد هناك قتال بالمعنى المفهوم، والمجزرة الدائرة لا يمكن أن تعود بفائدة على الروس ولا على الفرنسيين. فأوقف الأمبراطور جواده وعاد يستسلم للتفكير حتى أخرجه بيرتييه منه. وهو يبدو وكأنه من صنعه لأنه مسؤول عنه. فبدا له للمرة الأولى مريعاً عديم النفع بسبب عدم نجاحه بدون شك.

عرض عليه أحد الجنرالات الذين برفقته أن يأمر بإطلاق الحرس القديم. فتبادل «ني» وبيرتييه النظر وطافت على شفاههما ابتسامة ازدراء لهذا العرض الأهوج.

وأطرق ناپليون برأسه وبقي فترة طويلة لا يتكلم وأخيراً قال:

ـ لن أهدم «حرسي» على بعد ثمانمائة ميل من فرنسا.

ولوى عنان جواده وعاد إلى شيـڤاردينو.

الفصل الخامس والثلاثون

شاهد پيار كوتوزوف على المقعد المغطى بالنجد جالساً عند الصباح متهاوياً على ذاته بكل وزن جسمه حانياً رأسه الأشيب. لم يكن يتخذ تدبيراً معيناً بل يكتفي بموافقته على ما يعرض عليه أو حجبه عنه.

كان يجيب: «نعم، نعم، افعل هذا» ويقول لهذا أو ذاك من أصدقائه: «نعم، نعم، اذهب يا عزيزي، اذهب لنرى» أو يعلن: «كلا، لا فائدة، الانتظار أفضل». ويستمع إلى التقارير التي تنقل إليه ويعطي الأوامر متى طلبت منه. لكنه كان يبدو أشد اهتماماً بالانطباعات البادية على الوجوه واللهجات التي ينقل بها العسكريون تقاريرهم من اهتمامه بمدلول الكلمات نفسها. وكانت خبرته الطويلة في الحروب وحكمته كعجوز تعلمانه أن رجلاً واحداً لا يمكنه إدارة مئات الألوف مع الآخرين الذين يناضلون ضد الموت. وكان عارفاً أن ما يقرر مصير المعارك ليس التدابير المتخذة من قبل الجنرال القائد الأعلى ولا الموقع الذي تحتله القطعات ولا عدد المدافع والقتلى بل تلك القوة الخفية التي تسمى معنوية الجنود. لذلك راح يراقب تلك المعنوية ويحاول قدر طاقته أن يوجهها. كانت قسمات وجهه تنطق بانتباه دائم هادئ وجهد يتغلب على تعب جسم هدّته السنون.

جاؤوا، في الساعة الحادية عشرة، يعلمونه أن التحصينات التي احتلها الفرنسيون قد استعيدت الآن وكان الأمير پاغراسيون أُصيب بجرح. فندت عن كوتوزوف صيحة تعجب وهز رأسه ثم أمر أحد مساعديه العسكريين:

ـ امض لزيارة الأمير بيوتر إيڤانوڤيتش واستعلم تفصيلاً عن حاله.

ثم استدار إلى الأمير دو وورتمبيرغ الذي كان واقفاً وراءه وقال له:

ـ تفضل سموك بالاضطلاع بقيادة الجيش الثاني؟

ولم يمض وقت طويل على ذهاب الأمير، بل قبل أن يبلغ سيميونوڤسكوي رجع المساعد العسكري يعلن «لعظيم الرفعة» أنه يطلب إمدادات.

فقطب كوتوزوف حاجبيه وأرسل فوراً الأمر إلى دوختوروف أن يتولى قيادة الجيش الثاني زاعماً أنه بعد أن أمعن التفكير، وجد أنه لا يستطيع الاستغناء عن الأمير في مثل هذه المناسبات الخطيرة وأمر أن ينقل إليه رجاء العودة إلى جانبه.

ولما أبلغوه أن مورا وقع في الأسر، طافت على شفتيه ابتسامة عندما راح أعضاء أركان حربه يقدمون إليه تهانيهم وقال:

ـ ليس بهذه السرعة أيها السادة. لا شيء خارقاً في أن نربح المعركة وأن يسقط مورا في الأسر. ولكن من الأفضل أن ننتظر قبل أن نبتهج.

مع ذلك، فقد أرسل مساعداً عسكرياً لينشر هذا النبأ بين الصفوف.

وعندما أسرع شتشربينين من الجناح الأيسر يعلمه أن الفرنسيين احتلوا التحصينات وسيميونوڤسكوي كذلك، خمن من أمارات وجهه ومن الضجيج الذي كان يتناهى من ساحة المعركة إلى أسماعه أن الأمور لا تسير على ما يرام. فوقف وكأنه أراد أن يحرك ساقيه قليلاً وأمسك بذراع الضابط ثم انتحى به جانباً ليصغي إلى تقريره.

قال لإيرمولوف: اذهب يا عزيزي. أنظر ما إذا كان يمكن عمل شيء ما.

كان كوتوزوف في غوركي، في وسط الموقع الروسي تماماً. ولقد صد الهجوم الذي قام به نابليون مراراً على جناحنا الأيسر. أما في الوسط، فلم يجاوز الفرنسيون بورودينو بينما هزم أوڤاروف العدو في الجناح الأيسر.

حوالى الساعة الثالثة، توقفت الهجمات الفرنسية، واستطاع كوتوزوڤ أن يقرأ على وجوه الجنود العائدين من الميدان ووجوه الذين من حوله، هيجاناً يبلغ أقصى المراحل. وكان راضياً عن نهار جاء بنتائج فاقت ما كان يتوقع. لكن القوة الجسدية كانت تخون ذلك العجوز. ولقد سقط رأسه على صدره بل وقع له مرة أن نام. قدموا له العشاء.

وبينما هو يأكل، شوهد ڤولزوغن، المساعد العسكري لجلالته، ذلك الذي أعلن بينما كان يمر بالقرب من أندريه أن الحرب يجب أن تطول وأن پاغراسيون لا يمكنه الاحتمال، يصل من لدن باركلي، ليرفع تقريره عن الموقف في الجناح الأيسر. لقد قدر باركلي دوتوللي الحصيف، إزاء تزايد عدد الجرحي. وفوضى المؤخرة، بعد أن دقّق النظر في كل الاحتمالات، أن المعركة قد خسرت، فأرسل تبعاً لذلك صفيه بسرعة يحمل النبأ إلى القائد العام.

حدق كوتوزوڤ بعينيه الصغيرتين الناريتين إلى وجه ڤولزوغن وهو يمضغ بصعوبة قطعة الدجاج المشوي بينما اقترب بخطى متكاسلة وانحنى محيياً وابتسامة مطاوعة تعلو شفتيه.

كان ڤولزوغن يعامل القائد الأعلى بتكلف مشوب بقلة الحياء وكأنه يقول: للروس ملء الحرية في أن جعلوا من الهرم الفاني معبوداً لهم، لكن عسكرياً من طرازه هو، يعرف كيف يتصرف. حدث نفسه وهو يلقي نظرة ساخرة على الأطباق الموضوعة أمام كوتوزوڤ: «إنّ السيد العجوز، وهكذا كان الألمان يسمونه فيما بينهم، يرفه نفسه». وبدأ يعرض على «السيد العجوز» الموقف في الجناح الأيسر كما قدره باركلي وكما لمسه هو بنفسه.

ـ أصبحت كل نقاط مراكزنا بين أيدي العدو دون أن نستطيع له صداً نظراً إلى حاجتنا إلى الجنود وجنودنا يهربون ويستحيل علينا إيقافهم.

توقف كوتوزوف عن المضغ وراح يحملق في ڤولزوغن وكأنه لا يفهم ما يقوله. ولدى رؤيته انفعال «السيد العجوز» قال له المساعد العسكري:

ـ لقد اعتبرت أنه ليس من حقي أن أخفي على سموك ما رأيت. إن القطعات في فوضى عامة..

صاح كوتوزوف الذي وقف فجأة ومشى نحو ڤولزوغن:

ـ هل رأيت ذلك؟ هل رأيت ذلك؟

كان الغضب يكاد يخنقه وهو يهدده بيديه المرتجفتين:

ـ إليّ أنا، تبلغ بك الجرأة لتقول ما تقول؟... إنك لا تعرف شيئاً من شيء يا سيدي. قل للجنرال باركلي عن لساني إن معلوماته خاطئة وإنني بصفتي قائداً أعلى، أعرف سير المعركة أفضل مما يعرف هو.

همّ ڤولزوغن أن يجيب لكن كوتوزوف قاطعه:

ـ لقد صُدّ العدو على الجناح الأيسر وهزم على جناح الأيمن. فإذا كنت أسأت النظر يا سيدي فإنّ هذا لا يجيز لك أن تروي ما أنت جاهله. تفضل بالذهاب إلى الجنرال باركلي وانقل له رغبتي في مهاجمة العدو غداً دون تغيير.

لزم الجميع الصمت فلم يسمع إلا صوت تنفس الجنرال العجوز اللاهث.

استرسل كوتوزوف يقول وهو يرسم إشارة الصليب على صدره بينما طفرت الدموع من مقلتيه:

ـ لقد صُدّوا في كل النقاط شكراً لله ولجنودنا البواسل. لقد هزم العدو وغداً سنطرده من أرض روسيا المقدسة.

هز ڤولزوغن كتفيه وابتعد وهو يدل بسخريته على ما يراه في كفاءة الرجل العجوز.

قال كوتوزوف وهو يشير إلى فتى بهيّ الطلعة، متين البنية، ذي شعر فاحم، وصل في تلك اللحظة فوق التل:

ـ وانظر ها هو بطلي.

كان القادم هو الجنرال رايـﭬسكي الذي لم يغادر طوال النهار النقطة الحساسة في المعركة. أعلن أن القطعات لا تزال صامدة وأن الفرنسيين لم تعد لديهم الجرأة على مهاجمتهم.

ولما سمعه كوتوزوف يتحدث على هذا النحو، قال له بالفرنسية:

ـ ألا تظن كالآخرين إذن أنه يجب علينا أن ننسحب؟

ـ على العكس يا صاحب السمو. إن الأكثر عناداً هو الذي ينتصر في المواقف المتأرجحة. ومن رأيي...

نادى كوتوزوف: كاييساروف! اجلس هنا واكتب الأمر اليومي لنهار الغد. وأنت، وأشار إلى مساعد عسكري آخر، امض للطواف بالصفوف وأعلن أننا سننتقل إلى الهجوم غداً.

وفي تلك الأثناء، أعلن ﭭولزوغن الذي أرسله باركلي للمرة الثانية، أن جنراله يرغب في الحصول عى تأييد خطي للأمر الذي أعطاه الماريشال.

ودون أن يشرفه كوتوزوف بنظره، أمر بكتابة ذلك الأمر ليرفع المسؤولية عن القائد الأعلى السابق الحصيف بناء على إصراره.

وبفضل ذلك الرباط الغامض الذي لا يوصف والذي يبقي الجيش كله على حالة فكرية واحدة، تلك الحالة الفكرية التي يدعونها معنويات الجيش والتي تشكل عصب الحرب، فإنّ أقوال كوتوزوف وأمره اليومي الذي يعلن فيه الهجوم في اليوم التالي، انتشرت من فورها من طرف إلى آخر بين قطعاتنا.

وبدون أي شك، إن عبارات أمره اليومي نفسها ليست هي التي بلغت الحلقات الأخيرة من تلك السلسلة. بل إنه لم يكن هناك شيء مما قال في

الأقاصيص التي تنوقلت من واحد إلى آخر. لكن معاني كلماته تنتقل من قريب إلى قريب لأنها لم تكن تعكس ترتيبات خادعة مموهة بل المشاعر العميقة التي تعتلج في نفس الجنرال القائد الأعلى كما تعتلج في نفس كل روسي.

فلما علموا أننا سنهاجمهم غداً وشعروا بتأييد ما كانوا يرغبون فيه من جانب القيادة العليا، استعاد أولئك الرجال المنهوكون المترددون ثقتهم.

الفصل السادس والثلاثون

حتى الساعة الثانية، بقي فيلق الأمير أندريه تابعاً للاحتياطي الذي كان بعيداً عن دائرة الحركة وراء سيميونوفسكوي تحت نيران كثيفة من المدفعية. وفي ذلك الحين، سُير الفيلق الذي فقد حوالى مائتي رجل، إلى الأمام عبر حقل من الخرطال وطئته الأقدام حتى الفراغ الذي يفصل بين قرية بورودينو و«بطارية» التل. كان ذلك الفراغ من الأرض هو المكان الذي سقط فيه أثناء النهار ألوف من الرجال، والذي أصبح حوالى الساعة الثانية على الضبط نقطة التقاء لنيران متأججة أخذت بضع مئات من مدافع العدو تصبها عليه.

دون أن يغادر مكانه أو يطلق رصاصة واحدة، فقد الفيلق هنا، ثلث عدده. وكانت المدافع إلى الأمام وبصورة خاصة إلى اليمين تقصف وسط دخان كثيف ومن منطقة الدخان الغامضة تلك، راحت القذائف والقنابل تنهمر دون انقطاع يواكبها صفير قصير أو طويل. وكانت المقذوفات أحياناً تتجاوز الهدف طوال ربع ساعة وكأنها تتيح فترة استراحة ولكن أحياناً كان عدد كبير من الرجال يصاب في غضون دقيقة واحدة، ولا يكف العاملون عن نقل الجرحى والجثث.

وكانت إمكانية البقاء على قيد الحياة، لدى كل صدمة جديدة، تتضاءل بالنسبة إلى الذين لم يقتلوا بعد، ولقد انتشر الفيلق على شكل ألوية تفصل بين كل واحد منها ثلاثمائة خطوة. لكن الصمت نفسه والفتور عينه كانا يخيمان عليها كلها. وإذا تبودلت بعض الأحاديث النادرة، فهي سرعان ما

كانت تتوقف كلما سقط مقذوف وارتفعت بعده صيحة: «محفات!» ولقد بقي الجنود معظم الوقت تبعاً لأوامر الرؤساء جالسين على الأرض. فكان هذا يرفع عمرته ويحرك السير الجلدي المحيط بها برفق، وذاك ينظف حربته بالصلصال الجاف الذي يحيله دقيقاً بين يديه وثالث يسوي تجهيزاته ويعيد شدّها ورابع يحل الأشرطة الكتانية التي يستخدمها بدلاً من الجوارب ثم يعيد لفها مجدداً حول ساقيه ويضع حذاءه في قدميه بهدوء. وكان البعض يبنون بيوتاً صغيرة من الحصى التي يلتقطونها من الأخاديد أو يضفرون الحصر مستعملين قش اللفاظ ويبدون جميعهم منهمكين في انشغالاتهم. وعندما يقع القتلى أو الجرحى في صفوفهم ويقوم رجال النقالات بعملهم، وعندما يتراجع رجالنا أو تُرى خلال سحب الدخان تشكيلات العدو المتراصة، لم يكن أحد يعير ذلك التفاتاً.

وفي المقابل، ما إن تشرع مدفعيتنا أو يبدأ فرساننا بالتقدم أو مشاتنا بالسير، حتى ترتفع صيحات التشجيع من كل مكان. لكن الانتباه العام كان عالقاً بصورة خاصة ببعض الحوادث العارضة التي لا علاقة لها إطلاقاً بسياق المعركة حتى ليقال إن انتباه هؤلاء الرجال الضعفاء معنوياً يرتكز على أحداث الحياة اليومية المألوفة. جاءت «بطارية» فمرت أمام جبهة القطعات، ولما مرت الصناديق، شوهد أحد خيول النقل وقد اشتبكت قائمته بالمجرة. «ايه! هناك، أيها الحمّال!.. سوّ هذا وإلا فسيتعثر.. إيه! ماذا بهم، إنهم ولا شك عميان!». واجتاحت صيحات التعجب تلك كل الفيلق.

ومرة ثانية اجتُذبت الأنظار كلها إلى كلب صغير يميل لونه إلى الاصفرار، خرج، والله يعمل من أين، منتصب الذيل، إلا أنه لم يلبث إثر سقوط قذيفة بالقرب منه أن أطلق نباحاً متوجعاً ولاذ بالفرار وهو يضم ذيله، فانفجر الفيلق كله ضاحكاً. لكن تلك الألهيات لم تكن لتدوم إلا لحظة في حين أنه مضى

أكثر من ثماني ساعات على هؤلاء الرجال الجياع وهم في أماكنهم تحت الرعب الدائم من الموت ووجوههم الممتقعة العابسة تزداد شحوباً وانقباضاً.

وكان الأمير أندريه، ممتقع الوجه هو الآخر مقطب الحاجبين، يروح ويجيء في مرج مجاور لحقل الخرطال مطرق الرأس ويداه وراء ظهره، عاطلاً ليس لديه ما يفعله أو يصدره من أوامر. لقد كان كل شيء يعمل تلقائياً كانوا يحملون القتلى إلى المؤخرة وينقلون الجرحى والصفوف تعود إلى التشكل، وأولئك الذين هموا بالفرار، ما لبثوا أن عادوا. ولقد قدر في البداية أن من واجبه بعث الشجاعة في نفوس رجاله بإعطائهم مثلاً حياً بمروره بين صفوفهم لكنه ما لبث أن أدرك أنه عناء باطل. كانت كل قواه الروحية، كما كان حال كل فرد من جنوده، لا تميل لاشعورياً إلا إلى تجاهل فظاعة الموقف الذي هم فيه جميعاً فكان إذن يروح ويجيء في المرج، يجر قدميه، فيطأ العشب ويتأمل الحشائش التي يغطيها حذاؤه. وكان تارة يوسع خطاه محاولاً وضع قدميه فوق الآثار التي خلفها الحصادون وطوراً يحصي خطواته ويحسب عدد المرات التي سينتقل فيها من أخدود إلى آخر حتى يقطع ربع ميل أو ينتزع نبات الأرطماسية الذي ينبت على التخوم فيسحقه بين يديه ويستنشق رائحته القوية المرة.

أما فكره الذي كان شديد الفاعلية بالأمس، فقد بدا أشبه بالمتخدر. كان يصيخ السمع إلى تلك الضوضاء المتشابهة أبداً بأذن مكدودة: زمجرة المقذوفات عند اندفاعها، صفيرها عند وصولها، ويلقي بين الحين والآخر نظرة إلى وجوه الرجال التي ألفها منذ زمن بعيد، رجال اللواء الأول وينتظر. حدث نفسه وهو يسمع صفيراً مشؤوماً في منطقة الدخان: «ها هي ذي واحدة.. موجهة إلينا أيضاً! واحد.. اثنان.. لا شك أن هذه لنا..» ثم يقاطع نفسه ليلقي نظرة على الصفوف. «كلا لقد تجاوزتنا.. ولكن حذار التالية..»

ثم يعود إلى سيره ماداً خطاه ليبلغ التخوم في ست عشرة خطوة وفجأة، ارتفع صفير وصدمة! وعلى مسافة خمس خطوات منه، انغرزت قذيفة في الأرض الجافة فنثرت التراب في كل الاتجاهات. عاد نحو جنوده من جديد. لا شك أن إصابات كثيرة وقعت بينهم إذ شاهد غوغاء في اللواء الثاني.

صاح بأمر ضابطه التابع: امنعهم من تشكيل جماعات.

فنفذ هذا الأمر واقترب من الأمير أندريه بينما جاء من الجانب الآخر قائد اللواء على صهوة جواده. صرخ صوت مروع: حاذر!

وكالعصفور الصغير الذي يرفرف وهو يردد صفيره، جاءت قنبلة فحطت على الأرض بهدوء على بعد خطوتين من أندريه قرب قائد اللواء تماماً. ولقد صهل الجواد دون أن يأبه إذا كان من المستحسن خوفه أو الاحتفاظ به، وانتصب على خلفيتيه وقفز جانباً فكاد يسقط الماجور. وانتقل الرعب من الحيوان إلى الرجال.

قال صوت الضابط التابع الذي استلقى على الأرض: .. ألق بنفسك على الأرض!

لكن الأمير أندريه بقي واقفاً متردداً. وكانت القنبلة التي لايزال الدخان يتصاعد منها، تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحد بين المرج والحقل، قرب دغل من نبات الأرطماسية.

فكر وهو يعانق العشب وسوق الأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرة جديدة، نظرة مفعمة بالرغبة: «أهو الموت؟ لا أستطيع الموت ولا أريد أن أموت. إنني أحب الحياة، أحب هذا العشب وهذه الأرض والهواء الذي أستنشقه..» وبينما هو يحدث نفسه بذلك، تذكر أنهم ينظرون إليه فقال للضابط التابع: ألا تخجل يا سيدي؟ أي..

لكنه لم يستطع أن يعقب قوله. دوّى الانفجار مصحوباً بصوت قريب من

انصفاق الزجاج المحطم ورائحة بارود كريهة. ألقي الأمير جانباً فرفع ذراعاً في الهواء وهوى ووجهه إلى الأرض.

أسرع بعض الضباط وانسابت على العشب من جنبه الأيمن بركة عريضة من الدم.

توقف المتطوعون الذين استدعوا بنقالتهم وراء الضابط. وكان الأمير الممدود على بطنه ووجهه مدفوناً في الأعشاب.

ـ حسناً! ماذا تنتظرون؟ اقتربوا.

حمل القرويون الأمير أندريه من كتفيه وساقيه. ولكنهم عادوا فسجوه على الأرض بعد أن تبادلوا نظرة إثر إطلاقه أنات أليمة. صاح صوت:

ـ احملوه، ضعوه على المحفة!

فحملوه من كتفيه وسجوه على النقالة. وصاح عدد كبير من الضباط مروعين: آه! يا رب، يا رب! هل هذا ممكن؟ في البطن! إنه الموت... آه! يا إلهي!

وشرح الضابط التابع قائلاً: لقد مست أذني.

حمل القرويون المحفة على أكتافهم وهرعوا متعجلين إلى عربة الإسعاف عن طريق ممشى فتحوه بكثرة غدواتهم ورواحهم. ولما كانت مشيتهم غير المنظمة تهز المحفة، فقد استوقفهم ضابط من كتفهم وقال: سيروا بخطى عادية إذا أردتم! عصبة الغلاظ!

وقال الذي في المقدمة: اقتد بخطوتي يا فيدور، سمعت!

فأجاب الذي في المؤخرة بدعة وهو يبدل خطوته: هه، ها أنذا قد اقتديت.

وقال تيموخين بصوت متهدج وهو يجري صوب المحفة: يا صاحب السعادة! هي! يا أمير!

ففتح الأمير أندريه عينيه ومن فوق المحفة حيث كان رأسه يتأرجح، ألقى نظرة على المتكلم ثم أغمض عينيه.

نقل المتطوعون أندريه إلى الغابة التي انتشرت فيها عربات النقل والمستشفى. وكان هذا مؤلفاً من ثلاث خيام منصوبة مفتوحة قليلاً على تخوم غابة من السندر. أما العربات والجياد فكانت في الغابة. وكانت الحيوانات تلتهم علفها في أكياسها والعصافير ترفرف حولها لتلتقط الحبوب الضائعة. والغربان التي شمت رائحة الدم، تنعب بنفاد صبر. وحول الخيام، على مساحة هكتارين ونصف هكتار من الأرض، جلس أو استلقى أو وقف رجال يغطيهم الدم في أزياء متباينة مختلفة، وبالقرب منهم، وقفت جماعة من حاملي المحفات بوجوههم الكئيبة، كان ضباط النظام يبذلون ما في وسعهم لإبعادهم. فكان أولئك الجنود يصممون على البقاء هناك متكئين على محفاتهم شاخصين بأعينهم إلى المشهد الذي يدور تحت أنظارهم وكأنهم يحاولون جاهدين إدراك مدلوله الأليم.

ومن الخيام كانت صيحات وحشية تتناوب مع أنات أليمة شاكية، تتصاعد من هناك ومن حين إلى آخر، يرى عدد من الممرضين يخرجون راكضين ليحملوا الماء وليشيروا أثناء ذلك إلى الذين حان دورهم في الدخول. وعند المدخل، كان الجرحى يحشرجون ويصرخون ويبكون ويشتمون ويطلبون جرعات من الـڤودكا. وكان بعضهم في النزع. ولقد حمل الأمير أندريه بصفته قائد فيلق، بين صفوف من الجرحى الذين لم تضمد جراحهم بعد أن كانوا قرب إحدى الخيام وهناك،توقف حاملوه بانتظار الأوامر.

فتح عينيه وبقي فترة طويلة لا يدري ماذا حدث له. المرج، الأرطماسية، حقل الخرطال، الكتلة السوداء الدائرة، حبه العنيف المفاجئ للحياة، كل هذه الأشياء عادت فجأة إلى ذاكرته. وعلى قيد خطوتين منه، وقف صف

ضابط عملاق، أسود الشعر، مرتفع الصوت، مستنداً إلى لوح من الخشب. كان مصاباً برصاصات في رأسه وساقيه وقد لف بالضمادات وكان الجرحى وحملة المحفات يصغون إليه وهو يحاضر فيهم.

كان الضابط يصرخ وكانت عيناه الملتهبتان تلقيان حوله نظرات متباهية:

ـ عندما أجليناهم من هناك، انسحبوا دون أية مقاومة بالطبع حتى ولو أننا أمسكنا بأمبراطورهم نفسه لما فعلوا. ولو أن فرق الاحتياطي أطبقت في اللحظة المناسبة، إذن يا فتياني، لما ظل منهم حيّ. صدقوا ما أقول لكم.

راح الأمير أندريه، ككل أفراد الدائرة، يتأمل المتحدث وفي عينيه بريق وهو يشعر بالعزاء. قال لنفسه: «بعد كل شيء، ماذا يهمني ما سيحدث هناك وما حدث هنا؟ ومن أين لي كل هذا العناء في مغادرة هذه الحياة؟ هل في هذه الحياة شيء ما لم أفهمه، شيء ما زلت جاهله؟».

الفصل السابع والثلاثون

خرج أحد الأطباء من الخيمة ممسكاً بسيجار، بين الإبهام والخنصر، كان يخشى أن يلطخه بالدم لأن يديه الصغيرتين كانتا كمئزرة ملطختين أيضاً. رفع رأسه، وتاهت نظرته بين الجرحى. لا شك أنه كان يريد استنشاق الهواء قليلاً. وبعد أن استدار يميناً ويساراً، أطلق زفرة وعاد ببصره إلى الأرض.

أجاب ممرض دلّه على الأمير أندريه:

وأصدر أمره بإدخاله فارتفعت غمغمة بين الجرحى الذين كانوا ينتظرون. قال أحدهم: يبدو أنّ في العالم الآخر أيضاً لا توجد أمكنة إلا «للسادة».

مددوا الأمير أندريه على طاولة كانت شاغرة وقد انتهى ممرض في الحال من تنظيفها، فلم يستطع أندريه أن يميز بوضوح ما كان موجوداً داخل الخيمة لأن الصيحات المعولة التي كانت ترتفع من كل مكان والألم المحرق الذي كان يشعر به في جنبه وبطنه وظهره تشغله تماماً. ولقد اختلط المشهد الذي عرض لعينيه في شعور أوحد باللحم البشري الدامي الذي يبدو وكأنه يملأ تلك الخيمة المنخفضة، كما كان ذلك اللحم نفسه منذ أسابيع خلت، يملأ البركة الموحلة في ذلك النهار القائظ من شهر آب على طريق سمولنسك. أجل، كان ذلك اللحم نفسه لحم المدفع، الذي أثارت رؤيته في نفسه الاشمئزاز وكأنه يرى سلفاً هذا اليوم.

تركوه وحيداً بضع لحظات فاستطاع أن يرى ماذا يدور على الطاولتين الأخريين. جلس إلى الطاولة الأقرب إليه تَتَري، لا شك أنه قوقازي إذا حكمنا

على البزة الملقاة بجانبه. وكان أربعة من الجنود يحاولون تثبيته في مكانه، بينما راح طبيب يعمل مبضعه في ظهره الأسمر العاضل.

غمغم التتري فجأة: أوه! أوه! أوه!

ورفع وجهه القلزي ذا الأنف الأفطس والخدين البارزين وصرف بأسنانه البيضاء وراح يتخبط ويطلق صرخات طويلة.

وعلى الطاولة الثانية التي كان يحيط بها جمع من الأشخاص، سجي رجل على ظهره، قوي، طويل القامة، مائل الرأس إلى الوراء. لكن مظهره العام حتى لون شعره العكف لم يكن مجهولاً من الأمير أندريه. وكان عدد من الممرضين يميلون بكل ثقلهم على صدر ذلك الرجل ويمسكون به. وكانت إحدى ساقيه بيضاء وسمينة تضطرب دون توقف بانتفاضات محمومة، ويطلق شهقات تشنجية ويكاد يختنق، بينما انحنى على الساق الأخرى، المصبوغة كلها بالدم، طبيبان صامتان أحدهما ممتقع الوجه مرتعد.

في تلك الأثناء كانوا يغطون التتري بمعطفه فراح الطبيب ذو النظارتين يقترب من الأمير أندريه وهو يمسح يديه بعد أن أنجز عمله. تفحصه بنظرة ثم التفت فجأة وصاح بصوت غاضب يخاطب الممرضين:

ـ اخلعوا ثيابه! ماذا تنتظرون؟

وعندما بدأ أحد هؤلاء يحل أزرار أندريه وينزع عنه ثيابه بعجلة وقد شمر عن ساعديه، تذكر هذا أيام طفولته الأولى البعيدة. انحنى الماجور على الجرح فلمسه وأطلق زفرة عميقة ثم أشار إلى أحدهم. ولقد أفقد الألم الفظيع الذي شعر به أندريه في بطنه، أفقده الرشد. استعاد وعيه، كانت شظايا عظم الفخذ المحطمة قد انتزعت وقطع من اللحم قد بُترت وضُمدت الجراح. وضمخوا له وجهه فلما فتح عينيه، انحنى الطبيب فوقه وقبله في شفتيه دون أن ينطق بكلمة وابتعد مسرعاً.

بعد كل تلك الآلام، شعر أندريه، براحة لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل. ولقد خطرت بباله أفضل لحظات حياته وبصورة خاصة، طفولته الأولى، عندما كانوا يخلعون ثيابه ويسجونه في سريره الصغير، وتبدأ مربيته في هدهدته بالأغنيات، فيغيب رأسه في الوسادة ويشعر بسعادة الإحساس بالحياة، هذه اللحظات، خطرت بباله ليس بوصفها من حنايا الماضي بل كحقيقة واقعة.

كان الأطباء لا يزالون يحيطون بذلك الجريح الذي لم يكن مظهره غريباً عن پولكونسكي. كانوا يرفعونه ويحاولون تهدئته.

كان يزمجر بصوت يقطعه الشهيق وكأن الآلام قد هدته: أرونيها!.. أوه! أوه! أوه!

خيّل إلى أندريه وهو يصغي إلى ذلك الأنين أنه على استعداد للبكاء هو أيضاً. فهل ترى السبب أنه يموت هكذا دون مجد؟ أم لأنه يأسف على الحياة أم لأن ذكريات الطفولة تلك ترقق قلبه؟ هل السبب أنه يتألم وأن الآخرين يتألمون وأن ذلك التعس يئن بهذا الشكل الأليم؟ على أية حال، كان يشعر بحنين إلى أن يذرف دموعاً سخية، دموع الطفولة بل دموع الفرح تقريباً.

عرضوا على أنظار الجريح ساقه المبتورة التي تجمد الدم عليها في الحذاء الذي ما زال يكسوها. فأجهش كامرأة: أو! أوه! اوه!

ابتعد الطبيب فكشف بذلك عن وجه الجريح. فحدث الأمير أندريه نفسه.

ـ أوه! يا إلهي ماذا حدث؟ ماذا يفعل هنا؟

ذلك أنه تعرف في شخص ذلك التاعس الناشج المنهوك الذي فرغوا تواً من بتر ساقه، إلى أناتول كوراغين. أسندوا أناتول وقدموا له كأس ماء لم يكن يستطيع الإطباق على حافتها بشفتيه المتورمتين المرتعشتين. وكان ينتحب بشكل يمزق نياط القلوب. حدث الأمير أندريه نفسه دون أن يستوعب تماماً ما

يدور أمام عينيه: «نعم، هذا هو. نعم، إن هذا الرجل المتصل بي بشكل حميم أليم. ولكن ما هي الروابط التي تربط هذا الرجل بطفولتي؟» راح يتساءل ويسعى عبثاً لإيجاد الجواب. وفجأة، برز من ذلك العالم الطفولي المليء بالطهر والحب، وجه جديد انبعث في ذاكرته. عاد يرى ناتاشا كما بدت له للمرة الأولى في حفلة عام ١٨١٠ الراقصة، بجيدها وذراعيها النحيلتين ووجهها الفزع السعيد المتقبل للحماسة، فانبعث حبه لها بأعنف مما عرف وأقوى مما أحس من قبل واستيقظ في أعماقه. وحينئذ تذكر الرباط الذي يجمعه بهذا الرجل الذي يوجه إليه نظرته المحجوبة بالدموع. تذكر كل شيء، فملأ قلبه السعيد عطف عميق وحب كلف.

لم يستطع أن يتجلد أكثر مما فعل، فذرف دموع تحنان على الرجال وعلى نفسه، على غواياتهم وغواياته.

«نعم، الشفقة، الحب نحو إخواننا، نحو أولئك الذين يحبوننا، والحب نحو أولئك الذين يكرهوننا، حب أعدائنا، نعم، هذا الحب الذي جاء الله يبشر به على الأرض والذي سعت الأميرة ماري أن تلقنني إياه والذي لم أكن أفهمه. هذا الحب هو الذي يجعلني آسف للحياة. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان سيبقى لي لو قدر لي أن أعيش. أما الآن، فقد فات الأوان وللأسف!».

الفصل الثامن والثلاثون

أحدثت ساحة المعركة في ناپليون تأثيراً غير متوقّع، مظهر ساحة الحرب الرهيب المغطى بالجثث والقتلى، والتثاقل الذي أحسه في رأسه، ونبأ مقتل حوالى عشرين من جنرالاته أو جعلهم خارج المعركة، والاعتراف الذي توجب عليه الإسرار به لنفسه بعجز ذراعه التي كانت حتى اليوم لا تقهر. كان من عادته يحب رؤية القتلى والجرحى وهو المشهد الذي يزيد في قوة روحه كما كان يعتقد. لكن ذلك المشهد هزم ذلك اليوم قوة الروح العتيدة هذه التي كان يبني عليها عظمته. عاد مسرعاً إلى حصن شيـڤاردينو أصفر اللون ووجهه منتفخ وعيناه كدرتان وأنفه محمرّ وصوته صدئ وظل جالساً على مقعده مطرقاً بنظره، مصغياً رغم إرادته إلى ضجيج المعركة. كان ينتظر بصبر محموم نهاية تلك المسألة التي يعتقد أنه ساهم فيها والتي ليس له سلطة على إيقافها. استولى عليه لبضع لحظات شعور إنساني شخصي تغلب على ذلك السراب الذي ضحى من أجله تضحيات جمة. وعزا إلى نفسه الآلام ورؤية الموتى التي ظهرت له على ساحة المعركة فذكره رأسه المثقل ورئتاه المتعبتان أنه كالآخرين يمكن أن يتألم وأن يموت. وفي تلك اللحظة لم يعد يرغب في موسكو ولا في المجد والنصر: أية حاجة به إلى المجد! إن كل ما يتمناه الآن هو الراحة والهدوء والحرية. مع ذلك، فإنه عندما وقف على مرتفع سيميونوڤسكوي، عرض عليه قائد المدفعية إقامة بضع «بطاريات» هناك لدعم النار المسلطة على القوات الروسية المركزة أمام كيناز كوڤو، فوافق

ناپليون وأمر أن يحاط علماً بالنتائج الحاصلة. وعلى ذلك، فقد جاء مساعد عسكري يعلن أنه تنفيذاً لأوامره سدد مئتي مدفع على الروس ولكن هؤلاء لا يزالون صامدين.

قال المساعد العسكري:

ـ لقد حصدت نارنا صفوفاً كاملة مع ذلك فهم ما زالوا صامدين.

فقال ناپليون بصوته الأجش: إنهم يريدون زيادة!

سأله الضابط الذي لم يسمع الجملة تماماً:

ـ يا صاحب الجلالة؟

فكرر ناپليون بصوته الأبح نفسه: إنهم يريدون زيادة.

وأمر وهو يقطب حاجبيه: أعطوهم ما يطلبون.

لقد كان ما لم يرده يتحقق دون أمره لذلك فإنه لم يكن يتخذ من تدابير إلا لأنهم، على ما كان يبدو، ينتظرون منه أن يتخذها. ومجدداً، استغرق في سراب العظمة. وكمثل الحصان الذي يحرك عجلة دافعة وهو يظن أنه إنما يقوم بعمل مفيد له شخصياً، كذلك، عاد يقوم بوداعة بالدور القاسي الأليم، الدور غير الإنساني الذي نُذر له.

لم تكن تلك الساعة وحدها من ذلك اليوم مجال اكفهرار ذهن ذلك الرجل المسؤول أكثر من أيّ سواه عن الأحداث التي وقعت في ذلك العصر وضميره أنه لم يتوصل حتى نهاية مجده إلى تفهم الخير والجمال والحق، فكانت أعماله معارضة تماماً للخير والحق بعيدة جداً عن كل إحساس إنساني لدرجة لم يكن ممكناً معها أن يدرك مداها. ولم يكن بإمكانه أن يتنكر لمآثر تحمس لها نصف العالم فكان عليه بالتالي أن يتنكر للحق والخير ولكل شعور إنساني.

لم يكن ذلك اليوم وحده الذي بعد أن طاف فيه في ساحة المعركة

المغطّاة بالجنود القتلى أو المشوهين، وفقاً لإرادته كما كان يظن، راح يحسب فيه تخميناً عدد الروس بالنسبة إلى الفرنسيين ليخدع نفسه وليجد أسباباً لابتهاجه بزعم أن النسبة خمسة إلى واحد. ولم يكن ذلك اليوم الذي قال فيه كما كتب إلى باريس: «إن ساحة المعركة رائعة» لأنه كان ممدداً عليها خمسون ألف جثة. بل إنه في سانت هيلين أيضاً، في سكون الوحدة، حيث أراد أن يكرس أوقات فراغه لعرض الأمور الهامة التي جاء بها، كتب ما يلي:

«كانت الحرب الروسية أكثر الحروب قرباً إلى الأذهان الشعبية في العصر الراهن: لقد كانت الحرب التي أملتها المصالح الحقيقية والفكر، حرب راحة الجميع وأمنهم لأنها سليمة ومحافظة إلى أقصى حد.

«كانت الحرب الروسية في سبيل الغاية الكبرى وإنهاء الحوادث العرضية وبدء الأمان. كان أفق جديد وأمور جليلة جديدة ستظهر مليئة كلها بالهناء وراحة الجميع إذا كان النظام الأوروبي قد أقيم فلم يبق إلا تنظيمه.

«وكنت، بعد أن أطمئن إلى هذه النقاط الجليلة وأستقر في كل مكان، سأشكل كذلك مجلساً استشارياً حلفاً مقدساً[١] (Saint-Alliance) لي.

«لقد سرقوا هذه الأفكار مني، ففي اجتماع الملوك الكبار ذاك، كنا سنتحدث عن مصالحنا كأسرة وسنعالج شؤون الشعوب كما تعالج بين المستخدم ورب العمل.

«بذلك كانت أوروبا لن تلبث حتى تصبح شعباً واحداً فيجد كل واحد نفسه وهو في سفره في كل مكان أنه لا يزال في وطنه المشترك. كنت سأجعل

---

(١) الحلف المقدس نُظم عام ١٨١٥ بمسعى من ميترنيخ النمسوي بين روسيا وبروسيا ضد المحاولات التحررية، وقصد نابليون من هذا الحلف أنه سيشكل حلفاً مماثلاً يضم كل ممالك أوروبا. (المترجم).

الأنهار القابلة للملاحة في خدمة الجميع وسأقيم وحدة البحار وسأقضي بأن تقتصر الجيوش الدائمة على حرس الملوك فحسب.

«وكنت، فور عودتي إلى فرنسا، قلب الوطن العظيم القوي الرائع الهادئ المجيد، سأذيع حدوده الثابتة، وسأعلن أن كل حرب مقبلة ستكون دفاعية وكل توسع جديد هو ضد مصالح الأمة. وكنت سأشرك ولدي في الملك، فتنتهي ديكتاتوريتي ويبدأ حكمه الدستوري.

«وكانت باريس ستكون عاصمة العالم والفرنسيون قبلة أنظار الأمم!..

«وحيئنذٍ، كنت سأكرس أوقات فراغي، وأيام شيخوختي للطواف مع الأمبراطورة خلال فترة تمرين ابني على شؤون الملك، بنواحي المملكة كزوجين ريفيين حقيقيين، على جيادي الخاصة، لتلقي الشكاوى وإصلاح الأخطاء وإقامة الأنصاب والأعمال الصالحة في كل مكان».

لقد كان يحاول إقناع نفسه، وهو الذي نذرته القدرة الإلهية لدور جلاد الأمم الأليم العبودي، إن هدفه كان خير الشعوب وإنه يستطيع ترأس مصير الملايين من المخلوقات وبناء سعادتهم باستبداد!

وكتب في مكان آخر حول حملة روسيا يقول:

«من الأربعمائة ألف رجل الذين اجتازوا الفيستول، كان نصفهم بين نمسوي وبروسي وسكسوني وبولوني وباڤاري ويرتمبرجي وميكلمبرجي وإسباني وإيطالي ونابولي. وكان ثلث الجيش الأمبراطوري نفسه مؤلفاً من هولنديين وبلجيكيين وجنويين وتوسكانيين ورومانيين ومن سكان المنطقة الثانية والثلاثين العسكرية: پريم وهامبورغ وإلخ.. فلم يكن فيه إلا حوالى مائة وأربعين ألفاً من المتكلمين بالفرنسية. ولقد كلفت حملة روسيا فرنسا الحالية أقل من خمسين ألف رجل. وأضاع الجيش الروسي في تقهقره من فيلنا إلى موسكو، وفي مختلف المعارك أربعة أضعاف ما خسره الجيش الفرنسي،

وخسروا في حريق موسكو حياة مائة ألف رجل ماتوا من البرد والجوع في الغابات كما أصيب الجيش الروسي أثناء سيره من موسكو إلى الأودر بآفة الفلك فلم يصل إلى فيلنا إلا بخمسين ألف رجل لم يبق منهم عند كاليس إلا أقل من ثمانية عشر ألفاً».

كان يتصور إذن، أن تلك الحرب لم تنشب إلا بإرادته. مع ذلك، فإن الهول الذي حدث نتيجة الأمر الواقع لم ينل منه. وكان يتحمل المسؤولية الكاملة للأحداث في حين يرى عقله المغشّى تبريراً في كون الفرنسيين في عداد مئات الألوف من الضحايا، أقل عدداً بكثير من الهيسيين أو الباڤاريين.

الفصل التاسع والثلاثون

إن بضع عشرات الألوف من الرجال في ملابس متنوعة مختلفة قد تبعثروا قتلى في الحقول والمروج التابعة للسادة داڤيدوف أو لفلّاحي التاج، والتي بقي سكان بورودينو وجوكي وشيڤاردينو وسيميمونوڤسكوي قروناً كاملة يحرثونها ويرعون فيها مواشيهم. وفي المستشفيات، على مساحة أكثر من هكتار، كانت أعشاب الأرض مصبوغة بالدماء. وكانت جماعات من الجنود الجرحى أو الأصحاء يكرون راجعين مروعين بعضهم إلى موجايسك والبعض الآخر إلى ڤالوييڤو، في حين استسلمت جماعات أخرى رغم التعب الذي نالها والجوع، لأوامر الرؤساء فاندفعت إلى الأمام. وأخيراً، بقيت جموع منهم صامدة في مكانها مستمرة في إطلاق النار.

وعلى امتداد ساحة المعركة التي كانت رائعة الجمال والبهجة حتى ساعات خلت قبل بريق الحراب والأدخنة تحت شمس الصباح، انتشر الآن ضباب رطب وحلقت رائحة حادة غريبة من ملح البارود والدم. واجتمعت سحب، وراح مطر دقيق يقطر على القتلى والجرحى والجنود المنهوكين وعلى أولئك الذين يفقدون الإيمان في عزيمتهم وكأنه يصرخ بهم قائلاً: «كفى، كفى، أيها التعساء، كفوا. عودوا إلى صوابكم.. ماذا تفعلون؟».

وأخذ جنود هذا الجيش وذاك وقد ناؤوا بالتعب، يتساءلون عما إذا كان عليهم الاستمرار في تقتيل بعضهم بعضاً، فكان التردد يقرأ واضحاً على وجوههم بل إن كثيراً منهم بدأوا يطرحون على أنفسهم السؤال: «لماذا، لمن

يجب أن أقتل أو أن أقتل؟ أقتلوا من شئتم واعملوا ما شئتم، أما أنا، فقد كفاني!» وحوالى المساء، نبتت هذه الفكرة نفسها في كل النفوس فكان يمكن في كل لحظة أن يستولي الرعب على هؤلاء الناس، الرعب مما يفعلون، فيتركون كل شيء ويلوذون بالفرار تائهين.

مع ذلك، وعلى الرغم من أن كل المقاتلين شعروا عند انتهاء المعركة بخزي سلوكهم وأحسوا بالسرور لتوقفهم، فإن قوة غير مفهومة وغامضة ظلت تحركهم. ظل المدفعيون السابحون بالعرق الملطخ بالدم المسودون بالغبار يحملون وهم يتعثرون خائري القوى، ذخائر المدافع، يحشونها ويسددونها ويشعلون الفتيل بمثل تلك السرعة وتلك القسوة رغم هبوط عددهم بنسبة واحد إلى ثلاثة، فيستمر ذلك العمل المريع على الوقوع، ذلك العمل الذي لا يقوم تبعاً لرغبة الإنسان بل لإرادة ذلك الذي يدير الإنسان والعوالم.

ولو شاهد أيّ امرئ مؤخرة الجيش الروسي وما هي عليه من فوضى، لقال إن مجهوداً صغيراً من الفرنسيين قادر على إفناء هذا الجيش. ولو شاهد أي امرئ مؤخرة الجيش الفرنسي لاعتقد أن مجهوداً ضعيفاً من جانب الروس يكفي للقضاء عليه. ولكن الفرنسيين لا الروس ما كانوا يبذلون ذلك المجهود، فراح أوار المعركة يخبو تدريجاً.

كان الروس ممتنعين لأنهم لم يكونوا هم المهاجمين. لقد اقتصروا في البداية على قطع الطريق إلى موسكو فظلوا يحتلون موقعهم حتى النهاية. مع ذلك، فإنهم كانوا عاجزين عن إبداء ذلك المجهود الأخير حتى ولو كانت غايتهم هزم الفرنسيين وذلك لأن الفيالق كلها كانت في حالة من الفوضى ولأنهم اكتووا جميعهم بنار المعركة وأضاعوا، دون أن يتخلّوا عن مراكزهم، نصف عددهم.

أما الفرنسيون الذين تدعمهم ذكرى خمس عشرة سنة من النصر،

وإيمانهم بعدم إمكانية قهر ناپليون وثقتهم بأنهم سادة جانب من ساحة المعركة وبأنهم لم يخسروا إلا ربع رجالهم وأن العشرين ألف رجل الذين يشكلون فرق الحرس ما زالوا سالمين، فإنهم كانوا يستطيعون بذل ذلك المجهود. بل إن واجبهم كان يحتم عليهم بذله لأنهم هاجموا الجيش الروسي من أجل إقصائه عن مواقعه لأنه ما دام في أمكنته يقطع عليهم الطريق إلى موسكو، فإن هدفهم لما يبلغ بعد وكل خسائرهم تصبح دون جدوى.

مع ذلك، فإنهم لم يبذلوا ذلك المجهود. يؤكد بعض المؤرخين أن ناپليون لو أمر بإنزال الحرس القديم لربح المعركة. إن مثل هذا الافتراض يشبه البحث فيما كان سيحدث لو أن الخريف أصبح ربيعاً فجأة. وإذا لم ينزل ناپليون حرسه إلى الميدان فليس مرد ذلك عزوفه عن إنزاله بل استحالة إشراكه في المعركة لأن الجنرالات والضباط والجنود كانوا يعرفون أن معنويات الجيش لا تسمح بمثل هذا العمل.

لم يكن ناپليون وحده الذي لمس برؤية أن ذراعه الرهيبة تسقط الآن عاجزة، بل إن الجنرالات الفرنسيين كلهم، المقاتلين وغير المقاتلين، بعد خبرة المعارك السابقة التي كان العدو خلالها يتراجع أمام هجمات أقل عنفاً من هذه بعشرات المرات، أحسوا بذعر إجماعي إزاء عدو ظل يهددهم بقوة لم تتبدل في نهاية المعركة عن بدايتها، رغم أنه خسر نصف قواته. لقد هبطت معنويات الجيش المهاجم إزاء ذلك. إن الروس لم يربحوا في بورودينو أحد تلك الانتصارات التي تقاس بالأرض المكتسحة أو بتلك الخرق من الأقمشة التي تعلق على عصيّ والتي يسمونها الأعلام. بل حصلوا على نجاح من ذلك الوعد الذي يقنع الخصم بالتفوق المعنوي الذي يقاتل به وبعدم جدوى مجهوداته نفسها.

ولقد بات الغازي يشعر أنه ماض إلى حتفه أشبه بالوحش الغاضب الذي

أصيب أثناء فراره بالإصابة القاتلة ولكن دون أن يستطيع التوقف، تماماً كما بات الجيش الروسي، رغم ضعفه ونسبته واحد إلى اثنين مع جيش العدو، لا يستطيع أن يستسلم. لقد كان الفرنسيون قادرين جراء السرعة المكتسبة على بلوغ موسكو لكنهم هناك، دون أن يقوم الروس بتضحيات جديدة، كانوا سينفقون بتأثير الإصابة القاتلة التي أصيبوا بها في بورودينو. وكان لهذه المعركة من نتائج مباشرة أن هجر ناپليون موسكو فجأة وتقهقر عن طريق سمولنسك القديم وأضاع جيشاً قوامه خمسمائة ألف رجل وهدم فرنسا الناپليونية التي هبطت عليها لأول مرة في بورودينو ذراع خصم موهوب بقوة معنوية متفوقة.

المحتويات

الجزء السادس ٧
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ١٣
الفصل الثالث ١٧
الفصل الرابع ٢٠
الفصل الخامس ٢٤
الفصل السادس ٣١
الفصل السابع ٣٥
الفصل الثامن ٤١
الفصل التاسع ٤٥
الفصل العاشر ٤٩
الفصل الحادي عشر ٥٦
الفصل الثاني عشر ٦١
الفصل الثالث عشر ٦٥
الفصل الرابع عشر ٧١
الفصل الخامس عشر ٧٧
الفصل السادس عشر ٨١
الفصل السابع عشر ٨٦

الفصل الثامن عشر ٨٩
الفصل التاسع عشر ٩٥
الفصل العشرون ٩٨
الفصل الحادي والعشرون ١٠٣
الفصل الثاني والعشرون ١٠٧
الفصل الثالث والعشرون.. ١١٣
الفصل الرابع والعشرون ١٢١
الفصل الخامس والعشرون ١٢٥
الفصل السادس والعشرون.. ١٣٠
الجزء السابع.. ١٣٥
الفصل الأول.. ١٣٧
الفصل الثاني ١٤٣
الفصل الثالث ١٤٦
الفصل الرابع.. ١٥٠
الفصل الخامس ١٥٨
الفصل السادس ١٦٤
الفصل السابع ١٧٤
الفصل الثامن.. ١٨٥
الفصل التاسع ١٨٩
الفصل العاشر.. ١٩٤
الفصل الحادي عشر.. ٢٠٥
الفصل الثاني عشر.. ٢١١
الفصل الثالث عشر.. ٢١٦

الجزء الثامن ٢٢١
الفصل الأول ٢٢٣
الفصل الثاني ٢٣٠
الفصل الثالث ٢٣٥
الفصل الرابع ٢٤٣
الفصل الخامس ٢٤٧
الفصل السادس ٢٥٤
الفصل السابع ٢٥٩
الفصل الثامن ٢٦٤
الفصل التاسع ٢٦٩
الفصل العاشر ٢٧٦
الفصل الحادي عشر ٢٨١
الفصل الثاني عشر ٢٨٤
الفصل الثالث عشر ٢٨٩
الفصل الرابع عشر ٢٩٣
الفصل الخامس عشر ٢٩٨
الفصل السادس عشر ٣٠٦
الفصل السابع عشر ٣١٣
الفصل الثامن عشر ٣١٧
الفصل التاسع عشر ٣٢٢
الفصل العشرون ٣٢٧
الفصل الحادي والعشرون ٣٣٢
الفصل الثاني والعشرون ٣٣٧

الجزء التاسع ٣٤١
الفصل الأول ٣٤٣
الفصل الثاني ٣٤٩
الفصل الثالث ٣٥٥
الفصل الرابع ٣٦٠
الفصل الخامس ٣٦٦
الفصل السادس ٣٦٩
الفصل السابع ٣٧٩
الفصل الثامن ٣٨٤
الفصل التاسع ٣٩٢
الفصل العاشر ٤٠١
الفصل الحادي عشر ٤٠٦
الفصل الثاني عشر ٤١٣
الفصل الثالث عشر ٤١٩
الفصل الرابع عشر ٤٢٣
الفصل الخامس عشر ٤٢٧
الفصل السادس عشر ٤٣١
الفصل السابع عشر ٤٣٥
الفصل الثامن عشر ٤٤٠
الفصل التاسع عشر ٤٤٧
الفصل العشرون ٤٥٢
الفصل الحادي والعشرون ٤٦١
الفصل الثاني والعشرون ٤٦٨
الفصل الثالث والعشرون ٤٧٥

الجزء العاشر ٤٧٩
الفصل الأول ٤٨١
الفصل الثاني ٤٨٨
الفصل الثالث ٤٩٤
الفصل الرابع ٤٩٨
الفصل الخامس ٥١٣
الفصل السادس ٥٢٢
الفصل السابع ٥٢٨
الفصل الثامن ٥٣٣
الفصل التاسع ٥٤٤
الفصل العاشر ٥٥١
الفصل الحادي عشر ٥٥٨
الفصل الثاني عشر ٥٦٢
الفصل الثالث عشر ٥٦٥
الفصل الرابع عشر ٥٧١
الفصل الخامس عشر ٥٧٨
الفصل السادس عشر ٥٨٦
الفصل السابع عشر ٥٩١
الفصل الثامن عشر ٥٩٨
الفصل التاسع عشر ٦٠٥
الفصل العشرون ٦١٢
الفصل الحادي والعشرون ٦١٨
الفصل الثاني والعشرون ٦٢٤

الفصل الثالث والعشرون ٦٣٠
الفصل الرابع والعشرون ٦٣٣
الفصل الخامس والعشرون ٦٣٧
الفصل السادس والعشرون ٦٤٧
الفصل السابع والعشرون ٦٥٣
الفصل الثامن والعشرون ٦٥٨
الفصل التاسع والعشرون ٦٦٢
الفصل الثلاثون ٦٦٦
الفصل الحادي والثلاثون ٦٧٠
الفصل الثاني والثلاثون ٦٨١
الفصل الثالث والثلاثون ٦٨٤
الفصل الرابع والثلاثون ٦٨٨
الفصل الخامس والثلاثون ٦٩٥
الفصل السادس والثلاثون ٧٠١
الفصل السابع والثلاثون ٧٠٨
الفصل الثامن والثلاثون ٧١٢
الفصل التاسع والثلاثون ٧١٧

...قال صوت المعاون الذي استلقى على الأرض: .. انبطح على الأرض!

لكن الأمير أندريه بقي واقفاً متردداً. وكانت القنبلة التي لايزال الدخان يتصاعد منها، تدور كاليرمع بينه وبين الضابط عند الحد بين المرج والحقل، قرب أجمة الأرطماسية.

فكر وهو يعانق العشب وسوق الأرطماسية وخيط الدخان المتصاعد من الكرة السوداء المتحركة بنظرة جديدة، نظرة مفعمة بالرغبة: «أهو الموت؟ لا أستطيع الموت ولا أريد أن أموت. إنني أحب الحياة، أحب هذا العشب وهذه الأرض والهواء الذي أستنشقه..» .

«يا لهذا الصخر، يا لهذا الشاب الأنيق المنفتح! من يمكن أن نقارنه به في أوروبا؟ حسب رأيي لا أحد» (لينين)

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-614-432-522-3

9 786144 325223